

تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا

تأليف
الدكتور علي محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

تاريخ

الحركة السنوسية

في أفريقيا

تاريخ
الحركة السنوسية
في أفريقيا

القسم الأول

الإمام محمد بن علي السنوسي
ومنهجه في التأسيس
(التعليمي والحركي والتربوي والدعوي والسياسي)

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت . لبنان

ISBN 9953-446-70-9

الطبعة الثالثة
1430هـ - 2009م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing

جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ـ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ ـ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإهداء

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين،

وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين:

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه

الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

[الكهف: 110].

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

هذا الكتاب هو سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميت القسم الاوّل **(الإمام محمد بن علي السنوسي، منهجه في التأسيس: التعليمي، الحركي، التربوي، الدعوي).**

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب الأول من سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي)؛ أن اهتمامي بالتاريخ كانت بدايته خلف أسوار السجن السياسي في ليبيا، وقد أكرمني الله تعالى أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء بلادنا المعتقلين من ذوي الثقافات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والاتجاهات المتباينة، وقد حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم، وتاريخهم للأجيال القادمة، وقد استمعت إلى بعض أبناء الحركة السنوسية وهم يتحدثون على ما قام به الدعاة والمجاهدون من أبناء الحركة في إعزاز دين الله، ونصرة أهله والدعوة إليه في الصحراء الكبرى، وغرب ووسط إفريقيا، وبلاد الحجاز، ومصر والشمال الإفريقي، وكان لذلك الحديث أثره في نفسي، ومن ثم اهتممت بجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة السنوسية، من أجل دراستها، دراسة تحليلية وافية، والكتابة عنها، وكنت شديد

الفرح بكل معلومة أحصل عليها من أفواه رجال الحركة، فأكتبها على أوراق الصابون، وأوراق البسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، والجرافيت التي كنا نستخرجها من بطاريات الشحن الصغيرة، لأنه كان من الصعوبة بمكان الحصول على أوراق أو أقلام في المعتقل.

وبعد خروجي من المعتقل في 3/ 3/ 1988 م وقد أكرمني الله بوضوح الهدف، والشعور بوجوب الدعوة إلى الله تعالى، والاستعداد للتضحية في سبيلها.

قال الشاعر:

خرجنا من السجن شم الأنوف كما تخرج الأسد من غابها
نمرّ على شفرات السيوف ونأتي المنية من بابها

وعندما خرجنا من المعتقل، كانت الصحوة الإسلامية قد امتدت في شرايين المجتمع الليبي، لقد غمرتني سعادة كبرى بظهور التيار الإسلامي، وامتلاء المساجد وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنه بعد احتكاكي ببعض أبناء الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسنة، كما وأنني لمست انقطاعاً واضحاً عند هذا الجيل المبارك عن تاريخ أجداده وجهادهم ضد فرنسا في وسط إفريقيا والصحراء الكبرى، وجهادهم العظيم ضد إيطاليا في طول البلاد وعرضها، وجهادهم ضد بريطانيا على الحدود المصرية الليبية، وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقي إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك ازدادت قناعتي بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط، بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وبعد خروجي من بلادنا العزيزة لطلب العلم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت فكرة كتابة التاريخ قد استقرت في ذهني، وشرعت في تنفيذها مستعيناً بالله العليم الحكيم، ومتضرعاً إلى التواب الرحيم أن يلهمني الصواب، وييسر لي الأسباب، وبعد عشر سنين ظهرت تلك الفكرة بفضل الله ومنه وتوفيقه إلى حيز الوجود في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي طبع منها ستة كتب، وانتشرت في المكاتب العربية، والمعارض الدولية، ووصلت إلى كثير من القراء، فكانت بين مادح وذام، ومنتقد ومستدرك، قال الشاعر:

إن تجد عيباً فسدُّ الخللا جل من لا عيب فيه وعلا

وقال الشاعر:

من الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وقد وصلتني ملاحظات علمية قيمة أشكر إخواني على حسن نصحهم، وجميل إهدائهم، وتشجيعهم، وأدعو الله العلي الكبير أن يوفقني وإياهم لخدمة دينه وسنة نبيه ﷺ، وتاريخ الإسلام المجيد.

وها أنا الآن أقدم للكتاب السابع وقد اطلع عليه بعض المختصين بعلم التاريخ، وقد قال أحد المؤرخين: إن ما يقوم به هذا الباحث الشاب رد عملي على كل من يريد أن يفصل ليبيا عن جذورها الإسلامية الممتدة في أعماق التاريخ، ومن النوادر اللطيفة عندما كنت أكتب في هذا الكتاب طرق باب بيتي مجموعة من الشباب الليبي المهاجر، فأدخلتهم وأكرمتهم وبدأت أحدثهم عن الدرر، والجواهر، والأمجاد العظيمة التي يزخر بها تاريخ بلادنا المعاصر، فقال لي أحدهم: لا نريدك أن تكتب التاريخ وإنما نريدك أن تصنعه، فقلت لهم: أنتم تصنعونه وأنا أكتبه، فضحك الجميع، وما كانت تلك الكلمة لتثنيني عن هدفي الذي هيمن على نفسي ومشاعري وأحاسيسي، فبذلت له وقتي وجهدي ومالي سائلاً المولى ﷻ أن تكون أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

إنني كلما توغلت في دراسة التاريخ ازددت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وبناء الدول، ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم، ونشر العدل. وقد أيقنت أن الأيام دول وأن الأحداث تتكرر على اختلاف في الزمان والمكان ولكنها تتكرر في إطارها العام، والتاريخ يمد القارىء بخصائص وسمات الأحداث فيسهل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم والجماعات.

إن هذا الكتاب يعرّف القارىء الكريم بالإمام محمد بن علي السنوسي الذي يعتبره الكثيرون حامل لواء النهضة الحديثة في ليبيا، ومرسي قواعدها، وموقد جذوة الإيمان في قلوب قباتلها.

يتحدث هذا الكتاب عن حياة هذا الإمام الذي بارك الله في علمه وعمله وأحيا الله به شعباً حمل لواء الدعوة والجهاد في الصحراء الكبرى، ووسط إفريقيا، ولم يتردد في بذل ماله ورجاله من أجل نصرة دين الله تعالى.

ويسلط الأضواء على جوانب متعددة في منهج الحركة السنوسية، ليبين للقارىء الكريم أن شعب ليبيا عندما أكرمه الله تعالى بداعية رباني استطاع أن يفجر طاقته الكامنة تحول إلى مجتمع إسلامي قوي حمل مشاعل النور في قلب إفريقيا المظلمة، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الإسلام، وقارع الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي في ملحمة من أروع ملاحم التاريخ المعاصر في الصراع بين الكفر والإيمان والحق والباطل والهدى والضلال.

ويوضح للقارىء الكريم أن ابن السنوسي يعتبر رائداً من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي ووسطها وغربها، عمل على نشر الإسلام الصحيح، ومحاربة البدع، والخرافات، والشعوذة بأنواعها وأشكالها، التي لحقت به في عصورها المتأخرة في مشرقه ومغربه على حد سواء.

إن هذا الجهد المتواضع يميط اللثام عن شخصية علمية دعوية ربانية كان لها أثر ولا زال في ليبيا خصوصاً وإفريقيا عموماً، ويجيب القارىء على كثير من الأسئلة التي يحتاجها المهتمون بدراسة الدعوات الإصلاحية، والتي يبحث عن إجابتها دعاة الإسلام في ليبيا خصوصاً.

ما هي رحلات ابن السنوسي العلمية؟ وما هي العلوم التي درسها؟ ومن هم شيوخه؟ وما سر نجاحه؟ وما هي صفاته؟ وكيف تعرف على أحوال المسلمين وأخلاقهم؟ وكيف استطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؟ وما هي خطة عمله التي سار عليها؟ وهل استفاد من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتجربة محمد علي باشا حاكم مصر؟ وما هو أسلوبه في التعامل مع الدولة العثمانية، وعلمائها؟ كيف تعامل مع الطرق الصوفية، والقبائل البدوية، والقبائل الوثنية؟ وما هي حقيقة الزوايا السنوسية؟ وهل استطاع ابن السنوسي أن يجعل من قبائل ليبيا قوة إسلامية يحسب لها حسابها الإقليمي، والدولي؟ وهل كانت مفاهيم الحركة السنوسية سلفية؟ وما هي علاقة ابن السنوسي بحركة الجهاد ضد إيطاليا وفرنسا؟ وهل كان من الممكن أن يخرج أبطال الجهاد، من أمثال أحمد الشريف، وعمر المختار وغيرهم لولا الله ثم جهود ذلك المصلح العظيم؟

نعم علامات استفهام كثيرة نحاول الإجابة عليها بإذن الله تعالى.

هذا وإنني لم آتِ بجديد، وإنما وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً؛ فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من الجهود التي سبقتني، ككتاب «السنوسية دين ودولة» لمحمد فؤاد شكري، و«الحركة السنوسية»، للدجاني، و«برقة العربية أمس واليوم» للأشهب، و«السنوسي الكبير» للأشهب، و«الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، و«المجموعة المختارة» للإمام ابن السنوسي التي أعاد طباعتها محمد عبده بن غلبون وإخوانه، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، كما أنني انتهجت منهجاً دعوياً، تاريخياً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، وليس معنى هذا التحكم في الحقيقة التاريخية، بل كشف الحقائق النيرة وتجريدها مما قامت به أقلام الأعداء من الدس والكذب والافتراء والتضليل، ومساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعاً لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن الكريم، وسنة سيد الخلق أجمعين.

وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وهي كالآتي:

الفصل الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته.

المبحث الثالث: إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة.

الفصل الثاني: البعد التنظيمي، والمنهج التربوي، والبعد السياسي عند ابن السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعد التنظيمي.

المبحث الثاني: المنهج التربوي.

المبحث الثالث: البعد السياسي.

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوي، وثروته الفكرية، وصفاته الربانية، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأسلوب الدعوي.

المبحث الثاني: الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه.

المبحث الثالث: من أهم صفات ابن السنوسي.

ثم نتائج البحث.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصّلاّبيّ

المدخل

أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركة السنوسية

بدأ الضعف والانحلال يدب في أوصال الأمة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين، وطهر بلاد المسلمين منهم، ومما زاد الأمر سوءاً احتلال التتار للممالك الإسلامية، وتمزيقهم للأمة، والعمل على إزالة معالمها الحضارية، والدينية، والعلمية، وشاءت إرادة الله النافذة أن يلطف بهذه الأمة، فأكرم الله العثمانيين بالتمكين، وكان قمة ذلك التميكن في زمن السلطان محمد الفاتح الذي أجرى الله على يديه فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام 857 هـ/ 1453م، وبذلك عادت للأمة هيبتها، وقوتها، ومجدها، وعزتها، وتولى العثمانيون زعامة الأمة الإسلامية، وكان الشعب العثماني قد تميز بالحماس، وحب الجهاد، وعشق الشهادة في سبيل الله، وسلامة الفطرة، والبعد عن الأمراض الاجتماعية التي أصابت غيره من الشعوب، أضف إلى ذلك القيادة الربانية التي كانت تقود الشعب نحو ساحات الوغى، وتعمل على نشر الإسلام، وتزيل العوائق من أمام الأمم المفتوحة، ليعرض عليها الإسلام صافياً نقياً من كل شائبة، وهيمن الإسلام من جديد على زعامة العالم وقيادته، وأصبحت الدولة العثمانية تحكم في ثلاث قارات: أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وتوغلت في أوروبا، حتى بلغت الجيوش العثمانية أسوار فيينا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع، وقد جمعوا بين السيادتين: البرية، والبحرية، وبين السلطتين: الروحية والسياسية[1].

«ولكن من سوء حظ المسلمين أخذ الترك في الانحطاط ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة. وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة. وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب، وتنظيم الجيوش»[2].

وأخذت ملامح القوميات العرقية تظهر على مسرح الأحداث في الدولة، وتفجرت الثورات في البلقان، وشرعت في تشكيل جمعيات قومية سرّاً، وعلناً، وبدأت التوجيهات

---

(1) انظر: إمام التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص8،9.

(2) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي، ص148.

العلمانية تظهر في الأمة، وعمل اليهود والنصارى على تقوية هذه الاتجاهات المفسدة. فاليهود أرادوا الانتقام لأن العثمانيين منعوهم من فلسطين، والنصارى يريدون أن ينتقموا لحملاتهم الصليبية التي فشلت في تحقيق أهدافها أمام جهاد عماد الدين، ونور الدين وصلاح الدين.

كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية، تنخر في كيان الدولة العثمانية؛ فظهر من يدعو إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية... إلخ، وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، وأخذت الحركات الانفصالية تتكاثر، وأخذت الدول الأوروبية في دعمها، وتعد المشاريع لاقتسام تركة الرجل المريض، وكان العالم الإسلامي آنذاك منضوٍ تحت لواء الدولة العثمانية التي فقدت عوامل النهوض، وأهملت شروط التمكين، وتباعدت عن أسبابه، وتخلفت عن ركب الحضارة، فدخلت الأقاليم الإسلامية في دوامة التدهور، والظلام الحالك، والمحنة الشاملة، والجهل المطبق والظلم الفادح، والفقر المدقع، فتفجرت الثورات بدوافع مختلفة، فمرة بدوافع العرق والقومية، وأخرى دفاعاً عن النفس ضد الجور، والتعسف والظلم، وتارة بدافع الحقد، والتعصب، وكانت اليهودية والصليبية خلف تمزيق السلطنة، وإضعافها، فكثرت مصائبها، وتعددت جبهاتها، وأصبح مركز الخلافة مفككاً، ضعيفاً، متدهوراً، منحلاً، وقد أصيبت الولايات، كالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والشام والحجاز، بالضعف الشديد، والتدهور المريع، بسبب الظلم والاستبداد، وانتشار الجهل، وجمود العلم، وغياب القادة.

وصاحب هذا الانهيار في كيان الدولة أحداث خطيرة، كان لها أثر فعال على المسلمين وجميع جوانب حياتهم، الفكرية، والدينية، والعلمية والسياسية فمن ذلك:

أ - احتل الفرنسيون مصر عام 1798 م وظلوا فيها حتى عام 1801 م، وتمكن محمد علي باشا من الانفراد بحكمها بعد خروج فرنسا (1805 - 1848 م) وكان هذا الرجل مصيبة كبرى على الأمة، واستطاعت الدول الأوروبية، والمحافل الماسونية أن تحقق أهدافها بواسطته، فعمل على:

1 - تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كانت خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.

2 - فتح البلاد على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين، كالمحافل الماسونية، والإرساليات التبشيرية، والأديرة والكنائس، ومدارس تتعهد التيارات المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية للأمة.

3 - أتاح الفرصة لشركات أوروبية تحكمت في اقتصاد البلاد.

4 - منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع المسلمين منها.

5 - خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء، ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم السامية، وغير ذلك من المساوىء.

ب - وفي عام 1830 م احتلت فرنسا الجزائر، وفشلت الدولة العثمانية في منعها، وحاولت فرنسا جعل الجزائر قطعة منها، ثم امتد نفوذها إلى تونس عام 1881 م، ودخلت إلى السودان الغربي.

ج - احتلت بريطانيا عدن عام 1839 م وبدأت في توسيع نفوذها وسلطانها على دول الخليج العربي، وبعض بلاد الشام، وحاولت الدولة العثمانية وقف السرطان الصليبي الذي أنهك جسم الأمة ولكنها فشلت، وأصبحت الأمة تعاني من الآثار المترتبة بسبب ابتعادها عن شرع الله تعالى، فمن الناحية الاجتماعية، تفشى الجهل، وأصبح عامّاً شاملاً لكل الديار الإسلامية، وضمر الإيمان، وتقاعست النفوس، وكان النزاع بين الأمراء مستمرّاً على حطام الدنيا، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين، وولاة الدولة العثمانية همهم جمع الأموال، وتكثير الأملاك إلا من رحم الله، وأخذ الظلم الذي استشرى يعجل بزوال الدولة العثمانية، أما من الناحية العلمية، أصبحت الأمة في ليل حالك وظلام دامس، وتفشى الجهل في كل طبقات الأمة وفي جوانبها الثقافية كالأدب، والعلم، والصناعات، . . . وكان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي، وشبه الشلل الفكري، وأصبح في حالة غيبوبة، واستولى عليه النعاس الشديد، ومات فيه النشاط، والحيوية، والإبداع، والاجتهاد في العلم والدين، والأدب، والشعر، والحكمة، ودخلت الأمة في نفق التقليد الأعمى، وكان مظلماً شديد الظلمة.

وأصبحت الجامعات الكبرى كالأزهر، والزيتونة تهتم بالمتون وترقى في الشروح، ومن بلغ الذروة في العلم والمعرفة فهم ما في الحواشي، وعاش العالم الإسلامي في عزلة سياسية وعلمية مخيفة، فلا علاقة له بشعوب الأرض إلا من خلال النزاع السياسي، والصدام العسكري، فتجمدت حياته العلمية وانتهت إلى ترديد كتب وعبارات الأقدمين والمجتهد النحرير من يفهمها[1].

«وأصبح العلم مع الزمن، احتكاراً لأسر معينة، وغدت طبقة العلماء طبقة اجتماعية ذات امتيازات خاصة، واتخذت موقفاً صلباً ضد كل تجديد في عالم الفكر، فقد قاوموا إدخال المطابع إلى الدولة وطباعة الكتب الدينية الإسلامية»[2].

وكان العلماء هم المشرفون على التربية والتعليم في الدولة، ولم يستطع العلماء أن

---

(1) انظر: إمام التوحيد، ص(17).

(2) انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص(6).

يجعلوا للتعليم في المدارس والمعاهد برنامجاً متطوراً يتناسب مع عصرهم، وقد تحدث بعض المفكرين عن عيوب التعليم متخذين من الأزهر الشريف مثلاً على ما وصلوا إليه؛ فقد قال محمد خليل المرادي عن عيوب التعليم في الأزهر ما يلي:

1 - قبول أبناء الأكابر والأغنياء في الأزهر ممن لا يتمتعون بمستوى تعليمي جيد.

2 - تدني مستوى الأساتذة.

3 - استئثار بعض الأساتذة بتعليم كثير من المواد بحيث يعينون بدلاء عنهم مقابل مرتب زهيد.

4 - تحديد الموضوعات، وضيق النظر في التدريس، فقد كان الهدف في التعليم تلقي بعض المعلومات المحدودة، أما تجاوز هذه المعلومات أو مجرد التساؤل عن صحتها، فقد يثير الشكوك ومقاومة العلماء أو قد يصل إلى حد العقاب والطرد من المعهد أو فقدان مصدر العيش ناهيك عن التشهير[1]. هذه أهم ملامح الحياة الأدبية والعلمية في ذلك العصر.

أما من الناحية الصناعية:

فقد ضيع المسلمون الأعمار، وأخلدوا إلى التقليد الأعمى، ورضوا بالجمود، ولم يبتكروا في الصناعات، بل أضاعوا ما كان لديهم من صناعات قديمة، وفقدوا مهارتهم، وحاول السلطان العثماني سليم الثالث[2] أن يهتم بالإصلاح الصناعي، فأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه في مدرسة الهندسة، وألف جيشاً على الطراز الحديث فثار عليه الجيش لغرابة ذلك، وتم قتله.

ومن الناحية الدينية:

«كان علماء الدين في الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم حماة الشريعة والحريصين على التمسك بمذهب أهل السنة، إذ كان دين الدولة الإسلام ومذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي، وكان على رأس هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ووظيفته شبيهة بوظيفة الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة في ظل حكم المماليك، وكان مركزه معادلاً لمركز الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ويتمتع شيخ الإسلام بصلاحية إصدار الفتاوى في القضايا الكبرى، كأن يصدر فتوى بعزل السلطان أو إعلان الجهاد، ولكنه من الناحية العلمية يعين من قبل السلطان ويلي شيخ الإسلام في منصبه (قاضيا العسكر) في الروملي، والأناضول، وقاضي استانبول، ويليهم عدد

---

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظة، ص(15،14).

(2) انظر: ترجمته في كتاب: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، صادر عن دار المعرفة - بيروت.

من القضاة يكونون جميعاً مع شيخ الإسلام (المجلس الأعلى للعلماء)[1].

وجمد المسلمون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

وجعلوا لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتياً وإماماً، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد كلٌ ينتصر لمذهبه، وكلٌ يصلي خلف إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد، كما أن الإفتاء في أي مسألة حسب مذهب السائل، وحرم على الناس خروجهم عنها، وأغلق باب الاجتهاد بمغاليق من حديد، وكان علماء الدين كما وصفهم المؤرخ الجبرتي: (إنهم قد زالت هيبتهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآتم، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم، يتكالبون على الأسمطة، كالبهائم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين ولما وجب عليهم من النصح تاركين)[2].

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وعندما دخل نابليون بونابرت مصر غازياً، استفاد من أمثال أولئك العلماء وألف منهم ديوان القضاء وقال: «إني أستعين بهم لاتقاء أثر العقبات إذ أن أكثرها دينية، ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصاناً، ولا أن يقوموا بأي عمل حربي، وقد استفدت منهم كثيراً، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب»[3].

وليس معنى ذلك أنه لم يكن لبعض العلماء دور في محاربة نابليون، بل إن ثورات القاهرة المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي قادها علماء الأزهر، ولقد تعرضت لها في كتابي الدولة العثمانية.

لقد انتشرت في ذاك العصر الدعوات المنحرفة، والأفكار المسمومة، وكثرت مظاهر تقديس القبور، وطلب الحاجات من أصحابها وبناء القباب الضخمة عليها والصلاة حولها، وارتكاب البدع الخطيرة، وانتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عربيها وعجميها، لقد ضاع مفهوم العبادة الصحيح، والولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ، فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات أعدائها، وأطماعهم

---

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ص(12).
(2) انظر: إمام التوحيد، ص(22).
(3) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص(12).

الشريرة، فإذا نظرنا للدولة العثمانية، نجدها قد انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وكثر السلب والنهب، وفقد الأمن، وانحرف بعض السلاطين عن الصواب، يقول محمد كمال جمعة: «وكانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالجواري والسبايا، وكان بعض أولئك السبايا أجنبيات من بلاد أجنبية فكن عيوناً لدولهن على الدولة العثمانية»[1].

«وقد تعالى سلاطين هذه الدولة على الرعية فإذا خاطبوا الرعية كانوا لا يوجهون الخطاب إليها مباشرة بل يقولون لولاتهم: بلغوا عبيد بابنا العالي»[2].

وكانت الدولة العثمانية في آخر زمانها لا تحارب التصوف المنحرف بمختلف طرائقه وبصوره التي بعدت عن الإسلام بعداً شاسعاً، وكانت قد دخلت عليه عادات بعضها نصرانية، كالرهبانية، واللعب بذكر الله، وابتداع أساليب فيه، كالرقص، والغناء والصياح، والتصفيق... إلخ.

فإذا نظرنا إلى بلاد فارس، نجد الدولة الصفوية الرافضية قد عاصرت الدولة العثمانية، وكانت تدعي الإسلام وهي دولة رافضة على مذهب الإمامية وكانت تغالي في الرفض حتى أنها حاربت الدولة العثمانية - لأنها منسوبة إلى السنية - أشد الحرب بتحريض من النصارى والصليبيين، واستجابة لمعتقدهم الفاسد.

أما إذا نظرنا إلى بلاد الهند، فقد كانت الدولة المغولية، لكنها كانت بقية ورثها أبناء ملك الهند المغولي أكبر خان، وقد قرب الشاعر الشيعي المسمى الملا مبارك ووليده، أبا الفائز (وكان شاعراً متصوفاً) وأبا الفضل (وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية المنحرفة)، وجعل فتح الله الشيرازي من أكابر علماء الشيعة من فارس مستشاره الشرعي، وهو شديد الوطأة على علماء أهل السنة، وألغى اللسان العربي من بلاطه وجعل الفارسي مكانه، وكان ميالاً إلى التصوف المنحرف ويراه أرقى طريقة إسلامية، وهو على طريقة تصوف أهل وحدة الوجود، وله عقائد أخرى منها تناسخ الأرواح، أخذه عن البراهمة[3].

مما دعا الشيخ العالم ولي الله الدهلوي (ت 1176 هـ) في نهاية هذا العصر المغولي أن يقوم بجهود تكسر الجمود، وتطلق العقول لتتمشى مع صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان[4]، لكن انتهت دولة المغول في الهند، وطمعت البرتغال الكافرة في مسلمي الهند بسبب فساد ملوك

---

(1) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص(12).

(2) انظر: المصدر السابق نفسه، ص(13).

(3) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، للمودودي، ص(69 . 79).

(4) المصدر السابق نفسه، ص(79 . 80).

هذه الدولة المغولية، وقامت حروب داخلية كثيرة، وتغلب فيها الهندوس واستعمرتها شركة الهند الشرقية الإنجليزية حوالي 1175 هـ[1].

وأما المغرب الأقصى:

كانت دولة العلويين تعاني من خلافات القبائل وثورات البربر ونزاع الطامعين على العرش، وتحاول جاهدة في الحفاظ على نفسها أمام أطماع الدول الاستعمارية، وقد كان لها قبل ذلك القرن أسطول بحري قوي حمى حدودها البحرية، وفرض احترامها على الدول الأوروبية ولكنها خسرته في عهد السلطان سليمان الذي أهمله واختار اتباع طريقة عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية، وعندما حاول ابنه السلطان عبد الرحمن إعادة بناء الأسطول وقفت له تلك الدول بالمرصاد وأجبرته على التخلي عن عزمه[2].

وبدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي دولاً كلما أتيحت لها الفرصة، لقد اهتز المسلمون لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب، واطلاعهم على تقدمه، بالإضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم.

ومن هنا نبعت حركات الإصلاح التي تتابعت في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي، وتحدي العالم الصليبي الأوروبي للعالم الإسلامي واحتلاله أجزاء منه، فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم، لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعدما أطبقت الجهالة على الأرض، وخيمت الظلمات على البلاد، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين، وانطمس نور الإسلام، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبقَ سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئاً، واختفت السنة وظهرت البدعة، وترأس أهل الضلال والأهواء وأضحى الدين غريباً والباطل قريباً، حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بيأس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك.

فكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- تعد البداية الحقيقية لما حدث في

---

(1) انظر: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص(20، 21).

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(12).

العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين[1].

لقد كان أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عظيماً في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون عقيدة أهل السنة آخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد، وبدأت الأمة تلتمس كتاب الله وسنة رسوله، لتسير على هدى الإسلام الصحيح في حياتها.

وظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين، وكان لدعوته أثر في مسيرة الأمة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وغربها ووسطها، وكذلك في الحجاز وغيرها من أقطار العالم الإسلامي، ونترك للصفحات القادمة إعطاء القارىء الكريم صورة واضحة عن حياته، ورحلاته، وأعماله، وكيف عاش واقع المسلمين المؤلم، وخطر الأوروبيين المحدق، فاندفع يعمل محاولاً الإصلاح، وما العوامل التي أثرت عليه ودفعته إلى القيام بحركته؟ وما مؤلفاته وأفكاره؟ وما نظامه الحركي الذي سار عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟.

---

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (2/ 358).

الفصل الأول
الإمام محمد بن علي السنوسي

المبحث الأول
اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم

أولاً: اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن مناس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي(1).

ولد سنة 1202 هـ صبيحة يوم الاثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي ﷺ، وكانت ولادته بضاحية (مَيْثاً) الواقعة ضفة وادي شِلْف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر(2) وتوفي والده بعد عامين من ولادته، وتولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم ومنقطعة للتدريس والوعظ يحضر دروسها ومواعظها الرجال(3) واهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذي أظهر حبًا عظيماً لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيوخ

---

(1) انظر: المجموعة المختارة للإمام السنوسي، ص(7).

(2) انظر: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علي، (1/ 8).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، ص(11).

مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها مع تعهد عمته له، ومن أشهر شيوخه في تلك المرحلة، ممن أخذ عنهم القرآن الكريم مع القراءات السبع؛ محمد بن قعمش الطهراوي زوج عمته، وابنه عبد القادر وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته في الطاعون عام 1209 هـ وعمره لم يتجاوز السابعة وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الظمآن، المصباح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي، وغيرها مما هو من وظائف قارىء القرآن[1]، وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القرآن وإتقانه، شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسي في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج، وتربيته على العمل بما تعلم وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء، وتوفي ابن عمه عام 1219 هـ فجلس محمد بن علي عند شيوخ من مستغانم وهم: محيي الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولي الطرابلسي، وكلهم من جهابذة العلماء في زمانهم، ومكث يطلب العلم في مستغانم سنتين كاملتين[2].

وفي أوائل 1221 هـ خرج من مستغانم إلى بلدة مازونه ومكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشائخ هم: محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس المعسكري، وأبو المهل أبو زوينه[3].

وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها[4].

ثانياً: نبوغ مبكر:

كان الشيخ محمد بن علي السنوسي في صغره يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضي وقتاً طويلاً في التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع وكان يبحث عن عوامل النهوض، وأسباب توحيد صفوف الأمة، وإحياء الملة الإسلامية، وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالساً فوق كثيب من الرمال تظهر على صفحات وجهه المشرق علامات التفكير العميق، فلما سألوه عن السبب في ذلك، أجاب بأنه: «يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه، فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي

---

(1)و(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 10).

(3)و(4) المصدر السابق نفسه، (1/ 11).

يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد، والسبب في هذا انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم قد فرقتهم شيعاً وجماعات فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يعلمون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة. زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية، إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان، ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، ما زالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا هم لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين الوثنيين»[1].

ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، «وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق، فالإسلام في حالة التدهور المخيف». ثم ختم كلامه بقوله: «هذا ما أفكر فيه! فلما سألوه وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي ما ذكرت، أجاب: سأجتهد، سأجتهد»[2].

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة وذكر أن من أسباب هذا الضياع فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات، والتفريط في حق دعوة الناس إلى الإسلام، وضياع الأقاليم الإسلامية، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض فرأى أن بدايتها في الإيمان العميق الذي هو أساس كل خير وسبب لحصول البركات ونزول الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 96].

إن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً، وعن ضعف إيمانهم بقيمه ومثله ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته. وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعياً للتفوق[3].

(1)و(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(13).

(3) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد، ص(41).

وقد وصل إلى حقيقة مهمة ألا وهي أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة[1].

لقد كان شغفه بالعلم عظيماً ورحم الله أبا إسحاق الألبيري عندما قال:

فلو قد ذقت من حلواه طعماً ... لآثرت التعلم واجتهدتا
ولم يشغلك عن هوى مطاع ... ولا دنيا بزخرفها فتنتا
ولا ألهاك عنه أنيق روض ... ولا خدر بزينتها كلفتا[2]
فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت ولا شربتا

ثالثاً: الرحلة إلى فاس:

وكانت المرحلة الثانية في الطلب، حيث قصد مدينة فاس في المغرب الأقصى ومكث فيها سبع سنوات تقريباً، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء فاس مثل: حمودة بن حاج، حمدون بن عبد الرحمن، والطيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، وأبي بكر الأدريسي، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالي، ومحمد البازعي، والعربي بن أحمد الدرقاوي، وكان العربي الدرقاوي من شيوخ الطريقة الشاذلية، وتبحر ابن السنوسي في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين، وتحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس ونال المشيخة الكبرى بها[3] وأقبل الناس عليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة، وعقله المتنور، وفكره الناضج، وخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد أن لا فائدة ترجى من بقائه بفاس وقرر الارتحال عنا بعد أن تبلورت أصول الدعوة في ذهنه وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، وحالت بينه وبين أتباعه من أن يحقق لهم ما حققه في عهده الأول من رفعة وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمنح المسلمين القوة، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم، كما أن تجربته مع السلطان أكسبته خبرة في التعامل مع الحكام في المستقبل، ولقد لاحظ في فاس تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها وانحرافها عن كتاب ربها وسنة نبيها وكيف بدأ الغزو الأوروبي يؤثر على المدن المغربية، وكيف دخلت البلاد في الصراعات والخلافات الداخلية، ولعل الذي جعله يبقى في المغرب الأقصى مدة سبع سنين متتالية: جامع القرويين الذي وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرت بعضهم، وكان يتشوق

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص(62).
(2) انظر: عشرون قصيدة في الزهد، محمد أحمد، ص(46).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).

إلى لقائهم[1]. ولقد تعمق إحساسه بالخطر الأوروبي وشعر بالأخطار التي كانت تهدد هذه البلاد من الدول الصليبية، ولقد سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي حاقت بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن، حين احتل الإسبان أجزاء كثيرة منها، كالمرسي الكبير، ووهران، وعنابة وتنس ومدينة الجزائر، ومستغانم (مسقط رأسه) وما زالت أعمالهم الشنيعة وأفعالهم القبيحة يرويها جيل عن جيل من القتل الذريع، والسبي الشنيع، وإهدار كل حرمة، وتحويل المساجد إلى كنائس، كانت تلك الأمور محل تأمل وتفكر من قبل ابن السنوسي[2].

لقد كانت تجربة فاس ثرية بالنسبة لابن السنوسي وقد نقل لنا شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي ما درسه جده في فاس والشيوخ الذين أخذ عنهم فقال: «ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه «مختصر السعد»، و«جمع الجوامع»، و«السلم»، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون بأسانيدهم السابقة وغيرهم من أماثل علماء فاس. ومنهم العلامة المتقي المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريس حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها والأسطرلابيين وصناعتها والعلوم الأربعة: الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة، والأرثماطقيقي والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الأحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر، والمقابلة وغيرها.. إلخ»[3] ولقد بقي ابن السنوسي مهتمًا بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه.

ويمكن للباحث أن يلاحظ عدة عوامل أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، وظهور خطوط واضحة بعد انتهاء تجربة المغرب الأقصى في فاس، أما العوامل التي أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر فمنها:

1 - ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، وتأثره بتاريخ أجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولذلك صمم على السير في طريق أجداده ولقد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه «الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية».

2 - نشأته في بيئة علمية حببت إليه العلم وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة، فأبوه وعدد من أجداده كانوا من الفقهاء والعلماء.

3 - تأثره بعمته فاطمة التي أشرفت على تربيته في طفولته الأولى وقد بقي ابن السنوسي في كهولته يذكر بعض توجيهاتها له.

(1) انظر: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية، للحاجري، ص(278).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(279).

(3) انظر: الحركة السنوسية للدجاني، ص(47) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي.

4 - التقاليد والأعراف التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل شخصيته، من ذلك اهتمام الأسرة بتربية علمية عملية فيها الدراسة وفيها الفروسية[1].

5 - تأثر ابن السنوسي مما كان يراه من ظلم الولاة العثمانيين، ومن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدهم.

6 - لمس أطماع الدول الأوروبية في بلاده.

وأما الخطوط العريضة التي اتضحت في شخصيته بعد الإقامة بفاس فمنها:

1 - الصوفية التي تعمق ابن السنوسي في دراستها وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت فاس مركزاً نشطاً للطرق الصوفية، وميداناً خصباً لنشاطها، ومعلوم لدى الباحثين أن الشمال الإفريقي على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى أهلها اهتمام كبير بها. وكان من الطبيعي أن يتأثر ابن السنوسي بالنظام المغربي للصوفية. ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى آخر حياته وبقي خطها واضحاً في شخصيته حتى أنه نظم طريقة خاصة عرفت باسمه وكتب كتاباً سماه (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) تحدث فيه عن الطرق الصوفية عامة ووصف الطريقة المثلى التي رضي بها والتي عرفت بنسبتها إليه[2] وكانت تجربته في الصوفية قد أعطته خبرة في التعامل معها فهو لم يقبل الصوفية على إطلاقها، ولم يرفضها بالجملة، بل قيدها بالكتاب والسنة وجعل طريقته مبنية على «متابعة السنة في الأقوال والأحوال والاشتغال بالصلاة على النبي في عموم الأوقات»[3] وقد اهتم بالصوفية اهتماماً كبيراً وظهرت هذه النزعة في منهجه التربوي الذي جعله لأتباعه والذي سنفصله في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

2 - اهتمامه بالدراسة الفقهية، فقد واصل ابن السنوسي في فاس دراسته الفقهية على المذهب المالكي ودرس كتب الفقه على يد شيوخه وقد ذكر في مقدمته «للموطأ» أنه أخذه على طريقتي المغاربة والمشارقة، وذكر اثنين من شيوخه المغاربة وهما محمد بن عامر المعداني، ومحمد بن عبد السلام الناصري، ولقد ظهرت سعة اطلاعه في الفقه المالكي وفقه المذاهب الأخرى في تآليفه، ولقد بقي اهتمامه بالجانب الفقهي حتى آخر حياته، واستمر على المذهب المالكي مع اجتهاده فيه ومخالفته للمالكية في مجموعة من المسائل سنبينها في الصفحات القادمة إن شاء الله، ونلاحظ بأن اهتمام ابن السنوسي بالتصوف والفقه أكسبت حركته طابعاً مميزاً، فهو لم يغلُ في صوفيته ولم يغرق في شطحاتها، كما أنه لم يغل ولم يقف عند الحروف

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(43).
(2) إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، للقطان، ص(109).
(3) انظر: السلسبيل، ص(7).

الفقهية ولم يتجمد في فهم أحكامها، بل زاوج بين دراستها، فأكسب صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع وأعطى فقهه رونقاً وروحانية متألقة بعيدة عن الجمود.

3 - اهتمامه بالحركات الإصلاحية، والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح وتنظيم تكتل شعبي يسند هذه المطالبة ويعززها، فقد زاد هذا الاهتمام بفاس عاصمة الدولة المغربية ومركزها المهم في نشر الوعي، وإشعاع العلم[1].

يقول الدكتور محمد فؤاد شكري: «ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطاً جناحه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طرًا هي كل ما يريد في حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى، ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية، قد تعصف بالسلطنة.

وعلى ذلك فقد شددت الحكومة في مراقبة السيد، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس وقرر الارتحال»[2].

رابعاً: الأسباب التي جعلت ابن السنوسي يغادر فاس:

في عام 1235 هـ[3] غادر ابن السنوسي فاس إلى الجزائر وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب جعلته يغادر فاس منها:

1 - أن فتناً كثيرة ثارت في فاس، حيث عمت الفوضى المدينة واضطر أهل الحل والعقد أن يقوموا بضبطها. ثم حدثت فتنة أخرى بسبب نزاع جرى بين القاضي والمفتي رفع أمره للسلطان سليمان فأخر المفتي عن الفتوى، فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله[4]، ثم اضطرمت نار الفتنة حتى انتهت بخروج أهل فاس على السلطان سليمان، وعزموا على بيعة المولى إبراهيم بن يزيد زوج ابنة السلطان، فامتنع أولاً فهددوه قائلين: «إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس ﷺ» فخاف خروج الأمر من بينهم فوافق[5]، وكان من العلماء الذين حضروا البيعة

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(51).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).

(3) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، ص(66).

(4) انظر: الاستقصاء، للناصري، (8/ 146).

(5) انظر: الاستقصاء للناصري، (8/ 150).

محمد العربي الدرقاوي وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسي، ولم يكن دور ابن السنوسي كبيراً في تلك الأحداث، وكانت الأحوال في فاس تدعو ابن السنوسي للمغادرة وخصوصاً بعد أن استطاع السلطان سليمان استعادتها ودخول شيخه الدرقاوي إلى السجن وتزعزع مركز العلماء والطلاب الذين وقفوا ضد السلطان سليمان، ولا شك أن تلك الأحداث أكسبته خبرات كثيرة وأضافت إلى رصيده تجارب مهمة في حياته المستقبلية[1].

2 - ومن الأسباب التي شجعت ابن السنوسي على مغادرة فاس أنه كان قد أخذ حظّاً وافراً من الدراسة على علمائها وتاقت نفسه للأخذ على علماء جدد، ولذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في أعماق صحراء الجزائر ليتعرف على أشهر الزوايا وليقابل مقدميها حتى بلغ عين مهدي[2]، مكث فيها مدة قصيرة ثم قصد «الأغوات» التي كانت تمتاز بموقعها في جنوب الجزائر بوصفها ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربي. وفيها مكث بعض الوقت يلقي دروساً في الفقه والشريعة ثم ارتحل منها إلى مسعد ثم إلى جلفة ثم إلى بوسعده وهو في أثناء رحلته يوعظ ويدرس ويفقه الناس بأمور دينهم[3] وكان لرحلته في جنوب الجزائر أثر في نضوج شخصيته، وفي إعداده لما أخذ نفسه بها، فها هو ذا يشهد ذلك العالم الذي يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذي عهده في مدن الجزائر وفي فاس بالمغرب الأقصى، وها هو ذا يرى ميادين جديدة للدعوة والإصلاح تتفتح له، عالم بدوي بعيد عن صور الحضارة وتعقيداتها، ثم هو في الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية.

وقد كانت تلك البوادي، على سكونها وهدوئها، تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمال التجارية، وكانت الزوايا الدينية التي يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هي أهم مراكز هذه الحركات، أو لعلها المراكز الوحيدة لها، وكانت هذه الزوايا، أو هذه المراكز الثقافية، تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال، وتنتقل بواسطتها السلع في قوافل ما تزال رائحة وغادية.

وفي هذه الزوايا يلتقي رجال القوافل القادمون من الجنوب والعائدون من الشمال، يجلسون إلى شيوخها، ويستروحون بالتلقي عنهم، والانغمار في جوهم، ويتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاءوا منها أو مروا بها وبذلك كانت تلك الزوايا محلاً ثريًا غنيًا بالمعلومات[4] وأخبار الشعوب الإسلامية، وفي هذه الزوايا كان نشاط ابن السنوسي في

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(55).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(57).
(4) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(281، 282).

السودان الغربي يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وقد أيقن أن من عوامل نهوض الأمة القيام بهذا الدور العظيم، فإن الإسلام الذي آمن به ابن السنوسي لا يكتفي بأن يكون في نفسه صالحاً مهتدياً، وإنما يريد منه أن يكون مصلحاً هادياً، متسلحاً بالعلم، ومتحلياً بالحلم، ومتجملاً بالصبر، ومتحرراً من كل القيود التي تشده إلى الأرض، وتقعد به عن كلمة الحق، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر، وفي كل البقاع، لم يبال ابن السنوسي بالتعب والنصب في سبيل رسالته ودعوته بل كان محتسباً الأجر والمثوبة عند الله تعالى وكان يرى أن شرفه منوط بأداء تلك الرسالة المقدسة.

وقد مكث في تلك الديار ما يقارب العامين معلماً ومربياً وداعياً.

ولقد استفاد من هذه التجربة دروساً عظيمة جعلته يركز في مستقبله على دعوة البادية لما رأى فيهم من صفاء الفطرة، وجمال الخلق، وحب التدين وبعدهم عن الفساد وتعقيد الحياة الاجتماعية وسيطرة الأهواء السياسية، كما لاحظ ذلك في المدن التي عاش فيها[1].

3 - ومن الأسباب التي جعلته يغادر فاس رغبته الملحة لحج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبي ﷺ ولذلك غادر بلاد السودان الغربي في رفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق[2].

خامساً: رحلته إلى المشرق:

كان التفكير عند ابن السنوسي للسفر إلى مكة طبيعيّاً، فهو من ناحية لا بد أنه تاقت نفسه إلى بيت الله الحرام وحلم طويلاً بالعيش في الأراضي المقدسة، وقضاء فريضة الحج. كما أنه رأى في الإقامة بمكة فرصة للقاء كبار علماء العالم الإسلامي وقد استقرت في نفسه نصيحة أحد شيوخه إذ قال له: «إن الارتحال المستمر صعب فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا السفر إلى مكة حيث يلتقي جميع علماء المسلمين»[3]. بالإضافة إلى التعرف على الشعوب الإسلامية عن قريب.

وقد ذكر بعض المؤرخين[4] أن ابن السنوسي قبل أن يسافر إلى المشرق رجع إلى بلده مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له إذ بنى بإحدى بنات عمومته ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه واحتكم للقضاء فحكم له بالأملاك والريع ولأقاربه بالسجن، فتنازل عن الريع وطلب إخلاء سبيلهم فكان له ذلك. ثم أنه بعد ذلك صفى أملاكه وانتقل إلى جهة

---

(1) دراسات وصور، للحاجري، ص(282).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(283).

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(59).

(4) منهم: أحمد الدجاني.

قسطنطينية وجاء عند عرب اسمهم أولاد نايل كانوا في جنوب شرق القسطنطينية فبنى عندهم زاوية ومارس هناك الوعظ والتعليم والإرشاد.

وقرر ابن السنوسي بعد ذلك الارتحال إلى مكة وعرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب في ذلك، فرأى أن يطلقها لعلمه بطول المدة التي يرغب فيها بالانقطاع عن بلده[1] وولد له من زواجه الأول طفل توفي وهو صغير ثم ماتت أمه بعد ذلك[2].

وغادر ابن السنوسي الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه وطلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب وكان ذلك في حكم يوسف القرمانلي الذي كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله ومكث في مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم ونفع العباد ولم يترك بها مسجداً معروفاً إلا ألقى فيه دروساً، وتعلق به آل المنتصر وأصبحوا فيما بعد هم النائبون عنه في طرابلس، وسافر إلى زليطن للوعظ والإرشاد والدعوة واستطاع أن يكسب لدعوته أنصاراً من مصراته وزليطن وطرابلس، ومن أشهر الأسر التي أصبحت من ركائز الدعوة السنوسية فيما بعد: آل المحجوب، وآل الأشهب، وآل الدردني، وآل عمران بن بركة، وآل يوسف، وآل ابن فرج الله وآل المقرحي وآل الثني وآل الغرياني وآل العيساوي وآل الغزالي وآل الهوني وآل الزناتي[3] وساعده على تعلق الناس به خلق كريم، وطلعة بهية، وقبول من رب العالمين.

ونستطيع أن نحدد تاريخ دخول ابن السنوسي طرابلس الغرب من حديث حفيده أحمد الشريف الذي تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة «فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادماً من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والألف في بلده زليطن بغرب طرابلس الغرب»[4].

ومن خلال مروره على طول الساحل الإفريقي تعرف على أحوال مسلمي المغرب وكون فكرة عن أوضاعهم، وأتاحت له تلك الرحلات التعرف على أناس كثيرين وعلى أماكن كثيرة، وقد استفاد من هذا التعارف فيما بعد عند عودته من الحجاز، وكان من طبيعة ابن السنوسي أن يوطد علاقاته بمن يتعرف عليهم ووثق صلته بأشخاص كثيرين، ونجح في كسب قلوب الكثيرين حتى أن رجلاً كعمران بن بركة كان يريد مرافقة ابن السنوسي ولكنه طلب منه التريث والانتظار حتى يرسل له[5].

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(58).

(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/13).

(3) المصدر السابق نفسه، (1/15، 16، 17).

(4) انظر: أحمد الشريف، ص(8) نقلاً عن الدجاني، ص(59).

(5) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(60).

وواصل ابن السنوسي سيره ودخل برقة وقبل وصوله إلى مدينة إجدابية مر على نجع شيوخ المغاربة الشيخ علي لطيوش فأكرمه وقام بخدمته خير قيام دون سابق معرفة ورافقه إلى جالية وجهزه إلى أوجلة، ولم يمر ببنغازي ولا الساحل وتعرف على الشيخ عمر بوحوا الأوجلي وكان في رفقته عبد له، وعبد الله التواتي واستمر في رحلته مع الصحراء بواسطة القوافل حتى وصل القاهرة[1].

سادساً: دخوله القاهرة:

دخل ابن السنوسي مصر وكان الحكم آنذاك لمحمد علي باشا وكان صاحب الجولة والصولة، وكان ذلك في عام 1239 ./ 1824 م وكان محمد علي باشا قد قبض على زمام الأمور في مصر بقوة منذ سنة 1805 م وكانت فرصة لابن السنوسي ليتعرف على تجربة محمد علي باشا عن قرب، وقد لاحظ ابن السنوسي عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا وطريقة الإصلاح وازدادت قناعة ابن السنوسي فيما بعد بخطورة حركة محمد علي باشا التي كانت سياسته تخدم أعداء الإسلام وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية ما زالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم، لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة محمد علي باشا:

1 - تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.

2 - فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نشطت في بذر التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية. وقد فصلت ذلك في كتابي «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط».

3 - إتاحة الفرصة لشركات أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

4 - منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

5 - خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة[2].

وأما حالة الأزهر في ذلك الوقت فقد كان في انحطاط، فالعلوم التي تدرس فيه تراكم

---

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 15 إلى 21).

(2) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي الصلابي، ص(590).

عليها الغبار لقدمها وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد، أما علماء الأزهر فقد عمل محمد علي باشا على إضعاف دورهم ووقعت بينهم المنافسات والضغائن واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم، وعمل محمد علي باشا على تقويض صف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة[1]، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه. . . ، فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره»[2].

وقد أصيبت العلوم الدينية في الأزهر بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل منها:

1 - الاهتمام بالمختصرات:

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة من أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها»[3].

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية، والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً»[4].

2 - الشروح والحواشي والتقريرات:

انتشرت الشروح والحواشي والتقريرات في تلك الفترة في الأزهر الشريف وفي عموم الأمة، فكانت كالأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم، وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم بعيدة عن منهج أهل السنة والجماعة، وكان الأزهر مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام وأصيبت المناهج الإسلامية بالإضافة إلى الجمود بموجة من الجفاف: «. . .وأصبحت الدراسات

---

(1) الدولة العثمانية، ص(590).

(2) انظر: عجائب الآثار، (3/ 134).

(3) انظر: واقعنا المعاصر، ص(56).

(4) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (1/ 86).

الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها...»[1].

3 - الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في الأزهر في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات، فكانت تعطى جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرس الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة، فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره[2].

فكان ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم، كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهمّاً من عوامل انحدار المستوى التعليمي وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع[3].

4 - رفض فتح باب الاجتهاد:

أصبحت الدعوى لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكانت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المغتربون بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادىء والنظم من أوروبا ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا. «فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته فما يحدث؟.

يحدث أحد الأمرين:

إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها، وإما تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يغطيها، وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر.. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة»[4].

---

(1) المجتمع الإسلامي، محمد المبارك، ص(210).

(2) الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (2/ 59).

(3) المصدر السابق نفسه (2/ 64).

(4) انظر: واقعنا المعاصر، ص(159).

لقد عانت الأمة من غلق باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطِ هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم: «وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرف الإنسانية من قبل وكان من هذا أن مضى الناس ـ من غير المسلمين ـ يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً، وهكذا سار الناس من غير المسلمين قدماً في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون»[1].

5 - التعصب المذهبي:

استمر التعصب المذهبي في الأزهر يضعف المستوى التعليمي، وانحدرت العلوم، وتكبلت العقول والأفهام وفرق بين كلمة المسلمين وأفسد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر، فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[2]. إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام...[3].

وكانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض من أهمها:

1 - أن المسلمين كانوا في حاجة ضرورية إلى العلماء الربانيين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم.

2 - أهمية إحياء مبدأ الشورى على مستوى الحكومات وخطورة الحكام المستبدين الذين يتحكمون في رقاب الأمة باسم الإسلام.

---

(1) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص(144).

(2) انظر: عجائب الآثار، (2/ 242).

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (2/ 86).

3 - خطورة جمود العلماء وتعصبهم وتقاعسهم في نشر العلوم النافعة بين جميع طبقات الشعب.

4 - أهمية تعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب، وتحبيب عوام المسلمين في الفروسية، والرياضة واستعمال السلاح.

5 - خطورة التسويف وترك العمل الجاد الخلاق.

وقد عمل ابن السنوسي في تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه وظهر بهذه النتيجة التي تقول: أنه في حاجة ملحة إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التي استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبا هو وليد العلم الذي سبب لهم التفوق في مجال الصناعة والرياضة، والفنون الحربية العملية وقد لمس ذلك في المشاريع التي أشرفت عليها فرنسا وبريطانيا في مصر في زمن محمد علي باشا.

والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم المسلمين وعدم اتحادهم: اختلاف المذاهب وكثرة الطرق، والحكم الفردي الاستبدادي، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

وبعد هذه التجربة القصيرة في مصر قرر مواصلة سفره إلى الحجاز بعد أن أقام عاماً واحداً وقد أحدثت زيارته لها آثاراً في نفسه من ذلك أنه ازداد إيماناً بأن دولة الخلافة كانت في طريق الانحلال والاضمحلال، وقد ذكر المؤرخ التركي أحمد حلمي قوله: «وأحدثت هذه الزيارة في نفسه تبدلاً عظيماً وانتقش في ذهنه أن الدولة العثمانية في طريق الانحلال والاضمحلال»[2].

لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها[3].

سابعاً: دخول الحجاز:

دخل ابن السنوسي الحجاز وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها، وساعد على هذا جملة أسباب:

1 - استطاع ابن السنوسي أن يتحصل على أنباء عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين إلى مكة.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(18).

(2)و(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(65).

2 - أتيحت له فرصة طيبة للاحتكاك بعلماء وفقهاء ومفكري الأمة، وتبادل معهم الآراء والأفكار في كيفية النهوض وإعادة مجد الأمة.

3 - كانت مكة منبراً مهمّاً للدعوة ولذلك اشتغل ابن السنوسي بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية حتى حذق مخاطبة جميع العالم الإسلامي.

4 - أتيحت له دراية بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قرب وعاشر أتباع الدعوة السلفية ومريديها وتتلمذ على علمائها وشيوخها ودرس الحركة السلفية دراسة واعية في مواقفها السياسية واجتهاداتها العملية.

5 - شيوخه في مكة:

أقبل ابن السنوسي في مكة على العلماء يتعرف عليهم ويأخذ عنهم، لقد كان تشوقه للعلم في أخذه يبدو جليّاً في أي مكان حل فيه، وكانت مكة تضم عدداً من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة، ففيهم الصوفي وفيهم المذهبي وفيهم السلفي، وهذا جعله يطلع على معظم الاتجاهات في عصره، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

1 - أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها.

2 - أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار، وقد ذكرهما في رسالته التي كتبها كمقدمة لموطأ مالك باعتبارهما العالمين اللذين يروي الموطأ عنهما من المشارقة.

3 - أحمد الدجاني، حيث أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية.

4 - أحمد بن إدريس من أفضل شيوخ ابن السنوسي وقد تأثر به ابن السنوسي تأثراً عظيماً، وقد أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية، ودرس عليه الحديث والسنة، ولد محمد بن إدريس سنة 1173 هـ بميسورة[1] أصله من المغرب الأقصى وتلقى العلم على أكابر علمائها ثم هاجر إلى مكة واستقر في الحجاز، وأصبح من علماء وقته، ومر هذا العالم بالجزائر وتونس وطرابلس وبنغازي سيراً على الأقدام، واستقر فترة من الزمن في بنغازي، ثم رحل إلى الإسكندرية بحراً، وأثنى على أهل بنغازي وأهل الجبل الأخضر لما رأى عندهم من محبة الخير والصلاح وقال فيهم: «هذه بلادنا فيها تحيا أورادنا، حيها سعيد وميتها شهيد، طوبى لمن أراد الخير لأهلها وويل لمن أراد الشر بأهلها»[2].

---

(1) انظر: الدجاني، ص(67).

(2) انظر: الفوائد الجلية، ص(24).

ودخل الحجاز واستمر يتنقل بين مكة والمدينة والطائف ما يقارب ثلاثين سنة واستفاد منه خلق كثير من أصقاع العالم الإسلامي، من مصر، والسودان، والهند، واليمن، وبلاد المغرب وغيرهم وكان دخول الحجاز عام 1213 هـ[1].

وعندما دخل سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز عام 1221 هـ لم يتعرضوا للشيخ أحمد بن إدريس بأذى وكذلك أتباعه، وقد وصف ابن إدريس بأنه ذو ميول سلفية.

قضى ابن السنوسي سنوات عديدة مع أستاذه ابن إدريس إلى أن اضطر الأخير إلى الارتحال من الحجاز: «وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن إدريس من عنف السلطات الحكومية، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه مع ما اعتاد عليه هؤلاء من أزمان طويلة حتى صاروا يعدونه مبتدعاً ثم انقلب نقدهم اضطهاداً اضطر فيه السيد ابن إدريس لمغادرة مكة إلى صبيا العسير» وكانت (صبيا العسير) ضمن أملاك الدولة السعودية ومبادىء الدعوة السلفية متمكنة في نفوس أهلها وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية في مكة وأتباعها.

إن ارتحال أحمد بن إدريس إلى صبيا دليل على حسن الصلة التي بينه وبين أتباع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2] وسافر ابن السنوسي مع أستاذه إلى صبيا وأقام معه هناك حتى وفاته[3].

إن تتلمذ ابن السنوسي على أحمد بن إدريس أفاده كثيراً وقد توثقت العلاقة بين ابن السنوسي وشيخه ابن إدريس وأصبحت علاقة قوية جدّاً يوضحها أحمد الشريف في كتابه «الأنوار القدسية» ما نقله عن ابن إدريس: (. . . أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله، إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فإنه النائب عنا قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مراراً أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم نر فيه المصلحة إلا هو. . . ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله فقد قام امتثالاً لأمره فلم يكن له غرض في طلب دنيا ولا طلب جاه)[4].

لقد أخذ ابن السنوسي من شيخه الإذن لإعطاء العهود وتلقين الذكر فأذن له وأمره (أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله)[5] ولم يلبث ابن السنوسي طويلاً بعد ذلك حتى بنى

(1) الفوائد الجلية، ص(21 إلى 23).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(101).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(21).
(4) انظر: الأنوار القدسية مخطوطة، ص(68).
(5) المصدر السابق نفسه.

أول زاوية له في الحجاز وباشر الدعوة في حياة شيخه ابن إدريس، وشرع ابن السنوسي في إلقاء الدروس في مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم، ويعتبر المؤرخون زاوية أبي قيس أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة واختياره لنظام الزوايا كوسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره، ومكث في الحجاز في رحلته الأولى خمسة عشر سنة استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع والمريدين أعداداً كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه واقتفاء السلف الصالح في إرشاده وتعليمه، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه، وزاد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته، وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله، وكان ابن السنوسي على اتصال مستمر بأبناء ابن إدريس في صبيا وهي تابعة للحركة السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهكذا كثرت الصعاب والعوائق في طريقه وفكر في الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر، ولا شك أن إقامته الطويلة في مكة أثرت على جوانب كثيرة في تفكيره ووجهت اتجاهه الإصلاحي الوجهة التي سار عليها، فهناك في مكة أخذ كفايته على العلماء، ودرس معظم الاتجاهات الفكرية، والتقى بأستاذه ابن إدريس وكذلك بوفود الحجيج القادمين من مدن وقرى العالم الإسلامي وتعرّف على أحوالهم، وزاد فهماً للداء الذي ينخر فيهم، وكانت هذه الجموع من الحجيج تربة خصبة استطاع أن يبذر فيها دعوته واختار منهم من يصلح لمعاونته[1].

ولم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده وأشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام، وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: «إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد» فكان هذا سبباً في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه، ومعلوم لدى الباحثين جهاد عبد القادر محيي الدين الجزائري في الجزائر[2].

زواجه الثاني:

وفي فترة إقامته في الحجاز تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية وقد

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(72).

(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 44).

تم بتزويجه أستاذه ابن إدريس الذي رآه يعيش عزباً منذ طلاقه لزوجته الأولى، وكانت السيدة خديجة تتصف بالتقوى والصلاح. وقد قامت بدورها نحو زوجها فهيأت أسباب الراحة له ورافقته في رحلاته، ورضيت بأسلوب حياته الصعب الذي يتصف بالانتقال المستمر والعمل المرهق. وقد توفيت فيما بعد بالجغبوب بعد وفاة ابن السنوسي بحوالي عشرين سنة عام 1269هـ[1].

ثامناً: رحلته من الحجاز إلى المغرب:

تضافرت عدة أسباب دفعت ابن السنوسي لمغادرة مكة منها: توفي أستاذه أحمد بن إدريس، عداوة شيوخ مكة وعلمائها لما كان يطرحه ابن السنوسي، خوف الحكومة العثمانية من علاقته بأبناء أحمد بن إدريس في عسير وهي أرض تابعة لأتباع الحركة الوهابية، دعوة مريديه من أهالي المغرب لزيارة بلادهم، وأضاف عبد القادر ابن علي رغبة ابن السنوسي للجهاد في بلاده ضد الفرنسيين؛ فعقد النية وصمم على السفر للاشتراك في جهاد فرنسا في الجزائر، والتحق بركبه عدد كثير من أتباعه وإخوانه، وعين الشيخ عبد الله التواتي على زاوية أبي قيس بمكة للقيام بشئون الأتباع وكان سفره ذاك في آخر عام 1255 هـ في 26 ذي الحجة حسبما هو مذكور في مذكرة مرافقه الشيخ محمد بن صادق البكري، ثم سافر إلى مصر من مكة ومعه عدد كبير من الإخوان وذلك آخر عام 1255 هـ ودخلها أول عام 1256 هـ وزار الجامع الأزهر وألقى دروساً نافعة ووقف أحد كبار مشايخ الأزهر وقال: «أنصتوا أيها العلماء لقد حل بين أظهركم عالم الأمة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية:

إذا صلصل الباز فلا ديك صارخ ... ولا فاخت في أيكة يترنم

ألا وهو الشيخ الكامل سيدي محمد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي، فارتج الجامع بعلمائه، ولم يمكث الشيخ بمصر غير مدة قليلة ثم سافر»[2].

وتعرض ابن السنوسي لهجوم الشيخ عليش المالكي بسبب دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد، وقد ذكر محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية» أن ابن السنوسي تعرض للقتل: «ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(72).

(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص(150).

خرق حرمة الدين وتبع سبيل غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقاهرة»[1].

وقد تعرض الشيخ ابن السنوسي في مصر لمرض اضطر على أثره أن لا يأكل شيئاً من الزاد سوى مقدار بسيط من الحليب صباحاً ومثله مساءً فقط وكان الذي يقدم له الحليب رجل تركي، فوضع له سمّاً في الحليب فلما شرب منه سقطت أسنانه في الإناء واشتد به الألم حتى يئس منه جميع الإخوان، وأخيراً منّ الله عليه بالشفاء بعد معالجات، إلا أنه سبب له مضاعفات من جسمه تخرج على جلده جبة (أي قشرة تشبه جبة الحنش) وصارت له عادة يسلخها رأس كل عام وقت أخذه لذلك (الحليب)، ولما تحسنت صحته أرسل للشيخ عبد الله التواتي في مكة ولما حضر إليه أرسله إلى قابس بتونس يرافقه بعض الإخوان ومعهم زوجته الحبشية وأمر بعض الإخوان أن يواصل رحلته إلى الجزائر[2].

وكان ابن السنوسي في سفره ذلك قبل ذهابه إلى مصر قد قصد المدينة المنورة للوداع ثم نزل ببدر وكان يقصر ويجمع في الصلاة، وإن حصلت له إقامة ببلد في طريقه استمر على ذلك يقصر ويجمع إلى تسعة عشر يوماً، تارة يجمع جمع تقديم وتارة جمع تأخير، وهو في عمله هذا يخالف المالكية ويتبع الأحاديث الواردة في قصر الصلاة وجمعها بعد أن اعتقد صحتها[3].

وبعد الشفاء من مرضه اجتهد في الدعوة إلى الله وتعليم الناس وإرشادهم وأقام مداداً متفاوتة في عدد من المدن والقرى فترك في كل منها ركائز وأنصاراً، وقد تميز أسلوبه الدعوي بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلي[4].

وواصل ابن السنوسي رحلته برّاً من سيوه إلى جالوا ثم أوجلة وكان يرافقته الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدي الفيلالي، ثم توجه إلى برقة ونزل على نجع عائلة اللواطي من العواقير، ففرحوا وقاموا بإكرامه ورفقائه ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة فنزل على الشيخ علي لطيوش فأكرم ابن السنوسي ورافقه إلى محل يسمى الهيشة ما بين سرت ومصراته، وهناك قابله آل المنتصر ومعهم أعيان مصراته فدخل معهم إليها وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليتن ومنها إلى طرابلس، ونزل في بيت أحمد المنتصر وترك عنده بعض الإخوان وولي سفره

(1) انظر: الإسلام في القرن العشرين، للعقاد، ص(130).
(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 47 إلى 50).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(75).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(76).

إلى زوارة ودخل حدود تونس[1] وشعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود، وجاءته الأخبار بذلك وتقرر أن لا يواصل شخصياً سيره، وندب محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري[2] وعاد إلى طرابلس، وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع، وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء، والشيخ أبو خريص الكزة[3]، وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دوفربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة في الجزائر؛ فدوفربيه يقول: «إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة 1848 - 1861 وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام 1881 م. . . . إلخ».

وقد بين المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل تمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمرها وهو في ميدان الجهاد[4].

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على خطاب أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس[5] التركي (غدامس في ليبيا) وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عدداً من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة 1268 هـ. وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ. ومن بين ما جاء فيه: (. . . وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي ﷺ ونفعنا وإياكم به آمين. وصار عربان وأرقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة. . . وبعث لنا الرومي

---

(1) و(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 50).

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(78).

(4) انظر: الفوائد الجلية (1/ 51).

(5) قرية من حدود تونس والجزائر.

دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل. . . تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك. . . .)[1].

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام 1962 م.

تاسعاً: ابن السنوسي في طرابلس:

عاد ابن السنوسي من قابس إلى طرابلس مع صحبة مجموعة من الإخوان في عام 1257 - ونزل ضيفاً عزيزاً على عائلة المنتصر، وتخوف الوالي العثماني من ابن السنوسي واستطاع عميد عائلة المنتصر أن يقنع الوالي علي عشقر بأن ابن السنوسي من المخلصين والمحبين للدولة والخلافة، وعمل على جمع الوالي العثماني بابن السنوسي وقد تأثر الوالي بورعه وقد فصّل محمد الطيب الأشهب في هذه النقطة فقال: «فبعد أن وصل قابس عاد إلى طرابلس وذلك في أوائل 1257 هـ وكان حاكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته أنباء مشوهة عن دعوة السنوسي وحركته التي قيل على لسان رواة الحاكم العثماني أنها ترمي إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية وكان راوية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله.

فأمر علي عشقر بالقبض على رفاق الإمام السنوسي الموجودين بمنزل الحاج أحمد باشا المنتصر ريثما يتسنى القبض على شخص الإمام. وتقدم المنتصر بوساطته في أن يبقى الإخوان السنوسيون في منزله وقدم بذلك ضماناً شخصيّاً متعهداً أن يخبر الحكومة عن الإمام السنوسي حينما يعود. وشاء الله أن يصل الإمام فجأة وما كان يعلم عما حدث فلما علم أصر على رؤية الوالي، وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته فاعتذر له وانضم إليه اثنان في المجلس المقرحي والقزيري. . .»[2]. وكان العلامة المقرحي من طليعة علماء طرابلس وقد كلفه علي عشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الإمام ابن السنوسي فما كاد يستمع إليه حتى تأثر به وأصبح من أتباعه ومريديه.

---

(1) انظر: نص الرسالة الكامل عن سجل رقم (196/ 3/ 501)، دار المحفوظات. طرابلس.

(2) انظر: السنوسي الكبير، للأشهب، ص(104).

وكان رأي العلماء الذين ناظروا ابن السنوسي بأنه نعمة من الله ساقها إليهم وفرح الباشا بذلك واعتذر لابن السنوسي، وقال له: هذه بلادك والأهل أهلك، فانفعهم بقدر استطاعتك ونحن في الحاجة الشديدة لأمثالك، فأقام ابن السنوسي في طرابلس مدة يعلّم الناس ويذكّرهم ويبصّرهم بأمور دينهم، وتعلق الناس به، وسارت إليه الركبان[1].

ويذكر بعض المؤرخين أن الوالي العثماني علي عشقر أخذ عن ابن السنوسي طريقته وصار من أتباعه، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد التي استمرت سبع سنوات مضت قريباً[2] وأن الأحداث في تلك السنة كانت على أشدها حيث كانت الثورة مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومة المحمودي، وسيف النصر في سرت ضد الدولة العثمانية واستطاع غومة المحمودي وسيف النصر أن يستقل كل منهما بمنطقته لفترة من الزمن مقابل دفع مبلغ معين للولاة، ثم تفاقم أمرهما، فعمل الوالي العثماني على الخلاص منهما ونجح في القبض عليهما، فأما غومة فنفاه من طرابلس، وأما عبد الجليل سيف النصر فقطع رأسه[3].

ولذلك حرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في ليبيا وخصوصاً بعد أن ظهر منه حرصه على الأمن واجتماع الكلمة، ونبذه للتنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم[4] وقد كانت نظرة الوالي العثماني تدل على بعده السياسي، وحرصه على الأمن واستقرار البلاد، وحبه للدعوة إلى الله تعالى.

عاشراً: ابن السنوسي في برقة:

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت وبرفقته أمراء من آل المنتصر بأمر عميد الأسرة، وأعيان من مصراته، ودخل سرت ووجد هناك كوكبة من الفرسان في انتظاره، هم بعض أعيان وشيوخ، ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازي فرحبوا بسيادته ورافقوه في رحلته، ومر في طريقه بالكثير من القبائل وبعد وصوله إلى بنغازي تنافست بيوتات بنغازي البارزة في إكرامه، كعائلة الكيخية، وآل شتوان، وآل منينة وأقام في بنغازي شهر رمضان كاملاً وبعد العيد جاء رجلان من قبيلة العواقير لشراء الكفن للشيخ أبي شنيف الكزة

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/30).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(30).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(80).
(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(30).

زعيم قبيلة العواقير عموماً الذي مرض مرضاً تحقق أقاربه منه بالموت، ولما وصل الرجلان إلى بنغازي دخلوا على الرجل الصالح علي خريبيش وكانت لهم به معرفة، وأخبروه بمرض الشيخ أبو شنيف وطلبوا منه الدعاء له بالشفاء، فقال لهم: هنا رجل صالح عالم نزوره أنا وأنتم ونطلب منه الدعاء له بالشفاء، فلما التقوا بابن السنوسي أظهر لهم عدم الانزعاج وأطال لهم في المجلس وهم كأنهم على نار فألحوا في طلب الإذن لهم بالخروج فقال لهم: ربما هذا المريض يدفن بعض الحاضرين ثم قال لهم: نخرج معكم إليه، ففرحوا وفعلاً ترك بعض إخوانه وثقل أثاثه وخرج معهم مخفاً وكان الشيخ أبي شنيف نازلاً بأهله بمكان يسمى الظاهر يبعد عن بنغازي بمسافة يوم كامل فلما وصل إلى الشيخ أبي شنيف وكان في حالة غيبوبة ومرضه في بطنه وهي منتفخة فوقف عليه ووضع يده الشريفة على بطنه فانتفشت كأنها قربة منفوخة وأفاق في الحال وتكلم، فعلت أصوات النساء بالزغاريد وسرت القبيلة بشفاء عميدها العظيم[1].

لا شك أن ابن السنوسي قد أخلص في دعوة الله لشفاء هذا المريض، وقرأ عليه بعض الأدعية النبوية المباركة وربما سورة الفاتحة وقرأ عليه القرآن الكريم وهذا جائز في الشرع، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر؛ فمروا بحي من أحياء العرب؛ فاستضافوهم فقال لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب؛ فقال رجل منهم: نعم. فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فلما علم النبي ﷺ بذلك تبسم وقال: **«وما أدراك أنها رقية؟»** ثم قال: **«خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»**[2] وقد علّم رسول الله ﷺ الأمة كيف يفعلون مع مرضاهم، فكان ﷺ إذا أتى المريض يدعو له ويقول: **«أذهب الباس، رب الناس واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً»**[3].

لقد كانت حادثة شفاء زعيم قبيلة العواقير على يدي ابن السنوسي مدخلاً عظيماً للدعوة إلى الله في قبائل برقة، واعتبره المؤرخ عبد القادر بن علي أول فتح لابن السنوسي في برقة والجبل الأخضر وأقام في نواجع العواقير ما يقرب من الشهر واجتمعت على سيادته الناس من أنحاء برقة لزيارته وطلب الدعاء منه[4]، وقد انتشرت بين الناس كرامات نسبت لابن السنوسي، فمنها ما ذكره الحشائشي أن ابن السنوسي عندما قدم من المغرب إلى الحجاز على طريق قابس من أعمال تونس نزل بحي من أحياء العرب ولم يظهر الشيخ أنه من العلماء وليس معه إلا أربعة أنفار، فأكرم نزل رب الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة، فلما أراد المسير من عنده أهداه

---

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 53).

(2) انظر: مسلم، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية (4/ 1727) رقم (2201).

(3) انظر: مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض (1/ 1722) رقم (2191).

(4) انظر: الفوائد الجلية (1/ 53).

رب المكان بغلته ليركبها بالطريق، فأخذها الشيخ من عنده ولما ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به فسقط من أعلاها وانكسرت ذراعه الأيمن من حينه، ورجع إلى رب الحي المذكور فتلقاه مذعوراً وفي الحال أحضر له أناساً عالمين بجبر الكسر، فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار ثم تجعل على محل الألم ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه؛ فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله، ومن هنا أخذ الشيخ في الاشتهار(1).

إن المفتاح الكبير لقبائل برقة هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلماء الأمة يثبتون الكرامات للصالحين: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك. وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ. . . .»(2).

«ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتي مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة»(3) ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء(4).

إن ابن السنوسي صحت معرفته بالله ورسوله ودينه، وصدقت متابعته للشرع ظاهراً وباطناً، ونحسبه كذلك لا نزكي على الله أحداً، ولذلك فتح الله عليه بما لم يفتح على غيره، من إلهامات صحيحة، وفراسات صائبة، وأحوال صادقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النساء، الآيات 66 - 68] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة»(5).

وقال ابن عثمان النيسابوري: «من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن

---

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص(145).
(2) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (11/ 274).
(3) المصدر السابق نفسه (11/ 283).
(4) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (1/ 508).
(5) مجموع فتاوى ابن تيمية (10/ 473، 474).

أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[1] [النور: 54].

وقال الكرماني: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطىء له فراسة»[2] بعد شهر من بقائه في نجع العواقير واصل سيره متوغلاً في برقة الحمراء ومنها الجبل الأخضر وبصحبته جمع غفير من الإخوان ومشايخ مختلف القبائل من الحاربي والعواقير حتى وصل إلى مكان يسمى ماسة، وتقدم من ماسة إلى محل يسمى دنقلة حيث مكان الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري ﷺ [3] وقد شرع الإخوان السنوسيون في تأسيسها قبل مجيء ابن السنوسي وذلك بتوجيه منه، وهي أول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز ولها مقام كبير عند السنوسية ويطلق عليها أم الزوايا، وقد بنيت زاوية البيضاء خارج البلدة وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها، ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي اختار لها موقعاً استراتيجياً جيداً يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول إليه. كما يلاحظ أيضاً أنه أحسن بناءها.

ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي، كما أنها تتابع بانتظام مما يدل على أن ابن السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب لأنه كان يتوقع هجوم الأعداء عليها[4]. ولا ننسى زعيم البراعصة الشيخ أبو بكر بوحدوث الذي وقف بجاهه وماله ونفسه مع الحركة السنوسية، وكان من تواضعه يشارك العمال في كافة أعمالهم بنفسه فضلاً عن أتباعه وكان بجلالة قدره ممن يخلط الطين للبنائين الذين يبنون المسجد والزاوية البيضاء رغبة في الثواب[5].

وشرع ابن السنوسي من الزاوية البيضاء يعلم الناس ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها تبركاً به وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان ﷺ يتوجه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر[6].

---

(1) انظر: الجامع لأخلاق الراوي، باب أدب الطلب (1/ 80).
(2) انظر: قواعد التحديث للقاسمي، ص(149).
(3) انظر: الفوائد الجلية (1/ 54).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(83).
(5) انظر: الفوائد الجلية (1/ 56).
(6) المصدر السابق نفسه (1/ 58).

وظل في نواحي برقة والجبل الأخضر يزور القبائل، ويؤسس الزوايا حتى تم تأسيس ما ينوف عن عشرين زاوية، كما كان طيلة هذه السنوات يتردد ما بين القبائل ويصلح ما بينها ويزيل ما تأصل بينهم من الأحقاد والمشاجرات التي طال أمدها رغم ضررها، وكان يعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى أخوة الإسلام ورابطة الإيمان، ويحثهم على التعاون على البر والتقوى، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة مثل: التبرج والاختلاط، وقتل النفس بأتفه الأسباب وعدم الانقياد لأوامر الدين والدولة، وكان يأخذ منهم العهود والمواثيق على أنهم ينقادون لأوامر مشايخ الزوايا ويرجعون إليهم في مختلف قضاياهم وحل مشاكلهم، ويدخلون أبناءهم في الزوايا ليتعلموا القرآن وأمور دينهم، كما كان يأخذ عليهم عهوداً باحترام الزوايا ومشائخها والإخوان وأن يبذلوا جهودهم لمساعدة الزوايا والإخوان فيما هو ضروري لبقائها عامرة وكل قبيلة تطالب إقامة زاوية لها تقيمها لهم بالشروط المتقدمة[1].

والزوايا التي تم تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة في الجبل الأخضر وبرقة هي (البيضاء، شحات، بنغازي، درنة، مارة، أم الرزم، العرقوب، توكرة، طلميثة، الطيلمون، الفائدية، المخيلي، القصور، المرج، أم ركبه في (فزان)، مرزق، زويلة، هون، سوكنه (في طرابلس) مزدة، طبقة الرجبان، تونين، مصراتة، زليتن، زلة، وفي تونس زوايا الجريد).

وعلى الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادنا وغيرها أن تراجع حساباتها وتتفقد الأماكن التي كانت منارات للعلم والتربية والدعوة، وتعمل على إحياء ما اندرس منها على منهج صحيح وسليم وقويم من عقيدة السلف، ومنهج أهل السنة والجماعة، مع الاستفادة من خبرات الحركات المعاصرة وتجديد الوسائل، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ويهدينا سواء السبيل. والقصد من ذلك العمل على إحياء الإسلام في البوادي والأرياف والقبائل ولا نحصره في المدن الكبرى.

زواجه الثالث:

في أواخر عام 1258 هـ جمع ابن السنوسي إخوانه في ليلة من الليالي وقال لهم: تعلمون إخواني أنني تقدمت بي السن (وكان سنه آنذاك سبعة وخمسون سنة) وضعف جسمي وقوتي بعد شربي للسم ولم يبق لي مأرب في النساء غير أني رأيت سيدنا محمد ﷺ في منامي وقال لي: خذ إحدى بنات هذا الرجل أي السيد أحمد ابن فرج الله تأتيك بولدين يكونان من المهاجرين والأنصار، وإنني امتثالاً لأمره ﷺ أريد أن أخطب من أخينا السيد أحمد إحدى بناته، ثم عقد رحمه الله على فاطمة وهي الوسطى من البنات[2].

---

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/59).

(2) انظر: الفوائد الجلية (1/58).

إن الرؤيا الصالحة في المنام بشرى تزف لعباده الصالحين، وأمر رسول الله ﷺ في المنام إذا لم يخالف الشريعة لا يوجد ما يمنع من تنفيذه وكانت بشرى صادقة وقد وقعت كما رآها ابن السنوسي.

إن أمر الرؤيا في حياة ابن السنوسي واضح وجلي، ويستأنس بها في رحلاته وأعماله وبالنسبة لرؤية رسول الله ﷺ في المنام فلا خلاف بين أهل العلم فيها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي»**[1] وفي رواية عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ **«من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»**[2] وفي رواية عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«من رآني فقد رأى الحق»**[3].

---

(1) انظر: البخاري، فتح الباري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ، رقم (6993).

(2) المصدر السابق نفسه، رقم (6994).

(3) المصدر السابق نفسه، رقم (6995).

المبحث الثاني

أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته

تمهيد:

إن إقليم برقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة، طرابلس، فزان)، بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (700 ألف كيلو متر مربع) وإن لم يكن أكثرها سكاناً، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقاً وحدود طرابلس غرباً، وكان يعرف عند الرومان بإقليم (سيرينة) التي سماها العرب (قيرين) أو (قرناه) ثم أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بإقليم برقة[1].

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلي يضيق في الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل إلى الساحل، ولكن في جناحي برقة: في البطانان شرقاً، وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً، يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء[2]، وإلى جانب هذا السهل الساحلي يوجد الجبل الأخضر الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع الساحل ارتفاعاً مباشراً ولكنه ينحدر تدريجياً نحو الصحراء في الجنوب، وبه الأراضي الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التي ترويها مياه الأمطار الغزيرة.

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التي تكون معظم مساحة الإقليم وهذه الصحراء مستوية وإن وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهي مستوية أيضاً، وفي صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلىء بالماء فترة ما وبعضها يكون جافاً طول السنة[3]، كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة، وجالو، وأوجلة[4].

وسكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي اتضحت صورته منذ الفتح الإسلامي، ثم عندما زحفت قبائل بني هلال، وبني سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - أصبحت هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسين: القبائل السعدية،

---

(1) انظر: النجوم الزاهرة (8/ 282).

(2) انظر: د. نقولا زيادة: ليبيا، ص(1).

(3) انظر: الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فيليب رفلة، ص(338).

(4) انظر: في تاريخ العرب الحديث، د. رأفت الشيخ، ص(240).

وقبائل المرابطين ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بني سليم، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التي جاءت مع الفتح الإسلامي والتي اختلطت مع سكان البلاد وعربتهم، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف في النسب إلى بيت الرسول ﷺ ومن أهم القبائل السعدية: العبيدات، وعائلة فايد، والحاسة والبراعصة، والدرسة، والعبيد، وعرفة، والعواقير، والمغاربة، وأهم قبائل المرابطين: المنفة، والقطعان، والحوطة، والفواخر والزوية(1).

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلي العربي من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل في أرجائها، وأفراد كل قبيلة متضامنون في أداء ما عليهم من واجبات وفي الحصول على ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها. ومنذ أيام الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، بحيث تكون القبيلة أساساً لتطبيق النظام ومساعدة الحكام(2).

كانت القبائل في برقة تعيش حياة غير مستقرة، فيما عدا الواحات، وكثيراً ما تتقاتل من أجل المراعي أو مياه الآبار(3).

وقد توفرت في برقة ظروف ملائمة لظهور الحركة السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة منها:

1 - أن برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة بالصحاري والفيافي التي تحيط بها.

2 - تتألف برقة من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة.

3 - يقوم النظام القبلي في برقة على (عصبيات) دموية مشتركة وتقاليد وأعراف متشابهة.

4 - لا تزال المناطق الريفية بعيدة عن سيطرة المدن.

5 - لم يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية(4).

إن النظام القبلي في برقة كان حلقة مفقودة في خطة ابن السنوسي ووجد ضالته في ذلك المجتمع، فقد أوجد النظام القبلي القواعد السياسية التي أقيمت عليها الحركة السنوسية، إن النظام القبلي في برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسات متطورة لها مصالحها الاقتصادية، وتركيبتها الاجتماعية، ويرجع نجاح الحركة السنوسية في برقة في بعض جوانبه إلى التكيف مع هذا

---

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(240).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(240).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(241).

(4) انظر: المجتمع الليبي، د. عبد الجليل الطاهر، ص(244).

التركيب القبلي المعقد[1]، إن الحركة السنوسية وجدت بنية اقتصادية، وتركيبة اجتماعية استطاعت أن تتفاعل معها الحركة، لقد استطاع ابن السنوسي أن يشيد على البناء القبلي تنظيماً إرشادياً ووعظياً، ولم يكن من الممكن إقامة مجتمع جديد بدون ذلك البناء القبلي[2].

لقد وجد ابن السنوسي ضالته في قبائل برقة، ووجدت القبائل ضالتها المنشودة في دعوة ابن السنوسي.

كانت قبائل برقة قبل مجيء ابن السنوسي تتخبط في دياجير الظلام، حيث استفحل الجهل في تلك القبائل رغم اعتناقها الإسلام الذي تنتسب إليه اسمياً وبالفطرة، ولم يبق لها من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه وإليك بعض الصور من هذا الانحراف الخطير:

1 - اتخذت بعض القبائل مواقع من برقة لتأدية فريضة الحج بدلاً من الحج إلى بيت الله الحرام[3].

2 - كانت بعض القبائل لا ترى ضرورة صيام رمضان فتكلف ثلاثين شاباً قوياً، فيصومون يوماً واحداً، ويرون بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة وأرباب الأعمال من أهل القبيلة.

3 - كثر الأدعياء والدجالون الجهلة الذين يدعون لأنفسهم مقام الولاية والصلاح دون معرفة أصول الدين وعلى غير علم به، وكان حقهم في هذا المقام هو بالتوارث خصوصاً إذا ما كان بين هؤلاء الأدعياء من له صلة بنسب شريف، ولهؤلاء مكانتهم في نظر العامة التي اعتقدت أنهم يتصرفون في ملكوت الله أحياء وأمواتاً، وأنهم في حالة الغضب أو الرضى يشقون ويسعدون.

4 - لقد غابت كثير من شعائر الدين بين تلك القبائل[4].

5 - كانت القبائل يكثر بها الجهل، قلما تجد من يعرف القراءة والكتابة، فكل من يصل إليه كتاب يذهب به إلى أقرب المدينتين إليه؛ بنغازي أو درنة لقراءته.

6 - كان القوي منهم لا يتورع في الحصول على ما تصبو إليه نفسه بالقوة حتى أن الضعيف لا يرى له حقاً.

---

(1) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، د. علي حميدة، ص(116).
(2) انظر: المجتمع الليبي، ص(253).
(3) انظر: السنوسي الكبير، محمد الطيب، ص(116).
(4) انظر: المصدر نفسه.

7 - كانوا لا يرون في شن الغارات والغزو والقتال عيباً، فكل قبيلة من القبائل العربية تعمل ما يعزز مركزها ويقوي شوكتها في نظر القبيلة الأخرى.

8 - كانت الحروب تندلع بين القبائل بأقل الأسباب وأتفهها، فتارة من أجل شخص حلب ناقة غيره بدون استئذانه، وتارة من أجل شخص ضاف آخر فلم يكرم وفادته، ومرة من أجل بهيمة أكلت زرعاً وحيناً من أجل رجل تزوج امرأة ولها ابن عم لا يريد زواجها منه... إلخ فبمثل هذه الأسباب كانت تقع الحروب الكثيرة التي جرت القبائل إلى هاوية الخراب والدمار، ولا يمر وقت طويل بدون حرب، ومن أهم الحروب التي وقعت ببرقة قبل مجيء ابن السنوسي حرب العبيدات وأولاد علي، وحرب قبائل الجبارنة مع الفوائد، ثم الجبارنة مع الحرابي المعروف بحرب (بياض)، وحرب المغاربة مع الزواوات، إلى غير ذلك من الحروب الكثيرة[1].

ولكن الدعوة السنوسية استطاعت أن تزكي النفوس، وتقوي الإيمان، وتنشر العلم، وتزيل الجهل، وتحارب الظلم، وتحبب العدل إلى نفوس تلك القبائل، وبعد فترة من الزمن أصبح من تلك القبائل علماء عاملون يدعون إلى الخير وبه يعدلون، ولقد استطاع الشاعر أبو سيف مقرب حدوث البرعصي أن يصف الحالة التي كان عليها قومه وكيف تحولوا عنها نتيجة للدعوة السنوسية:

وكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا	بمال غني لا يخافون عاديا
وكم جهول أسود اللون خلقة	كساه لبوس العلم أبيض صافيا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه	يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه في مهوى الضلالة هاوياً	فأصبح نجماً بالهداية عاليا
فتاهوا به فخراً على كل حاضر	ومن جاور الأعلى يحوز المعاليا[2]

وهذه قصيدة الشاعر الأديب الأستاذ أحمد شنيب المعروفة بـ(عقيدة وخلود) تصف حال المجتمع الليبي فتقول:

أرض الجدود وقد جفاك بنوك	حتى استحل دم العروبة فيكِ
ما خطبهم باعوا الهداية بالدجى	وتفرقوا، وبجهلهم خذلوك
وتشتتوا في الأرض لا من غاية	غير التناحر والدم المسفوك
شعب تفرق شمله وقبائل	لم يدركوا (التعارفوا) فرموك

(1) انظر: برقة بين الأمس واليوم، للأشهب، ص(162، 163).

(2) انظر السنوسي الكبير، ص(20).

يا وحيهم ما جاء عمرو غازياً ... إلا لنشر الحق في ناديك
ودم الصحابة لم يرق عفواً ولم ... يستشهد الأبرار حين غزوك
وهبوا حياتهم لنصرة ربهم ... والدين والقرآن كي يحموك
عادت عصور الجاهلية بينهم ... وتصدع الإسلام بين يديك
واحسرتاه على الحنفية كم غدت ... تبكي كرامة مجدها المهتوك
لا الدين أصبح يهتدي بجلاله ... لا السنة العصماء تسعد فيك
والمسلمون أذلة ليست لهم ... من دينهم غير اسمه يأسوك
ساءت موازين الحياة وبالهوى ... ساسوا الأمور، وخسفهم ساموك
وتطلع الغرب الغريب توثباً ... وأعد عدته لكي يرويك
أبناء روما في الشمال تحفزوا ... وبنوا فرنسا في الجنوب قلوك
الله يا أرض الجدود ومن سوى ... رب السماء من الأذى ينجيك
إن الذي بعث النبي محمداً ... للتائهين أعز من يهديك
يا ابن السنوسي الكبير تحية ... من أمة في عصرها المنهوك
جاءت إليك تحط كل رجائها ... وتطوف حول ركابك المبروك
أو لست سيد عصره وإمامها ... والقائد الأعلى بغير شريك؟
في لينه حزم، وفي إيمانه ... كل اليقين بنصر خير مليك
وغناه في قصد، وفاقته على ... أسمى التجمل في أعف سلوك
يا أرض قرى خاطراً وتقدمي ... بتحية الإكبار من هاديك
حملت آثاماً فجاء مطهراً ... أكرم به من مؤمن يحبوك
وغدوت أشتاتاً فأقبل هادياً ... ومبشراً، وإلى العلا يدعوك
ويلم شعث المسلمين ويبتني ... ركناً يقام وأمة تفديك
ويعيد للدين القويم بهاءه ... ويقيل عثرة شعبك المملوك(1)

إن اختيار ابن السنوسي لبرقة كان قراراً حكيماً، يدل على معرفته للمنطقة جيداً، فقد اتصفت برقة بفراغها السياسي وبجهلها العلمي وبكونها مخرجاً لأواسط إفريقيا(2).

وظل ابن السنوسي خمس سنين - وقيل ستة - في برقة، ينشىء الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا. ثم عاد بعد هذه السنوات

---

(1) انظر: المهدي السنوسي، للأشهب، ص(142، 143).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(88).

الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة عنده مركزان رئيسيان: شرقي في الحجاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك[1].

إن سفر ابن السنوسي إلى مكة يدلنا على أنه كان لديه مشروعات دعوية كثيرة في العالم الإسلامي، وأن هدفه فتح أراضي جديدة لدعوته، لقد استطاع ابن السنوسي أن يرسي قواعد الدعوة في برقة ويثبت أسسها، فغادر برقة وهو مطمئن إلى أن دعوته ستنتشر، وقد خلف وراءه عدداً من الإخوان للإشراف على الحركة.

لقد كان ابن السنوسي يخطط في تنظيم بحيث يكفل الاستمرار بغض النظر عن وجوده أو عدم وجوده[2].

---

(1) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(290).

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(88).

المبحث الثالث

إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة

سافر ابن السنوسي إلى الحجاز، واستمرت مدة إقامت حوالي ثماني سنوات، وحفلت هذه السنوات بنشاط دعوي عالمي لابن السنوسي، دل على قدرته التنظيمية، وذكائه في تصريف شئون الدولة، وشرع في إنشاء الزوايا، وكثر دخول الناس في الدعوة، وتعرض لمتاعب من قبل بعض العلماء وقد تحدث الصادق المؤيد عن ذلك فقال: «مع أن المرحوم ابن السنوسي عندما كان في الحجاز لم يتعرض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى، فإنه أصبح دفاً لنقمة الآخرين ونقدهم. ومع ذلك فقد توسع نفوذ السنوسية ودخلت الصحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني حارث وبني حرب، كما انتشرت الطريقة بواسطة الحجاج، وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة في الحجاز واليمن على الخصوص.

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسي من رقابة ومنافسة وعداء، فقد كان عدد المريدين في ازدياد، ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسية التي في جبل أبي قبيس في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة»[1].

وكانت لكل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص (فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة. أما زاوية جدة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجاناً، فهي محل ضيافة عامة)[2].

واستطاع ابن السنوسي أن يساهم في تربية وتعليم القبائل من الحجاز، وأرشدهم إلى دينهم، وعمل ابن السنوسي بالإضافة إلى تأسيس الزوايا على تعليم مريديه بنفسه، فجلس في مكة يدرِّسهم الفقه والعلوم الأخرى. كما ألف لهم عدداً من الكتب منها كتابه (بغية المقاصد وخلاصة الراصد) المسمى بالمسائل العشر. وقد انتهى من كتابته كما تشير إلى ذلك النسخة المطبوعة سنة 1264 هـ أي أثناء إقامته في الحجاز، ومنها رسالة كتبت مقدمة لكتاب «موطأ الإمام مالك» في أول سنة 1267 هـ (وذلك حين بداءته لقراءة الموطأ) بغية إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب[3]، وربما قد كتب بعض مؤلفاته الأخرى في تلك الفترة، كإيقاظ الوسنان في العمل

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(89).

(2) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا، ص(75).

(3) انظر: النسخة المطبوعة من المسائل العشر.

بالحديث والقرآن، والدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، والسلسبيل المعين، وقد ظهر في كتبه هذه اتجاهه الصوفي واعتماده على الكتاب والسنة وقوله بالاجتهاد.

وكان طوال إقامته في الحجاز، يحرص على الحج كل عام، ويتصل بالناس ويدعوهم إلى دعوته ويضم من يستجيب منهم، وكان على اتصال مستمر بأتباعه في برقة يوجههم ويصدر إليهم تعاليمه وإرشاداته بواسطة الرسائل. ويذكر الأشهب: «أنه كان يندب سنوياً من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته»[1].

وكان ابن السنوسي قد ترك زوجته وولديها محمد المهدي ومحمد الشريف في برقة وكان على اتصال بهم عن طريق الرسائل، وكان قد عين عمران بن بركة ومحمد بن إبراهيم الغماري للاهتمام بشئون أهله وولديه، وقد ذكر عبد القادر بن علي، بأن ابن السنوسي عندما بشر بمولوده الجديد قال: «الآن ظهر الصباح وخفي المصباح» وكان يقصد بالصباح ابنه والمصباح نفسه[2].

وعندما بلغ محمد المهدي الخامسة من عمره «أرسل ابن السنوسي إلى الإخوان الكافلين له وقال لهم: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر»[3].

وعندما بلغ محمد المهدي السابعة من عمره أرسل إليهم ليوجهوه إليه مع زوج خالته، فارتحل به، ولما اجتمع ابن السنوسي بولده سُر به سروراً عظيماً وطلب لوح قراءته فوجد أوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فازداد سروراً، وزوّره الروضة الشريفة ولقنه ما عنده من الدعاء ثم زوّره المآثر كلها التي بالمدينة، كمسجد المائدة ومسجد القبلتين وجبل أحد، وقبور شهداء أحد، وقبر حمزة رضي الله عنه[4].

وكان قبل مجيء ابنه قد تزوج ابن السنوسي زوجته الرابعة والأخيرة (ابنة حسن البسكري). وكانت بدرنة مع أختها وأخواتها وتوفي والدها، فأرسل ابن السنوسي إلى ابن أخي حسن البسكري أن يأتي بالأم وبناتها، وكانت أكبر البنات تحت عبد الله البسكري ابن أخي حسن البسكري، فرحل بها إلى الحجاز وتزوجها ابن السنوسي ورزقت منه بولد وتوفي صغيراً ولم يفارقها حتى مات[5].

وعندما بلغ محمد المهدي التاسعة غادر والده المدينة إلى مكة وتركه مع زوجة أبيه

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(43).

(2) انظر: الفوائد الجلية (1/60).

(3) أحمد الشريف، مخطوط، ص(76).

(4) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص(78).

(5) انظر: الحركة السنوسية، ص(93).

العسكرية فاعتنت به كثيراً. وفي جمادى من سنة 1269 هـ طلب ابن السنوسي ابنه محمد المهدي من المدينة وأرسل يطلب من الإخوان في برقة بإرسال ابنه محمد الشريف.

وذكر أحمد الشريف رحلة والده فقال: (فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله ومروا على العقبة ثم منها إلى الإسكندرية ثم إلى كرداسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزروالي أقاموا بها أياماً ثم إلى السويس وركبوا البحر قاصدين جدة.. وأتتهم ريح عاصفة قبل نزولهم قلعت بالمركب حتى أيقنوا الغرق. وتقطعت الأشرعة وآخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع فنزلوا بها وأقاموا أياماً للاستراحة. ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة فزاروا الروضة الشريفة واجتمعوا بالباشا الذي رحب بهما وأعطاه ساعة تساوي مئة، وبعد ذلك بنى جامع الزاوية التي بالمدينة بناءً متقناً من نفسه جزاه الله خيراً. وكان بالمدينة يومئذ السيد عبد الله التواتي وأكرمهم غاية الإكرام. وأقاموا بها ثلاثة أشهر ونصف، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة منتصف ذي القعدة سنة تسع وستين بعد المائتين والألف بصحبة السيد التواتي.. وتخلف السيد عبد الله لوجع في رأسه وحمى معه آخر فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبت الريح.. وقطاع الطريق قد أحاطوا برواحلهما لينهبوا ما عليها فقاموا إليهم للمدافعة عما أرادوه فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض وجرحوا صاحبه، واكتشف رجال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولاً ينظر سبب تأخر الرجلين، فتوقفوا لدفنه وساروا في خوف وحزن يحرسهم العسكر الذي أرسله الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة[1].

وقد حزن ابن السنوسي على مقتل عبد الله التواتي الذي كان من أوائل رفاقه وكان المسئول الأول عن نشاط الحركة في الحجاز، وقد أمر ابن السنوسي بنقله إلى بدر، حيث دفن بجوار الشهداء رضي الله عنهم أجمعين[2].

كان عبد الله التواتي من كبار العباد في الحركة السنوسية وقد حدثني أستاذي في اللغة العربية الشيخ راشد الزبير السنوسي عندما كنا معاً في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب بأن عبد الله التواتي كان يقول: والله لأزاحمنّ أصحاب النبي ﷺ على أبواب الجنان بركبتي، وكان عبد الله التواتي شديد الإخلاص لابن السنوسي حتى أنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله[3]، وقد أصاب قاتليه مرض مزمن وماتوا ميتة بشعة، وانتشر خبر وفاتهم بين قبائل الحجاز، فأصبحوا يتحاشون السنوسية وأتباعهم ولا يمسونهم بسوء أبداً، حتى أن أهل مكة والمدينة كانوا

---

(1) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص(79).

(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 72).

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(90).

إذا أرادوا الحج أو الزيارة فلا يخرجون إلا مع الركب السنوسي لكي يأمنوا حياتهم وأمتعتهم[1].

أولاً - عودة ابن السنوسي إلى برقة:

بعد وصول محمد الشريف ابن السنوسي إلى مكة وكان بصحبته جده لأمه أحمد بن فرج الله ووالدته وعمران بن بركة الفيتوري، وكثير من الإخوان، وحج الجميع مع ابن السنوسي، وقدم من برقة في هذا الحج كثير من أعيانها ووجهائها ومشائخ القبائل منهم[2]: الشيخ أبو شنيف الكزة والشيخ عمر جلغاف، وعبد الله أبو سويحل، والحاج محمد كاهية وغيرهم ليلتمسوا من السيد عودته إلى البلاد المتعطشة لدعوته، فكان يعدهم خيراً، ومما يلفت النظر أن الشيخ أبو شنيف الكزة الذي تجشم مشاق الطريق لرؤية السيد كان عمره يتجاوز المائة سنة، لقد كان شوق الإخوان في برقة إلى ابن السنوسي عظيماً، فهذا أحمد الطائفي يرسل من درنه قصيدة إلى ابن السنوسي جاء فيها:

يا من نأوا عني وشط مزارهم ... وتجددت لبعادهم أحزاني
نار الجوى بين الجوانح أضرمت ... والروح فارق بعدكم جثماني
لا كان يوم البين لا كان النوى ... يا ليتني أدرجت في أكفاني
حر النوى أوهى قوى تجلدي ... وأعل جسماً طبه أعياني
وأطال سهري والخلائق هجع ... وأثار وجداً كامناً بجناني
وسقى رياض الشوق يوم وداعهم ... بسواكب العبرات من أجفاني
فطويت حينئذ بساط مسرتي ... ونشرت بعدكم رداء أحزاني[3]

وبعد أن ألح زعماء برقة على رجوع الشيخ ابن السنوسي معهم، استخار الله سبحانه وتعالى وسأله إرشاده إلى الطريق التي يرضاها سبحانه وتعالى وفيها نفع للأمة المحمدية، فأراه الله ما ألهمه وقوى عزيمته على العودة إلى برقة، فرتب الأمور بالحجاز وعين مشايخ للزوايا وزودهم بما رآه وحرضهم على سلوك طريقته في إرشاد العباد ودلالتهم على الله والتمسك بسنة سيدنا رسول الله ﷺ وبذل النصح للمسلمين أينما كانوا، وأناب عنه في زاوية أبي قبيس الشيخ محمد إبراهيم الغماري، وأبقى ابنيه ووالدتهم وجدهم في مكة، وأمر محمد الغماري وأحمد البقالي بتعليم ابنيه القرآن الكريم وغيره من العلوم وحمل معه جميع كتبه وأثاثه ورافقه جميع الإخوان الملازمين له، والأعيان والشيوخ القادمون من برقة وتوجه من مكة إلى المدينة وأقام بها

---

(1) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 73).

(2) المصدر السابق (1/ 78).

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(168).

ما يزيد عن مدة شهر[1]، وقد ذكر بعض المؤرخين أسباب خروجه من الحجاز، فقال بعضهم: كان لديه رغبة لزيارة الشام. وقد أثبت الملك محمد إدريس هذه الرغبة فقال: «إنه كان يفكر بزيارة الشام بعد إقامته الثانية وهم بالتوجه إليه، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر»[2]. ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز «اشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج»[3]. أما غرضه من زيارة القدس والشام، فأغلب الظن أنها كانت لزيارة المسجد الأقصى لنشر دعوته، ولكن هذه الزيارة لم تتم[4]. وقد ذكر ابن السنوسي «كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس، ثم في أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا» (يقصد برقة)[5].

وانفرد البستاني بالقول أنه خرج من مكة خائفاً من تهمة مشاركته مع الشريف عبد المطلب، شريف مكة، الذي عصى الدولة العثمانية: «لذلك خاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل منها عائداً إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر»[6] إلا أن هذا القول يسقط ويتهاوى أمام حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن الصدام مع السلطة العثمانية، واصل ابن السنوسي سيره من المدينة متجهاً إلى مصر ودخلها عام 1854 م، وغادرها إلى الجبل الأخضر «ونزل بمحل يعرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وأقام هناك سنتين»[7] وكان في تلك الفترة يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا، وكان يرسل مندوبين عنه لتفقد أحوالها، وكان كبار الإخوان يقدمون على العزيات لزيارة ابن السنوسي، فكان يسمع أخبار الزوايا، ويصدر إليهم تعليماته[8].

وبعد أن أقام ابن السنوسي عامين في العزيات عزم على التحول إلى الجغبوب، وكان قصده التوغل في الصحراء حتى يكون أكثر أمناً[9].

---

(1) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 79).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(96).
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص(43).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(97).
(5) المصدر السابق نفسه، ص(96).
(6) انظر: البستاني، دائرة المعارف، مادة سنوسي.
(7) المصدر السابق نفسه.
(8) انظر: الحركة السنوسية، ص(99).
(9) انظر: المصدر نفسه، ص(101).

ثانياً - أسباب اختيار الجغبوب:

إن اختيار ابن السنوسي للجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية دليل على بعد نظره، وثاقب فكره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه وقد ذكر المؤرخون أسباب ذلك الاختيار فقالوا:

1 - أراد أن يجعل من الجغبوب مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية دعوة الإسلام بينهم جميعاً، وكان الجغبوب مركزاً أحسن اختياره، وكان صالحاً لأغراضه في وسط قبائل في الشرق والغرب، وكان النزاع بينهما مستمراً، ومن ثم أمن للحركة السنوسية أن تبسط نفوذها في المتنازعين، وأن تصلح ذات بينهم.

2 - الاهتمام بأبواب الصحراء المترامية الأطراف من نواحي الغرب والجنوب والشرق ولذلك كانت زاوية الجغبوب نقطة مهمة وأعقبتها عدة زوايا فيما بعد تخدم نفس الهدف، من أجل ضمان السلامة والأمن في الصحراء، وضمان المحافظة على طرق التجارة إذ كانت طرق القوافل تربط بين الجزائر وطرابلس، وتشاد، وبرقة، ومصر.

3 - كان البدو في ليبيا يضطرون أحياناً إلى ترك دواخل ليبيا بسبب خلاف يقع بين قبيلة وأخرى أو مع الدولة العثمانية، فتكون وجهة النازحين نحو الصحراء، ولذلك فكر ابن السنوسي ونظر إلى هذا الأمر ببصيرة نافذة، فأوجد هذه الزوايا في المواقع البعيدة ليأوي إليه النازحون عن دواخل البلاد، فيجدوا أمناً وأماناً[1].

4 - ازدادت عداوة علماء استانبول والقاهرة لأفكار ابن السنوسي الدعوية، فرأى أن يبتعد عن الساحل ويتوغل في الصحراء بعيداً عن السلطات العثمانية.

5 - كان ابن السنوسي قد شعر بدنو استيلاء النصارى الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب والإقامة في الصحراء[2].

وكان الجغبوب في تلك الآونة «واحة ملحة يأوي إليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها. فلما اختارها (السيد) مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة، ومشرق أنوار ومعلم هداية، فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع في البناء، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء»[3].

(لم تكن الجغبوب مكاناً يصلح لحياة فخمة ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية؛ فهو خارج

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، الطيب الأشهب، ص(101، 102).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، (2/ 142).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(36).

قبضة الترك والفرنسيين والمصريين، وهو على خط الحج الرئيسي القادم من شمال إفريقيا الغربي عبر مصر إلى مكة، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجاري آخر من الساحل إلى الصحراء إلى السودان؛ بالإضافة إلى ذلك فإنها كانت أكثر النقط توسطاً في برقة التي تشكل شبه جزيرة حتى أنه منها ما يكون على مقربة من زواياه وطرابلس والصحراء الغربية في مصر والسودان)[1].

ثالثاً - الإخوان السنوسيون الذين حملوا مع ابن السنوسي الدعوة:

كان ابن السنوسي في تجواله بين الأقطار الإسلامية يقوم بدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام، وسلك منهج القرآن الكريم في دعوته، فكان يقوم بوظيفته الدعوية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، آية: 151].

وتتمثل هذه الواجبات الأمور التالية:

أ - تبليغ وحي الله إلى الناس، وتعريفهم به ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وكان يقوم بالتبليغ بالأمور الآتية:

1 - شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

2 - تفسير نصوص القرآن والسنة تفسيراً لمنهج السلف، وملائماً لعصره من حيث الأسلوب والوسيلة.

3 - جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

4 - استهدف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة، أو منافقين.... إلخ.

5 - بيان الأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها.

ب - تزكية الناس: حيث قام ابن السنوسي بتربية الناس على الصفات المحمودة، وتذكيرهم بخطورة الأخلاق الذميمة.

ج - التعليم، حيث قام ابن السنوسي بتعليم الناس القرآن والحكمة، ونقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق.

---

(1) انظر: بريتشارد، ص(15)، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص(113).

واستطاع أثناء تحركه بدعوته أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء والفقهاء والدعاة، ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته، فبعضهم أصبح مشرفاً ومعلماً في الزوايا المنتشرة في ليبيا وتشاد، والحجاز، ومصر، وبعضهم أصبح من أعضاء هيئة التدريس العلياء في الجغبوب، وكان هؤلاء الإخوان الذين ساندوا الحركة السنوسية منهم من هو من الحجاز، كالشيخ فالح الظاهري، ومحمد بن الصادق الطائفي؛ ومنهم من هو من الجزائر، كأبي القاسم التواتي؛ ومنهم من هو من تونس، كعلي بن عبد المولى؛ ومنهم من هو من السودان، كالسيد محمد بن الشفيع، ومنهم من هو من برقة، كعبد الرحيم المحبوب، ومنهم من هو من طرابلس كعمران بن بركة الفيتوري[1].

واختار ابن السنوسي من كبار علماء الحركة للتفرغ للتدريس في معهد الجغبوب . . . وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب، حيث تدرس جميع أنواع العلوم[2]، فلا ينحصر التعليم على حفظ القرآن (وهذا شرط أساسي)، وبعض العلوم الدينية والعربية، كما هو الحال في كثير من المعاهد وقتذاك، وحتى الآن؛ بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطاً بعيداً وسار خطوات واسعة، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء والأعلام تحت إشراف السيد ابن السنوسي نفسه الذي يضع برامج التعليم ويقرها، فتخرج من هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم. . . فمنهم العلماء والكتاب والمصنفون[3].

وقد ذكر محمد الطيب أسماء بعض العلماء الذين قاموا بإلقاء الدروس في معهد الجغبوب تحت إشراف ابن السنوسي فمنهم: عمران بن بركة الفيتوري، أحمد عبد القادر الريفي، فالح الظاهري، أحمد التواتي، عبد الرحيم أحمد المحبوب، محمد ابن أحمد الشفيع، أبو سيف مقرب حدوث البرعصي، حسين الموهوب الدرسي، محمد صادق الطائفي، أحمد الطائفي، محمد مصطفى المدني، محمد القسطيني، محمد حسن البكري[4].

لقد قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء والفقهاء والقادة، والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة:

1 - محمد عبد الله التواتي، وهو من أوائل إخوان ابن السنوسي وتلاميذه، وقد قام بعدة

---

(1) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(298).

(2)و(3) دراسات وصور، للحاجري، ص(297).

(4) انظر: السنوسي الكبير، ص(50).

أعمال كلفه بها ابن السنوسي في كل من الحجاز واليمن وليبيا، وقتل في الحجاز ودفن بزاوية بدر وقد مرّ ذكره.

2 - أحمد أبو القاسم التواتي من الجزائر، وقد تولى مشيخة زوايا سيوة والزيتون وزوايا فزان، وكان أحياناً ينتدبه ابن السنوسي للتفتيش على الزوايا ومراقبة أحوالها، ومما قاله ابن السنوسي في حقه في كتاب أرسله إلى أعيان واحة سيوة قوله: «وولدنا الشيخ أحمد التواتي قد أقمناه مقامنا، وما أرسلناه إلا لمنفعتكم خاصة، وإلا فغيره يقوم مقامه، واسمعوا لنصيحته فإنه نصوح أمين وقد هدى الله به أمماً عديدة»[1].

توفاه الله بزاوية الطيلمون وقد رثاه زميله العلامة فالح الظاهري بقصيدة عصماء مطلعها:

على مثل من أوقاته حلية الدهر   بصالح أعمال، دموعك فلتجر

كما رثاه شاعر السنوسية أبو سيف مقرب بقصيدة مماثلة جاء فيها:

سل الدهر هل يبقي سعيد مخلداً   ولو كان أبقاه لأبقى محمدا
يكر علينا ليله ونهاره   شجاعين لا يثنيها من تجلدا[2]

ومنها:

ألا ليت شعري كيف صاروا بنعشه   إلى القبر وهو الطود ذو المجد والندى
حوى نعشه علماً وفخراً وسؤدداً   وحلماً وتقوى ما سواها تزودا

3 - علي بن عبد المولى من تونس، تولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيل خاصة ابن السنوسي واستمر في عهد محمد الثاني، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى، توفي بالجغبوب.

4 - أحمد بن فرج الله من طرابلس، وهو والد أم محمد المهدي، ومحمد الشريف وقد توفاه الله بالبيضاء ودفن بمقبرة الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري ولم يترك عقباً من الذكور.

5 - محمد بن الشفيع من سنار السودان، كان من بين تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس الفاسي دفين (صبيا)، وتعرف على ابن السنوسي أثناء حضوره عند أحمد بن إدريس وسمع ما شهد به ابن إدريس لابن السنوسي، وقد تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة زاوية المدينة، والقيام بالتفتيش على الزوايا في كل من الحجاز وليبيا، وكانت آخر أعماله مشيخة زاوية سرت (خليج سدرى)، وكان من أجل العلماء علماً وتقى وشدة في الحق وشجاعة[3] وكان يهابه حكام الأتراك

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(58).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(59).
(3) انظر: المصدر نفسه، ص(60).

وزعماء العرب لشدة تحرشه معهم في الحق رغم جميع المجاملات، وكانت له مواقف مشهورة مع الفريق الحاج رشيد باشا عندما كان هذا الأخير حاكماً لبرقة، وكان يحترم ويجل ابن الشفيع، وذات مرة سافر رشيد باشا إلى الجغبوب وكان يصحبه ابن الشفيع وشرع رشيد باشا يتلو القرآن وابن الشفيع يستمع حتى وصل القارىء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: 21-22] فقال ابن الشفيع: أتعلم يا رشيد أن جهنم خلقت لمن؟ فقال رشيد: الله أعلم يا سيدي فأجابه قائلاً: إنها لك ولأمثالك ما لم تأخذوا بكتاب الله، فضحك رشيد وقبل يد ابن الشفيع، وتوفي ابن الشفيع بسرت سنة 1324 هـ[1].

6 - أحمد المقرحي، وقد سماه ابن السنوسي بالمفرح، من بادية طرابلس، وكان من طليعة علمائها الذين يرجع إليهم علي باشا عشقر الحاكم العثماني، وفي بعض الروايات أنه تولى الإفتاء في ولاية طرابلس، وقد مر ذكر المناظرة التي قامت بين علماء طرابلس وابن السنوسي وقد توفي المقرحي بالزاوية البيضاء عام 1263 هـ ودفن بمقبرة رويفع الأنصاري ولم يترك عقباً.

7 - عمران بن بركة الفيتوري، من زليطن، أسندت إليه مشيخة الزاوية البيضاء، وقام بالتدريس في معهد الجغبوب، وكان مدرساً لمحمد المهدي السنوسي، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين زملائه وتلاميذه، توفي بالجغبوب عام 1310 هـ ورثاه شاعر الحركة السنوسية أبو سيف مقرب البرعصي بقوله:

لقد سرت يا مولاي للقبر نيراً ... ولا عجب فللنيرات تسير
وإن جار دهر في انتهابك واعتدى ... فما زال قدماً يعتدي ويجور
له كلف بالأكرمين فكاسه ... تدار عليهم عاجلاً وتدور
ويعتامهم بين الأنام فنبله ... يصيب وأما خيله فتغير
ألا إن للدنيا مصائب جمة ... ولكن مصابي بالكبير كبير
مصاب له فاضت نفسيات أنفس ... ولان له (رضوى) ولان (ثبير)
فيا واحداً ضج الجميع لفقده ... وعج كبير بالبكاء وصغير
قضيت حميداً وانقضى العلم والتقى ... وآضى جناح الدين وهو كسير[2]

وقد تزوج الإمام محمد المهدي كبرى بناته وتزوج محمد الشريف بالثانية، فأنجب منها المجاهد الإسلامي الكبير أحمد الشريف[3].

---

(1) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(143).
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص(61).
(3) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(145).

8 - عبد الله بن محمد السني - من سنار السودان . كان من تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس، وتولى أعمالاً كثيرة منها إلقاء الدروس في مختلف العلوم وتولى مشيخة زاوية مزدة حيث توفاه الله بها.

9 - فالح الظاهري - من الحمراء بالحجاز - ينتسب لبني حرب، التحق بابن السنوسي سنة 1243 هـ في مكة وتفرس فيه ابن السنوسي نجابة وذكاء، كان من طليعة المدرسين بالمعهد الجغبوبي، زار استانبول مندوباً عن ابن السنوسي، كما زارها في عهد السلطان عبد الحميد ونزل في ضيافته معززاً مكرماً، ثم زار الهند، وجلس للتدريس في جميع البلاد التي زارها، ومما يلي نذكر بعض ما ورد في رسالة منه إلى العلامة أحمد الريفي رحمهما الله: «وفي هذه السبع سنين، بعد قدومي من البلاد الرومية حصل لي من إفادة العلوم غطوس ما أفقت منه إلا وأعضائي بها خلل من طول الجلوس، لكنني ولله الحمد حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب؛ ولم يبق قطر من الأقطار إلا وحمل عني إليه دفتر (مفالحة) شيخنا الأستاذ، وهذا أقصى أمنيتي من كوني جعلت في الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حتى في الهند والسند. .)[1]
كان العلامة فالح الظاهري متضلعاً في العلوم الدينية والفقهية والحديثية والتاريخية واللغوية وكان شاعراً يقرض الشعر، توفاه الله سنة 1327 هـ بالحجاز[2] وله عدة تآليف لم تطبع منها: «أنجح المساعي»، و«حسن الوفا لإخوان الصفا»، و«صحائف العامل بالشرع الكامل»[3].

10 - عبد الرحيم بن أحمد المحبوب (البنغازي) تتلمذ على يد ابن السنوسي، وتولى مهاماً كثيرة أسندت إليه منها: مصاحبة محمد المهدي من الحجاز إلى الجغبوب، وكان مفتشاً على الزوايا، وتولى مشيخة زاوية بنغازي، وانتدب لزيارة استانبول في عهد ابن السنوسي، كما زارها في عهد محمد المهدي، وقام بإلقاء الدروس بمعهد الجغبوب، توفاه الله بزاوية بنغازي 1305 هـ[4].

11 - حسين الغرياني، تتلمذ على يد ابن السنوسي وانضم إلى مجلس الإخوان وعرف عنه الصدق والإخلاص والحزم في جميع أعماله، وتولى رئاسة الزاوية البيضاء ثم عين لرئاسة زاوية جنزور وعرف عنه الصلاح والتقوى والتفاني في عمله، وتوفي بزاوية جنزور المعروفة باسم زاوية دفنه[5].

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(62).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(62).
(3) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(150).
(4) انظر: السنوسي الكبير، ص(64).
(5) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(151).

12 - أحمد بن عبد القادر الريفي، من تلمسان بالجزائر، التحق بابن السنوسي سنة 1267هـ فلازمه ملازمة صادقة وقام بكثير من أعمال الحركة السنوسية وأخذ عنه محمد المهدي السنوسي الكثير من العلوم، ثم أصبح المستشار الخاص لمحمد المهدي، وكان معروفاً بالحلم والورع ولين الجانب، وذكر بعض المؤرخين أن محمد المهدي السنوسي كان يتلو القرآن الكريم، وعندما مر بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: 63-64] قال: إن معنى هذه الآية ينطبق على السيد أحمد الريفي[1]، وكان مستشار الحركة السنوسية الخاص، وتولى رئاسة مجلس الإخوان بالجغبوب توفي عام 1329 هـ/ 1911 م، فشق موته على أفراد البيت السنوسي وجميع الإخوان وعامة أهل برقة ورثاه الشعراء والعلماء ومن بينهم تلميذ أحمد إدريس الأشهب حيث قال:

صبرت وما قلبي عليك بصابر فأنت إمام الأولياء الأكابر
تركت دموع العين تجري صبابة وسرت إلى أهل العلى والمقابر
مكثت بجغبوب وتاج ومكة وأنت تفيد القوم أهل المحابر[2]

13 - محمد الصادق - من الطائف - التحق بابن السنوسي بالحجاز وأسندت إليه أعمال كثيرة، وقد أرسله ابن السنوسي إلى الجزائر أكثر من مرة بمهمات خاصة تتعلق بدعم حركة الجهاد في الجزائر، وتولى مشيخة زاوية الجريد بتونس كما كان حلقة الوصل بين المجاهدين في الجزائر والزوايا السنوسية، وقد توفي بالجريد.

14 - محمد بن مصطفى حامد المدني - من تلمسان - التحق بابن السنوسي في الحجاز عام 1267 هـ، وتولى أعمالاً كثيرة في الحركة السنوسية منها تعليم القرآن الكريم، وإلقاء الدروس، والإشراف على شئون الطلبة والعمال في الجغبوب، ثم مشيخة زاوية تازربو حيث توفاه الله هناك.

15 - عمر محمد الأشهب من زليطن - تعرف على ابن السنوسي مع زميله عمران بن بركة، تولى زاوية درنة، ومشيخة زاوية مارة، ثم مشيخة زاوية مسوس، توفاه الله بها.

16 - مصطفى المحجوب من مصراته، وقد تعرف على ابن السنوسي والتحق به في الزاوية البيضاء سنة 1258 هـ تولى مهاماً كثيرة آخرها مشيخة زاوية الطيلمون.

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(65).
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(169، 170).

17 - أحمد بن علي أبو سيف من بادية طرابلس، تولى أعمالاً كثيرة منها التدريس ومشيخة زاوية مسوس، وزاوية مارة، وتوفي بالحجاز 1294 هـ.

18 - أبو القاسم العيساوي - جبل طرابلس - تولى مشيخة زاوية الرحبان، وانتدب إلى دار الخلافة.

19 - محمد إبراهيم الغماري من المغرب الأقصى (مراكش) تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة الزاوية البيضاء والإشراف على صناعة تجليد الكتب الخاصة بمكتبة الجغبوب وتنظيمها.

20 - إبراهيم الغماري - مراكش - تولى مشيخة زاوية دريانة ضمن الأعمال المناطة به.

21 - مصطفى الغماري - مراكش - تولى أكثر من زاوية بالحجاز حيث توفاه الله هناك.

22 - محمد حسن البسكري، كان يقوم بالسكرتيرية لمحمد المهدي فيما بعد.

23 - عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي: كان من أوائل رفاق ابن السنوسي، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى والاستقامة، وقد ندبه ابن السنوسي إلى أكثر من مهمة في كل من الحجاز وليبيا والسودان وشمال إفريقيا، وقد تولى مشيخة زاوية الجوف بواحة الكفرة التي توفاه الله بها.

24 - مصطفى الدردفي - من مصراته - كان من رفاق ابن السنوسي تولى مشيخة زاوية شحات.

25 - محمد بن حمد الفيلالي - من المغرب - كان من رفاق ابن السنوسي، وقد انضم إليه من الجزائر، وتولى أعمالاً كثيرة منها رئاسة مجلس الإخوان في برقة، وقد وصفه ابن السنوسي بالرئاسة[1] إلا أنه بعد سفر ابن السنوسي الأخير إلى الحجاز انفرد (بن حمد) في عمله وأساء التصرف واستبد عن رأي مجلس الإخوان، كما أخذ يهددهم ويهينهم بمختلف الإهانات وهم يتحملون ذلك ويرون طاعته مع الصبر على المكاره شيئاً ضرورياً؛ لأنه الوكيل عن ابن السنوسي، ولما ظهرت تصرفاته لابن اسنوسي أمر بفصله ثم سافر إلى الحجاز وهناك استقبله ابن السنوسي وقال له: «أتعبتنا يا أخانا بن حمد فما من كلمة سوء وجهتها لأحد إخواننا إلا وقد وجهت لنا بالذات، وما من ضربة سوط أصابت جسم أحدهم إلا وقد أصابتنا مباشرة»[2].

26 - محمد أحمد السكوري - من صنهاجة بالمغرب - تولى مشيخة زاوية الواحات البحرية وأوفده ابن السنوسي في مهمة إلى الحجاز ثم ولاه مشيخة زاوية المرج، ورث عن أبيه ثروة ضخمة ومحبة البدو الذين عرفوا والده وأحبوه[3].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(67).

(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(153).

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(157).

27 - المرتضى فركاش: ينتسب إلى نوح المسماري الشريف الحسني، كان من كبار الشخصيات المحترمة بالجبل الأخضر، يمتاز بين قبائل العرب بالدهاء وكثرة التجارب والمرونة وكرم الأخلاق وحسن التصرف وله شهرته الإصلاحية وقد ساعدته ثروته الطيبة وقتذاك على الاحتفاظ بمركزه الاجتماعي والأدبي، وكان يعيش الحضر والبادية فيأوي مدينة درنة في وقت الصيف ويختلف إلى سكنى البادية في موسم الشتاء والربيع، وعندما وصل ابن السنوسي إلى الزاوية البيضاء التحق به وأخذ في خدمته بكل إخلاص فنال حظوة عند سيادته وكان يلازمه في تنقلاته داخل برقة وحج معه البيت الحرام، وحفظ القرآن وتفقه في الدين بقدر الإمكان، أنجب أولاداً كانوا جميعاً في خدمة الحركة السنوسية، وكان لأمر هؤلاء الأولاد دوراً بارزاً في الجهاد ضد إيطاليا، وتميزت عائلة فركاش من بين قبيلة المسامر بخدماتها الجليلة للإسلام من خلال الحركة السنوسية، وارتبطت بصلات المصاهرة مع كثير من بالإخوان منهم الأشهب، المحجوب، عبد المولى الغرياني[1].

28 - أبو سيف مقرب: هو من أشهر بيوتات السعادي ينحدر من عائلة طامية البراعصة وفي بيته رياسة قبائل البراعصة، وهو من خيرة رجال الحركة السنوسية، سلمه والده طفلاً لابن السنوسي، وكانت تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة، وكان من بين العمال الذين قاموا ببناء زاوية البيضاء فزلقت رجله وتصادم رأسه بالحجر فشج حتى قيل أن دماغه ظهر للعيان فجيء إلى ابن السنوسي فضمد رأسه بقطعة من عمامته قائلاً: «هذا الرأس سيملؤه الله علماً وحكمة» وصدقت فراسة ابن السنوسي ونبغ المصاب الذي كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وأصبح من أبرز العلماء كما كان في طليعة أدباء الإخوان، وكان من كبار المدرسين في معهد الجغبوب، توفي رحمه الله بزاوية الجوف (الكفرة) وصلى على جثمانه محمد المهدي الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكان ذلك عام 1315 هـ[2].

29 - الحسين الحلافي - المغرب - تولى من الأعمال مشيخة زاوية المخيلي.

30 - المختار بن عمور - من أشراف الجزائر - كان من تلاميذ ابن السنوسي، تولى مشيخة زاوية قفنطة.

31 - محمد حيدر الهوني، اشتهر بإجادة تلاوة القرآن ترتيلاً حتى روي عن ابن السنوسي أنه كان يقول: «يا هوني قراءتك للقرآن تقول اسمعوني».

32 - عمر جلغاف حدوث، من زعماء قبائل برقة - أخلص للحركة السنوسية، وكان ضمن الوفد الذي التمس من ابن السنوسي عندما كان في الحجاز أن يرجع إلى برقة، وكان

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(158).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(153).

ضمن مجلس الإخوان في البيضاء، وأوفده ابن السنوسي لتفتيش الزوايا والقيام ببعض المهام فيها.

33 - الفضيل أبو خريص الكزة - أحد زعماء برقة - انضم إلى ابن السنوسي، وكان حظه من التعليم قليلاً إلا أنه قام بمهمات كبيرة في السودان والحجاز والجزائر(1).

بالإضافة إلى هؤلاء كان مجموعة طيبة من أعيان وزعماء برقة من الحضر والبادية ومن بينهم الأمين بك شتيوي متصرف بنغازي، ومحمد بك كاهية وجميع أفراد أسرته، والشيخ علي التزيري، والحاج عبد الله بن شتوان، والشيخ محمد الأسمع والحاج سالم عثمان، وكبار عائلة منينة وابن زلح، وهؤلاء من وجهاء وعيون بنغازي، أما من درنة فقد انضم إليه جميع عائلتها ورؤسائها منهم وقتذاك عائلة جريل، وعائلة ساسي وستيته، ومن شيوخ البدو علي بك الأطيوش، والحاج محمد قادربوه، والشيخ حمد اللواطي، وأبو بكر بك حدوث وعمر جلغاف وعبد الله سويحل عمدة عائلة مريم وأضرابهم من الشيوخ والعمد والأعيان وعامة الأهالي، هؤلاء جميعاً كانوا من أنصار الحركة السنوسية انصهروا في بوتقتها، وتبنوا تعاليمها، وأصبحوا من دعاتها.

كان هؤلاء الإخوان من شتى بقاع المعمورة فآخى بينهم ابن السنوسي وهم لم يتعارفوا قبله إذ لا صلة تربطهم غير الإسلام، فأصبحوا كجسد واحد غير قابل للتجزئة، جاءوا من تونس، والجزائر، ومراكش والريف وسوس الأقصى، وطرابلس الغرب وباديتها وبرقة وباديتها ومصر وصعيدها والسودان والحجاز واليمن ونجد، فأصبحوا لا هم لهم إلا خدمة الإسلام(2).

رابعاً - الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع عند ابن السنوسي:

لقد استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي والاجتماع على البر والتقوى الذي سلكه ابن السنوسي

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(69).
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(159).

هو طريق أهل السنة والجماعة الذي التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، في العقائد والأخلاق، والعبادة، والمعاملات، وكافة شئون الحياة، إن المنهج الذي اجتمع عليه الإخوان السنوسيون هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن ذلك طريق الاعتصام بحبل الله وهذا الأصل من آكد الأصول في هذا الدين العظيم، ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهى عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدره الله ﷻ كوناً، ووقع كما قدر، إلا أنه. سبحانه. لم يأمر به شرعاً، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم عوامل النهوض، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد، : 11].

لقد تضافرت جهود دعاة الحركة السنوسية وقادتها وعلمائها وطلابها لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وكأنهم اعتقدوا أن: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان»(1).

«إن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية»(2).

إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم كانت من أهم أهداف الحركة السنوسية؛ لأن قادة الحركة أيقنوا بأهمية هذه الخطوة في إعزاز المسلمين، وتحكيم شرع ربهم، وتقوية دولتهم.

إن ابن السنوسي عمل على وضع منهج سار عليه علماء الحركة من أجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنة رسوله ولذلك اهتم بالآتي:

---

(1) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، للسعدي، ص(5).

(2) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، ص(5).

أ - وحدة العقيدة:

أيقن ابن السنوسي أنه لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، وكان يعلم بأن العقيدة تشكل أساساً مهماً في البناء الفردي والاجتماعي، وهي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار. وإن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دونوا هذه العقيدة تدويناً يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال[1].

إن سلامة الاعتقاد وصحته هي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزها وسعادتها في الدنيا والآخرة، إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافي النقي الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العوائد الفاسدة.

إن طريق النهوض بالأمة لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية، والطريق لفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعون بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: 100].

فوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[4].

---

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي، ص(255).
(2) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص(255).
(3) انظر: مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة، (4/ 1963) رقم (2533).
(4) انظر: الموطأ، رقم (1619).

وعنه ﷺ : «من كان متأسياً فليتأسّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(1).

لقد اهتمت الحركة السنوسية بجانب العقيدة وكانت رسالة أبي زيد القيرواني العلمية ضمن مقررات مناهج الحركة، وتعتبر هذه الرسالة من أنفع التآليف في الفقه المالكي قاطبة، وذلك لمكانة مؤلفها العلمية من ناحية، ولسهولتها ويسرها وجمعها لأصول العقيدة والفقه والآداب من ناحية أخرى.

وهي كما وصفها مؤلفها ابن أبي زيد في مقدمتها: «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس ﷺ وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته»(2).

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: (باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك له. ليس لولايته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم. . العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة. كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه،

(1) انظر: حلية الأولياء (1/ 379).

(2) انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص(9).

وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، والإيمان بالقدر خيره وشره.. حلوه ومره.. وكل ذلك قدّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عبادة قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شيء، هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48] ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7] ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.. وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابهم.

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8] ويؤتون صحائفهم بأعمالهم... وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويذاد عنه من بدل وغير، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة لا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة. وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين. وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويُسألون ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27] وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً[1].

هذه العقيدة السنية البهية كانت تدرس في مناهج الحركة السنوسية، ويتربى عليها القادة، والجنود، وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ الأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه[2] ويعلمون الناس أوامر القرآن والسنة الشريفة وأصول التوحيد، ويحرمون التضرع للأولياء، ويربون الناس على أن يكون التعبد لله وحده[3]. كانت بعض القبائل في الصحراء الكبرى وإفريقيا قد انحرفت عن عقيدتها الصحيحة، فجاء إليهم علماء الحركة السنوسية يبينون لهم عقيدتهم ويتلون عليهم آيات الله التي تبين أن النافع والضار هو الله وحده ويفسرون لهم ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: 106].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62].

كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة، كالاتحاد، ووحدة الوجود، والحلول؛ إن عقيدة الاتحاد من عقائد الصوفية الفاسدة المتأثرة بالنصرانية المنحرفة،

---

(1) انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص(16، 17، 18).

(2) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص(132).

(3) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، حسن إبراهيم، ص(47).

والديانة الهندية القديمة، ومعنى ذلك أن المخلوق يتحد بالخالق، تعالى الله عن قولهم علوّاً عظيماً، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: 102، 103].

أما وحدة الوجود، فإنهم يعتقدون أن كل شيء في الوجود هو الإله سواء كان حيواناً أو جماداً، أو إنساناً أو غير ذلك، وهي عقيدة فاسدة مضمحلة لا أساس لها من عقل ولا شرع ولكنها من وحي الشيطان، إن الحركة السنوسية حاربت هذا المعتقد الفاسد الباطل، وسارت على مذهب أهل السنة والجماعة الذي يقول بأن الله سبحانه بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصف بصفات الكمال فله الأسماء الحسنى والصفات العلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فهو المتفرد بالجلال المتصف بصفات الكمال المنزه عن النقائص والعيوب فمن اعتقد أن الله سبحانه وتعالى متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب، والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وخالف الفطر والشرائع، وقد كفّر الله تعالى النصارى الذين قالوا: إن الله اتحد بعيسى عليه السلام فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17] فكيف بمن يقول إن الله متحد مع جميع مخلوقاته فهو أولى بأن يكون كافراً لأنه يعتقد إن الله متحد بجميع ما في هذا الكون[1].

إن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحتة ليست من الإسلام في شيء، وإن علماء الحركة السنوسية وقفوا ضدها بكل حزم وعزم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص].

وحاربت الحركة السنوسية عقيدة الحلول التي تقول بأن الله يحل في الأشخاص تعالى الله عن قول الحلوليين علوّاً كبيراً.

«والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة؛ لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه دخل به الإله وصار مع الله وحدة واحدة، ولا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من إيمان»[2].

لقد حاربت الحركة السنوسية العقائد الفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله على نفسها، ودعت غيرها بالالتزام بذلك.

---

(1) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود، ص(285).

(2) انظر: المؤامرة على الإسلام، للجندي، ص(52).

ب - تحكيم الكتاب والسنة:

أيقن ابن السنوسي وإخوانه من العلماء أن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عز، ولا نصر، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والقبائل، ومن ثم على مستوى الدولة.

واسترشد ابن السنوسي فيما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وبقوله ﷺ في حجة الوداع: (يا أيها الناس: إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي)[1].

إن ابن السنوسي حرص على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته، ومجتمعه، وكان يرى أن ذلك خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة واقترابها من نصر الله تعالى، وأن للتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، آثار دنيوية، كالاستخلاف، والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة، والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل، وانزواء الرذائل، وأما الآثار الأخروية، كالمغفرة، وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة وعلو المنزلة ومعية التكريم، وإليك هذه الرسالة التي أرسلها ابن السنوسي إلى أهل وجنقة في تشاد لتدلنا على ما ذهبنا إليه.

قال -رحمه الله- بعد البسملة: «إنه من عبد ربه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي. إلى المكرم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الجنقاوي وكافة جماعة بلد وجنقة كبيراً وصغيراً ذكراً وأنثى سلم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم آمين السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته وبعد... فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية أحوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ وشرف وكرم وعظم، وثانياً فإنا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: 70] والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان، وأداء زكاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق. وشهادة الزور، وغير ذلك مما حرم الله ورسوله، فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران

---

(1) انظر: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (2/ 890) رقم (1218).

ولا يحوم حول حماه حرمان، وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسوله عليهم، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبه الغافل، ونعلم الجاهل، ونرشد الضال. ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين، وعندما قدمنا لهذه النواحي اشتغلنا بدلالة العباد إلى الله، وما رأينا أحداً من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه، والآن فإن أتباعنا . جماعة زوية . الذين هم أهل تزور (موقع) المعلومة عندكم قدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبوا منا بناء زاوية بموقع تزور المذكورة. وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وأبناءكم كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وإصلاح ذات البين بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم عاملين بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9] ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]. وبقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114] فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: 2] وبقوله ﷺ: «كونوا عباد الله إخواناً وعلى الدين أعواناً» وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها؛ بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سنة رسول الله ﷺ ولا تخافون بعد ذلك إن شاء الله من أحد، وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنه وكرمه آمين، ودمتم بخير عافية، ونعم متواترة ضافية)[1].

وهذه الرسالة تعطينا منهجية ابن السنوسي في دعوته وأسلوب عرضه، وطريقة خطابه، وجزالة ألفاظه، وروعة بيانه.

ج - صدق الانتماء إلى الإسلام:

أيقن ابن السنوسي أن من أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها: الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(152).

لقد تربى أتباع السنوسية على أن الإسلام منهج للحياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية، ولقد تربى أتباع السنوسية على الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

لقد كان الانتماء إلى الإسلام في التربية السنوسية فوق الانتماء للأوطان، والأقوام، والنعرات الجاهلية.

د - طلب الحق والتحري في ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه، يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله، وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن الله تعالى في كتابه الكريم، يبين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32].

قال القرطبي -رحمه الله-: «قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول فإن الحق فيها في طرف واحد»(1).

ولذلك نجد ابن السنوسي - وهو المالكي المذهب والثقافة - يخالف مذهب مالك في بعض المسائل عندما تبين له أن الحق خلاف مذهب الإمام مالك، فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر في الصلاة أثناء القصر... إلخ وقد حذا أتباعه حذوه، وهذا يدلنا على تحري ابن السنوسي وأتباعه للدليل الشرعي والتمسك به، ونقد كثيراً من آراء التصوف والمخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت وسائل الوصول إلى الحق، تقوى الله، والتجرد والإخلاص.

هـ - تحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع:

أيقن ابن السنوسي أن بتحقيق الأخوة بين القبائل، وأتباع الحركة، تتحقق وحدة الصف، وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد الحركة، كما كان على علم بأن الأخوة منحة من الله عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: 62-63].

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن (8/336).

إن الأخوة في الله بين أتباع الحركة السنوسية أورثتهم شعوراً عميقاً، وعاطفة صادقة، ومحبة وودّاً واحتراماً فيما بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

إن الأخوة في الله ملازمة للإيمان، ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوة ولذلك حرص عليها السنوسيون وأتباعهم، قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**(1).

لقد حرص السنوسيون أن يطبقوا تلك الصورة الجميلة لأصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: 29].

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي جعلت الحركة السنوسية تصمد في وجه أعتى المحن التي تعرضت لها.

(1) انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (1/11).

الفصل الثاني

البعد التنظيمي، والمنهج التربوي والبعد السياسي عند ابن السنوسي

المبحث الأول

البعد التنظيمي عند ابن السنوسي

إن البعد التنظيمي يظهر في شخصية محمد بن علي السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي سار عليه، فأما الزوايا فهي ركيزة نظام الحركة السنوسية وهي التطبيق العلمي لأفكار ابن السنوسي التي دعا إليها.

إن نظام الزوايا كان معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الأفريقي خصوصاً، فكلمة الزاوية تطلق عند الطرق الصوفية على مكان يختلي فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهاراً منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة الناس لهم، على يد رجال القوافل الذين يضربون في الطرق الصحراوية، وينزلون بهذه الزوايا التي غالباً ما كانت مواقعها في أماكن خلوية بعيدة عن العمران، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحتسبها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقرباً إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية.

أما الزوايا السنوسية فهي تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون؛ أي من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها[1]. لقد استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة واعية، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية؛ وقد تحدث ابن السنوسي في إحدى رسائله عن الزاوية فقال: «والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده. . . والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد

---

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت، ص(255).

ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»[1].

وقال في رسالة أخرى: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منه (يعني الزاوية) ويدوم، من تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»[2]. وقال في رسالة ثالثة: «رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم.. وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة وتتسع الإدارة»[3].

لقد استطاع ابن السنوسي أن يؤسس تنظيماً هرمياً للحركة فكان تشكيله كالآتي:

1 - شيخ الطريقة أو رئيس النظام وهو الرئيس الأعلى لها.

2 - مجلس الإخوان (الشورى)، ومهمته مساعدة شيخ الحركة في تعيين شيوخ الزوايا.

3 - شيوخ الزوايا.

4 - الإخوان ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة[4] كما أصبحت في أواخر حياة ابن السنوسي زاوية الجغبوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل في البناء التنظيمي في الحركة زوايا رئيسية أو زوايا عليا، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية الكبار، كزاوية أبي قبيس بمكة، وزاوية البيضاء، وزاوية درنة، وزاوية بنغازي، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعاً واستجابة للحاجات الدينية والعقلية[5].

استطاع ابن السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش، وفق نظام دقيق تلتقي أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزاوية قد انتشرت في تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن، والسودان الغربي (تشاد)، وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولاً إلى بنغازي ثم ترسل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة[6].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(143).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(237).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(237).
(4) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص(133).
(5) انظر: تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبيا)، محمود عامر، ص(133).
(6) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(50).

وكانت العقلية التنظيمية عند ابن السنوسي تهتم بالتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، وكان تخطيطه يعتمد على تحفيزه لأتباعه والاستعداد لما سيواجههم في المستقبل وكان فهمه لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: 77]. وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: 60].

وجعلت من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العاملة توجيهاً سديداً، فأصبحت مراكز إصلاح إنسان متكامل، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية[1].

إن البناء التنظيمي للزوايا في الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسي استفاد من سنة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة، وكان مقتنعاً بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعوا سنة الأسباب، وأن يحسنوا التعامل معها، بحيث يستطيعون أن ينزلوها على أرض الواقع.

إن مفهوم التوكل عند ابن السنوسي، يعني الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، ولذلك استطاع أن يبني البناء التنظيمي البديع المتين، وفق أسس ونظم رائعة وإليك تفصيلها:

أولاً - الأسلوب الذي تبنى به الزاوية:

تبنى الزاوية بالاتفاق بين أحد القبائل التي ترغب في بنائها مع ابن السنوسي ويكون البناء وفق الأسلوب الآتي:

1 - تبنى الزاوية في قطعة من الأرض المختارة بالاتفاق مع القبيلة التي تملك الناحية ومع ممثل ابن السنوسي أو ابن السنوسي نفسه.

2 - يعين ابن السنوسي لهذه الزاوية رئيساً يلقب بـ(الشيخ) إذا كانت الزاوية قد بنيت، وإن لم تكن فيختط الشيخ زاويته في الموضع المتفق عليه وتكون أرضها وقفاً، وعادة تكون على ربوة عالية تشرف على ما حولها ويتوخى فيها المناخ الصحي[2].

3 - تكون تكاليف بناء مسكن الشيخ والمسجد والمدرسة من الأهالي.

4 - للزاوية حرم كبير يحيط بها من الجهات الأربع؛ يكون آمناً لمن دخله واستجار به،

(1) انظر: دراسات وصور، ص(286).

(2) انظر: السنوسي الكبير، ص(31).

فلا يجوز أن يطلق داخله الرصاص، أو يشهر السلاح، وكذلك المشاجرة وإعلاء الصوت لمقاتلة أو الخصام، كما يمنع فيه رعاية الحيوانات[1].

5 - من المألوف أن يرسل ابن السنوسي عدداً من (الإخوان) بينهم من يشتغل بالبناء والعمارة والتجارة وكل المهارات التي تحتاج إليها القبيلة في تشييد الزاوية[2]، ومن الطبيعي أن يستغرق البناء وقتاً يطول أكثر من العام، ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولاً ثم مقر لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية في النهاية بيوتاً لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزناً لحفظ المؤن وإسطبلاً وبستاناً ومتجراً على الأقل، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرناً لسد حاجة السكان للخبز[3]، وتقوم حولها مبان أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأووا إليها في موسم الصيف، ويكون لها متسع من الأراضي الزراعية والآبار الجوفية والصهاريج لحفظ الماء[4].

ثانياً - مواقع الزوايا:

تميزت مواقع الزوايا، بصفات سياسية وتجارية، وعسكرية؛ فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السواحل، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية، ولذلك فضل ابن السنوسي أن يتوغل بزواياه في الصحراء، وحرص على أن يوضح غرضه الدعوي من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثماني في ليبيا تفادياً للصدام بها، فكتب إلى مصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك: «إن الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»[5]. وأوضح نفس الغرض الديني للزاوية للمشير محمد أمين باشا والي طرابلس الغرب العثماني فقال: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا ونريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها اليوم، من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»[6].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(31).
(2) انظر: المجتمع الليبي، ص(314).
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص(24).
(4) المصدر السابق نفسه، ص(25).
(5) انظر: المصدر السابق، ص(24).
(6) المصدر السابق نفسه، ص(25).

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا، فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة، فقد أقيمت معظم الزوايا في طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية في الأراضي الليبية: الطريق الأول للقوافل يتجه جنوباً من الساحل الليبي عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثاني ينعطف جنوباً غرباً عبر غدامس وغات إلى تمبكتو، والطريق الثالث يسير جنوباً شرقاً عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا إلى واداي ودارفور الغني بخصبه وثروته، والمتتبع لمواقع هذه الزوايا في الأراضي الليبية مثلاً يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل ابن السنوسي يستخدم زواياه والقبائل التي توجد الزوايا في أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها، مما كان له أثر كبير في تحريك عجلة البلاد الاقتصادية، بسبب دور الزوايا في تشجيع تجارة القوافل التي كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية[1]، زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذي حث عليه ابن السنوسي أهل القبيلة أو القبائل الواقعة في أراضيها الزاوية أو الزوايا[2].

ولا تقل الأهمية العسكرية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية، فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للإخوان السنوسية الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، ومن ثم بنيت الكثير من الزوايا على أنقاض الأطلال الإغريقية والرومانية فيما مضى والعثمانيين فيما بعد. من الضروري بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التي تقوم بها القبائل المتوغلة في الصحراء، هذا إلى جانب أن ابن السنوسي اتبع في إنشاء الزوايا نظاماً خاصّاً يدل على الأهمية العسكرية للمواقع التي اختارها للزوايا، فبدأ من مواقع على شاطىء البحر المتوسط وبنى بهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التي تجاورها مسافة ست ساعات، ثم أنشأ خلفها زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها، حتى إذا هوجمت الزوايا الأمامية التي بالشاطىء استطاع الأخوان وأهل الزاوية أن يتنقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفية[3]، وبمعنى آخر استطاع ابن السنوسي أن يقيم من الزوايا خطوط دفاع متتالية تساند الخط الثاني الخط الأول، ويساند الخط الثالث الخط الثاني، وهكذا، وكل هذا تم بدون أن يثير ابن السنوسي ثائرة أو شكوك الحكومة العثمانية[4].

يقول بريتشارد: «إن من درس توزيع الزوايا السنوسية في برقة يلاحظ أنها أقيمت وفق

(1) انظر: دراسات في التاريخ الليبي، مصطفى بعيو، ص(60).
(2) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(258).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(22).
(4) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (258، 259).

خطة سياسية اقتصادية، فقد بني عدد كبير منها على منشآت يونانية ورومانية، وأسست على طرق القوافل الهامة وفي مواقع دفاعية قوية»[1].

وقال شكيب أرسلان: «وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقلّ إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بستانين، فيها من كل أنواع الفواكه»[2].

ثالثاً - وظائف الزاوية:

كانت الأعمال التي تقوم بها الزوايا كالآتي:

1 - التنفيذ العلمي لأحكام ومبادىء الحكم الشرعي بين المواطنين، والتربية الدينية والخلقية للأتباع والإخوان وإعداد الدعاة.

2 - الدعوة إلى الالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التي وجدها الناس في شيوخ الزوايا.

3 - الاهتمام بدعوة الشعوب الوثنية وهذه وظيفة الزوايا المتغلغلة في الصحراء الكبرى والتي وصلت في قلب إفريقيا الغربية والسودان، ولقد اهتدت هذه القبائل إلى الإسلام طائعة مختارة.

4 - تنقية الإسلام مما علق به على يد الغلاة من المتصوفة من بدع وتعاليم تبعده عن سماحة عقيدته، وأصوله المحكمة.

5 - قامت بدور تعليمي، فقد كانت أشبه بالمراكز الإسلامية المنتشرة في العالم، وكانت الزاوة تمثل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن يتميز من الأطفال يلتحق بعاصمة الزوايا سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التي صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن الكريم، والتي حوت مكتبتها ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية[3].

وكانت المناهج التربوية في الزوايا تشتمل على جميع العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول الفقه، والفرائض، والتصوف، والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها.

---

(1) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص(78).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (1/ 298).

(3) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(262).

6 - كانت الزوايا تدرب تلاميذها على إتقان الحرف والصناعات، مثل صناعة البارود والأسلحة.

7 - قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم، ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً.

8 - شجعت الزوايا الحركة التجارية والزراعة، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع، وكانت تقوم بتقديم مساعدات وتسهيلات لراحة المسافرين التجار، مما شجع على التبادل التجاري بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر في أرض الزاوية.

9 - قامت الزوايا بدورها الجهادي في مواجهة الغزو الفرنسي المتقدم وسط إفريقيا وفي الكفاح ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، ولولا الله ثم استعداد الزوايا الجهادي لما استطاع الليبيون أن يصمدوا ضد إيطاليا أكثر من عشرين سنة[1].

رابعاً - السلطة في الزاوية:

تتألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسئول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين، ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات، وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدم - وهو كما يقول أرسلان «القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام، ويليه وكيل الدخل والخرج وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية، وبالإضافة إلى هذين هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أطفال القبيلة ويعقد فيها عقود النكاح ويصلي على الجنائز»[2].

ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة لأنها من مهام شيخ الزاوية (مقدمها)، ومن مهام شيخ الزاوية التي ذكرها بريتشارد «هو الذي يمثل رئيس النظام، ويقود رجال القبيلة في الجهاد، ويصل بين القبيلة ورجال الإدارة العثمانيين، ويقوم بضيافة المسافرين ويشرف على حصاد الزرع ويؤم صلاة الجمعة ويساعد في الوعظ والتعليم»[3].

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(263، 264).
(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (1/ 298).
(3) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص(80).

خامساً - طريقة فض المنازعات في الزاوية:

يتخذ رئيس الزاوية مجلساً من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل وجوهها، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضاً بذلك، ومنها ما يفض بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول. وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية بشيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له ويضرب لذلك موعداً يحدد زمانه ومكانه وهناك يحسم بدون عناء، وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه، والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ يرفع إلى الجغبوب حيث يصدر القرار النهائي[1].

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على وثيقة بتاريخ 9 رجب 1297 هـ تتحدث عن خصام وقع بين أهاي هون وسوكنه استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف[2].

سادساً - أراضي الزاوية:

كانت أراضي الزاوية موقوفة عليها فلا تباع ولا تشترى وتبقى مرتبطة بالزاوية، ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذي يكون عن طرق مختلفة، منها الهبة والتبرع ومنها الشراء ومنها إحياء الأراضي البور، وإصلاح الآبار الخربة، ومنها نزعُ المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلها للزاوية[3]. وقد ذكر المؤرخ الدجاني إحدى الرسائل التاريخية تبين كيف تتحول الأرض المحيطة بالزاوية إلى وقف. والوثيقة هي عبارة عن رسالة بعث بها أحد الإخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة، ويرد فيها «وأيضاً نخبركم أنه في محل ببرقة يقال له أجدابية قصرين معلومات، والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزاوية راغبين في الأستاذ أن ينشىء لهم زاوية هناك، وكتبوا حججاً في إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا منهم واحد مخصوص إلى حضرات جنابه ﷺ يعني ابن السنوسي»[4] والقصد لا يتعدى على الأرض، وتاريخ الرسالة 15 محرم 1276 م أي قبل وفاة ابن السنوسي بشهر، فالأرض في هذه المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعاً من

(1) انظر: المجتمع الليبي، ص(315).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(239).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(240).
(4) انظر: دار المحفوظات بطرابلس نقلاً عن الحركة السنوسية، ص(241).

مشايخ القبيلتين، ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف[1]. وكانت مساحة أراضي الزاوية كبيرة نسبياً وتصل أحياناً إلى «2500» هكتار بعضها مزروع والبعض الآخر يترك للرعي. وقد ذكر ريتشارد أن مجموع أراضي الزاوية في برقة يبلغ نصف مليون هكتار[2].

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها ويساعدهم في الزرع والحصاد رجال القبيلة، وقد ذكر شكيب أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية، ولذلك يسهل العمران بدون نفقة كبيرة[3].

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها، وكان يبلغ عدد السكان في أصغر الزوايا حوالي الخمسين بما في ذلك الأطفال والنساء، ويصل العدد في زوايا إلى المائة، أما الزوايا الكبيرة، كالجغبوب فيتجاوز الألف، ولم تكن «الزاوية» مقصورة في تنظيماتها على هذا العدد من سكانها وإنما على القبيلة التي تقيم في منطقتها، فسلطاتها تسيّر شئون أفراد القبيلة الذي يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية[4].

سابعاً - موارد الزاوية:

تتكون موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية[5]. وقد كانت الهبات الخيرية تقدّم من أهالي القبيلة. كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسمياً، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب، وأعطت لها حق جباية الزكاة، وكانت «الزاوية» تنفق بعض هذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها، أما ما يتبقى فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرف فيه رئيس النظام[6].

ثامناً - التعليمات الخاصة بنظام الزوايا:

كانت هناك تعليمات وأعراف وعادات تلتزم الزوايا بتطبيقها، ومن ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها. أما في حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص(241).
(2) انظر: عشر سنوات في بلاط طرابلس، ص(77).
(3) انظر: حاضر العالم الإسلامي (1/ 298).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(242).
(5) انظر: السنوسي الكبير، ص(33).
(6) انظر: الحركة السنوسية، ص(242)، ومعنى رئيس النظام شيخ الطريقة.

فنفقات ذلك على حسابه الخاص، كذلك حدد بدقة ما يأخذه شيخ الزاوية سنوياً:

1 - يتألف كساء شيخ الزاوية سنوياً من عشر بدل وتتكون البدلة من (قميص وسروال وغطاء الرأس وحذاء) شريطة أن لا يكون منها حرير أو جوخ، وكذلك حرامين صيفي ومثلهما شتوي وبرنس، ولشيخ الزاوية الحق في شراء سلاحه وفرسه الخاصين به من أجود الأنواع، وله أيضاً مهر ونفقات زوجة واحدة، وإذا ما أراد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع فيكون ذلك على نفقته الخاصة.

2 - لشيخ الزاوية الحق في تعيين معلم الصبيان والمنادي للصلاة (المؤذن) وعدد من الخدم والعمال حسب مقتضيات الضرورة وتكون نفقاتهم وأجورهم من موارد الزاوية.

3 - من واجبات شيخ الزاوية إحضار الطعام الكافي لعشرة أشخاص يومياً في موعدي الغذاء والعشاء وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيئهم للزاوية، فإن نقص هذا العدد فعليه إحضار ما يكفي في وقته، ولا يتجاوز الطعام نوعاً واحداً إلا في الحالات الخاصة.

4 - إذا تجاوز عدد الضيوف خمسة أشخاص ورأى الشيخ أن ينحر لهم فله ذلك.

5 - لشيخ الزاوية الحق في أن يختص بالعشر من محصولات الزاوية وذلك للإنفاق منها في حالاته الخاصة، وفيما يترتب عليه لأقاربه الذين لا حق لهم من موارد الزاوية.

6 - على الشيخ أن يحتفظ بما يكفي لنفقاتها سنوياً من مجموع الواردات وإرسال الباقي منها إلى المركز الرئيسي.

7 - لا حق لشيخ الزاوية أن يضيف أقاربه على حساب الزاوية، وتفادياً لضيق ذات يده فقد منح عشر الواردات، وسمح له بامتلاك المواشي وتعاطي الزراعة لحسابه الخاص كي يواجه بذلك نفقاته الخاصة التي لا حق له في أخذها من أموال الزاوية، وله الحق في أن ينحر لنفسه وزوجته الأولى وأولاده منها شاتين أسبوعياً.

8 - للعمال وخدم الزاوية الحق في أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع.

9 - لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزاوية المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى هذه الحدود.

10 - على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنوياً (كلهم أو بعضهم) إذا ما رأوا وجوب ذلك، وعليهم أن يتشاوروا في تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعي لعقد الاجتماع.

11 - إذا التجأ شخص أو أشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هذه حمايته والسعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة.

12 - تتكون موارد الزاوية من الزراعة وتنمية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية[1].

تاسعاً - أسماء بعض الزوايا التي أنشأها ابن السنوسي:

1 - زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة وهي أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق، تم تأسيسها عام 1242 هـ وكان أول شيخ لها العلامة عبد الله التواتي، ومن بين من تولى مشيختها السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد.

2 - زاوية المدينة المنورة، تم إنشاؤها عام 1266 هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيع، ومن بين من تولى مشيختها: العلامة مصطفى الغماري، ومحمد عبد الله الزاوي، عبد السلام فركاش.

3 - زاوية جدة (الحجاز).

4 - زاوية الطائف (الحجاز).

5 - زاوية منى (الحجاز).

6 - زاوية بدر (الحجاز).

7 - زاوية البيضاء (برقة) أنشئت عام 1257 هـ وهي أول مركز رئيسي في ليبيا وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن حمد الفيلالي ومن بين من تولى مشيختها الأعلام: عمران بن بركة الفيتوري، حسين الغرياني، محمد بن إبراهيم الغماري، العلمي الغماري، محمد العلمي الغماري.

8 - زاوية مارة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، وكان من بين من تولى مشيختها: أحمد علي أبو سيف، أحمد بن إدريس الأشهب، عبد الله أبو يوسف.

9 - زاوية درنة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، ومن بين من تولى مشيختها: مفتاح خوجة، السنوسي الغرياني عبد الرحمن العجال.

10 - زاوية الجوف (واحة الكفرة) كان ابن السنوسي قد عهد ببنائها إلى المشايخ الحاج مصطفى أبو شايدة، الحاج محمد أبو حليقة، عقيلة الحليق وذلك عقب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زوية العربية، وكانت الكفرة يومذاك مأوى للدعارة واللصوص ومعقل حصين لقطاع الطريق، وكان يتناوب غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها وهي:

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(32، 33).

قبائل الجهمة من مصر، وقبائل التبو من شمال السودان، وقبائل زوية من برقة وبذلك فقد كونت خطراً على السابلة وقوافل التجارة إلى أن أنشئت بها زاوية السنوسية؛ فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي:

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن   دار السلامة وللإسلام مهتجر
تأوي الوفود لها من كل ناحية   مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

وكان أول شيخ لها هو عمر أبو حواء الفضيل، ومن بين من تولى مشيختها: عبد الهادي الفضيل ثم محمد عمر الفضيل.

11 - زاوية قفنطة (برقة) وكان أول شيخ لها هو المختار ابن عمور وبقيت مشيختها في عقبه.

12 - زاوية شحات (برقة) أنشئت عام 1261 هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة مصطفى الدردفي، ومن بين من تولى مشيختها: محمد الدردفي، رافع بدر فركاش، مصطفى محمد الدردفي.

13 - زاوية العرقوب (برقة) وكان أول شيخ لها هو محمد الجبالي.

14 - زاوية مسوس (برقة) وكان أول من تولاها بالوكالة الشيخ فهيد العاقوري، وكان أول شيخ لها هو أحمد علي أبو سيف، وفي سنة 1271 هـ تولى مشيختها العلامة عمر الأشهب إلى سنة 1297 هـ حيث توفاه الله فتولى مشيختها ابنه السيد السنوسي الأشهب، وبعد وفاته سنة 1332 هـ تولى مشيختها ابنه محمد يحيى، وفي سنة 1367 هـ تولى مشيختها محمد عثمان أبو عريقب.

15 - زاوية الطيلمون (برقة) كان أول شيخ لها هو مصطفى المحجوب ثم العلامة علي المحجوب، فالسيد أحمد محمد المحجوب.

16 - زاوية القصور (برقة) كان أول شيخ لها هو العلامة محمد المبخوت التواتي، ثم محمد مقرب حدوث، فالشهيد الكبير عمر المختار.

17 - زاوية المرج (برقة) كان أول شيخ لها هو أحمد بن سعد، فالسيد علي العادي، فالعلامة محمد السكوري، فالعلامة محمد بن عبد الله التواتي، فعمران السكوري، فابنه أحمد.

18 - زاوية بنغازي (برقة) وكان أول من تولى مشيختها هو العلامة عبد الله التواتي، فالعلامة عبد الرحيم بن أحمد المحجوب، وكان من تولى مشيختها السادة: محمد أبو القاسم العيساوي، فالسيد صالح العوامي، فالعلامة أحمد أبو القاسم العيساوي.

19 - زاوية مرزق (فزان) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

20 - زاوية واو (فزان) وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة العلامة محمد بن الشفيع ثم أسندت مشيختها إلى محمد علي بن عمر الأشهب، فابنه نجم الدين.

21 - زاوية زويلة (فزان) كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

22 - زاوية هون (واحة الجفرة) كان أول من تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد.

23 - زاوية مزدة (طرابلس) كان أول شيخ لها هو العلامة عبد الله السني، وقد بقيت مشيختها في عقبه.

24 - زاوية طبقة (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الأزهري وبقيت مشيختها في عقبه.

25 - زاوية العزات (برقة) أنشئت سنة 1270 هـ وكان من بين من تولى مشيختها عمر جالو.

26 - زاوية المخيلي (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة الحسين الحلافي وتعاقب ورثته على مشيختها.

27 - زاوية تازربو (واحات الكفرة) وكان من بين من تولى مشيختها العلامة محمد المدني.

28 - زاوية ربيانة (واحات الكفرة) وكان أول شيخ لها هو حسين بازامه وبقيت مشيختها في عقبه.

29 - زاوية دريانة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إبراهيم الغماري فابنه السيد حسن، فالسيد محمد الحسن الغماري.

30 - زاوية سيوة (مصر) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

31 - زاوية الزيتون (سيوه) تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتي.

32 - سوكنة (واحات الخضرة).

33 - زاوية الرجبان (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة أبو القاسم العيساوي وبقيت مشيختها في عقبه.

34 - زاوية الواحات البحرية (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد السكوري.

35 - زاوية الداخلة (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الموهوب الدرسي.

36 - زاوية حوش عيسى (مصر).

37 - زاوية الفيوم (مصر).

38 - تونين غدامس (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو الشريف الغدامسي.

39 - زاوية طلميثة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها محمد الكليلي.

40 - زاوية توكره (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، عبد الله الجيلاني، عبد الله عمر الفضيل، يونس الموهوب.

41 - زاوية أم ركبة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، علي بن عبد الله.

42 - زاوية الفايدية (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إسماعيل الفزاني وبقيت مشيختها في عقبه.

43 - زاوية ترت (برقة) وكان أول شيخ لها هو عبد القادر الغزالي وبقيت مشيختها في عقبه.

44 - زاوية أم الرخم (مصر).

45 - زاوية النجيلة (مصر).

46 - زاوية الحقنة (مصر).

47 - زاوية دفنه (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الغرياني وبقيت مشيختها في عقبه.

48 - زاوية أم الرزم (برقة) كان أول شيخ لها هو المرتضى فركاش فابنه المرتضى الثاني، فالأمين فركاش، فمحمد الأمين فركاش.

49 - زاوية مصراته (طرابلس) وكان أول شيخ لها خليفة شنيشح.

50 - زاوية زليتن (طرابلس).

51 - زاوية زلة (طرابلس).

52 - زاوية الجريد (تونس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن الصادق[1].

هذه بعض المراكز الإصلاحية التي تمكنت من ذكرها والتي أنشئت في زمن ابن السنوسي، ولا أزعم أني استطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة وتوسعها وإقبال الناس عليها، وقوة نظامها، وحسن إدارتها.

إن القدرة التنظيمية عند ابن السنوسي تظهر للباحث في ركيزتها الأولى ألا وهي نظام الزوايا، حيث طور الزوايا المتعارف عليه في الشمال الإفريقي.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(33 إلى 38).

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء، فلا بد إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وإخوانه في بوتقة الطاعة والنظام.

ويلاحظ الباحث أن جل الزوايا ترتكز في الصحارى، وهذا يرجع إلى اهتمام ابن السنوسي بالبوادي، لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيداً عن متناول يد السلطة، فأوغل في الأماكن، ولأنه رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية ووجد فيهم نفوساً متهيئة لحمل الدعوة، كما كانوا أكثر استجابة واندفاعاً من غيرهم لحمل تعاليم الحركة، لذلك وقع اختيار ابن السنوسي على برقة كمركز لنشاطه حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية تحمست للدعوة الإسلامية، وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها، فأوجد الزوايا السنوسية ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية والقضائية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، ولذلك نجحت الحركة في البوادي، ولم تنتشر الدعوة في المدن، فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة، فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدي لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية، والسياسية، ولذلك نلاحظ أن الزوايا التي أسست في المدن لم تكن تقوم بوظائفها، كما تقوم بها زوايا البادية، كما أنه كان دورها كحلقة وصل بين الحركة في البادية والحضر، كزوايا بنغازي، ودرنة، وطرابلس[1].

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جدّاً، وحصر الدعوة في المدن وطبقات معينة من المجتمع يتنافى مع أصول دعوة الإسلام الخالدة، ولذلك لا بد من الاهتمام بالبدو والأرياف وكل طبقات المجتمع لتوصيلها دعوة الله تعالى.

«.. كثيراً ما حصرت الدعوة الإسلامية الحديثة في المدن حتى أن بعض العاملين في الحقل الإسلامي لا يعرفون شيئاً عن قرى مدينتهم ولا عن ريفها ولا عن القبائل البدوية الموجودة حولها إن كانت وهذا إخلال بواجب شرعي..»[2].

«إن التخطيط للعمل الإسلامي للريف والقبائل البدوية مهمّ جداً وأعظم شيء نخدم به في هذا المجال هو العثور على ناس من أهل القرى ومن البدو يدرسون الدراسة الشرعية الإسلامية ليرجعوا إلى أهليهم دعاة، وإنه لأجر كبير أن يتولى بعض أغنياء المسلمين الإنفاق على أمثال هؤلاء، فهذا النوع من التخطيط يحقق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(264).

(2) انظر: جند الله تخطيطاً، ص(135).

نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] [التوبة: 122].

«ومن التخطيط الذي ينبغي أن يسعى إليه أن توجد العلاقات والصداقات بين أهل المدينة وأهل الريف بحيث تكون زيارات متبادلة ينزل فيها عند أخيه الحضري وينزل الحضري فيها عند أخيه الريفي، والأصل في هذا الحديث الشريف: «**زاهر باديتنا ونحن حاضرته**»[2].

إن زاهراً الأشجعي صحابي جليل كان رسول الله ﷺ يحبه ويمازحه وهو من أهل البادية، وعندما يأتي للمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ينزل عنده.

لقد تحدث الدعاة عن ضرورة الاهتمام بالأرياف والقبائل، والمقصود من الحديث أن أهل البادية أصحاب فطرة سليمة، ومحبة للدين عظيمة، ويحتاجون للإرشاد والتوجيه، والتعليم، والتربية، ثم ينتظر منهم بعد ذلك خير عظيم في مجالات عديدة، وهذا ما حدث مع ابن السنوسي عندما اهتم بالقبائل والبوادي.

(1) انظر: جند الله تخطيطاً، ص(135).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(135).

المبحث الثاني
المنهج التربوي

انتهج ابن السنوسي منهجاً تربوياً استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه. وفي كتابه «السلسبيل» نلاحظ أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق، وحدد معالم الطريقة التي تتقيد بالكتاب والسنة، إن ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسنة، والصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة، وقد قال في ذلك: «فاعلم أن سبيل القوم اتباع النبي ﷺ في الجليل والحقير وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة»[1].

وقد فصل رحمه الله في تدريج المريد في مراتب السلوك، قال بعون الله وتوفيقه:

الخطوة الأولى:

«يتعين على المريد أن يصحح عقيدته بميزان اعتدال أهل السنة والجماعة كثر الله سوادهم وأدام إمدادهم»[2].

ولقد بينت مجملها عندما تحدثت عن رسالة أبي زيد القيرواني كجزء من المنهج الذي كان يتعلمه أتباع الحركة السنوسية.

إن منهج أهل السنة والجماعة يبين المفهوم الصحيح لتوحيد الله عز وجل لأنه اعتمد على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وقد تتبع علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة وخرجوا بالنتيجة التالية ألا وهي: أن توحيد الله سبحانه وتعالى يعني إفراد الله سبحانه وتعالى في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

1 - توحيد الربوبية:

ومعناه إفراد الله بالخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف ولا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد، حتى المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرون ولا يجعلون أحداً من آلهتهم شريكاً لله في ربوبيته.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31].

(1) انظر: الحركة السنوسية.

(2) انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص(8).

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: 84 - 89].

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الله بالربوبية ويجعل لغير الله ﷻ شيئاً من الشركة معه في الخلق والرزق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتياج له بل قرره أبدع التقرير[1] في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

2 - توحيد الألوهية:

هو إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**»[3]. ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[4].

3 - توحيد الأسماء والصفات:

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، أنه الحي القيوم الذين لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون.. إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى[5]، والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة أن يصفوا الله بما «وصف الله به نفسه وسماه على لسان رسول الله ﷺ

---

(1) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمد (1/ 195).
(2) المصدر السابق نفسه (1/ 199).
(3) انظر: صحيح مسلم مع النووي (1/ 212).
(4) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (1/ 201).
(5) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (1/ 204).

سميناه ما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف»[1].

أما طريق الراسخين في العلم في هذا الباب: «والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها، لا ينكرون صفة ما سمى منها جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمع تعمقاً، ولأن الحق ما ترك وتسميته ما سمى ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115][2].

الخطوة الثانية:

«أن لا يقدم المريد على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة»[3].

ولهذا كان أتباع الحركة السنوسية يتدارسون رسالة أبي زيد القيرواني في العقائد وفي الفقه المالكي، وأضاف ابن السنوسي بعض الكتب المهمة في هذا الكتاب، كصحيح البخاري، والموطأ وبلوغ المرام.

1 - صحيح البخاري:

إن الإمام البخاري - رحمه الله - واحد من أعظم علماء هذه الأمة، الذين رفع الله لهم ذكرهم، وأجرى ألسنة الخلق بالثناء عليهم والدعاء لهم.

سبق الجميع في العناية بحديث رسول الله ﷺ، ووقف عمره عليه، فأصبح أمير المؤمنين في الحديث، وترك للمسلمين من بعده أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم، كان آية في الحفظ، وغاية في الشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة[4].

- مكانة الجامع الصحيح بين كتب السنة الستة:

اتفق علماء هذه الأمة على أن جامع البخاري أجل وأعظم من جميع كتب السنة.

قال العلامة القسطلاني: «أما فضله: فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن، والمتلقى بالقبول من العلماء في كل أوان. فقد فاق أمثاله في جميع الفنون والأقسام، وخص بمزايا من

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (5/ 44).

(2) المصدر السابق نفسه (5/ 46).

(3) انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص8.

(4) انظر: الإمام البخاري، د. تقي الدين الندوي، صفحة الناشر.

بين دواوين الإسلام، شهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، ففوائده أكثر من أن تحصى وأعزز من أن تستقصى»[1].

وقال البخاري: «ما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين، وأرجو أن يبارك الله تعالى في هذه المصنفات»[2].

وقال ابن تيمية: «ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن»[3].

إن كتاب الصحيح للبخاري جمع بين الفقه والحديث وعلوم متعددة. إن وضعه في المنهج التربوي عند ابن السنوسي يدل على حرصه على اتباع النبي ﷺ.

2 - موطأ الإمام مالك:

إن حب ابن السنوسي للإمام مالك بن أنس وكتابه الموطأ يظهر للباحث جليّاً في المقدمة التي كتبها لطلابه، والتي تدلنا على قدرة ابن السنوسي في تعليم وتفهيم تلاميذه، فيقدم لهم المادة الغزيرة بأسلوب سلس بسيط مليء بالعلوم التاريخية والفقهية، والحديثية، والتربوية.

ولقد تحدث عن مدح العلماء للموطأ فقال: فاعلم أن كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة المجمع على جلالته من أجل المصنفات، وأنفس المؤلفات[4].

وعن محمد بن حرب المدني «.. ثم إن مالكاً عزم على تصنيف الموطأ فصنفه، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأتي بذلك فنظر فيه، ثم نبذه فقال: لتعلمن أن لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله. قال: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بَعْدُ ذكرٌ يذكر..»[5].

وذكر سبب وضعه فقال: فقد روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه، فكلمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أجد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ فما فرغ منه حتى مات أبو جعفر.

وفي رواية أن المنصور قال له: ضع هذا العلم ودوّن فيه كتاباً، وتجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة

---

(1) انظر: الإمام البخاري، ص88.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه، ص89.
(4) انظر: مقدمة الإمام مالك لابن السنوسي، ص13.
(5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص16.

والأئمة[1]، وقد ذكر ابن السنوسي ما رأى في الموطأ من البشائر فقال: عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: سمعت أبي يقول: كنت جالساً مع مالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل، فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا، فسلم عليه واعتنقه وضمه إلى صدره، وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالساً في هذا الوضع، فقال: ائتوني بمالك فأتى بك ترتعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكناك، وقال: اجلس، فجلست، قال: افتح حجرك، ففتحه فملأه مسكاً منثوراً وقال: ضمه إليك وبثه في أمتي، قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله تعالى[2].

إن في الروايات السابقة معاني تربوية عميقة كان أتباع الحركة السنوسية يتربون عليها منها:

1 - إخلاص الأعمال لوجه الله، وأن دوامها وقبولها من شروطه هذا الركن الأصيل، وأن العلماء المخلصين، يتكفل الله حفظ علمهم ونشره بين الناس.

2 - إن منهج الاعتدال، والحكمة، والاستقامة المتمثل في الوسطية التي سار عليها الإمام مالك، كانت منهجية أصيلة في حياة ابن السنوسي وإخوانه.

3 - إن ابن السنوسي كان يرى أن الرؤى الطيبة لعباده الصالحين تسر ولا تغر، وأحب أن يغرس هذا الفهم في أذهان تلاميذه، ولذلك ساق لهم رؤيا ذلك الرجل للإمام مالك.

وقد أفرد ابن السنوسي في مقدمته للموطأ باباً في التعريف بمؤلف الموطأ الإمام مالك وثناء الناس عليه، ونقل قول النووي: «قد اجتمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والثبات، وحديث رسول الله ﷺ، فقد جمع بين شرفي الحديث والفقه، فهو إمام الأئمة وشيخهم، قد روى عنه سائر الأئمة خصوصاً الأربعة، أما أبو حنيفة فبلا واسطة، فقد حكى غير واحد أنه لقي مالكاً وأخذ عنه... وأما الشافعي فأمره مشهور معه، حتى قال ابن الأثير: كفى مالكاً شرفاً أن الشافعي تلميذه، وكفى الشافعي شرفاً أن مالكاً شيخه.

وأما الإمام أحمد فقد أخذ عن الشافعي، فهو شيخه بواسطة، ومناقب هذا الإمام وفضائله رحمه الله تخرج عن أن تحصى، ولا يمكن فيها الحصر ولا الاستقصاء[3].

وذكر ابن السنوسي المناقب التي اجتمعت لمالك ولم تجتمع لغيره وأسند هذا القول للذهبي فقال:

---

(1) انظر: مقدمة الإمام مالك، ص17.

(2) المصدر السابق نفسه، ص20.

(3) انظر: المصدر السابق، ص28.

1 - طول العمر وعلو الرواية.

2 - الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم.

3 - اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية.

4 - إجماعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن.

5 - تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده[1].

وذكر ابن السنوسي كلاماً يكتب بماء الذهب أسنده إلى مالك، ليتربى عليه إخوانه وتلاميذه منه:

قول مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به[2].

وقال مالك: قلّما كان رجل صادق، ولا يكذب في حديثه، إلا مُتّع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة، ولا خرف[3].

ومن قوله: القول بالباطل بُعدٌ عن الحق، ولا خير في شيء وإن كثر من الدنيا يفسد دين المرء ومروءته[4].

لقد كان كتاب الموطأ حافلاً بالحديث والآثار، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه العلمي التربوي لأتباعه.

3 - بلوغ المرام:

وهو كتاب جامع للأحكام، ألفه العلامة أحمد بن علي بن محمد أبو الفضل الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني، وقد نال كتاب بلوغ المرام رضا العلماء، فهو كتاب مفيد مع صغر حجمه حوى ما يغني عن التطويل، وأقبل عليه العلماء قديماً وحديثاً فلا تجد حلقة عالم إلا وكتاب بلوغ المرام على رأس القائمة، وأقبل عليه الطلاب بالحفظ والتداول واستغنوا به عن غيره من أمثاله فصار له القبول وعليه إقبال حتى استفاد منه في كل عصر الجم

(1) انظر: مقدمة الموطأ لابن السنوسي، ص30.

(2) المصدر السابق نفسه، ص29.

(3) انظر: المصدر السابق، ص30.

(4) المصدر السابق نفسه، ص30.

الغفير، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه التربوي التعليمي، ويتعلم الطالب من هذا الكتاب:

- بين مؤلفه مرتبة الحديث من الصحة والحسن والضعيف بما يغني الطالب عن الرجوع إلى غيره.

- اقتصر من الحديث على الشاهد من الباب بما لا يخل بالمعنى المقصود، فخلص من هذا الإيجاز والفائدة.

- انتقى أحاديث الكتاب من دواوينه المشهورة وأمهاته المعتبرة التي أشهرها مسند أحمد والصحيحين والسنن الأربع.

- يصدر الباب - غالباً - بما في الصحيحين أو أحدهما ثم يتبعها بما في السنن أو غيرها لتكون الأحاديث الصحيحة هي العمدة في الباب والمرجع في المسائل والباقي مكملات ومتممات.

- رتب المؤلف كتبه وأبوابه وأحاديثه على كتب الفقه ليسهل على الطالب مراجعته.

- جعل في آخره نخبة طيبة من أحاديث جامعة في الآداب ليستفيد منه الطالب في الأحكام والسلوك[1].

هذه بعض الكتب القيمة التي جعلها ابن السنوسي في منهجه العلمي التربوي.

الخطوة الثالثة:

«ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وتنقية السر»:

إن دعوة ابن السنوسي إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق من صميم القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك، وبعد الآيات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22].

---

(1) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله البسام، ص22، 23.

وذلك يؤكد ما يلي:

1 - أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله، وهذا يقتضي شيئين: بذل جهد في التزكية، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها، وفي الحديث: «اللهم آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها»[1].

2 - أن من تزكية النفس: العفو والصفح عمن أساء إلينا؛ لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكر ﷺ، والذي خاض في الإفك، فمنع عنه أبو بكر رفده، فجاءت الآية واعظة، وَفَاء أبو بكر إلى سيرته، وما أرقاه من مقام!! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية!!.

3 - إن من تزكية النفس عدم اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وإذن فالتزكية تعني: تجنب الفحشاء والمنكر، وتجنب خطوات الشيطان، وأولى خطواته الحسد والكبر، فقد حسد آدم وتكبر عن السجود له.

4 - عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وعدم السير في طريق ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر.

5 - إمساك اللسان عن الأعراض، وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا إذا توفرت شروط شهادة وتعيّنت[2].

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية، فالتزكية باب واسع، وقد تحدث ابن السنوسي عن النفس البشرية وأنواعها وأمراضها وكيفية علاجها حديث العالم الخبير في تحقيقها فمن حديثه عن:

- النفس الأمارة قال:

وهي صاحبة الجهل والبخل والحرص والكبر والغضب والشره والشهوة والحسد وسوء الخلق والخوض فيما لا يعني من الكلام وغيره، والاستهزاء والبغض والإيذاء باليد واللسان وغير ذلك من القبائح . . . فكن أيها الأخ منها على حذر ولا تنتصر لها إن أحد آذاها بل كن معيناً له عليها وتخلص من هذه الآفات. . بالذكر الكثير القوي وتقليل الطعام والمنام، وحساب النفس كل ساعة، وخوفها بالموت، وعذاب القبر وما بعده من الأهوال، إلا إذا أوصل الخوف

---

(1) رواه مسلم.

(2) انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص154.

إلى درجة القنوط فيجب عليك حينئذ تذكر أسباب الرجاء وسعة رحمة الله تعالى، وعليك بالتذلل، والخضوع، والتضرع له تعالى، واطلب الخلاص بلطفه وإحسانه من الأوصاف الذميمة والتحلي بالصفات الحميدة كالصدق والتواضع، والمحبة، والإخلاص، والخمول، ونحو ذلك لأنك إذا اشتغلت في خلاص نفسك من الآفات وتبدلت بالأوصاف الحميدة شاهدت بعض العجائب المكنونة والأسرار المخزونة في صدفة البشرية، وأقبل على من لا غنى لك عنه بمعاملات الإحسان قبل أن تساق إليه بسلاسل الامتحان، وقد قال لك: من تقرب إليّ بشبر تقربت منه ذراعاً.. الحديث، فاترك التواني وأعرض عما يشغلك عن مولاك واستغن بالقناعة بما في يدك، ودع اللذات الفانية لأهلها، ولا تسوف التوبة والإقبال على الله تعالى، فإنك لا تدري ما بقي من عمرك.. وقد نقل السنوسي الإجماع على أن التوبة واجبة على الفور، ولزم من تأخيرها تضاعف الذنوب على من لم يتب وليس هذا التضاعف، كتضاعف الحسنات، بل إذا لم يتب صار عليه ذنب الفعل وذنب ترك التوبة وهذان الذنبان تجب التوبة منهما أيضاً، وإذا لم يتب منهما على الفور صارا أربعة وعلى هذا القياس، وإذا نظرت بعين الإنصاف والشفقة على نفسك رأيت احتياجك إلى التوبة أشد من احتياجك إلى المأكل والمشرب والمسكن لأنها قد حجبتك عن مطالعة الغيوب وحالت بينك وبين كل محبوب، وعلامة خلاص النفس من الآفات المارة أن يكون الخلق كلهم عنده على السوية، لا يحبهم محبة طبيعية تميله إليهم في منكر، ولا يكرههم كراهة تغير باطنه عليهم في معروف، ويستوي عنده جميع المأكل، وجميع الملابس، فمن رأى في نفسه شهوة لبعض دون بعض، وجب عليه المجاهدة، إلى أن يستوي ذلك عنده وإلا كان حيواناً في صورة إنسان بل الحيوان خير منه؛ لأنه ليس عليه تكليف ولا حساب ولا عقاب[1] وما قاله ابن السنوسي آنفاً تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: 53].

- **النفس اللوامة:**

وقد تحدث ابن السنوسي عنها فقال: وهي التي لها رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وصدقة، وغير ذلك من أفعال البر يدخل عليها العجب والكبر وكذا الرياء الخفي؛ بأن يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة، كالإخلاص وغيره ويحمده عليها مع أنه يخفيها عنهم ويعمل لله، ويكره هذه الخاصة لكن لا يمكنه قلعها بالكلية، والخلاص من ذلك الرياء يكون بالفناء عن شهود الإخلاص بشهود أن المحرك والمسكن هو الله تعالى شهود ذوق، ويشهد أن المنة لله تعالى عليه حيث فتح له أبواب العبادات، ومكنه من الدخول إلى حضرته وأهله للقبول في خدمته، والخلاص من

(1) انظر: المسائل العشر لابن السنوسي، ص280، 281.

الأولين، يكون بالمجاهدة، وهي ترك العادات، ومعظمها يكون بستة أشياء: تقليل المنام وتقليل الكلام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التام، فمن فعلها بصدق نقلته إلى الباقي والمطلوب من هذه الأشياء الاعتدال، ولذا لم يقولوا ترك الطعام بل لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع . . . فعالج نفسك بالشريعة وخلصها من أمراضها وأعظمها الكبر والعج اللذان هما أصل الغضب الذي ينشأ عنه الحقد الذي يتفرع عنه الحسد ولا يزول الكبر والعجب إلا إذا انقطع المدد عنهما وهو امتلاء البطن، وللحسد أسباب أخر، كحب الرياسة، وخبث النفس وكثيراً ما تكون هذه الأسباب بين أهل الطريق المتصوفين فيتمنى زوال ما على أخيه من المشيخة أو الخلافة وما هو عليه من الاستقامة والتوجه إلى الله تعالى، إذا عرفت ذلك فعليك بمعرفة أربعة أشياء، والتأمل فيها. الأول: أنه تعالى لا يعجزه شيء. الثاني: إحاطة علمه بكل شيء، الثالث: أنه تعالى أرحم الراحمين، الرابع: أن جميع أفعاله خير، فإن تحقق الأول يزيد همتك بالتوجه إليه والطلب منه مع اليقين بالإجابة والطلب على هذا المنوال لا يرد أصلاً، وتحققك بالثاني والأخير يحقق لك مقام التوكل والرضى والشوق والمحبة وغير ذلك وتحققك بالثالث يدفع عنك خوف الإنس والجن[1]، وهذا شرح لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآية: 2].

وقال ابن السنوسي عن النفس المطمئنة:

- **النفس المطمئنة:**

وهي التي لا تفارق الأمر التكليفي شبراً ولا تتلذذ إلا بأخلاق المصطفى ﷺ ولا تطمئن إلا باتباع أقواله وتتلذذ بصاحبها أعين الناظرين وأسماع السامعين وعلم معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، فيجب عليه الاجتماع مع الخلق في بعض الأوقات ليفيض عليهم بما أنعم الله به عليه من علم الصدور، لا علم السطور، وليكن في بقية الأوقات مع الله ليرقى إلى المقامات الباقية وليكثر من الذكر ولا يلتفت إلى ما يظهر من أنوار أو كمالات أو كرامات لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العبيد الخلص، وكل ما سوى الله قاطع عن المقصود، فهو فتنة فلا تقف عنده وإن إلى ربك المنتهى، ومن وصل إلى حضرة القرب صارت الكرامات طوع يده ومن تعرض لكرامة أولاً فقد طلب الشيء قبل أوانه، فيعاقب بحرمانه فيكون مشتغلاً بما لا يعني، والإنسان مدة حياته متعرض للمحن فينبغي التحرز من الآفات إلى الممات، وإياك وحب الرياسة والشهرة والتعرض للمشيخة والإرشاد[2]، وتحدث ابن السنوسي عن النفس الكاملة فقال:

---

(1) انظر: المسائل العشر، ص285.

(2) انظر: المصدر السابق، ص290.

- **النفس الكاملة**: وهي التي لا يفتر صاحبها عن العبادة إما بجميع البدن أو باللسان، أو بالقلب، أو بعضو من الأعضاء وصاحبها كثير الاستغفار، كثير التواضع، سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق، وحزنه في ضد ذلك، وهو كثير الأوجاع قليل القوى قليل الحركة ليس في قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات مع أنه يأمر وينهى ولا تأخذه في الله لومة لائم ويظهر الكراهة لمستحقيها والمحبة لمستحقها، فيضع كل شيء في محله، متى ما وجه همته إلى كون من الأكوان أوجده الله تعالى على وفق مراده وذلك لأن مراده في مراد الحق سبحانه وتعالى[1].

لقد كان ابن السنوسي مربياً من الطراز الأول وكان عليماً بأمراض النفوس، وخبيراً بعلاجها، ولقد نجح في تربية أصحابه على الأخلاق الرفيعة، وحقق نجاحاً باهراً، ورسم لأتباعه طريقة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقد تحدث ابن السنوسي عن الأسباب التي تعين العبد على تصفية نفسه وتزكيتها فقال:

الخطوة الرابعة:

ومن أسباب حصولها: طيب المطعم فإن من أكل حراماً فَعَله[2] في ظاهره أو باطنه لا محالة، ومن أسبابه سماع أحاديث الترغيب والترهيب، وحكايات الشيوخ في مجاهداتهم وشريف معاملاتهم، فإنها جند من جنود الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] وليشتغل المريد بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال، كالصلاة على النبي ﷺ، فقد قال بعضهم إنها لا يدخلها الرياء، وبعضهم إنها مقبولة مطلقاً وهي على هذا من الغنائم الباردة المبذولة لسالكي طريق المجاهدة في الله . . .)[3].

1 - طيب الطعام والابتعاد عن الحرام:

إن ابن السنوسي يبين لأتباعه أن من أسباب تزكية النفوس، والتخلق بالأخلاق الرفيعة، وتصفية القلوب، أن يحرصوا على طيب الطعام، وأن يبتعدوا عن الحرام.

إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ، ناطقة بربط قبول سائر العبادات من دعاء وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك من صالح الأعمال بتحري الحلال من الكسب:

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص291.

(2) غير واضحة من الأصل ولعل معنى الكلمة أثر في ظاهره وباطنه.

(3) انظر: السلسبيل العين: ص9.

- **الدعاء:**

ففي الدعاء، وهو مخ العبادة، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وعباد الله الذين استجابوا له، هم من يفعلون الحلال ويتركون الحرام، فيكونون أهلاً للإجابة قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وإجابة الدعاء منوطة بأكل الحلال، وترك الحرام، وتوقي الشبهات. أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال:** ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]» **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»**[1] ولا شك أن قبول الدعاء من الوسائل المهمة في تزكية نفس العبد، وتهذيب أخلاقه، وحياة قلبه.

- **الصدقة:**

والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، والحرام سواء أكان مالاً أم متاعاً أم غير ذلك، غير طيب، لأنه خبيث، ومن مصدر خبيث غير مشروع، فهو بالتالي غير مقبول.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 267].

وكذلك الشأن في سائر العبادات، فكيف يقبل الله تعالى الصلاة ممن تغذى بالحرام، وكانت أنفاسه التي يناجي بها ربه، تمتد طاقتها من الحرام، وكل جسم غذي بالحرام فالنار أولى به[2].

إن من وسائل تزكية النفوس العبادات عندما يتقبلها الله، ويجعل لها آثارها في نفس العبد وقلبه، وعقله، وجسده.

2 - سماع أحاديث الترغيب والترهيب:

فإن لها أثراً في تزكية النفوس، وإحياء القلوب، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت

---

(1) انظر: مسلم (2/ 703) رقم 1015.

(2) انظر: طلب الرزق بين الحلال والحرام، أحمد الطويل، ص147.

رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

وأما في الترهيب، فعن أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[2].

إن ابن السنوسي -رحمه الله- يرى أن لأحاديث الترغيب والترهيب أثراً في تزكية النفوس، كما يرى لسير وتراجم الصالحين أثراً في صفاء القلوب، وتطهير النفوس، بل يرى أن تلك السير جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

3 - المسارعة للخيرات:

يرى ابن السنوسي أن من وسائل التزكية: المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، كالصلاة على النبي ﷺ، ويراها من الغنائم الباردة لسالكي طريق المجاهدة في الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، آية56].

إن صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ معناها الثناء عليه، وإظهار فضله، وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في فضل الصلاة على النبي ﷺ ومنها: عن يعقوب بن زيد بن طلحة التميمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال: ما من عبد يصلي عليك إلا صلى الله عليه بها عشراً» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت».

قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: «إن شئت».

قال: ألا أجعل دعائي كله. قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة»[3].

قال ابن السنوسي: إذا أكثر السالك من الصلاة على النبي ﷺ أنقذه الله بها من المهالك وأخذ بناصيته إلى أحسن المسالك، ودعا ابن السنوسي تلاميذه إلى دراسة سيرته ﷺ وبيان أحواله، وحياته[4].

---

(1) انظر: الدارمي (2/ 322) حسنه الألباني رقم127.
(2) انظر: البخاري، كتاب الرقاق (11/ 319).
(3) انظر: مسلم، أبو داود (1516).
(4) السلسبيل المعين، ص8.

إن الصلاة على النبي لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة منها:

- امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ، وموافقة ملائكته فيها.

- حصول عشر صلوات من الله ﷻ على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي ﷺ.

- أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.

- أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه.

- أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.

- أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلي، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.

- إنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله ﷺ، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به[1].

هذه بعض الأصول التي توضح منهج ابن السنوسي التربوي، وقد ألزم أتباعه بأوراد الطريقة، فهي عبارة عن تلاوة القرآن الكريم، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي ﷺ[2]، وقراءة بعض الأدعية التي تحمل في طياتها معاني التوسل والتضرع إلى الله وحمده جل جلاله وتسبيحه[3].

وكان أتباع الحركة السنوسية يحافظون على أورادهم، ولم تكن معهم موسيقى، ولا حركات راقصة، وكانوا بعيدين عن الأعمال البهلوانية، كأكل الزجاج، وطعن الصدور بالسيوف واللعب مع الأفاعي[4].

وكان ابن السنوسي يلقن طريقته للمريدين بقصد تعليمهم الشريعة الغراء ويلح عليهم بالتمسك بأحكامها، ويأخذ عليهم العهد بأن لا يخالفوا في أعمالهم الشرع الحنيف[5].

---

(1) انظر: البحر الرائق، أحمد فريد، ص121.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص249.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص99.

(4) انظر: الحركة السنوسية، ص251.

(5) المصدر السابق نفسه، ص252.

ابن السنوسي ونقده لأخطاء الصوفية:

لقد وقعت كثير من الطرق الصوفية في انحرافات كثيرة، وقد تعرض ابن السنوسي لبعض الطرق ووضح الأخطاء التي وقعت فيها، ففي حديثه عن الطريقة الصديقية يقول: «دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها، فمثلهم كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته فالله هو الولي الحميد»[1].

وانتقد ابن السنوسي بعض دخلاء المتصوفة: «. . . ومنها ما كثر به تبجح كثير من بعض المتنسكين، من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين، من الإعجاب بأعمالهم، والتمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد، ومواهب الكرامة، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة. . .»[2].

وعمل على تصحيح مفاهيم الإسلام التي انحرفت بعض طرق الصوفية عنها، كالعبادة، والتوكل، والجهاد.

أ - العبادة:

إن من عوامل النهوض التي سار عليها ابن السنوسي تصحيح مفهوم العبادة في أذهان أتباعه، ونجد ذلك في قوله لبعض تلاميذه وإخوانه «لأي شيء نأمركم بقراءة النحو؟ لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول ﷺ» ثم قال: «بالكم تقولون الذي يقرأ النحو ما نوصله إلى الله. بالكم تقولون الذي يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون الذي يرعى الإبل ما نوصله إلى الله، وهكذا. . . وعدّ أشياء كثيرة»[3].

وقد اتضح مفهوم العبادة الشامل عند أتباع الحركة السنوسية، وكان طلاب الزوايا في يوم الخميس من كل أسبوع يخصصونه للشغل بالأيدي، فيتركون الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن من بناء ونجارة، وحدادة، ونساجة، وغير ذلك، لا تجد فيهم إلا عاملاً بيده، وكان محمد المهدي السنوسي الزعيم الثاني للحركة يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام بالحرف والصناعات، ويقول لهم: «يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وليس

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص143.
(2) انظر: المسائل العشر، ص9.
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص157.

غيركم بأفضل منكم». وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا»[1].

إن مفهوم العبادة عند السنوسية وافق تعريف ابن تيمية عندما قال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، الوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار.... وأمثال ذلك من العبادة»[2].

ب - التوكل:

كان ابن السنوسي يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده وعرق جبينه ليغرس في نفسه حب التعفف، وقد روى كبار الإخوان عن ابن السنوسي أنه كان يقول: «الذهب في الأرض، فغوصوا لاستخراجه بالمحراث» وكان يقول: «الدرر في غرس الشجر أو تحت ورق الشجر» ويقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى، والاستقامة كنز لا يبلى والعفة حسب دائم» «ومن مد يده متسولاً قصر لسانه»[3]. إن مفهوم التوكل على الله يكون في كل الأمور، وهذه التوجيهات تدلنا على فهم ابن السنوسي لمفهوم التوكل، فدعا إلى مباشرة الأسباب مع تفويض الأمر لله تعالى، وحارب التواكل الذي انتشر في كثير من الطرق الصوفية.

ج - الجهاد:

قامت بعض الحركات الصوفية بصرف الناس عن القتال في سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الإسلامية، وعمل ابن السنوسي على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يدعو للجهاد ويأمر به ضد كل معتد على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبيا، قال مرة للشيخ الكاسح أحد زعماء قبيلة العواقير: «ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان إذا غزا بلادك ليأخذها؟» فقال له الشيخ الكاسح: أعددت له جراباً من البارود وشيئاً من الرصاص، فقال له ابن السنوسي: إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟ وأخبره ابن السنوسي أن النابلتان آت للبلاد لا محالة وسيصيبكم منهم أذى كبير، وإن الله مع الصابرين، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وكان ابن السنوسي يُفَهِّم ذلك لكل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا، وشيوخ القبائل

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص193.
(2) انظر: الفتاوى (10/150).
(3) انظر: برقة بين الأمس واليوم، ص187، 188.

والأعيان، ويأمرهم أن يحذروا من ذلك وأن يحتاطوا له، وأن يأمروا معلمي الصبيان بإلقاء الدروس في هذا الشأن، وكان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويحتفظوا به في مخازن خاصة[1] وذات مرة قال لأحد شيوخ القبائل أن النابولتان سيغزو هذا البلد ويقف أهلها للدفاع عنها موقفاً مشرفاً، وسيتخذ جميع الوسائل لإخضاعهم، ومن بين هذه الوسائل سيقدمون الأموال للإغراء فماذا أنتم فاعلون في هذه الحالة؟ فقال الشيخ: أننا سنأخذ المال ونثني عليهم نقاتلهم، فكان جواب ابن السنوسي: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم، وقد صح ذلك كله فعلاً[2].

وكان يتصيد الفرص لبيان أهمية الاستعداد، وجمع الذخائر، والاحتفاظ بها لوقت الحاجة، فعندما وصل إلى العزيات عام 1269 هـ قادماً من الحجاز، وأخذت وفود القبائل تتوافد على زيارته من جميع أنحاء برقة وطرابلس زرافات ووحداناً، وكان من تقاليد البدو في مثل هذه الحالة أنهم يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم دليلاً على فرحهم وابتهاجهم، وفي ليلة من الليالي كان يتصدر مجلساً من الإخوان وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر وذلك بعد صلاة العشاء، فسمع طلقاً متواصلاً من البارود، وسأل عن السبب فقيل له إن (مزاراً) من قبائل العواقير قد وصل الآن، (وكلمة مزار تطلق عند البادية على الزائرين) فقال: لقد نبهنا أكثر من مرة للمحافظة على الرصاص والبارود، والعناية بإدخال الأسلحة كي لا تستعمل إلا عند الحاجة، وإن الوقت الذي ندخر له السلاح لآت، ونود من إخواننا وشيوخ العشائر أن يواصلوا إسداء النصح بذلك، فأجابه محمد بن الشفيع بقوله: أتنتظر غزواً خارجياً قريباً؟ فالتفت ابن السنوسي عنه إلى الشمال - وكان يستقبل القبلة - وقال وقد تقطب وجهه: أكاد أقول لكم إنني أرى العدو رأي العين، ومن مد الله في عمره منكم سوف يقاتله وهو آت من هنا وأشار إلى جهة البحر، فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ . . .﴾ [الأنفال: 15 - 16].

وأصبح أتباع الحركة السنوسية يستعدون لأعدائهم، الذين أخبر شيخهم بأنهم قادمون، وسنرى بإذن الله معاركهم البطولية ضد فرنسا وبريطانيا وإيطاليا في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

(1) برقة بين الأمس واليوم، ص179.
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص144، نابلتان أي إيطاليا.

المبحث الثالث

البعد السياسي عند ابن السنوسي

يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة، ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، رغم ما كان يعتقده في الأصل من أن الخلافة تكون بيد قرشي، ومع هذا فإنه لم يشأ أن يثير موضوع الخلافة من هذه الناحية، لأنه يعلم يقيناً أن إثارة هذا الموضوع معناه فتح باب للنزاع لا يعود إلا بضرر على السنوسية وعلى المسلمين أجمع، ويبدو أنه اعتبر من الأحداث التي عاصرها في صراع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الدولة العثمانية واقتنع بأن أخف الضررين في هذه المسألة الحية الواقعية عدم معاداة الدولة العثمانية ولذلك نجد ابن السنوسي يعمل على توثيق علاقته بحكام الأقاليم الليبية في طرابلس وفزان وبنغازي، وتولدت علاقة وثيقة بين الولاة العثمانيين وابن السنوسي مبنيّة على الاحترام، والتقدير، فقد جاء في رسالة بعث بها ابن السنوسي لوالي طرابلس محمد أمين باشا بعد تأسيس الزاوية البيضاء: «ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية، وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا، وواجب المكافأة علينا، ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمارة، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه، هذا مع بعد المسافة واشتغالكم بمصالح الدولة العلية وقيامكم بأعباء سياسة الرعية، فإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم، فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع، ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع. . . والإخوان المهاجرون دائماً لكم داعون» ثم يتحدث عن عمله وعمل الإخوان في نشر العلم وإقامة شعائر الدين ثم يقول: «ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بنغازي للقيام بمصالح الدولة السنية فنعم ما فعلتم، ونرجو أن يكون على قدومكم من طرق السداد والرحمة للعباد، فأوصوه بذلك، والدعوا له به فإن رضاء الحق في رضائكم عليه. ونحن والإخوان عليه راضون، وله راعون وبالسيرة الحسنة ماضون. جعله الله وارث كمالكم بعد طول الأعمار، وجمع لكم بين عز هذه الدار وتلك الدار. . . فنوصيكم وأنفسنا بوصية الله سبحانه للنبيين والمرسلين الأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 131] وأن تتخلقوا بمحض الرحمة لعباد الله. قال العلي الشأن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91] وقال ذو الشمائل الحسنة: **«عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة»**. **«الراحمون يرحمهم**

الرحمن». «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». و«الجزاء من جنس العمل»، و«إنما هي أعمالكم ترد عليكم» وكما يدين الفتى يدان، نسأل الله سبحانه لنا ولكم وللمسلمين أن يؤتينا من لدنه رحمة ويهيء لنا من أمرنا رشداً، ويحل علينا رضوانه الأكبر الذي لا سخط بعده أبداً إنه جواد كريم رؤوف رحيم وعلى جنابكم السلام وهو الختام»[1].

فالباحث يلمس وداً قوياً بين ابن السنوسي والوالي، ويستنتج منه رضا الوالي وتأييده لحركة ابن السنوسي، ونجد رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسي إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي يعهد فيها للوالي بمهمة رعايا الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها وذلك قبل سفر ابن السنوسي للحجاز. وقد جاء في الرسالة: «. . . فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بمهمة حضرتكم ومنة جناب والدكم (هنا بياض في الأصل). . . وكل من الزوايا حوله عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدى بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم. . . وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرام الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها. . . وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزيز خطابكم لا يستباح لها حصن ولا تحضر لها ذمة وتصير حرماً آمناً. . .»[2].

وهذه الرسالة وجهها ابن السنوسي إلى حاكم إقليم فزان فقال بعد البسملة والديباجة الأولى: (ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالاً، أدام الله بقاءه وزاده عزاً وإجلالاً.

وبعد إهداء تحيات عطرة تليق بعزيز الجناب، ورفع أكف الضراعة مستمطراً وأكف الإنعام وسوابغ الآلاء مدى الدهور والأحقاب، وأنه قد وصل مشرفكم الكريم، وحمدنا الله تعالى على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم. وأسفر عن مكارمكم الفائقة. . . باستنشاق ريا منتكم الرائقة، إنكم للفضل أهل ولعمل الصالحات مأوى ومحل.إذ أن مقاصدكم كلها صالحة. وفضائلكم لدى الخواص والعوام واضحة، وقد أخبرنا ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التوات عن جميع خيراتكم تفصيلاً. وتتابع ذلك منكم بكرة وأصيلاً. زادكم الله عزاً ورفعة وجعلكم تحت كنفه في عز دائم ومنعة. وأفاض عليكم من نوره الأسنى، وأمدكم من فيوضاته المباركة الحسنى، فأبشر بحول الله وقوته بالعز الأبدي والفخر الدائم السرمدي، وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع يذكر عباد الله في تلك الناحية. ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع إليها الشيخ أحمد بن أبي القاسم التوات لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض كتب غير موجودة في خزانتنا ويرجع إن شاء الله عاجلاً. وها نحن داعون لهم بصالح الدعوات في الخلوات

---

(1) انظر: السنوسي، ص139، 140.

(2) المصدر السابق نفسه، ص143، 144.

والجلوات وأوقات الإجابات وعلى الله القبول وهو المرجو منه والمأمول وسلام السلام يخصكم ويعم سائر اللائذين بجنابكم)[1].

ومن خلال الرسائل نستنتج أن ابن السنوسي استطاع أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدو أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسي لصفها، وخصوصاً بعد أن قدم للقبائل خدمات عظيمة في مجال الدعوة، والتعليم، والإرشاد، وعالج ظاهرة خروج القبائل عن الدولة بحكمة نادرة، فكانت القبائل تقبل نصائح ابن السنوسي ويطيعون العثمانيين بناءً على توجيهاته، ولذلك تركت الدولة الدواخل في يد الحركة السنوسية، وبدأت الحركة تتحول إلى إمارة منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية، وقام ابن السنوسي بإرسال مندوب عن الحركة السنوسية إلى استانبول، وقام بهذه المهمة الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي حيث قابل السلطان عبد المجيد وحصل منه على (فرمان) عام 1856 م يعفي ملاك الزوايا من الضرائب ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها، ونخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسي بالدولة كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى في برقة. وقد أشار صادق المؤيد لهذا الفرمان الذي لم نعثر على صورة له. ثم سافرالشيخ أبو القاسم العيساوي من طرابلس إلى استانبول وحصل على (فرمان) آخر من السلطان عبد العزيز يؤكد الفرمان الأول، وأتى به إلى حاكم طرابلس[2].

وقد وجد المؤرخ أحمد الدجان في دار المخطوطات في طرابلس (مرسوم ولائي) من والي طرابلس إلى متصرف الجبل يؤكد على ما تحصل عليه أبو القاسم العيساوي من فرمان من استانبول وقد جاء فيه بعد التحية «وبعد فإن الشيخ العالم... السيد الحاج بلقاسم العيساوي دام موقراً مرعياً بيده أوامر من أسلافنا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالي الشأن في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لما تحقق من حسن سيرته وخلوص طريقته وسريرته وفضله وسلوكه مسلك أستاذه ذي الهداية والإرشاد موصل السالكين لإدراك المراد، صاحب المقام الأنور الباهر، والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار، عين أعيان الأخبار محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي... كما تشعر بأنه أسس زاوية باسم أستاذه المشار إليه، قاصداً بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الأستاذ ليعم النفع والإرشاد، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين ورفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمال والوقار والإجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة.. وعدم التعدي على الزوار الوافدين عليها.. وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما هم عليه وأن لا يقاسوا

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص141.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص105.

بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية وأن لا يطالب بميري ولا أعشار..)[1].

إن ابن السنوسي استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية له سواءً عن طريق باشواتها في ليبيا أو السلاطين العثمانيين في استانبول، فقد استطاع أن يتحد مع الدولة العثمانية في السعي الدءوب من أجل تحقيق أهداف الإسلام الكبرى، وقد نظر ابن السنوسي إلى دولة الخلافة، كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره، بل الصواب العمل على الحفاظ عليه وعدم الاصطدام به، لذلك جعل علاقته بها طيبة. أما الدولة العثمانية فكانت ترى في الحركة بعض الفوائد استطاعت تحقيقها، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة، وقد سئل ملك ليبيا السابق محمد إدريس السنوسي . رحمه الله . هل كان جده يهدف إلى إقامة دولة إسلامية؟ فأجاب بالنفي وذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفاً طيباً عندما أعفى السلطان عبد المجيد الإخوان من دفع الأموال الأميرية، ولأنه كان يخشى أن يكون حاكماً، لأن الحاكم يظلم أحياناً وهو يعلم وأحياناً دون أن يعلم[2].

إن ابن السنوسي مع قناعته بأحقية القرشي بالخلافة لم يرَ إثارة موضوع الخلافة، لأنه رأى أن ذلك من غير المناسب وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف، ولذلك ركز على جوانب الإصلاح الأخرى، فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الإسلام وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع أن يقوم بواجباته نحو الإسلام، من رد الاعتداء، وإقامة شرع الله، ودعوة الناس إلى الإسلام... ولا بد وأن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة.

وقد اختار ابن السنوسي طريق التعليم والإرشاد طريقاً لإصلاح المجتمع[3] ولذلك كانت خطواته الحركية والدعوية محسوبة، فلم يصطدم بالدولة، ولا بالعلماء، ولا غيرهم وإنما سعى لتحقيق أهدافه بالوسائل السلمية، وأقام زوايا لتكون بمثابة خلايا حية، تمتد منها الحياة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية[4].

إن ابن السنوسي لم يترك فرصة تمر إلا واتخذها لتعزيز مركز دولة الخلافة والأخذ بيدها، وكان يرى أن طرق الإقناع هي خير الوسائل لبلوغ الأهداف السامية، ولم يستعن ابن السنوسي

(1) انظر: دار المحفوظات طرابلس تاريخ البيورلدي عام 1287 هـ.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص163.
(3) المصدر السابق نفسه، ص164.
(4) المصدر السابق نفسه، ص102.

بأي دولة أجنبية، أو تعاون مع أي منها، أو ارتمى في أحضانها، أو قام بتشجيع الثورات التي لا تأتي بفائدة مرجوة للمسلمين.

إن خطواته الدعوية الحكيمة قد أغضبت بعض الخائفين على ملكهم من الحكام والجامدين من العلماء، والمفكرين من دهاة الاستعمار ودعاته، واستطاع ببعد نظره، وحكمته أن يتغلب عليهم، وأن يرسم خطوطاً متينة سار عليها أتباعه من بعده[1].

وقد تكلمت جريدة(الماتين الفرنسية) عام 1912 م، عن البعد السياسي عند ابن السنوسي فقالت: «لم يكن مجيء السنوسيين إلى طرابلس وتوطينهم فيها من قبيل المصادفات والاتفاق، فهؤلاء أدركوا من زمن طويل أن الأوروبيين سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر، ومراكش، فأرادوا أن يقعوا وراء ساحل طرابلس كالبنيان المرصوص ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبا أساطيلها بسهولة على تلك السواحل»[2].

لقد كان ابن السنوسي لا يفرق بين الدين والدولة، بل كان يرى أن الدين والدولة كلٌ لا يتجزأ، ولهذا كانت نظرته إلى الحياة نافذة، استمدها من دينه الذي يدعو إلى الشمول، ولو كان البعد السياسي غائباً عن ابن السنوسي، لما حاربته حكومة السلطان مولاي سليمان في مراكش، ولما ناصبه العداء حكام الجزائر، ولما أوجس منه حاكم مكة خيفة، ولما تحرش به بعض علماء مصر، ولما اهتمت بشأنه دولة الخلافة، ولما فزعت منه دول الاستعمار رعباً وفي مقدمتها فرنسا، ولو كان كمثل شيوخ الطرق الصوفية التقليدية لبقي معززاً محترماً ولعاش عيشة الخنوع والاستسلام[3].

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد -رحمه الله-: «وكان الشيخ السنوسي. بخلاف الغالب على مشايخ الطرق. خبيراً بأحوال السياسة العالمية فوقر في ذهنه أن النابلطان أي الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ويهيىء في جوف الصحراء ملاذاً لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة»[4] لقد اعتبر الأوربيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دوفريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان، فيقول إن السنوسية خطر عام، خطر على أوروبا،

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص108، 109.
(2) المصدر السابق، ص116.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص97.
(4) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص132.

وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر[1].

أما السياسي الفرنسي المعروف المسيو هانوتو فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون» إلى أن قال: «ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في إفريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الإفريقية فإنه يوجد بالآستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها»[2].

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد[3].

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها، ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته[4].

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: «استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في إفريقية واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية»[5].

إن البعد السياسي عند ابن السنوسي، يتضح للباحث في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار، بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل البناء.

وتحدث آدمز عن ابن السنوسي وختم كلامه قائلاً: «وعلى أية حال فإن ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحس عملي دقيق للأحداث»[6].

ووصفه ستودار بأنه «كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة، عظيم الاقتدار على التنظيم

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص44.
(2) انظر: المصدر السابق.
(3) انظر: السيد محمد رشيد رضا لمحمد أحمد درنيقة، ص202.
(4) المصدر السابق، ص203.
(5) المصدر السابق نفسه..
(6) انظر: الحركة السنوسية، ص165.

والإصلاح»[1].

وقال فيه المؤرخ التركي أحمد حلمي: «إن من يمعن النظر في عظمة المقتصد وجلالته وفي قدرة الوسائط وفقدانها وجسامة المشكلات التي اقتحمها المؤسس وقاسها على الجمعيات الأوروبية والشرقية لا يمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه»[2].

أما محمد الطيب فيقول في شخصية ابن السنوسي: «أمة قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن، فكان عدواً للجهل وخصماً للاستكانة، وضداً للأفكار العقيمة»[3].

أما الزعيم الليبي السياسي الكبير بشير السعداوي فيقول: «مهما أوتي المؤرخون والكتّاب والشعراء من قوة في البيان وإبداع في البلاغة وهم يتناولون الحقائق عن سيرة السيد السنوسي وأهدافه السامية التي يرمي إليها وقد حقق جزءاً منها، فلا يستطيعون إيفاء المقام حقه ولن يصلوا إلى معرفة هذا المصلح الإسلامي العظيم كما ينبغي، وكلما توالت الأيام والسنون، فهي تثبت لنا عظمة السنوسي، ونبل مقاصده السامية التي تصلح من شأن المسلمين»[4].

وأما سالم بن عامر فيصف السنوسية فيقول: «هي طريقة أسست على حكمة علمية واجتماعية وإن أسس هذه الجمعية السنوسية هي الأخوة والتعاون» إلى أن يقول: «إن الجمعية السنوسية مع أنها طريقة مخصوصة فهي جمعية سياسية أفكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الإخوان والخلفاء، والمشايخ والزعماء...»[5].

---

(1) الحركة السنوسية، ص166.
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص178.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص177.
(4) المصدر السابق نفسه، ص184.
(5) المصدر السابق نفسه، ص178.

الفصل الثالث

أسلوبه الدعوي وثروته الفكرية، وصفاته الربانية

المبحث الأول

الأسلوب الدعوي عند ابن السنوسي

كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن رسالته إلى شيخ زاوية المدينة ابن الشفيع نلاحظ ذلك حيث قال: «. . . وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:83] وقال جل وعلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125] وقال ﷺ: **«ارفقوا فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وإن الحمق ما كان في شيء إلا شانه، وارفعوا همتكم عن الخلق»**، وقال ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس»** عليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً وعلى البر أعواناً»[1].

ولذلك نجد دعاة الحركة السنوسية يتخذون الرفق واللين في دعوتهم منهجاً، وتعلموا ذلك من مؤسس الحركة ونلاحظ ذلك في عدة أمور منها:

أولاً - التعامل مع الطرق الصوفية:

تميز زعماء الحركة السنوسية بالحلم والرفق، ولذلك تجنبوا الاصطدام مع الطرق الصوفية في ليبيا، والحجاز، ومصر، وغيرها، فبدلاً من كسب عدائهم، عملوا على نصحهم والتعاون معهم في أمور الخير، وشيئاً فشيئاً دخل بعض زعماء الطرق الصوفية في ليبيا في بوتقة

---

(1) انظر: جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، من رسالة: 12 ربيع 1224 هـ.

الحركة السنوسية، وبقيت الطريقة الصوفية المدنية تتمتع بنفوذ محدود لدى قسم القبائل البدوية[1]، وكانت معاملة السنوسية لباقي الطرق فيها رفق وتسامح ونصح، واستطاعت أن تبين لأتباع الطرق الأخرى الأخطاء التي وقعت فيها، كالغناء، وهز وضرب الدفوف، وسارت بمنهجية حكيمة حتى استطاعت أن تهيمن على البوادي، والواحات، والمناطق الداخلية، وأصبح ولاء تلك الأماكن لفكر الحركة السنوسية، وأصبح نشاط الطرق الأخرى محصوراً في المدن، كبنغازي، وطرابلس وغيرها، بعيدة عن الصراع السياسي العالمي، بعكس السنوسية التي استطاعت أن تصبح حركة سياسية مؤثرة، ومن أشهر الطرق الصوفية في ليبيا: العروسية، والعيساوية، القادرية، المدنية، السعدية والطيبية، والعزوزية[2].

ثانياً - عتق ابن السنوسي للعبيد من الأفارقة:

كان ابن السنوسي يهتم اهتماماً كبيراً بدعوة القبائل الوثنية في إفريقية، فمن وسائله في نشر الإسلام بقلب إفريقية، أنه اشترى مرة قافلة من العبيد، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم في سوق الرقيق، ولكن ابن السنوسي أعتقهم جميعاً وأكرمهم وعلمهم الإسلام، وبث فيهم حبه وتقديره، ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاة يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين، فكانوا دعائم مهمة لنشر الإسلام بين أهليهم وقبائلهم[3]، وكان يشتري العبيد من القبائل التي كانت تغير على القوافل ليعتقهم، وعمل على دعوة القبائل إلى الالتزام بالإسلام، وتخليص العبيد من العبودية، وكان ابن السنوسي يشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ثم يرسلهم إلى قبائلهم، ودعوة الزنوج إلى الإسلام، وبفضل الله ثم هذا الأسلوب، أصبحت قبائل «وادي في تشاد يرسلون أبناءهم لتعلم الإسلام في الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية»[4].

ثالثاً - التعامل مع القبائل وتوظيفها للدعوة:

اهتم ابن السنوسي في دعوته بزعماء القبائل، واستطاع أن يجعل من بعضهم دعاة إلى الله، كما رأينا في سيرة مرتضى فركاش، وأبو بكر بوحدوث وغيره، واهتم بتوصيل الدعوة إلى الأحياء البدوية، ونظم أمر الدعاة المكلفين بهذه المهمة وحرص على أن يضرب أروع الأمثلة في العفة، والاستغناء عما في أيدي الناس من متاع الدنيا، وقام بإرسال الكثيرين من المرشدين

(1) تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص32.

(2) انظر: المجتمع الليبي، ص325.

(3) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر . 437

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص39.

والوعاظ إلى مواطن البدو البعيدة، فكان يرسل بعض إخوانه إلى جهات خاصة، ويحدد لهم مادة عملهم ثم يرسل بمن يخلفهم، ليعود الأوائل لأخذ الراحة.

وكانت إحدى البعثات مؤلفة من السيد مرتضى فركاش، حسين الغرياني، فقاما بالدعوة إلى الله بين القبائل، ومن شدة فرح البدو بهم أهدوا إليهم هدايا من الإبل والبقر والغنم، ولما أكملوا مدتهم ورجعوا إلى ابن السنوسي، وعلم بما حدث احمر وجهه، وظهرت على وجهه علامات التأثر، وقال لهما: ما جئت لأجمع مالاً ولا لأرغب في الدنيا ولم أرسلكما لتجمعا لي مالاً ولكنني جئت لأنشر علماً وديناً، فارجعا بكل ما معكما لتسلمانه إلى أصحابه بالعدد، وقال لدعاته: لا تشقا على أحد ولا أود أن يتكلف أحد بضيافتكما فخذا أمتعتكما وكل ما يلزمكما ولا تتقبلا من الأهالي شيئاً إلا (الزبدة) واللبن (الممخوض).

وقام الشيخان مرتضى فركاش، وحسين الغرياني، بإرجاع الهدايا إلى أصحابها، فكل من يعطيانه ما كان جاد به يتكدر ويتأثر ويقول: لعل ابن السنوسي رفض قبول ما قدمته لشيء في نفسه عني، فيقنعانه بأن ابن السنوسي تمام رضاه في أن تقبل ما جدت به وأن ترسل بابنك إلى الزاوية ليتعلم وأن تحضر معنا دروس الوعظ والإرشاد[1]، وانتشر بين البدو أن ابن السنوسي أمر دعاته بأن لا يشقا على أحد في إكرامهما، فتحايل البدو في إكرام الدعاة إلى الله، فأسلوب ابن السنوسي لم يقتصر على الزوايا، بل أرسل الدعاة إلى القبائل البعيدة لتعم دعوة الإسلام المباركة كل الناس[2] واستطاع ابن السنوسي أن يقنع القبائل البدوية بأهمية الدعوة إلى الله، وخصوصاً تلك التي كانت تتعامل في التجارة مع وثنيي إفريقيا لنشر الدعوة هناك، ومن أشهر تلك القبائل التجارية الصحراوية: أولاد سليمان الطوارق، التبو، المجابرة، الزوية[3].

رابعاً - ضرب الأمثال عند ابن السنوسي:

استخدم ابن السنوسي وسيلة ضرب الأمثال في أسلوب دعوته، وقد استنتج هذه الوسيلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، وإن لضرب الأمثال في القرآن الكريم والسنة فوائد كثيرة ومنافع جمّة منها:

1 - تقرير الحقائق تقريراً واضحاً جلياً.

---

(1) انظر: برقة أمس واليوم، ص165.

(2) انظر: برقة أمس واليوم، ص166.

(3) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، ص131.

2 - تقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع.

3 - تشويق السامع وترغيبه إلى الإيمان والخير والحق المعروف والفضيلة.

4 - تنفير السامع وترهيبه من الكفر والشر والباطل والمنكر.

5 - تذكير السامع ووعظه ليعتبر وينزجر.

6 - تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.

7 - تأتي لإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى المراد، وظهور ذلك على وجه السامع، ولذا فقد اختير لها لفظ الضرب، لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيجان الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ تأثيره وأثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه[1].

ولذلك استخدم ابن السنوسي ضرب الأمثال في الدعوة والإرشاد والوعظ والتذكير التي تؤثر في القلوب والنفوس أثراً بليغاً في قبول الدعوة، وتوصيل المفاهيم إلى الناس، ومن ذلك حديثه للإخوان أثناء بناء الجغبوب حيث كان يشرف بنفسه على العمل ويخطط بناء السور على شكل مربع ثم يخاطب الحاضرين يقول لهم:

«الطير له عقل أم لا؟ فقالوا: لا عقل له فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذيب، ولا ثعلب ولا غيرهما». وقال: اليربوع له عقل؟ فقالوا له: لا. فقال: هو يجعل في حجره طريقة: وهي النافقاء، فإذا دخل عليه الحنش الأسود عليها من هنا وقال: «تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا» وأشار بأصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب»[2].

ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي استخدم لغة الحوار والاستجواب، وفي هذا الأسلوب دعوة للتفكير، وتشجيعاً على المناقشة وتعويد الإخوان على العطاء والمشاركة وإبداء الرأي، وإن هذا الأسلوب في الحوار والمناقشة يثير الانتباه لتلقي المعلومات، ويذهب السآمة، ويزيل ما يصيب النفس من ملل نتيجة الإلقاء الطويل، ويشوق الذهن، وينشط العقل لمواصلة السعي، وبهذا الأسلوب استطاع ابن السنوسي أن يركز على بعض الحقائق لترسيخها في النفوس وتثبيتها في القلوب وتحذير إخوانه من الخطر الداهم على بلادهم، والدعوة للاستعداد لمواجهة هذا الخطر.

لقد أشار إلى مجيء الطليان في قوله: إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا.

---

(1) انظر الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد المورعي، ص274.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص154.

خامساً - استخدام القصة عند ابن السنوسي:

إن من طبيعة النفوس البشرية إذا خوطبت تلقائياً بكلام نظري مجرد يتبع آخره أوله، فإن جهدها التفكيري يضعف، واستعدادها النفسي يذبل، فلا تعود تعي أو تفهم شيئاً مما يقال لها، ولذلك استخدم ابن السنوسي الأسلوب القصصي في تجسيد الأحداث على شكل أشخاص، يتحرك معها القلب، وتنشط لها الآذان والعقول، فهي تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة. ماذا سيحدث؟

إن القصة تعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والنصح والإرشاد، فأسلوبها له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية في نفوس المدعوين، فهي تستولي على قلوبهم استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر لما لها من سرعة نفاذ، وقوة تأثير، واستمرار أثر[1].

إن الغرض الأكبر من الأسلوب القصصي للدعاة، أخذ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

ولذلك كان ابن السنوسي يكثر من استخدام القصة لتفهيم إخوانه وأتباعه، باعتبارها أسلوباً مهمّاً، ووسيلة تعليمية ناجحة، ومن ذلك قصة حكاها لابنه وإخوانه يبين لهم فيها أهمية القيادة في الجماعة، وضرورة المحافظة على القائد الذي هو بمثابة الرأس من الجسم والقصة كما قالها محمد المهدي السنوسي: «كنت جالساً مع سيدي ﷺ وتكلم معي طويلاً في الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب ثم حكى لي حكاية بأنه كان كبير قوم ارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان، فبينما هم في أثناء الطريق وإذا بالعدو قد ظهر عليهم فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يأوون إليه، فلما لم يروا شيئاً قالوا لم يبق إلا القتال، وكبير القوم معه ولد، فصار الولد كلما رأى العدو آتياً من جهة حوّل أباه إلى جهة أخرى، فقال له بعض القوم: أنت ما شغلك إلا أبوك. قال لهم: نعم رجل كألف وألف خفاف كاف. فقال ﷺ: صدق الولد، متى كان الرأس موجوداً، فالذي يذهب يأت الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه»[2].

سادساً - استعماله للشدة في موقف الشدة:

كان الأصل في أسلوب ابن السنوسي استعماله اللين والرفق، ومعاملة الناس بالحسنى

---

(1) انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، ص288.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص154.

والتودد إليهم وكسب قلوبهم، ولكن في بعض الأحوال والظروف كان يستخدم الشدة لكونها أنسب، وأوقع، وأعمق أثراً، فكان يقدر للأمور قدرها ويعطي كل موقف من اللين والرفق أو الشدة والحزم، قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم[1]

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

إن القول الحسن ليس هو عبارة عن القول الذي يشتهيه المدعو ويوافق هواه ويحبه بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعه به سواء حصل عن طريق اللين، والرفق أو الشدة والحزم، وعلى هذا قد تكون الشدة من القول الحسن[2].

لذلك كان ابن السنوسي ضابطاً لأتباعه يحسن توجيههم ولا يتهاون في معاقبة المنحرف منهم. وقد حكى أحمد الشريف في رحلته عن أحد شيوخ الحركة واسمه المدني التلمساني، أنه كان مقدم إحدى الزوايا في الصحراء «فثار بها للجهاد في كافر وأمه جاءا سائحين، الكافر يداوي الرجال وأمه كحالته تداوي النساء، فلم يشعرا إلا والمجاهد قد قام عليهما ومعه المعاون سيدي عبد الهادي الفاسي خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة والمعاون متقلداً سيفاً قد أخرج من نصله قدر ثلاثة أصابع لإرهاب العدو، فصادفا حاكم البلاد وهو تركي، فقال لهم القائم للجهاد: اليوم يخرج النصراني من البلاد، فقال له: أمهله اليوم وغداً يخرج فقال المجاهد لا بد أن يخرج اليوم، فتلطف التركي معه فلم يفد. واشتد الخصام بين القائد التركي وبين الشيخ وتراشقا بالكلام وحدثت فتنة عظيمة، فلما وصل الخبر إلى ابن السنوسي أرسل إليهما وعندما وصل المعاون قبل القائم فهجره أياماً حتى قدم مقدم الزاوية فخاصمهما وقال لهما: أنا أرسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين؟ ولم يرجعا إلى محلهما»[3].

فهذه الحادثة تعطي للباحث فكرة عن ضيق أفق مقدم الزاوية وعن موقف ابن السنوسي من انحرافه، وعن الأسلوب الذي اتبعه في عقابه، فهو يهجر المعاون أياماً دلالة على شدة غضبه ثم يخاصم الاثنين، ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة ويعزلهما عن عملهما، وموقفه الشديد هذا لا يستغرب لأن تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسي في الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة[4].

---

(1) انظر: شرح الحماسة للمرزوقي (3/ 1121).
(2) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (3/ 168).
(3) انظر: الرحلة، لأحمد الشريف، مخطوط ص20.
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص155.

سابعاً - من رسائل ابن السنوسي الدعوية:

كانت رسائل ابن السنوسي التي يبعث بها إلى الإخوان أو لغير الإخوان، تتجلى فيها شخصيته الدعوية، ففي رسالة بعث بها في محرم 1276 هـ إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب يقول موصياً الإخوان: (والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، والتخلي عن التواني والكسل، وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى توصية فيما هو بين يديه، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعياً قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26][1].

فكان ابن السنوسي -رحمه الله- في هذه الرسالة يحث إخوانه على الجد والاجتهاد، ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، ويدعوهم إلى ترك التواني والكسل، وأن يستعدوا للآخرة، كأن آجالهم تأتي غداً، والعمل للدنيا، كأنما يعيشون أبداً، ولذلك حثهم على حصاد الزرع، والدارس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ويطلب منهم الإحسان في أعمالهم الدنيوية والأخروية.

هذه بعض الخطوط العريضة التي تبين لنا أسلوب ابن السنوسي الدعوي.

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص158.

المبحث الثاني
الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه

إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال مؤلفاته التي ضمنها آراءه في عدد من المواضيع، وهذا مهم لفهم الحركة السنوسية. لم يستطع المؤرخون أن يحصروا عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي، ذلك أن الكثير منها فقد، وطبع بعضها، ولا يزال البعض الآخر، كمخطوطات، وحاول الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة إجراء بحث عن (سيرة ابن السنوسي الكبير وفقد المصادر)[1]، وقد اختلف مؤرخو الحركة في ذكر الكتب التي ألفها ابن السنوسي، فزيادة نقولا يذكر أن السنوسي الكبير كتب تسعة كتب أحدها كان شعراً[2]، أما محمد فؤاد شكري، فيذكر أسماء خمسة كتب مطبوعة وثلاثة لم تطبع[3]، وأما الأشهب فيقول ثمانية كتب طبعت وتسعة لم تطبع[4]، وأما إسماعل باشا البغدادي في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) نسب لابن السنوسي خمسة وثلاثين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ذكر أسماءها[5]، ولقد ضاعت كتب كثيرة لابن السنوسي نتيجة لاحتلال إيطاليا للكفرة، ونتيجة لاحتراق المكتبة في مدينة سلوق.

وعلى أية حال فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسي هي:

1 - كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة الراصد. مطبعة المعاهد بالقاهرة: آخر 1353 هـ.

2 - السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين: وهو بهامش الكتاب السابق.

3 - المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، الطبعة الأولى 1373 هـ/ 1954م، مطبعة حجازي القاهرة.

4 - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الأولى 1357 هـ/ 1938 م، مطبعة حجازي القاهرة.

---

(1) نشر البحث في مجلة كلية الآداب في الجامعة الليبية المجلد الأول، ص189.

(2) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، ص73.

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص41.

(4) انظر: السنوسي الكبير، ص81.

(5) انظر: الحركة السنوسية، ص131.

5 - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، الطبعة الأولى 1349 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة، الطبعة الثانية 1373 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة.

6 - رسالة المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية، 1357 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة.

7 - رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك، الطبعة الأولى 1374 هـ، مطبعة الشباب القاهرة.

8 - شفاء الصدر بأري المسائل العشر[1] (الأري: العسل) 1360 هـ، مطبعة المحمودية.

أما الكتب التي لم تطبع وورد لها ذكر في الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها فهي:

1 - الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغاربة والمشارقة: ورد ذكره في (المنهل الروي) ص(6) يسميه ابن السنوسي (فهرستنا الكبرى)، وورد ذكره أيضاً في هدية العارفين تحت اسم (الشموس الشارقة في تراجم مشايخي المغاربة والمشارقة).

2 - الدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (6) وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة. وورد في هداية العارفين بعنوان (البدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة).

3 - الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (7). وورد في هداية العارفين بنفس العنوان مجرداً من (أل التعريف). وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التي درسها ابن السنوسي، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم. وقد ذكر مؤلفه أبوابه في كتابه (المنهل) باعتباره سار على نهجه في تأليفه.

4 - سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد: ود ذكره في (المنهل) وفي هداية العارفين. وموضوعه فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسي.

5 - رسالة جامعة في أقوال السنن وأفعالها، وهي منظومة توجد - كما يقول الأشهب - بمكتبة الملك. ولا يرد لها ذكر في (هداية العارفين).

6 - هداية الوسيلة في اتباع صاحب الوسيلة. وهي منظومة وتوجد بمكتبة الملك وقد وردت في (هداية العارفين).

7 - طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة.

8 - رسالة شاملة في مسألتي القبض والتقليد، ويقول الأشهب: إنها موجودة بمكتبة الملك.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص81.

9 - رسالة السلوك، موجودة بمكتبة الملك، وردت في هداية العارفين بعنوان (منظومة السلوك. . .).

10 - شذور الذهب في محض محقق النسب، موضوعه تاريخ أسلاف ابن السنوسي[1].

هذه أهم الكتب التي ألفها ابن السنوسي وقد شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع، وكان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية، وفيها كتاب أو كتابان يتناولان مواضيع تاريخية، ونكتفي باختيار ثلاثة نماذج من تأليفه لنسلط عليها الأضواء ونأخذ فكرة موجزة عنها:

أولاً - المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق:

إن هذا الكتاب يعطي الباحث فكرة عن العلوم التي درسها ابن السنوسي، والطرق التي تعرف عليها، والعلماء الذين أخذ عنهم في الحالين، ويظهر من عرض الكتاب أن ابن السنوسي كان بحراً في العلوم، وأن دراسته جمعت الجانبين الفقهي والصوفي[2]، وقد بين سبب كتابة هذا الكتاب فقال: «فقد وقع الاجتماع في بعض ما قدر لنا من الرّحل حال الترحال من محل إلى محل بجماعة وافرة وعصابة فاخرة ذوي علوم زاخرة، وخيم عاطرة، فكم فيها جهابذة نحارير وأئمة نقد فائق التحارير ما بين مريد السلوك إلى عرفان مالك الملوك، ومريد الأخذ والإجازة رائم التبرك بأسانيد من أجازه، في أقطار واسعة برحابها الشاسعة منهم زمر بنواحي الأعراض وأطراف الجريد وآخرون بطرابلس الغرب وآخرون مراسلون من تونس وما حواليها من البلاد. . . وآخرون بالمعمور من زوايا برقة القافرة. . فحصلت بيننا وبين من أمكن الاجتماع به منهم المؤاخاة الأكيدة والخلة السديدة مع تواتر المزاورات ولذيذ المحاورات، فتشوقت إذا ذاك أنفسهم الزكية. . إلى الأخذ والإجازة بما لها من القوانين المستجازة؛ فطلبوا لذلك من هذا العبد الحقير، البائس الفقير الإجازة والإخبار بجميع مروياته؛ وما وصل إليه من هذا الشأن ولا من فرسان ذلك الميدان بل لا أرى نفسي أهلاً لأن يجاز فضلاً عن أن يستجاز كما قيل:

فلست بأهل أن أجاز فكيف أن … أجيز ولكن الجنون فنون

ولكنهم لعظيم فضلهم وعلو مكانتهم، وجزالة قدرهم، وشغوف استكانتهم، لا يستطاع ردهم، ولا يخيب قصدهم، فكان كالمسوغ لذلك الخطب الهائل، لعاري الأهلية ذي الجيل العاطل؛ تمثلاً بما قيل:

فتشبهوا إن لم يكونوا مثلهم … إن التشبه بالكرام رباح

إذ ما لا يدرك كله لا يترك قلّه، استرواء بالثمد الضنين عند فقد المعين ويرحم الله القائل:

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص83.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص139.

لعمر أبيك ما نُسِبَ المُعلاَّ إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعر وصُوِّح نبتها رُعي الهشيم

وما أشبه الحال بقول القائل:

إذا غاب ملاح السفينة وارتمت بها الريح يوماً دبرتها الضفادع

ثم يقول: «فاستخرت الله تعالى وأجزتهم بجميع ما يصح لي وعني روايته»[1].

إن الكلام السابق الذي ذكرته يدل على تواضع ابن السنوسي وهضمه لنفسه، وحبه لإخوانه وتلاميذه.

إن ذلك الكتاب فيه اثنا عشر باباً في أشهر الكتب في شتى العلوم، ومقدمة، وخاتمة، ويعطينا فكرة واضحة عن العلوم التي درسها، وقد أخذ ابن السنوسي أسانيد الكتب الأئمة العشرة عن شيوخه، وهي، موطأ الإمام مالك، ومساند الأئمة الثلاثة، مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والكتب الستة، صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي المجتبي، وسنن ابن ماجه، وفي الباب الثاني ذكر بعض مشاهير السنن وهي عشرة، سنن الإمام الشافعي، وسنن أبي عثمان سعيد بن منصور الروزي البلخي الخراساني، وسنن النسائي الكبرى وسنن الكشّي، وسنن البيهقي الكبرى والصغرى، وسنن الدارقطني، والسنة للحافظ أبي بكر الضحاك، والسنة للحافظ أبي القاسم هبة الله الطبري، والسنة للإمام أحمد بن حنبل، وثالث باب منه على بعض مشاهير المسانيد وهي عشرة، مسند أبي داود الطيالسي ومسند عبد بن حميد أبي يعلى الموصلي، ومسند ابن أبي أسامة، ومسند ابن الزبير الحمدي، ومسند الحميدي، ومسند الفردوس، ومسند ابن أبي شيبة، ورابع باب منه على بعض مشاهير الصحاح الزائدة على الستة أو السبعة أو الثمانية السابقة وهي عشرة: صحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، صحيح الحاكم، وصحيح الإسماعيلي، وصحيح أبي عوانة، وصحيح الدارمي، وصحيح ابن نعيم المستخرجان على الصحيحين البخاري ومسلم، وصحيح ابن الجارود، وصحيح الضياء المقدسي المسمى بالمختارة، وخامس باب منه على بعض مشاهير المعاجم وهي عشرة: معاجم الطبراني الثلاثة، ومعجم أبي يعلى الموصلي، ومعجم ابن جميع الغساني، ومعجم ابن قانع البغدادي، ومعجم الإسماعيلي، ومعجم التنوخي، ومعجم الحاكم، ومعجم الصحابة للبغوي، وسادس باب منه على بعض مشاهير الجوامع وهي عشرة: جامع الأصول لرزين العبدري، جامع الأصول لابن الأثير الجزري، وجامع عبد الرزاق الصنعاني، وجامعا السيوطي الكبير والصغير، وذيله

(1) انظر: المنهل الروي الرائق، ص6،7.

وجامعهما للمتقي المسمى بكنز العمال الجامع للجامع الصغير، والذيل له المسمى بمنهاج العمال، والجامع المسمى بمجمع الزوائد للإمام الهيثمي، والجامع المسمى بجمع الفوائد من جامع الأصول، ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني، والجامع المسمى بكتاب الأصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول وسابع باب منه على بعض مشاهير المختصرات وهي عشرة: مختصر جامع الأصول المسمى بتجريد الأصول للبارزي، ومختصر جامع الأصول أيضاً المسمى بتيسير الوصول للربيع الشيباني الزبيدي، ومختصره أيضاً لمحمد طاهر الصديقي الفُتَني، ومختصر البخاري ومسلم، بالجمع بينهما للحميدي، ومختصر بهما بالجمع بينهما للصاغاني المسمى بمشارق الأنوار، ومختصر البخاري للشرجي، ومختصره للسندي، ومختصرهما، ومختصر مسلم للمنذري، ومختصر مسلم للسلمي، ومختصر أبي داود للمنذري، وثامن باب منه على بعض مشاهر كتب الأحكام الجامعة وهي عشرة: كتابا الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي، وكتاب المنتقى لمجد الدين عبد السلام بن تيمية الحراني، وكتاب الأموال للقاسم بن سلام الأزدي، وكتاب الآثار لمحمد بن الحسين الشيباني، وكتاب بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني، وكتاب الأعلام لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وعمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي والمصابيح للبغوي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، وتاسع باب منه على بعض المشاهير كتب السير والشمائل وهي عشرة: الشفا للقاضي عياض، الخصائص الكبرى لسيوطي، كتاب الشمائل للترمذي، دلائل النبوة للبيهقي، سيرة ابن هشام، تهذيب سيرة ابن إسحاق، تهذيبهما للسلمي، سيرتا ابن سيد الناس الكبرى والصغرى، الاكتفاء للكلاكي، سيرة الحلبي، المواهب اللدنية للقسطلاني، وعاشر باب منه على بعض مشاهير الأربعينات والأجزاء والمصنفات، فمن الأربعينات: الأربعون للقاضي عبد العزيز ابن جماعة الكناني، والأربعون النووية، والأربعون المكية، والأربعون الباجورية، والأربعون الشحامية، والأربعون الجوزفية، والأربعون الهاشمية، والأربعون المنذرية، والأربعون السلمية، . . . . ومن المصنفات: مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف وكيع بن الجراح، ومصنف حماد بن سلمة الرفعي، وحادي عشر باب منه على خمسة أنواع مشتملة على ما يزيد على مائة كتاب. . . ، وثاني عشر باب منه على نحو أربعين تفسيراً وهي على قسمين: القسم الأول في تفاسير السلف مما غالبه مأثور، والثاني في تفاسير الخلف، فالأول: كتفسير ابن جريج الذي هو أول ما صنف في التفسير، وتفسير الإمام مالك بن أنس راوية الجعابي، وتفسير السفيانين الثوري وابن عيينة، وتفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي شيبة وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن راهويه، وتفسير ابن مردويه، وتفسير عبد بن حميد، وتفسير وكيع، وتفسير أبي العالية، وتفسير مجاهد، وتفسير الضحاك، وأضرابهم، والقسم الثاني: كتفسير ابن عطية والقرطبي، والبغوي، والثعالبي،

وتفاسير الواحدي الثلاثة، والكشاف للزمخشري، ومختصر الكواشي، وتفسير الديريني والبيضاوي، والنسفي وأبي الليث السمرقندي، والبكري، والقشيري، والحاتمي، والغزالي، والحداد، والغزنوبي، وأبي حيان البحر والنهر، والجلالين، والدر المنثور للسيوطي، وابن جُزَيّ والثعالبي، وأبي السعود وأضرابهم[1].

إن ابن السنوسي - رحمه الله تعالى - اجتهد في طلب العلم، وشد الرحال إلى العلماء، وقد ذكر في كتابه المنهل الروي الرائق، أسماء العلماء والشيوخ والفقهاء الذين أخذ عنهم، ولازمهم، ولقد كان على يقين راسخ أن الدعوة إلى الإصلاح والنهوض بالأمة تحتاج إلى العلم الرباني الذي هو ركن من أركان الحكمة ولذلك حرص على الوصول إليه، وطرق أسبابه والتي من أهمها:

1 - أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه وقد أمر الله نبيه محمد ﷺ بسؤاله أن يزيده علماً إلى علمه[2]، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

2 - ومنها: الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب علم الكتاب والسنة[3]، وما أروع ما قال الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وصحبة أستاذٍ وطول زمان[4]

3 - ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله تعالى فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

4 - منها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر»[5].

5 - ومنها، بل أعظمها وَلُبُّها: الإخلاص في طلب العلم، قال ﷺ: **«من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله - عز وجل - لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**[6] يعني: ريحها.

---

(1) انظر: المنهل الرائق، ص8، 12.
(2) انظر: تفسير الإمام البغوي (3/ 233).
(3) انظر: تفسير السعدي (5/ 194).
(4) انظر: ديوان الشافعي، ص116.
(5) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (1/ 228).
(6) انظر: أبو داود، باب في طلب العلم لغير الله (2/ 323).

6 - العلم بالعمل[1]: لأن العلم لا يكون ركناً من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة[2].

هذه بعض الأسباب التي اتخذها ابن السنوسي حتى وصل إلى ما وصل إليه، وكان عظيم الاحترام للعلماء، ويرى لا وصول إلى العلم النافع بعد توفيق الله إلا من خلالهم، وما أجمل ما قاله السخاوي: «من دخل في العلم وحده خرج وحده» أي من دخل في طلب العلم بلا شيخ خرج منه بلا علم[3].

ثانياً - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية:

وهذا الكتاب ألفه ابن السنوسي في التاريخ، ويتحدث عن ملوك الأدارسة الذين حكموا المغرب والدول التي أقاموها. وفي مقدمته يتحدث عن فضل علم التاريخ، فنقل ما قاله المقريزي: «لا خفاء أن معرفة علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية...»[4]، وذكر أن من الصحابة كان أبو بكر ﷺ نسابة قريش، ومن أعلم الصحابة في معرفة القبائل وأصولها، وفروعها، وتحدث عمن ألف في علم التاريخ. وذكر منهم: عبيد القاسم بن سلام، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم وغيرهم، ثم قال: «وذلك دليل شرفه ورفعة قدره»[5]، وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة وست دول: «الدولة الأولى الفاسية وما في أيالتها، الدولة الثانية التلمسانية وما في نواحيها، الدولة الثالثة الغمارية وما في حكمها، الدولة الرابعة السبتية وما في حكمها، الدولة الخامسة الأندلسية وما في حكمها، الدولة السادسة الصحراوية وما في حكمها»[6] ثم أشار إلى المراجع التي تعين الطالب على الإلمام بهذه الدول فقال: «وسترى لك واحدة بياناً شافياً على ما عند صاحب القرطاس والمغرب، وما في العبر لابن خلدون التونسي، وما في سلاسل الفصول لابن خلدون التلمساني وما في عمدة الطالب لابن عنبة»[7].

قام ابن السنوسي في هذا الكتاب بسرد أخبار هذه الدول، وتطرق إلى تاريخ الفتح في

(1) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني، ص53.
(2) المصدر السابق نفسه، ص53.
(3) انظر: كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، ص9.
(4) انظر الدرر السنية في أخبار السلالة الأدريسية، ص5.
(5) المصدر السابق نفسه، ص7.
(6) انظر: الدرر السنية في أخبار السلالة الأدريسية، ص9.
(7) المصدر السابق نفسه، ص9.

المغرب، وإلى مجيء إدريس الأكبر إليه، ثم ختم كتابه بذكر أسماء حكام المسلمين من عهد الراشدين[1] وذكر خامسهم الحسن بن علي رضي الله عنه. ثم أثبت ذكر خلفاء بني أمية جميعاً، حتى إذا فرغ من ذلك أتبعهم بخلفاء بني العباس[2]، ونلاحظ في مقدمة الكتاب اعتقاد ابن السنوسي بوجوب كون الأئمة من قريش، وكان أسلوبه في كتابه هذا الكتاب على منوال أساليب مؤرخي المسلمين عامة، وهو فيه يقوم بالسرد دون التحليل والتعليل، ومادة الكتاب تدل على غزارة اطلاع ابن السنوسي[3] وتذوقه للشعر حيث نجد مقتطفات جميلة من الأشعار، كقول إدريس بن إدريس لنفسه:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم ... لكل في روعتي وظل في جزعي
بان الأحبة واستبدلت بعدهم ... همّاً مقيماً وسلماً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم ... على ضميري مجبول على الفزع
تأوي الهموم إذا حركت ذكرهم ... إلى جوارح جسم دائم الجزع[4]

وكقول أبي محجن الثقفي الذي تمثل به أبو المهاجر دينار قبل استشهاده مع عقبة:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع أبواب تضم المناديا[5]

وكقول الإمام ابن غازي:

وفتح الغرب لسوس الأقصى ... موسى وطارق بما لا يحصى
وجاءنا إدريس عام قعب ... وبنيت فاس في عام قضب[6]

وكقول الحسين بن علي رضي الله عنه:

وإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة حزم المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل[7]

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص140.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص42.
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص141.
(4) انظر: الدرر السنية، ص12.
(5) المصدر السابق نفسه، ص30.
(6) المصدر السابق نفسه، ص41.
(7) انظر: المصدر السابق، ص72.

وكقول الفقيه أبي عبد الله المغيسي في وصف فاش متشوقاً إليها حين ولي القضاء بمدينة زمور، حيث قال:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمص لمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل
وحدائق من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروي شرف ذكره ... أنسى بذكراه بهيج مؤمل
وبصحنه زمن المصيف محاسن ... فوق العش الغرب منه استقبل[1]

كما أن في هذا الكتاب يتعرض لذم المبتدعة، كالرافضة والمعتزلة، والجبرية، وقال: ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة، كالمعتزلة، والرافضة، والجبرية[2]، كما يعرّض بمذهب محمد بن تومرت عندما تعرض لشيوخه ورحلته في طلب العلم حيث قال: «. . .وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات، والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل، والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأول، وإقرار المتشابهات، كما جاءت، فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم، ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل (المرشدة)[3] في التوحد، وكان من رأيه القول بعصمة الإمام عليّ رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامة الذي افتتحه بقوله (أعز ما يطلب) وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب. . .»[4].

إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية، ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ، ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة، وأثر الإسلام في حياة البشر، والتعرف على بعض الحقائق في حياة البشر، ككون الإنسان يحتاج إلى التذكير، ولا بد من الصبر على المشاق لتحقيق الأهداف النبيلة.

---

(1) الدرر السنيّة، ص99.
(2) المصدر السابق نفسه، ص90.
(3) لقد ذكرت تفنيد عقائد المرشدة في كتابي: دولة الموحدين، ونقلت ما قاله ابن تيمية في الفتاوى.
(4) انظر: الدرر السنية، ص119.

ثالثاً - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن:

تحدث ابن السنوسي في هذا الكتاب عن وجوب العمل بالحديث والقرآن الكريم، وقد صنفه في مقدمة ومقصد، وخاتمة، أما المقدمة، فقد بين فيها جلالة مقدار الأئمة، فقال: «اعلم أنه يجب على المسلمين، بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، وبالخصوص موالاة العلماء العاملين، الذين حازوا بوراثة الأنبياء كل فخر، وصاروا نجوم هدى يقتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وأجمع العلماء على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة بعد بعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فعلماؤهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وقاموا به، وبهم نطق وبأسراره نطقوا كل بحسبه، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن أحداً من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة الرسول ﷺ في شيء من سنته جل أو دق، كيف وهم محيوها والمتفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباعها وأنه يؤخذ من قول كل أحد ويترك لا قوله ﷺ»[1].

إن ابن السنوسي سار على منهج أهل السنة والجماعة في نظرته إلى علماء الأمة قال الطحاوي - رحمه الله -: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

ثم اعتذر للعلماء الذين خالفوا ما صح عن النبي ﷺ، وقال لا بد أن لهم عذراً، وجماع الأعذار ثلاثة:

1 - عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

2 - عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ترجع إلى عشرة أسباب هي: عدم بلوغ الحديث، عدم ثبوته، وضعفه بالأسباب المعروفة من فن مصطلح الحديث، أو اشتراط ما لا يشترط غيره، أو عدم الدلالة منه، أو عدم اعتبارها، أو معارضتها بما يدل على أنها غير مرادة، أو معارضة الحديث بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما يصلح كونه معارضاً أو بما ليس من جنس المعارض، وشرع ابن السنوسي في ضرب الأمثلة من حياة الرسول ﷺ، واجتهادات الصحابة الكرام[2] ثم تحدث عن إمكانية أن يقع العلماء والفقهاء والقضاة وكذلك أعيان العلماء في الأخطاء المخالفة للسنة، فقال: «. . فإنا لا نعتقد عصمة القوم بل نجوز عليهم الذنوب ونرجو لهم مع ذلك أعلى الدرجات لما اختصهم الله به من الأعمال الصالحة والأحوال السنية وليسوا بأعلى درجة من الصحابة التي كانت بينهم وغيرها، ويؤيد ذلك تحذير سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم ولا سيما الأئمة الأربعة من مخالفة الحديث وحضهم على

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص12.

(2) انظر: إيقاظ الوسنان، ص12 إلى 22.

وجوب العمل به مع مخالفة (رأي كائن من كان)[1] واستدل بأقوال بعض الصحابة في هذا المعنى منها:

- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: (تمتع رسول الله ﷺ) فقال عروة: (نهى أبو بكر وعمر عن المتعة)، فقال: أقول: قال رسول الله ﷺ، ويقولون: قال أبو بكر وعمر يوشك أن ينزل عليهم حجارة من السماء) وذكر أقوالاً للصحابة في هذا المعنى ثم بين أن حافظ المغرب ابن عبد البر وصلها في مؤلفاته بأسانيد جيدة حذفها ابن السنوسي من باب الاختصار، وذكر أقوال الأئمة الأربعة وبين أن قولهم إذا خالفه سنة الرسول، فهو مردود ومن ذلك:

- قيل لأبي حنيفة ﷺ: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان خبر رسول الله يخالفه فقال: اتركوا قولي لخبر الرسول فقيل: إذا كان قول الصحابي يخالفه قال: اتركوا قولي لقول الصحابي[2].

- قال مالك بن أنس: «إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[3].

- وأما الشافعي فسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال (كذا وكذا) فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه وقال: «ويحك وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله شيئاً ولم أقل نعم على الرأس والعين نعم على الرأس والعين، قال وسمعته يقول: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة رسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل وفيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي»[4].

إن ابن السنوسي من خلال بحثه النزيه خرج بنتيجة مفادها أن ما خالف الكتاب والسنة، والإجماع من أقوال المجتهدين وآرائهم ليس مذهباً لهم، ويتعين على المتمسكين بمذاهبهم أن يحتوا بالكتاب والسنة وأقوال العلماء ليعلموا بذلك ما هو مذهب لإمامهم خلاف ما لهج به المتأخرون من فقهاء المذاهب الأربعة من اقتصارهم على المختصرات الخالية من الدليل، وإعراضهم كل الإعراض عن كتب الحديث، وأصول الحديث، والفقه؛ فهم على هذا أجهل الناس بمذاهب أئمتهم[5].

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص23.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه، ص24.
(4) المصدر السابق نفسه، ص25.
(5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص27.

ونقل قولاً للإمام أحمد، قال: قال ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سأله أيتبع الأوزاعي أم مالكاً قال: «لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به» وذكر أن الرجل مخير في التابعين، وقد فرق ﷺ بين التقليد والاتباع فقال أبو داود: سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه ثم هو فيمن بعد من التابعين مخير، وقال لأبي داود: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال[1].

إن ابن السنوسي في كتابه «إيقاظ الوسنان» حارب التقليد الأعمى والتعصب، لأنه رأى أن ذلك من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت في أوساطهم، وحالت بينهم وين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والسنة المطهرة.

إن التقليد الأعمى والتعصب يؤديان إلى مهاوي الردى، ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدان عن اتباع النور والهدى، فتكون نتيجته تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[2].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة فأصبح هو الأساسي والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة[3].

لقد حارب ابن السنوسي التقليد والتعصب ورأى أن تلك الخطوة مهمة للأخذ بأسباب النهوض.

لقد تعرض ابن السنوسي في كتابه إيقاظ الوسنان، لمن أعمته العصبية عن الحق وزعم: «أن الكتاب والسنة مشتركان بين اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي منحصرة في مقلدي الأربعة»[4].

وناقش من قال بذلك القول وطرح عليه أسئلة منها: ما هو رأيه في من تمسك بالكتاب والسنة من أصحاب القرون المفضلة الثلاثة؟ فإنهم ما قلدوا الأربعة حتى يخرجهم الاستثناء عن الحكم بما قبله ويرد على أصحاب ذلك الزعم بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: 105] ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 213].

---

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص29.

(2) انظر تفسير ابن كثير (2/ 213).

(3) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص251.

(4) انظر: إيقاظ الوسنان، ص31.

وفسر حبل الله بكتابه، واستدل بأحاديث شريفة، وبين أن الفرقة الناجية ما كانت على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه[1]. وقال: فإن من توهم أن مذاهب الأئمة الأربعة هي ما كان عليه وأصحابه، كان ملتزماً أن كل ما خالفهم من الصحابة ومن بعدهم، وأصحاب المذاهب المشهورة مخطىء في جميع ما خالفهم فيه، وهم المصيبون في كل خلاف، فانظر هل يستند هذا إلى نقل أو يقبله عقل[2]؟.

وردّ على من كفر مسلماً بشبهة، وقال: «وأعجب من هذا كله التكفير المرتب على الشبهة التي ستراها في عبث[3] الحق غثاء دون مبالاة بقول الصادق ﷺ: **«من كفر مسلماً فقد كفر»**، وبقوله: **«إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»** وذكر أقوال العلماء فقال: قال الرافعي في العزيز نقلاً عن التتمة: فإنه إذا قال لمسلم يا كافر بلا تأويل كفر، لأنه سمى الإسلام كفراً، ومثله للنووي في الروضة نقلاً عن المتولي، واعتمد ذلك المتأخرون كابن الرفعة، والقمولي والنشائي والأسنوي والأذرعي، وأبي زرعة، وصاحب الأنوار، وشارح الأنوار وغيرهم، جزموا به من غير عذر ولم ينفرد المتوي بذلك بل سبقه إليه ووافقه عليه جمع من الأصحاب منهم: الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والحليمي، والشيخ نصر المقدسي، والغزالي، وابن دقيق العيد، بل قضية كلام هؤلاء أنه لا فرق بين أن يؤول أو لا كما تدل عليه عباراتهم التي ذكرها عنهم العلامة ابن حجر في الأعلام، وقال فيه ما نصه: ووقع في الحديث روايات لا بأس بالإشارة إليها فقد روى مسلم: **«إذا كفّر المسلم أخاه فقد باء بها أحدهما»** وفي رواية له **«أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بهما أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»**، وفي رواية أيضاً **«ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر ومن دعا رجلاً الكفر أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»** وفي رواية أبي عوانة: **«فإن كان كما قال وإلا باء بالكفر»**، وفي رواية **«إذا قال لأخيه يا كافر، فقد وجب الكفر على أحدهما»** ومعنى كفّر الرجل أخاه وصف بالكفر ونسبه إليه في خبر كرأيت كافراً أو نداء كيا كافر، أو اعتقاده الكفر فيه، كاعتقاد الخوارج كفر المؤمنين بالذنوب، وليس من ذلك تكفير جماعة من أهل الأهواء لما قام عندهم من الدليل على ذلك، ومعنى باء بها أحدهما: رجع بكلمة الكفر) انتهى من الأعلام بإيجاز، وذكر فيها وجوهاً في تأويل الحديث إلى أن قال: «الثالث أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا نقله القاضي عياض وهو ضعيف لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون، والمحققون، إن الخوارج لا يكفّرون كسائر أهل البدع، . . . . وفي الدرة البهية في جواب سؤال عمن كفّر مسلماً بنحو هذا ما نصه، مع تغيير يسير في اللفظ: لم يدر هذا القائل مقدار ما قال،

---

(1)و(2) إيقاظ الوسنان، ص32.

(3) ربما في ميزان الحق.

ولم يتنبه لما يلزمه في هذا الضلال من الوبال وقد ورد «**إذا قال الشخص للشخص يا كافر فقد باء بها أحدهما**» ثم تعجب منه كيف يتجرأ عى تكفير المسلمين بما ذكر فكأنه يريد قصر الإسلام على نفسه، وأنه ليس لمحمد ﷺ أمة ناجية غيره وغير من وافقه على ما قال، وليته اعتبر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: 94] وقد تحرزت الأمة قديماً وحديثاً من تكفير المسلم وحذروا من المبادرة فيه مهما أمكن، فقال حجة الإسلام الغزالي: الذي ينبغي أن يميل إليه المحصل الاحتراز من التكفير مهما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله خطأ والخطأ في ترك الكافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم.... وقد قيل لمالك: أيكفر أهل الأهواء؟ فقال: هم من الكفر فروا، وقد سئل تقي الدين السبكي رحمه الله: عن حكم تكفير غلاة المبتدعين فقال: اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله عز وجل استعظم القول بالتكفير لمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر لأن من كفّر شخصاً، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا تجري أحكام المسلمين لا في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرىء مسلم، وفي الحديث: «**لأن يخطىء الإمام في العفو أحب إلى الله من أن يخطىء في العقوبة**»، فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر واختاره ديناً وجحد الشهادة، وخرج من دين الإسلام جملة[1].

وذكر ابن السنوسي حكاية لطيفة تدل على أبعاد عميقة لفهم قضية التكفير وهي: أن شخصاً بمصر وقع في عبارة موهمة للتكفير فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أراد قتله قال السلطان: هل بقي أحد من العلماء لم يحضر قالوا نعم (الشيخ جلال الدين المحلى شارح المنهاج)، فأرسل إليه السلطان، فحضر فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: مال هذا؟ فقالوا: كفر، فقال: ما مستند من أفتى بتكفيره، فبادر الشيخ صالح البلقيني، وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير، فقال: يا ولدي أتريد أن تقتل مسلماً موحداً يحب الله ورسوله لفتوى أبيك؟ حلوا عنه الحديد، فجردوه وأخذ الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر، فما تجرأ أحد يتكلم[2].

ثم بعد ذلك دخل ابن السنوسي في الباب الأول، وتحدث فيه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وبين أن دلالة الكتاب والسنة واحدة، وذكر أدلة وجوب اتباعهما، وتقديمهما على رأي كل مجتهد، وتحدث عن عمل الأصوليين، والمحدثين، والفقهاء بالحديث، وطريقة

(1)و(2) انظر: إيقاظ الوسنان، ص37.

كل قوم، أما في الباب الثاني فبين حقيقة الاجتهاد وأنواعه، وفيما يشترط في المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية، ووضح حرمة الاجتهاد مع النص في كل ما عمّ وخص، ورد زعم من قال بانقطاع ودعوا أنه إجماع، وذكر الأدلة الشرعية التي تذم التقليد المذموم، وفنّد دعوة القائلين في انحصار التقليد للأئمة الأربعة.

إن دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه، ومحاربة التقليد المذموم، تعني أنه بذلك حارب أسباب الفرقة الداخلية، كالجهل، واتباع الهوى، والابتداع، فالجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات، وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

إن ابن السنوسي دعا الناس، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين في كتابه النفيس إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، أن أي حكم لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله، فإنه باطل مرفوض، وعلاج مرض الجهل بالدواء الناجع ألا وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إن من أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركات الإسلامية قيادة تجهل كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولا تعطي للعلماء أي وزن أو اهتمام، بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية، والفكرية، والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم[1].

إن كتاب ابن السنوسي إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يدل الباحث على تأثره بالمنهج السلفي، ويظهر فيه تأثره بأفكار ابن تيمية الذي نادى قبله بستة قرون بالتمسك بالكتاب والسنة، وحارب التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، ويبدو أن اطلاعه على كتب ابن تيمية كان في زمن إقامته في الحجاز، كما تعرّف على آرائه من خلال احتكاكه بدعاة السلفية، من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين تبنوا كتب ابن تيمية وابن القيم، وكتب أهل السنة والجماعة عموماً، ولو قارن الباحث بين كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، وإيقاظ الوسنان لوجد تأثر الثاني بالأول ظاهر العيان.

إن ابن السنوسي لم يكتفِ في دعوته لفتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد بالقول، ولكنه قرن قوله بالعمل، حيث خالف مذهبه المالكي في عدة مسائل منها: رفع اليدين في الصلاة،

(1) انظر: فقه التمكين، ص245.

حكم القبض، حكم السكتات الثلاث، حكم الاستعاذة، حكم البسملة للفاتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام، والخروج من الصلاة، حكم القنوت، ورفع اليدين فيه حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة، وتقصيرها المشروعين[1]، والمتطلع على كتابه المسائل العشر يرى قوته في إقامة الحجة على ما ذهب إليه من خلال أحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، ويذكر أدلته التي خلف فيها المذهب المالكي.

لقد نال ابن السنوسي رضى علماء المسلمين بسبب اجتهاده في الدين وعدم تقيده بمذهب من المذاهب، حيث جعل رائده العمل بالكتاب والسنة ولم يقدم عليهما أقوال العلماء والفقهاء، وبسبب دعوته المخلصة التي أثرت في قبائل ليبيا، والصحراء الكبرى وإفريقيا، والتي أصبحت فيما بعد كتائب للجهاد في سبيل الله تعالى[2].

إن كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يوضح لنا معالم سلفية سنية في منهج الحركة السنوسية.

كانت خاتمة كتاب إيقاظ الوسنان في سنن أهل الله وسبيل عملهم فبين فيها مجموعة من الأصول والقواعد في علم التصوف منها:

* إن حكم أهل السلوك في هذا حكم المحدثين في العقائد والفروع وهي عقيدة السلف[3].

* (الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ)[4]، ونسب هذا القول للجنيد وقال أيضاً: علمنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يستمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعه.

وقال سهل بن عبد الله التستري: بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله وسنة رسوله وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام وأداء الحقوق[5].

وقال أبو عثمان الجبري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى نطق بالبدعة[6].

---

(1) انظر: المسائل العشر، ص5 إلى 74.

(2) انظر: السيد محمد رشيد رضا، محمد درنيقة، ص203.

(3) انظر: إيقاظ الوسنان، ص128.

(4) انظر: المصدر السابق، ص130.

(5)و(6) انظر: إيقاظ الوسنان، ص130.

وقال أبو العباس ابن عطاء الله: من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة[1].

ثم بين ابن السنوسي أنه لا مقام أشرف من متابعة الحبيب ﷺ في الأفعال والأقوال والأوامر والأخلاق[2].

وبين خطورة الهوى واستدل بقول ابن عطاء الله في حكمه: لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك[3].

وقال أيضاً: «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال» وقال بعضهم «نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن»[4] قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23].

وبين ابن السنوسي: أن كل طريق لم يمشِ فيه الشارع ﷺ فهو ظلام ولا يكون أحد ممن يمشي فيه على يقين من السلامة وعدم العطب لأنه ﷺ هو الإمام وهو النور، والمأموم إذا خرج عن اتباع إمامه وتعد ما حده له مشى في الظلام بقدر بعده عن شعاع نور إمامه، ولهذا تجد كلام أئمة المذاهب كلهم نوراً صرفاً لا إشكال فيه لقربهم من رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم ولهذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها» يعني حرفاً حرف من غير زيادة على ما شرعته أو نقص عنه فسّر ﷺ بأن الابتداع هو الزيادة على التشريع[5].

لقد كان التصوف عند ابن السنوسي وسيلة لتربية النفس وتزكيتها، والسمو بها نحو المعالي، وكان تصوفه له مقياس دقيق (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)، فاهتم ابن السنوسي بالعلم الرباني، وتربية النفس، وهذا يظهر من خلال دراسة كتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وقد ختم ذلك الكتاب بهذه العبارات الجملة (والله الهادي إلى الصواب لا رب غيره لا خير إلا خيره عليه توكلت وإليه أنبت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين نالوا ذرى المجد بصحبته، وبلغوا كمال الكرم والشرف برؤيته نسأل الله ﷻ أن يحشرنا في وفدهم إليه وأن ينيلنا مما أعده لهم لديه، إنه كريم رحيم حليم عظيم)[6].

من خلال ما سبق نرى أن ابن السنوسي كان جريئاً في طرح أفكاره التي كانت على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى عصره الذي تجمد فيه الفكر، وتأخر فيه العلم، وابتعد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت دعوته للتمسك بالكتاب والسنة مبنية على علم غزير، وحجج دامغة، وبراهين ساطعة، وكان متأدباً غاية التأدب مع العلماء، فهو لا ينكر فضل الأئمة

(1 - 4) المصدر السابق نفسه، ص131.

(5) إيقاظ الوسنان، ص132، 133.

(6) انظر: إيقاظ الوسنان، ص139.

ولكنه يأبى الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالإمكان الرجوع إلى النبع والاطلاع على أحاديث قد لا يكونون وصلوا إليها، وما دام بالإمكان التفكير والاستنباط مع ملاحظة تغير الظروف[1].

كان ابن السنوسي المؤرخ يمتاز بغزارة معلوماته، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش، ومع هذا ساند الدولة العثمانية حرصاً على وحدة الأمة، ودحر أعدائها، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربوياً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية مسترشد بكتاب الله وسنة خير البرية.

(5) انظر: الحركة السنوسية، ص151.

المبحث الثالث

من أهم صفات ابن السنوسي

إن ابن السنوسي في سيرته العطرة اتصف بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ، ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الفذة.

أولاً - الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

وقد بلغ ﷺ في حلمه وعفوه الغاية المثالية، وكان ابن السنوسي شديد الاقتداء في كل أحواله وأقواله، وأفعاله برسول الله ﷺ، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه نفسه، منها: ما ذكره أحمد الشريف في رحلته ﷺ أن رجلاً من الطريقة الدرقاوية، أساء الأدب مع ابن السنوسي، أثناء نزوله بسيوه، وقال لابن السنوسي: نحن نكسر رؤوس الرجال، فسمع بذلك أصحاب السنوسي وأرادوا أذيته (يعني الرجل) فقال لهم الأستاذ: اتركوه عنكم واختفى الرجل خوفاً من الإخوان[1].

ثانياً - العفو والصفح عند المقدرة:

ومن الصفات التي ظهرت في شخصية ابن السنوسي: حبه للعفو والصفح، فعندما نشب خلاف حول أملاكه مع بني عمه في الجزائر، وطالب أبناء عمه بحقوقه، فامتنعوا ورفع عليهم قضية وكسبها، ولم يدفع أولاد عمه المستحقات التي له، وقامت الحكومة بسجنهم، تنازل عن طلبه[2]، وعندما ناصبه العداء بعض العلماء تعصباً واندفاعاً وجموداً، واتهموه بالكفر، والمروق عن الإسلام، فقال ابن السنوسي عمن تولى الهجوم عليه: عفى الله عن الشيخ عليش سامحه الله[3].

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص155، 156.

(2) المصدر السابق نفسه، ص58.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص26.

ثالثاً - زهده:

كان ابن السنوسي زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، حريصاً على دعوة الناس للحق، ولم يحرص على جمع الأموال وحطام الدنيا الفاني وله أشعار تدل على زهده، وعلى حقيقة نفسه المنصرفة إلى الله، المقبلة على متاع الروح، الزاهدة في لذائذ الدنيا ومتعها، وذلك إذ يقول:

إلا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... علينا ولا اللذات إلا العطائب
وما لذة الأولاد والمال والمنى ... لدينا ولا آمال لا المصائب
فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

ومن أشعاره في التعبير عن زهده في الدنيا:

وهبني علمت الكيمياء ونلتها ... وأتقنتها صبغاً وأتقنتها صنعا
ولخصت تسيير الكواكب كلها ... ببحثي وتدقيقي ونلت بها مسعى
وملكت أموال البرايا بأسرها ... وجالت يدي في أصفهان إلى صنعا
أليس مصيري بعد ذلك كله ... إلى تحت هذا التراب في حالة شنعا
فقل للذي يمسي ويصبح همه ... لغير رضا الرحمن: يا خيبة المسعى[1]

رابعاً - تواضعه:

ومن الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي صفة التواضع، فعندما دخل مكة، كان يسقي الناس ماء زمزم واتخذها حرفة وصار ملازماً لها فترة من الوقت، قربة إلى الله[2]، وقد ذكر ابن علي في فوائده الجلية أن ابن السنوسي كان ناذراً لله تعالى وقف نفسه على خدمة الكعبة المشرفة، تقرباً لى الله تعالى وتواضعاً، ومجاهدة لنفسه، وكان عازماً على المضي، غير أن الله تعالى رفع قدره وهيأه لما هو أعم وأنفع، ومن تواضع لله رفعه الله[3] وقام بالوفاء بنذره واشترك في خدمة الحرم بقدر ما يسر الله له[4].

لقد كان ابن السنوسي غاية في التواضع، وفي رسالة من رسائله إلى أحد أخوانه تظهر هذه الصفة جلية حيث يقول: والذي أوصي به نفسي وإخواني هو تقوى الله، وصية الله في الذين

---

(1) انظر: دراسات وصور للحاجري، ص303.
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص11.
(3) انظر: الفوائد الجلية (1/ 20).
(4) المصدر السابق نفسه، (1/ 21).

خلوا من قبل ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 131]، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات، . . .»[1].

فنلاحظ أن ابن السنوسي قرن نفسه بإخوانه مما يدل على تواضعه وجعل نفسه كأي واحد منهم، ومقامه منهم أوضح من الشمس في رابعة النهار.

خامساً - العفة والترفع عما في أيدي الناس:

من الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي العفة والترفع عما في أيدي الغير.

فعندما حجت إلى مكة والدة عباس باشا حفيد محمد علي باشا حاكم مصر، وسمعت بتقوى ابن السنوسي وولايته ذهبت لزيارته في الزاوية فلم تجده، وجدت الشيخ عبد الله التواتي، فسألته: أنت الشيخ؟ فأجابها: بالنفي، وأخبرها أن الشيخ في الطائف؛ فقصدت الطائف وطلبت مقابلته بإلحاح، فقابلها على مضض، فحدثته عن ابنها عباس وكيف يضطهده عمه إبراهيم باشا، وكيف أنها تخشى عليه من عمه؛ ثم سألته أن يدعو لابنها فدعا له بالتوفيق؛ فرغبت هي أن تقدم لابن السنوسي هدية فمدت له صرة مملوءة ذهباً فرفضها، فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ شيئاً وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على التواتي في زاوية أبي قبيس؛ فعادت إلى مكة وقدمتها للتواتي؛ فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض، ولما ألحت طلب منها أن توزعها على الفقراء لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة، وعندما عادت إلى مصر توفي محمد علي وإبراهيم في سنة واحدة، فخلا كرسي الولاية واحتله ولدها[2]، وقد ربى ابن السنوسي أتباعه على العفة والترفع عن ما في أيدي الناس، وقد ذكرت قصة مرتضى فركاش وحسين الغرياني مع البدو الذين أهدوا إليهم إبلاً وبقراً وغنماً، وكيف ردها ابن السنوسي وبين لهم: أن مهمة بعثاتنا تنحصر في تلقين قواعد الدين، والتعريف به، لا لأجل تقبل الهدايا والهبات والتبرعات، وطلب منهم أن لا يرهقوا البدو حتى بتكاليف الضيف، وكان يزود الدعاة بجميع ما يلزمهم[3] وكان يحث إخوانه من العلماء والشيوخ والدعاة، أن يتعلقوا بالله وحده حيث يقول: «. . . وورد من أحب شيئاً كان له عبداً، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، وفي الحكم ما أحببت

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص91.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص97.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص87.

شيئاً إلا وكنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً، وإياك أن تطلب على عملك جزاء آجلاً أو عاجلاً، فيكون درى يقينك في الله آفلاً، أو تشهد أن لك في ذلك العمل أثر، فتشرك بخالق القوى والقدر، فإن الإخلاص له مراتب، فرتبة إخلاص العوام عدم طلب الثناء والسمعة، ورتبة إخلاص الخواص عدم طلب الجزاء الآجل أو المقامات المرتفعة، ورتبة إخلاص خواص الخواص التبري من الحول والقوة. . .)[1].

لقد كان ابن السنوسي يحذر من الانكسار في حب الدراهم والدينار، وكان يريد من إخوانه أن يتجردوا في أعمالهم ويجعلوها لله وحده.

سادساً - قوة الحجة، والقدرة على الإقناع والمناظرة:

عندما وجه علي عشقر والي طرابلس اتهاماته لابن السنوسي، استطاع ابن السنوسي أن يبدد جميع الاتهامات، وطلب من الوالي العثماني أن يجمعه مع العلماء في طرابلس، وتألف مجلس الوالي من كبار العلماء منهم: أحمد المقرحي، وكان من أبرز العلماء وأقربهم مكانة عند الوالي العثماني، والشيخ القزيري البنغازي، وأخذ أعضاء المجلس العلمي يناقشون ابن السنوسي، وجاء رده حاسماً، وشاملاً، بل ومحرجاً لبعض العلماء، فأيقنوا أنهم أمام محيط من العلوم الراسخة، والحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، ومن ذلك الحين انضم الشيخ أحمد المقرحي، والشيخ علي القزيري إلى الإخوان وتجردوا لخدمة الحركة السنوسية، وانضم أيضاً الوالي علي عشقر وأصبح من أتباع الطريقة السنوسية[2].

وكان من أساليبه في الإقناع: ضرب الأمثلة العلمية الحية، وكان ذات مرة في مجلسه بمكة يحف به بعض الزوار، فدخل شخص أجنبي له مظهره الملفت للنظر، وحيا الحاضرين ثم وجه سؤالاً علمياً معقداً إلى ابن السنوسي، كأنه يريد منه التعجيز، وكان ابن السنوسي مشغولاً بعمل باشره، وطلب السائل سرعة الجواب بصورة لفتت نظر الحاضرين، ففهم ابن السنوسي السائل وطمأنه بسرعة الإجابة، واستدعى تلميذه عبد الله التواتي وكان يقوم بنصيبه في العمل، وكان يومها يقوم بـ(عجن الطين) أثناء القيام بعملية بناء زاوية مكة، وكان يرتدي لباس العمال، ولما استدعاه ابن السنوسي جاء مسرعاً بملابس العمل وقد علق الطين الذي كان يقوم بعجنه في رجليه وهندامه، فقال له ابن السنوسي: أجب سائلنا هذا عن سؤاله، كذا وكذا، واسترسل عبد الله في الإجابة الشاملة من ذاكرته، ولم يترك ثغرة في السؤال، وجاء بمختلف الأقوال في المسألة ثم ردها إلى حقيقتها، فتعجب الناس، وتحير السائل ثم اقتنع وقال: لا يصح أن يكون

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص89.
(2) المصدر السابق نفسه: ص104.

مثل هذا الرجل الفاضل عاملاً وبهذه الصورة، فمن حقه أن يتصدر المجالس، فأجابه ابن السنوسي بقوله: إن جماعتنا كلهم على هذا الغرار، ومن لم يصل منهم إلى هذا المستوى، فهو في طريقه إليه وهذا العمل الذي تعيبه عليهم لم يكن معيباً لهم أو لينقص من شأنهم وقيمتهم، إنهم يعملون كما يأمر الإسلام لرفعة شأن المسلمين، وإننا نعدهم لمجد الإسلام، ولرفعة شأنه، فاعتذر السائل على ما ظهر منه[1].

سابعاً - شعوره بالمسئولية:

كان ابن السنوسي يستشعر مسئوليته وواجبه المنوط به نحو عباد الله والأمانة التي تحملها لهدايتهم وإرشادهم، فكان ذلك دافعاً له للقيام بواجبه وأداء رسالته، وكانت هذه الصفة واضحة في شخصيته، وكان يستشعر بأنه مأمور بواجب الدعوة إلى الله، وفي خطواته التي سار عليها، وشعوره بهذه الصفة، جعلته لا يعرف المستحيل، وكان لا يأمر بأمر إلا وقد نفذه على نفسه وأحب الناس إليه، وأقربهم منه[2]، وكان يقول لإخوانه: ليس هناك على همة العاملين ما يسمونه مستحيلاً إذا ما أخلصوا في عملهم وصدقت عزيمتهم، واتخذوا من القرآن الكريم دليلاً، وعرفوا معانيه وتدبروها ما يجب أن يتدبروها[3].

ثامناً - حليته:

كان أزهر اللون مدور الوجه أقنى الأنف خفيف العارضين واللحية، أشقر الشعر معتدل القامة، رقيق الحاجبين أزجهما، واسع الثغر، فصيح اللسان، جهوري الصوت مع رقة فيه، واسع العينين وفي إحداهما انكسار لا يكاد يظهر، طويل العنق، عريض الصدر والمنكبين من رآه مرة هابه وإذا خالطه وكلمه ألفه وأحبه[4].

تاسعاً - هوايته:

كان يهوى اقتناء الخيل، ويحسن ركوبها إلى درجة عالية من المهارة، وكان يستطيع التقاط بعض الشيء من الأرض من على ظهر الجواد في أثناء عدوه، كما كان يستطيع الوقوف على رجليه، وعلى رأسه على ظهر الجواد أثناء عدوه، ويستطيع إصابة ما يريده من المرمى، وكان يشجع أتباعه وإخوانه على تعلم الفروسية ويقول لهم: إن ذلك من صميم السنّة[5].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص98، 99.
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص180.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص117.
(4) انظر: الفوائد الجليلة (1/ 89).
(5) انظر: المصدر السابق.

وفاته:

كان ابن السنوسي يشعر بالمرض منذ مدة، وكان يصارعه بالصبر، وقوة العزيمة، فلم يركن للراحة، ويخضع لوطأة المرض، وشرع في إتمام ما عزم على إقامته، وحاول أن يتغلب على المتاعب والأمراض وكان يمهد الأمور لتولي ابنه محمد المهدي أمر زعامة الحركة السنوسية، ونجح في ذلك، وأقنع الإخوان وزعماء القبائل بذلك، واشتد عليه المرض في شهر شعبان 1275 هـ حتى صار يغيب عن إحساسه، وكان يقول: «أهل الله حملونا شيئاً كثيراً لو نزل على الجبال الراسيات لما أطاقته»[1]، ثم ارتفع بعد ذلك المرض منتصف محرم عام ستة وسبعين ثم تزايد عليه الألم، والأسقام، وصار يغيب أحياناً، ويفيق أحياناً إلى أن دعاه مولاه يوم الأربعاء من صفر الخير بعد طلوع الشمس[2]، وهكذا انتقل إلى جوار ربه.

وقبل الدفن اجتمع الإخوان في المسجد يوم الخميس، وقام فيهم عمران بن بركة خطيباً فألقى كلمة قال فيها: «. . . حمداً لمن قضى على جميع العباد بالموت وسدد سهمه للإصابة في جميع الوقت، فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص، ولا محيد عن الوقوع في شركه، ولا خلاص، فلم ينج منه أمير ولا وزير، ولا غني ولا فقير، ولا شريف، ولا وضيع، ولا دنيء ولا رفيع، حكم بذلك على سائر رسله وأنبيائه وأهل حضرته من أصفيائه وأوليائه، وعلى الموت نفسه بعد إبقاء المقادير بالموت فلا محيط عنه ولا فوت وجعله منة يفتدى بها من أسرار الأكدار وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار، . . . .)[3] وبعد أن دفن ابن السنوسي رحمه الله، تولى أمر الحركة ابنه من بعده (محمد المهدي)، فقام بإرسال خبر وفاة ابن السنوسي إلى شيوخ الزوايا في مختلف الأقطار وكان فيها: (. . . إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي إلى الأجلاء والأبرار الأصفياء الأخيار أخينا السيد محمد بن إبراهيم الغماري وأخينا إسماعيل بن رمضان، وأخينا وهبة، وكافة إخواننا أهل مكة سلمهم الله آمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته، ومرضاته وبعد، فقد وصلتنا كتبكم التي أرسلت باسم الوالد رحمه الله تعالى وسقى ثراه وأكرم نزله ومثواه، وكنا قبل هذا أرسلنا إليكم كتبنا وأخبرناكم فيها بما قدره الله وقضاه وأبرمه في أزله وأمضاه ونسأله تعالى أن يجعلنا من عباده الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» واستطرد محمد المهدي في رسالته إلى أن قال: «كونوا على ما كنتم عليه من الدلالة على الله تعالى بالحال وبالمقال وصابروا، ورابطوا وتواصوا بالصبر، واذكروا عباد الله فيه وجاهدوا في الله حق جهاده، وكونوا يداً واحدة على من سواكم، وفي الله إخواناً وعلى البر والتقوى أعواناً، ولا تعاونوا على الإثم

(1 - 3) انظر: الحركة السنوسية، ص124.

والعدوان وسلموا منا على كافة الإخوان والمحبين من أهل مكة والمعابد والوادي والطائف وغيرهم»[1].

وقد رثاه الشعراء وهذه قصيدة عبد الرحيم المحبوب يبكي فيها ابن السنوسي حيث يقول:

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل ... ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنها سمات بالشوك أو كحلت ... من الغضي بشواظ كان يشتعل
تخالها مزنة قد لاح بارقها ... فاخضل الأرض منها صيب هطل
والوجه أسفع والأعضاء ناحلة ... والقلب في شراك الأحزان مختبل
والجنب إذ تدعه حال لمضطجع ... كان الوطأ له السعدان والأسل
تئن في لجج الأحلاك من نكد ... منه ترى راحة أن يحضر الأجل
أمن تذكر أوزاراً سفت لها ... أو زار بالطيف من تهوى ولم يصل
أم ذا لفقد حبيب كنت تألفه ... وازور دهرك أم قد خانك الأمل؟
يا لهف نفسي على ما كان مسكنهم ... قلبي وهم أن مضوا سفر به مهل
كانوا الغياث لملهوف ومتجعا ... للمجدين إذا ما مسهم محل
شدوا الرحال ولم يستأذنوا أحدا ... وضل شوقاً لم يبكيهم الطلل
تبكيهم السنة الغراء من عصر ... ما أن بمثلهم قد مسها ثكل
يبكيهم ما حوى (كشف الظنون) وما ... يروي (الجوامع) مع ما ساره المثل
مع ما روى (حجة الإسلام) من حكم ... وأعلن الشيخ من رمز له قفل
من (للصحاح) (وشمس العلم) بعدهمو ... أو (للشفاء) و(للقاموس) يحتفل
من (للجلالين) و(الكشاف) ينقذه ... (البحر) و(النهر) و(الأنوار) ينتخل؟
من (للعلوم) على أقصى تنوعها ... من (للحلوم) إذا أشفت بها العلل؟
من (للمكارم) و(الآثار) يؤثرها ... عن الجدود الألى سارت بهم مثل؟
والغور والنجد من أرض الحجاز وما ... ضاهي (قبيساً) بها من فقدهم عطل[2]

إلى أن قال:

فالصبر أولى وعند الله محتسب ... أن المصائب إن تعظم لها بدل
توارت الشمس عن عين الحسود بها ... أو ذاك رفق ببدر ناله الخجل

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص138.

(2) انظر: المصدر السابق، ص132.

وذاك عام شروع الخطب قلت إذن ... ما بال عيناك لا بالنوم تكتحل[1]

وهذه قصيدة ألقاها شاعر ليبيا أحمد رفيق المهدوي عام 1956 م بمناسبة مرور مائة عام على وفاة ابن السنوسي:

خلدوا ذكرى إمام المصلحين ... سيد المجتهدين العارفين
الإمام، ابن السنوسي، الذي ... فاق صنف العلماء العاملين
عبقري قد تسامى للعلا ... بجلال العلم والدين المتين
وبإصلاح ترى آثاره ... لم تزل تهد على مر السنين
نشر الدين بعزم صارم ... وجهاد كجهاد المرسلين
وهدى قوماً على غير هدى ... بين جهل وضلال عائشين
في صحارى يلفح القيظ بها ... كشواظ النار فيها الساكنين
وبلاد في غمار مطبق ... بظلام البؤس، والغيم المشين
عمها ديناً ودنيا فغدا ... أهلها من علماء المسلمين!
وبنى فيها (زوايا) أصبحت ... منهلاً عذباً لورد الظامئين
ومنارات تشع العلم من ... قابس عن نور رب العالمين
بالتآليف التي من فيضها ... (سلسبيل) (المنهل) الصافي المعين
و(شفاء الصدر) من رين الهوى ... و(بإيقاظ لوسنان) مهين
وشرحٍ لعلوم وضحت ... ما عصى من مشكلات الأولين
بينت ما جاءنا عن جده ... من علوم، وأحاديث، ودين
هذه آثاره من علمه ... كلها تدعو إلى الحق اليقين[2]

هذا ما استطعت جمعه وتلخيصه عن ابن السنوسي رحمه الله تعالى، وما أردت بالكتابة عن حياته إلا إحياء سير المصلحين، والدعاة العاملين، والعلماء الراسخين، لتعلم الأجيال الصاعدة أن لها تاريخاً عريقاً ضارباً في أعماق الزمن يزخر بأمجاد الإسلام، وأن ابن السنوسي ممن واصلوا نهج الصحابة والتابعين في الدعوة إلى الله، وأن سيرته ليست عنا ببعيدة، لعل هذه الصفحات المشرقة تصل إلى قلوب دعاة الإسلام في ليبيا، وفي الأمة، فيقتبسوا من سيرته ما يحثهم على مواصلة السير لدعوة الله، والجهاد في سبيله، وما أردت بذلك إلا وجه الله تعالى هو حسبي عليه توكلت وإليه أنبت، انتهيت من هذه الترجمة في العشر الأواخر من شهر رمضان،

(1) السنوسي الكبير، ص133.
(2) الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دي كاندول، ص159، 160، أشرف على الترجمة محمد عبده غلبون.

فاستبشرت بذلك خيراً، وتذكرت رؤيا رأيتها عندما كنت في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب عام 1983 م، حيث رأيت ابن السنوسي في منامي وقدم لي كأساً مملوءة بالحليب فشربته، فإني أحمد الله على أن وفقني لكتابة هذا الكتاب، والفضل لله وحده من قبل ومن بعد، وأختم هذا الكتاب بهذه الأبيات التي سليت بها نفسي، عندما حذرني بعض الأخوة من نشر ما يتعلق بأمجاد السنوسية، لأن ذلك يثير أعداءهم ضدي، وأنت لا حول لك ولا قوة، فأجبتهم ما أردت بكتابي إلا نصرة الإسلام، وقلت لهم بأن هذه الأمجاد ليست خاصة بالسنوسية بل هي لكل مسلم وتلوت قول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 64].

أما الأبيات فهي:

لا تطلبن من غير ربك حاجة ... إن كنت بالرحمن ذا إيمانِ
ومن الذي يستبدل الضعفاء ... والفقراء والبخلاء بالرحمن
أو يشتري الظلمات بالأنوار أو ... يرضى يعود بأخسر الخسران
فوض إلى المعبود أمرك كله ... وافزع إلى المولى بغير توانِ
واقرع إذا نام الأنام وغلقوا ... أبوابهم لا بالنوال الهاني
باب الذي بسط اليدين بليله ... ونهاره لتدارك العصيان
ويداه مبسوطتان للإحسان ما ... قبضت يد خوف من النقصان
باب الذي إن لم تسله فضله ... يغضب فكيف يرد بالحرمان
باب المجيب إذا دعاه مرتج ... لاج إليه ماله من ثاني
باب الذي يغنيك عن زيد وعن ... عمرو وعن ثان وعن أعوان
باب الذي لا خير إلا عنده ... بيده كل منى وكل أمان
باب الذي يرجى لكل ملمة ... لعظائم الآلام والحدثان
الحي قيوم الخلائق كلها ... الواسع الرُّحمى عظيم الشان

سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا إله إلا انت استغفرك واتوب إليك.

خلاصة القسم الأول

1 - أصيبت الدولة العثمانية في القرنين الماضيين بداء الأمم كالحسد والبغضاء، واستبداد الملوك، وخيانة الأمراء، وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة، والدعة وكان شر ما أصيبت به الدولة الجمود في العلم، وفي صناعة الحرب، وفي تنظيم الجيوش.

2 - كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية تنخر في كيان الدولة، فظهرت الدعوة إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية.... وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، والحركات الانفصالية تتكاثر، والدول الأوروبية تدعمها وتستعد لتقسيم تركة الرجل المريض.

3 - أصبحت الأمة تعاني من الآثار التي ترتبت عن ابتعادها عن شرع الله، وأصيبت الناحية الاجتماعية بتفشي الجهل، والمظالم بين الناس، وصراع الأمراء، والولاة على حطام الدنيا الزائل، وأصبحت الأمة في ليل حالك، وظلام دامس.

4 - جمد المسلمون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

5 - أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتياً وإماماً، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد، كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام مذهبه، وبذلك يقف المسلمون لصلاة الجماعة وراء أكثر من إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد.

6 - انتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عربيها، وعجميها، وضاع مفهوم العبادة الصحيح، ومفهوم الولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ.

7 - بدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي بلداناً كلما أتيحت لها الفرصة.

8 - اهتز العالم الإسلامي لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما تأثر باحتكاكه بالغرب، واطلاعه على تقدمه، من هذا التحدي نبعت حركات الإصلاح.

9 - تتابعت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي واحتلال أجزاء منه.

10 - قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم.

11 - تعد حركة الشيخ محمد عبد الوهاب البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة، ورجعة إلى الدين.

12 - ظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين.

13 - ولد الإمام محمد بن علي السنوسي عام 1202 هـ صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي ﷺ.

14 - بعد وفاة والده تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم، ومنقطعة للتدريس والوعظ.

15 - بعد وفاة عمته عام 1209 هـ بسبب الطاعون تولى تربيته ابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف، والضبط، وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الظمآن، المصابيح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرر الأماني للشاطبي.

16 - بعد وفاة ابن عمه 1219 هـ، جلس للأخذ من علماء مستغانم لمدة سنتين كاملتين، ثم توجه إلى بلدة مازونه ومكث بها عاماً ثم رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها.

17 - كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع: فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات. . . . الخ.

18 - رأى ابن السنوسي أن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة، فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً.

19 - ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته، وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعياً للتفوق.

20 - رأى أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة.

21 - سافر إلى فاس ليزداد في طلب العلم وبقي في المغرب الأقصى سبع سنين متتالية، وكانت تجربته في فاس ثرية.

22 - وبعد ذلك ترك المغرب الأقصى وتوجه نحو المشرق، فمر بتونس وليبيا ثم دخل القاهرة وكان ذلك عام 1239 هـ/ 1824م.

23 - كانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض.

24 - لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها.

25 - دخل ابن السنوسي الحجاز عام 1240 هـ/ 1825 م، ونزل مكة وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها.

26 - اهتم ابن السنوسي بالقضية الجزائرية، وعمل على إذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وحرص على المشاركة فيه بنفسه وأعد لذلك العدة، إلا أن الظروف والعوائق التي كانت في طريقه منعته من ذلك، وعمل على إمداد تلاميذه بالأسلحة والمال، وحرض أتباعه على القتال، واستمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي.

27 - إن المفتاح الكبير لقبائل برقة، هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

28 - كانت زاوية البيضاء في الجبل الأخضر أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي، وشرع يعلم الناس فيها، ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه تطلب زيارته لها تبركاً به، وتطلب إقامة الزاوية فيه، وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر.

29 - توفرت في قبائل برقة ظروف ملائمة لظهور الحركات السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة منها: انفصالها عن الأقطار المجاورة بالصحاري والفيافي التي تحيط بها، تتألف تلك القبائل من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة، ويقوم ذلك النظام على عصبيات دموية مشتركة، وتقاليد وأعراف متشابهة، كانت بعيدة عن سيطرة المدن، كانت القبضة العثمانية عليها ضعيفة... إلخ.

30 - ظل ابن السنوسي خمس سنين ينشىء الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق الزوايا.

31 - عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة مركزان رئيسيان، شرقي في الحجاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك.

32 - طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز واشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج.

33 - رجع ابن السنوسي إلى ليبيا واختار الجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية.

34 - استطاع ابن السنوسي أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء، والفقهاء، والدعاة ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس، وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته.

35 - قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء، والفقهاء والقادة والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة: محمد عبد الله التواتي، أحمد أبو القاسم التواتي، علي بن عبد المولى، أحمد بن فرج الله، محمد بن الشفيع، أحمد المقرحي، وعمران بن بركة الفيتوري وغيرهم كثير.

36 - استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم، وأصبحوا كالجسد الواحد الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء.

37 - إن الأصول التي تساهم في توحيد المجتمع هي: وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، طلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع.

38 - يظهر البعد التنظيمي في شخصية ابن السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي ساروا عليه.

39 - كان نظام الزوايا معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الإفريقي، واستطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات، اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ودعوية، وجهادية.

40 - انتهج ابن السنوسي منهجاً تربوياً استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه.

41 - إن الصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة وقد جعل للمريدين مراتب في السلوك يتدربون عليها أولها: تصحيح العقيدة بميزان أهل السنة والجماعة، أن يتعلم المريد ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة، أن يتوجه المريد إلى تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب وتنقية السر... إلخ.

42 - يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية - دولة الخلافة - ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، ويظهر أيضاً في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار، بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل.

43 - كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة، وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب رفيع، فاشتراهم وأعتقهم، وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم، واهتم بدعوة القبائل وزعمائها، واستطاع أن يجعل منهم دعاة إلى الله تعالى واعتمد في أسلوبه على ضرب الأمثال، واستخدم القصة، واستعمل الشدة في محلها.

44 - إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال كتبه، ومن أهمها: كتاب المسائل العشر، السلسبيل المعين، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، ورسالة مقدمة موطأ الإمام مالك وغيرها.

45 - كانت كتب ابن السنوسي في أكثرها تتناول المباحث الفقهية، والصوفية، وفيها كتاباً أو كتابين يتناولان مواضيع تاريخية.

46 - أن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة... وكانت ثقافته التاريخية تمتاز بغزارة المعلومات، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

47 - كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربوياً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية.

48 - اتصف ابن السنوسي بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ.

49 - إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات مشرقة من تاريخ بلادنا الحبيبة التي كانت - ونرجو من الله أن تكون - مركزاً لدعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وما ذلك على الله بعزيز: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51].

هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه.

وأختم الكتاب بقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتينا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتِ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

تاريخ
الحركة السنوسية
في أفريقيا

القسم الثاني

سيرة الزعيمين

محمد المهدي السنوسي وأحمد الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

هذا الجزء الثاني من الكتاب السابع يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميته **«الحركة السنوسية في ليبيا وأثرها الدعوي والجهادي وسيرة الزعيمين محمد المهدي وأحمد الشريف»**.

إن غربلة التاريخ، وحفظه من التزوير، وكشف الأكاذيب التي دسها أصحاب الأغراض الخبيثة الذين عملوا على تشويهه، وتزويره، وتشكيك الأجيال في سير أبطالهم، وقدوتهم، لعبادة عظيمة يحبها المولى ﷻ الذي من أسمائه الحسنى العدل، والحق إن الأبناء يحفظون لزعماء بلادهم، وصانعي تاريخها، أعمالهم العظيمة، وجهادهم الشاق، ودعوتهم المخلصة مع الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

لقد اطلع مجموعة من المفكرين، والمختصين بشؤون الدعوة، والمهتمين بأمر التاريخ على سيرة الإمام محمد بن علي السنوسي، فنالت إعجابهم، وأشادوا بالأسس التي قامت عليها الحركة السنوسية من إيمان عميق، وإخلاص لله، وعلم غزير، وجهاد متواصل، وأشاروا إلى

أهمية نشر مثل هذه المعلومات؛ لأنها تساهم في توعية الأجيال بحقائق مهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذا الجزء من هذه الدراسة نحاول أن نتعرف على سيرة إمامين من أئمة الدعوة السنوسية؛ محمد مهدي السنوسي، وأحمد الشريف السنوسي.

فالإمام محمد المهدي يعتبر الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكانت سيرته مليئة بالدروس والعبر والعظات، وتوسعت الحركة في زمنه أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه وحققت انتصارات عظيمة للإسلام في إفريقيا، بسبب إخلاصه لله، وصدقه في الدعوة، وتفانيه في العمل، وشجاعته النادرة، ورجولته الصادقة، وسيره الرشيد المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقد نمت الحركة السنوسية في عهد المهدي حتى بلغت ذروة نموها وانتشارها، وكانت فترة قيادته أكثر من أربعين عاماً، فكانت هذه المدة الطويلة فترة استقرار وانتشار للدعوة، ويمكن تسميتها بالعصر الذهبي للدعوة السنوسية.

وكان المهدي بعيد النظر، سديد الرأي، شديد العزم على إتمام البناء الذي شيده والده ابن السنوسي، فواصل مسيرة والده في إنشاء الزوايا، وإرسال الدعاة والعلماء إلى قبائل إفريقيا، فدخلوا النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد، وعمل على ذيوع الدعوة عن طريق وادي، وبرنوا، وكاتم، والداهومي وغيرها.

لقد تغلغلت الحركة السنوسية بقيادة المهدي السنوسي في قلب إفريقيا من البحر المتوسط شمالاً، إلى قلب السودان الغربي جنوباً، بحيث كانت تنتشر الوثنية، وبتوفيق الله تعالى، ثم هذه الجهود العظيمة دخل عدد كبير من الزنوج في الدين الإسلامي، وخرجت عدة قبائل وثنية من مهاوي الكفر بدرجة لا يتصورها العقل، وفي هذا يقول الشاعر:

كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
فله من الخدمات للإسلام ... يعلو على متناول الشراح
يكفيه نشر الدين في الآلاف من ... أقصى حدود «تشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل ... صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة ... الإسلام بعد عبادة الأشباح

لقد بسطت الحركة السنوسية في زمن المهدي سلطانها الروحي على أقاليم كثيرة في إفريقيا، وحققت نجاحات كبيرة في أوساطها، وفي قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة كأداء في طريق الرسالات المسيحية التنصيرية، التي وجدت في أتباع السنوسية خصوماً عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

لقد كانت سيرة محمد المهدي السنوسي، روحها إيمان عميق بالله، وحب شديد لدعوته

الخالدة، ورغبة أكيدة في الشهادة في سبيله، وجهاد مرير لأعداء الإسلام، وصبر لا ينفد في مجال الدعوة، ومجالدة دول الاستعمار بالبناء المتين، والتربية الشاملة، والإعداد المتوازن في كافة المجالات.

لقد اتصف محمد المهدي بصفات القادة الربانيين، من سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة الحسنة، والصدق والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول النصح، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم، وإعداد القادة، وإيمان بالله عظيم.

لقد انعكست ثمار الإيمان بالله على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله، وسكناته وأحواله، واستطاع بتوفيق الله تعالى الانتقال بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ورؤية واضحة، ومعرفة حقيقية للظروف المحلية والإقليمية والدولية التي تحيط به:

كانت معالمها كبيرة جده ... إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية ... للخير منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في ... أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع ... للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه ... في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى ... بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى علم وحسن عقيدة ... كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها ... إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا ... والله ما بالغت في الإيضاح

إن هذا الجهد المتواضع يحاول أن يجيب القارىء الكريم عن الكثير من الأسئلة التي تتعلق بسيرة محمد المهدي السنوسي: كيف طلب العلم؟ وكيف تولى زعامة الحركة؟ وهل كان له مجلس شورى؟ وهل تطورت مؤسسات الحركة السنوسية في عهده؟ وما أسباب نمو الحركة؟ وهل كان هناك اهتمام خاص في زمنه بالمنهج التربوي الجهادي؟ ولماذا هذا الاهتمام؟ وما موقف الدول الأوروبية من الحركة السنوسية؟ وما موقف محمد المهدي السنوسي من الثورة العرابية في مصر، وثورة محمد أحمد في السودان؟ وما موقفه من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية؟ وما الأهداف من رحلاته وانتقالاته إلى الكفرة ثم قرو؟ وما حقيقة الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية؟.

هذه الأسئلة وغيرها يحاول الكتاب أن يجد لها إجابات مقنعة من خلال البحث التاريخي.

أما سيرة الزعيم الثالث للحركة السنوسية السيد أحمد الشريف السنوسي، فيجد القارىء شيئاً من سيرته في هذا الكتاب الذي يحاول أن يعرف أبناء الأمة عموماً وليبيا خصوصاً بهذا السيد الصنديد والعالم الجليل، والعابد الخاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين بقصته الدعوية، وسيرته الجهادية، وأعماله البطولية سواء ضد فرنسا في تشاد والنيجر ومالي وجنوب الجزائر، عبر الصحراء الكبرى، أو ضد إيطاليا في ليبيا أو بريطانيا في مصر، لقد قال في حقه الشيخ الطاهر الزاوي: «فالسيد أحمد رجل صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفت نفسه، وكبرت همته، وانكمشت يده عما للناس فيه حق أو شبه حق، وأخلص عمله فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه».

وقال فيه شكيب أرسلان: «. . . فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهز فرنسا 17 سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة توافق فيها دولتي فرنسا وإسبانيا معاً وجهاً لوجه وزلزلتا في حربه زلزالاً شديداً، ولولا السيد أحمد الشريف. رحمه الله. لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول. . .» وقال أيضاً: «. . . ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم لا يوازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائداً من قواده. .» وقال أيضاً: «. . . إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه وزهده في الدنيا وحبه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومواساته للفقراء وحنانه على الضعفاء وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين ومحافظته على الفرائض والسنن وغير ذلك من الأخلاق العالية والهمم الشماء والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام. .» وقال في حقه أيضاً: «. . . ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابني: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم؛ إنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام. . .».

وقال عنه أنور باشا القائد التركي المشهور في جهاده ببرقة: «. . . رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصداقة؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب. . .».

في هذا الكتاب سيجد القارىء ما قاله المؤرخون في حق أحمد الشريف، وهل هو صواب أم خطأ؟ ويجد إجابات لكثير من الأسئلة المتعلقة بسيرته: كيف تولى أحمد الشريف زعامة الحركة السنوسية؟ وهل خاض بنفسه الحروب ضد فرنسا؟ ومن هم القادة الذين كانوا معه؟ وما موقفه من الغزو الإيطالي؟ وهل وقف مع الأتراك ضد الغزو؟ وهل وافق على الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا؟ وما موقف الزوايا السنوسية من الاحتلال الإيطالي؟ وهل تفاعل العالم الإسلامي مع جهاد ليبيا؟ وهل دخول أحمد الشريف في حرب بريطانيا في الأراضي المصرية كان صحيحاً من الناحية العسكرية والسياسية؟ وما أسباب هزيمة أحمد الشريف أمام بريطانيا في الجبهة الشرقية؟ وما حقيقة الخلاف بين إدريس السنوسي، وأحمد الشريف؟ وما آثار حملته ضد بريطانيا على حركة الجهاد؟ وما الأسباب الرئيسية في سفره إلى تركيا؟ كيف ومتى وصل إلى تركيا؟ وما موقفه من مصطفى كمال؟ وهل عرض عليه مصطفى كمال منصب نيابة الخليفة؟ وهل شارك في جهاد الأتراك ضد اليونان؟ ولماذا طرده مصطفى كمال من تركيا؟ وإلى أين هاجر، وكيف كان استقبال الملك عبد العزيز آل سعود له؟ ومتى توفي؟.

نعم أسئلة كثيرة يحاول الكاتب أن يجيب عليها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

لقد وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً، فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فإني عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد، والرد والتعليق، والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيراً من الجهود التي سبقتني، ككتاب «الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى» لمصطفي علي هويدي، و«جهاد الأبطال»، للشيخ طاهر الزاوي، و«حركة الجامعة الإسلامية»، لأحمد فهد الشوابكة، و«الغزو الإيطالي لليبيا» لعبد المنصف البوري، و«تاريخ ليبيا المعاصر» لمحمود عامر، و«حروب البلقان» لعايض الروقي، و«برقة العربية» لمحمد الطيب الأشهب، و«المهدي السنوسي» لمحمد الطيب الأشهب، و«الحركة السنوسية» للدجاني، و«الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، واعترافاً بجهود الذين سبقوا، كما أنني انتهجت منهجاً دعوياً تاريخياً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، مساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعاً لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن وسنة سيد الخلق أجمعين.

إن هاتين السيرتين العطرتين تبين لمسلمي ليبيا، أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء

الأبطال وعاشوا للذود عن الإسلام ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال والغالي والثمين من أجل دينهم وعقيدتهم وإسلامهم، كما تعطي الأمل في نفوس دعاة شعبنا بأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا من زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

هذا وقد قمت بتقسيم الجزء الثاني من الكتاب السابع في السلسلة التاريخية إلى مقدمة وفصلين، وخلاصة وهي كالآتي:

الفصل الأول: محمد المهدي ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه.

المبحث الثاني: موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية.

المبحث الثالث: رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو.

الفصل الثاني: الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف، ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: ولادته وتربيته وشيوخه.

المبحث الثاني: تولي قيادة الحركة.

المبحث الثالث: الغزو الإيطالي.

المبحث الرابع: الجهاد في برقة.

المبحث الخامس: الحرب العالمية الأولى.

المبحث السادس: وصول أحمد الشريف إلى تركيا.

ثم الخلاصة.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارىء الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضواته في صالح دعواته.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي.

الفصل الأول

محمد مهدي السنوسي

المبحث الأول

اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه

أولاً: اسمه وولادته وشيوخه:

هو محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي. ولد في الجبل الأخضر في ليبيا في محل يُقال له «ماسة»، يقع بجانب زاوية البيضاء، في شهر ذي القعدة عام 1260هـ، الموافق نوفمبر 1844م[1].

ويذكر أحمد الشريف في تاريخه: «أن ابن السنوسي كان في درنة عند ولادة ابنه المهدي، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم، فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية قال: كان رجل يخرز طبلاً فمر به جماعة وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته. ثم قال لحميه أحمد بن فرج الله: هذا المولود الذي ازداد على ابنتك يقف موقفاً يجري فيه الدم مجرى الماء في الوادي. وكتب لعمران بتسميته محمد المهدي وقال: أسميناه المهدي ليحوز إن شاء الله أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهدياً»[2] لقد كان مجيء الولد لابن السنوسي بعدما تقدمت به السن، وكان الإخوان السنوسيون يتمنون من الله أن يرزق شيخهم مولوداً مباركاً، ولذلك كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بهذا المولود عظيمة، وسارع عمران بن بركة لزف البشرى لوالده، لإدخال السرور على قلبه، وبعد مدة أرسل ابن السنوسي إلى زوجته بالقدوم إلى درنة، وسلم ابنه للمرضعة، وكان سرور ابن السنوسي عظيماً، وكان

---

(1) الحركة السنوسية، ص169.

(2) السنوسي الكبير، ص34.

يرى أن ابنه المهدي سيخلفه بالدعوة ويكمل ما بدأه هو من أعمال، ومكث ابن السنوسي في درنة بجانب أهله إلى أن ولد ابنه الثاني سنة 1262هـ/ 1846م، وعندما كتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثاني رد له الجواب بتسميته الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي ﷺ وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمد المهدي ليحوز أنواع الهداية، فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف، ثم شرّق للحجاز»(1).

وأسند أمر تربية أولاده للإخوان، وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة وكان يتابع أخبار ولديه في برقة، وعندما أتم المهدي الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للإخوان الكافلين له قائلاً: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر(2).

وبعد أن أتم السنة السادسة من عمره أدخله المدرسة القرآنية تحت إشراف العلامة عمر بن بركة الفيتوري، وفي منتصف السنة السابعة من عمره، حفظ جميع القرآن الكريم.

وكان علماء الحركة السنوسية يعلمون أولادهم كتاب الله، ويشجعونهم على حفظه مقتدين في فعلهم بفعل الصحابة مع أولادهم، وبأقوال العلماء في هذا الباب:

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشئون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال»(3).

وأكد ابن خلدون هذا المفهوم بقوله: «تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبى عليه ما يحصل بعد من الملكات»(4).

وبعد أن سمع والده بحفظ ابنه القرآن الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر، وفي سنة 1274هـ رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

وكان ابن السنوسي يتابع بعناية فائقة أقوال وأفعال ابنه، ويوجهه للصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وكان محمد المهدي منذ طفولته يتميز بالذكاء، وحسن الخلق، والتربية

---

(1) أحمد الشريف المخطوط، ص34.

(2) الحركة السنوسية، ص170.

(3) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور، ص104.

(4) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، ص105.

الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة: جيء للسيد المهدي في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدي لا يزال صغيراً بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله بدون واسطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئاً ليصعد المهدي على كتفه حتى تصل رجله إلى الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدي أن تطأ رجله كتفي الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضاً باتاً، وأخذ يقود جواده إلى أن اقترب من حجر عال مثبت بالأرض فعلاه وبذلك تمكّن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين[1].

«وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه فكانوا يبدون إعجابهم»[2].

وفي السنتين الأخيرتين من حياة ابن السنوسي اهتم بتوطيد مركز ابنه المهدي بين الإخوان، وألقى الأضواء عليه، وعمل على رفع شأنه.

نقل عن الشيخ عمر الفضيل - ﷺ - قوله: جاء السيد المهدي بـ «لوحة» إلى والده ابن السنوسي يريد أن يبدأ له فيه «بالافتتاح» فلما فرغ من كتابته قال له: اشهد لنا بأننا خدمناك»[3].

وكان ابن السنوسي يقف احتراماً عندما يستأذنه للخروج، وأنه أصلح له حذاءه مرة وقال للإخوان: اشهدوا أنني خدمت المهدي، فخجل ابنه وتبللت ملابسه بالعرق واحمر وجهه حياء حتى قيل: إنه أصيب بنوع من الحمى[4].

وقال في إحدى المناسبات: «المهدي له السيف، والشريف له الكتاب، ثم ألبسه السيف وقال له: تقدم لتصلي بنا»[5].

وحرص ابن السنوسي أن يزوج ابنه المهدي في حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام 1275هـ/ 1858م، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياته سنة 1891م[6].

ثانياً: مبايعته:

عندما توفي ابن السنوسي في صفر عام 1276هـ كانت سن محمد المهدي حوالي ستة عشر

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص135.
(2) الحركة السنوسية، ص172.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص136.
(4) المصدر السابق نفسه، ص136.
(5) الحركة السنوسية، ص171.
(6) المصدر السابق، ص173.

سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي بن عبد المولى، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن حسن البسكري، وعبد المتعال الإدريسي، وأحمد أبو القاسم التواتي، أبو القاسم العيساوي، وعمر الأشهب، محمد بن الشفيع، مصطفى المحجوب، عبد الرحيم المحبوب، عمر الفضيل، محمد السكوري، أحمد أبو سيف، محمد بن الصادق الطائفي، أبو سيف مقرب، ومحمد بن إبراهيم الغماري، عبد الله السني، المرتضي فركاش، حسين الغرياني، فالح الظاهري، فقدموا لمحمد المهدي وشقيقه محمد الشريف واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدي قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه أن لا يتهاونوا بواجب الأمانة التي تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح في سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسي[1] - رحمه الله تعالى - وقد بين عمران بن بركة في خطبة تأبين ابن السنوسي هذه البيعة في قوله: «. . . وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدي ومولاي السيد محمد المهدي. . .»[2].

ثالثاً: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة:

كون الإمام المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران ابن بركة، وأحمد الريفي، علي عبد المولى، وفالح الظاهري، عبد الرحيم المحبوب، محمد المدني التلمساني، محمد بن الحسن البسكري، وسيف مقرب[3]، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسي، ثم تعرض قراراته على الإمام المهدي، للموافقة عليها، أو تعديلها بما يبدو له، أو رفضها، أما المجلس الخاص فيتكون من كبار الإخوان المقيمين في الجغبوب، فيعقد جلساته يومياً بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس وهو يشكل قيادة للحركة، وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفي بمثابة رئيس للوزراء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدي، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلي بن عبد المولى حاكم الجغبوب بمثابة وزير داخلية ومالية في وقت واحد إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، ومحمد المدني بمثابة وزير الشؤون الاجتماعية، ومحمد الشريف بمثابة وزير المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص30.
(2) الحركة السنوسية، ص173.
(3) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

المهدي، ورؤساء الزوايا كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسؤوليات أخرى وزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القرآن، وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين في المدرستين القرآنية والعلمية، والإشراف على العمال، وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة الجغبوبية ونظام توزيع الأرزاق «التموين»، واستلام الوارد وحفظه، إلى جانب هذا النظام المحكم، هناك مجالس فرعية في كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية في ذلك الإقليم، للنظر فيم يتعلق باختصاصهم، والشؤون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شؤون الحركة[1].

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

واهتم الإمام المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي والزراعي وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة... إلخ.

واستصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء، فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الإفريقي والصحراء، وبين مصر والمغرب، كما كانت قبلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل في الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدي ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل في طريقها، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم الحركة للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركة والإخوان[2] وكانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد في الحركة السنوسية في عهد الإمام المهدي ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب وكان ترتيبه على الوجه الآتي:

- بريد خاص بزوايا طرابلس.

---

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

(2) الحركة السنوسية، ص180.

- بريد خاص بزوايا برقة.
- بريد خاص بزوايا مصر.
- بريد خاص بزوايا السودان.

وكثيراً ما يصل البريد بواسطة قوافل الزوار والتجار وهذا عدا البريد المنظم والرسل الخاصين متى دعت الحالة. يصل البريد ببرقة إلى زاوية مسوس، وهذه تقوم بتوزيعه إلى زوايا برقة، ويصل إلى زاوية جنزور أو العزيات وهذه تقوم بتوزيعه على زوايا الجبل، ويصل البريد الخاص بطرابلس إلى إحدى زواياها والمفهوم أنها سرت في المدة الأخيرة، وهذه تقوم بتوزيعه، كما أن البريد الخاص بزوايا واحات فزان يصل إلى زاوية «واو» وهي تقوم بتوزيعه، وتقوم إحدى هذه الزوايا بمهمة إرسال البريد العادي إلى زوايا الجزائر، إن لم يكن البريد مستعجلاً، وإلا يرسل بصفة خاصة إلى زوايا السيد ابن تكوك رأساً من الجغبوب والكفرة، ويصل البريد الخاص بزوايا مصر إلى سيوة وهناك من يتولى مسؤوليته ممثل السنوسيين بما في ذلك بريد الحجاز، وإذا كان هذا مستعجلاً فتتخذ له طريقة خاصة، أما إذا كان البريد خاصاً بزوايا خاصة في أي جهة من الجهات فيقوم به الساعي من الجغبوب رأساً، وكل زاوية من الزوايا يحدث لها أمر من الأمور يدعو لمواصلة المركز العام، فيقوم منها ساع مخصوص، ولا يكاد البريد يتأخر أكثر من شهر لأي جهة من الجهات لكثرة القوافل، وتعاقب الزوار، أما البريد الخاص بالسودان، فعادة ما يكون مع سيل القوافل المنهمر ذهاباً وإياباً، وهكذا كانت الأخبار تصل إلى عاصمة الحركة، وتصدر منها التوجيهات والأوامر إلى جميع الزوايا، وفي كل البلدان، وممن أشرف على سير بريد الحركة السنوسية من الإخوان: محمد السمالسوسي، عبد السلام الشرداخ، عبد الرسول الرتيوي، السنوسي التيتلي، عيسى التارقي، إبراهيم الشهيبي، علي السعيطي، حسين الهبري، عبد الرحيم الفضيل، محمد البوعيشي[1].

وكان من يريد زيارة الإمام المهدي يذهب إلى الجغبوب وهناك يخضع لنظام خاص متبع ترتبط إجراءاته بالسيد محمد البسكري الذي يعد بمثابة رئيس الديوان والتشريفاتي، فهو الذي يقوم بتحديد مواعيد الزيارة التي لا تكون إلا عن طريقه، ويصحب كبار الزائرين ويقف خلف زعيم الحركة السنوسية أثناء الزيارة سواء كانت الزيارة للعوام أو الخواص، أما إذا كان الزائر أو الزوار تابعين لأحد الزوايا، فعلى رئيس الزاوية إن كان حاضراً ترتيب هذه الزيارة مع محمد البسكري، وقد جرت العادة بأن تكون زيارة الضيوف بعد تمام مدة الضيافة وهي ثلاثة أيام إلا في حالات استثنائية[2].

---

(1) انظر: برقة الأمس واليوم، ص212، 213.

(2) الحركة السنوسية، ص45.

رابعاً: نمو الحركة السنوسية وأسبابه:

نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نمواً كبيراً، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي... وغيرها.

وكان من أسباب هذا النمو السريع: طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحركة إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن أثناءها من تركيز العمل الذي بدأه والده، وكان يقول: «إن والدي بدأ عملاً من المنتظر أن يأتي بنتائج عظيمة، وقد أخذت على عاتقي إتمامه، وليس عليّ غرض آخر»[1]، وكانت سياسته الحكيمة تمنعه من الاحتكاك بالدولة العثمانية، أو الدول الأوروبية وحصر جل اهتمامه بنشر الدعوة بين القبائل، وساعدته أخلاق رفيعة وصفات حميدة تحلى بها في إقبال الناس على الحركة السنوسية، واحتل بها مكانة رفيعة في قلوب الإخوان والأتباع ومؤيدي الدعوة، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبث العلوم في أوساط القبائل متبعاً في ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

قال أحمد رفيق المهدوي:

كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
فله من الخدمات للإسلام ... ما يعلو على متناول الشُراح
يكفيه نشر الدين في الآلاف من ... أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل ... صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة ... الإسلام بعد عبادة الأشباح[2]

لقد تحلى الإمام المهدي بعلم وورع وتقوى، وشخصية جذابة، وبعد نظر، وثاقب فكر، ورأي صحيح، وعزم شديد، وحرص أكيد على إتمام البناء الذي شيده والده، والعمل بكل جهد وقوة من أجل نشر الدعوة بين أهل البلاد القريبة والبعيدة في إفريقيا الوسطى خصوصاً حتى ذاع صيته، وتمكن السنوسيون بفضل الله تعالى ثم جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى، وأطرافها حتى جهات بحيرة تشاد وما يجاورها من إمارات إسلامية قديمة أو قبائل زنجية وثنية أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد[3].

---

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص134.
(2) انظر: المهدي السنوسي، ص38.
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص58.

لقد دخلت عدة قبائل إفريقية في الدعوة الإسلامية بفضل الله تعالى ثم جهود الحركة السنوسية، ومن أشهر القبائل التي استجابت لدعاة الحركة السنوسية: قبيلة بلي التي كانت على الوثنية، ووصلت الدعوة الإسلامية إلى شعب التيدا في بلاد تيبستس بالصحراء الكبرى جنوب واحة فزان، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا في إفريقيا ووصلوا إلى بلاد الجلا في الحبشة، فيرسلون إليها في كل عام من هَرَر، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير، وتكاد تجد كل الرؤساء منهم في بلاط الأمير بلا استثناء، وكانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد والمراكز الإصلاحية، وتشتري العبيد ثم يعلمونهم مبادىء الإسلام ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعو أقوامهم إلى الإسلام[1].

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة في إفريقيا، وجددت الصلة معها ونسقت معها في الدعوة وفي الجهاد ضد فرنسا ومن أشهر هذه القبائل: أولاد سليمان، أولاد يعقوب، أولاد غنّام، المحافيظ وغيرها كثير، وكانت قد استقر بعضها في مالي، وتشاد، والنيجر، ونيجيريا، والكاميرون[2].

وتمكن الإمام المهدي من أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، ويرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا[3].

وواصل المهدي السنوسي سيره في فتح المراكز الإصلاحية، والمدارس القرآنية، وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإسلام، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام، ودين الله، اشتهر منهم العلامة محمد عبدالله السني، والشيخ حمودة المقعاوي، وطاهر الدغماري، وغيرهم كثير.

وقام المهدي بتقوية الصلات التجارية بين الزوايا وبين مراكز التجارة والأسواق المختلفة، ونتج عن ذلك استتباب الأمن في هذه الربوع وانتشار الطمأنينة، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحارى من غير تردد، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم ويدعوا إلى الإسلام، ويقضوا على الوثنية، ويعطلوا بذلك أعمال التنصير الذي تدعمه الدول الأوروبية في إفريقيا، وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيماً في أوساط إفريقيا مثل بلاد النيجر والكنغو، والكامرون، وجهات بحيرة تشاد، وذاع خبر

(1) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم، ص49.
(2) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، محمد القشاط.
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص58.

الحركة السنوسية في إفريقيا من خلال واداي وبرقو وكانم وأداموا والداهومي[1] وغيرها، وبدأت الدول الأوروبية تشعر بخطر الحركة السنوسية وشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها، لقد صدمت الدول الأوروبية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية، واشتاطت غضباً وحقداً على الإسلام، وهي ترى قبائل وثنية مثل التبو، والبرقو، والندى تدخل طائعة مختارة في الإسلام[2].

كان الدعاة السنوسيون يعملون بالليل والنهار، والسر والإعلان، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل دعوة الله تعالى، وكان بعضهم يترك أهله وأطفاله في الجغبوب، وذات مرة دخلت السيدة صالحة البسكرية زوجة ابن السنوسي على محمد المهدي، وكان يجلها ويحترمها، وقالت له: «إن نساء الإخوان قد سئمن كثرة أسفار أزواجهن، وطول تغيبهم، وعدم استقرارهم، فابتسم وقال: إن الجهاد طويل وشاق، وإن العمل يتطلب الجد، والشيء الذي ينتظرنا وينتظر إخواننا في المستقبل أشق مما هم عليه الآن»[3].

وكان الإمام المهدي مهتماً بالبناء الداخلي للحركة ولذلك أشرف بنفسه على إصلاح ذات البين بين القبائل، وكان يرى وحدة الصف والتربية الجهادية مهمة في مواجهة المعارك القادمة ضد الإسلام.

وعندما اشتد النزاع بين قبائل الجبارنة وأولاد علي ووصل إلى مرحلة أوشك القتال أن يندلع بينهم بسبب حادثة قتل جربوع بن الشيخ أبو سيف الكزة بمصر، وكان الشيخ أبو سيف ابن أبي شنيف الكزة من الشخصيات الظاهرة بين شيوخ الجبارنة ومسموع الكلمة، وهو والد المقتول، فأصبح داعية كبرى لغزو أولاد علي، وأنشد قصيدة باللغة الشعبية مثيرة لما كمن من الأحقاد والضغائن، مسعرة لشرار الغضب، ومذكية لنار الانتقام يستنجد بها جميع القبائل الموالية له أو التابعة والمرتبطة به، كما جرت العادات ويحثهم في قصيدته بالاستعداد لغزو أولاد علي وقتل رجالهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم، وكانت مطلع قصيدته تقول:

يا عون من قابلا عون   وأشرف على رأس عال
أو جنة فراجين وحون   أو عينت طامية في المشالي[4]

وكاد الشيخ أبو سيف أن ينجح فيما أراده للغزو حيث لبى طلبه وأخذت قبائل أولاد علي تستعد للمعركة، وأرسلت إلى الشيخ أبي سيف تدعوه للإسراع للقتال، وفي هذه الأثناء وصل

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص60.
(2) انظر: المهدي السنوسي، ص51.
(3) المصدر السابق نفسه، ص60.
(4) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص204.

كتاب من شيخ زاوية مسوس السنوسي الأشهب إلى الزعيم محمد المهدي يخبره بالأمر، فأرسل المهدي في طلب الشيخ أبي سيف بسرعة، فامتثل الأخير أمر السيد المهدي في الوقت الذي تقرر فيه الغزو وأرجأه إلى أن يعود من الجغبوب، ولما وصل الشيخ أبو سيف ومثل أمام يدي إمام الحركة السنوسية الذي أخذ ينصحه في الإقلاع عما عزم عليه، ويبين له حرمة هذا الفعل الجاهلي، فامتثل الشيخ أبو سيف أمر المهدي، وأقلع عن فكرته وعاهد إمام الحركة بالعدول عنها وأن لا يعود لمثلها، بالرغم عمّا في ذلك من المساس بكرامته وكرامة بني قومه وسمعتهم التي يرون حفظها في الأخذ بالثأر، ورجع الشيخ أبي سيف وبر بوعده وأمر قومه والنجدات التي استعدت لمساعدته بالرجوع إلى مواطنهم، وكتب إلى زعيم قبائل أولاد علي وبقية شيوخهم يخبرهم بالعدول عن رأيه وأن يكونوا في مأمن من جهته لا خوفاً منهم ولا خشية من العاقبة، ولكن امتثالاً لأمر الشرع وطاعة لزعيم الحركة السنوسية[1].

وكان المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا وبعد وفاته قاتلت إيطاليا.

لقد كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان وفي مصر، وكذلك الدول الأوروبية.

خامساً: المنهج التربوي الجهادي:

حرص الإمام المهدي على تعميق المنهج التربوي في أتباع الحركة، وكان -رحمه الله- يدرك تماماً أن العمل بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يقتضي وجود القوة والسلطان، ولذلك جعل من الزوايا مركزاً لتعليم الرماية أيضاً، فكان يحث الإخوان والأتباع على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد، وكان المهدي يمتلك خمسين بندقية خاصة يعتني بتنظيفها وإعدادها دائماً بيده ولا يرضى بأن يؤدي هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصداً، وعمداً، حتى يقتدي به الناس ويهتموا بأمر الجهاد، ويحفلوا به[2].

ونشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً مادياً ومعنوياً

(1) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص205.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص60.

جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا، وقد أعرب السلطان عبد الحميد عن ثقته بقوة الحركة السنوسية قائلاً: «وإذا كان هناك أحد عليه الدفاع عن حقوقنا، فهو الشيخ السنوسي؛ لأنه قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفاً من الرجال، ولن يتخلى عن بنغازي إلا بعد قتال، ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية، فإذا قام السنوسيون قومتهم، فلا بد أن يجروا الإيطاليين إلى صراع دموي أشد مما شهدته السودان في ثورة المهدي، لقد جهزنا السنوسي بمقدار كافٍ من الأسلحة والذخائر، فهم قوة لا يُستهان بهم أبداً»[1].

كان هذا التصريح بعدما وصلت للسلطان عبد الحميد المخططات الإيطالية التي كانت تستهدف ليبيا، لأن إيطاليا كانت تحلم بضم شمال إفريقيا؛ لأنها تراه ميراث إيطالي، هكذا صرح رئيس وزرائها «مارتيني»، لكن فرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

واستطاعت مخابرات السلطان عبد الحميد الثاني أن تكشف سياسة إيطاليا في ليبيا التي كانت على ثلاث مراحل:

1 - الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

2 - العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

3 - إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون بحكمة وهدوء شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط إيطاليا في ليبيا وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: «إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

1 - طرابلس الغرب.

2 - ألبانيا.

3 - مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير، الإسكندرون، أنطاكيا.

---

(1) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ص147.

وقام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام أطماع إيطاليا، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ«15،000» جندي لتقويتها، وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس مما جعل الإيطاليون يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي، ولذلك حرص السلطان عبد الحميد على تقوية الحركة السنوسية ودعمها مادياً، ومعنوياً[1].

لقد اهتمت الحركة السنوسية بإعداد أفرادها للجهاد في سبيل الله ضد أوروبا الصليبية التي تهاجم ديار المسلمين في كل مكان، وكانت وسائل التربية عند الحركة السنوسية: روحية، وفكرية، ونفسية، وجسدية، واجتماعية، ومالية، فكان اهتمام الحركة بالتربية الروحية عظيماً، ولذلك تعلق أفراد الحركة السنوسية بالجنة، وحرصوا على رضى الله تعالى، وتعمقت مفاهيم القضاء والقدر في نفوسهم، فأصبحوا لا يخافون إلا الله، فكانوا يتربون على قول رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...**»[2].

فأجل المرء يكتب وهو في بطن أمه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة المعالم في فكر الحركة السنوسية، فأصبح أتباعها يؤدون واجبهم بكل شجاعة، وهم على يقين راسخ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

ولقد التقيت بالشيخ الفاضل رئيس المحاكم الشرعية في ليبيا سابقاً في زمن المملكة الليبية، الشيخ منصور المحجوب بمكة المكرمة، وحدثته عن حرصي على كتابة تاريخ الحركة السنوسية، فانساب في الحديث عن رجالات الحركة وحبهم للإسلام، وتعلقهم بالآخرة وجهادهم ضد فرنسا، وذكر بعض المجاهدين عندما استعصى عليهم فتح حصن من الحصون التي احتلتها فرنسا بتشاد قاموا بحصاره وتأخر الفتح، أقسم أحد الإخوان السنوسيين إما الشهادة وإما الفتح، وانقضّ كالأسد بجواده على الحصن، وكان ذلك الهجوم سبباً في الفتح، وفاضت عينا الشيخ منصور بالدموع، وشرع في البكاء ثم قال: أولئك قوم عرفوا الله وعملوا بهذه

---

(1) انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي الصلابي، ص686.

(2) انظر: صحيح مسلم رقم 2643.

المعرفة، ثم وجه الخطاب إليّ وقال لي: يا صلابي اتقِ الله في كتابتك، واعلم بأن الله سيحاسبك عليها يوم القيامة، وانتفضت من مكاني من شدة تأثير كلامه عليّ، وحثني على الإخلاص والرغبة فيما عند الله، وقال لي: أنا الآن قد تجاوزت السبعين من عمري، وقد رأيت الكثير في الدنيا، ورفع يده إلى فمه ثم نفخ في كفه وقال: إن حقيقة هذه الدنيا مثل هذه النفخة.

إن الشيخ منصور المحجوب يعتبر من أتباع الحركة السنوسية، وقد تولى مناصب كبيرة من رئاسة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، وتولى رئاسة القضاء وهو من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي، وأخبرني بأنه ماكث في مكة ينتظر الوفاة حتى يدفن في الأراضي المقدسة.

إن الحركة السنوسية اهتمت بتربية أتباعها على الصلاة والقيام، والصوم، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

إن من أعظم العبادات ومن أحسن الوسائل في التربية الروحية التي سلكها السنوسيون هي تلاوة القرآن الكريم والتفقه فيه، والعمل به، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

إن القرآن الكريم يطهر النفوس ويحيي القلوب، ويغذي الأرواح ويصل الأفراد بخالقهم العظيم سبحانه وتعالى، ولا تعجب أيها القارىء الكريم إذا علمت أن أحمد الشريف السنوسي القائد الثالث للحركة السنوسية - رحمه الله تعالى - كان يشترط في حرسه الخاص حفظ القرآن الكريم، وأن التعاقب بين جنوده يعرف عن طريق تلاوة الأجزاء من القرآن الكريم.

وكانت الحركة في وسائلها التربوية لأتباعها تهتم بأخبار العالم الإسلامي وتوصيلها إلى الأتباع، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور، وكانت القوافل تتوغل في الدول الإسلامية للتجارة، وتأتي بأخبار الإسلام والمسلمين، والأعداء، وكانت تغذي أتباعها بالتربية الفكرية والنفسية للوقوف ضد أطماع النصارى الغزاة المجرمين، وكانت تهتم بالتربية الجسدية لأتباعها، ولذلك نجدهم يقطعون الفيافي والصحارى على الجمال، ثم يجاهدون الأعداء بعد قطع مئات الكيلومترات، وقد وجدت في سيرة عمر المختار - رحمه الله - أنه قطع على جواده ثلاثة أيام متواصلة ليلها بنهارها لفض النزاع بين عزيز المصري قائد ضباط الأتراك وإحدى القبائل، وهذا يدل على لياقة بدنية عالية، وقوة بدنية متميزة.

كان المهدي السنوسي يسير بخطى ثابتة، ووفق أهداف مرسومة، ويستعد للمستقبل حيث بدأت الأطماع الفرنسية تتوغل في إفريقيا، وبدأت الدول الأوروبية تصطدم مصالحها مع وجود الحركة السنوسية في إفريقيا.

سادساً: موقف الدول الأوروبية من الحركة:

حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، فحاولت الدول الأوروبية التقدم والتقرب من الإمام المهدي السنوسي، فكان لا يأبه بمحاولة هذه الدول من أجل التقرب إليه، وفشلت وسائلهم في اجتذابه إليهم، وأعرض عنهم، وعظمت مخاوفهم من تشكيلاته، وحركاته، وانكبوا يسعون لدى الدولة العثمانية ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد الثاني كي يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي في إفريقيا للإقامة في أرض الحجاز أو في دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه، ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة، بل وقف مع محمد المهدي موقفاً مشرفاً.

لقد وجدت الرسالات التنصيرية المسيحية في السنوسيين خصوماً عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال في بعض الجهات وأبطلوها، زد على أن نجاح الدعوة السنوسية وتقوية أركانها جعلت الدول الأوروبية تسعى لتوقي خطرها، ووجدت فرنسا نفسها في طريق الاصطدام عاجلاً أو آجلاً مع الحركة السنوسية، أضف إلى ذلك أصبحت إيطاليا بعد وحدتها تتطلع إلى احتلال طرابلس الغرب، وغدت تبذل كل ما بوسعها لكسب المهدي السنوسي، لعلها تظفر بسكوته حينما تواتيها الفرصة لتحقيق هدفها، وأما ألمانيا بعد خروجها منتصرة من الحرب السبعينية شرعت في كسب المهدي حتى يدعمهم ضد فرنسا في إفريقيا الغربية[1]، فحاولوا عام 1872م مفاوضة المهدي على أمل تحريكه ضد الجهات التي خضعت للفرنسيين في إفريقيا الشمالية والغربية، ولكن محاولتهم ذهبت سدى، لأن المهدي رفض مقابلة الرسل الذين أوفدوهم إليه فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه، ومع هذا فقد تكررت محاولات الألمان في الأعوام التالية للغرض نفسه، واستطاع الرحالة (جيرار رولفس) في عام 1876م أن يزور برقة والكفرة ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدي، ووقف عند «سبر سلام» بالقرب منها، وقابله أحمد بن البسكري عدة مرات، ولكنه عجز عن الوصول إلى المهدي السنوسي[2].

تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشنت عليها حرباً دعائية، بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطها

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص65، 66.

(2) المصدر السابق نفسه، ص69.

على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد، وستحدث عنها في موضع آخر.

وكان أكثر الرحالة الفرنسيين تعصباً في كتاباته دوفرييه الذي اتهم السنوسية بعدة تهم، وبالغ في تخيلاته، وذلك أنه رأى في الحركة خطراً عظيماً يتهدد مصالح فرنسا والمسيحية في إفريقيا، وقد اعتبر دوفرييه السنوسية مسؤولة عن جميع حوادث الاغتيال التي حدثت في الصحراء ضد بعض الرحالة الأوروبين، كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى وصورها عدوًّا فاغراً فاه للقضاء على الأوروبيين، وزعم أنها حرّكت وساعدت جميع الثورات التي قامت في الجزائر، وقد وافق الرحالة لوي رين على بعض هذه التهم ورددها كتاب آخرون مثل مونتيه وهوايت وفبرود.

إن السنوسية ما تعرضت لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لكونها حركة إسلامية جهادية دعوية شاملة من مفاهيمها[1] أما اتهامها بالاغتيالات فهذا باطل ومردود بالحجة والبرهان والدليل، بل كان الإمام المهدي يعامل غير المسلمين باللطف والبشاشة والرفق وحسن الخلق، وعندما يريدون الرجوع يرسل معهم من يوصلهم إلى المكان الذي يريدون سواء مصر أو درنة أو بنغازي، ويقول للإخوان: «لا بد لنا من إكرام الأجنبي، ويعني غير المسلم، عسى الله أن يهديه إلى الدين الحق؛ لأن من واجبات المسلم وشعائره إكرام الضيف كيفما كانت ديانته ليبلغ عنا ما شاهده منا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وفي عام 1312هـ قدم الجغبوب رجل إنكليزي، فأراد بعض الإخوان أن يؤذوه، لكنه طلب مقابلة الشيخ المهدي فأذن له في ذلك، واجتمع به وسئل هل له حاجة إلى الشيخ؟ فقال: ما عندي حاجة، إنما القصد من إتياني النظر في وجه الشيخ لما أسمع عنه، وحظي الإنكليزي بالإكرام، وحسن القبول، ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفاً كريماً ثم كرّ راجعاً إلى طريق مصر[3].

وكان محمد المهدي السنوسي يوصي جميع إخوانه ومشايخ الزوايا، وأتباع الحركة بعدم أخذ أموال السواحين والغرباء ولو من الإفرنج، ويقول على رؤوس الأشهاد: إن قتلهم وأخذ أموالهم لظلم عظيم، والظلم يرجع على فاعله بالنكال والوبال[4].

أما اتهام الحركة السنوسية بكراهية اليهود والنصارى، فالمعلوم عنها تمسكها بالشريعة، فكان أتباعها يعاملون أهل الكتاب حسب توجيهات الإسلام، وأما كراهيتهم للمستعمرين

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص198.
(2) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشي، ص165.
(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص165، 166.
(4) المصدر السابق نفسه، ص167.

المعتدين، فهذا أمر يوجبه عليهم دينهم، وكان القصد من الحرب الإعلامية الداعية تمهيد الرأي العام الأوروبي وإقناعه بما ستخطوه فرنسا ضد الحركة فيما بعد، وقد أنصف عدد من الكتاب المحدثين السنوسية وردوا على تلك التهم، منهم: محمد فؤاد شكري، زيادة نقولا، بريتشارد الحشائشي[1].

أما بريطانيا فكان موقفها من الحركة السنوسية في بداية الأمر استطلاعياً، وكانت حريصة على جمع معلومات دقيقة عن الحركة، وخصوصاً وأن لها أطماعاً في مصر، وتخشى من جهاد السنوسية ضدها، كما أن نفوذ بريطانيا في طرابلس كان قوياً، وقد زار الرحالة هاملتون الإنكليزي سيوه، وتحدث عن الحركة السنوسية، واستمر موقف بريطانيا يمتاز بالهدوء تجاه الحركة السنوسية، حتى عام 1882م عندها شرعت بريطانيا باحتلال مصر، وقامت ثورة عرابي، تحركت بريطانيا بكافة الوسائل المتاحة لها لتمنع أية مساعدة متوقعة قد تُقدم لعرابي، وتدخلت لدى الدولة العثمانية لمنع الحركة السنوسية من دعم الثورة العرابية[2].

سابعاً: موقف محمد المهدي من الحركة العرابية:

عندما اشتعلت الثورة العرابية عام 1882م اتصل أحمد عرابي طالباً للعون والمدد وعلمت بريطانيا بالأمر، فتدخلت لدى الدولة العثمانية ونشط قنصلها في طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدي، ويتضح من إحدى الرسائل التي بعث بها والي طرابلس إلى ولاية بنغازي بتاريخ 16 أغسطس 1882م أنه انتشر خبر مضمونه أن عدداً من قبائل برقة تهيئوا للالتحاق بعرابي وأن الخبر وصل إلى طرابلس من الآستانة، وأن قنصل بريطانيا في طرابلس يستفسر عن صحته، ويقول الوالي: «في حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم إجراء التدابير الحكيمة»، وقد اتضح لدى تحقيق المسؤولين في بنغازي أن هذه الجماعة التي تريد دخول مصر ما هي إلا حجاج، وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج»[3].

إن المهدي السنوسي كان حريصاً على نموه الطبيعي، ولذلك ابتعد عن الدخول في حروب لم يستعد لها، ويبدو أن المهدي السنوسي لم يقتنع بجدوى الثورة، كأسلوب لتحقيق مطالب عرابي؛ لأنها تتيح للأجانب التدخل، وقد وضح هذا الرأي في رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدي إلى الشيخ مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ شعبان 1306هـ بمناسبة قيام إحدى قبائل برقة بالعصيان على الدولة العثمانية، إذ قال فيها: «ونرجو أن تكون الفتنة التي بالوطن قد طفئت؛ لأنها مخيفة سيئة العاقبة تشبه الفتنة العرابية التي من أجلها حل

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص199.

(2) انظر: دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، رسائل الولاة.

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص200.

بالوطن الشرقي وأهله ما حل؛ لأنهم يحركونها ويعجزون عنها فتكون العاقبة التسليم للأجانب، فلو أنهم سلكوا طريقاً غير هذا لكان أسهل وآمن عاقبة، وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية التخفيف من هذا المجهول عليهم قائلين إنهم لا قدرة لهذا الأمر الشاق، والتكليف بما لا يُطاق، وإن قلتم لا بد منه نجلو عن الوطن بالكلية إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة..»[1].

إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة، تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء والتربية والإعداد العقدي، والوسائل السلميّة هي الطريقة المثلى، وتجنب الفتنة حتى لا يتدخل الأجانب في شؤون المسلمين، وكان المهدي قد ألزم نفسه وأتباعه سياسة حكيمة رشيدة، بعيدة عن ردود الأفعال، يقول الأستاذ نيقولا زيادة: «طلب العرابيون مساعدته عام 1882م، وتقدمت إليه إيطاليا راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس عام 1881م وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه هذه ضد روسيا عام 1876م، وجرب الألمان أن يحصلوا على عون منه ضد فرنسا في إفريقيا عام 1872م، لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولي ليتم لهم نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل»[2].

حاول زعيم الثورة العرابية أحمد العرابي أن يثير الإخوان السنوسيين وشرح لهم موقفه وجهاده، ومن بين من كتب لهم السادة: أحمد الريفي، وفالح الظاهري، محمد البسكري، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس الأشهب، وأحمد العيساوي، وعندما وصلت الكتب إلى أولئك السادة رفع كل منهم كتابه الخاص إلى السيد المهدي ورفضوا الرد على عرابي باشا ما لم يؤمروا من السيد المهدي، إذ لا حق لهم في المخابرات السياسية والاتصال في مثل هذه الأحوال بالعالم الخارجي دون أن يأمرهم زعيم الحركة[3].

وهذا يدل على قوة التنظيم، ومتانة الحركة، وهيبة القيادة، وفهم الإخوان وتلاحم الصف، ودراسة الأمور بتأني.

ثامناً: موقف المهدي السنوسي من الثورة السودانية:

سمع محمد أحمد المهدي السوداني بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد المهدي في عام 1300هـ رسالة إلى محمد المهدي السنوسي مع أحد أتباعه واسمه «الطاهر إسحق» وهو من أهالي البلاد الواقعة غرب دارفور، وقد جاء في الرسالة: «بسم الله

(1 - 2) انظر: المهدي السنوسي، ص59.

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص154.

الرحمن الرحيم: الحمد لله الولي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد: فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن عبدالله إلى حبيبه في الله محمد المهدي بن الولي السنوسي، فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقي العباد إلى مقام التقريب، قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، فلم ترد إلينا المكاتبة وأظن عدم وصولها إليك حتى أني ذاكرت المعنيين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من الممات، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على عبده الحقير، والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أكاتب بها الشرق والغرب من غني أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الأشقياء، وصاروا في النكير، مع أن النبي ﷺ قد خلفني بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه، وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام، وأعلمت أنه لا ينصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته ﷺ ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ، أنك من الوزراء لي ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي ﷺ والخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي ﷺ خلفاء خلفائه من أصحابي فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، وقال: هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين.

ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ، واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون، كالسيد أحمد بن إدريس، فإنه قد قال: «كتبت في المهدية أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله» وقال: «سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها». وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقوال المحققين، ولا سيما وأن المهدية لا تدعي لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى أنها لما ظهرت أنا بينهم أظهرهم في أشد الضعف والقلة، فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا في الدنيا يوماً واحداً من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب، فألقى الله في قلوبهم الرعب ومدهم بالخيبة، وقد أمرنا النبي ﷺ بالهجرة إلى جبل الغرب يقال له قدير، يلصق جبل يقال له: ماسة، فجمعوا جموعهم إلينا مراراً

فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار، يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي، وقد أعلم ﷺ أن من شك في مهديتي كافر وكررها ثلاثاً ومراراً يقول: من أنكر مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر، فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي، ومن جعل الله له شكوكاً وشبهاً تصده عن الإيمان بمهديتي، فيخذله الله في الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد. فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها أو تهاجر إلينا»[1].

وكان رد السنوسي بقوله: «إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان رضي الله عنه في إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ ولا جواب عندي على هذا الكتاب» ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[2] «وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكناً مع المتمهدي بل إذا جاءه محارباً يحاربه»[3].

ولم يؤمن المهدي السنوسي ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقاوم أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه ماذا سيكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي: «إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً لا حرباً بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفوراً عظيماً بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها والجرائم التي يرتكبها في السودان»[4]، وقد قامت الممالك في السودان الغربي (تشاد) بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني وحذّت من انتشار حركته.

إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي، واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين، واستيعابهم لكتاب الله والسنة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.

إن الأحاديث الصحيحة بينت بأن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما مُلئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطراً، وتُعطي المال بغير عدد.

---

(1) انظر: السودان بين يدي كتشنر وغوردن، إبراهيم فوزي، 1/216.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص190.
(3) المصدر السابق نفسه، ص191.
(4) انظر: المهدي السنوسي، ص58.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»[1].

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد، أو أحمد بن عبدالله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسين بن علي رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه»[2]. وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»[3].

ويكون مكان ظهوره من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم، . . .** (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه) **فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»**[4].

قال ابن كثير رحمه الله: «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء» كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان»، إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل الشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضاً، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها العقاب».

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[5].

ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»**[6].

---

(1) انظر: النهاية، الفتن والملاحم (1/ 31) تحقيق د. طه زيني.

(2) النهاية، الفتن والملاحم 1/ 29.

(3) الأجلى: الخفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(4) انظر: ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي 2/ 1367.

(5) انظر: النهاية، الفتن والملاحم، 1/ 31.

(6) انظر: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم 6/ 491 مع الفتح.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»** إلى أن قال: **«فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»**[1].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في «الصحيحين»، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يُسمى: محمد بن عبدالله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه»**[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة»**[3].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين»**[4].

لقد جاءت الأحاديث بالتواتر عن خبر المهدي:

قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[5].

قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ

---

(1) انظر: مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم 2/ 193 مع شرح النووي.
(2) انظر: رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الألباني صحيح الجامع الصغير 5/ 7170.
(3) انظر: المنار المنيف لابن القيم، ص147، 148.
(4) انظر: سنن أبي داود، كتاب المهدي، 11/ 375 رقم 4265.
(5) انظر: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[1].

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»[2].

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد؛ «مسند أحمد»، و«مسند البزار»، و«مسند أبي يعلى»، و«مسند المحارب ابن أبي أسامة»، و«مستدرك الحاكم»، و«مصنف ابن أبي شيبة»، و«صحيح ابن خزيمة»، وغيرها من المصنفات[3] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي، فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه[4]، ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير «المنار» وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[5].

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[6] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام».

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون في تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال - بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها.: «فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[7].

قال يوسف الوابل في «أشراط الساعة» تعليقاً على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[8].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ

---

(1) انظر: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، ص112.

(2) انظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر، ص147.

(3) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص166، 168.

(4) انظر: الدولة العبيدية، لعلي محمد الصلابي، ص62.

(5) انظر: تفسير المنار (9/ 499 . 504).

(6) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، 10/ 480.

(7) انظر: مقدمة ابن خلدون 1/ 574.

(8) انظر: أشراط الساعة للوابل، ص267.

وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[1].

ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

إن ما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد - رحمهم الله تعالى - ليس صواباً، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً، وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمدلله، وأيضاً فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يَعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ[2].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

---

(1) انظر: مسند الإمام أحمد 5/ 197 . 198.

(2) انظر: أشراط الساعة، ص267.

مـا آن لـلـسـرداب أن يَـلـد الـذي كـلـمـتـمـوه بـجـهـلـكـم مـا آنـا؟
فـعـلـى عـقـولـكـم الـعـفـاءُ فـإنـكـم ثـلّـثـتـم الـعـنـقـاء والـغـيـلانـا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل»[1].

إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها، وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك محمد إدريس -رحمه الله- عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهديته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبداً لم يعتقد به. . .»[2].

(1) انظر: المنار المنيف، ص152، 153.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص187.

المبحث الثاني

موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية

في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني طلب من السيد محمد المهدي السنوسي إرسال قوة من رجاله من الأقطار البرقاوية الطرابلسية لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا عام 1877م إلا أن السنوسي امتنع عن تنفيذ الطلب، لانشغاله بالبناء والتربية والتكوين، والانتشار بالدعوة، والاستعداد للجهاد، وهذا الامتناع جعل السلطان عبد الحميد يرسل الرسل إلى الإمام المهدي السنوسي للوقوف على حقيقة أمره، وبذل السلطان عبد الحميد الثاني جهداً كبيراً في سبيل التعرف على طبيعة الحركة السنوسية، وحقيقة نواياها، وأهدافها، ومدى استعداد زعيمها للعمل ضمن سياسته في الجامعة الإسلامية، وتمت الخطوة الأولى في هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية إلى واليها في طرابلس، لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها.

أجاب الوالي كمال باشا (1893 - 1898م) بما يُشعر بحسن علاقة الوالي بالحركة السنوسية، واطمئنانه إلى نواياها، وثقته برجالاتها، وأكد في رسالته التي بعثها للسلطات العثمانية في استانبول على الفوائد العلمية والاجتماعية التي حققتها زوايا الحركة السنوسية المنتشرة في الصحراء الكبرى[1] بين أعراب البادية، ورفع مستوياتهم الدينية والخلقية والثقافية، ومزاحمتها الفعالة للجمعيات التنصيرية المنبثة في القارة الإفريقية، ودخول الكثير من الزنوج في الإسلام بتأثير دعايتها له، وأكد الوالي في ختام رسالته: انقياد الحركة بزواياها وقادتها إلى دولة الخلافة العثمانية[2].

أوفد السلطان عبد الحميد بعثة برئاسة رشيد باشا والي بنغازي ومعه الصادق المؤيد العظيم أحد ياورات السلطان إلى واحة الجغبوب في ليبيا وذلك عام 1889م، ومما جاء في أخبار البعثة أن المهدي السنوسي قد أحسن استقبال البعثة وأتاح لأعضائها مشاهدة زاوية الجغبوب والاطلاع على أعمال أتباع السنوسية، وأن المهدي السنوسي لم يكن إلا داعياً مرشداً، وإنه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية[3].

وبعد انتقال المهدي السنوسي من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة في أقصى الجنوب من

---

(1) انظر: حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، ص230.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص204، 205.

(3) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 162.

ولاية طرابلس عام 1895م، أرسل أحد أتباعه وهو الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول، لتأكيد إخلاصه وولائه للسلطان العثماني، وليطلب منه تأكيد الفرمانات التي صدرت من قبل للسنوسيين[1].

أصدر الباب العالي أوامره في إجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، في التزام الاهتمام والرعاية، والاحترام تجاه الحركة السنوسية وأتباعها، وتقديم فريد العناية بكافة الزوايا[2].

وقد أرسل السلطان مع الشيخ العيساوي هدايا للمهدي السنوسي من بينها نسخة مطبوعة من «صحيح البخاري» له خاصة، خلاف عشر نسخ أخرى تعطى من قبله لمن يرى فيه الأهلية، كما أرسل له ساعة «لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة بمصالح دعواتهِ لجنابه العالي»[3].

ورد السلطان على هذه البعثة بإرسال الصادق المؤيد العظم بزيارة المهدي السنوسي في واحة الكفرة، وهناك اطلع الصادق بنفسه على أحوال الزاوية واجتمع بالمهدي الذي استقبله استقبالاً طيباً، واطمأن لحسن توجهه نحو السلطنة العثمانية، ومما ذكره الصادق المؤيد العظم في رحلته عن المهدي «أنه شيخ صادق لمقام الخلافة، وحسب وصية والده، فهو في كل صباح عقب الصلاة يجري الدعاء بالصحة والعافية لخليفة المسلمين، ثم تقرأ الفاتحة، وذلك في جميع الزوايا، وهو دائماً يوصي أتباعه بطاعة أمير المؤمنين، ومحبة الدولة العثمانية؛ لأن طاعتها واجبة شرعاً وعقلاً»[4].

ومما زاد السلطان عبد الحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الأوروبية من الحركة، وتبرم قناصل الدول من نشاطها، لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التي كانوا ينوون تنفيذها[5].

وحين اطمأن السلطان عبد الحميد الثاني إلى صدق توجه الحركه السنوسية لدولة الخلافة العثمانية وإخلاصها في العمل لسياسة الجامعة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى محمد المهدي السنوسي رسالة تتضمن أسس حركة الجامعة الإسلامية وحقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذي يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة[6].

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص58.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) المصدر السابق نفسه، ص86.

(4) انظر: رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد، ص48 . 49.

(5) انظر: تعليق على حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، 2/ 162.

(6) انظر: السنوسية دين ودولة، ص87.

وأكد السلطان في رسالته على أهمية الخلافة والإمارة الإسلامية المقدسة التي أثبتها الله في البيت العثماني منذ مئات السنين، وما افترضه الله على المسلمين من نصرة هذه الخلافة وتأييدها وطاعة ولاة الأمر القائمين على أمرها، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تحيط بالعالم الإسلامي، والتي جمع فيها من سماهم السلطان: «الأغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة والسنية وعزماً على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره»[1] وحذر السلطان عبد الحميد محمداً المهدي السنوسي من عمليات التسلل الأوروبي إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار الكشف الجغرافي، والبحث العلمي من جانب الإنجليز والإيطاليين وغيرهم، مبيناً المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قبل هؤلاء[2].

وأكد السلطان عبد الحميد الثاني على أهمية تبصرة كل من له علاقة بالسنوسية والمتبين طرقها وزواياها المنتشرة في الصحراء الإفريقية بضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية المقدسة والإمامة الكبرى الإسلامية، التي هي ضمان قوة المسلمين وشعار وحدتهم وتضامنهم[3].

كما بين لمحمد المهدي السنوسي الوسائل العلمية الواجبة الاتباع لمواجهة أعمال المبشرين وأعداء الإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية لكشف وسائلهم وأهدافهم الكبرى، وذلك بتكثير أعداد الدعاة والعلماء وإعدادهم الإعداد المناسب وبثهم في كافة الأنحاء الإفريقية لنشر الإسلام بينهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، والتأكيد على أهمية الخلافة في حياة المسلمين، ودور الوحدة والتضامن في دفع غائلة المعتدين، وأعداء الملة والدين[4].

إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة إليها، وأكدوا في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات وقد كتب على الاستمارات المعدة للجمع عبارة: «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات، قرابة «مائة ألف فرنك»[5].

وامتدح الشيخ سليمان الباروني (1870 - 1940) أحد الزعماء الليبيين الدولة العثمانية وسلطانها، وأشاد بجيشها بمناسبة حربها مع اليونان وانتصارها عليهم[6].

(1 - 2) المصدر السابق نفسه، 87.

(3 - 4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص88.

(5) انظر: الحوليات الليبية، شارك فيرو 3/ 774.

(6) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، رعيمة الباروني، ص80.

وأنشد الشاعر مصطفى بن زكرى بهذه المناسبة قصيدة قال فيها:

يا سعد سر مترنماً ... ببشائر السعد المبين
واعطف على دار الخلافة ... باليسار وباليمين
وإذا مررت «بيلديز» ... وسعدت بالملك المكين
تاج الخلافة بهجة ... الدنيا وعز المسلمين
عبد الحميد وناصر ... الدين الحنيفي المبين[1]

وعن اليونانيين أعداء الخلافة قال:

مهلاً بني اليونان لستم ... في الحروب بمعجزين
وجنودكم أمست «بترناوة» ... حصيداً خامدين[2]

وساهمت صحافة ليبيا في المدن - رغم نشأتها المتأخرة - بدعم حركة الجامعة الإسلامية، ففي أول ديسمبر 1908م ظهرت جريدة «الكشاف»، وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول محمد النائب الأنصاري، ووصف الجريدة بأنها ملتزمة بخط الجامعة الإسلامية[3].

وفي أوائل مارس 1908م صدر العدد الأول من جريدة «العصر الجديد» التي وصفت نفسها بأنها سياسية علمية، وجعلت شعارها «من الشعب إلى الشعب» وتعاطفت مع «اللواء» المصرية، كما سارت في تيارها بتبني فكرة الجامعة الإسلامية[4].

وفي إستانبول أصدر الزعيم الليبي عبد الوهاب عبد الصمد صحيفة «دار الخلافة» وجعلت محور سياستها الدفاع عن الخلافة والجامعة الإسلامية[5].

وأسس الشيخ سليمان الباروني في القاهرة مطبعة عام 1325هـ/ 1908م سمّاها «الأزهار البارونية» التي حدد هدفها قائلاً: «أن تكون خادمة للدين، سائرة في ركاب الجامعة الإسلامية، ناثرة للآداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهيئة الاجتماعية مترقية في مدارج التقدم»[6] وأصدرت المطبعة جريدتها باسم «الأسد الإسلامي» في عام 1908م[7].

اهتم سليمان الباروني بفكرة الجامعة الإسلامية، واتخذ من جريدته منبراً لإعلاء فكرتها،

---

(1) انظر: صلات بين ليبيا والترك، للمصراتي، ص182 ـ 196.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: صحافة ليبيا في نصف قرن، علي المصراتي، ص100.
(4) المصدر السابق نفسه، ص73.
(5) المصدر السابق نفسه ص109.
(6) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص40.
(7) انظر: الحوليات الليبية، 3/ 786

ومجالاً لبحث مشاكل المسلمين وتقصي أخبارهم، ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها. . «فقد كان الرشاد في الأمة في زمن انقياد أفرادها بطبيعتهم لقوانين الشرع الشريف، ووقوفهم عند مناهيه، ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر، وتغيرت الطبائع باختلاف أصناف البشر، وقع التساهل في أمر الدين، وانحلت عرى الاتحاد وساد الشقاق»، وتؤكد الجريدة أنه سيكون على رأس اهتماماتها بذل النصح للأمة الإسلامية وإرشادها إلى ما يعود عليها بالنفع العاجل والآجل، والتقدم في مباراة الأمم الحية، ومزاحمتها في معترك الحياة الهنيئة[1].

وتساءل الباروني عن الأسباب الكائنة وراء فرقة المسلمين وتفككهم، وما إذا كان ممكناً لمّ شعثها وتوحيد كلمتها في هذا الزمن الذي هم فيه أحوج إلى الاتحاد من أي شيء آخر[2]، وهو يؤكد أن هذا ممكن، مدللاً عليه بشدة اهتمام أوروبا وساستها وكتابها بملاحظة الحالة التي بدأت تظهر بين المسلمين، بفعل ما يبديه سلطانهم عبد الحميد وإلى جانبه المخلصون للعمل في سبيل تحقيق ما بينهم من جامعة تضم كلمتهم وتوحد رأيهم وتجمع شتاتهم أينما كانوا في أطراف المعمورة، حتى إذا ما كانوا يداً واحدة، وعلى قلب رجل واحد، ناقشوا أوروبا الحساب وناصبوها الحرب[3].

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد، فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين، وملجأ الدنيا والدين، ودولته ملاذ المسلمين جميعاً ودرعهم الواقي ضد محاولات أوروبا للنيل من استقلالهم[4].

واستمر هذا الشعور قائماً لدى أهل المدن في ليبيا، وزعماء الحركة السنوسية وأتباعها، حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بإبعاد السلطان عبد الحميد الثاني 1908م فلم يشعر أهل الولاية إزاء هذه الحركة بالاطمئنان، ولم يستبشروا بها خيراً، بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان، لما عرفوه عن الاتحاديين من «بعد عن الحكمة ومناهضة الدين»[5] واستهجن الليبيون إعلان الدستور، ولم يروا مبرراً لصدوره خاصة والشريعة الإسلامية كفيلة بسد حاجتهم، ووقع إثر ذلك حوادث كبيرة في طرابلس ضد الحركة والقائمين بها، وطالب غالبية الناس بإبعاد من قدم إلى الولاية من الاتحاديين[6].

---

(1) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص20.
(2) المصدر السابق نفسه، ص31.
(3) المصدر السابق نفسه، ص23.
(4) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي، ص27.
(5) انظر: حركة الجامعة العربية، الشوابكة، ص237.
(6) المصدر السابق نفسه.

ويذكر كاكيا: «إن الأهالي في ليبيا نظروا إلى الجمعية بغير الرضى، وكرهوا رجالها، لتدخلهم في مسائل العادات والدين، وعدّوا إعلان الدستور انتهاكاً للشريعة الإسلامية»[1].

إن زعماء الحركة السنوسية كانوا شديدي الولاء للدولة العثمانية وكذلك زعماء المدن الليبية، وهذا يدل على الوعي العميق وشعورهم بضرورة مساندة دولة الخلافة، والمحافظة عليها من منطلق شرعي يدينون به للمولى ﷻ، وكان هذا الفهم منبثقاً من فهمهم لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، فقد كان أجدادنا يرون: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً»[2].

وإن كانت الخلافة الإسلامية العثمانية خرجت في آخر أيامها عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية، إلا أنها لا زالت في دائرة الإسلام، ولم تمرق منه مروق السهم، وخصوصاً قبل عزل السلطان عبد الحميد الثاني؛ ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عموماً عدم الخروج على الدولة العثمانية: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم طاعة لله ﷻ فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[3] هكذا كان موقف الحركات السنوسية وزعماء ليبيا من الدولة العثمانية.

(1) انظر: ليبيا في العهد العثماني، كاكيا من الترجمة العربية، ص60.

(2) انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوي، ص296.

(3) المصدر السابق نفسه، ص302.

المبحث الثالث
رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو

أولاً: الرحلة إلى الكفرة والصدام مع فرنسا:

كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطرق، والأمتعة الضرورية، وعين الإمام السنوسي رفقاءه في سفره إلى العاصمة الجديدة، وفي يوم 22 شوال سنة 1312هـ جمع الإمام السنوسي جميع سكان الجغبوب للوداع وألقى فيهم نصائحه الغالية، وانتقل بعد ذلك من الجغبوب والأفئدة تتقطع لهول الفراق والأعين وراءه شاخصة، فنزل بموقع قريب من الجغبوب يقال له حطيئة «الزربي» وبهذا المكان كان وداع المشيعين وفي طليعتهم كبار الإخوان، كالسيد أحمد الريفي، ومحمد عابد السنوسي، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس، وعمران السكوري، وهنا يظهر جلال الموقف وشدة الفراق، ونلمس ذلك في القصائد التي ألقيت يوم ذاك[1]. يقول الأديب الحشائشي: ولما أفاق أبو يوسف مقرب من غشيته التي أصابته عند مفارقة الشيخ المهدي، صعد فوق هضاب عال ومعه جماعة من الإخوان وتوجه إلى الركب بنظره وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود ويورق به العود[2] حيث قال:

همو هيجوا يوم النوى أشجاني ... وحاديهم لما ترنم أشجاني
وهم سلبوا لبي وألبس بينهم ... رداء الردى جسمي وأثواب أحزاني
وهم غادروا جسمي لظًى بعد مهجة ... جرى ذويها من بحر مدمعي القاني
فوالله لا أنسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وأودعت سلواني
وضاعف أحزاني مواقف جمة ... وبرح بي فقدانهن وأضناني
يسائلني مولاي تسئال رحمة ... يحل بها شأني ويبئس الشاني
ومن أعجب الأشياء رحلة معشر ... غدت محشراً أوهت قوى كل إنسان
تبلد من جرائها كل سوقة ... وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان
وزلزلت الدنيا وماجت بأهلها ... وعادت عواد بين ترك وعربان

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص217.
(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص168.

لـك الله مـن ركـب تـيـمـم كـفـرة تـتـاخـم كـيـوار الـمـتـاخـم سـودان
غـدا طـاويـاً نـشـر الـبـسيـطـة بـاسـطـاً لأعـلام عـز تـنـجـد الـضـارع الـعـانـي
ومـنـتـقـيـاً عـزمـاً يـفـل بـحـده قـواطـع آراء مـن أهـل وجـيـران
ولـم يـثـنـه عـمـا نـوى ألـم الـنـوى وأنـة مـحـزون ورنـة صـبـيـان
وحـثـوا مـطـايـاهـم بـبـيـض قـبـابـهـم فـلاحـت نـجـوم دونـهـا نـجـم كـيـوان
سروا والـديـاجـي حـالـك صـبـح لـونـهـا يـؤمـنـون أحـقـافـاً تـرى ذات ألـوان
وخـلـوا بـجـغـبـوب الـمـقـدسـة عـلـيـة يـعـلـون بـعـداً الـنـهـل طـلاب عـرفـان
وقـصـراً مـشـيـداً كـان مـطـمـح أنـفـس ومـطـلـع مـطـعـام ومـطـعـن مـطـعـان
ربـعـاً عـهـدنـا بـهـوه وهـو آهـل بـإنـجـاب أشـبـال وآسـاد خـفـان
وكـانـت لـهـم فـيـه مـواقـف جـمـة أنـاب لـهـا فـخـراً عـلـى كـل إيـوان
وحـلـت بـواديـه بـواد فـأصـبـحـوا نـشـاوي بـإنـشـاد وذكـر وقـرآن
وكـانـت بـمـغـنـاه عـلـومـاً يـبـثـهـا مـشـايـخ أعـلام، وأعـلام فـتـيـان
رووا مـتـنـهـا عـن حـافـظ أي حـافـظ أسـانـيـده تـعـلـو بـضـبـط وإتـقـان
هو «ابن السنوسي» الذي شاع ذكره بـكـل بـلاد بـيـن سـوس وإيـران
إمـام هـمـام كـان لـلـحـق قـبـلـة تيممها القاصي من الخلق والداني
وشـهـرتـه تـغـنـي عـن إطـراء مـدحـه كما اشتهر «المهدي» بالعالم الثاني
سـقـى الله أرضـاً زارهـا صـوب قـطـره وسـاق لـذاك الـقـطـر عـارض نـسـيـان
عـلـى أنـهـا تـغـنـي بـعـذب نـوالـه ومـدراره عـن كـل أوطـن هـتـان
متى تستشفي نفسي بقرب لقائه ويستن طرف الطرف في روض إحسان
متى يأتي مولاي الشريف مصاحباً كـتـائـب كـتـاب بـبـيـض ومـران
فـإنـي مـن رجـعـاكـم لـسـت آيـسـاً ولا يـأس مـن روح ورحـمـة رحـمـن
وإنـي مـقـيـم سـادتـي بـرحـابـكـم عـلـى عـهـدكـم حـتـى ألـفّ بـأكـفـان
وإنـي أرجـو نـظـرة مـقـامـكـم تسلي عن الدنيا وزخرفها الفاني
عـلـيـكـم سـلام الله مـا هـبـت الـصـبـا تـحـيـة صـب خـافـق الـقـلـب هـيـمـان(1)

لقد كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبيا واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس، ووصفه أحد الشعراء باللغة الشعبية فقال:

رحـل سـيـدي وارعـب لـوطـان عظيم الشان حركاته بإذن الرحمن

---

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص169، 170، برقة العربية، ص217، 218.

رحـــل ســـيـــدي وارعـــب لـــســـلام لـــهـــا صـــارت شـــدا أو نـــكـــد
وصـــارت بـــعـــد الـــضـــي ظـــلام عـــلـــيـــك ضـــيـــقـــاً فـــي شـــدائـــد[1]

وكان الإخوان الذين رافقوا الإمام المهدي السنوسي في رحلته كل من: أحمد البسكري، أحمد التواتي، أحمد الثني الغدامسي، محمد السني، وغيرهم من كبار الإخوان[2].

ولما بلغ الشيخ واحة «الكفرة» تلقته قبيلة «زويا» من كبار قبائل العرب في الصحراء، ومن جاورها من القبائل، وكانوا في غاية الفرح والسرور، وكان في استقباله خارج منطقة الجوف أكثر من ثلاثة آلاف رجل يتقدمهم رئيس زاوية الجوف ومشايخ وأعيان قبيلة زوية ومن معهم من المجابرة، وابتهجت واحة الكفرة بقدوم زعيم الحركة السنوسية، وتبارت الخيول وأطلق الرصاص، وبهذه المناسبة قتل يونس الرويعي رجلاً من قبيلة الزوية بإصابة خطأ، فنادى شيوخ الزوية أعيانهم في قومهم بأن لا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل في مأمن إكراماً للإمام السنوسي، وبعد انتهاء الاحتفال اجتمع شيوخ وأعيان القبيلة وتقاسموا الدية الشرعية للمقتول ودفعوها إلى أهله فوراً وتسامحوا مع القاتل، كل ذلك تم في يومه، وقرر جميع أعيان وشيوخ زوية أن يتقدموا بهدية إلى زعيم الحركة السنوسية بمناسبة تشريفه إياهم بقدومه، وكانت الهدية هي التسامح فيما بين أفراد وقبائل زوية من الأحقاد، والتنازل عن حقوقهم التي يطلبها أحد أفراد القبيلة من الآخر، وتطلبها عائلة من أخرى مهما عظمت تلك الحقوق التي قد تؤدي إلى شقاق وفساد، وتنازلوا عن ثلث ممتلكاتهم وقفاً لأعمال الحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراضٍ، كل ذلك عن طيب خاطر وقربة لله، ودعماً للحركة الإسلامية التي تبنت دعوة الإسلام في الصحراء الكبرى، وأدغال إفريقيا، وتبرع جميع أغنياء القبيلة ومن معهم من تجار المجابرة بإطعام جميع الفقراء وكسوتهم، واستمر الفرح والاحتفال شهراً بعد وصول زعيم الحركة السنوسية الثاني الإمام المهدي، وشرع الإمام المهدي في بناء زاوية التاج التي اختطها محمد البسكري، حسب توجيهات زعيم الحركة، فأبدع في تخطيطها، وجعلها على قمة ربوة عالية تبعد عن زاوية الجوف بما لا يقل عن ميل ونصف تقريباً[3].

أصبحت الكفرة عاصمة الحركة السنوسية لوجود زعيمها فيها، ففتحت المدارس لتعليم القرآن الكريم، وتصدر مجالس التدريس كبار العلماء، وتقدمت سوقها التجارية تقدماً باهراً، إذ أصبحت تردها بضائع السودان، وتصدر إليه عنها، وهكذا الحال بينها وبين برقة من جهة، وبينها وبين مرص من جهة أخرى، وتحسنت زراعتها إلى حد بعيد، وجلبت إليها أشجار الفاكهة

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص221.
(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص171.
(3) انظر: برقة العربية، ص219، 220.

من واحة سيوة ودرنة، وغيرها، وعمرت بالسكان الذين هاجروا إليها من المجابرة والتبو والسودانيين، فضلاً عن سكانها المعروفين من قبائل الزوية، حتى أصبحت ذات أهمية كبرى في وقت قصير[1] وأصبحت قبيلة الزوية بمثابة الحرس الخاص لزعيم الحركة السنوسي[2].

تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها، وفي إحدى رسائل المهدي إلى محمد علي المحجوب في زاوية الطيلمون بليبيا يطلب المهدي إرسال خيام؛ لأن وفوداً كثيرة جاءت للتسليم عليه وهو خجل لعدم وجود بيوت تأويهم[3].

وقام الإمام السنوسي بإرسال رسله إلى مختلف الجهات، فأرسل مرتضى فركاش بن أبي خريص بكتاب إلى سلطان واداي ومعه رجلان، وأرسل رسالة لوالي بنغازي، وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا، ونظم حياة الأهالي في الكفرة، وفرض النظام، ومنع الاعتداءات، ونشر السلام بين قبيلتي زوية والتبو اللتين تسكنان تلك المنطقة، ووجه الأتباع نحو العمل المثمر، سواء في تعمير الزوايا، والدعوة إلى الله، أو في التجارة، وقد زاد تبعاً لذلك عدد سكان الكفرة وانتعشت حياة الأهالي وعم الرخاء، واهتم بحفر الآبار المتابعة على طول خطوط القوافل، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين السودان الغربي «تشاد» والسودان الشرقي وسواحل برقة، ومن البعثات الاستكشافية التي أرسلها الإمام السنوسي التي اكتشفت حطية العوينات والحطايا التي تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذلك، كما يقول الأشهب[4]، وخفّ إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية، وكانت تلك القبيلة صادقة في وعدها لإمام الحركة السنوسية، فقامت بأعمال كبيرة لصالح الدعوة الإسلامية، ويبدو أن ابن السنوسي المؤسس عرف قدراتها، فاهتم بها، ويظهر هذا جلياً في حواره مع عقيلة الزوي عند بناء الجغبوب حيث حدثه عن رغبته في بناء زاوية في الكفرة وقال له «مرادنا في كونكم تتولون أمرها» فكان أن أسس زاوية الجوف التي عرفت نسبة إلى ابن السنوسي باسم زاوية الأستاذ[5].

وأنشئت في فترة الإمام المهدي عدة زوايا في منطقة الكفرة منها «التاج» كما ذكرنا، وربيانة، وتازربو، وامتد نشاط الحركة نحو الجنوب، فوصلت إلى مواطن جديدة في السودان الإفريقي، بواسطة الدعاة، وقوافل التجارة، فوصلت دعوة الإسلام إلى بشر جدد، وقبائل وثنية متعطشة إلى دين الفطرة، وهذا التوغل المحمود، والانطلاق الجميل بدعوة الله، كان ابن

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص237.

(2) انظر: المهدي السنوسي، ص71.

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص220.

(4) انظر: الحركة السنوسية، ص221.

(5) المصدر السابق، ص221.

السنوسي المؤسس قد خطط له منذ عهده الباكر في الدعوة إلى الله فقد قال: «... إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان...»[1].

إن انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة ينسجم مع خطة الحركة السنوسية التي استهدفت قبائل الصحراء، وإفريقيا الوسطى بدعوة الإسلام، ولذلك تحرك زعيم الحركة لاختيار مركز متوسط يعينه على تبليغ رسالته وأداء واجبه، أما قول من قال: إنما قام بذلك خوفاً من الأوروبيين الذي أرادوا القبض عليه فباطل؛ لأنه جاء للسودان الغربي ليقود حركة الجهاد ضد أطماع فرنسا خصوصاً والأوروبيين عموماً[2]، وأما قول بعض المؤرخين: إنما اندفع نحو الجنوب خوفاً من السلطات العثمانية[3] فهذا مردود، لأن علاقة الحركة بالدولة كانت قوية، بل إن السنوسية أصبحت من الركائز المهمة في فكرة الجامعة الإسلامية.

إن الإمام السنوسي حرص على أن يتوسط ميداناً يقود به حركة الإسلام في إفريقيا الوسطى، ولذلك اندفع جنوباً، كما أنه حدثت أحداث مهمة جعلته يحرص على القرب منها، من ذلك توغل فرنسا في القارة الإفريقية ومحاولة بسط نفوذها على الإمارات الإسلامية في إفريقية الغربية[4]. كانت الوسائل الأمنية لدى الحركة السنوسية تقوم بجمع المعلومات عن تحركات جواسيس فرنسا التي تحاول معرفة حقيقة قوة الحركة السنوسية، وكان الحدث الذي يشكل خطراً على الحركة السنوسية في تشاد؛ قيام سلطنة رابح في السودان الغربي، فقام الإمام السنوسي بحركته الاستراتيجية، فانتقل إلى الكفرة كخطوة أولى، وعمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداي، التي كانت علاقتها بالحركة السنوسية قوية منذ عهد ابن السنوسي الذي كان على صلة بسلطانها: «ثم ازدادت الروابط بين المهدي وسلطان واداي في المدة التالية حتى طلب يوسف (سلطان واداي) أن يوفد المهدي إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوباً خاصاً في عاصمته، فأرسل إليه سيدي محمد بن عبد الله السني.. فوطد نفوذ السنوسية في واداي[5].

ولا بد من بيان العمل الجليل التي قامت به قبيلة زوية في مساندة الدعوة والوقوف معها ودعم زعيمها، وقد مدح الشاعر أبو مقرب سيف هذه القبيلة:

زاوية أهل الفخر إن جئت حيهم ... ترى العز في نادي زوية باديا
وأهل الفتى أمضى من السيف عزمه ... وإن كان للضيفان بالبشر باديا
إذا ما دعوا يوماً إلى شن غارة ... رأيت المنايا الحمر تعلو المذاكيا
فكم من جريح قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديا

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص12.

(2 - 4) انظر: الحركة السنوسية، ص218.

(5) انظر: السنوسية دين ودولة.

فأرشدهم مرشد من حل بينهم فلا زال مهدياً ولا زال هادياً[1]

ثانياً: أحداث أثرت في الإمام الثاني للحركة السنوسية:

مرت ظروف عصيبة بالإمام السنوسي أثناء إقامته بالكفرة أثرت فيه وفي حركته، فقد اشتد مرضه ولزم الفراش وعاوده المرض عدة مرات، واشتد به الألم حتى امتنع عن ملاقاة الناس والجلوس في الصلاة.

وقد جاء في رسالة بعث بها لأخيه قوله: «وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء، والألم الذي معي تهاون بحمد الله، وقد ظهر النقص في الحبة الأولى؛ لأنها الكبيرة، وقل سيلانها وانجلت الزرقة التي حولها، وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع... وصرت أقدر على تكلف الجلوس في الصلاة وملاقاة الناس»[2].

وجاء في رسالة أخرى لأخيه بتاريخ 13 ربيع الأول 1313هـ قوله: «أحسست بالألم في الجهة الأخرى وتزايد.. وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائماً وقاعداً، وصرت أصلي على جنبي راقداً.. وقد تركت الخروج للناس والجمعة، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيراً»[3] ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد ذلك وقد عرفت ذلك من خلال رسائله التي أرسلها إلى شيخ زاوية الطيلمون محمد علي المحجوب، ومن المصائب التي مرت به وكانت متلاحقة: وفاة أستاذه عمران بن بركة في منتصف سنة 1311هـ، وتوفيت والدته في آخر تلك السنة، ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف أن توفي في 27 رمضان 1313هـ[4].

ثالثاً: محمد الشريف شقيق الإمام المهدي:

كان محمد الشريف عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم، ودقة الفهم، والقدرة على التدريس، وتتلمذ على كبار علماء الحركة السنوسية، وتفرغ للطلب والتدريس وساعده على ذلك وجود مكتبة كبيرة احتوت على النشاط الديني، والعلمي والأدبي، وقد تحدث الطيب الأشهب عنها فقال: «ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره، إذ أنها تعد في طليعة المكتبات التي لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها، وكانت تضم قسماً كبيراً من المخطوطات النفيسة، ولم يجد الإمام بلداً إسلامياً إلا واستجلب منه الكتب، فمن مصر والحجاز والشام والآستانة وتونس ومراكش، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى» وقال الحشائشي عن هذه المكتبة: «أما الكتب الموجودة في خزائنها فقد

---

(1) انظر: برقة العربية، ص580.

(2 - 3) انظر: المهدي السنوسي، ص68.

(4) انظر: الحركة السنوسية، 224.

نيفت على الثمانية آلاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك، ولا يطبع في العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به..»[1].

لقد كانت الجغبوب محلاً لتخريج القادة وشيوخ الزوايا، ولذلك حرص ابن السنوسي وابنه المهدي على أن يوفروا كافة أسباب النشاط العلمي، وتتلمذ محمد الشريف على الشيوخ والعلماء، ونهل من الكتب الموجودة في المكتبة المباركة حتى وصل إلى درجة عظيمة من الفقه والعلم.

يقول الأستاذ الأشهب: «سمعت هذه الحكاية الآتية من تلميذه والدي، السيد أحمد بن إدريس قال: كنا نحضر على السيد الشريف وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب اللغة، يجلس بكل تواضع، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا - ﷺ - من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق عليه، وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه أو أي موضوع نتناوله يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدىء في قراءة القصيدة من ذاكرته، إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته»[2].

إن هذا العالم الجليل والحبر العظيم والبحر الزاخر من العلوم كان من أعمدة الحركة العلمية، فبوفاته اهتزت الجغبوب، وتأثر الإمام المهدي بهذا الحدث الجلل، يقول أحمد الشريف عن خبر وفاة والده: «وفي يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره فصعب علينا فراقه غاية، وأزعجنا نهاية، ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون: إنا لله وإنا إليه راجعون»[3].

لقد تأثر الإمام المهدي لوفاة أخيه وصبر واحتسب، وبكاه الإخوان السنوسيون في كافة الأقطار، وأبّنه العلماء والشعراء والخطباء ومن بينهم: أبو سيف مقرب، والسيد السني، وهذه القصائد تدل على مدى النبوغ الأدبي الذي وصل إليه أتباع الحركة السنوسية:

قال الشيخ الشاعر العلامة محمد السني في رثاء محمد الشريف:

هجمت عليّ من الزمان خطوب ... ومصائب منها القلوب تذوب

خطب يئن له الجماد وتنثني ... منه متون العزم وهي صلوب

---

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص152.

(2) انظر: السنوسي الكبير، ص47.

(3) انظر: أحمد الشريف المخطوط، من 44 إلى 55.

نــوب تــنــوب وحــادث زواعــج ترمي الـورى بـسـهـامـهـا فـتـصـيـب
جلت وجل بها المصائب وغادرت رحـب الـفـؤاد يـئـن وهـو كـئـيـب
لبس الأساء منه الأساء كما اكتسى ثـوب الـسـواد لأجـلـهـا جـغـبـوب
عهدي بربع الخل ملتحف إليها مــخــضــرة أرجــاء مــرغــوب
والشمل مجتمع ونشر البين في طــي وذيــل ســروره مــســحــوب
والـيـوم أصـبـح مـقـشـعـراً نـازحـاً وحشى الطلول لأجلهم مخروب
دارت عـلـيـه مـن الـزمـان دوائـر أبـدلـهـن عـلـى الـسـرور وثـوب
لا در در الـبـيـن يـوم تـرحـلـوا وسرت بهم نجب المنون تجوب
وحدا بهم حادي النوى والقلب في نـار الـجـوى مـتـقـلـب مـرغـوب
سـقـيـاً لأيـام مـضـت لـمـا انـقـضـت إن الـبـكـاء لأجـلـهـم مـطـلـوب
كـل الـرزايـا إن تـوالـت أسـلـيـت إلا مـصـابـك «يـا شـريـف» صـعـيـب
رزؤيـة ثـكـل الـفـضـائـل كـلـهـا ولـوقـعـه وجـه الـزمـان قـطـوب
تـبـكـيـك أبـصـار لأنـك نـورهـا وبـصـائـر مـنـكـم لـهـا تـطـيـب
ومـعـاشـر أنـتـم ربـيـع قـلـوبـهـم ومـعـاهـد أنـتـم لـهـا أشـبـوب
وفـرائـض ونـوافـل ومـحـافـل ومـشـارق ومـغـارب وجـنـوب
وبـكـى عـلـيـك الـجـو يـقـطـر دمـعـه وعـلاه مـن أحـزانـه تـشـريـب
أسـفـي وتـهـيـامـي وحـر لـواعـجـي وقـريـح جـفـنـي بـالـدمـوع سـكـوب
صـبـر لأمـر قـضـاه إلـهـنـا وعلى الجميع مقدر مكتوب
نـاداه إكـرامـاً وتـشـريـفـاً لـه فـغـدا يـهـرول لـلـنـداء ويـجـيـب
في ليلة القدر التي قد فضلت عن ألف شهر خصه الترحيب(1)

وأما السيد أبو سيف مقرب فقد قال قصيدة في رثاء محمد الشريف، قال ذلك الشاعر الفحل: إذا أخذت من كل حرف أول بيت يظهر لك هذه الجملة الآتية: سيدي ومولاي السيد محمد الشريف ﷺ (2): قال الحشائشي: وهذا من أنواع البديع المسمى بالترصيع(3) قال الشاعر رحمه الله:

س سـرنـا بـنـعـشـك خـضـع الأعـنـاق سـيـراً دويـن الـعـدو والأعـنـاق
ي يـا خـيـر مـحـمـولٍ لأعـلـى جـنـة ولـحـورهـا يـلـقـيـنـه بـعـنـاق

(1) انظر: برقة العربية، ص225، 226.
(2) المصدر السابق نفسه، ص224.
(3) انظر: رحلة الحشائشي، ص161.

د	داء أصاب المكرمات فغالها	واغتال روح مكارم الأخلاق
ي	يجري على وفق القضا حتماً فلا	تبقى مواضيه على الأرماق
و	والدهر يعتام الأخاير والردى	يعتاد نهب نفائس الأعلاق
م	ما ضرّه لو أن صارم صرفه	أبقاك للعافين والطراق
و	والعلم والحلم الذي شمخت به	أفاق جغبوب على الآفاق
ل	لكنه لا ينتهي عن قصده	بتطبب أو رقية من راق
أ	أودى الشريف ابن الشريف محمد	من للمعالي بعده من راق؟
ي	يا جامعاً أصل العلوم وفرعها	جمعاً لمن ناواك غير مطاق
أ	أنت الإمام لكل من أم الهدى	والدين بالإجماع والأصفاق
ل	لك كنز معارف وعوارف	تحت الصفائح محكم الإطباق
س	سرٌ ثوى في روضة موشية	وشي الربا نحبّ الحيا الغيداق
ي	يا ثاوياً مع أصله في لحده	هذا قران السعد في الأعماق
د	دار حوت المكارم والعلا	مع فرعه شبت على الأطواق
م	ما تلك جنة قد زخرفت	ورثت يا مولاي باستحقاق
ح	حزت النعيم بها وكنت منعماً	والله يمنحك النعيم الباقي
م	ما عذر من ينعاك إذا لم يرتشف	كأس الردى من دمعه المهراق
د	دمع من العين منها مرسل	تهمي بذاك قريحة المآق
أ	إن قصرت يوماً فإن قلوبنا	أسرى لفقدك في أشد وثاق
ل	لو كان يفدى الميت بادر كلنا	يفدك بالآجال والأرزاق
ش	شرفت يا جغبوب حقباً بالذي	أعلى منارك بالثناء الباقي
ر	روت إليك وجوه آمال الورى	عطشاً لورد نواك الدفاق
ي	يسعى لأرضك كل جلف مملق	فيثاب بالآداب والأرماق
ف	فازت رجال باحتلال رياضه	ورياضه الخلد النعيم الراقي
ر	راضَ الأنام بعلمه وبحلمه	فتقدموا في حلبة الأسباق
ض	ضار إذا ما ربته في دينه	أو رمت نقض العهد والميثاق
ي	يا صفة صفوة يا شبل صبراً على	ريب الزمان وخطبة الفراق
أ	إن المنايا غاية ما دونها	من ناصر كلا ولا من واق
لا	لا تخطىء الأحيا سهام حتوفها	من فاته هذا فذاك يلاقي[1]

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص159، 160.

إن الحركة السنوسية فجرت طاقات الشعراء، وأضفت على شعراء الحركة معانياً في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادىء الدعوة، وكونت أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل، وخصوصاً إذا علمنا أن الشعر لم يكن صفتهم الأولى، وإنما كان أمراً لاحقاً، وشيئاً ثانوياً بالقياس إلى صفتهم الأصيلة، وهي كونهم علماء دعاة، اتجهوا في حياتهم إلى نشر العلم بين ذويهم وتهذيب النفوس وإحياء الشعور الديني، وإصلاح المجتمع بهذه الوسيلة، ثم كانوا مع هذا يتمتعون بالموهبة الأدبية، على أقدار مختلفة[1].

إن القصائد السابقة تساعد على تصور الأجواء التي كانت إثر وفاة محمد الشريف ﷺ، وبذلك يستطيع أن يصل إلى تأثير الوفاة على الإمام المهدي وإخوانه في الحركة.

وبعد أسابيع قليلة من وفاة السيد الشريف أرسل السيد المهدي في طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة، فسافر محمد عابد وأفراد بيت والده مصحوباً بالسيد أحمد الريفي، وأبي سيف مقرب، وبهذا الانتقال لم يبق من أفراد البيت السنوسي أحد بالجغبوب[2].

وفي عام 1314هـ جاء جلة أعيان برقة، ورؤساء القبائل لزيارة الإمام المهدي ليقدموا لسيادته أحر التعازي في وفاة أخيه[3] ويتدارسوا آخر تطورات الأوضاع الدولية والمحلية، والإقليمية.

رابعاً: رحلة الإمام المهدي إلى السودان الغربي، والصدام مع فرنسا، ووفاته:

كان الإمام المهدي يرسل البعثات الاستكشافية في الصحراء، ويحفر الآبار، ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربي، وكانت تلك الاستعدادات تجري على قدم وساق، في جو من الكتمان الشديد، وبعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد[4]. وقد غادر المهدي الكفرة ورافقه أفراد أسرته، وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل، وكان ذلك في أواخر جماد الثاني عام 1317هـ[5] وكان عدد رفقائه من الرجال 1066 رجلاً، وهم الإخوان وشيوخ القبائل والحاشية الخاصة والخدم[6]، واستغرقت المدة بين الكفرة وقرو السودان الغربي شهرين تقريباً[7]،

---

(1) انظر: انظر: دراسات وصور، ص326.
(2) انظر: برقة العربية، ص227.
(3) المصدر السابق نفسه، ص231.
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص225، 228.
(5) المصدر السابق نفسه، ص239.
(6) انظر: برقة العربية، ص239.
(7) المصدر السابق نفسه، ص239.

وبمجرد وصول الإمام إلى قرو وحط رحاله هناك أخذ ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذت شعوب تلك المناطق تدخل في دعوة الإسلام طوعاً، وتنضوي تحت زعامة الحركة السنوسية مختارة، وكانت فرنسا تراقب تحركات الحركة السنوسية، وتستعد لمعركة فاصلة معها، وخصوصاً بعد أن استطاعت القضاء على مملكة رابح الزبير وهزمته في معركة لختة، ثم تم قتله في عام 1900م وخضعت لهم سلطنته وباتوا يهددون كانم[1] وكان زعيمها قد: «أرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بير العلالي، وطفق يجمع جيوشاً من قبائل التبو، والطوارق وأولاد سليمان، والزوية، والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسي»[2].

تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني الساعدي، فارتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد أن تركت ميدان المعركة زاخراً بأشلاء الموتى، والجرحى، والمعدات، واستشهد عدد غير قليل من بينهم الشيخ عبدالله بن موسى فريطيس، ووصل الخبر إلى الإمام المهدي، فأرسل من عنده نجدة لمعاونة المجاهدين، واستأنف الفرنسيون زحفهم مرة أخرى، وكان عدد شهداء المعركة الثانية مائة شهيد، من بينهم كل من الشيوخ: غيث سيف النصر، أبو بكر قويطين، يونس بدر، السنوسي خير الله وشقيقه عبدالله، وغيرهم، وقد بلغ عدد الأموات من الفرنسيين مائتين وثمانين منهم خمسة وعشرون ضابطاً، وفي اليوم التالي من هذه المعركة زحف الفرنسيون بعدد كبير من الجيش تعززه قوات احتياطية، فاشتبكت مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين، واحتلال القوات المعادية لمركز (علالي)، وفي هذه الأثناء وصلت نجدة من المجاهدين يقودها محمد عقيلة، واحتكت بالفرنسيين في مركز لهم أقاموه خارج «علالي»، فالتحمت هناك معركة دامية، أسفرت عن احتلال المقر الفرنسي، والاستيلاء على جميع ما حواه، وفر عدد قليل من الفرنسيين إلى «علالي»، ثم قرر القائد السنوسي الزحف على مركز «علالي» وحاول بعض المجاهدين إقناعه ليكون زحفهم بعد تريث، غير أن القائد صمم على تحرير «علالي» من القوات الفرنسية أو أن يسكن «علالي» غرف الجنة، وتم الهجوم بروح جهادية عالية، واستشهد القائد السنوسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي[3]، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص229.

(2) المصدر السابق نفسه، ص229.

(3) انظر: المهدي السنوسي، ص73.

في يوم الأحد 24 صفر 1320هـ الموافق 2 يونيو 1902م، في زاوية قرو، واقترح أحمد الريفي نقل جثمان المهدي إلى الكفرة فتم ذلك ودفن في زاوية التاج[1].

لقد كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي، أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين العائلات، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعمله وآرائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام[2] وكان عفيفاً، يحترز من المال العام، فعلى سبيل المثال وصل إلى الجغبوب حاكم برقة العثماني الفريق رشيد باشا، وحل بطبيعة الحال ضيفاً مكرماً على الإمام المهدي، فعومل هذا الضيف بالإكرام والاحترام والتقدير، ولم يتناول مع محمد المهدي الطعام إلا مرتين اثنتين، ومرد ذلك إلى أن موارد الجغبوب التي ينفق منها كانت من الأوقاف الإسلامية، والصدقات والزكاة الشرعية، والهبات التي خصصها المتبرعون بها لتنفق على أوجه البر والإحسان، ثم ما احتسب للمشاريع الإصلاحية والإنشاء والتعمير، وللإنفاق على المشاريع، وعلى طلاب العلم، والضيوف وعابري السبيل، والمعسرين، وبطبيعة الحال إن دار الضيافة - وهي أحد هذه المشاريع - هي التي تقوم بإكرام ضيف الجغبوب الكبير، وكان المهدي السنوسي يتحاشى أن يصل إليه شيء من ذلك، وهكذا لا يمكنه - على ما يظهر - أن يتناول من الأطعمة التي تعد لرشيد باشا، وإزاء هذه الحالة أقام مأدبتين من ماله الخاص لضيف الجغبوب المحترم، وتناول معه الطعام، لقد كان المهدي السنوسي ينفق من موارد خاصة، مصدرها الزراعة، وتنمية الماشية، بزاويتي القصور ودفنة، ومن هذه الموارد كان مأكله وملبسه[3].

لقد اتصف الإمام المهدي السنوسي بصفات المؤمن ألا وهي: «قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخل ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء»[4] فرحمة الله على

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص173.

(2) انظر: المهدي السنوسي، ص82.

(3) انظر: المهدي السنوسي، ص79.

(4) المصدر السابق نفسه، ص84، 85.

المهدي، لقد اهتز العالم الإسلامي لخبر وفاة المهدي، وكتبت الصحف والمجلات الغربية والشرقية حول وفاة هذا الزعيم الإسلامي، وتولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف، فقام بتوجيه رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدي، وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿تَبَٰرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 1، 2]، ﴿فَسُبْحَٰنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83] وبعد فإنه من عبد ربه سبحانه أحمد ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني إلى الأجل الأبر الصفي الأنور سيدي الشيخ... «ويكتب اسم شيخ الزاوية المرسل إليه الكتاب» سلمه الله آمين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته والموجب لهذا السؤال عن الأحوال لا زالت محفوفة بالتكريم، والإجلال وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجاري الأقدار ساكنون، وفي قبضة من يقول للشيء كن فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا معترضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون، وبما وعدنا به الصابرون والقائلون عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، آجرنا الله وآجركم في مصيبتنا ومصيبتكم بالأستاذ الذي طالما رشد الخلق، وإلى طريق الحق يهدي، سيدنا محمد ابن المهدي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا بأسراره وأسرار آبائه وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه وأصفيائه فقد نقله من الدنيا إلى الآخرة التي هي خير، في منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير، من سنة عشرين وثلاثمائة وألف، ضاعف الله له الخيرات وضاعف الضعوف ألوف ضعف وسقى بشآبيب الرحمة تربته، وأسكنه مع الذين أنعم الله عليهم جنته إنه جواد كريم بر رحيم، ومنا جزيل السلام إلى جميع الإخوان والمحبين ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد، والسيد محمد إدريس، وكافة الأنجال والإخوان والسلام»[1].

تاريخ 7 ربيع الأول 1320هـ

وهكذا انتقل السيد المهدي إلى رحمة الله وهو لم يبلغ الستين من عمره، استطاع خلالها أن يتوسع في ميادين الدعوة، مقتفياً في ذلك منهج والده، ومات وهو في طريقه نحو ساحات الوغى، وألهب مشاعر أتباعه، ودفعهم نحو حب الجهاد، وورث القيادة لجيل آخر استطاع أن يقارع فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا بقيادة أحمد الشريف.

وأختم حياة الإمام المهدي بهذه القصيدة الرائعة التي تدل على الطاقات الكامنة في شعبنا

---

(1) انظر: مجموعة الشيخ منصور المحجوب، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص232.

المسلم «الليبي» وقد جاءت هذه القصيدة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية والدينية والعملية والنظامية وهكذا، فالإسلام دين ودولة، وسيف ومصحف. قال الشاعر الكبير رفيق المهدوي:

السيد (المهدي) أعظم مصلح ... بعد الأئمة قام بالإصلاحِ
إصلاحه الدين الصحيح منزه ... عن جذبة المتصوف السباح
صان العقائد من خرافات ومن ... بدع ومن متناقض الشراح
ما كان إلا بالشريعة عاملاً ... بالعلم في نهجه تقى وسماح
متقيلاً أخلاق والده الذي ... بدأ الجهاد بهمة وكفاح
(ابن السنوسي) الذي آثاره ... تغني عن الإطراء والأمداح
كالشمس لا تحتاج برهاناً ولا ... يحتاج مبصرها إلى استيضاح
والشمس إن جهل الكفيف ضياءها ... عرف الحرارة في الشعاع الضاحي
والمسك يعرف دون رؤيته إذا ... سطع الشذا من عرفه الفواح
والفرع ينزع للأصول نجابة ... إن الوشيج يجود بالأرماح
والنوع يبقى بعد طول تقلب ... في حبة فتجيء بالأدواح
آل الرسول وإن تطاول عهدهم ... ما زال سر العرق في الأقحاح
كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
ليست لدروشة المريد وجذبه ... بالدفء أو بالرقص أو بصياح
كانت معالمه كسيرة جده ... إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية ... للخير، منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في ... أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع ... للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه ... في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى ... بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى عمل وحسن عقيدة ... كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها ... إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا ... والله ما بالغت في الإيضاح
فله من الخدمات للإسلام ما ... يعلو على متناول الشراح

يكفيه نشر الدين في الآلاف من   أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل   صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة   الإسلام بعد عبادة الأشباح
وكفاه نشراً للعلوم بناؤه   لمعاقل مثل الحصون فساح
تلك الزوايا القائمات كأنها   للمدلج الساري ضياء صباح
كانت مناراً للعلوم وملجئاً   للمحتمين ومورد الممتاح
لتلاوة القرآن في عرصاتها   كدوي ثول في الأجباع
ولدارس التوحيد في أرجائها   هدى ينير إنارة المصباح
ولنهضة العمران كان بذاته   يلقي دروس الحرث للفلاح
ويدرب الفرسان معتمداً على   فن بأحدث عدة وسلاح
ويوحد الأهداف بين قبائل   كانت فلولاً عداوة وتلاحي
هذي كرامات الإمام السيد   المهدي للإيمان والإصلاح
للدين والدنيا وللأولى ولل   أخرى وللأبدان والأرواح
لا كالكرامات التي يروونها   كعجائب الفقراء غير صحاح
أو كالتصوف عند قوم أظهروا   بلهاً بلبس الصوف والأمساح
فكرامة الإصلاح بالخير الذي   للناس فوق كرامة الصلاح
ماذا أقول ولا أريد زيادة   عن مدح من سبقوا من المداح
سبقوا وما بلغوا سمو شواردي   إلا مشابة ريشة بجناحي
في مدح من فاق الملوك مكانة   بجلال وصف سميدع جحجاح
كانت تهاديه الملوك فيعتلي   متعففاً برزانة ورجاح
ورعاً وزهداً في حطام عاجل   وتحفظاً من جائز ومباح
بلغ الكمال المستطاع لمنتهى   أفق لقرب الأنبياء متاح
لا أدعي أني أحاول وصفه   بإطالة الإطناب والإلحاح
لكنني أخلصت مدحي موقناً   بالحق في جد بغير مزاح
وأشدتُ بالذكر الذي لا يمترى   في صدقه متبجح أو لاحِ
لا أبتغي مالاً ولا جاهاً ولا   زلفى تقربني إلى مناح
حسبي قد استغنيت بالإيمان عن   كل العباد بفالق الإصباح
وأردت عند الله في ذاك الجزا   وبحسن ظني في السول نجاحي
وبالانتساب إلى النبي وآله   أرجو مفازي في غد بفلاح
ومن التفاؤل أن نسبة «مهدوي»   جاءت من «المهدي» عن الشراح

إنــي أقــر بــأنــنــي أســرفــت فــي دنيـا الـمـعـاصي راكـبـاً لـجـمـاحـي
مــالــي أمــام الله غــيــر ســريــرة بـيـضـاء يـوم الـمـحـشـر الـفـضـاح
ولـقـولـه لا تـقـنـطـوا مـن رحـمـتـي ألــقــى الإلــه بــخــاطــر مــرتــاح
مـالـي سـوى صـدق الـيـقـيـن مـؤمـلاً حسن الختام على هدى وصلاح[1]

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص11، 12، 13.

الفصل الثاني

الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف السنوسي

هو العالم الجليل والقائد العظيم، والمجاهد القدير الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر السيد أحمد الشريف ابن محمد الشريف بن محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي[1].

المبحث الأول

ولادته وتربيته وشيوخه

يتفق معظم المؤرخين على أنه ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ 27 شوال سنة 1290هـ الموافق لسنة 1873م[2]، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة.

تربى رحمه الله في حجر والده العلامة محمد الشريف وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه، وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم، ولما أتم حفظ القرآن الكريم قال له عمه: أنت ما أخذت من القرآن إلا عني[3].

ومن أشهر العلماء الذين تعلم وأخذ العلم عليهم: محمد الشريف السنوسي ومحمد المهدي السنوسي، وأحمد الريفي، ومحمد مصطفى المدني التلمساني، وعمران بن بركة وهو جده من جهة الأم[4].

---

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 8، 9).

(2) انظر: أعلام ليبيا، للزاوي، ص51.

(3) انظر: الفوائد الجلية (2/ 9).

(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، ص22.

ارتحل مع عمه من الجغبوب إلى الكفرة عام 1312هـ، وأسندت إليه مسؤوليات جسام منذ البلوغ، وكان يشرف على رعاية القافلة المتجهة إلى الكفرة والتي تتكون من 2600 شخص، وكان ينفذ أوامر عمه بدقة وعلى خير ما يرام، فلم يعرف الركون إلى الراحة.

وفي سنة 1317هـ ارتحل مع عمه محمد المهدي إلى منطقة قرو بالسودان الأوسط، في مهمة دعوة الناس وتعليمهم الدين الإسلامي، وألف أحمد الشريف كتاباً عن هذه الرحلات أسماه «السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج»[1].

وشارك مع عمه وأتباعه في مجموعة معارك بالسودان وتشاد ضد الفرنسيين في مناطق مختلفة، مثل «واداي، كلك، علالي، وان، جنقة الكبرى، جنقة الصغرى، تبستي، بركو، قرو... إلى آخره»[2] واستمر الصراع السنوسي الفرنسي إلى ما بعد وفاة محمد المهدي.

(1) ويسمى أيضاً «الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج».

(2) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة، ص77.

المبحث الثاني

أحمد الشريف يتولى قيادة الحركة

ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة؛ لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة، والوصاية على الخليفة الشرعي «إدريس»؛ ولما لمس فيه من صفات قيادية، واستعداد فطري، وخبرة اكتسبها في معاركه ضد فرنسا أهلته لتولي القيادة[1].

وكان إسناد الزعامة إلى أحمد الشريف قد صادف قبولاً وارتياحاً من جانب جميع الإخوان الذين اجتمعوا بالكفرة يوم 12 ربيع الأول من عام 1220هـ الموافق ليوم 19 يونيو 1902م حيث جرى الاحتفال بانتخاب أحمد الشريف[2].

استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد، وشرع أحمد الشريف في تشكيل جبهة إسلامية ضد الغزو الفرنسي الزاحف من جنوب تشاد إلى شرقها وشمالها، فقام بالاتصال بسلطان واداي «داود مرة» سنة 1903م، وأقنعه بسحب اعتراف واداي بالحماية الفرنسية على كانم، وباقومي، واستجاب السلطان داود لذلك وسحب اعترافه بالحماية الفرنسية[3]. واتصل بالسلطان علي دينار «سلطان دارفور» الذي أعلن توحيد جهود المسلمين ضد الغزو الصليبي الأوروبي[4]. لقد رأى أحمد الشريف أن التوسع الفرنسي في الصحراء الإفريقية يعتبر تهديداً مباشراً لحركته الإسلامية الدعوية، ولتجارة القوافل التي كانت تدعم بمردوداتها الاقتصادية نظام زواياه في تلك المناطق[5].

لقد كان تجار القوافل التابعين للحركة السنوسية من أعمدة الحركة الاقتصادية، ولنضرب مثلاً على ذلك بالحاج أحمد الثني الغدامسي الذي كانت له تجارة عظيمة مع أهل برنو وواداي وغات ومصر وطرابلس وتونس، وكان جميع ما يأتي إلى جغبوب يأتي على يديه وهو الذي يجلبه إلى هناك بأثمان متهاونة، رفقاً بالإخوان، ولذلك كان من المقربين من الشيخ محمد المهدي[6].

---

(1) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى، عام 1980م، ص7.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص98.

(3) انظر: العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد، 1983م، ص86.

(4 – 5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص23.

(6) انظر: رحلة الحشائشي، ص171.

إن الحركة السنوسية في بداية أمرها لم تكن لها سلطة الحكام الذي يدبرون الشؤون العامة كالعزل والتولية وإقامة الحدود، وجباية الأموال، وتنفيذ الأحكام، بل كان بداية أمرها الاهتمام بالدعوة إلى الله، وإرشاد العباد إلى العمل بما يأمر به دينهم الحنيف، ويسعون لإصلاح ذات البين، ويتبادلون النصح للحاكم والمحكوم، ويرشدونهم إلى تعاليم كتاب الله، وتعاليم سنة رسوله، ويحرضونهم على بناء المساجد لإقامة الشعائر الإسلامية فيها، ويقومون هم وأتباعهم بعمارة هذه المساجد بتعليم كتاب الله، والصلوات فيها، ويبذلون الجهد لفض المنازعات ما بين القبائل والمتخاصمين ويعلمونهم كيفية إخراج زكاة أموالهم، وكيفية عقد أنكحتهم، ويحرضونهم على نبذ العادات المخالفة للشرع، وبدأ جهادهم المنظم لحكومة فرنسا التي بدأت بالاعتداء على دعوتهم وحركتهم وقاوموا فرنسا غيرة على الدين الإسلامي الذي نشرته الحركة ودعاتها في مجاهل إفريقيا[1].

لقد قام الفرنسيون بعدما دانت لهم تشاد عام 1909م بهدم مراكز الإصلاح والإرشاد التابعة للحركة السنوسية، وإلغائها، واستطاع أحمد الشريف أن يقنع العثمانيين بضرورة دعمه، والوقوف مع حركته، وأسفرت مفاوضاته مع العثمانيين عن إرسال جند من النظاميين إلى برقو والتبستي وتأسيس قائمقام في الكفرة، عين بها الشيخ كيلاني الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات وهو والد المجاهد الكبير الذي دوخ إيطاليا صالح باش الأطيوش، ورفعت الراية العثمانية في «وان» بالقرب من عين كلك، وكان المشرف على حركة الجهاد الشيخ الجليل محمد السني الذي أرسله المهدي إلى «أبشة» عاصمة واداي عقب انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة، وهكذا ظلّت المناوشات دائرة بين السنوسيين والفرنسيين، واستطاع «الكولونيل لارجو» في ديسمبر عام 1913م أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبيرة في «قرو» حيث جُرح ولدا السيد المهدي السني نفسه (عبدالله وعبد العال)، ووقعا في الأسر[2]. إن الفرنسيين كانوا يشعرون بالخطر العظيم من قبل الحركة السنوسية وكذلك الدول الأوروبية، وقد نشرت جريدة (دي كولوني) الألمانية كلاماً عن عالم ألماني خبير بأحوال إفريقيا عامة والسنوسيين خاصة زعم فيه أن عددهم يبلغ تسعة ملايين، وأن في وسعهم إنفاذ جيش إلى مصر والسودان مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل، وذكر مجملاً من تاريخهم عربته جريدة «المؤيد» عن جريدة «الميموريال» وهو: «إن طريقة السنوسية مهمة جداً من حيث انتشارها السياسي في إفريقية، ومن حيث الكفاح القائم بين الديانتين الإسلامية والمسيحية في هذه القارة، وقد أنشئت هذه الطريقة منذ خمسين عاماً تقريباً أي في عام 1855م بواحة الجغبوب، وواضع أساسها هو الشيخ محمد بن علي

---

(1) انظر: الفوائد الجلية، (2/ 15 إلى 22).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص100.

السنوسي... ثم خلفه ابنه المهدي وكان وقتئذٍ فتى فتياً وهو إلى اليوم رئيس المذهب الذي أصبح على عهده واسع النطاق منتشراً في الآفاق وإشارة منه تكفي الآن لإزالة الشحناء والخصومة من بين سلطانين من سلاطين إفريقيا إذا قام بينهما الشقاق واستحكم الخلاف لأمر من الأمور، ومن الأمور التي لا ريب ولا خلاف فيها أنه إذا جاء يوم أمر فيه بالجهاد وأشار بالحرب الدينية اهتزت لصوته أركان العالم الإسلامي التي تترامى في حدوده في إفريقية إلى مصر شرقاً والكونغو جنوباً حتى بحيرة تشاد ومراكش غرباً، وعليه يكون حزب السنوسي قد صار قوة من القوى السياسية التي ينبغي على كل دولة من دول أوروبا أن تعمل لها حساباً، وقد اشتهر سيدي المهدي محمد بالتناهي في التقوى والصلاح ورعاية أمور الدين، والتقشف في المعيشة وهو دائب السعي على توفير أسباب الوئام والاتفاق بين الأقوام والشعوب الإفريقية...»[1].

إن أعداء الإسلام يحاولون أن يرصدوا أي تحرك مفيد للدعوة والمسلمين ويعملون ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً على التحذير منه، وتشويهه ووضع العوائق في طريقه مهما كلفهم الثمن، يدفعهم ذلك حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين.

يقول إدرو ساليفو استناداً إلى الوثائق الفرنسية: «... من المهم أن نوضح أن السنوسية لم تكن مجرد حركة متذمرة ومتعصبة، فهي طريقة إصلاحية تهدف إلى إحياء الدين الإسلامي وإرجاعه إلى أصوله السلفية، كما تهدف إلى تحرير العالم الإسلامي من التبعية الاستعمارية التي سقط فيها، وإلى جانب ذلك الهدف الديني فإن السنوسية لها هدف آخر سياسي في غاية الأهمية، وهو توحيد إفريقيا الإسلامية أولاً، وتوحيد العالم الإسلامي بعد ذلك في إمبراطورية إسلامية جديدة، تتمتع بالأبهة والمجد والعظمة، وخالية من الشوائب التي لحقت بها خلال القرون التي ابتعد فيها العالم الإسلامي عن السنة النبوية الصحيحة مما أضعفه نتيجة لذلك، وبالإضافة إلى الهدف الديني والهدف السياسي هناك أيضاً الهدف الاقتصادي حيث كان الإخوان يتنافسون بينهم على أعمال الزراعة والصناعة الخفيفة والتجارة من أي مكان تمد فيه الزوايا السنوسية أعمالها ونشاطها»[2].

لقد كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية في إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون في جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية، وبدأت قبائل توارق النيجر تتجه شرقاً للالتحاق بحركة الجهاد، ولم تقع في النيجر أي حوادث تذكر حتى بداية عام 1903م عندما بدأ الفرنسيون يزحفون نحو الشمال[3]

(1) انظر: تاريخ الإسلام، أنور الجندي، ص217.

(2) انظر: الثورة السنوسية، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، ص12.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، محمد القشاط، ص115.

واندلعت المعارك الطاحنة التي كان خلفها أتباع الحركة السنوسية، وكان من أشهر قادة الحركة السنوسية:

أولاً: المجاهد محمد كاوصن:

ولد محمد كاوصن في بلدة «مرقو» حوالي عام 1880م وينتمي إلى قبيلة «إيكزكزن» إحدى القبائل الشريفة في سلطنة والليمدان وإليها تنتهي رئاستها، قاد حركة الجهاد ضد فرنسا في النيجر في الحرب العالمية الأولى، وأبلى بلاءً عظيماً، وقد عاش هذا القائد أحداث الجهاد منذ اصطدام توارق شمال النيجر ضد فرنسا عام 1901م، وهاجر ضمن قبائل التوارق نحو الشرق، حيث استقر «بقورو» وانضم للطريقة السنوسية وكان ضمن المجاهدين في هجومهم على «وشنكال» في نوفمبر في عين «كلكا» وكان من ضمن المستولين على الموقع الفرنسي التابع لسرية الهجانة في كانم بقيادة الملازم «موتوت».

وقد أعجب به أحمد الشريف وأسند إليه قيادة «عين إيدي»، وانطلق مجاهداً، فأغار على بيسكري عام 1910م، وضغطت عليه القوات الفرنسية، فلجأ إلى دار فور حيث «سلطنة علي دينار» ثم رجع إلى «أوتياكا» والتحق بالشيخ محمد السني في سبتمبر عام 1911م، ثم سافر إلى يروكو ووداي ووضع نفسه تحت قيادة القائمقام العثماني في «عين كلكا» أكتوبر 1911م، وفي 23 مايو 1913م شارك كاوصن في معركة أم العظام ضد فرنسا ولم يتمكن المجاهدون من النصر واستشهد القائد عبدالله الطوير الزوي أثناء المعركة[1]، وبعدها انتقل كاوصن إلى فزان ووصل واو ودخل تحت قيادة محمد العابد السنوسي مندوب أحمد الشريف في فزان، وشارك في جهاد أهل الجنوب ضد إيطاليا، ثم رجع على رأس مجموعة من المجاهدين للاستيلاء على شمال النيجر وطرد الفرنسيين منها، وراسل كاوصن سلاطين التوارق واللميدان، والآيير، ومشايخ قبيلته يطلب منهم إعلان الجهاد المقدس ضد الكفار، ويعدهم بالنصر ويبلغهم أن الألمان سيلاقونهم في نيجيريا[2].

يقول ساليفو: «ولكن كاوصن كان قد بدأ فعلاً في مراسلة مختلف زعماء التوارق في آيبير وخاصة سلطان «أقدز» و«تاقامة» صديقه المتواطىء معه عن طريق مراسلات سرية منتظمة»[3].

ويقول ساليفو: «ومن ناحية أخرى قام تاقامة بالاتصال مع عدد من زعماء القبائل طالباً مساعدتهم في المعركة المرتقبة التي تستعد السنوسية لخوضها مع الكفار، فلبت القبائل:

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص157.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: الثورة السنوسية، ص68.

إيكزكزن، إفدين، كل أغاروس، كل فروان، نداء تاقامة على الفور، كما ردت قبائل: المشكرة، تكريكريت، والليمدن في منطقة طاوه بالموافقة على نداء سلطان أقدز، فجاءت هذه القبائل واستقرت في المدينة مع العائلات والمواشي. . .»[1].

وفي سرية تامة انطلقت كتائب المجاهدين التي يقودها محمد كاوصن القائد السنوسي باتجاه أقدز في أواخر فصل الخريف من عام 1916م، متجنبين حر الصحراء وحاجة المسافرين للماء، وفي مساء ليلة 12 - 13 ديسمبر كان المجاهدون يطوقون أقدز وقد قبضوا في تلك الليلة على مجموعة من المشبوهين ومن لهم علاقة بالفرنسيين، مثل مترجم المركز الفرنسي، وتاجر تونسي يدعي بأنه يتعامل مع الفرنسيين في التجارة، كما تم القبض على شخص أمريكي تابع لجمعيات تنصيرية[2].

قسم المجاهدون قواتهم إلى مجموعتين:

1 - المجموعة الأولى بقيادة محمد كاوصن.

2 - المجموعة الثانية بقيادة أغالي من قبيلة إيكزكزن.

كانت كتائب المجاهدين تتكون من مجموعة كبيرة من الليبيين وحوالي 40 شخصاً من الشعانبة جزائريين يرأسهم مولاي قدور وهو جندي سابق مع فرنسا، فر من جيشهم والتحق بالمجاهدين، ومجموعة من أهالي توات «الجزائر» يرأسهم بوخريص، والتحق بالمجاهدين، مجموعة من سكان الجنوب التونسي[3].

وبدأ المجاهدون في قصف المركز الفرنسي صباح يوم 13 ديسمبر لإجباره على التسليم، وفي 18 ديسمبر سقطت أربعون قذيفة على المركز وألحقت به أضراراً بالغة، وكان محمد كاوصن يدير المعركة بمهارة فائقة، وقدرة رائعة، ويشرف على سير المعركة، واستطاع المجاهدون أن يستولوا على المدينة، وتحصلوا على غنائم ولم يبق إلا المركز المحاصر الذي تخندق الفرنسيون داخله حيث تموينهم، وسلاحهم، وذخائرهم، وبدأ المجاهدون يرسلون الدوريات إلى المناطق المجاورة، وإلى تقاطع الطرق المؤدية إلى أقدز، وفي يوم 26 ديسمبر 1916م اصطدمت قوة من المجاهدين بمجموعة فرنسية بقيادة الملازم سودان قادمة من زندر وأبادتها وقتلت الملازم سودان.

علم المجاهدون بقدوم قوة فرنسية تحمي قافلة الملح القادمة من بلما، فخصص كاوصن

---

(1) انظر: الثورة السنوسية، ص70.

(2 - 3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص159.

قسماً من جماعته لحصار المركز، وانسحب بمن معه لملاقاة القافلة، ونصب لها كميناً في منطقة «شين تبوراق» يوم 27 ديسمبر 1916م[1].

يقول النقيب «ساباتي» بتاريخ 28 ديسمبر عام 1916م: «إن إطلاق النار قد سمع من بعيد في حوالي الساعة 17 من جهة الشرق، وبما أن الوقت متأخر فإنني لم أعين مجموعة للقيام بالاستطلاع في تلك الجهة، وكان ذلك خسارة للفرنسيين؛ لأنه كان معركة «شين تبوراق» الشهيرة لا تنسى»[2].

وقد استطاع المجاهدون تحقيق نصر ساحق ضد القوة الفرنسية وكان حصار معركة شين تبوراق: (60 ستين من رجال الهجانة التابعين للفصيل المتنقل قد لقوا حتفهم فلقي الملازم «ديفو» والطبيب العسكري «رينود» والعريف «مريل» والعريف «قازلان» نفس المصير)[3].

كما استولى المجاهدون على ستة أسرى، وستة من سكان المنطقة المجندين مع الفرنسيين وأعدموهم.

يقول كافيو: «ولكن من الناحية المعنوية فإن الهيبة التي أحرزها كاوصن من هذه الضربة كانت واضحة، فانتشرت أخبار الانتصار بسرعة في أحياء التوارق، فزاد من تشجيع السنوسيين وأتباعهم وأصدقائهم ورفع معنوياتهم، فحسم موقف المترددين فقرروا الانضمام للمعسكر الأقوى، وفي ذلك الوقت على كل حال كان الأقوى في نظر الأهالي كاوصن، وقد توافد التوارق إلى معسكر كاوصن للانضمام إليه، ومن أجل الحصول على الشرعية للمشاركة في الغنائم»[4].

ويقول ساليفو: «وفي 28 ديسمبر في أثناء الليل زمجرت الطبول المعلنة للاحتفالات في مدينة أقدز، وكان الوطنيون يحتفلون بانتصارهم الساحق ضد الرجال البيض الكفار»[5].

وكانت رسائل كاوصن تصل إلى السلاطين في مناطق التوراق تدعوهم للانضمام للجهاد ضد الكفار، وكانت في هذه الأثناء مجموعات من المجاهدين الليبيين تهاجم أزوار بشمال تشاد، وأخرى تهاجم جادو، كما أن مجموعات أولاد سليمان في شمال تينبكتو توجهت للمساهمة في حصار أقدز بقيادة الخليفة ولد محمد، وهكذا تشتتت كل جهود الفرنسيين.

(1) المصدر السابق نفسه، ص160.
(2) انظر: الثورة السنوسية، ص82.
(3) المصدر السابق نفسه، ص85.
(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص161.
(5) انظر: الثورة السنوسية، ص86.

يقول ساليفو: وهكذا إذن لم يكن أي فصيل من الهجانة في كل أنحاء إقليم النيجر مستعداً للذهاب إلى أقدز، فما العمل؟ هل يطلب من فصائل السودان التدخل، وعلى الأخص من فصائل كيدال وتنبكتو التي كانت قريبة أكثر من غيرها؟ ولكن وبدون شك فإنَّ القدر قد ساعد جماعة كاوصن؛ لأنه في الواقع إذا كانت فصائل الهجانة مشغولة هنا في أي مكان من النيجر فإن هجانة كيدال قد انطلقوا لتوهم في مطاردة غزوة عبر الصحراء»[1].

ويقول ساليفو نقلاً عن المصادر الفرنسية: «فلا فائدة أيضاً من النظر إلى إقليم الجنوب الجزائري، فقد تم إخلاء حصن (بولينياك) وهاجم السنوسيون حصن (موتيلانسكي)»[2].

«كان الموقف الأوروبي هو الذي استهدفته مسألة (كاوصن) وهددته في إفريقيا الوسطى، ألم يكن كاوصن لديه مشروع التوغل في بلاد الهوسا؟ وحينئذٍ تضامن الإنجليز والفرنسيون الذين كانوا قبل سنوات يتنافسون على هذه الأراضي التي لا يفصل بينها إلا خط وهمي يمر من ساي - بارُو - فحاولوا نسيان منازعتهم القديمة لمواجهة عدوهم المشترك»[3].

وهكذا توحدت جهود فرنسا وبريطانيا، وعملاء المنطقة على محاربة المجاهدين، وعلى رأسهم كاوصن[4] ولقد اندلعت معارك ضارية بين القوات الأوروبية، وقوات المجاهدين وكانت الغلبة للقوة التي ملكها الأوروبيون، وقد فصل الدكتور محمد القشاط تلك المعارك[5]: (لقد أتعب كاوصن الفرنسيين، وقد أبلى بلاءً حسناً، وكانت وفاته في ليبيا حيث تعرض لكمين من بعض القبائل التي كانت تكن له الكراهة والبغض نتيجة لسوء تفاهم بينهم، فعندما مر بحطية أم العظام في جنوب ليبيا بمنطقة فزان هاجمه مجموعة من الرجال، فأمر مجموعته بعدم إطلاق النار قائلاً: «هؤلاء لا بد مسلمون جهلونا، فالفرنسيون بعيدون من هنا وكذلك الطليان» وتقدم ليوضح لهم فقبضوا عليه، وضربه رجل اسمه العياط بالسوط فقال كاوصن مخاطباً العياط: «أنا كاوصن لا أضرب بالسوط اضربني بالرصاص» فأخذوه حيث أمروه بحفر قبره بيده وقتلوه بعد أن صلى ركعتين في 5 يناير 1919م).

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد العظيم على يد أحمد العياط الذي قتل عام 1924م على يد أحد المجاهدين بالحمادة الحمراء وهو يقاتل مع الطليان»[6].

---

(1) انظر: الثورة السنوسية، ص91.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه، ص92.
(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص165.
(5) المصدر السابق نفسه، ص165 إلى 180.
(6) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص176.

أما بقية المجموعة من مجاهدي الصحراء فإنهم حين سمعوا بخبر كاوصن وظهرت لهم الحقيقة رجعوا إلى النيجر، حيث انسحبوا ليلاً، وأخذوا معهم زنادات المدافع، وتابعتهم قوات خليفة الزاوي التابعة للأتراك الذين رغبوا ما بين عامي 1916م - 1918م في القضاء على نفوذ السنوسية في فزان والذي كان يقوده محمد عابد السنوسي.

ووجدت قوات الزاوي اثنين منهم مغمياً عليهما من العطش فأسعفاهما وأرجعاهما إلى حيث دفنوا زنادات المدافع وقتلاهما، ومع الأسف الشديد والحزن العميق كان أحد أولئك القتلى السلطان المجاهد الخورير سلطان والليمدن الذي لم يستطع مواصلة السير من العطش، وسلم ولده الصغير محمد لأحد رفاقه وسقط هناك.

واستمر عبد الرحمن تاقامة يقود المجموعة المنهكة، والقليلة الزاد، والذخيرة، راجعاً إلى الصحراء متخذاً من جبالها درعاً له[1].

إن تلك الفتنة التي حدثت بين خليفة الزاوي، ومحمد عابد السنوسي ساهمت في إجهاض حركة الجهاد في الصحراء الكبرى[2] وإني أعرضت صفحاً عن تفصيلها، أما عبد الرحمن تاقامة، فقد كان على علاقة وثيقة بالحركة السنوسية، ولذلك استجاب لنداء الجهاد المقدس ضد فرنسا، عندما وصله من زعامة الحركة، وساند الحركة محمد كاوصن، وكان يمون ويمول المجاهدين طوال حصار أقدز في النيجر، والذي استمر قرابة الثلاثة أشهر، وعندما فك الحصار المجاهدون، انسحب معهم، وقاتل فرنسا بضراوة، إلى أن وصل فزّان حيث استقبلهم خليفة الزاوي حاكم مرزق محارباً، ولما قتل كاوصن انسحب عبد الرحمن تاقامة عائداً إلى الصحراء.

كان الفرنسيون يتابعون الأحداث:

يقول ساليفو: «كان الفرنسيون يتابعون تطورات الوضع السياسي في فزّان عن كثب، وكانوا يعلمون أن كاوصن قد قُتل، ولكن تاقامة ما زال حياً مما سبب لهم نوعاً من القلق، وفي الحقيقة كانت شعبية سلطان آيير الأسبق ما زالت عميقة، وكان الفرنسيون يعلمون أيضاً أن تاقامة يستطيع أن يجمع حوله من جديد عدداً من الأتباع ويهدد بوجه خاص تخوم المناطق الصحراوية في النيجر»[3].

ولذلك شرع الفرنسيون بالتصدي له محاولين أن لا يسترد أنفاسه؛ لأن مجموعات من

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص177.
(2) المصدر السابق نفسه، ص175.
(3) انظر: الثورة السنوسية، ص155، 156، 158.

مشايخ القبائل في النيجر بدأت تعلن العصيان بعد أن علمت بوصول المجاهد عبد الرحمن تاقامة، بل بعضهم قام بإرسال جمال لإنقاذ مجموعات عبد الرحمن من العطش الذي أنهكهم»[1].

يقول ساليفو: «وكان الفرنسيون قد أخذوا على عاتقهم وبكل ثمن منع تاقامة من التوجه إلى الكفرة أي إلى ذلك المركز الروحي «التخريبي» الذي لعب دوراً كبيراً وهاماً في النضال من أجل زعزعة استقرار المسيحيين في إفريقيا»[2].

وقد أرسل الفرنسيون فرقة لمصادمة تاقامة الذي وصل إلى جبال تيبستي وشرع الفرنسيون في سجن المواطنين، وتعذيبهم وأخذ أولادهم ونسائهم رهائن، واتخذوا منهم مرشدين للطرقات لمتابعة مجموعات تاقامة الجهادية التي توزعت في الجبال وتقسمت إلى مجموعات صغيرة لنقص الجمال والتموين، وفي 8 مايو 1919م استطاع الفرنسيون بواسطة المرشدين أن يطوقوا المجموعة الصغيرة، وفاجأوا المجاهدين بإطلاق النار من قريب، فسقطت تلك المجموعة شهداء في ساحة الجهاد، وكان عددهم عشرة، وأسر عبد الرحمن تاقامة وزوجته بعد أن نفذت ذخيرته، ثم أودع السجن في زندر، ومنها إلى أقدز (النيجر) حيث شهر به، وكان مكبلاً بالحديد في رجليه ويديه وعنقه ويحرسه ستة من الجنود، وفي ليلة 29 - 30 أبريل 1920م اقتحم آمر أقدز النقيب الفرنسي «فيتاني» وخنق ذلك الأسد المكبل في قيوده لتصعد روحه مع الشهداء، وأصحاب الجنان، بإذن ربها، وادعت السلطات الفرنسية بأن عبد الرحمن انتحر، ليغطوا بذلك على فعلتهم الشنيعة، وبذلك أسدل الستار على حياة هذا المسلم المجاهد الذي خاض حروباً طاحنة، ومعارك ضارية، وجهاداً مريراً ضد النفوذ المسيحي الفرنسي في الصحراء الكبرى، فعليه من الله المغفرة، والرحمة والرضوان، وأعلى الله ذكره في المصلحين[3].

ونرجع إلى القائد العظيم محمد كاوصن لنلقي الضوء على بعض رسائله التي كان يحرّض بها الزعماء في منطقة الصحراء الكبرى لينضووا تحت راية الجهاد التي كانت تحملها الحركة السنوسية.

رسالة من كاوصن إلى أعمامه:

أقدز في 10 مارس 1917م.

بسم الله الرحمن الرحيم: «إلى سيادة العزيز الكريم الكامل، إلى عمنا الحاج موسى،

---

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص177.

(2) انظر: الثورة السنوسية، ص157.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص178.

وعمنا «أدمير» وإلى جميع قبيلة «إيكزيكزن» وكل من في حمايتهم السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وعلى كلّ أحبابكم وأصدقائكم سلاماً تاماً يعمكم جميعاً أنتم وبلادكم.

إن سألتم عنا فنحن على خير، ولا ينقصنا ولا نهتم إلا بكم، ونرجو من الله أن نلتقي معكم قريباً، والله سميع مجيب الدعوات، ونطلب من الله تعالى أن يجمع شملنا بجاه النبي الحبيب ﷺ.

ونحيطكم علماً بأن ما يجري في الوقت الحاضر ليس إلا خيراً وأن الله سبحانه وتعالى والزعماء قد طردوا الفرنسيين في بلاد «أزقير»، وأن المجاهدين قد استولوا على مراكزهم.

إن المسلمين جميعاً قد قاموا إلى الجهاد، وإن الشعانبة[1] الذين كانوا مع أعداء الله قد انقسموا، فهرب بعضهم وذهب إلى المناطق الرملية قرب «غدامس»، وكذلك الذي يسترونه في رسالة أخينا المختار بن محمد بأن قوات كبيرة تتوجه الآن إلى الإقليم الذي يحتله الفرنسيون أعداء الله ورسوله، واعلموا أن الحكومة التركية والألمانية ينتظروننا في «كانو» حيث سبقونا، ولا تشكوا في ذلك، وكونوا رجالاً وانتظروا.

إن كل البلاد التي ستفتح بين البحر ومصر ستُسلم إلى الحكومة السنوسية، وتلك هي النصيحة التي أوجهها لكم، تمسكوا بها إن الله العلي القدير قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

والسلام، إنها رسالة قادمة ممن يدعون الله من أجلكم وعنهم كاوصن بن محمد[2].

كتبت في 6 ذي الحجة 1334هـ أكتوبر 1916م

ومختوم بختم يحمل العبارة التالية:

خادم الحكومة السنوسية

حاكم وادي فزّان

كاوصن 1334هـ

ومن رسائل محمد كاوصن إلى قبيلته يخبرهم بقوله:

«وإننا نخبركم بأننا قد أرسلنا من طرف سيدنا الأكبر السيد محمد العابد الشريف بارك الله فيه وبارككم، فأمرنا بإنهاض الناس وتحريضهم على القتال في سبيل الله والطريق المستقيم وعلى كلمة الدين..»[3].

---

(1) من القبائل الجزائرية الكبيرة.

(2) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص244.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص247.

ويقول في فقرة أخرى من الرسالة:

«وكل ما نريده هو أن يتبع الناس جميعاً الطريق المستقيم؛ لأننا نعمل وفقاً لإرادة الله، ونطيع أوامر السيد العابد؛ لأن عهده قد بدأ بدون أدنى شك، وبكل يقين، وليس هناك سلطة أخرى غير سلطته؛ لأن العالم قد قسم فأخذ كل واحد نصيبه - وذلك بمشيئة الله - وأنتم من الجزء الذي يقع في نصيب السيد محمد العابد. يا أيها الناس فكروا جيداً، إنا مبعوثون من عنده لنهديكم إلى الصراط المستقيم، ونقوم بإدارة بلادكم، فلتبق هذه الكلمات في ذهنكم وتقبلوا تحيات خادم الطريقة المجيدة الشريفة الصحيحة الطريقة السنوسية..»[1].

ثانياً: المجاهد محمد عبد الله السني:

ومن قيادات الحركة السنوسية التي قادت حركة الجهاد ضد فرنسا في تشاد، ولد بمزدة سنة 1268هـ الموافق 1851م، من أسرة تنتمي للعباس بن عبد المطلب، جاء جدها الأول من المدينة المنورة، ونزل بواد قرب بلدة سنار بالسودان، فسمي الوادي باسمه «وادي مدني».

انتقل والده إلى مكة حيث درس الفقه وعلوم الدين على يد الشيخ أحمد بن إدريس حيث التقى هناك بالشيخ محمد بن علي السنوسي، والذي عاد برفقته إلى ليبيا، واشتركا في تأسيس الزوايا لتعليم القرآن، وعلوم الدين، حيث شرع الشيخ السنوسي بتكوين زواياه بالجبل الأخضر، وفي المناطق الشرقية من ليبيا، وبدأ الشيخ عبد الله السني في تأسيس زواياه في غرب ليبيا حيث أسس زوايا في غدامس، ومزدة، والحرابة، ومصراته، وغيرها.

ولما توفي الشيخ عبد الله سنة 1296هـ تولى ابنة إدارة الزوايا وتأسيس زوايا أخرى حيث أسس زاوية غريان، والقلعة، والعمامرة، والرحيبات، وكان رجلاً مباركاً سعى إلى إخماد الكثير من الفتن بين القبائل، وفي عام 1313هـ عاد أخوه عبد السلام من الكفرة بعد أن أنهى تحصيله العلمي، فترك له أمر الزوايا وذهب إلى الكفرة لملاقاة الشيخ محمد المهدي السنوسي، الذي تولى أمر الدعوة بعد وفاة والده.

وعند وصوله إلى هناك أمره شيخه بالتوجه لنشر الدين الإسلامي، وصد التغلغل التبشيري المسيحي في بلاد السودان «تشاد الحالية والنيجر».

سافر إلى هناك عام 1896م وأسس زاوية «قرو» وعدة زوايا أخرى واستقر «بكانم» حيث تتواجد القبائل العربية الليبية، أولاد سليمان وغيرها، وأرسل في إحضار جزء من أسرته حيث لحق به ابناه عبد الله، وعبد العالي، وبقيت الأسرة في مزده، واستمر في جهاده في الصحراء أكثر من عشر سنوات، لقد شارك في الجهاد ضد فرنسا واصطدم بقواتها وساهم بنفسه وماله في

(1) المصدر السابق نفسه، ص248.

حركة الجهاد في زمن المهدي السنوسي، وأحمد الشريف[1].

وكانت له أشعار رائعة في مدح الإمام الثاني للحركة السنوسية، ومنها قوله:

هو المرتجى للدين ينصر حزبه فتعضده الأنصار والنصر والنصل
تجر بحوراً من بني العرب ترتمي بأمواج آفات هي الضرب والقتل
إذا صففت تحت العقاب جنوده تخال جبالاً فوقها شعل شعل
وإن زحفوا يوم اللقاء حسبتهم سيول خيول برقها يبرق يعلو
كأن مثار النقع في حومة الوغى غيوم بها برق الصوارم ينهل
إمام الهدى نافي الردى قاهر العدا فدونك عجل قد تطاولنا الذل
تجد من بني الإسلام أخلص عصبة جحاجح أبطال متى قلت لا يألوا
هم القوم إن قالوا فثق بمقالهم فلا شك عندي أن سيعقبه الفعل
وإن عطفوا بعد الفراغ إلى الحمى رأيت وجوه الحق بالبشر تنهل[2]

ثم ينتقل بعد هذه الإشادة بالمجاهدين، إلى تقريع الفرنسيين الذين نعتهم بـ «الشياطين» لأنهم ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء، وأصلوا أهل البلاد الأصلاء ناراً حامية، فنراه يتولاهم بالوعيد والتعنيف حيث يقول:

رويدكم أهل الجحيم فإنه سيبدؤكم منه الذي كان من قبل
فينسى فرنسيساً بتونسه أنسه ويحرز كفراً بالجزائر قد حلوا
فتطهر أرض طالما قد تنجست فأفعالهم سيل الدماء لها غسل[3]

وشارك هذا الشيخ الجليل في الجهاد ضد إيطاليا واستولى على قلعة «القاهرة بسبها».

واستمر ابنا محمد عبد الله السني يقودان ضد إيطاليا حيث تولى المهدي قيادة الجهاد في فزان، وأحمد قيادته في منطقة الجبل الغربي إلى أن ضعفت المقاومة، وانتقل المجاهدون إلى فزان، وفي أوباري قدم الشيخ محمد بن عبد الله السني إلى الأسرة حيث التقى بها بعد غياب دام ثلاثين سنة، ولكن الإيطاليين طوقوهم في أوباري حوالي 1930م، وحكم على الشيخ وأبنائه بالإعدام، ولكن عفواً عاماً شملهم فوضعوا جميعاً تحت الإقامة الجبرية بمزدة بعد أن صودرت ممتلكاتهم وأحرقت مكتبة مزدة[4]، وفي عام 1932م توفي محمد عبد الله السني رحمه الله ويعتبر هذا

---

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص218، 219.

(2) انظر: مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسات الجهاد، عدد1، ص93.

(3) المصدر السابق نفسه، عدد1، ص93.

(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص219.

العالم والمجاهد الكبير من شعراء الحركة السنوسية، وقد تعرض الأستاذ محمد مسعود جبران لهذا الجانب على قلة ما وصل إليه من شعره وقال: «في الحق إن شعره - على قلته - استطاع أن يرسم لنا إلى حد ما شخصيته، ويصور لنا جوانب من أخلاقه ومثله التي كان يؤمن بها، في الاعتزاز بالدين، والذود عن العرين، وفي شوقه وحنينه للمدارج التي تربى بها، والبوادي التي كبر بين أحضانها، ويبين عن العهود التي وثقت صلاته بالعلماء والمجاهدين..»[1].

ومن قصائده التي يصف فيها مقاومته في الصحراء ونصبها وعنتها قوله:

يا من لهم همم نأى مقصودها ... مجرى المطي إلى المرام يذودها
متحيراً من عز مشرقة الذرا ... عنسا عياهل في رضاك يقودها
ورمى بها الدهناء يرقل مذئباً ... يطوي بنص اليعملات بعيدها
ويفل بالعزم المجد مجاهلاً ... بيت القطا أغوارها ونجودها[2]

إن هذا العلم الشامخ، والبحر الزاخر، والشاعر الموهوب، والداعية المتفاني، والمجاهد الشجاع، كان من القادة التابعين لقيادة الحركة السنوسية، ومن الذين أفنوا حياتهم وجهادهم في هذا الطريق المبارك، ساهمت الحركة السنوسية في تربية بعض القيادات الميدانية التي شاركت في دفع حركة الجهاد ضد فرنسا ومن أشهرهم:

ثالثاً: عبد الله فضيل الطوير الزوي:

تولى قيادة الزوايا السنوسية في شمال تشاد، وكان على رأس المجاهدين الذين تصدوا للغزو الاستعماري للمنطقة، وخاض عدة معارك موفقة، وسقط من زملائه العشرات من المجاهدين، وسقط في معركة العلالي وحدها 5/ 12/ 1902م مائة شهيد من الليبيين كان من بينهم ستون من قبيلة زوية وحدها، قبيلة عبد الله الطوير، وفي معركة أم العظام شمال تشاد سقط عبد الله شهيداً - عليه رحمة الله - في عام 1906م مع مجموعة من المجاهدين عليهم رحمة الله جميعاً.

رابعاً: البراني الساعدي:

هو من كبار العلماء المتفقهين في الشريعة، من قبيلة زوية، أسس زاوية شرقي السلوم، بأرض مصر عرفت باسمه إلى الآن «سيدي البراني» ثم انتقل إلى الجنوب، حيث قاد الجهاد في الصحراء الكبرى ضد الغزو الفرنسي، ومن كبار قادة المجاهدين في مناطق كانم وشمال تشاد،

---

(1) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير، 1984م، ص71 إلى 101.

(2) المصدر السابق نفسه، ص90.

دخل إلى الصحراء الكبرى من الكفرة في عام 1318هـ، واستطاع أن يقود دوراً جهادياً عُرف في المنطقة باسمه «دور البراني» وألحق الفرنسيين عدة هزائم منكرة في بئر العلالي، وقد اعترف الفرنسيون له بالبراعة، وإجادة التنظيم، واستطاع أن يصدهم في «عين كلكا» التي تولى تنظيم المجاهدين بها، واستشهد عام 1907م في معاركه ضد فرنسا[1].

خامساً: غيث عبد الجليل سيف النصر:

هو شيخ قبيلة أولاد سليمان الليبية والمتواجدة في منطقة كانم، اصطدم مع الفرنسيين ساعة وصولهم للمنطقة 1899م، ونشبت بينه وبينهم معارك طاحنة، قاد غيث الجهاد ضد الفرنسيين، وحطم التقدم الفرنسي في بئر العلالي في معركة 22/ 11/ 1899م، وسحق القوة الزاحفة، كما نشبت معركة أخرى يوم 4 يناير 1900م بقيادة غيث ضد الفرنسيين قُتِلَ فيها خليفة حاجي[2].

يقول سعيد الحنديري: «كما سعى الفرنسيون إلى الوصول مع غيث إلى اتفاق لإنهاء المقاومة في كانم خاصة، وأن الوضع أصبح مشجعاً للفرنسيين بعد مقتل حاجي حليف غيث، لكن الأخير رفض اللقاء بالفرنسيين وكوّن دوراً من قبائل القذاذفة، وورفلة، والمغاربة، مع بعض القرعان، والتوارق، تقدرها المصادر الفرنسية بخمسة آلاف رجل، لقد استشهد غيث عبد الجليل في معركة بئر العلالي في يوم 9/ 11/ 1901م[3].

سادساً: محمد بو عقيلة الزوي:

من أفراد قبيلة زوية التي لعبت دوراً مهماً في الحرب الصحراوية ضد القوات الفرنسية، ونظراً لنشاطه وشجاعته، وحسن تدبيره عينه أحمد الشريف قائداً لحصن علالي بدلاً من البراني الساعدي الذي عُيِّن في الشمال[4].

«لقد كان بو عقيلة ذكياً بارعاً في فنون القيادة، والحرب، فشهد له أعداؤه بذلك، يقول فرندي على سبيل المثال: «كان بو عقيلات جندياً عظيماً قادراً على تدارك المواقف في الوقت المناسب»[5]. لقد قاد هذا القائد قبائل التوارق، أولاد سليمان، والقذاذفة، والمغاربة، وورفلة، وزوية في جهاده ضد فرنسا، واستشهد في معاركه ضد فرنسا في 5/ 12/ 1902هـ[6].

---

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص222، 223.

(2) المصدر السابق، ص227.

(3) انظر: العلاقات الليبية التشادية، ص81، 84.

(4) انظر: جهاد الليبيين، ص233.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) انظر: المصدر السابق، ص234.

سابعاً: صالح بو كريم الزوي:

تولى تنظيم حركة الجهاد بشمال تشاد، وكانت معه قبائل المجابرة وورفلة وأولاد سليمان، والقرعان، والقذاذفة.

وكان أحمد الشريف قد نجح في إقناع سلطان واداي بسحب اعترافه بفرنسا واحتلاله لمنطقة كانم، وباقرمي، وأعلن الجهاد ضد فرنسا في مناطق تيبستي 1903 - 1909م وساند صالح بو كريم سلطان تيبستي داود ضد قائد الفلاتة ميتونة حليف فرنسا، واستطاعوا الانتصار عليه والقبض عليه وإعدامه بتهمة الخيانة العظمى، ومناصرة العدو الكافر ضد المسلمين، وكان ذلك في معركة ألتكو، وقاد معركة بسكرة ضد الفرنسيين وقد سقط فيها عدة شهداء، وساهم صالح في قيادة معارك 1910م - 1911م - 1912م - 1913م ضد الفرنسيين(1).

ولما أعلن أحمد الشريف الجهاد ضد إيطاليا ورجوع قوات المجاهدين إلى الشمال كان صالح بو كريم من ضمنهم.

ثامناً: كيلاني الأطيوشي المغربي:

هو شيخ قبائل المغاربة، ساهم في تمويل الجهاد ضد فرنسا في المناطق الشمالية من تشاد، وكانت قبيلته من القبائل المتميزة في حركة الجهاد ضد فرنسا، عينه الأتراك قائمقام على الكفرة عند انسحابهم من منطقة الجنوب، وأصبح المشرف الإداري على امتداد الصحراء الكبرى الشرقية، وتمويل حركة الجهاد الليبي فيها، ولقد توفي الكيلاني بالعطش عندما رحل باتجاه إجدابية ليشارك في صد الطليان(2).

تاسعاً: عابدين الكنتي:

هو عابدين بن محمد الكنتي، أحد شيوخ قبيلة كنته في منطقة تينبكتو، والذي ورث المشيخة عن والده الذي ينحدر من أسرة عربية يصل نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا ومؤسس القيروان، وقد تلقى عن الشيخ محمد المهدي الانتساب إلى الطريقة السنوسية، وأصبح مقدم السنوسية في منطقة تينبكتو، وصحراء مالي الشمالية، ولهذا أعلن الجهاد ضد فرنسا في صحراء مالي، وشمال موريتانيا، والساقية الحمراء، إلى جنوب المغرب بوادي نون عند أخواله قبيلة «تكنة»، وجنوب الجزائر لدى توارق الهقار الذي يقدرونه لنسبه الشريف، ولعلمه وتضلعه في الدين، واستمر في جهاده ما بين 1982م إلى 1917م، يهاجم القوات الفرنسية في مناطق صحراء مالي، وجنوب الجزائر متحالفاً مع الخليفة ولد محمد، ومتصلاً بالليبيين في

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص235.
(2) المصدر السابق نفسه، ص236.

جنوب الجزائر وبمركز الحركة السنوسية في الكفرة، واستمر عابدين يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا في جنوب المغرب، وشمال موريتانيا وجنوب الجزائر، وشمال مالي، وشمال النيجر، لقد قال العقيد الفرنسي كلوب عند مغادرته تينبكتو في عام 1899م «الموت وحده الذي سينقذنا من عابدين»[1].

توفي عابدين مجاهداً في جنوب المغرب في أثناء الحرب العالمية الثانية، لقد استمر يجاهد في الصحراء الكبرى قرابة نصف قرن دون أن يهادن، أو يرمي السلاح، لقد كان هذا المجاهد من مالي، وينتسب للحركة السنوسية[2].

هؤلاء من أشهر القادة السنوسيين الذين قادوا حركة الجهاد ضد فرنسا.

إن الغزو الإيطالي جعل القيادة السنوسية تنقل ثقلها نحو الشمال، وإن كانت حركة الجهاد ضد فرنسا استمرت بقيادة القادة السنوسيين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وفي فترة زعامة أحمد الشريف كان يشرف بنفسه على حركة الجهاد ضد فرنسا، وكان يحث التجار على السفر إلى السودان بتجارتهم سيما الأسلحة، ويقول لهم: إنها من أربح التجارة، وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وفي مكاتبته عام 1328هـ طلب منهم أن يبعثوا بألف وخمسمائة بندقية ثمنها من جيبه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين في السودان، وقد وردت عنه هذه الكلمة: «ليس عندي صديق أعز ممن يساعدني بالسلاح»[3].

---

(1) انظر: جهاد الليبيين، ص239 إلى 241.

(2) المصدر السابقة نفسه، ص242.

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص245.

المبحث الثالث
الغزو الإيطالي

تمهيد:

في خلال فترة 1882 - 1896م تزايدت النشاطات التبشيرية الإيطالية في ولاية طرابلس، وخاصة في مجال التعليم، وأقبل بعض الضباط العثمانيين على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، فأصدر الوالي كمال باشا 1893م - 1908م قراراً في 21 يوليو 1898م منع بموجبه أبناء ضباط الجيش العثماني من الانتساب إلى هذه المدارس وضرورة تحويل أبنائهم إلى المدارس الحكومية العثمانية، ومما جاء في القرار على لسان السلطان قوله: «لقد علمت أن الضباط يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية، وحيث أن الحكومة قد فتحت العديد من المدارس التي تسير على المنهج السليم، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لإرسال أبناء الضباط إلى المدارس الأجنبية ويمنع هذا رسمياً»[1].

استمرت إيطاليا بمحاولاتها الرامية لتأكيد مظاهر نفوذها في ولاية طرابلس وساهمت صحافتها في ذلك عن طريق مجاهرتها بالدعوة إلى احتلال الولاية، والتقليل من شأن العثمانيين، والطرابلسيين، برغم عدم أهليتهم لحكم الولاية وإدارتها[2]، فاجتمع من أهل الولاية جمع غفير، وأرسل نحو خمسين من أعيانهم رسالة بالتلغراف إلى إستانبول يظهرون فيها استياءهم من لهجة الصحف الإيطالية، ويبدون فيها استعداداتهم للدفاع عن وطنهم تحت راية الخلاف العثمانية، ومما جاء في الرسالة: «أن أهالي طرابلس الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية الذي هو أعظم من حياتهم وأنهم لا يثنون عن الدفاع في هذا السبيل، ولو انثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها. . وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا - وبكل سرور - آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس وطنهم أعداء السلطة العثمانية[3].

وهذا الخطاب يدل على مدى ارتباط المسلمين في ليبيا بالخلافة الإسلامية وعلى أصالتهم في مكافحة وجهاد عدوهم وعلى حبهم للموت في سبيل الله وصد كل عدو يفكر في الاعتداء على أراضيهم والنيل من مقدساتهم، ولا زالت هذه المعاني تجري في دماء الأحفاد الذين

(1) انظر: التعليم في ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل، ص301.
(2) انظر: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص14.
(3) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص14، 15.

ورثوها من الأجداد من أصالة وديانة وشرف، قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34]. عينت الدولة العثمانية رجب باشا (1904 - 1908م) والياً على طرابلس، وكان من أشد الناس وطأة على سياسة إيطاليا، وعهده كان متميزاً بالنشاط والصلاح «ووقف للسياسة الإيطالية في كل طريق، وما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفاً لها بالمرصاد»[1].

ومع هذا لم تتوقف المساعي الإيطالية للتغلغل في طرابلس وبرقة، وكانت معظم البعثات الإيطالية التي قدمت إليها في تلك الفترة، قد قامت بزيارتها بناء على مبادرة من الجمعية الإيطالية للاستكشاف الجغرافي والتجاري التي كانت مدينة ميلانو مركزاً لها، وبإيعاز من رئيسها «كامبيريو» مدير بعثات كثيرة منها بعثة «مانفريد كامبيريو»، و«جوزيتبي هايمان» في سنة 1881م و«بيترو» عام 1882م، 1883م «بنيشة» في عام 1895م «فينا بيادي ديني»، و «بيدويتي» في سنة 1901م، و«هابنهير» و«دي سانكتيس» في سنة 1910م وغيرهم كثير، وبعض هذه البعثات أحدثت ضجة واسعة، إذ أن أعضاءها قد سجنوا من قبل الأتراك الذين لم يطلقوا سراحهم إلا في نوفمبر 1912م[2].

قام أول هؤلاء المبعوثين «كامبيريو» في سنة 1880م برحلة إلى طرابلس وزار خلالها الخمس ومسلاته، وعند عودته إلى ميلانو طلب من جمعية الاستكشاف الإيطالية إرسال جواسيس إلى برقة لإقامة مراكز تجارية في بنغازي، ودرنة كنقط انطلاق، وقامت البعثات الإيطالية بالتجسس على أوضاع ليبيا الاقتصادية والزراعية، وقامت بدراسة قرى بنغازي وتوكره، والمرج، ودرنة، وشحات، وطلميثة، وطبرق، وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على أحوال ليبيا وعادات الشعب، وطريقة حياتهم، ثم عادوا إلى إيطاليا وقد رفعوا أبحاثهم إلى السلطات الحاكمة، وألقوا المحاضرات والخطب الرنانة لتشجيع حكوماتهم وشعبهم على احتلال ليبيا[3]. لقد تمكنت من فتح بنك روما في طرابلس وأنشأت فروعه في ليبيا، وبنت المصانع، والمدارس، ودرست الأوضاع بعناية، وأرصدت الأموال لذلك.

يرى الباحث أنهم استمروا أكثر من ثلاثين سنة وهم يجمعون المعلومات ويرسلون الجواسيس ويخططون لغزو البلاد، ويتوغلون في المجتمع بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية... إلخ، لغزو ديار المسلمين، وهتك أعراضهم وتدمير بلادهم، وقتل أشرافهم، وسبي نسائهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217].

---

(1) انظر: ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، أحمد الدجاني، ص165.

(2) انظر: الحوليات الليبية، شارم فيرو، ص792.

(3) انظر: العدوان الحرب بين إيطاليا وتركيا، محمد بازمة، ص80.

وفي سنة 1900م قامت شركة «روباتنيو» للملاحة بمد خط بحري منتظم مع مدينة طرابلس، وفي ديسمبر من نفس السنة أبرم بين فرنسا وإيطاليا اتفاق، تم التأكيد عليه مجدداً في مايو سنة 1902م وهو عبارة عن بروتوكول يقضي بعدم تدخل متبادل بين الدولتين، وبموجبه أعلنت إيطاليا أنها لن تكون لها أي مطامع استعمارية في مراكش، وأعلنت في مقابل ذلك أنه لن تكون لها هي الأخرى أية مطامع استعمارية في طرابلس، وفي سنة 1907م فتح مصرف روما فروعاً له في طرابلس، فاستثمرت بها رؤوس أموال، وأنشئت مصالح إيطالية، كما تم تطوير الخطوط المحلية معها، والمدارس الإيطالية فيها، وأخذت الحكومة تشجع وتدعم مشاريع مواطنيها الذين كانوا يصطدمون باستمرار بالعقبات التي تواجههم في طريقهم[1].

كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جهداً كبيراً على مستوى الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في دواخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام 1911م.

أولاً: الهجوم الإيطالي على ليبيا:

كانت الدولة العثمانية تعاني اضطراباً خطيراً في أوضاعها الداخلية والخارجية بسبب الانقلاب الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي ضد ضد السلطان عبد الحميد سنة 1908م، وكان ذلك الانقلاب المشؤوم مدفوعاً من قبل اليهود، والماسونية والدول الأوروبية، وكان السلطان محمد رشاد ألعوبة في يد جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن السلطان محمد رشاد بأوفر حظاً من سابقيه، لأن النظم التقدمية الخيالية التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي قيدته، كذلك فإن قادة الانقلاب غالوا في نزعتهم القومية وأفرطوا في سياسة التتريك التي نادوا بها[2]، وساهموا في ضياع ليبيا.

يقول الأستاذ محمود الشاذلي: (لعب «قره صو» أحد قادة الاتحاد والترقي في أيامها الأخيرة (1909 - 1918م) دوراً رئيسياً في احتلال إيطاليا لليبيا وكان يشغل وظيفة مفتش إعاشة، واضطر نتيجة لخيانته أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريستا حيث مات 1934م)[3].

(1) انظر: حوليات ليبيا، ص793.
(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص48.
(3) انظر: المسألة الشرقية، ص202.

وأما متر سالم اليهودي الماسوني فيتحدث عن دور الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية»، ترجمة: نور الدين رضا الواعظ، سليمان أمين القابلي: «أن طرابلس الغرب «ليبيا حالياً» التي تعتبر موطن أخلص أبناء الدولة العثمانية، قد وقعت في مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة، دبرها اليهودي الماسوني «متر سالم» الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، ورسما الخطط اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودي «متر سالم» لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى إستانبول بحجة التغيير والإصلاح، وبمساعي الماسونيين أيضاً سيقت قطاعات الجيش إلى اليمن، وهكذا سلمت البلاد الطرابلسية «ليبيا» لقمة سائغة للطليان..»[1].

وكانت وزارة إبراهيم حقي الاتحادية متواطئة مع إيطاليا الذي ربطتهم به المال، فضاع كل أمل أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئاً من عناية الدولة واهتمامها بها، لقد قامت حكومة السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ الأهبة لرد أي اعتداء على الولاية، وأرسل إليها السلطان قائداً من خيرة قواده، هو رجب باشا الذي: «أطلقت يده في شؤون الولاية الإدارية والعسكرية، فمرن أهلها على الأصول الحربية ووزع على شبابها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر، حتى أصبح عدد الجيش المرابط في طرابلس حوالي خمسة عشر ألفاً، وهذا عدا الفرق غير النظامية، «قول أوغلي» من الأهلين العرب، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفاً ومهمتهم معاونة الجيش النظامي، فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين قد يقومون في وجه الحكومة إذا طلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية، وانتهزت وزارة حقي باشا فرصة استفحال أمر الثورة في اليمن، فسحبت معظم جيشها النظامي من طرابلس الغرب لاستخدامه في إخماد هذه الثورة، على أنها لم تكتف بذلك، بل أهملت كل الإهمال الفرق الأهلية، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من خمسة آلاف مقاتل فقط، ومع أن أهالي البلاد طلبوا الانتظام في سلك الجندية بعد إعلان الدستور العثماني، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ما طلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الإيطالي لفترة قصيرة، ولم تبدأ الإجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها، وزيادة على ذلك فقد نقلت الحكومة العثمانية حوالي أربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهلون عند الطوارىء، ثم لم تفعل شيئاً من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها[2] واستغلت إيطاليا نشوب الأزمة المراكشية،

---

(1) المسألة الشرقية، ص201.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص115.

وعمدت إلى توقيت البدء بالعمل العسكري ضد ليبيا، فوجهت إنذاراً إلى الحكومة العثمانية تضمن التالي:

1 - تذكير إيطاليا المستمر للباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والإهمال اللذين تركت فيها طرابلس وبرقة من قبل الحكم العثماني، وهو وضع ترى إيطاليا ضرورة تعديله وفقاً لمقتضيات المدنية والمصلحة الحيوية لإيطاليا بحكم قرب سواحلها من أراضي الولاية.

2 - إن مساندة الحكومة الإيطالية الدائمة للإمبراطورية العثمانية في كثير من المسائل السياسية حتى في الفترة الأخيرة قوبلت بتجاهل رغبات إيطاليا في ولاية طرابلس وبمعارضة أنشطة الإيطاليين فيها.

3 - رفض الحكومة الإيطالية لاقتراح إستنبول بإجراء مفاوضات تمنح بمقتضاها إيطاليا امتيازات اقتصادية في الولاية «وتحتفظ لإستانبول شرفها ومصالحها العليا» لأنها تعتقد بأن تجارب الماضي أوضحت عدم جدوى مثل هذه المفاوضات التي قد تطرح أموراً تصبح محل نزاع أو احتكاك جديد.

4 - الأدعاء بأن قناصل إيطاليا في طرابلس وبرقة تصور «خطورة الحركة السائدة ضد الإيطاليين والتي خلفها فيما بعد ضباط وهيئات أخرى من السلطات المحلية»، وهي خطورة ليست قاصرة على الإيطاليين وحدهم، بل على جميع الأجانب مما دفعهم لمغادرة البلاد.

5 - إن الحكومة العثمانية ترسل الناقلات العسكرية لتزيد من تأزم الموقف في البلاد، الأمر الذي يدفع إيطاليا لاتخاذ التدابير اللازمة ضد هذا العمل.

6 - قررت الحكومة الإيطالية الإقدام على احتلال طرابلس عسكرياً لأن ذلك الحل الوحيد الذي يمكن أن تقبله إيطاليا.

7 - تطلب الحكومة الإيطالية إصدار الأوامر للممثلين والسلطات العثمانية في الولاية بعدم مقاومة الغزو، ومن الممكن الاتفاق على تنفيذه دون أية عراقيل وستتخذ بعده بالقرارات اللازمة لتسوية الحالة التي ستنتج عنه[1].

قام السفير الإيطالي بتسليم مذكرة الإنذار لرئيس الحكومة العثمانية حقي باشا الذي دعا وزارته للانعقاد وبحث الأمر معها، ثم عرض الموقف على السلطات، وتضمن الرد العثماني إلقاء مسؤولية التخلف الذي شهدته الولاية على حكومات العهد السابق، ونفي وجود أي عراقيل تحول دون الفعاليات الإيطالية في الولاية، وحرصت الحكومة العثمانية على تلبية

---

(1) انظر: الغزو الإيطالي إلى ليبيا للبوري، ص282، 283.

الطلبات بصورة دائمة، وأن الاحتجاجات المقدمة إليها من قبل سفارة دولة إيطاليا نفذت بالكامل، وأعطيت تعليمات مشددة لولاتها العاملين في الولاية، وبينت الحكومة التركية أنه لا مانع لديها من العمل على تقديم امتيازات اقتصادية واسعة لدولة إيطاليا في ولاية طرابلس الغرب[1] ومع هذا كله، فقد ادعت الحكومة الإيطالية أن رد الحكومة العثماني تأخر، فأعلنت الحرب على ليبيا، علماً بأن بوارجها الحربية تحاصر الشواطىء الطرابلسية منذ منتصف شهر أيلول «سبتمبر»؛ أي قبل إرسال الإنذار إلى الحكومة العثمانية بثلاثة عشر يوماً، ولهذا كلفت بارجاتها بقصف السراي الحمراء الكائنة في مدينة طرابلس[2]، وكانت الأساطيل البحرية تقصف في مدينة طرابلس.

ثانياً: الجهاد في طرابلس وفزان:

رغم ضآلة وضعف الإمكانات العسكرية للولاية، فقد تبنت مدفعيتا القلعتين «السلطنة والحميدية» الرد على القصف لتغطية انسحاب الحامية العثمانية والمجاهدين إلى الداخل، وبصعوبة بالغة استمرت مدفعية الولاية تناوش الإيطاليين حتى الثالث من شهر تشرين الأول، وتحسباً من تعريض الجاليات الإيطالية للأذى وعدم تعرض قواتهم لأي خطر مفاجىء، تأخر الإيطاليون في عملية الإنزال البري حتى الخامس من الشهر نفسه.

وأصدر قائد الحملة الجنرال «كارلو كانيفا» بياناً باللغة العربية يخاطب سكان طرابلس جاء فيه: «ماذا يصدكم عن القدوم إلينا؟ أما يهمكم رعي مواشيكم وتعاطي تجارتكم آمنين؟ نحن أصحاب دين من أهل الكتاب وأحرار، واعلموا أن دولة إيطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهي طرابلس الغرب، فاقدموا إلينا بلا خوف، وبكمال الأمان، ونحن نؤكد أنه ليس من يؤذيكم وما من يسيء إليكم أو يضركم بأدنى شيء، فإن المال لا يذكر، واعلموا أن كل من يأتي إلينا ببارودته مع المهمات نحسن إليه بعشرين فرنكاً مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء، أما رؤساؤكم الدينيون والسياسيون فإن الحكومة الإيطالية تقبلهم وتؤيدهم بالصفة التي كانوا عليها قبلاً، بل يعين لهم رواتب ومعاشات وناهيكم أن الكلام واحد والله سبحانه وتعالى كريم، فاطلبوا إليه عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو يخلصكم»[3].

ولم يكتف الجنرال كارلو كانيفا به، بل أصدر عدة بيانات منها:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء، وصلى الله عليهم وسلم أجمعين.

---

(1) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص50.

(2) انظر: الحوليات الليبية، شارل فيرو، ص51.

(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص52.

يأمر ملك إيطاليا المعظم فكتور عمونيل الثالث نصره الله وزاد مجده أنا الجنرال كارلوس كافينا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليه محو الحكومة التركية من طرابلس، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها، بناءً عليه أعلن للشعوب بأجمعهم القاطنين في المقاطعات المنوه عنها من شاطىء البحر إلى آخره والحدود الداخلية الذين يملكون بيوتاً في المدن وبساتين وحقولاً ومراعي حول المدن نفسها أو بعيداً عنها ما يلي: إن العساكر الخاضعة لأمري لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا حماه الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس، وبرقة، وفزان، والبلاد الأخرى التابعة لها التي لا توجد الآن تحت سيادة الأتراك، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم، وتجعلهم أحراراً يحكمون أنفسهم وتحميهم من كل من يعتدي عليهم سواء كان من الأتراك أو أي شخص كان يريد استرقاقهم، وعليه فأنتم يا سكان طرابلس وبرقة وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]. وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامي حرسه الله، واعلموا أن ستبقى الشرائع الدينية والمدنية محترمة وتحترم الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر؛ لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهي تحسين حالتكم والعمل على استتباب راحتكم ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغراء، والسنة المحمدية السمحاء، وسيقضي بينكم بالعدل طبقاً للشريعة الغراء وحسب أوامرها بواسطة قضاة اشتهروا بثقافتهم في الشرع ذوي استقامة وسيرة حميدة، كما أنه لا نغض الطرف عمن يظلم من الرؤساء، ولا نغفر غشاً أو خداعاً من أحد من القضاة، فالكتاب والسنة فقط تقضي عليكم، واعلموا جيداً أنه لا تؤخذ منكم ضرائب لتصرف خارجاً عن بلادكم، والضرائب التي لا توجد الآن عليكم، ننظر فيها وتنقضي أو تلغى كما يقتضي العدل، واعلموا جيداً أنه لا يدعى أحد منكم للخدمة العسكرية بالرغم عن إرادته وفقط يقبل بها أولئك الذين يرغبون الانضمام تحت اللواء الإيطالي باختيارهم لأجل حماية النفوس والأملاك، ولكي يتكفلوا للبلاد السلم والنجاح، وأما الآخرون فيبقون في بيوتهم منعكفين على العمل في الحقول ورعاية المواشي أو معاطاة التجارة، الصناعة، والحرف الضرورية، لقيام الحياة، وعلى هذا فكل امرىء يمكنه الصلاة في معبده حسب تعليم دينه، يلزمكم أن تتضرعوا لله عز وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالي، ومجد ملكه، لأنه أخذكم تحت ظل حمايته، والإيطاليون يرمون بأن يكون اسمهم مهاباً من جميع أعدائكم، وأما منكم فقط، فيكون محبوباً ومباركاً.

وبناءً عليه وحسبما خولني جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته أعلنتكم بما تقدم، وسيجري مفعوله من هذا اليوم من شهر شوال سنة 1329هـ، ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلية التي ستوجه بين الحامية، والمجتمعين، وبين الإيطاليين وسكان هذه البلاد، والتي

واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبي، لأنه سيكون قانوناً يجب أن يحفظ بأمانة، واستقامة ضمير، وشهامة من كلا الطرفين، وإذا وجد من لا يحترم الشرائع ولا يعتبر الأشخاص أو يمس حرمة النساء، أو يخترق حرمة الملك، أو يقاوم، أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى هذه البلاد، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر قبلها ممن يمتلك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيماً، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي لنبراس العدل والحق، فيا سكان طرابلس، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها: اذكروا الله قد قال في كتابه العزيز: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، وقد جاء أيضاً: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61] وجاء أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] أي الذين يصلحون الأرض، ويمنعون منها الفسادوينشرون فيها العدل والعمران، وجاء أيضاً: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: 38][1] أي: لا تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس وتقاتلوا بعضكم بعضاً، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم وجاء أيضاً: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، وجاء أيضاً: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، فإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يرى، فهو مالك الملك وهو على كل شيء قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته في ملكه لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناءً عليه يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية، وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء، فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم، ويخفق فوقها العلم المثلث «أبيض وأحمر وأخضر» إشارة إلى المحبة والإيمان[2].

وللأسف الشديد كان كاتب هذا المقال شيخاً من العلماء المحسوبين على الأزهر الشريف، وكتب ذلك مقابل عرض من الدنيا زائل، ولقد تأثر بهذا المنشور ممن لا عقيدة واضحة في ذهنه، وممن لا يعرف ضروريات ديننا الإسلامي العظيم، وغاب عنه حقيقة الصراع بين عقيدة التوحيد الصافية النقية، وبين عقائد النصرانية الفاسدة، بأنواعها المتعددة.

لقد لجأت إيطاليا إلى المكر والخداع، وبث الفرقة بين أهالي ليبيا، والأتراك المساندين

---

(1) انظر: مجلة المنار، محمد رشيد رضا، ج12، م14، ص636، وكذلك جهاد الأبطال، ص52.

(2) المصدر السابق نفسه، ج12، ص636.

لهم ودعت إلى الانفصال عن العثمانيين عن طريق المنشورات، وكانت الطائرات الإيطالية تلقيها على المعسكرات العربية، سارع أهالي ليبيا لإثبات ولائهم للدولة وأرسلوا برقية للحكومة في الأستانة نقلتها بالنص جريدة «صباح» التركية، جاء فيها: «نحن العرب أبناء هذا الوطن العثماني المقدس نفديه بالمهج ولا ننفصل عنه، ولو أراد هو الانفصال عنا، وإنا لمدينون في حياتنا القومية واتحادنا للجنود العثمانيين وضباطهم البواسل، على أن ما نبذله وما سنبذله أيضاً من المهج والمال في الذب عن حوضنا لم نبذله طوعاً لأوامر إخواننا الجنود، بل رغبة بالاحتفاظ بكياننا، وإننا نجل هذه الرغبة، لأنها كانت سبباً في شد أواصر الأخوة بيننا وبين إخواننا العثمانيين، فلهذا نعلن الحكومة الأستانة وسائر إخواننا العثمانيين أننا مستعدون لبيع أرواحنا وأرواح أبنائنا على بساط هذه السهول، والرمال المحرقة، دفاعاً عن بلادكم التي هي بلادنا؛ لأننا متأهبون للموت حتى لا يبقى منا فرد، والله لا يهدي كيد الخائنين»[1].

ولقد فاخرت جريدة «طنين» التركية بهذه البطولات التي تتفجر من العرب في حرب طرابلس، مشيرة إلى أن: «إخواننا العرب فعلوا المعجزات، فبيضوا صفحة تاريخنا، وعجز إيطاليا في الحال وفي الاستقبال بات أمراً محققاً، . . . وبعد ما حالف النصر العرب الذين أبلوا بلاءً حسناً، . . فلتعلم أوروبا هذا والسلام»[2].

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يدرك مدى الولاء الذي يحمله العرب في طرابلس للدولة العثمانية، وفي مقدمتهم السيد أحمد الشريف السنوسي، لهذا كان متفائلاً جداً في تصريحه الصحفي الذي أدلى به لمجلة «نور إندسون» الألمانية، وأكد فيه أن الإيطاليين سيجدون مقاومة عنيفة من قِبل السنوسيين وأتباعهم، وستكون خسائرهم فادحة وحساباتهم خاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قد أمنت لهم ما يكفيهم من البنادق والمدافع لكي يقووا على المقاومة والدفاع عن وطنهم[3]، وهذا القول هو ما أكده السفير البريطاني في الأستانة السير جيرارد لوثر في التقرير السنوي لسنة 1912 الذي بعثه لوزير خارجيته في 17 أبريل 1913م[4].

ثالثاً: العنف الإيطالي والمقاومة:

كانت بيانات الجنرال كارلو كانيفا تدعو الشعب الليبي إلى التزام الهدوء، وكانت مليئة بالكذب والنفاق والتضليل، والمجزرة التي ارتكبها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني

---

(1) انظر: جريدة المقطم، عدد 6941، في 9 صفر 1330هـ.

(2) انظر: جريدة المقطم، عدد 6980، في 25 ربيع الأول 1330هـ.

(3) انظر: جريدة الأهرام، عدد 10613، في 21 صفر 1331هـ.

(4) انظر: حروب البلقان، عايض الروقي، ص102.

بحق سكان المنشيئة في مدينة طرابلس والتي ذبح فيها من 4 - 7 آلاف نسمة من بينهم الطفل والعجوز، ونفي تسعمائة شاب ليبي، وهتك الأعراض بدون سبب، لخير دليل على ممارسة الطليان المختلفة اللاأخلاقية، إزاء تلك الوحشية البغيضة، فقد قاوم الشعب المسلم الليبي تلك الوحشية بصمود سجل في صفحات التاريخ بماء الذهب الصافي.

ومما فجر الروح الجهادية لدى أهالي ليبيا، عجز إيطاليا عن احترام شعور الأهالي ومعتقداتهم، وأعطوا لهذه الحرب صبغة دينية واضحة، فقد بارك القسيس والبابا الحملة قبل سفرها من إيطاليا، وكان من أول ما قامت به بعد نزولها في مدينة طرابلس أن قامت صلوات الشكر لله على احتلال المدينة، وعلى وضع الصليب في مكان الهلال، وكان العمل في حد ذاته كافياً لإثارة كل مسلم في البلاد[1]، وكان النشيد الذي يردده الجنود الغزاة: «أماه صلي ولا تبكي، بل اضحكي وتأملي، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية.. سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا، تحمسي أيتها الوالدة، وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليّ، فأجيبيه مات في محاربة الإسلام»[2].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].

لقد تحرك نواب البلاد وزعمائها من ضواحي طرابلس نحو معسكرات الجهاد، واشتركوا في العمليات ونادوا على الأهالي بضرورة الخروج معهم، قام بأهم دور في هذه الحشود والاستعداد فرحات باشا نائب طرابلس، وسليمان الباروني نائب الجبل، وسيف النصر من زعماء سرت.

كان فرحات بك له نفوذ كبير في موطنه (الزاوية) وكان يقضي عطلته في الواحة وقت نشوب الحرب، فعرض خدماته على القائد العثماني، وكتب في نفس الوقت إلى المشايخ في الواحات محرضاً إياهم على القيام والالتفاف حول راية السلطان والدفاع عن البلاد، ورغماً من الدعاية المضادة التي كان يقوم بها بعض الشيوخ الموالين للإيطاليين في العاصمة، فإن نداءات فرحات بك قد نجحت وارتفع العلم العثماني في كل مكان، وكان فرحات بك أول متطوع انضم إلى العثمانيين مع عدد من المتطوعين من الزاوية، وزوارة، والعجيلات، وكان وصوله سبباً في تقوية الروح المعنوية لدعم الحامية العثمانية، التي كان يقودها نشأت بك[3] وتمركزت قوات المجاهدين في العزيزية للقيام بمهمة الدفاع[4].

(1) انظر: المغرب الكبير 3/ 767.
(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص47.
(3) انظر: المغرب الكبير 3/ 769.
(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص123.

أما سليمان بك الباروني نائب الجبل فقد كان يتمتع بعصبية أهل الجبل الغربي القوية مع حب الأهالي له، وكان يقضي عطلته في فساطوا وقت نزول إيطاليا في طرابلس وانسحاب الحامية العثمانية إلى الداخل، وقد اتصل كذلك بالقائد العثماني، ووصل بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين من مشايخ الجبل، وتفاهم مع نشأت بك ووعده بأن يواصل المتطوعون الحرب، وقد عاد إلى الجبل ودعا المشايخ المحليين واستنفزهم للحرب من أجل الإسلام ودولة الخلافة، ووجد نفسه على رأس ألف من رجال القبائل، وأسرع بهذه القوة إلى ميدان الحرب، ولم يترك القوات العثمانية منذ ذلك اليوم، ونتيجة لهذه المجهودات التي قام بها هذان الزعيمان في طرابلس أخذت جماعات الليبيين تصل إلى معسكرات الجهاد من نالوت وغريان.. وغيرها وصلت إلى عشرات الآلاف من المجاهدين[1].

رابعاً: أحمد الشريف يوجه أتباع الحركة للجهاد:

بعد وصول خبر احتلال إيطاليا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ، والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه»[2]، كانت القوة الإيمانية الدافعة تحرك أحمد الشريف نحو الجهاد، ولذلك رفض الخنوع والاستسلام للمحتل النصراني مهما كانت قوته وجبروته وعزته، ووصلت أوامر أحمد الشريف إلى رؤساء الزوايا والشيوخ، والأعيان التابعين للحركة في طرابلس وما حولها، يأمرهم بأن لا يتهاونوا وأن يستميتوا في قتال العدو المهاجم ومن هؤلاء الشيوخ:

* مصطفى أحمد الهوني رئيس زاوية هون.
* محمد بركات الشريف رئيس زاوية سوكنة.
* محمد علي الأشهب رئيس زاوية «واو» فزان.
* السني رئيس زاوية مزدة.
* عبد الوهاب العيساوي رئيس زاوية طرابلس.
* محمد علي بن الشفيع رئيس زاوية سرت.

وكتب إلى زعماء القبائل المبرزين كالشيخ سيف النصر زعيم قبائل أولاد سليمان، وورفلة، وغيرهم.

---

(1) انظر: المغرب الكبير (3/ 770).

(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 23).

وقام الشيخ محمد الأشهب بتنظيم معسكر من القبائل الفزانية، والتوارق، ورياح، والعرب المقيمين بإقليم فزان، وانضم آمود وكوسا من زعماء التوارق إلى معسكر محمد الأشهب، وقام المغاربة بتأسيس معسكر بالنوفلية وكان زعيمه عبد الله بن إدريس، وساعده صالح الأطيوش، وقام أولاد سليمان، وورفلة، والقذاذفة، بتأسيس معسكر تزعمه في بداية الأمر سيف النصر نفسه، ثم ابنه أحمد بك، ومعسكر من قبائل أولاد أبي سيف يتولى قيادته الشيخ السني، وأبو بكر قرزة[1].

وبذلك أصبحت المعسكرات بالمنطقة الغربية أربع تابعة للسنوسية قامت بدعم إخوانهم، والمشاركة معهم في الجهاد ضد إيطاليا، وقام الليبيون عموماً بتنظيم المعسكرات بضواحي طرابلس، وغريان والخمس ومصراته، كان صدور الدعوة إلى الجهاد من زعيم الحركة السنوسية أحمد الشريف بمثابة الشرارة التي أوقدت النار في طول البلاد وعرضها، فخف المجاهدون من أقاصي طرابلس وفزان، ثم من النيجر، وتشاد لمؤازرة إخوانهم المجاهدين في الجبل والغرب، وهي الجهات التي ظل زعماؤها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور الحركة السنوسية الانضواء تحت لوائها؛ ومع هذا فقد كان أحمد الشريف صاحب نفس عظيمة، همته في الجهاد والتغلب على العوائق التي تحيل دون وحدة الصف الإسلامي في بلادنا[2]، يقول الشيخ طاهر الزاوي عن أحمد الشريف: «فالسيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه»[3].

لقد تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير 1912م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب، فأصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين، وأهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة، وقد نقش نداء أحمد الشريف على راية من الحرير حملها المجاهدون في طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة في الجنوب خصوصاً، فكان من أثر هذا «النداء» أن تدفقت جموع المجاهدين على المعسكرات العثمانية في العزيزية وغريان، وعلى مراكز العرب في «سنيات بني آدم»، فكان المعسكر في «السنيات» بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات، وزنزور، ومصارته، وصرمان، وأولاد يوسف، وورفلة، وغريان، والجبل، والعزيزية، وأولاد

(1) انظر: برقة العربية، ص292.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص126.
(3) انظر: جهاد الأبطال، ص187.

سليمان، ومجاهدي فزان، والتوارق، ولم يكتف أحمد الشريف بذلك بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات المجاهدين في العزيزية، وفي 25 مارس 1912م وصلت نجدات أحمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف، وتحمل معها نبأ تحرك نجدات أخرى، لا تزال تجد السير في طريقها إلى معسكر المجاهدين، وكان يوم وصولها يوماً مشهوداً في تاريخ الجهاد في طرابلس.

وقد اعترف السلطان العثماني نفسه بهذه الجهود التي قام بها أحمد الشريف السنوسي، فأهداه في هذا الشهر «مارس 1912م» سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر مكافأة وتقديراً لجهوده.

بيد أن جهود الحركة السنوسية كانت أكثر وضوحاً وأعمق أثراً في سير الجهاد ضد إيطاليا في برقة، وهذا ما سنأتي على بيانه بإذن الله تعالى[1].

لقد أصبح العدو في حيص بيص، ولم يتمكن من احتلال الدواخل بعد الثغور التي احتلها الأسطول، واضطرت إيطاليا إلى إعادة حساباتها، ولكي لا تظهر إيطاليا أمام المجتمع الأوروبي السياسي منهكة، وأن قواتها غير قادرة على إخضاع ليبيا لسيطرتها، ولإخفاء فشلها لجأت إلى إصدار بيان تعلن فيه ضم ليبيا إليها وهدفت من ذلك البيان عدة أمور منها:

- إقناع الدول الأوروبية بأن إيطاليا قد ملكت زمام الأمر في ولاية طرابلس.

- وضع الإمبراطورية العثمانية أمام الأمر الواقع، وإجبارها على الاعتراف بسيادتها على ليبيا.

- إيقاف المعارك الحربية؛ لأنها ستصبح غير قانونية، أو شرعية في مواجهة الدولة الإيطالية صاحبة السيادة الجديدة[2].

إن قرار الضم الذي أعلنته إيطاليا، جعل الدولة العثمانية تعلن احتجاجها عليه، وعدت ذلك خرقاً صريحاً للقانون الدولي، وقد استندت الدولة العثمانية إلى نجاح المقاومة الجهادية، وعجز القوات الإيطالية عن تحقيق أي نصر[3].

وأبرق السلطان في 2 أكتوبر إلى ملك إنكلترا وإمبراطور ألمانيا وحكومات أوروبا، ورئيس الجمهورية الفرنسية، وبقية الملوك والقياصرة يطلب منهم فض النزاع القائم، وحقن دماء البشر، ولكن بدون جدوى، فقد اعتذرت كل هذه الحكومات عن عدم التدخل[4] وبذلك تكون الحملة الدبلوماسية المكثفة التي قامت بها الدولة العثمانية قد فشلت.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص126، 127.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص53.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص53، 54.

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص118.

فقد تخلت الدول الأوروبية كلها عن الدولة العثمانية، بدءاً بفرنسا التي أصدرت بياناً أعلنت فيه حيادها وعدم قدرتها على التوسط لإنهاء الحرب في الوقت الراهن، وسارت روسيا على نفس النهج، أما بريطانيا فرغم حساسية موقفها لا سيما أمام رعاياها في العالم الإسلامي، فإنه لم يطل ترددها لتعلن هي الأخرى ما أسمته بالحياد، ولكنه ليس حياداً بالمعنى الصحيح؛ إذ أنها أرغمت مصر على الحياد، وهذا فيه مساعدة لحكومة إيطاليا المعتدية[1].

لم يتمكن الإيطاليون من التقدم شبراً إلا بدفع ثمن باهظ، وبعد جهد جهيد، وتحمل الخسائر الفادحة، والضربات القاسية، ومعاناة الشدائد والأهوال تمكنوا بفضل قواتهم العديدة، والأسلحة الفتاكة، ومعاونة الأذناب من الاستيلاء على بعض الأماكن في دواخل البلاد، كالخمس ومصراته وزليتن وورفلة، وترهونة وزوارة، ثم تمكنت القوات الإيطالية من الوصول إلى هون ثم فزان، واستسلم بهذه المحلات المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وأما الباقون فقد انسحبوا إلى أماكن أخرى أمامية لمواصلة القتال، وقد استعمل الإيطاليون كافة الأساليب الوحشية في المواقع التي احتلوها خصوصاً في مدينة طرابلس[2].

ولقد خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا ومن أهمها: معركة طرابلس بتاريخ 8، 9، 10/ 1911م، وكذلك في تاريخ 21،22 يناير 1912م، معارك الخمس بتاريخ 17 - 21 أكتوبر، 1 أبريل 1912م، معركة الهاني شارع الشط، معركة الهاني أبو مليانة، معركة الهاني سيدي المصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء[3] ... إلخ، وكانت ما بين عام 1911م إلى عام 1912م، ولا شك أن هذه المعارك تحتاج إلى دراسة تفصيلية، ولعل أحد أبناء هذا البلد الطيب يقوم بذلك.

خامساً: جهاد قبائل المغاربة البطولي:

استمر العدو الإيطالي في زحفه حتى وصل سرت وهناك توقف سيره وأرسل دعاته لاستعمال الحيل والدسائس كي يستميل بها قبائل المغاربة التابعة لزاوية النوفلية السنوسية مستغلاً فرصة حاجة تلك القبائل للمؤنة، والملابس، فكاتب القائد الإيطالي الذي احتل سرت شيوخ قبائل الرعيضات «المغاربة» واعداً إياهم أن قواته لن تخرج من سرت، وعليهم أن يأتوا السوق لشراء ما يحتاجون إليه على شرط أن لا يعتدي أحد الطرفين على الآخر، فاغتنم الأهالي

(1) انظر: حروب البلقان، ص75.

(2) انظر: برقة العربية، ص292، 293.

(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص59، 60، ويمكن الرجوع إلى جهاد الأبطال، ففيه تفصيل لبعض المعارك.

هذه الفرصة في شيء من الحذر واليقظة، وأرسلوا إلى إخوانهم بإجدابية أن يأتوا بقوافلهم إلى هذه السوق، فيشترون المأكولات والملابس، وأراد المغاربة بذلك أن يحققوا هدفين:

1 - إخراج الزعيم سيف النصر وأبنائه؛ عبد الجليل ومحمد وسليمان وإخوانهم جميعاً، وقد وقعوا في الأسر بعد احتلال الطليان لواحات هون، وتم اعتقالهم بزوراة، فكان أحد شروط المغاربة الإتيان بهم، وقد جاء بهم الطليان إلى سرت استغلالاً لنفوذهم وربما يتمكن بواسطتهم من أي عمل كان، ولكنهم خلصوا منه والتحقوا بمعسكر المجاهدين المغاربة.

2 - استفاد المغاربة من السوق في سرت، واشتروا كميات ضخمة من المؤن استفادت منها قبائل برقة الغربية.

وأراد الطليان الغدر والخيانة والوثوب على غرة، وهاجم العدو زاوية النوفلية، واشتبك مع المغاربة في قتال عنيف أسفر عن احتلالها بعد خسارة عظيمة وكان من بين الشهداء يومئذٍ الشيخ السنوسي الأطيوش، ومن بين الجرحى عبد الله بن إدريس، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسناً، ثم التحمت المعركة الثانية بين الفريقين بموقع الخدة، وتلتها معركة العويجة، وتوالت المعارك ليلاً ونهاراً، وكل فريق من المتحاربين نال نصيبه من الكر والفر والربح والخسارة، فكانت هذه المعارك مدعاة لإثارة روح الهمة والنشاط والأمل بين المجاهدين في الجهات الأخرى، وجعلت أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا تحت الطليان يتأهبون للقيام من جديد، سيما قبائل أولاد أبو سيف، ففي هذه الأثناء كتبت هذه القبائل ومن حولها إلى أحمد الشريف يطلبون منه إيفاد نائباً عنه - يلتفون حوله وينظم صفوفهم، فعين أحمد الشريف أخاه صفي الدين السنوسي نائباً عنه لربط المعسكرات السنوسية بطرابلس والإشراف عليها، كما عين أخاه محمد عابد السنوسي نائباً عنه بمنطقة فزان[1].

سادساً: المجاهد الكبير القائد الشهير صفي الدين السنوسي:

توجه صفي الدين في يوم 13 جمادى الأول عام 1333م، وترك إجدابية ليتولى القيادة في الجهات الغربية، فكان لتعيينه فرحة عظيمة لدى القبائل المضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وهي ترى زعماءها يقودون الجيوش بأنفسهم، ويتولون الأعمال، ويخوضون ميادين القتال، واستقبلت القبائل في المنطقة الغربية صفي الدين لتشد من أزره وتقوي عزمه، وكان على رأس المستقبلين عبد الله بن إدريس، ثم توجه إلى معكسر المجاهدين، وكان في استقباله صالح باشا الأطيوش، وتولى الإشراف على أمور المعسكر والمجاهدين، ورتب الأعمال، ثم غادر معسكر

(1) انظر: برقة العربية، ص294.

المغاربة متجهاً إلى معسكر حمد بك سيف النصر، وفي معيته، كل من الشيوخ، صالح البسكري، ومصطفى منينة، ورويفع بن إدريس، وعبد العزيز صهد، وبعد وصول صفي الدين، علمت إيطاليا بوصول نائب أحمد الشريف إلى جهات سرت من طرابلس، فاستعدت بحملة عظيمة لملاقاته وصده عن مواصلة سيره، إن لم تتمكن من القبض عليه، فعملت كل ما تستطيع عمله من تجهيز هذه الحملة وتزويدها بأقوى الأسلحة، فاندلعت معركة عظيمة بين القوات السنوسية والإيطالية بموقع «أبي هادي» وكان صفي الدين في مقدمة المجاهدين مصحوباً بأبطال الجهاد منهم؛ حمد بك سيف النصر، وعبد الله بن إدريس، وصالح باشا الأطيوش، وأحمد التواتي، وغيرهم من البواسل، واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة الإيطاليين خسارة فادحة في الأرواح والعتاد، ولم يبق من جيش إيطاليا إلا النزر اليسير، وقد وصف الشعراء هذه المعركة، ومن بين هؤلاء الشعراء عبد الله بن إدريس، وقد جمعت قصيدته أسماء بعض المعارك التي حصلت وقتذاك قبل معركة أبي هادي فقد قال:

سطع الضياء بكوكب الإقبال ... بالفتح والتعظيم والإجلال
والدين جدد بعد ضعف واحتمى ... والكفر في محو وفي اضمحلال
والنور «لاح ببرقة» وكأنه ... بدر مضيء في سماء عال
والنصر من رب البرية لم يزل ... يحمي الحمى ويزيد في الإقبال
هنئت يا بطل الخلافة بالذي ... تبغيه من نصر على الجهال
فلك البشارة قد أتت من أول ... بالفوز والفتح المبين العال

إلى أن يقول:

ذاك الذي نصر الشريعة أحمد ... نجل الرسول وصفوة الأبطال
لا زال في الإسلام حصناً مانعاً ... يحمي الديار من العدو الجالي

إلى أن يقول:

لما رآه مصمماً ومحارباً ... والصلح لا يبغيه بالأموال
قال الفرار وليس لي من حيلة ... وتبدلت أحواله في الحال
من «ساحة الفزان» ولى راجعاً ... في خزية ومذلة ووبال
من «مرزق» ولى و«سوكنة» التي ... هي موضع الأرزاق والأموال
نكب العدو وقال مالي حيلة ... أخذت جميع مدافعي وبغالي
يا حسرة إني تركت مدائني ... ورأيت ما لم يخطر ببالي
ما كنت أحسب أن «برقة» هكذا ... فيها رجال الحرب أي رجال
إن «المغاربة» الذين هم بها ... جاؤوا بيوم في ربيع تال

وكـذا الـذيـن «بـخـشـة» ورفـاقـهـم نـالـوا الـثـنـاء بـهـمـة وقـتـال
نالـوا الـفـخـار بـجـمـعـهـم في «خدة» لـلـقـاء الـعـدو الـمـاكـر الـمـحـتـال

إلى أن يقول:

يـوم «الـعـويـجـة» أنـذر الـطـلـيـان أن الـشـعـب شـعـب كـريـهـة ونـزال
فـتـعـددت أمـواتـهـم وتـمـزقـت أشـلاؤهـم فـي الـحـل والـتـرحـال
من بـعـده ركـبـوا «الـبـحـار» وأقـفـلـوا مـتـخـاذلـيـن تـخـاذل الأنـذال

إلى أن يقول:

أمـا «الـعـواقـيـر» الـكـرام «ببـرقـة» قـد خـلـدوا الآثـار لـلأجـيـال
وكـذا «الـبـراعـصـة» الـذيـن هـم هـم قـد أيـدوا الأقـوال بـالأفـعـال
أبـنـا «عـبـيـد» فـي الـجـهـاد كـأنـهـم أسـد أتـت لـحـمـايـة الأشـبـال[1]

كانت تلك الانتصارات التي حققها السنوسيون، محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي على رأس أولئك الأبطال المغاوير، ولذلك اتصل بصفي الدين السنوسي، واتفق معه على أن يعمل جهد المستطاع للاتصال بهم دائماً، وعمل على دعم المجاهدين السنوسيين بالمؤن، والبضائع من سوق «مصراته»، وشارك مع صفي الدين السنوسي سراً في معركة «أبي هادي» وأبلى هو ورفقاؤه بلاءً حسناً، وأصيب أخوه حمد بجراح[2].

اشتدت الضربات القوية على القوات الإيطالية، وخشيت على سمعتها العسكرية، وأخذت تعد العدة من جديد للقضاء على المعسكر السنوسي.

وقام الشيخ صالح الأطيوش بتجنيد أهالي «الخشة»، من المغاربة وأتباعهم، كما قام عمر سيف النصر بتجنيد قبائل أولاد سليمان وأتباعهم، وقام عبد الجليل سيف النصر بتجنيد قبائل القذاذفة، وقام محمد علي الشفيع بتجنيد قبائل الفرجان، والهماملة ومعدان، استعداداً لمعركة أخرى عرفت في التاريخ باسم معركة القرضابية.

سابعاً: معركة القرضابية:

جمع الطليان قوات كبيرة وأرغموا سكان السواحل التي يحتلونها بالانضمام إلى قواتهم وكان على رأسهم رمضان السويحلي زعيم مصراته، فالتقوا بالمجاهدين عند القرضابية، أو قصر

(1) انظر: برقة العربية، ص296، 297.
(2) انظر: برقة العربية، ص297.

بوهادي، وكان رمضان السويحلي على ما يبدو قد اتفق مع السنوسيين على أن يندس بقواته مع الجيش الإيطالي الذي كان يقوده الكولونيل «ماني»، يقول الشيخ الطاهر الزاوي: «وقد تواترت الأخبار عمن لهم صلة برمضان بأنه كان يعتزم الانقلاب على الجيش الإيطالي إن لم يوافق المجاهدون على الصلح، وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له - والجيس على أهبة الخروج من مصراته -: كيف تحارب إخوانك المسلمين؟ فقال له رمضان: أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح، فإن امتنعوا فسأنقلب معهم على الطليان، واعتزام رمضان الانقلاب على الطليان لا يشك فيه إلا مكابر»[1].

وبدأت المفاوضات بين الجيش الإيطالي والسنوسي من أجل الصلح، وقام العقيد ماني بإرسال وفد من زعماء العرب يتكون من أربعين فارساً، ولما وصل الوفد إلى الجيش السنوسي رفض الرجوع، وكان ذلك في 11 جمادى الثاني سنة 1333هـ، ورجع بعض الأفراد إلى القوات الإيطالية.

خدعة حربية من المجاهد الكبير صفي الدين:

أمر صفي الدين حمد بك سيف النصر بأن يعلن جهاراً بأنه سيغزو ورفلة، وسرعان ما وصل الخبر إلى العدو بواسطة الأشخاص الذين عادوا من المعسكر، وبعض الجواسيس، فاتفق رأي القائد الإيطالي وأركان حربه أن يرجع عبد النبي بالخير بقواته للدفاع عن ورفلة قبل أن يصلها سيف النصر، وبذلك خسر القائد الإيطالي هذا القسم من قواته وقائده عبد النبي، وقبل اندلاع المعركة أعلن صفي الدين بأن الليبيين الذين مع الجيش الإيطالي هم من المجاهدين وسوف ينقلبون على القوات المعتدية، وارتفعت الروح المعنوية لدى المجاهدين السنوسيين، وعندما سمع «مياني» الخبر جرد الليبيين من السلاح وكلفهم بنقل المؤن فقط، ووضع الأعيان بسيارات خاصة، وبذلك خسرت القوات العربية، إضافة إلى جيش ورفلة وتقدمت قوات أحمد سيف النصر يقتفي أثرها خلسة، فكان يختفي بالنهار، ويقتفوا أثرها ليلاً، وكان من المؤكد عند الطليان أن أحمد سيف النصر ذهب بقواته ليغزو ورفلة، وقدر الله تعالى وصول قوات جهادية إلى المعسكر السنوسي بعث بها صالح باشا الأطيوش من جهة الخشة، كما وصل عبد الجليل سيف النصر وأخوه عمر بنجدات أخرى، واشتبك الفريقان في معركة طاحنة يوم 14 جمادى الثانية 1333هـ، وقد سيطر بادىء الأمر الطليان حتى كادوا أن يحوزوا الراية السنوسية، وعندها باغتهم أحمد سيف النصر من الخلف واشتدت المعركة حول العلم السنوسي، فأنقذ بعد أن استشهد الكثير من المجاهدين حول البيرق السنوسي[2]، واستطاع رمضان السويحلي في تلك

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص153.

(2) انظر: برقة العربية، ص300.

اللحظات الحرجة أن يصل إلى جنوده من مصراته وأصدر أوامره بإطلاق النار على الطليان، فأطلقوها عليهم من الخلف، فكانت بداية النهاية، فحاص الجيش في بعضه حيصة الحمر، ورجعت أولاه على أخراه، واختلطت خيله برجله، وارتكس بعضه في ذلك الجيش، ولم ينج منه إلا 500 جندي[1]، ونجا العقيد مياني إلى سرت مجروحاً مع من بقي من جيشه، وبقي في مكان المعركة كل ما كان مع الجيش من معدات الحرب وعتادها، من إبل وخيل، وبنادق ومدافع ورشاشات[2]، ومن بين ما غنمه المجاهدون صحيحاً اثني عشر مدفعاً من مدافع الميدان، وعشرين مدفعاً رشاشاً، وسبع سيارات، وعشرون ألف بندقية، وقسماً عظيماً من الذخيرة، وقسم المستشفى العسكري بجميع معداته، وجميع المؤن[3].

وكان أفظع ما يقع عليه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البشرية، وبمجرد وصول مياني إلى سرت جرد جميع العرب من الأسلحة وعقد مجلساً عسكرياً، وحكم بالإعدام على كثير من السكان ومن أبناء العرب الذين التجئوا إلى سرت، وفي مقدمتهم من الأعيان والرؤساء: الحاج محمد القاضي من مسلاته، والحاج محمد مسعود من قماطة، وحسونة بن سلطان، وأبو بكر النعاس، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة، وأصدر أمراً بالقتل العام، فصار الجند يقتلون الناس في الشوارع وعلى أبواب البيوت، ويربطون العشرة والعشرين في حبل واحد ثم يقتلونهم، ورمى كثير من الناس بأنفسهم في البحر فراراً من التمثيل بهم، فكان منظراً مريعاً، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسير أكثرهم من السكان والحمالين الذين استأجروا جمالهم[4]، وبدأت قوات المجاهدين في تطهير البلاد من الأنجاس المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير، على بعد 15 ميلاً من طرابلس، وصدرت الأوامر للإيطاليين بالانسحاب الكامل إلى الساحل وقضي على حامية ترهونة كلها أثناء هروبها إلى البحر، واستسلم ألف إيطالي في بني وليد بدون مقاومة، وانسحبت حامية غريان إلى العزيزية، ثم أجبرت على الانسحاب بسرعة إلى طرابلس، وأخليت مصراتة وزوارة[5].

لقد كانت القيادة الفعلية لمعركة القرضابية للسيد المجاهد صفي الدين السنوسي، والقادة

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص155.
(2) المصدر السابق نفسه، ص155.
(3) انظر: برقة العربية، ص300.
(4) انظر: جهاد الأبطال، ص156.
(5) انظر: جهاد الأبطال، ص157 إلى 171.

السنوسيين الذين معه، وقد ساندهم مساندة فعالة المجاهد رمضان السويحلي بجنوده وانضم معهم في الوقت المناسب.

وقد تفجرت ملكات الشعراء بسبب انتصار المجاهدين في القرضابية، فهذا الشاعر محمد عبد الله معتوق المصراتي يصف شجاعة المجاهدين في القرضابية ويمدح رمضان السويحلي على موقفه البطولي في المعركة فقال:

وقفت وقفة أبطال وشجعان ... تجابه الغزو في صبر وإيمان
يوم الخليج وما سددت من خطط ... كانت دماراً لمن عن أرضنا جان
لما وضعتم حشود الخصم في قفص ... ما بين بحر وصحراء ونيران
حمى الوطيس وطيس الحرب ملتهباً ... والنار تلفح من قاص ومن دان
وللعزائم من آلامها خَوَرُ ... يستوي عزائم الأبطال ومن دان
خاضوا المعارك في صبر وفي جلد ... وقاموا في حماس كل طغيان
سدوا المنافذ عن أعداء أمتهم ... فصيروهم حيارى شبه قطعان
البحر يحجزهم والنار تلفحهم ... والخصم يطحنهم في غير إمعان
خرت جحافلهم في مأزق خطر ... لم يبق منهم سوى أشباح إنسان
ناموا على جثث الأموات يدفعهم ... حب الحياة إلى خزي وخذلان
عادوا «المصراتة» والحقد يدفعهم ... شنوا عليها هجوماً غير إنسان
كم أحرقوا من ضعاف من ملاجئهم ... ويوم ماطوس عنها خير برهان
كم علقوا من بريء فوق مشنقة ... وقتلوا من شهيد فوق كثبان
وفي السجون رجال ما لهم ... والشعب يرزح من ظلم وعدوان
كذلك تاريخ يا من له جهلوا ... وذاك تاريخ ليث الحرب رمضان(1)

لقد حقق المجاهدون انتصاراً عظيماً على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمراً آخر، ولهزم الإيطاليون عن بكرة أبيهم، وأسباب الصراع المذكور تحتاج إلى تقصٍّ وبحث يصعب على مثلي الوصول إليه، ولهذا أعرضت عنه صفحاً، إن الخوض في هذه النزاعات يخالف النهج الذي سرت عليه «من توسيع النقاط البيضاء في تاريخنا وتضييق النقاط السوداء» ولقد تعرض بعض المؤرخين لهذا الخلاف منهم: الطاهر الزاوي، ومحمد مسعود فشيكة، ومحمد الطيب الأشهب، وبعد اشتداد الخلاف والنزاع بين رمضان وصفي الدين، أصدر الوكيل العام للسيد أحمد الشريف

(1) انظر: رمضان السويحلي، محمد فوشيكه، ص89، 90، 91.

«سمو الأمير» إدريس السنوسي أمراً إلى صفي الدين بالعودة من طرابلس إلى برقة، وأن يترك الأمر بعد تطهير أكثر البلاد من الطليان إطفاء للفتن وحقناً للدماء[1].

وأما بالنسبة لجهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، فقد تولى قيادتها محمد عابد السنوسي نائب أحمد الشريف، وقد اتخذ مركزه بزاوية «واو» ويتبع هذه القيادة ثلاثة معسكرات أحدها يرأسه وكيل محمد عابد وكبير مستشاريه الشيخ محمد الأشهب، أما المعسكر الثالث بالجهات الغربية الشمالية من فزان فيرأسه الشيخ السني، ويشرف على الإدارة العامة محمد علي الأشهب، فاشتركت هذه المعسكرات في المعارك الدموية مع الطليان بالجفرة وفزان وقد كانت هذه الجهات بيد العدو[2]، واهتم أحمد الشريف بأمر فزان واتخذ من «زلة» قاعدة للإغارة على إمدادات الإيطاليين بفزان وحدث أول هجوم في 26 أغسطس عندما أبيد طابور كان يسير عبر حمادة، وكانت تلك الحادثة بداية النهاية لاحتلال فزان الذي دام قليلاً، وبانقطاع الإمدادات عن القوات الإيطالية في فزان أحاطت بها القوات الإسلامية الليبية المجاهدة، وشاركت في تلك المعارك قوات المجاهدين في قبائل التبو والطوارق، واستطاعت قوات المجاهدين أن تقضي على حامية «أدري» و«أباري» وفتحت قلعة سبها، وسقطت مرزق، ولجأت قوات الإيطاليين في غات إلى جنوب الجزائر وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات الإيطالية إلى سوكنة ثم مصراته، وتخلوا عن غدامس، وغريان، وأعلنت طرابلس حالة الطوارىء[3]، وكان من أعيان فزان الذين قادوا الجهاد المقدس ضد إيطاليا المجاهد الكبير محمد بن عبد الله البوسيفي، ونازل أهل فزان القوات الإيطالية في ثلاث معارك مشهورة في «الشبب» و«أشكدة» و«المحروقة» واستشهد فيها محمد بن عبد الله البوسيفي رحمه الله تعالى[4].

وقاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة، وهي ربوة عالية في سبها يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة، وأصبحت تلك القلعة منيعة جداً، واستطاع سالم عبد النبي فتحها بقواته عام 1914م، لقد أبلى أهل الجنوب من مسلمي ليبيا بلاءً حسناً في جهادهم البطولي ضد إيطاليا، مما يدل على أصالتهم وحبهم لدينهم وبغضهم لكل محتل عنيد.

ونتيجة للفتنة التي ذكرتها أمر السيد محمد إدريس محمد عابد أن ينتقل بقواته نحو الكفرة[5].

---

(1) انظر: برقة العربية، ص302.

(2) المصدر السابق نفسه، ص303.

(3) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص127، 128.

(4) انظر: قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب (2/ 290).

(5) انظر: برقة العربية، ص303.

المبحث الرابع

الجهاد في برقة

في 24 من شهر شوال 1329هـ الموافق 19 أكتوبر 1911م وقف الأسطول الإيطالي بميناء بنغازي الآمنة العزلاء وقذفها من قنابله في غير شفقة ولا رحمة، وفي 22 من الشهر وقف بميدان درنة، وبعد التمهيد بقذف القنابل أنزل بها قوة عسكرية وسرعان ما طير الخبر إلى الشيخ المجاهد الشريف بالكفرة، فأمر بالوقوف في وجه المعتدي، والاستعداد لقتاله والتضحية في سبيل الوطن بالنفس والنفيس، وكتب إلى رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس وإلى شيوخ وأعيان القبائل يأمرهم بالدفاع ويحثهم على الجهاد، وكاتب الملوك، والأمراء وزعماء العالم الإسلامي طالباً منهم الوقوف مع إخوانهم المسلمين في ليبيا ضد العدوان الصليبي الغاشم، وفي شهر رجب سنة 1330هـ/ 1913م تحول من الكفرة إلى الجغبوب ليكون قريباً من ساحة الوغى.

استطاع الإيطاليون احتلال كبريات مدن ليبيا الساحلية، كطرابلس ودرنة وطبرق، وكانت الحامية العثمانية في بنغازي تحت قيادة القمندان شكري بك في منتهى الضعف، فلا تستطيع أن تحمي نفسها فضلاً عن كونها تدافع عن البلاد التي كان احتلالها في رأي المحتلين والأوساط السياسية في أوروبا أمراً مفروغاً منه.

أخذ متصرف بنغازي فؤاد مراد بك يعقد اجتماعات مجلس الإدارة ويتشاور معهم، وكان وقتذاك رئيس الزاوية السنوسية ببنغازي هو أحمد العيساوي، فطلب منه المتصرف أن يحضر جميع الاجتماعات التي تعقد.

لقد جاهد أسود مدينة بنغازي شيباً وشباباً عن مدينتهم دفاعاً مجيداً، فأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة بماء الذهب في سجل التاريخ، وقد ساهمت القبائل القريبة من مدينة بنغازي في الجهاد، وأول من وصل منها قبيلة العواقير ومن معهم، وقام أهالي بنغازي بإكرام المجاهدين، رغم عدم وجود الأمتعة والزاد الكافي، فأكرموهم غاية الإكرام، وفتحت الحكومة العثمانية مخازن الأسلحة، وكانت جلها بنادق لا تزيد عن أربعة آلاف بندقية، وشرع المجاهدون في مهاجمة العدو الغاشم وكلفوه خسائر في الأرواح، واستشهد الكثير من أبناء المسلمين وتعرف هذه المعركة بواقعة «جليانة» ثم بعد يومين من ذلك انقض المجاهدون على الإيطاليين بموقع الصابري وقاتلوهم قتالاً عنيفاً، وغنموا منهم أسلحة كثيرة، وبعد ذلك بيومين كانت واقعة السلاوي الشهيرة، وكان يقود المجاهدين الشيخ عبد الله الأشهب، فأظهر شجاعة فائقة، وقدرة نادرة، ورأياً سديداً في توجيه قوات المجاهدين، وتحميسهم للجهاد، وحقق المجاهدون انتصاراً رائعاً، وغنموا جميع

ما كان مع الإيطاليين في الميدان من المؤن، والعتاد الحربي، وكان عدد الشهداء كثيراً، وبعد واقعة السلاوي التحم المجاهدون في معركة حامية الوطيس مع العدو بقرب البركة بالموقع المعروف بـ «هوى الزردة» فاستشهد فيه الكثير من المجاهدين، ومن بين الشهداء مائة وخمسون شهيداً من قبيلة واحدة هي عائلة إبراهيم العواقير عدا شهداء أهل مدينة بنغازي وبقية القبائل الأخرى، ولقد أظهر سكان مدينة بنغازي من أصناف البطولة والكرم الفياض والصبر العجيب والثبات النادر والشجاعة العظيمة ما أثار إعجاب إخوانهم من القبائل[1].

وبدأت النجدات العسكرية تتوافد إلى مدينة بنغازي بتحريك شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة قبيلة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجدات التي جاء بها زعماء القبائل، وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب:

* الشيخ عبد الله الأشهب وكيل رئيس زاوية مسوس، ورؤساء قبائل العواقير.
* الشيخ محمد علي عبد المولى رئيس زاوية أم شخنب، ورؤساء قبائل إبراهيم العواقير.
* الشيخ حسن الغماري رئيس زاوية دريانة وقومه من العواقير.
* الشيخ التواتي الكليلي رئيس زاوية طلميثة وقومه من الدرسا.
* الشيخ محمد علي المحجوب، رئيس زاوية الطيلمون مع مطاوع العواقير.
* الشيخ محمد الزروالي رئيس زاوية القطفية ومعه قومه من شوامخ المغاربة.
* الشيخ محمد علي الغماري رئيس زاوية أسقفة وقومه من البراعصة والدرسة.
* الشيخ محمد أبو نجوى رئيس زاوية ميراد مسعود وقومه من الدرسا.
* الشيخ عمر المختار رئيس زاوية القصور وقومه من العبيد.

كانت النجدات مؤلفة من قبائل العرفا، والدرسا، والبراعصة، والعواقير، والمغاربة، والعربيات، وزوية، والقبايل، والمسامير، والجرارة، والفواخر. ومن هذه القبائل أو منتمياً لها أو مجاوراً أو مرتبطاً بها قد وصلت في أسرع ما يمكن بقيادة زعماء وشيوخ القبائل، وشيوخ الزوايا، وهؤلاء السادة جمعوا الجموع تلبية لنداء القائد الأعلى للحركة السنوسية، وتقرر أن يكون موقع معسكرهم ومقر قيادتهم في بنينه شرق بنغازي أكثر من عشرين كيلو متراً، فقد صح فيهم قول الشاعر:

تلاميذ لا يعدون أمراً أراده	بواد وأشراف تبيد الأعاديا
كتائب أمثال الجبال رزانة	وإن حملت خلت الهضاب جواريا

---

(1) انظر: برقة العربية، ص257، 258.

أولـئـك أقـوام عـلـى الـمـوت بـايـعـوا   مـبـايـعـة أضـحـى بـهـا الـصـبـر راضـيـا[1]

وشرع المجاهدون في مهاجمة معاقل الإيطاليين بشدة وعنف، يقول الأمير شكيب أرسلان: «وفي 12 مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن 220 عربي دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة، فثار في وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالمائتي مجاهد من العرب، فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظلام، وعند ذلك نجا منهم عدد ولحقوا بالمعسكر العربي بعد قتال استمر طول النهار، ويقال إنه نجا 80 رجلاً من المائتين.

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم 28 ضابطاً برتب مختلفة، وجنرال برتبة لواء، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك المعركة، وكانت هذه المعركة قد شقت كثيراً على العرب، وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال التي حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم، وبينما العرب في مأتم على قتلاهم وردت برقية من أنور باشا القائد العام في درنة إلى عزيز علي المصري قائد المجاهدين في بنغازي عن برقية من الأستانة عن برقية من برلين عن برقية من روما، تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى، ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم»[2].

وفي شهر أبريل سنة 1912م خرجت حملة إيطالية بعدتها وعتادها مزودة بجميع أنواع السلاح، وهاجمت معسكر بنينه، فاندلعت بين الفريقين معركة عظيمة، استمرت ساعات متتالية، تمكن العدو فيها من احتلال موقع المعسكر، وانسحب المجاهدون، ثم باكر هذه المعركة التحم المجاهدون مع القوات الإيطالية في معركة بموقع حلق الريح، ولم يكن الفوز لأحد من الفريقين، رغم كثرة الأموات من الطرفين، ومن شهداء تلك المعركة الشيخ موسى قرق عمدة قبيلة العمارنة، والشيخ جبريل العبيدي، ثم عقب ذلك التحم الفريقان في معركة بموقع «حوش العكب» وذلك يوم 17 رمضان سنة 1330هـ، وكانت القوات الإيطالية زاحفة نحو سلوق، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها، ومن بين شهداء هذه المعركة: أبي زيد بن محمد الكزة، ومن بين الجرحى الشيخ عبد الحميد العبار، والشيخ يونس بن مصطفى أبي شنيف[3].

واستمر القتال في جميع أنحاء برقة من بنغازي إلى طبرق، وقد تمكن الطليان من احتلال بعض المراكز في الدواخل، وبعد حصول معارك كثيرة وفي مواقع مختلفة أرسل الجنرال أميليو

(1) انظر: برقة العربية، ص260.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص140.

(3) انظر: برقة العربية، ص266.

قائد القوات الإيطالية إلى شيوخ القبائل يطلب منهم إرسال مندوبين للدخول معهم في المفاوضات، وعندما وصل الوفد الإيطالي الذي يحمل الكتاب إلى المشايخ وصل السيد أحمد الشريف إلى موقع رويفع بن ثابت الأنصاري المعروف بسيدي رافع، فكان رد شيوخ القبائل على الجنرال الإيطالي، كالآتي:

حضرة....

وبعد نخبر حضرتكم أننا اتصلنا بأعيان بنغازي واطلعنا على شروطكم المسطورة الواردة معهم من حضرتكم، وقد أخبروا براحتهم مع دولتكم قبل وصول الأعيان جاءنا رسول من طرف الأستاذ الفاضل سيدنا أحمد الشريف يخبرنا أنه وصل إلى الجبل الأخضر بموقع سيدي رافع ويأمرنا بالحضور عنده بناءً عليه لا يمكن الآن حضور أحد منا صحبة أعيان بنغازي حتى نتصل بشيخنا وأستاذنا، إن شيخنا الموماً إليه نزل بساحتنا وطلب منا الحضور فلا يمكن التأخر عنه، وبعد الاجتماع به سيصدر من طرفه العالي كل ما يلزم، وبه يكون العمل، وها نحن أخذنا كتابكم لعرضه عليه 15 جمادى الثانية سنة 1331هـ.

وكان الموقعون على هذا الكتاب الشيوخ الآتية أسماؤهم:

عبد السلام الكزة، إبراهيم المصراتي، عمر الأوجلي، علي الأوجلي، محمد الكاسح، خليل مصطفى، مفتاح أبو خزيم، علي محجوب، مصطفى خليل، أبو بكر القذافي، مفتاح حسين، جاد الله أبو زيد، حبيب الله اللواطي، رويله أبو لطيف، مطرود أبو شنيف اللواطي، المبروك اللواطي، المبروك عمر[1].

أما جبهة الجبل الأخضر فقد كانت الكتائب السنوسية يقودها كل من:

* الشيخ محمد الدردفي رئيس زاوية شحات مع رؤساء ومشايخ وقبائل الحاسة.
* الشيخ محمد الحسين الخلافي رئيس زاوية المخيلي.
* الشيخ صالح بن إسماعيل رئيس زاوية الفائدية مع رؤساء ومشايخ عائلة فائد.
* الشيخ محمد العربي رئيس زاوية القصرين مع رؤساء ومشايخ قبائل البراعصة.
* الشيخ عبد القادر فركاش رئيس زاوية بشارة مع رؤساء قبائل العبيدات.
* الشيخ عبد الله أبو سيف رئيس زاوية مارة مع رؤساء قبيلة العبيدات.
* الشيخ الغماري رئيس الزاوية البيضاء مع رؤساء قبيلة البراعصة.
* الشيخ محمد الغزالي رئيس زاوية ترت مع رؤساء قبيلة العبيدات.

---

(1) انظر: برقة العربية، ص267، 268.

* الشيخ الحبيب بن جلول رئيس زاوية المرازيق مع رؤساء قبيلة العبيدات.
* الشيخ المرتضي فركاش رئيس زاوية أم الرزم مع رؤساء قبيلة العبيدات.
* الشيخ محمد العيساوي رئيس زاوية الحنية مع رؤساء الدرسا.
* الشيخ السنوسي الغماري رئيس الزاوية الحمامة مع رؤساء قبيلة البراعصة والدرسا.
* الشيخ جاد الله الجبالي رئيس زاوية العرقوب مع رؤساء قبيلة البراعصة والدرسا.
* الشيخ محمد أبو فارس رئيس زاوية أم حفين مع رؤساء قبيلة العبيدات.
* الشيخ محمد بن عمور رئيس زاوية قفنطة مع رؤساء قبيلة البراعصة.
* الشيخ عبد الله سعد فركاش رئيس زاوية مرتوبة مع رؤساء قبيلة العبيدات.

لبت هذه القبائل من السعادي والمرابطين نداء شيخ المجاهدين أحمد الشريف. وحضرت لقتال العدو تحت قيادة رؤساء زواياها وزعمائها وشيوخها الأسود.

وبالنسبة لمنطقة طبرق جمع شيوخ الزوايا، وزعماء العشائر القوات التي تأسس بها معسكر طبرق:

* الشيخ محمد الشارف رئيس زاوية أم الجرفات مع رؤساء قبائل حبون.
* الشيخ محمد عبد الله رئيس زاوية أم ركبة مع رؤساء قبائل القطعان والشواعر.
* الشيخ مرتضي الغرياني رئيس زاوية جنزور مع رؤساء قبائل العبيدات والمنافا.
* الشيخ صالح الشريف رئيس زاوية المرصص مع رؤساء قبائل العبيدات.

فتم تأسيس أربع معسكرات هي: معسكر بنغازي، ومعسكر الجبل، ومعسكر درنة، ومعسكر طبرق في وقت قياسي[1].

صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفاظاً لماء الوجه أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين لتقوية روح المقاومة والدفاع وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات، وبدأت المساعدات المادية والمعنوية تتوافد على المجاهدين، وكان من أبرز القادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، فؤاد بولجاقاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي مصري، أدهم باشا الحلبي[2].

---

(1) انظر: برقة العربية، ص261.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص69، 70، 71.

أولاً: القائد التركي أنور باشا:

أرسلت تركيا أنور بك «باشا بعد» قائداً عاماً ببرقة، فوصل إليها من تركيا عن طريق مصر، ونزل بمنطقة درنة، فاتخذ منها مركزاً لقيادته، واتصل برؤساء الزوايا، وزعماء القبائل، وشرع في ترتيب المعسكرات إدارياً، وعسكرياً، تحت إشراف قادة المناطق، ومجالس شيوخ الحركة السنوسية، وشيوخ القبائل الليبية، ووزعت القبائل نفسها على معسكرات الجهاد، وتكفلت كل قبيلة بالمؤن والخيل والسلاح والرجال، ويتناوب رجال كل قبيلة على المعسكرات بين كل خمسة أشهر أو ستة أشهر، ونزل أحمد الشريف إلى الجغبوب مواصلاً دعمه الكبير لحركة الجهاد بكل ما يستطيع، يقول أمين سعيد في كتابه «الاستعمار الفرنسي والإيطالي في بلاد العرب» تحت عنوان السنوسيون في الميدان: «وأسرع السنوسيون في مقاطعة برقة عاصمتهم وسكانها من أتباعهم ومريديهم لتأييد الدولة وشد أزرها، يتقدمهم شيخهم الأكبر السيد أحمد الشريف وجاء شيوخ الزوايا للجهاد يقودون رجالهم فأبلوا البلاء الحسن في الكر والفر، وجددوا عهد المفاخر العربية، وأدهشوا العالم بما أبدوه من بسالة وشجاعة... فقد أصلى السنوسيون نار هذه الحرب في برقة من الأول إلى الآخر فكانوا رجالها وقوادها وكانوا آخر من جلا بعد أن فقدوا الجانب الأكبر من أقطابهم وشيوخهم»[1].

ومع مجيء أنور باشا لقيادة عمليات المجاهدين ضد إيطاليا في شرق ليبيا أصبحت الجبهة الشرقية البرقاوية تشن هجومات مكثفة على الإيطاليين، وكانت علاقة أحمد الشريف بأنور بك علاقة قوية ومحترمة، وكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، ففي شهر أبريل سنة 1912م بعث أحمد الشريف برسالة إلى أنور بك، يظهر فيها تأييده للدولة العثمانية، ويشكر أنور كثيراً لجهاده وقتاله للطليان ويعد بالنصر المبين من عند الله تعالى[2]، ويذكر أنور بك في مذكراته أن رسالة وصلته في أوائل شهر يوليو من السيد أحمد الشريف يشكره فيها على جهوده وجهاده، ويحثه على المزيد، ويدعو الله لنصرة الإسلام وقهر أعدائه الإيطاليين[3]، لقد بذل أنور باشا مجهوداً عسكرياً، وأخلص في حربه ضد إيطاليا وأحبه الشعب الليبي لنشاطه، وشجاعته النادرة، فكان محل تقدير الشيوخ وإعجابهم، وأحب أنور باشا المجاهدين الليبيين وأظهر إعجاباً بهم في مذكراته حيث يقول: «القبائل العربية ترسل لي مقاتليها، ويأتون على شكل جماعات صغيرة، كل واحد يحمل سلاحاً قديماً على كتفه، رابطاً رصاصاته في حزامه، وفي يديه بضع كيلوات من الدقيق، وبين القادمين مسنون بيض اللحى، وصبيان لم يبلغوا سن الخامسة عشرة، إن

---

(1) انظر: برقة العربية، ص62.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص33.

(3) المصدر السابق نفسه، ص33.

أعمارهم لا تمنعهم من مواجهة الموت مع رفاقهم جنباً إلى جنب، لهم إيمان راسخ بأن أقدارهم مرسومة بإرادة الله، فمهما يكن لن تتغير، فإذا حان الأجل لن يتخلص منه أي مخلوق، ولهم قول مأثور رائع: «إذا أراد الرب فلا مناص من الشهادة، فالشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت كل يوم مائة مرة»[1].

ويتحدث عن تشكيلات المجاهدين ودور المرأة في الجهاد فيقول: «. . . وعلى الأغلب يكون هناك جمل واحد من نصيب كل عشرة مقاتلين، وعليه يحملون الخيمة التي يشتركون فيها، وترافقهم امرأتان من العشيرة تعملان على إعداد الخبز وخياطة الملابس، وتنظيف السلاح»[2]، ويتحدث عن اشتباك وقع بينهم وبين الإيطاليين استمر لمدة تسع ساعات، حقق المجاهدون فيه نصراً عظيماً، وكان من بين الجرحى مجاهدة أصيبت بقذيفة في صدرها رغم ذلك رفضت البقاء بالمستشفى وعادت إلى الجبهة لتلهب معنويات المجاهدين[3].

وقد تأثر أنور باشا بالمجاهدين وقال عنهم: مثال رائع وفريد للتفاني بدون قيد أو شرط[4]، وقال: تلاشت ذكرياتي عن حياتي الماضية، وأصبحت في طي النسيان، وأشعر كأنني لم أعاشر أحداً غير العرب، ولم أشاهد مكاناً غير الصحراء، رغم ما أقضيه من أيام محروماً من كل شيء فإن هذه الحياة تولد لدي أحاسيس غريبة، هذه الحياة تتخللها حوادث تسعدني كسعادة الطفل في العيد[5].

ولقد اعترف أنور باشا بتأثير أحمد الشريف على سير الحرب ضد إيطاليا فقال: «. . . رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصداقة، ولأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب. .»[6].

ويتحدث بإعجاب عن شجاعة قبيلة الحسا وموقفها الصلب من الإيطاليين فيقول: «استلمت اليوم الأنباء الأولية من درنة، خسارة الإيطاليين تفوق توقعاتي بلغت (800) قتيل وجريح، عثر الإيطاليون على الجرحى الذين تخلينا عنهم والبالغ عددهم (21) أكثريتهم من رجال قبيلة الحسا، من أبناء جبل برقة، فقد أرسل الإيطاليون رسولاً ليبلغهم: الموافقة على إطلاق سراح الجرحى إذا تخلى أبناء حسا عن الاشتراك في القتال، وكان رد القبيلة كالآتي:

(1) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص60، 61.
(2) المصدر السابق نفسه، ص61.
(3) المصدر السابق نفسه، ص63.
(4) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص75.
(5) المصدر السابق نفسه، ص77.
(6) المصدر السابق نفسه، ص81.

(إنكم أتيتم لتدمير بلادنا، سنبقى أمناء لأوامر الله والسلطان، اتحدنا لنحاربكم، واعتبرنا الأسرى موتى منذ فترة وبكيناهم، ولكن كل ذلك مضى، وسواء أطلقتم سراحهم أم لا، فسنحاربكم حتى آخر رجل، نوصيكم بمعاملة الأسرى بالحسنى ولا تنسوا ما في أيدينا من رجالكم) أشعر بالفخر لكوني قائداً لمثل هؤلاء الرجال، ولأنني أحارب معهم في صف واحد. . .»[1].

ويتحدث بفخر عن المجاهدين فيقول: «جنودي شجعان مستمرون في تأدية واجباتهم، هناك عائلة لم يبق من أفرادها غير الأب، قتل أولاده الأحد عشر، وصهره، عندما قدمت له التعازي قال لي: إنني فخور وسعيد؛ لأنهم قتلوا في المعركة من أجل الوطن والدين»[2]. لقد تأثر الضباط الأتراك لما رأوا من شجاعة أجدادنا، فهذا الضابط العثماني أمين بك الذي يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين عاماً يتحدث في رسائله إلى زوجته عما رآه في ليبيا، نقتطف منها حديثه عن الشيخ لطيف بن طويلة فيقول: كان خطيباً بارعاً، ومجاهداً قتل أولاده في طبرق، وذكر في رسائله بعض خطبه التي كان يلقيها على المجاهدين فبين أن الشيخ أكد بإلحاح على أن الحرب ليست سياسية بقدر ما هي دينية، وفي هذه الحرب لا تجابه أمم بعضها البعض، وإنما هي أديان تجابه أدياناً، وأن العرب يجب ألا يدافعوا عن أرضهم فحسب، وإنما أيضاً عن عقيدتهم وتقاليدهم. . وأقسم على القتال حتى لا يبقى في ليبيا إيطالي أو أوروبي وقال: «يا إلهي إننا نتعرض للغزو من جانب أهل الظلم والبغي، فلنشرب كأس الانتقام ببطء حتى نطفىء غليل ظمئنا. .»[3].

«. . . أيها المسكين، أيها المسكين، إنه لمن الأفضل لك أن تسكن خيمة ممزقة حيث يسود الإيمان من أن تقطن قصراً تحرسه أسلحة الشيطان، إن حيل الشيطان ضعيفة، هذا ما يعلمنا إياه القرآن الكريم. . .»[4].

«. . . إنني أريد شهداء، وليس جنوداً، إن الخطر والموت في انتظارنا، إنني أريد مذنبين، ولا أريد أولياء، فالرجل النقي نقاوة رمل البحر لن يكون محبوباً، وإذا ما كنتم مذنبين فلتذهبوا معي وتقاتلوا، ولتخلصوا أنفسكم من الذنوب، إننا ثوار ويجب أن نكون كذلك، إذا ما قام العدو على العبث بما أوصانا الله به، إننا ندين بالولاء لله وليس للدولة، ولا تقعدوا طويلاً مع القاعدين، ولتأتوا إليّ إن الله سريع الحساب، وأكرر قولي لكم إن عشرة من المؤمنين سيغلبون مائة من الكفار»[5].

وفي رسالة مؤرخة في 22 سبتمبر 1911م يتحدث أمين بك عن أخبار طبرق، وعن صديقه

---

(1) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص94.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه، ص98.

(3 - 5) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص196.

حبيب الذي أخبره كيف جرى اجتياح المواقع الإيطالية وتخريب عدد من الرشاشات، وكيف أن حبيب حمل رشاشاً إلى المعسكر العثماني، ثم يمضي قائلاً: «ومما يؤسفني أن الشيخ لطيف بن طويلة وثلاثة من أبنائه المتمرسين في حمل السلاح قد لقوا الشهادة على مقربة من طبرق، لقد فقدنا فيه واعظاً ميدانياً ما من أحد كان يستطيع أن يتقاعس عن الحرب عندما يسمع كلماته النارية، وحتى أولئك الذين أعيتهم الحرب، وأريد أن أبلغك هنا إحدى خطبه النارية الأخيرة التي حضرتها متخفياً بالزي العربي، وقد نقلتها بالكتابة المختزلة، وربما «يا غولدانا» نحتاج يوم من الأيام أن نثير حماس أبنائنا بمثل هذه الكلمات. . وقد تحدث الشيخ لطيف واعظاً وهو يلبس رداء الخطيب، ولقد كان مثل أسد تلحف بجلد جمل وقال: أيها المقاتلون في سبيل الرحمن الواحد الأحد لا تحتاجون الآن إلى السلاح، وإذا ما اعتقدتم أنكم تحققون الفتح فلتبقوا حيث أنتم، إن هذه الحرب ليست حربكم، وإذا ما كنتم تبغون طرد الإيطاليين فقط فلتذهبوا إلى بيوتكم إنما يتوجب عليكم هو طرد الشيطان ودولته من بلادنا، وأن تعيدوها إلى رحمة الواحد القهار. . . ولكن يجدر بكم ألا تتوقعوا ليالي ملاحاً وأياماً لطيفة، إنكم الآن خدم عقيدتنا، إنها نار حامية في النهار، ومسيرات طويلة في الليل، إنه الجوع والعطش، كل هذا ينتظركم، على أن المجد والشرف ينتظرانكم أيضاً، فلتودعوا خيمتكم، وإذا ما أراد الله فلن تروا ذويكم ثانية، ولا تخافوا شيئاً.

إن المعركة حسب مشيئة الله، إنها ستغسل ذنوبكم بالدم، وإذا ما وضعت الشهادة يوم الحساب سينظر إلى ما قمتم به من أعمال، عندئذٍ ستكون الجنة بانتظاركم، . . . فلتأتوا معي باسم الله»[1].

يقول الضابط التركي أمين بك: إن وقع صوت الشيخ في نهاية الخطبة كان مثل وقع البوق، لقد كانت عيون ألف من العرب «المجاهدين» تتوقد حماساً وهي تنظر إليه وقد وقفوا جميعاً في صف الجهاد[2].

يقول عن المجاهدين: إن جرأة هؤلاء الناس لا يعلى عليها، وأما دوافعهم إلى الاستهانة بالموت فهي ذات أساس فلسفي: «أرغب أن أموت في الحرب شاباً على أن أموت على فراشي شيخاً فما من مجد في الموت الناجم عن مرض الشيخوخة»[3].

هكذا كان تأثر الضباط الأتراك بالمجاهدين الليبيين الذين حركتهم عقيدتهم، وحبهم لدينهم، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله تعالى.

---

(1) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص197، 198.
(2) المصدر السابق نفسه، ص198.
(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص200.

ولقد تفاعل العالم الإسلامي مع أخبار الانتصارات التي حققها المجاهدون، فأنشدوا القصائد الجميلة، فمنها قول الشاعر:

حيا الإله ببرقة الأبطالا ... خذلوا العدو وأوسعوه نكالا
أسد إذا دعت الوغى أبناءها ... نفروا خفافاً للوغى وثقالا
الناهضون المقعدون بعزمهم ... الضاربون الهام والأوصالا
شوس إذا حمي الوطيس تدافعوا ... بالبأس حزماً والرماح طوالا
دولا السلام على السلام تحية ... إن كان تأويل السلام نزالا
في أي دين أو كتاب منزل ... فيه أتى قتل النفوس حلالا
والصلح خير تصلح الدنيا ... وبه عباد الله تنعم بالا
لم تقتصد «روما» بخطتها ولم ... تترك لعقد الصلح ثم مجالا
وطغت وعاثت في البلاد بظلمها ... ولكل حال أوجدت أشكالا
هل منصف والحق أبلج واضح ... والعدل يملك للزمان عقالا
إن كان بالظلم اتساع ممالك ... فالظلم يهدم كل ملك طالا

إلى أن يقول:

من كل وضاح الجبين مجاهد ... نور اليقين بوجهه يتلالا
عرب إذا دفعوا الجياد لغارة ... هزوا العباب وخفْخفوا الأوشالا
هذي طرابلس وفعل سيوفها ... ضرب العدا لا تعرف الأقوالا
هرع الطموع لضمها جهلاً بها ... هيهات قد طلب الطموع محالا
أبني طرابلس حفظتم ملككم ... يوم النزالا وضعتم الأعمالا
بيضتم وجه الحمى وملأتم ... عين العباد مهابة وجلالا

إلى أن يقول:

قد خلد التاريخ فعالكم ... إن الزمان يخلد الأفعالا
من مبلغ عنا الأنام جميعهم ... ومخبر الأيام والأجيالا
إن السلامة في سلامة موطن ... نقف النفوس عليه والأموالا
وإذا أراد الله بين عباده ... إصلاح حال غيّر الأحوالا

ويقول:

«إيطاليا» عشقت فأنحلها الهوى ... والعشق يجعل من يحب خيالا
عشقت «طرابلساً» وكم من عاشق ... يقضي عليه ولا ينال وصالا

جاءت بأسطولا وخالت أنها تجني به نفعاً فجر وبالا
جهلت وما عرفت بأن حروبها جلبت عليها الحنق والإذلالا[1]

أما الشاعر حمزة الفقي الجهيني فيقول:

يا أرض برقة عن رجالك خبري ماذا جرى للظالم المتجبر؟
أخذوا بثارك أم رضوا بمذلة عار على الشيخ «السنوسي» وأنور
قالت سلوا زرق الأسنة والضبا ينبي المهند والقضيب السمهري
أسد إذا حمى الوطيس رأيتهم ما بين مرتجز وبين مكبر
فكأنما الأعداء أعيان الفلا صكت مسامعها بزأرة قسور

إلى أن يقول:

ماذا رأيت من الحروب وشرها يا جيش روما لا تمن وخبر
حقاً ذهبت وقد رجعت بنكبة وعلمت ما عقبى الظلوم المغتر
وبليت من عرب بكل سميدع يسعى الهيجاء بنفس غضنفر
عصر التمدن أنت أم عصر الشقا لا كنت يا منهوم بين الأعصر
صيرت موج البحر ناراً والهوى وجعلت أهلك في لظى متسعر
يا أمة بالبغي أغضبت الورى كفى عن المظلوم لا تتهوري[2]

ومما قال الأستاذ معروف الرصافي عن ملحمة الجهاد في ليبيا:

ويا أهل «بنغازي» سلام فقد قضت صوارمكم حق المواطن في الذب
حميتم حمى الأوطان بالموت دونها وذاك بما فيكم لهن من الحب
ومن مبلغ عنا «السنوسي» أنه يمد لهذا الصدع منه يد الرأب
فإنا لنرجوا أن يقود إلى الوغى طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من الردى وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
فإن حشا الإسلام أصبح دامياً إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ «السنوسي» مدركاً جنود بني «عثمان» في الجبل الغرب
وكن أنت بين الجند قطب رحى الوغى وهل من رحى ألا تدور على قطب[3]

---

(1) انظر: برقة العربية، ص333، 334.

(2) انظر: برقة العربية، ص341.

(3) انظر: برقة العربية، ص330.

ثانياً: تفاعل العالم الإسلامي:

أبلى الشعب الليبي بلاءً حسناً في جهاده ضد القوات الإيطالية الصليبية الغازية، وبدد أحلام القادة العسكريين السياسيين، الذين زعموا أن مدة الاحتلال لا تتجاوز خمسة عشر يوماً، وقد قدرها القائد السياسي الكبير البريطاني «كتشنر» بثلاثة أشهر، لقد طارت أخبار المعارك في بنغازي، وطرابلس، ودرنة، إلى العالم أجمع، ورأت حكومة الأتراك أن الشعب الليبي جدير بالمساعدة وجاد في جهاده وكفاحه ضد العدو، ولذلك قامت بإرسال مجموعة من القادة العسكريين، ليجسوا النبض، ويرسلوا التقارير، فوصلت بحوث ودراسات أنور باشا مع زملائه «بإيمانهم بأن هذا الشعب يعتمد عليه في الحروب، ورفعت التقارير إلى الأستانة، فأخذت الإمدادات ترد منها، وبدأت وفود المتطوعين من مصر والعالم الإسلامي تترى لمساعدة إخوانهم المسلمين في ليبيا، ووصلت البعثات الطبية من تركيا، ومصر، فقامت بدورها خير قيام، ومراسلين من الصحف الإسلامية والعالمية، وكان الأمير عمر طوسون في مصر، ووالدة الخديوي «أم المحسنين» وخلفهم مسلمو مصر قد وقفوا بما يملكون لدعم الشعب الليبي مادياً ومعنوياً، ووصل الأمير شكيب أرسلان على رأس بعثة طبية كان عدد جمالها التي تحمل الأثقال من المؤن والأدوية 650 جملاً يصحبه خمسة أشخاص من أخص رجاله، قد تطوعوا للجهاد ببرقة وهم شلبي عبد الصمد، عجاج عبد الصمد، عباس عبد الخالق، شاهين عبد الخالق، يوسف أحمد فياض.

وقام أنور باشا باختيار مجموعات من الشباب الليبي وأرسلهم إلى إستانبول لتعليمهم النظم السياسية والعسكرية الجديدة، وقد أحسن بما صنع، ليشرفوا على قيادة الجيش الوطني الذي نهض في إعداده؛ وتدافع المجاهدون المسلمون من كل مكان إلى ميدان القتال عن طيب خاطر، وجاد المسلمون الخيّرون بأموالهم، وأعز ما ملكت أيديهم، وفاضت قرائح الشعراء، وأقلام الكُتاب بما أوحته ضمائرهم، وقامت الصحف وفي طليعتها «المؤيد» الغراء بدورها وكانت حلقة الاتصال بين جهاد الليبيين والعالم الخارجي، وكانت المساعدات تأتي من العالم الإسلامي إلى مصر إلى اللجان المختصة والتي أشرف عليها علي يوسف، وعمر طوسون، ترسل إلى المجاهدين، وكانت والدة الخديوي «أم المحسنين» تنفق الأموال، والمؤن، والملابس، والأدوية، والقوافل المحملة للمجاهدين، وعندما قابلت الوفد الذي استلم هذه الأشياء قالت: «إنني لم أفعل شيئاً يذكر في جانب ما يقوم به أولئك المجاهدون في سبيل الله والوطن، وإنني قلقة لأنني لم أسمع منذ أيام خبراً عن ميدان القتال»[1] وكانت المساعدات تأتي من أهل الشام إلى بلاد مصر ثم تدخل إلى ليبيا، وكان الليبيون الذين هاجروا إلى مصر من

(1) انظر: برقة العربية، ص348.

عشرات السنين قد وقفوا وقفة رجل واحد بالمال[1] والرجال، وكان أحمد الباسل من وجهاء مصر سنداً قوياً لحركة الجهاد في ليبيا، قد كتب للسيد السنوسي الأشهب رداً على رسالة وصلت إليه: «إني وما أملك تحت تصرفكم ولمساعدتكم، وإنكم قمتم بما يرفع شأن العروبة في جميع أنحاء الدنيا، وإنكم لن تغلبوا وفيكم الغازي العظيم سيد مجاهدي القرن الرابع عشر السيد أحمد الشريف، فقفوا موقف البطولة؛ لأن العالم يتطلع لأعمالكم ويرقبها على البعد...».

لقد كانت قبائل الفوائد، والجوازي في مصر نعم العون لحركة الجهاد في برقة.

وتفاعل العالم الإسلامي جله، فقد اجتمع أعيان ووجهاء وشباب مسلمي الجزيرة موريس الواقعة شرق مدغشقر، ورفعوا احتجاجهم إلى نظارة الخارجية البريطانية ضد الاعتداء الإيطالي على طرابلس الغرب «ليبيا» ونظموا مظاهرة عظيمة، ثم أرسلوا إلى رئيس اللجنة العليا بخمسة عشر ألف روبية لمساعدة المجاهدين، وفي يوم 20 ذي الحجة سنة 1320هـ دعا جلالة ملك أفغانستان حبيب الله خان، جميع وجوه مملكته ورجال حكومته وأعيانها وتجارها، دعاهم لاجتماع عظيم وعرض عليهم القضية الطرابلسية وما يعانيه المسلمون في طرابلس الغرب من الظلم والعدوان ودعاهم إلى الإنفاق لجمع أموال لهم وفتح كتاب أسماه كتاب «إغاثة يتامى وشهداء ومجروحي مجاهدي طرابلس الغرب» وقال لهم: افتحوا كيس همتكم وبلوا قلوبكم بماء الشفقة الأخوية، أعينوا يتامى وأيامى أولئك المجاهدين الذين جادوا بأرواحهم لأجل حفظ وطنهم وشرف ملتهم، أعينوهم على الأقل بلفائف يشدون بها جروحهم، لا تنظروا إلى قلة ما تعطونه من المال وكثرته، أعطوا ما تتمكنون من إعطائه، واثبتوا أسماءكم في هذا الكتاب إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً» وقد تبرع سيادته بمبلغ عشرين ألف روبية، وكان يقول وكله حماس: ألا ليتني قريب منهم أمدهم بالفعل لا بالقول، ألا ليتني طائر أطير لمساعدة إخواني المسلمين[2]، ومن بين المتبرعين مسلمو إندونيسيا، ومسلمو الهند، وحاكم قطر الشيخ قاسم محمد، فقد تبرع للمجاهدين بعشرين ألف روبية، وأهل البحرين، وجاء إلى ميدان القتال كل من محمد حلمي، وعبد المعطي صالح ضابط مصري، عارف بك والي البصرة سابقاً، نشأت بك أحد كبار رجالات تركيا المشهورين، محمد طاهر أفندي مصري، وغيرهم كثير[3].

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرة ساهمت في دعم حركة الجهاد من تونس، وتشاد، والنيجر، ومالي، والسودان، ومصر، والجزائر، والشام، وتركيا، وغيرها، ويمكن الرجوع إلى المقال الذي كتبه محمد الأسطى بعنوان: «صدى حركة الجهاد الليبي في العالم الإسلامي»

---

(1) نفس المصدر السابق، ص348، وتجد تفصيلاً عن المساعدات.

(2) انظر: مجلة المنار، ج12، ص940 إلى 943 لمحمد رشيد.

(3) انظر: برقة العربية، ص249.

وهو من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي فيه معلومات جيدة عن أسماء من ساهم في الدعم الجهادي[1].

إن الذين كتبوا عن الجهاد وقالوا: إن الليبيين جاهدوا الإيطاليين وحدهم دون أن يتلقوا أية عون أو مساعدة، افتروا على الواقع الذي حدث وزيفوا الحقائق وهضموا حقوق إخوانهم، فهذا الجنرال الإيطالي غرسياني يعترف بذلك ويقول: إن مساعدة مصر للمجاهدين أجبرته على أن يأخذ الاحتياطات اللازمة في مراقبة الحدود الشرقية[2].

ثالثاً: معاهدة أوشي وانسحاب الأتراك:

واجهت القوات الإيطالية في ليبيا مقاومة عنيفة، والتحم المجاهدون بالأتراك، وشكلوا قوة عسكرية ضاربة، وأدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية الولاية، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة، وتوجهت لهذا السبب نحو الجزر الاثني عشر التي كانت تؤلف الولاية المعروفة باسم «مجموعة جزر بحر إيجة - الدردنيل»، ففي الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 1330هـ الموافق 4 مايو سنة 1912م، قامت أساطيل إيطاليا باحتلال الجزر، ثم قامت بتهديد مدخل الدردنيل، وقصفت ميناء بيروت على ساحل الشام، وكأنها بذلك تدعو إلى توسيع رقعة الحرب، وهذا ما أثار الدول الأوروبية خاصة بريطانيا العظمى صاحبة الإشراف المباشر على الحركة البحرية المتوجهة إلى البحر الأسود وقناة السويس[3].

وقد أقامت إيطاليا إدارة لهذه الجزر، وأصدرت بها طوابع بريد إيطالية، واستبدلت بالبحارة الذين قاموا بعملية الاحتلال حاميات إيطالية من الجنود وحملة البنادق الصغيرة، كما استبدلت الأعلام العثمانية أعلاماً إيطالية، حينذاك سارعت الحكومة العثمانية إلى إجراء بعض التحصينات لسواحل آسيا الصغرى خوفاً من هجوم إيطالي جديد على تلك السواحل[4].

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية استقالت وزارة الاتحاديين في أواخر شهر رجب 1330هـ، المصادف لشهر يوليو 1912م لتتولى الحكم وزارة أطلق عليها اسم «الوزارة الكبرى» وقد ألفها أحمد مختار باشا الغازي[5]، وقد استلمت هذه الوزارة الحكم في وقت كانت الحالة السياسية في الدولة العثمانية قد بلغت من الحرج حداً لا يمكن لهذه الوزارة أن تخرج منه دون تضحية كبيرة عليها، وهو ما تحقق في معاهدة الصلح مع إيطاليا، بعد ذلك ببضعة أشهر حاولت الوزارة الاتحادية التي كان يرأسها سعيد باشا أن تفتح أبواب المفاوضات

(1) انظر: الشهيد، العدد الخامس، 1984م، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص103.

(2 - 3) انظر: حروب البلقان، ص80.

(4 - 5) انظر: حروب البلقان، ص81.

مع إيطاليا عن طريق بعض الدول الأوروبية، وقد لعب بعض رجال الأعمال اليهود المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقي دوراً بارزاً في بدء هذه المفاوضات[1]، وكانت محاولات الصلح تجري في طي الكتمان، بينما تعلن الحكومة شديد تمسكها بوحدة الدولة العثمانية، وعدم التفريط في ولاية طرابلس وبنغازي.

ولقد بين وزير خارجية بريطانيا لسفير دولته في الأستانة مدى معارضة الحكومة الإيطالية للمقترحات التي طرحها وزير الخارجية العثماني في حكومة الاتحاديين، واقترح الوزير البريطاني بدوره مشروع سلام، يحول دون إراقة ماء الوجه للسياسة التركية كما قال، ويتلخص مشروعه هذا في أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة إيطاليا على الأمور المدنية مقابل اعتراف إيطاليا بالسيادة الروحية للسلطان، والسماح للمسلمين بممارسة عباداتهم الدينية بحرية تامة، والبقاء على قوانينهم وعاداتهم، وعلى أن تدفع إيطاليا مبالغ سنوية عن طريق شيخ الإسلام اعترافاً بالخلافة الروحية[2].

وقد حاولت كل من حكومة النمسا - المجر، والحكومة الفرنسية، أن تقوما بدور الوساطة لإيقاف الحرب بين كل من الدولة العثمانية وإيطاليا، غير أن مساعيهما لم تلق نجاحاً يذكر في كلتا الدولتين[3]، وأمام الأزمات الخانقة التي تمر بها الدولة العثمانية رأت حكومة مختار باشا الغازي أن تصل بالمفاوضات مع إيطاليا إلى نتيجة حاسمة، فأوفدت وزير الزراعة العثماني وزودته بصلاحيات واسعة، وقد وصل المسؤول العثماني إلى لوزان في 16 شوال سنة 1330هـ، الموافق 27 سبتمبر 1912م، ومع وصوله أخذت المباحثات تدخل في دور حاسم ويتفق الطرفان على الخطوط العريضة لتوقيع الصلح بينهما[4].

كانت العقبة التي لا تلتقي فيها آراء الطرفين المتفاوضين هي الاعتراف العثماني بإلحاق طرابلس بإيطاليا، وانتقال جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا، فالعثمانيون لا يستطيعون الإعلان صراحة عن إلحاق طرابلس بإيطاليا؛ لأن ذلك يؤثر على مكانتهم في العالم الإسلامي والعربي، أما جزر الدوديكانيز فكانت أمراً عسيراً، إلا أن نذر الحرب في البلقان جعل الدولة العثمانية تعقد هدنة للحرب الدائرة في طرابلس[5] وتتبعها بعقد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة لوزان - أوشي مع إيطاليا والتي منحت الدولة بموجبها الاستقلال لولايتي طرابلس وبنغازي، ومن ثم أبدت استعدادها لسحب قواتها من هناك.

---

(1) جريدة المقطم عدد 6975 في 19 ربيع الأول عام 1330هـ.

(2) انظر: حروب البلقان، ص82.

(3) انظر: حروب البلقان، ص82.

(4) انظر: جهاد طرابلس الغرب، ص98، 99.

(5) انظر: جريدة المقتبس، عدد 1014، 5 ذو القعدة 1330هـ.

لقد تم توقيع معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية، والحكومة الإيطالية في 8 ذي القعدة 1330هـ الموافق 18 أكتوبر 1912م، وحررت مواده الإحدى عشرة في لوزان - سويسرا ووقعه عن الدولة العثمانية كل من: محمد نابي بك، وروميبوغلو فخر الدين، وعن الحكومة الإيطالية كل من: لبترو بروتوليني، وقويدو فوزيناتو، وجوسبي فولبي(1).

ومن المفيد هنا أن نشير بصورة موجزة إلى مضمون مواد المعاهدة كما وردت في النسخة الأصلية المحفوظة في الأرشيف العثماني في إستانبول تحت رقم 335:

المادة الأولى: تعهدت الحكومتان فيها بإيقاف حالة الحرب بينهما وإرسال مفوضين من الجانبين لتنفيذ ذلك حال توقيع هذه المعاهدة.

المادة الثانية: تعهدت الحكومتان بإصدار أمر بسحب القوات الحربية والضباط من جبهات القتال، فالدولة العثمانية تسحب قواتها من طرابلس وبرقة، والحكومة الإيطالية تسحب قواتها من الجزر التي احتلتها في بحر إيجة.

المادة الثالثة: يتم تبادل أسرى الحرب بين الدولتين في أسرع وقت ممكن.

المادة الرابعة: تتعهد الحكومتان بمنح عفو شامل لكل من ساهم بأعمال عدائية أو حامت حوله الشبهات أثناء الحرب لصالح أيّ من الدولتين.

المادة الخامسة: التزام الحكومتين بجميع المعاهدات والاتفاقات التي كانت بينهما قبل الحرب، والعودة بعلاقاتهما إلى وضعها السابق.

المادة السادسة: تلتزم حكومة إيطاليا بما تفرضه الدولة العثمانية من زيادة في الجمارك، وما تقيمه من امتيازات في إطار القانون التجاري الذي تلتزم به جميع الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية.

المادة السابعة: تتعهد الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في الدولة العثمانية، إذا علمت الدول الأوروبية ذلك.

المادة الثامنة: تؤيد الحكومة الإيطالية الدولة العثمانية في مطالبتها إلغاء نظام الامتيازات واستبداله بنظام القانون الدولي.

المادة التاسعة: استعداد الدولة العثمانية بإعادة الموظفين الإيطاليين الذين يعملون في الدولة، وفصلوا من عملهم أثناء الحرب، على أن تدفع لهم رواتب الفترة التي أوقفوا فيها عن العمل.

المادة العاشرة: تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع قسط سنوي للدولة العثمانية، يعادل المبلغ

(1) انظر: حرب البلقان، ص86.

المستوجب عن إيرادات الولايتين - طرابلس الغرب وبنغازي - لكل سنة من السنوات الثلاثة التي سبقت الحرب، والذي لا يقل عن ٢ مليون ليرة إيطالية لكل سنة.

المادة الحادية عشرة: تدخل هذه المعاهدة حيز التنفيذ وسريان المفعول في نفس يوم توقيعها، وإثباتاً لذلك وقع المفوضون ذوو الصلاحية المطلقة هذه الاتفاقية، وختموها بأختامهم[١].

وقد ألحقت بالمعاهدة الرسمية المشار إليها بعاليه أربعة ملاحق اعتبرها الموقعون على المعاهدة جزءاً مكملاً لها، وأهم هذه الملاحق هو المنشور الموقع من السلطان العثماني والذي تم بموجبه منح الاستقلال الإداري التام لولايتي طرابلس وبنغازي[2]، على أن تدار بقوانين جديدة من قبل الأهالي الذين يجب أن يساهموا بتقديم الوصايا والإرشادات، وأنه سيعين نائباً للسلطان لمدة خمس سنوات للمحافظة على المنافع العثمانية، كما يعين قاضي للولايتين من قبل السلطان ليقوم بتنفيذ أحكام الشرع الشريف على أن يعين هذا القاضي بدوره من العلماء المحليين نواباً شرعيين له وفقاً للأحكام الشرعية، وتدفع الدولة العثمانية راتب القاضي من خزينتها، أما رواتب نائب السلطان والموظفين الشرعيين غير القاضي فتصرف رواتبهم من مداخيل الولاية المحلية[3].

كما أن الملحق الثاني لا يقل عن الملحق الأول أهمية؛ لأنه عبارة عن منشور من ملك إيطاليا على غرار منشور السلطان العثماني، إلا أنه يؤكد فيه خضوع ولايتي طرابلس وبنغازي لإيطاليا، وفيه منح ملك إيطاليا العفو العام لمن ساهم في الحرب إلى جانب جيوش الدولة العثمانية من أهل الولايتين، وترك لهم الحرية بإقامة شعائرهم الدينية، وذكر اسم السلطان العثماني في خطبة الصلوات باعتباره خليفة المسلمين، وذكر أن هناك لجنة سيتم تشكيلها تضم في عضويتها بعض الأهالي تقوم بوضع الأنظمة المدنية والإدارية على النمط الإيطالي[4].

إن موافقة الدولة العثمانية على عقد معاهدة الصلح مع إيطاليا على تلك الصورة السالفة الذكر دليل قاطع على أن الدولة العثمانية كانت تعيش أسوأ مراحل تاريخها، وأن الأزمات العنيفة كانت تهدد كيانها[5] وهو ما عبر عنه السفير البريطاني في الأستانة الذي اعتبر شروط الصلح التي تم التوصل إليها بين الدولة العثمانية وإيطاليا من «أفضل ما يمكن أن تحصل عليه الحكومة

(1) انظر: حرب البلقان، ص87.
(2) انظر: الطريق إلى لوزان، محمد الوافي، ص213، 214.
(3) انظر: حروب البلقان، ص89.
(4) انظر: ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد، ص435، 436.
(5) انظر: حروب البلقان، ص89.

العثمانية في ظل الظروف القائمة»[1] وصدر الأمر من الأستانة إلى القائد العام التركي أنور بك بأن يغادر برقة، فوقع هذا النبأ على نفس أنور وقوع الصاعقة وتوجه إلى الجغبوب لمقابلة أحمد الشريف السنوسي والتفاهم معه.

كان موقف أحمد الشريف واضحاً قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة كتاباً يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه»[2] إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادة على ذلك فقد حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية، وحمل الكتاب أربعون شخصاً من كبار السنوسية المجاهدين إلى القائد العثماني[3].

استقبل أحمد الشريف أنور بك بسيارته، وكانت هذه أول سيارة تدخل صحراء برقة، وقوبل بحفاوة بالغة، وأقام في ضيافة السيد أحمد ثلاثة أيام، وأبلغ أنور مضيفه أوامر السلطان وأدلى إليه بتوجيهاته «إسناد أمر الأمة الطرابلسية إلى سيادته وإخباره بأن السلطان قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركاً لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها»[4].

وفي هذا اللقاء تم التصديق بين الرجلين على تأسيس الحكومة السنوسية لتسد الفراغ الذي ترتب على انسحاب تركيا من ولاية طرابلس وملحقاتها[5] ولم يطلب أحمد الشريف من أنور بك غير شيء واحد وهو مساعدته بالأسلحة والعتاد الحربي[6] ولم يكن المجاهدون في برقة وحدهم الذين قرروا المضي في القتال ورفض الصلح مع إيطاليا على أساس غير الجلاء من بلادهم، فقد أرسل سليمان الباروني برقية إلى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم المجاهدين عقد أي صلح مع إيطاليا لا يكفل انسحابها الكلي من أراضي ليبيا العزيزة[7].

انسحب أنور باشا إلى بلاده واستطاع أن يحقق انتصارات للحكومة التركية، وللأسف الشديد استطاعت الصهيونية العالمية والمحافل الماسونية أن تستخدم هذا الرجل في إفساد الخلافة، وإسقاط الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، ولم ينتبه أنه ألعوبة في يد أعداء الإسلام

(1) انظر: الحملة الإيطالية على ليبيا، محمود حسن، ص166.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص142.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق نفسه، ص146.
(5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص42.
(6) المصدر السابق نفسه، ص41، 42.
(7) انظر: السنوسية دين ودولة، ص142.

إلا بعد أن سبق السيف العذل، وقد مدح صاحب كتاب «الفوائد الجلية»، وصاحب كتاب «برقة العربية» أنور باشا كثيراً.

لقد اعترف أنور باشا بأنه استغل من قبل أعداء دينه، وأمته وشعبه ووطنه، ولم يكن يدري لقد قال بعد فوات الأوان: إن مصيبتنا أننا قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري؛ كنا أغبياء[1].

إنها لعبرة للضباط والزعماء الذين يريدون خدمة شعوبهم الإسلامية أن يعرفوا أين يضعوا أقدامهم؟ وبمن يثقون؟ وكيف يتصرفون؟ حتى لا يندموا حين لا ينفع الندم.

رابعاً: نزول أحمد الشريف إلى ساحات الوغى:

جمع أنور باشا بعد رجوعه إلى الجغبوب الضباط العثمانيين وأبلغهم حقيقة الأمر وسرهم بأن السيد أحمد سيحل بينهم في القريب العاجل، ثم غادر أنور درنة متوجهاً بسيارته إلى السلوم، ومنها إلى الإسكندرية متنكراً ووصل إلى الأستانة للمشاركة في حرب البلقان[2].

توجه عزيز المصري الذي تم تعيينه قائداً للجيش أخيراً إلى الجغبوب لاستصدار ما يلزم من صاحب القيادة الشرعية، فأكرم أحمد الشسريف وفادته وأمره بالرجوع فوراً إلى الميدان الجهادي، وكتب إلى رؤساء الزوايا وشيوخ القبائل وضباط الجيش يأمرهم بامتثال أوامر وكيله القائد الجديد عزيز المصري، وترك أحمد الشريف الجغبوب متجهاً نحو مدينة درنة، ووصل إلى موضع يدعى «الظهر الأحمر» يقع جنوبها، فاستقبل استقبالاً عظيماً، وبعد استقباله للشيوخ والزعماء طلب منهم أن يعودوا إلى معسكراتهم ثم أصبح بين المجاهدين، وبذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد أثر الانسحاب العثماني، وكتب منشوراً إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية ومواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشر حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزوداً بمؤونته وسلاحه[3] وقام بتفقد المعسكرات، وأبدى نصائحه وآراءه حول الاستعداد لمواصلة الجهاد بدون الأتراك وأصدر أوامره التنظيمية للمعسكرات والمجاهدين.

عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحاً حديثاً لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم السادس عشر من مايو 1913م أي في نفس اليوم الذي وصل

(1) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، لمحمد حرب، ص6.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص42.

(3) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، جامعة الكويت، الحولية الأولى، محمد عيسى صالحية، ص7.

فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم سيدي القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة، وقد أصيب الكثير من ضباط القوات الإيطالية بالجنون، وجيء على تلك القوة بأجمعها فكسي أديم الأرض بأشلاء الموتى والجرحى والعتاد المبعثر هنا وهناك، وكانت أول معركة يخوضها أحمد الشريف[1] وكان لهذا الانتصار العظيم أثره في جذب الناس إلى حركة الجهاد وانتسابهم للأدوار[2].

خامساً: الجولة التفتيشية في الجبل الأخضر:

وبعد أن اجتمع برؤساء الزوايا وشيوخ القبائل شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من العزيات وانتهت بجدابية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية بالمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك في الكثير منها، وقد لقي في هذه الجولة من الأتعاب والمشاق والسهر، وقد أمضه الجوع، وأضناه العطش في كثير من الأيام، وكان لا يبالي بما يلاقيه ولا ينظر إلى التعب إلا بعين الازدراء ما دام ينظر إلى ما عند الله من الثواب والجزاء، وقد وصفه الكثير من رفاقه بأنه في تلك الحالة كان باسم الثغر، مبتهج الخاطر، مرتاح الضمير، ساطع المحيا، صبيح المنظر، لا يركن للراحة، ولا يفكر في رغد العيش[3].

يقول شكيب أرسلان عن أحمد الشريف: «. . . اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذي لم يقمه أحد، ولولاه لم يكن لأنور، ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً. . .»[4].

«. . . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهه، وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ولا يقتدي بالأمراء، وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية أن لا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة، وفي إحدى المرات أوشك أن يقع في أيدي الطليان، وشاع أنهم أخذوه أسيراً، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله، وهو أنه كان ببرقة فبلغ

(1) انظر: الفوائد الجلية، 2/26.
(2) المصدر السابق نفسه، 2/30، 31.
(3) انظر: برقة العربية، ص270.
(4) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/144.

الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين، وغير بعيد عن جيش الطليان، فسرحوا إليه قوة عدة آلاف ومعها سيارة كهربائية، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة، فبلغه خبر زحفهم، وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للمجاهدين فلم يفعل. وقال لي: «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي، أصاب المجاهدين الوهن، فدارت عليهم الدائرة، فثبت للطليان - وهم بضعة آلاف - بثلاثمائة مقاتل واستمات العرب، وصدموا العدو، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى، ارتدوا على أعقابهم، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين» وقال لي: «وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني، الذي كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية، كان قائداً شجاعاً، ولكنه كان يغامر بنفسه في كل وقعة، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله»[1] لقد كان في جولاته يشارك الناس في شرابهم وأكلهم، ويصلي معهم، ويجاهد بنفسه بينهم، فقد كان قمة في الصبر والحلم والتواضع والبساطة، والشجاعة، والإقدام، ولا يعرف الخوف إلا من الله وحده سبحانه وتعالى، فقد قوى الله به عزم المجاهدين، وشحذ به هممهم، ووحد به صفهم وكلمتهم في برقة كلها، ومن الأشعار التي قيلت بمناسبة نزوله إلى ساحات النزال ما قاله حمزة الفقي الجهيني من قصيدة طويلة:

يا ليث «جغبوب» أتيت برقة ... والأم ثكلى والدموع هوامي
والأسد في كنف الهلال يظلها ... يا ابن البواسل والجروح دوامي
قد عودت أن لا تضام فخاطرت ... والعرب لا ترضى سوى الإقدام
والخيل تصهل والوجوه عوابس ... والطير غرثى والسيوف ضوامي
قل للّصوص تشتتوا فأنا الذي ... أحمي الذمار بهمتي وحسامي[2]

وقد قال أيضاً في قصيدة أخرى:

ولي نفس إذا ما رمت أمراً ... تحمل جسمها يا قوم مالا
فقالوا: ما وهبت؟ فقلت روحي ... وقالوا: ما بذلت؟ فقلت مالا
ولي قلب «ببرقة» مشتهاه ... يميل مع «السنوسي» حيث مالا
ولي الله مقدام تقي ... إذا ما جئته شمت الجلالا[3]

وقد وصف الشاعر الليبي الأستاذ حسين بن محمد الحلافي أعمال أحمد الشريف في الجهاد في قصيدة عصماء قال فيها:

---

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 160، 161.

(2 - 3) انظر: برقة العربية، ص342.

فتاريخ السنوسي الدهر باق … على رغم الخطوب المبليات
غداة احتل جيش الظلم «ليبيا» … بنسافاته ومدمرات
فصير بحرها الأسطول ناراً … وأحرق برها بمفرقعات
وزلزل أرضها بدوي تنك … وأزعج جوها بالطائرات
فعاف العيش في ترف وعز … بعيد عن ضروب المهلكات
ببيت أبدع الصناع فيه … تحوط به الحدائق باسقات
ينعم فيه بين أخ وابن … وبين أفاضل كالنيرات
وغادر «تاجه» وسعى إليها … ونادى معلناً بين الكلمات[1]
أجيبوا داعي الله استعدوا … بني قومي إلى حرب الطغاة
دعى فأجابه جم غفير … وهل حرب تكون بلا دعاة
فضل حياته يسعى ويدعو … لتوحيد الشعوب على العداة
فكم ليل تطاول لم ينمه … ولم يعمل به غير الصلاة
وكم يوم طواه بغير زاد … قضاه على ظهور الصافنات
بمعمعة يشيب الطفل منها … يضيق لهولها صدر الفلاة
فلم تنظر إذا حققت إلا … «مدافع» كالصواعق داويات
قنابلها تدك الأرض دكاً … وتقتلع الجبال الشاهقات
فاخض الأرض أموات وجرحى … ووارى الشمس تصنع العاديات
وكم يوم «ببرقة» مثل هذا … تسطره تواريخ الثقاة[2]

لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى[3].

سادساً: مجلس شورى أحمد الشريف:

انتخب أحمد الشريف - رحمه الله تعالى - بعض أعيان الحركة السنوسية ممن اشتهروا بنفاذ الرأي، وجودة العقل، وحسن الخلق، وقوة التدين، والمكانة العالية بين الناس، لرفقته

(1) التاج: اسم زاوية الكفرة.
(2) انظر: برقة العربية، ص271.
(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص91.

وليكونوا معه في رحلاته لاستشارتهم في الأمور الهامة وكان منهم كل من الشيوخ الآتية أسماؤهم: محمد علي بن عبد المولى، ومحمد الدرقي، ومحمد بن عمور، وأحمد بن إدريس الأشهب، ومرتضى فركاش[1].

مساعي إيطاليا لإغراء أحمد الشريف:

أراد عزيز المصري أن يضعف الصف الجهادي ضد إيطاليا، فسولت له نفسه أن يذهب إلى أحمد الشريف ويصور له استحالة المقاومة وضررها، ونفاد الميرة والذخيرة والأموال، واقترح عليه الصلح مع إيطاليا، وسوف تدفع له لندن، وروما، وباريس مبلغاً يليق بمقامه وشرفه، وكرامته، وأن تكف فرنسا عن محاربته في الصحراء والسودان، وكان عزيز المصري طلب من أحمد الشريف أن يتنازل عن قطعة الأرض الواقعة بين «بومبا» والجغبوب وبين الحدود المصرية، وترك برقة للطليان، فقال له أحمد الشريف: اسمع يا ولدي إني كنت أقبل عن طيب خاطر التنازل عن القطعة المذكورة وضمها إلى مصر لو كانت حكومة إسلامية حرة أتركها وأنتقل أنا ورجالي إلى الغرب لمحاربة الطليان على بقية برقة حتى أزيل ظلهم الثقيل عنها دفاعاً عن بقية الإسلام، أما ومصر في قبضة إنكلترا فلا معنى لهذا العمل وإني سأقاوم حتى النهاية[2].

ولقد اطلع المؤرخ محمد الطيب الأشهب على وثيقة تاريخية موقعة من أحمد الشريف بعث بها إلى أنور باشا الذي أصبح وزير الحربية التركية بتاريخ 29 صفر 1335هـ عند إبراهيم بن أحمد الشريف، وكان فيها: «أتى الطليان للوطن وراسلني وأرسل إليّ الأموال الهائلة فرجعتها كلها تعففاً وطلباً لرضاء الله ورسوله وقمت بمعاضدة الدولة العلية ولله الحمد، وأمرت كافة أهل الوطن وقمت بجهدي ثم بعد ذلك قدمت بنفسي للجهاد»[3].

حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو أميرها، تحت حمايتها أو انتدابها وتكون له منطقة نفوذ تحت سلطانه، وتحتفظ هي بالموانىء والثغور الساحلية فضرب بقولها عرض الحائط وقال: «إنني أقسم أمام جميع المجاهدين على هذا المصحف والبخاري إني لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير ما دام معي نفر واحد من المجاهدين، وإذا خانني الجميع وسلموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدي الأعلى شاكياً إلى الله من خيانة الخونة مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين»[4].

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 29 إلى 35.

(2 - 4) انظر: برقة العربية، ص305.

وقال: «إنني لا أتفاوض مع إيطاليا في بلادي، ولا أتفق معها على تنازلي عن شبر واحد من البلاد، ولا أحيد عن أحد أمرين إما تحرير الوطن، وإما الموت في سبيل ذلك»[1].

وقال: «إنني أعاهد الله على أن لا أتساهل مع إيطاليا في حق من حقوق أهل البلاد، ولا أتنازل عن مقدار حافر حصاني»[2]. وكان جوابه للوفد الذي أرسله الخديوي عباس وكان يتكون من أنجال محمد عبد المتعال الإدريسي، كل من السنوسي ومصطفى، وعبد الحميد بك شديد، بأن شروطه للاتفاق مع إيطاليا هي أن تجلو عن البلاد وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم[3].

سابعاً: خيانة عزيز المصري للمجاهدين:

عزيز مصري رجل عصبي المزاج حاد الطبع كثير المطامع حقود، جاء إلى برقة من اليمن، وكان أول عمله في درنة أن خطب العرب فقال: «أيها الناس إن كنتم مسلمين حقيقة ولديكم ذرة من الشهامة والشرف، فحاربوا العدو إلى آخر قطرة من دمائكم» فتكدر العرب منه وقالوا: «ما له يشك في ديننا وشهامتنا ألم يرنا نهزأ بالموت ونذود عن بيضة الإسلام من قبله، وها نحن نبلي في الطليان خير بلاء رغم نيران مدافعهم المتهاطلة كوابل المطر»[4]. وأراد أنور باشا أن يترك درنة ويذهب إلى بنغازي، فرفض الشيوخ والزعماء ذلك، وطلبوا منه أن يبقى ويرسل عزيز المصري أين شاء، وأبوا الخضوع لعزيز المصري، فأرسل أنور عزيزاً إلى بنغازي، وبدأ عزيز منذ وصوله إلى بنغازي بالهجوم على أنور خصوصاً، والأتراك عموماً[5]، وكان المجاهدون بادىء الأمر لا يحصون عليه خطواته، ولا يتعقبونه في حركاته لظنهم به خيراً، وعندما وصلت أخبار مطاعنه إلى أنور قال: إننا في مصلحة عامة تذيب الأضغان الشخصية فليستمر في دفاعه عن البلاد، ولو أصبح رئيسها لكنت عن طيب خاطر من أتباعه ما دام ذلك في مصلحة الإسلام وأهله[6].

بعد سفر أنور باشا تولى القيادة العامة عزيز المصري واستطاع العميل الإيطالي حسن حمادة أن يقنع عزيز المصري بالتفاوض والتعامل مع إيطاليا سراً مقابل حطام من الدنيا زائل، وعمل عزيز المصري على خدمة المصالح الإيطالية، وقبل جميع شروطهم، وانكشف أمره للمجاهدين، فأحرق الأوراق الخاصة بالمجاهدين والأدوات الطبية وجعلها طعمة للنار، ومنع تسليم الأسلحة للمجاهدين وقرر ترك ليبيا وقطع الأسلاك البرقية، والتلفون، حتى لا يجد

(1 - 3) انظر: برقة العربية، ص306.

(4 - 5) انظر: برقة العربية، ص273.

(6) المصدر السابق نفسه، ص274.

المجاهدون وسيلة للمخابرة وجردهم من وسائل الدفاع، وأخذ سلاح المجاهدين وجعله في أماكن مطمورة وأوعز إلى الإيطاليين إلى محلها، فدمروها بقنابلهم وغادر درنة ولما وصل طبرق اشتبك مع المجاهدين، وقتل منهم خمسة، وجرح أكثر من ثمانية عشر، وأخذ أسلاب الموتى وحرق ستة من الأسرى المجاهدين، وذبح اثنين منهم كالأغنام، وفي طريقه إلى السلوم التقى بألماظ أفندي يحمل مساعدات للمجاهدين، وكان المبلغ الذي معه تسعة آلاف جنيه، فأخذها منه، وباح بجميع الأسرار الحربية لأعداء الإسلام[1].

وكان عزيز المصري قد واعد أحمد الشريف بتسليم السلاح والذخائر للمجاهدين قبل رحيله، إلا أنه رفض وتذرع بأنه لا يركن إلى القبائل البدوية ويخشى أن تهاجمه وقواته عزلاء من سلاحها، لقد أثبتت الوثائق البريطانية التي نشرت مؤخراً صلات عزيز المصري بالمخابرات الإنجليزيّة[2] والإيطالية، ولقد قام بحرق الأسلحة التي معه عندما صعد ظهر الباخرة الألمانية التي كانت في انتظاره هناك، ولم يكتف بذلك، فقد أشاع لدى وصوله إستانبول بأن السيد أحمد الشريف قد خان وتنكر للسلطان العثماني ومساعداته، مما جعل أحمد الشريف يوفد سفيره عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول ليوضح الحقيقة للمسؤولين العثمانيين الذين يعرفون صدق أحمد الشريف[3].

ثامناً: استمرار العمليات الجهادية:

ورغم كل الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد عام 1913م إلا أنها شهدت عدداً من المعارك ضد الإيطاليين في معظم جهات برقة، ومن أشهر تلك المعارك: معركة شتوان ببنغازي 10 مارس، معركة قاريونس يوم 26 مارس، معركة بنينه يوم 14 أبريل، معركة الرجمة يوم 22 أبريل، معركة الأبيار يوم 26 أبريل، معركة البويرات يوم 18 يوليو بالجبل الأخضر، معركة زاوية ترث يوم 24 مايو غرب القبة بالجبل الأخضر، معركة الصفصاف أول يونيه قرب سيدي حميدة، معركة 15 يوليه شمال الأبيار، معركة تاكنسي يوم 16 سبتمبر بالجبل الأخضر، معركة سيدي رافع يوم 27 سبتمبر بالبيضاء، معركة المرج 19 أغسطس[4].

ومع بداية عام 1914م أحاطت بالمجاهدين صعوبات شديدة منها: انقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن، واستدعاء تركيا لبقية قواتها العاملة في برقة بكامل معداتها، وبقيت

---

(1) انظر: برقة العربية، ص279.
(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص45.
(3) المصدر السابق نفسه، ص46.
(4) انظر: الحركة الوطنية في ليبيا، ص46.

البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة للهجوم[1] واستجاب خديو عباس لضغوط وترغيب إيطاليا، وحاول شكيب أرسلان أن يقنع خديو عباس بدعم المجاهدين، وكان الخديو قد غير موقفه من المجاهدين وخصوصاً بعد الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا، يقول شكيب أرسلان في رسالة بعثها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوي من جنيف في 18 سبتمبر 1916م يشرح فيها ما وقع له عندما قابل الخديو في أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر في طريقه إلى الأستانة للبحث في مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة: «وعندما جئت من طرابلس إلى مصر في شهر أغسطس 1912م وذهبت من مصر إلى الأستانة مسرعاً كان السبب في ذلك أني علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطاليا فخفت أن تهمل طرابلس تماماً، فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفية عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد، ولا تذهب طرابلس، ولما وصلت إلى السلوم قال رجال الحكومة المصرية هناك إن سمو الخديوي أرسل يسأل عني...»[2]. ويتحدث الأمير شكيب كيف كانت مقابلة الخديوي له، وكيف سأله عن كل شيء ما عدا الجهاد في ليبيا، وينقل لنا الحوار الذي تم على مائدة الإفطار، وكان بجانب الخديوي حسين باشا رشدي ثم قاضي مصر - وكان تركياً - والشيخ علي يوسف، فقال الشيخ علي يوسف: إن الدول قررت عدم إقراض مال لتركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا، فقال شكيب أرسلان: إن تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظاً لشرفها، فقال الشيخ علي: ومن أين تأتي بالمال؟ فقال شكيب: كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو 70 ألف جنيه كل شهر، والحال أن إيطاليا تنفق في الشهر مليون جنيه، فقال الشيخ علي: إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا، كالمليون جنيه بالنسبة إلى إيطاليا، فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب، فقلت له: إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامي يقدر على مساعدة طرابلس، فقال: أما نحن أهالي مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين إذ يكونون حينئذٍ رعية ثائرة على إيطاليا. قال شكيب: هذا كله يقوله الشيخ علي يوسف لا الخديوي، بل الخديوي كان ساكتاً وقد علت وجهه الحمرة، .. فلما سمعت جدال الشيخ علي هذا غضبت، وقلت له بحدة: لا تساعدون أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم، فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوي، وصار قاضي مصر يبتسم، وقمنا عن السفرة إلى الصلاة، فأخذني الخديوي بيدي؛ لأنه شعر بكوني تأثرت جداً، وما زال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتنحى قليلاً إلى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعني، وكل هذا يقصد به تلطيف خاطري، وأنا لا أعي من التأثر، فلما بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن الإمام حاضراً

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص156.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص152.

مجلسنا ولا سمع شيئاً مما دار بيني وبين الشيخ علي ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة[1] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: 65].

وبالرغم من كل الظروف وبقاء المجاهدين وحدهم في القتال، وأمام تعدد احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، وضغط الإيطاليين عليهم بالتركيز في شن حملات قوية وكبيرة إلا أن المجاهدين استمروا بنفس الروح الجهادية الأولى[2] وكان المجاهدون التزموا الدفاع والتربص بالعدو حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقضوا عليهم، فيوقعوا بهم شر مقتلة، وغنموا منهم أسلاباً كثيرة أمدتهم في الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب التنقل مما كانوا في حاجة ملحة إليه جميعه وظل الحال على هذا المنوال[3].

تاسعاً: تمركز قوات أحمد الشريف قرب السلوم:

بعد أن سحبت تركيا قواتها وتركت البلاد تخوض جهاداً شعبياً، معتمدة على طاقاتها الكامنة، ومقوماتها الذاتية، عقد أحمد الشريف السنوسي اجتماعاً عاماً لشيوخ الزوايا، ورؤساء الجند، وزعماء القبائل، تدارسوا خلاله الأوضاع العامة في برقة، واحتمالات الحرب، ومدى استعدادهم لمحاربة القوات الإيطالية الصليبية، واستقر رأيهم على الانتقال بكافة القوات الجهادية التي كان يبلغ عددها قرابة السبعة آلاف مقاتل، إلى منطقة إمساعد القرية الحدودية والمتاخمة للحدود الشرقية مع مصر؛ لأن مصر تشكل عمقاً إستراتيجياً لقوات المجاهدين، وكانت تأتيها المساعدات من قبل المسلمين بالتهريب عبر الحدود، وكانت بريطانيا مضطرة لغض البصر على المساعدات التي كانت تصل المجاهدين خوفاً من إثارة الرأي العام الإسلامي ضدها، وخاصة مستعمراتها، إذا ما ظهرت متآمرة على جهاد الليبيين، ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى ذهبت بريطانيا للتقرب من أحمد الشريف وحاولت أن تمد جسورها معه، كي تستعمله ورقة ضغط على إيطاليا، لا سيما وأن ملامح الحرب العالمية الأولى كانت قد بدأت تلوح في الآفاق، وكان أحمد الشريف يقظاً لما يجري حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع أحمد الشريف في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي، ومع اندلاع العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة، كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا وألمانيا بالدرجة الأولى، وبريطانيا ومصر بعد ذلك[4].

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص153.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا ص47.

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص156.

(4) انظر: حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت، ص12.

المبحث الخامس

الحرب العالمية الأولى

في أول عام 1333هـ قامت الحرب العالمية الأولى ما بين ألمانيا وحليفاتها النمسا وبلغاريا، وإيطاليا، وما بين بريطانيا وفرنسا وتبعتهم دول أوروبا الصغيرة ما عدا سويسرا، كما انضمت إليها روسيا وأمريكا، وكانت تركيا مترددة في الدخول مع هذا أو ذاك حتى أول عام 1334هـ دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا وحليفاتها، وفي نفس الوقت قامت إيطاليا وخانت حليفتها ألمانيا، وانضمت إلى صف الحلفاء فرنسا وبريطانيا، وحليفاتهم روسيا وأمريكا، وبدخول تركيا الحرب ضد الحلفاء الذين كانوا يتوقعون منها ذلك تكالبوا عليها، وفتحوا عليها عدة جبهات، فكانت روسيا تحاربهم بالقفقاس، وفي عموم شواطىء البحر الأوسط، والإنجليز في عموم شواطىء البحر الأحمر، واستطاعت بريطانيا أن تفتن أمير مكة الحسين بن علي وتحرضه على الدولة العثمانية وحدثت معارك أضعفت الدولة العثمانية بسبب تلك الأمور[1]، لقد خدعت بريطانيا الحسين بن علي وأعطته وعوداً وأملاً ومنته بإقامة دولة عربية تشمل كامل جزيرة العرب في الحجاز، وشرق الأردن، وأطراف نجد، وبادية العراق، وسوريا وفلسطين، وثاروا على تركيا لثورته، فعمت البلوى، ولم يكتف الحلفاء بهذا كله، فجمعوا قواتهم الجوية، وأساطيلهم الحربية في البحر الأبيض، وفتحوا جبهة الدردنيل وكانت هذه الجبهة هي أشد الجبهات على تركيا وأخطرها، ولذلك كرست ما لديها من المجهود لدفع هذه الجبهة، واستمرت معركة الاستماتة زهاء ستة أشهر، استشهد خلالها ما ينوف عن مائتي ألف جندي للأتراك لكنهم دفعوا العدو إلى البحر[2].

وكانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنجليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف فهذه رسالة أرسلها اللورد كتشنر بواسطة بعض عملائهم.

«بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى اللورد كتشنر المعتمد السياسي لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصري.

إلى مهبط أسرار الحضرة الربانية، ومصدر صفوة الإرشادات اللدنية صاحب التجليات الأسنية، والنفحات القدسية، قطب دائرة أهل الفضل والكمال، وخلاصة أرباب الحجا

(1 - 2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 36 - 37).

والجلال، المتحلي بروحانية أسلافه الطيبين الطاهرين، والمتجمل بصفات أهل الجمال واليقين، والمتخلي عن أوضار الأغيار في مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية، خليفة صاحب ذلك النور القدوسي سيدي أحمد الشريف السنوسي رضي الله عنه وأيده بروح منه.

أما بعد، فإن الفرصة التي دعتني الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص، وإن كانت القصة الداعية إليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الإمام المهدي العظيم وولي الله الكريم قد يسره أن ترفع إليه الظلامات ليحقق آمال رافعيها، وأن تصل إليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها، ولهذا يسرني أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم، ولم يستأصل إرشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم، ولذلك أكتب لمقامكم الكريم ما يلي:

قد ورد لي من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبابيش التابعين لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلاً قصدوا بير النظرون التابع لمديرية دنقلا، وبينما كانوا عند البئر إذا انقض عليهم عدد عظيم من العربان، بينهم نحو مائة من أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة، والباقون من أهل زغاوة والبديات، واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم إلى هذا الشر وداعيهم إليه قبل كل أحد زعيم الفزانين، واسمه الشيخ محمد أبو دوشي الفزاني أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم وإحسانكم إذ ذهب برجاله إلى عربان غزاوة والبديات، وطلب منهم الانضمام إليه لمقاتلة الكبابيش وحرضهم على ذلك حتى انصاع إليه جمع منهم، فبلغ ذلك عدد عصابته التي أغار بها على ذلك النفر القلائل، ولم يخف سطوة الله عز وجل، ولم يذكر أن عمله المنكر فضلاً عن دونه يغضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذي هو من سخط الله وغضبه، وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار، بإزاء جماعة الكبابيش الذين كانوا عند البئر، بل أخذهم غدراً وفاجأهم على غرة منهم، فبينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً إذ أطلق عليهم رجال من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً، فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم، فطعنوا في صدورهم، أنكى الطعنات، وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة، وأسروا اثنين، وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع، ثم استاقوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الأحمال غير مبالين بأن يعدوا في شريعة الإسلام من العاثين في الأرض فساداً، وأن جزاءهم فيها إذا وجدوا قضاة عدولاً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، إلخ. الآية الكريمة، فيرى السيد حفظه الله ووفقه لإجراء عدله حكم الله وسنة رسوله الأمين، أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة، ويعتزون بطول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء، وخانوا عهد

طريقتكم السمحاء، ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم، ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه، وبطش الله وعقابه، وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم، مع ما يعلم القاصي والداني من خضوع هؤلاء الأقوام لسطوتكم وائتمارهم بأوامركم، ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور، وشدة بأسكم على أهل البغي والعناد، وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت إليكم تراثاً عن أسلافكم العظماء الأكابر ذوي البأس الشديد، والتاريخ المجيد، فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثيرو العدد من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر، فيقتلون منهم الأنفس، ويسلبون الأموال والمتاع، وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم، لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث إجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة، وتضرب بهم الأمثال للناس، وهي لا تعدم الوسيلة لذلك، ولكن بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والإنصاف، والغيرة على إقامة معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم، وتمتد إليها سطوتكم، قد فضلت أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة، لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فإذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وإنصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الأذى عن جيرانهم، وإخوانهم في الدين، وأن يكلف أولئك المعتدين بردّ الجمال والأحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الدية للمقتول، والتعويض للمجروح، ظلماً وعدواناً، ولست أظن أنه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد، ولكن إذا كان هناك مانع لا أعرفه فإنني أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول إلى تلك الغاية من غير أن يمس كرامتكم التي أودّ أن أحافظ عليها دائماً وأطلب من الله المزيد منها، وقد أرفقت بكتابي هذا بياناً مشتملاً على أسماء الأشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبابيش، ومن قتل ومن جرح منهم، لتكونوا على بينة من الأمر، ولتجروا العدل فيهم، كما أمر الله، جعلكم الله ملاذاً أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وأمدكم بروح منه، ما دامت إحساناته إليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة، ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين[1].

(اللورد كتشنر باشا)

بغض النظر عن حقيقة هذه القصة التي في الرسالة، إلا أننا نجد فيها أموراً مهمة منها: اهتمام الإنجليز بشخصية أحمد الشريف واحترامها ومحاولة كسبها واستمالتها، ونجد أيضاً

---

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 2/ 129 إلى 131.

استعانة الإنجليز بالعرب الأدباء ليكتبوا لهم ما أرادوا توجيهه لسيادة أحمد الشريف -ﷺ- وهذا أسلوب إنجليزي معروف، فيحاولون إيجاد ثغرات ومنافذ في كيان الأمة والسعي الدءوب في تضعيفها، وتمزيقها، فقد نجحوا مع أمير مكة الحسين بن علي، وهم الآن يحاولون مع أحمد الشريف، كانت بريطانيا حريصة على جذب السيد أحمد الشريف إلى معسكرها، أو تحييده، وكانت حريصة على أن تكسب الشعوب الإسلامية، وأنها تعمل على مساندة حركة المجاهدين المسلمين في ليبيا، فتخدر بذلك مشاعر المسلمين في مصر والهند، وغيرها، وأظهرت تعاطفها مع أحمد الشريف للضغط على إيطاليا، وتضعيف تحالفها مع ألمانيا في حربها المنتظرة.

أولاً: إقحام أحمد الشريف في الحرب:

بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومتان التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزي، ولتحقيق هذه الغاية بعث أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه أن السلطان العثماني قرر منحه النيابة عنه في إفريقيا، ويخوله ما له من نفوذ مطلق مدنياً، وعسكرياً، مثل حق إعطاء الرتب، والنياشين، والعفو عن المحكومين، والتولية والعزل، دون الرجوع إلى الباب العالي بإستانبول، ثم وصل إلى برقة الضابط العثماني أخو أنور باشا «نوري باشا» ومعه الأوسمة الرفيعة والنياشين، وقابل أحمد الشريف قرب السلوم وسلمه رسالة أخيه أنور التي كانت تحمل نبأ إعلان الحرب، وتعيين السلطان له نائباً عنه في إفريقيا الشمالية[1]، وفي نفس الفترة وصل برقة الضابط الألماني مانسمان[2] الذي كان معه كتاب خاص من إمبراطور ألمانيا إلى أحمد الشريف، ويحمل نيشاناً رفيعاً منحه الإمبراطور إليه، كما وصلها أيضاً جعفر العسكري[3].

وكان هؤلاء الضباط مستائين من سياسة أحمد الشريف تجاه الإنجليز، لأن ذلك يخالف أغراضهم التي جاءوا من أجلها، وبذل نوري باشا ورفقاؤه جهوداً مضنية للتأثير على أحمد الشريف كي يهاجم الإنجليز، فأخفقوا أمام إصرار أحمد الشريف عن الامتناع، ووصلت عدة كتابات من أنور باشا يبين فيها للسيد أحمد الشريف فوائد الصدام مع الإنجليز، والاصطدام بهم ورد عليه أحمد الشريف بتقرير بتاريخ 29 صفر سنة 1335هـ جاء فيه: «... حرب يأتيك - يقصد به حرب الطليان - وحرب تأتيه - يقصد بها حرب الإنجليز - فالحرب الذي يأتيك يجب

---

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص50.

(2) مسؤول المخابرات الألمانية في المغرب العربي.

(3) قائد تركي أصله عراقي أسر في هذه الحرب عام 1916م.

عليك مدافعته بأي حالة كانت، والحرب الذي تأتيه يجب عليك الاستعداد له»[1].

ويوضح تقرير أحمد الشريف أنه مهتم بأمر حرب الطليان الذين جاءوا إلى أرضه، وأنه يجب عليه أن يركز جهوده عليها من أجل تحرير بلاده، وفي نفس الوقت فهو غير مستعد لإعلان حرب جديدة لا قدرة له عليها، ولا تسمح له ظروفه الحربية والسياسية، والاقتصادية القيام بها.

وهناك سؤال يطرح نفسه في نص تقرير أحمد الشريف وهو ماذا يقصد بعبارة «يجب عليك الاستعداد له» إن أحمد الشريف يؤكد لأنور وزير الحربية من خلال هذا التقرير أنه يجب الاستعداد لهذه الحرب، إن أحمد الشريف كان لا يريد الدخول في حرب إلا مع أعدائه الإيطاليين المحتلين للأراضي الليبية، وخصوصاً أنه يريد أن يحافظ على علاقته الجيدة مع الإنجليز الذين كانوا قد تركوا السنوسيين وشأنهم ولم يعتدوا عليهم، «وكان حيادهم على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لحركة الجهاد؛ لأن جميع ذخائر المجاهدين في الجبهة الشرقية كانت تأتي من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله»[2] وقد ترك الإنجليز المجاهدين يبيعون الأسلاب التي غنموها من الطليان في ميناء السلوم، وحرصوا على أن تكون العلاقة بينهم وبين السنوسيين جيدة، فكانوا يبعثون الهدايا والكتب ومعها رسائل الاحترام والتقدير لشخصه وبلاده، كما أن أحمد الشريف نفسه كان يجامل المسؤولين الإنجليز لتأمين حدود بلاده وسلامتها أولاً، ثم لقضاء حاجياته من مصر، فقد كانت تصنع فيها ألبسة رجال جيشه وكان بعض العتاد والذخائر يصل إليها منها[3].

كان أحمد الشريف مشفق من التورط في أمور هو في غنى عنها في ذلك الوقت بالذات، ولذلك فقد طلب من الشيخ محمد سوف المحمودي الذي وصل من تركيا أن يسافر برجاله إلى طرابلس، وأن يقيم معسكراً بمجرد وصوله إلى هناك لمواصلة حرب الإيطاليين، وقد منحه أحمد الشريف رتبة بكباشي شرف تقديراً لشخصه وجهاده، وأطاع الشيخ سوف الأمر، وسافر برجاله إلى طرابلس، وذلك في أوائل شهر يناير سنة 1915م.

إلا أن منظمة تشكيلات مخصوصة وهي تابعة للمخابرات العسكرية العثمانية يعرفها البعض: «بأنها منظمة عثمانية سرية غامضة مهمتها الأساسية الأمن الخارجي للإمبراطورية العثمانية، ومكافحة التجسس الأجنبي عليها وكان لمعظم المتسبين إليها الصفة العسكرية[4] حاولت هذه المنظمة أن تجعل من أحمد الشريف أداة طيعة تستغلها حسبما تمليه مصالح

(1) انظر: برقة العربية، ص314.
(2) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ص336.
(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص57.
(4) المصدر السابق نفسه، ص53.

الإمبراطورية العثمانية، وليس حسبما تقتضيه مصالح ليبيا والمتمثلة في تحريرها من الاستعمار الإيطالي، وكانت الحكومة التركية قد أرسلت بعض أنصارها الذين هم من ولاية طرابلس الغرب، وكانوا قد هاجروا إلى تركيا بعد فشل المجاهدين في معركة جندوية سنة 1913م وكان من هؤلاء الشيخ سليمان الباروني، عضو مجلس المبعوثان، وزعيم الجهاد الطرابلسي في الفترة الأولى 11/ 1913م وكان الباروني: «عثماني الميول وهو على علم بالمخطط التركي لغزو مصر، وإعداد حملتين لها شرقية وغربية وإخراج الإنجليز منها، ثم تحرير طرابلس بعد إخراج الطليان منها. .» وقد عبر عن هذا عند وصوله إلى برقة وسأله هلال محمد الشريف السنوسي وهما بالسلوم عن شعر رأسه الطويل، وهو رجل متقدم في السن وصاحب منزلة كبيرة، ما هذا الشعر يا باشا؟ فردّ الباروني: سأجيبك بقصيدة من شعري؛ لأنه أحمل من شَعْري. . وكان مما قال:

هــذا هــو الــشــعــر الــذي ... شــهــد الــحــروب الــهــائــلات
وعــلــيــه أمــطــرت الــقــنــابــل ... كــالــصــواعــق نــازلات
خــاض الــمــعــامــع لا يــهــاب ... عــلــى الــجــيــاد الــصــافــنــات
حــبــاً بــتــطــهــيــر الــمــواطــن ... مــن بــنــي الإيــطــالــيــات
آلــيــت أن يــبــقــى إلــى ... أن يــعــبــر الــجــنــد الــقــنــاة(1)
لــنــرى الــغــزاة عــلــى ضــفــاف ... الــنــيــل تــفــتــك بــالــبــغــاة
ونــرى طــرابــلــس الــعــزيــزة ... فــي لــيــال بــاهــرات
تــخــتــال فــي بــرد الــهــنــا ... بــالانــتــصــار عــلــى الــطــغــاة
وتــســود أعــلام الــخــلــيــفــة ... فــي الــبــلاد الــضــائــعــات
ونــرى الــهــلال مــتــوجــاً ... جــزر الــمــحــيــط الــخــالــدات
إذ ذاك يــحــلــق بــيــن ... أفــواج الأعــاظــم والــغــزاة
مــا بــيــن تــهــلــيــل وتــكــبــيــر ... وتــقــديــم الــصــلات
فــيــكــون عــنــوان الــفــتــوح ... مــدى الــعــصــور الــدائــرات
أو هــكــذا يــبــقــى إذا ... لــم نــنــتــصــر حــتــى الــمــمــات
يــا مــن وعــدت الــمــســلــمــيــن ... الــنــصــر امــنــن بــالــحــيــاة(2)

عزمت المنظمة العثمانية على الزج بقوات أحمد الشريف في حرب لم يكن في حاجة إليها، خاصة في ذلك الوقت، ولما يئست هذه المنظمة من إقناع أحمد الشريف بتلك الحرب،

(1) القناة: قناة السويس في مصر.
(2) انظر: الشهيد، العدد الخامس، 1984م، ص146.

اتجهت نية ضباط تشكيلات مخصوصة إلى الخلاص من أحمد الشريف، وأعدت انقلاباً ضده، وتفجير خيمته، ووضع بديل له من العائلة السنوسية، يكون أسهل انقياداً وانصياعاً لمخططات هذه المنظمة، وتم إعداد المؤامرة إلا أنه اكتشف أمرها، وألقى القبض على المتهمين، وأمر أحمد الشريف البقية من مهاجري طرابلس بأن يسافروا إلى بلادهم بسرعة للانضمام إلى الشيخ محمد سوف، وأنذر أحمد الشريف من يخالف أوامره بالإعدام، فنفذت كاملة، وهدأت الحالة، وكان ذلك في شهر فبراير عام 1915م[1] ووصل الأمر بأن اتهم أحمد الشريف بأنه ممالىء للإنجليز سراً، وفي مقابلة مع أحمد الشريف قام بها الضابط المصري محمد صالح حرب قبل نشوب الحرب، سأل الأخير أحمد الشريف عن حقيقة موقفه، فأجابه: «... إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه في حرب مع الإنجليز قبل أن يستعد لها، وأنه لا يمالىء الإنجليز محبة فيهم أو تقرباً منهم، ولكن مصر هي الباب الوحيد المفتوح الذي تأتيه منه الأرزاق التي يستطيع بسببها متابعة القتال ضد الطليان، فإذا قفل هذا الباب تحرج موقفه، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية والتي يكون فيها الغناء عن ذلك المفتوح، ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال، ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة ويلحون في هذا الطلب، مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يحين الوقت الملائم يعود بالشر والوبال على الجميع، وختم السيد أحمد قوله: «وإني أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة، ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا، وأنا ليس في نيتي أن أحارب الإنجليز»[2].

استمر ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة في مهمتهم الرئيسة لإقحام أحمد الشريف في حرب ضد الإنكليز وقد اعترف نوري باشا بأنه صار مرغماً بسبب سكوت أحمد الشريف على تدبير المخطط لقصم العلاقات القائمة بينه وبين الإنكليز، وبادر الأتراك سرياً بمهاجمة المراكز البريطانية، وزوروا أوامر أحمد الشريف إلى ضباط العرب وعساكرهم ووقع ما وقع[3] وأرسل الأتراك سعادة إلى مصر يقولون: إن أحمد الشريف يأبى الزحف إلى مصر مداراة للإنكليز مع أنه حضر من الأستانة لأجل إعداد حملة على مصر وإنقاذها من أيدي الإنكليز، فصارت تتوارد من مصر الرسل إلى أحمد الشريف تعاتبه على موقفه هذا[4].

وعلى العموم فإن الأمور تلاحقت، وتتابعت الحوادث على الحدود بفعل التأثيرات الشديدة للحرب وضغوطها على الجانبين، فلم يكن بمقدور أحمد الشريف صد تيار الانجراف،

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص59.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص167.
(3) انظر: برقة العربي، ص315.
(4) انظر: الحركة الوطنية الوطنية شرق ليبيا، ص63.

فحدث ما حدث دون أن تكون له سيطرة على زمام الأمور، وحاول الإنكليز تدارك الموقف بالطرق الدبلوماسية، تجنباً للعنف والصدام مع السنوسيين وتقليلاً لعدد خصومهم وأعدائهم، في وقت كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها، فاتصلوا بالسلطان حسين كامل «سلطان مصر» وأطلعوه على ما جرى وراء الحدود، ورجوه أن يعمل للإصلاح والتوفيق ولإقناع أحمد الشريف بالتزام الحياد، والتنبيه إلى خطورة الاستماع إلى الأتراك والألمان، فأرسل السلطان حسين كامل وفداً برئاسة محمد الشريف الإدريسي نجل عبد المتعال بن أحمد بن إدريس، وكانت معهم رسائل من السلطان حسين كامل، ومن السير ماكمهون نائب ملك الإنكليز في مصر، ومن الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال البريطاني في مصر، وتدور الرسائل حول فكرة النصح للسيد أحمد الشريف بالتزام الحياد[1].

وهذا نص الرسالة التي أرسلها الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في 3 ديسمبر سنة 1915/ 25 محرم سنة 1334هـ.

حضرة الأستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني دام وجوده الكريم.

تحية وسلاماً وبعد، فقد أدهشني ما وجدته بعد عودتي إلى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة في غليبولي، إن العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير، وإن أتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية.

وقد سمعت بارتياح أنكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم إلى البراني ليسعى في إرجاع بعض أتباعكم الذين عصوا أوامركم، ولكني تعجبت إذ سمعت أن هؤلاء الأتباع قد تمادوا في العصيان، حتى أنهم لم يطيعوا الأوامر فقط، بل أطلقوا فعلاً على جعفر أفندي، هذا وقد بلغني أيضاً ما أهمني وهو أن سبعين رجلاً من رعايا الدولة الذين نجوا من مركب غرّقته العدو قد حجزوا غرب حدودنا، فأسألكم برهاناً على العواطف الودية التي أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكوبي الحظ حالاً بدون أذى إلى مرسى مطروح، وهذا ويظهر أن نفوذ نوري بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا، وهذا النفوذ الضار هو الذي زج تركيا في الحرب المهلكة والتي ستنتهي حتماً بزوال دولة الأتراك من الوجود، إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام، وأما الآن فقد اضطررت بسبب المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن أستدعي رجالي من نقطة

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق لىبيا، ص65.

السلوم، وأتخذ لهم مركزاً في مرسى مطروح، وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون بقاء العلائق الودية أم لا.

ومن الآن وصاعداً كل رجل من أتباعكم يتعدى الحدود حاملاً سلاحه أضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعماله كذلك، لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا، وأنا أتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا إلى الآن من إبعادهم، إني لا أشك أن السيد محمد الشريف الإدريسي قد سلمكم كتابي، وفاوضكم في جميع الشؤون التي أولج إليه مفاوضتكم فيها، ولا أشك في أنه بين لكم مقاصدنا نحوكم ودية محضة، وأن ما أوجب التغيير في العلاقات بيننا هو أعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا، ولا يسعني إلا الظن بأن الدساسين قد نقلوا أخباراً كاذبة عن الحرب الأوروبية، والحقيقة هي أن خسارة إمبراطور الألمان وحلفائه بطيئة، ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراد الله.

وإني أسألكم أن تمعنوا النظر في الأمر وتعتبروا أنه إذا اتخذتم بسوء الحظ خطة عدائية فإنكم لا تجلبون عليكم إيطاليا، بل فرنسا، وإنكلترا، ومصر، وتتحملون مسؤولية جميع النفوس التي تضيع في هذا السبيل، وتعرضون بلادكم للجوع، إذ تسد عليكم طريق الزاد والمؤنة براً، وتحصر الشطوط البحرية، وإذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شيء، وأنى لكم، ذلك كله ليس بقصد التهديد، بل بقصد «النصيحة» كصديق، والأتراك يقضون بكم مأربهم، ثم ينبذونكم نبذ النواة وراء ظهورهم.

إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه الآن، ولذلك فإني أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم، بالأعمال، وليس بالأقوال، وأن ترسلوا حالاً إلى مرسى مطروح الرجال الإنكليز الذين نجوا من مركبهم وهو الآن غرب حدودنا، وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا، وأن تخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان، أي نوري بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً، ولي الرجاء أنكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر ولا يمكن تلافيه[1].

وقد كلف الجنرال ماكسويل رئيس الوفد بأن يبلغ أحمد الشريف باسم حكومته بأنها إذا انتهت الحرب العظمى الأولى، ولم يشترك فيها أحمد الشريف، وحافظ على الحياد، فإن إنكلترا تتعهد بأن تساعده في الحصول على استقلال بلاده وتوفق بينه وبين إيطاليا، كما أنه سيكون أعظم شخصية عربية في البلاد العربية ومرجعاً لأمراء العرب، وكبرائهم[2].

---

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 2/ 132، 133، 134.

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص264.

واستمرت جهود ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة لإشعال نار الحرب على الحدود، واستمالوا بعض العناصر بالوعود، والمال والذهب، ومن هؤلاء الذين تأثروا بدعاية الأتراك «أحمد مختار الطرابلسي وأبو القاسم وآخرون»[1].

وكان هؤلاء الضباط قد هاجموا القوات الإنكليزية قرب السلوم، وكان كل هذا يجري دون علم أحمد الشريف، وفعلاً هاجم المسلحون نقطة حراسة القوات الإنكليزية في السلوم، وعلم أحمد الشريف بالحادثة في صباح اليوم التالي، فتأثر لذلك كثيراً، واضطرب اضطراباً شديداً وحاول إصلاح الموقف، إلا أن الأمور سارت بما لا تشتهي، وانفرط زمام الموقف من يده فوجد نفسه هدفاً لهجوم مضاد من قبل الإنكليز، فما كان منه إلا أن يقبل الأمر الواقع الذي أوقعته فيه ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة[2].

وكانت الأحداث تتجاذب أحمد الشريف بشدة، وتضعه في جملة من المواقف الحرجة منها:

1 - إن تركيا مسلمة وهي تمثل الخلافة الإسلامية في نظره، وكان طبيعياً أن يميل إلى الإسلام والمسلمين ومساعداتهم.

2 - إن قوة الألمان العسكرية، وانتصاراتهم الباهرة مع بداية الحرب العالمية الأولى أقنعت بصورة أو أخرى أحمد الشريف بقوة ألمانيا العسكرية، وبأنها ستحقق النصر النهائي على قوات الحلف «فرنسا وبريطانيا وإيطاليا».

3 - إن وعود بريطانيا للسيد أحمد الشريف بالتنازل له عن بعض الواحات هي وعود شفوية، أو كتابية فقط، ولن ترى النور، ولن تخرج إلى حيز التطبيق العملي مطلقاً، وهذه هي عادة بريطانيا التي كانت تطلق وعوداً غامضة متكررة ومتناقضة تصدر تحت ضغط الحرب.

4 - كان أحمد الشريف مديناً بالولاء الودي والجميل للأتراك، فهم الذين قاتلوا وجاهدوا مع الليبيين في برقة وطرابلس، وله ارتباطات متينة مع كبار الضباط الأتراك، وعلى سبيل المثال كعلاقته مع أنور باشا وزير الحربية، كما أنه أصبح نائب السلطان «بحكم فرمان سلطاني» في شمال إفريقيا.

5 - إن وعود الأتراك «الباب العالي - السلطان - وزارة الحربية - كبار الضباط - منظمة تشكيلات مخصوصة. .» للسيد أحمد الشريف بتزويده بالسلاح والعتاد، والمال، وكل

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص66.

(2) المصدر السابق نفسه، ص66.

مستلزمات الحرب، كانت وعوداً صادقة في البداية، وكان في تصور أحمد الشريف أن ذلك العون سيستمر حتى تحرير البلاد، وخصوصاً أنهم بعثوا له بعض العون عن طريق الغواصات الألمانية قبل قيامه بإعلان الحرب ضد الإنكليز في مصر.

6 - التقت مصلحة أحمد الشريف ومصلحة الأتراك والألمان في شيء واحد، ينتفعون جميعاً من فعله، والقيام به، ألا وهو محاربة إيطاليا؛ لأنها عدوة لهم جميعاً في تلك الفترة[1].

ورغم كل ذلك ومهما كانت الظروف، فإن قراره بمهاجمة الإنكليز عبر الحدود المصرية، كان قراراً سريعاً رغم أن السيد أحمد قد رفضه وبشدة في البداية، لأنه على يقين أن ذلك الهجوم لا يتمشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الاستراتيجية، اتخذوا من أحمد الشريف مطية لتحقيق أغراضهم، ونحن نستغرب موافقة السيد أحمد على الدخول في تلك الحرب، فهي خارج بلاده، وتنقصه العدة، والأسلحة، كما ليست ضد إيطاليا المحتلة لوطنه، لقد كان خطأ في الحكم والتقدير من رجل محنك صقلته التجارب، وابتلته الأحداث، وكان له في ميادين السياسة والحرب صولات وجولات.

كان يجب عليه أن يتعاون مع الأتراك والألمان ضد إيطاليا لتحرير بلاده أولاً[2].

ومهما يكن من أمر فإن الظروف لعبت دورها واشترك أحمد الشريف بقواته، وسار بجيشه وعدده أربعة آلاف مسلح وكان معه نوري باشا قائداً أولاً وجعفر العسكري قائداً ثانياً، وغرضهم الهجوم على السلوم، وجهز الإنكليز جيشاً بلغ تعداده ثلاثين ألفاً من مشاة وفرسان.

وقامت الحرب بالفعل في نوفمبر سنة 1915م، وأخذت الفرق العسكرية النظامية والمتطوعة تنحدر إلى الأراضي المصرية، وبدأت القيادة في إعلان وجوب اشتراك رجال القبائل المصرية في الحرب ضد الإنكليز المحتلين لمصر، والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية[3].

وكان الضابط المصري محمد صالح حرب تابعاً للقوات الإنكليزية، فجمع الرؤساء والمشايخ وخاطبهم قائلاً: «نقف اليوم بين معسكرين: الإنجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا، وقد أقنعني ضميري واجبي الديني بعدم البقاء مع الإنكليز، وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدهم، فمن كان منكم يحرص على حياته أو تلزمه أية مسؤولية عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح فإنني لا أحول بينه وبين العودة، إنما شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة..»[4].

---

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص60، 61.

(2) المصدر السابق نفسه، ص60، 61.

(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص69.

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص173.

فلم يرغب أحد منهم في العودة، بل أبدوا جميعاً التصميم على البقاء إلى جانب رئيسهم، وعاهدوه على الجهاد والثورة التي بدأت بصورة علنية، واستجاب لها بعض عرب قبائل أولاد علي، وبغض النظر عن عدد هذه القوة التي انضمت لقوات السيد أحمد، وغالباً ما كانت تقدر بحوالي مائة وخمسين جندياً[1]، فإن هذه القوة المنظمة للمجاهدين أعطتهم دفعاً جديداً وأججت في نفوسهم الرغبة لمنازلة الإنكليز وتحرير الديار من نير المستعمرين.

بدأ هجوم المجاهدين والأتراك على القوات الإنكليزية عند حدود مصر، ودارت معارك طاحنة من أشهرها معركة وادي ماجد في أواخر شهر ديسمبر عام 1915م، ومعركة العدو بوتونس التي قال فيها ضابط بريطاني شارك في هذه المعارك: «. . . لقد قام العدو بعزم شديد ومقاومة عنيفة ودام القتال من أجل إحراز قصب السبق أربع ساعات تحت نيران البنادق التي كان العدو يستخدمها بنجاح ودقة بقيادة ضباط أتراك وألمان، وعلى حين كنا نحاول بشق الأنفس أن نصمد دبت الفوضى في صف الفرسان على الميسرة، عندها قويت شوكة العرب الذين كانوا يجابهون هذا الجانب من صف الفرسان. . .»[2].

إلا أن المجاهدين كان ينقصهم الدواء واللباس، والذخيرة، والسلاح، ولذلك تأثرت بقية المعارك ونتائجها تبعاً لذلك، فأخذ المجاهدون في الانسحاب والتقهقر اضطراراً، وبذلك النقص والانسحاب تأزم الموقف، ودب الخلاف بين أحمد الشريف ونوري باشا، لتفاقم واشتداد الضرر الاقتصادي في معسكر المجاهدين وما حوله بشكل تجاوز الاحتمال[3] ولذلك عقد أحمد الشريف اجتماعاً عاجلاً لوضع حد معين لهذه الاحتجاجات والنواقص ولدراسة الأحداث من كل جوانبها، وعقد الاجتماع في أواخر يناير 1916م، في خيمة أحمد الشريف وحضره نوري باشا وجعفر العسكري عن الجانب التركي، ومحمد صالح حرب عن الضباط المصريين، وثلاثة من كبار رجال السيد أحمد الشريف الذي ترأس ذلك الاجتماع، وكانت تبدو على أحمد الشريف علامات الانفعال والغضب، وألقى نقده على الضباط الأتراك الذين تسرعوا في بدء العمليات العسكرية بالرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها، وكان مما قاله موجهاً حديثه لنوري وجعفر: «لقد قفلتم فمن أين نتنفس؟ . .»[4] وقد ختم أحمد الشريف حديثه مخاطباً «نوري وجعفر»: «فما رأيكم وقد أوصلتموها إلى هذا الحال. . وظهر إني كنت على هدى وكنتم على ضلال»[5].

وتناول الحديث محمد حرب بعد ما تكلم ضباط الأتراك وانتقد الخطة الحربية العامة

---

(1) انظر: منظمة تشكيلات مخصوصة، عبد المولى الحريري، مركز الدراسات العربية، عام 1979م، ص36.

(2) انظر: كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، عبد الرحمن عزام، ص38، 39.

(3 – 4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص78.

(5) انظر: السنوسية دين ودولة، ص176.

للضباط الأتراك، وكان رأيه مناقضاً لما ذكره «نوري وجعفر» ذلك أن التقدم من جهة الساحل «قرب البحر» وعلى أرض تكاد تكون مكشوفة بالكامل يُمكن - حسب رأيه - القوات الإنكليزية على قوات المجاهدين، وتسليط نيرانهم المختلفة عليهم، هذا إضافة إلى أن الأراضي الساحلية متماسكة، وتساعد الإنجليز في أن يستخدموا عرباتهم وسياراتهم ونقلياتهم بسهولة، وكذلك فإن نشوب المعارك قرب البحر يُمكن الإنكليز من استغلال البحر بسفنهم الحربية المزودة بالمدافع أو بنجدة سريعة للقوات الإنكليزية إذا ما حقق المجاهدون انتصاراً عليها، وبناءً على ذلك، فقد كان رأي الضابط المصري «محمد حرب» هو أن يتحرك المجاهدون في ناحية الجنوب محاولة منهم لاحتلال الواحات المصرية على التتابع، ويمكنهم بذلك الاتصال بمشايخ العرب ومسلمي الصعيد في المدن والقرى، الذين يرغبون في التخلص من الاستعمار الإنجليزي، لعل حركة الجهاد تشعل ثورة قوية تعصف بالحكم الإنجليزي في مصر، بالإضافة إلى توفر الماء، والتمور، وبالإضافة إلى ذلك فإن القوات الإنكليزية تضطر إلى نشر قواتها على طول وادي النيل، وبشكل يستهلك جزءاً من هذه القوات[1].

ورأى أحمد الشريف بصفته رئيس الاجتماع ونائب السلطان العثماني، أن تنقسم قوات المجاهدين إلى قسمين، قسم يتوجه إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات المصرية، وكان هذا القسم يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجاهد تقريباً يقوده محمد صالح حرب تحت إشراف السيد أحمد، والقسم الآخر يبقى في الشمال «الساحل» ويقوده جعفر العسكري ويشرف عليه القائد العام نوري باشا، وعدد رجاله ستة آلاف مجاهد[2] وانتهى ذلك الاجتماع على هذه المقررات، واتضح من خلال هذا الاجتماع بعض الأمور الهامة وفي مقدمتها ما يلي:

1 - سيطرة أحمد الشريف الكاملة على جميع القوات الزاحفة ضد الإنجليز عبر حدود مصر الغربية.

2 - خطأ القادة الأتراك سواء في عدم الاستعداد لهذه الحملة «عسكرياً، ومالياً، وبشرياً» أو في رسم الخطط الحربية، ووضع إستراتيجية هامة وتنسيق كامل لتحطيم النفوذ الإنكليزي في مصر.

3 - إن وعود الأتراك للسيد أحمد الشريف بأن المدد متواصل، ومستمر، ولن ينقطع ولن يكون هناك نقص في السلاح والذخيرة والعتاد، والمؤن والأموال واللباس والدواء. . . كانت وعوداً غير علمية ولم ينفذ منه شيء، بل كان نوعاً من الدعاية لخدمة مصلحة الأتراك وأعوانهم.

---

(1) انظر: المغرب الكبير، يحيى جلال، 3/ 860، 861.

(2) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي، ص68.

4 - اتضح وبجلاء أنه ليس بمقدور المجاهدين هزيمة الإنكليز والانتصار عليهم لتفوقهم في الإمكانات والقدرات المتباينة.

5 - اتضح الآن أن برقة يهددها شبح المجاعة ذلك أن جميع الطرق التجارية أقفلت «مع الإنكليز شرقاً، والفرنسيين جنوباً، والإيطاليين شمالاً».

6 - إن الحال الذي عليه المجاهدون يبدو من خلال ما دار في هذا الاجتماع متسماً بالصعوبة والضيق.

7 - صواب رأي أحمد الشريف في عدم الرغبة في دخول الحرب مع الإنجليز.

دخلت القوات الشمالية بقيادة نوري باشا في معارك طاحنة مع الإنكليز في معركة وادي مقتلة، ومعركة العقاقير، وكانت النتيجة هزيمة المجاهدين الذين أخذوا في الانسحاب نحو الغرب، ولحقت بهم السيارات المدرعة الإنكليزية بعد أن حلقت فوقهم الطائرات الإنكليزية تنذرهم بالتسليم خلال الأربع والعشرين ساعة، وإلا هاجمتهم حتى الإبادة[1] واستمرت مطاردة المنسحبين إلى الحدود، بل وأكثر من ذلك داخل أراضي برقة نفسها، واستولى الإنكليز على سيدي براني يوم 28 فبراير سنة 1916م، وكان من أثر معركة العقاقير التي أسر فيها القائد التركي جعفر باشا أن تشتت شمل القوات الشمالية للحملة، واستطاع الإنكليز مطاردة فلول قوات المجاهدين، وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة في برقة إلى ما وراء بئر واعر، لقد كانت معركة العقاقير تمثل نتيجة حملة أحمد الشريف على مصر، واستمرت القوات الإنكليزية تطارد فلول المجاهدين، فوقعت معركة بقبق شرق السلوم انتصر فيها الإنكليز، الذين احتلوا بعد ذلك معركة السلوم[2] ودخل الإنجليز الأراضي الليبية ووصلوا بئر حكيم في جنوب غرب طبرق واستطاعوا تخليص الأسرى الإنجليز وكان عددهم 92 بحاراً بعد أن أبادوا قوات الحراسة[3] أما قوات المجاهدين في الجنوب فكان يقودها اللواء محمد صالح حرب تحت إشراف أحمد الشريف زحفت هذه القوات جنوباً وتمكنت من احتلال الواحات البحرية، والفرافرة والداخلة، وانضم إليها كل من كان بهذه الواحات من الموظفين المصريين، وكذلك الضباط والجنود، واتصل محمد صالح حرب بشيوخ العرب في المنيا، وأسيوط، والفيوم، ولم تعط هذه الاتصالات نتائج مشجعة، وبدأت قوات الإنكليز تتزايد وتتكاثف بعد أن صدت الحملة العثمانية الشرقية على قناة السويس، وفشلت ثورة السلطان علي دينار في منطقة دارفور، واضطر المجاهدون للانسحاب من الواحات الداخلة إلى الغرب جنوب سيوه والجغبوب، وكان

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص86.

(2) انظر: المصدر السابق، ص86، 87.

(3) انظر: المصدر السابق، ص90.

لاعتماد الإنكليز على الطائرات العسكرية في عمليات الكشف والإغارة، واستخدام قواتهم العسكرية للسيارات المصفحة والمدرعة المزودة بالمدافع السريعة الطلقات أثر كبير في قلب ميزان القوى لصالحهم[1].

وتمكنت قوات المجاهدين من الوصول إلى واحة سيوه في أمان تام، وكان أول ما عني به قائد المجاهدين محمد صالح حرب في سيوه هو إرسال التمور إلى الجغبوب ليتزود به المجاهدون هناك[2].

وفي سيوة لحقت القوات الإنكليزية بالمجاهدين وحصلت بينهم معركة كبيرة بتاريخ 8 فبراير 1917م دامت نحو يوم كامل، وكانت معركة فاصلة جهز لها الإنكليز كل إمكانياتهم لقتال وهزيمة وإفناء المجاهدين الذين دافعوا دفاعاً مستميتاً وانسحبوا من سيوة إلى الجنوب مسيرة ثلاثة أيام[3] وكان وصولهم إليها في شهر فبراير 1917م وحاول الإنكليز مطاردة قوات المجاهدين المنسحبة إلى الغرب نحو الجغبوب وبالقرب منها دارت بينهما آخر معركة في تلك الحرب وهي معركة «قرب» إحدى ضواحي الجغبوب[4] ولم يستطع الإنكليز مواصلة السير، والتجئوا بعد ذلك إلى الوسائل السياسية، وكان قبل وصول أحمد الشريف إلى الجغبوب قد أرسلوا إليه رسالة مطولة، وهذا نص رسالة الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في 4 جمادى الأولى سنة 1334هـ الموافق 8 مارس سنة 1916م

حضرة صاحب السيادة الأستاذ أحمد السنوسي الكبير تحية وسلاماً وبعد، فقد وصلني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى، وليس لي أن أرد عليه عما قلته في كتبي السابقة، إني كنت دائماً أحذركم من خطر الإصغاء إلى نصائح نوري بك، وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم، فإنكم بالإصغاء إلى نصائحهم قد أثرتم حرباً على مصر ونسيتم جميل بيت محمد علي باشا الكبير الذي يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالي.

إنكم تعديتم الحدود ودخلتم الأراضي المصرية برجال مسلحين ومدافع وقد أطلقتم نيرانكم على العساكر المصرية والإنكليزية، وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية.

تقولون إني صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتموه أنتم فما هو الصحيح؟.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص179.

(2) المصدر السابق نفسه، ص180.

(3) انظر: جهاد الأبطال، ص266.

(4) انظر: برقة العربية، ص317.

إن جماعات من المحافظية المسلحين كانت على الدوام تأتي إلى الأراضي المصرية، إما بعلم منكم أو بغير علم منكم، وتسيء معاملة العرب الذين تحت إرادتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة، وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الإنكليزية لغير ما سبب، وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديه، وأطلقت نيرانها على طراد لخفر السواحل وأغرقته، وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية، بل استقبلوها بالترحاب، ثم إنكم حفظتم في الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرق وابورهم ولجئوا إلى سواحلكم وقد هاجم أتباعكم نقطتنا في البراني والسبيل، وأسروا عساكر الحرس وسرقوا بنادقهم وقطعوا خطوطنا التلغرافية، وهددوا نقطتنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأوامر إلى سنوبك بالرجوع إلى مرسى مطروح، وفي الوقت الذي كنتم فيه تصرحون بأن علاقتكم معنا على غاية الوداد كنتم تكتبون وترسلون مع رسلكم كتباً كالتي أرفقها بكتابي هذا، وإني مرسلها إليكم لتعلموا الحقيقة، أرى أنكم لا زلتم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنوبك، وأنا أعود فأكرر القول أن ذلك غير صحيح لسببين: الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط، والثاني لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه.

إن جعفر هو الآن أسير حرب يقول: إن الإنكليز الذين نجوا من الوابور والآن في الأسر عندكم هم في شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزمهم من الثياب والطعام، وأنتم تقولون إنهم على أتم الراحة والأمان، فأي القولين أصدق؟ إنكم تشكون من أني حجزت رسلكم هنا، وأنا لم أفعل ذلك إلا بعد أن بدأتموني بالعداء، إن الله وحده يعلم بالخفايا، وما هو في ضميركم، وكل ما يمكنني أن أقوله لكم إن أعمالكم كلها دلت على عدم تبصر وروية، ويلزم أن تحصدوا الزرع الذي غرستموه.

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو وما دام في الأراضي المصرية رجل مسلح من رجالكم فإني أعتبركم عدواً، وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التي بها وحدها يمكنني أن أبدأ بالمفاوضة معكم، وهذه الشروط أرسلتها في كتاب مؤرخ في 28 صفر سنة 1334هـ، الموافق 4 يناير 1916م وهي كما يأتي:

1 - أن تردوا بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوروبيين الذين في أيديكم.

2 - يجب أن تبعدوا كل الأتراك أو الألمان الذين عندكم، وإن كنتم تجدون صعوبة في إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لي أسرى حرب.

3 - يجب أن تخرجوا جميع رجالكم المسلحين من الأراضي المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين إلى الأراضي المصرية، وإذا دخلوا عوملوا معاملة أعداء حيثما وجدوا.

4 - يجب أن تجلو جلاءً تاماً عن سيوة والسلوم، وعن جميع البلاد التي إلى الشرق منها، وتقيموا بسلام في الجغبوب، فإذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب، وتظهرون بالأعمال

أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فإني مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون[1].

الجنرال السير جون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة الملك بريطانيا العظمى

كانت تلك الرسالة قد كتبها ماكسويل قائد الجيش البريطاني في مصر بعد الاستيلاء على معسكر السنوسي واحتلال السلوم.

كان إدريس المهدي السنوسي أثناء تلك الحوادث ببرقة وكيلاً عاماً عن أحمد الشريف، وقد عرف سيادته ببعد النظر، والتضلع في معرفة الأمور، وكان قد نبه أكثر من مرة أحمد الشريف وأوضح له رأيه، وكان يرى عدم الدخول مع الأتراك ضد بريطانيا في الحدود المصرية، وقد أصبحت البلاد في حال يُرثى لها فقد تفشت فيها المجاعة، كما تسرب إليها مرض الطاعون، وسدت السبل في وجوه الليبيين بعد ما كانت السوق المصرية مفتوحة الأبواب، وأصيبت الحيوانات بالجدب، وهي أهم موارد البلاد وقد أمسكت السماء، ودخلت البلاد في حروب مع إيطاليا من جهة، ومع الإنكليز من جهة أخرى، والتفت القبائل وشيوخها حول زعامة إدريس المهدي السنوسي[2] وكتبت إلى إدريس بمقره في إجدابية بصفته صاحب الحق الشرعي في إمامة السنوسيين، ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف الوصي على الإمارة بمحاربته الإنكليز جرياً وراء الأتراك، خصوصاً أنهم لم يوفوا بوعودهم التي قطعوها له، فلم يرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد في نكبة الحرب ضد بريطانيا، وتركوا شعبها الأبي يموت جوعاً[3] وكتب الأمير إدريس السنوسي إلى ابن عمه أحمد الشريف شارحاً له ما كان يجري في برقة، فرد الأخير برسالة مماثلة في أواخر سنة 1916م جاء فيها: «. . . اعمل ما تراه مناسباً، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث إن لهم حقاً في ذلك. . .»[4].

كان فشل الحملتين الشرقية والغربية على مصر، وتدهور الحالة الاقتصادية في برقة من الأسباب التي ساعدت على ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة، وسوف نرى بإذن الله تعالى الخطوات السياسية التي اتخذها الأمير إدريس، بعد أن نكمل مسيرة أحمد الشريف إلى وفاته.

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/134، 135.
(2) انظر: برقة العربية، ص317.
(3) انظر: تاريخ حرب طرابلس، محمد لطفي، ص57، رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار لمحمد العيساوي، ص19.
(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص108.

ثانياً: أسباب هزيمة أحمد الشريف:

إن حملة أحمد الشريف فشلت في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها:

1 - لم تكمل الحملة استعداداتها العسكرية والاقتصادية، واتصفت بالسرعة، وعدم التخطيط الإستراتيجي.

2 - لم يكن جيش أحمد الشريف على مستوى من القدرة القتالية والاستعداد الكامل بحيث يستطيع أن يخوض حرباً مع عدو قوي مزود بأحدث الأسلحة وأشدها فاعلية.

3 - ذهبت وعود الأتراك والألمان أدراج الرياح، ولم تستطع الغواصات الألمانية أن تقوم بالدور المنوط بها لتزويد المجاهدين بأدوات الحرب ومعداتها.

4 - إن التوقعات التي كانت محتملة عن قيام الشعب المصري بثورة عارمة ضد الوجود البريطاني في مصر ذهبت أدراج الرياح حيث استطاعت بريطانيا تفريغ شحنات الغضب الشعبي بوعودها وأموالها الطائلة، وبمنحها الجاه والسلطان للعديد من كبار المصريين، كما أن ثورة علي دينار في دارفور بالسودان جاءت متأخرة «أكتوبر - نوفمبر 1916م» فسهل القضاء عليها، وبعد فشل حملة جمال باشا الشرقية على قناة السويس وفشل حملة الشريف الغربية عبر حدود مصر، ومن ناحية أخرى فإن الكثير من مشائخ وأعيان الجهات الجنوبية والغربية من مصر «أسيوط، الفيوم مثلاً. . .» لم يناصروا حركة الجهاد ضد الإنكليز.

5 - اختيار نوري باشا لمكان العمليات قرب البحر مكن للإنكليز من استغلاله وبعث المزيد من الحملات بسرعة عاجلة، كما أتاح الفرصة لبحريتهم، فشاركت في المعارك، لقد كان ميدان المعارك في الجبهة الشمالية محصوراً بين البحر وعقبة السلوم بما يتجاوز الثماني كيلومترات عرضاً، فوجدت بذلك قوات المجاهدين نفسها مقيدة الحركة[1].

6 - كان لفشل جمال باشا قائد الجيش التركي في الشام في حملته على قناة السويس أثر كبير في هزيمة قوات أحمد الشريف؛ لأن الإنكليز قد انتهوا من الحرب على حدود مصر الشرقية، فتفرغوا للحرب على حدودها الغربية، وجندوا جميع إمكانياتهم لها.

7 - إن ميزان القوى كان منذ البداية لصالح الإنكليز، فالقوات المجاهدة كانت منهكة نتيجة صراعها مع إيطاليا الذي دام فترة طويلة «من سنة 1911م إلى آخر سنة 1915م»[2].

ثالثاً: الخلاف بين إدريس وأحمد الشريف:

كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى

---

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص95.

(2) انظر: المصدر السابق، ص96.

السنوسيين استغلال الظروف الدولية، لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر، أما أحمد الشريف فيرى أن حميته الدينية وغيرته الإسلامية تمنعه من الوقوف مع الإنكليز ضد تركيا.

لقد كانت علاقات الإنكليز بالسيد إدريس ودية منذ البداية، واستمرت العلاقات بين الطرفين تنمو وتزدهر طول عام 1913هـ، وفي بداية عام 1914م تجددت عندما توجه إدريس السنوسي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر في طريقه بمصر وقوبل بالاحترام والتبجيل من قبل حسين كامل، السلطان النائب عن الإنكليز في مصر، وحملته باخرة خاصة إلى حيفا، ومنها إلى الأراضي المقدسة، وفي طريق عودته لقي من الاحترام والتبجيل الزائد عن المرة الأولى، واجتمع مع اللورد كتشنر، قائد القوات الإنكليزية في مصر، ومن ثم نقل بطرد بريطاني إلى السلوم، حين جرى له وداع رسمي على الحدود، وكان أحمد الشريف قد كلف إدريس السنوسي تبليغ قبائل حرب والبالغ عدد مقاتليها ثمانون ألفاً والتابعة للحركة السنوسية أن تعمل ضد الإنكليز وأعوانهم في مصر والحجاز، وكان جواب إدريس بعد رجوعه من الحج إلى السيد أحمد الشريف بأن القبيلة أجابته: «لم يصبنا أي أذى من الإنكليز، فهم عدول وكرام، وأغنياء، بينما نجد الترك متصفين بالظلم والقهر والترفع»، وعليه فلا داعي للدخول معهم في أية معارك.

وقد كشفت الوثائق البريطانية رقم (2139، 2147، 2478) التي نشرت أن إدريس قد بلغ القبيلة بأنه يؤيد وجهة نظرهم، وأنه يحب الإنكليز ولا يود أن يرفع سيفه ضدهم.

وقد انعكست نتائج تلك الزيارة على علاقة إدريس بابن عمه السيد أحمد إذ ما لبث السيد إدريس أن أعلن أنه لا يوافق على بقاء الأتراك في القوات الوطنية، وطلب من أحمد الشريف ضرورة الحفاظ على العلاقات الإنجليزية السنوسية، ولما قوبل طلبه بالرفض الشديد من قبل أحمد الشريف ترك معسكره في مساعد، وتوجه إلى الجبل الأخضر، وأشاع بين الناس، بأن المنفذ الوحيد لسكانه مع مصر سيغلق إن استمر أحمد الشريف في سياسته المعادية لبريطانيا، وبالتالي فإنهم سيجدون أنفسهم وقد أحكم الطوق عليهم من الشرق والغرب.

لقد تلاقت أهداف الإنكليز مع تمنيات السيد إدريس، حين عرضوا على هذا الأخير الصلح والاعتراف بإمارته، وهو على برقة والجبل الأخضر نظير طرد نوري ومن معه من الضباط الأتراك، وإقناع ابن عمه بمغادرة المنطقة في المرحلة الأولى[1].

وقد وضحت أهداف إدريس في رسالته التي أرسلها إلى أحمد الشريف في 25 صفر 1335هـ، الموافق 21 ديسمبر سنة 1916م وجاء فيها:

---

(1) انظر: كلية الآداب جامعة الكويت، 1980م - 1399هـ، الرسالة الثانية في التاريخ، ص18.

«ألم تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة، الذي عينه الأتراك، ثم وجد تحقيقاً لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم، ثم أرغم على الوقوف خصماً، فأعلن استقلال البلاد، ووافقت الدول المتحالفة على ذلك، ونودي به ملكاً على العرب، وهو الآن يبذل قصارى جهده في إدارة شؤون بلاده، فيؤسس المجالس وينشيء الإدارات والمصالح؟ ولو أنه قبل أن يدخل الحرب إلى جانب الأتراك لكان الحلفاء الآن يحتلون مملكته، كما احتلوا البصرة العراق ومناطق أخرى.

فالملك حسين كون جيشاً كبيراً الآن، ويريد احتلال الشام، وأرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر، ووصله كل ما يحتاج إليه للقيام بحركة واسعة، وأذاع في العالم الإسلامي، أنه لا يريد بالإسلام شراً، وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقي، ويذكر في خطبه اسم الخليفة العثماني، وهو الخليفة المعتد، والذي فقد كل سلطة بفضل القيود التي فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والذود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضاً فأقاموه ملكاً.

ثم حدثني بالله يا سيدي، كيف يستطيع الأتراك غزو مصر ودخولها، وهم الذين أخفقوا في محاولة استرجاع الحجاز، وألا تنظر يا سيدي إلى السيد إدريس في بلاد اليمن، فهو يحتفظ دائماً باستقلاله، ويتمسك بحياده وهذا على الرغم مما يفعله الإنكليز الذين يحاولون إقناعه بمحاربة الأتراك، ومما يفعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الإنكليز، ولكنه لا يريد أن يورط نفسه في شيء من هذا كله؟.

وكان في إمكانكم أن تفعلوا مثل هذا، قبل حادث السلوم، وكان في أيديكم الترك والإنكليز معاً، ولكن ما فائدة الحسرة على الماضي، والندم على ما فات، إن الذي أريد أن أسترعي نظركم إليه هو العالم الإسلامي؛ لأن الإسلام يريد أن يعرف، ومن حقه أن يدرك ويفهم فهماً صحيحاً ما تفعلون، وما تريدون ويجب علينا قبل كل شيء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا، وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لا تذهب ضحية لغيرنا»[1].

رابعاً: آثار حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز على حركة الجهاد:

كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها:

1 - ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد الإيطاليين، في فترة انشغالهم بمعارك الحرب العالمية الأولى في أوروبا، وقواتهم في ليبيا محاصرة في المدن الساحلية، وغير قادرة على الحركة وتقديم المساعدة.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص191.

2 - تزعزعت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين وسقوط القتلى من كل جانب؛ لأن الجيش البريطاني كان يضم رجالاً من أبناء تلك القبائل وضعف تعاطف المصريين مع القضية الليبية، وتضررت الزوايا السنوسية في صحراء مصر، وتحطم نفوذها السياسي والديني، وتشجيع الإنكليز على اتخاذ موقف مناوىء ومعادٍ لهم[1].

3 - انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد في ليبيا وكان لهذا الانقطاع أثر كبير على المجاهدين وحركتهم.

4 - تأثرت نفوس المجاهدين وشعروا بالندم بما في ذلك السيد أحمد الشريف نفسه، ونستدل على ذلك من رسالة له إلى سليمان الباروني بمناسبة قدوم الأخير إلى طرابلس معيناً من قبل السلطان العثماني والياً على طرابلس، ومما جاء فيها:

«. . . إني لو استطعت لقضيت عليهم - الطليان - وطهرت الأرض منهم اليوم قبل باكر، وتعرف أيضاً أنه ما تمكن مما تمكن منه إلا بعد حركتنا نحو مصر ولولاها كنا قذفنا به اليوم في البحر، وما كان له أثر ولا خبر ولكن تلك الحركة - الحملة - ولو أنها أفادت الدولة والملة من وجوه كثيرة، وشغلنا بها أكبر عدو لمقام الخلافة ناوأها العديد من السنين، إلا أنها كانت سبباً لنفوذ الطليان الذي لا يتألم منه أحد أكثر مما أتألم منه، ولو أن لي به قوة ما تأخرت يوماً عن مناوأته. . .»[2].

لقد اعترف السيد أحمد بخطئه وقال: «يُخيل إليّ أنني أخطأت عندما باليت بنداء إستانبول ذاك. . .»[3].

5 - تغير الوضع السياسي للمجاهدين، ولم يعد المجاهدون من القوة، والاستعداد بالقدر الذي يمكنهم من الصمود، والإصرار على تحقيق مطالبهم، بل اضطروا تحت ضغط الحاجة إلى المهادنة، والتفاوض والتنازل، بعدما كانت قيادة المجاهدين صلبة قوية لا تلين، تطالب بشيء واحد فقط هو تحرير الأرض والوطن وإجلاء الغاصبين، ولا نقبل في ذلك مهادنة أو مصالحة أو تفاوضاً إلا على هذا الأساس؛ تحرير البلاد من الغاصبين[4].

6 - لقد كانت حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز في مصر كسباً ونفعاً كبيرين للإيطاليين،

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص97.
(2) حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني، ص80.
(3) انظر: الطريق إلى الإسلام، لمحمد أسد، ص370.
(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص98.

ولأنها زعزعت قيادة أحمد الشريف، وأشعرتها بضعف إمكاناتها الحربية وقدرتها القتالية، ومهدت السبيل لطريق الصلح والتفاوض الذي قاده إدريس السنوسي فيما بعد[1].

خامساً: هجرة أحمد الشريف إلى تركيا:

وصلت قوات المجاهدين إلى الجغبوب، منهكة، متعبة لطول الحروب، فأذن أحمد الشريف للجنود، وقال لهم: من منكم يرغب بالذهاب إلى أهله ببرقة، أو الجبل الأخضر، فمعه الإذن، ولم يرخص لبعض المجاهدين، وذهب بعض المجاهدين وقال الباقون: والله ما نتركك ما دمت حياً سواء نحيا أو نموت[2].

وبادر الإنكليز بتهديد أحمد الشريف بواسطة ابن عمه إدريس، وطلبوا منه ترك الجغبوب وإلا ضرب قبر جده بالطائرات، واحتلت المدينة واستبيحت للجنود.

غادر أحمد الشريف الجغبوب عن طريق الصحراء الكبرى إلى جالوا، وأوجلة، وزلة، والجفرة، وسوكنة، وهون، ومن هناك عرج على موقع سلطان بقرب سرت، وذلك عامي 1335هـ و1336هـ، وكان معه جيشاً جراراً وكانت المجاعة قد ضربت أطنابها في جميع أنحاء برقة، وبالرغم من ذلك كان أحمد الشريف الضيف الكريم أينما حلّ، ويقابل في كل موقع بالإكرام والتقدير والتبجيل، وتقدم له جميع المساعدات من الأهالي، وكانوا يقدمون له الجزر، والأغنام، وكل ما تصل إليه أيدي الأهالي من التمور والحبوب، وكان يطلب أشياء من الأهالي ليبتاعها منهم مقابل سندات يقدمها على نفسه، فكانوا يجيبونه بكل ذلك، وقد اتصل كل إنسان بحقه عندما وصل أحمد الشريف إلى الأستانة، إذ راسل من هناك مندوباً خاصاً يحمل المبالغ الكبيرة لتسديد تلك السندات وإيفاء كل ذي حق حقه[3] ومن بين من تقدموا لخدمته بصدق وإخلاص والحالة هذه سيف النصر شيخ مشائخ أولاد سليمان وأولاده: أحمد، وعبد الجليل، وعمر، ومحمد، وقاسم، وقاموا بكل لوازم أحمد الشريف وأتباعه من المصاريف والأرزاق لمدة ستة أشهر[4] وقالوا: إن جميع ما نملكه وتملكه قبيلتنا هو لكم وتحت تصرفكم[5]، وكان أحمد الشريف لا ينساها لهم ويشيد بها بين الخاص والعام في كل مناسبة، ويقول: وجدناهم صادقين عند الحاجة[6] وكذلك وقفت الكثير من قبائل المغاربة وعلى رأسهم صالح باشا

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص99.
(2) انظر: الفوائد الجلية 2/ 45.
(3) انظر: برقة العربية، ص318.
(4 - 5) انظر: الفوائد الجلية 2/ 46.
(6) المصدر السابق نفسه، ص319.

الأطيوش، والشيخ السنوسي البراني، والشيخ عبد المجيد سليم القبائلي، والشيخ ابن شرادة[1].

ولما وصل أحمد الشريف إلى العقيلة تقدم إليه أحمد بن إدريس الأشهب بواجب الضيافة وأعطاه سبعة جمال هي كل ما في وسعه ليذبحها للجند، ويقتاتوا بها كضيافة لهم، وكان تهيئة مؤن أحمد الشريف الخاصة من قبل أحمد بن إدريس وهي مؤلفة من البيض المسلوق، واللحم، وشيء قليل من خبز الشعير، وكلما يأتي هذا الطعام الخاص بالسيد أحمد، ورجال مائدته، وهم محمد صالح حرب، ووصفي باشا الخازمي، والأستاذ مصطفى الهوني، وعبد السلام باشا أبو قشاطة، وطبيب السيد الخاص عبد السلام أفندي المسلاتي، وعندما يأتي الطعام المذكور يبادر أحمد الشريف بتوزيعه على بعض الجنود في حين أنه لا يكفي السيد ورفاقه الخاصين، وأحياناً لا يمسك منه شيئاً بالمرة، فقاسى -رحمه الله- ما قاسى من أنواع الشدائد ما لا تتحمله الجبال بصدر رحب وجلد عظيم، وكثيراً ما تمر الأيام عليه بدون أن يتناول شيئاً يسد به رمقه ومع كل هذا لا يعرف عنه أنه شكا أو تألم[2] وقد تساقط عشرات الموتى بسبب المجاعة والحصار المفروض عليهم[3].

سادساً: القافلة ورمضان السويحلي:

راسل محمد صالح حرب نوري باشا في مصراته، ووضح له الحالة التي يمرون بها وطلب منه مدهم بالسلاح والذخيرة، والملابس والمال، حتى يتمكنوا من مواصلة جهاد الإيطاليين، وكان أحمد الشريف قد راسل رمضان السويحلي، وناشده باسم الأخوة الإسلامية وطلب منه المساعدة والوقوف معه، فوافق السويحلي، وأرسل أحمد الشريف قافلة يرافقها الطبيب عبد القادر المصري، وما يزيد عن خمسة وعشرين رجلاً من خيار رجاله، يصحبهم الشيخ محمد بو طريف، ومعه كتاب وهدية إلى رمضان السويحلي، واشترت القافلة لوازمها من شراء بعض الأمتعة والملابس[4] وقام نوري باشا بتزويد القافلة بالسلاح والذخيرة، والمؤن، حتى يؤكد لزعماء طرابلس على أن الدولة العثمانية لا يمكن أن تتخلى عن أصدقائها، ومناصريها[5].

وعند رجوع القافلة إلى أحمد الشريف تعرضت لهجوم غادر نتج عنه قتل جميع أفراد

---

(1) انظر: برقة العربية، ص318.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) انظر: الفوائد الجلية (2/ 46).

(4) انظر: المصدر السابق.

(5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص162.

القافلة، وسرقت الأموال، والمؤونة، والسلاح، ويؤكد معظم المؤرخين أن رمضان السويحلي دبر أمر القضاء على هذه القافلة واغتصاب أرزاقها، وقتل أفرادها، ويذكر العيساوي: «إن السويحلي جهز قوة خفية عن نوري باشا قدرها مائة نفر مسلح، وجعل عليها رئيسين أحدهما يدعى محمد سليمان الجطلاوي والثاني عبد العزيز الدنيخ، وأمر تلك القوة أن تجد في السير لتكمن في وادي زمزم، وقد نفذت هذه الخطة بدقة»[1]، وفاجأت قوة السويحلي القافلة في منطقة تماد حسان قرب تاورغاء[2].

ويرى المؤرخ المتعاطف مع رمضان السويحلي محمد مسعود فوشيكة إن المعركة التي انتهت بانتصار جماعة الحداد والعودة إلى رمضان بصناديق النقود، إنما تمت بعلم رمضان نفسه، مما جعل بعض المخلصين له يلومونه كثيراً بسبب تجاهله ماضي السيد أحمد الشريف في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، والغزو الإيطالي لبرقة، وفي عدم مبالاته بالظروف الصعبة التي كان يمر بها وحاجته الماسة إلى المساعدة[3].

أما الشيخ محمد بن حسن عبد الملك المصراتي قاضي مصراته عام 1915م فقد أشار إليها بقوله: «كنت أنا ومن معي وقت وقوع هذه النازلة الشنيعة بمعية السيد أحمد الشريف السنوسي، وقد بلغتنا قبل بلوغها بخمسة أيام وكتمنا أمرها حيث أن من حاشيته من يزين له أعمال رمضان، فلو سارعنا بإبلاغها وقتها لقيل لنا: إننا مفتنون فوكلنا أمرها للأيام والليالي. . .»[4].

أما الشيخ طاهر الزاوي فيرى: «. . . أن سياسة الترك مجمعة على كراهة السنوسية، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادي بقطع الصلة بهم، وفريق يكتم هذه الكراهة في صدره ويريد أن يسلط بعضهم على بعض لينتقم لنفسه منهم بأيديهم، وقد أراد نوري - بما له من النفوذ في مصراته - أن يمد السيد أحمد الشريف بإعانة فأرسل إليه إعانة مالية، وبعض البنادق، ولكن الأتراك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبروا مكيدة ضد هذه المعونة، فأرسلوا من تربص لمن أرسلت معهم فقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا ما معهم من المال، ولم يعلم رمضان بشيء من أمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها. . .»[5].

ويبدو للباحث أن الفعلة الشنيعة كانت مؤامرة ضد مساعي الصلح التي حرص أحمد الشريف على نجاحها بينه وبين رمضان السويحلي، وأحمد المريض وغيرهم، ولذلك خاف

---

(1) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص53.

(2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 47).

(3) انظر: رمضان السويحلي البطل الليبي الشهيد، ص128.

(4) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص54.

(5) انظر: جهاد الأبطال، ص198.

الأعداء من حصول الصلح بين أحمد الشريف ورمضان السويحلي، فدبروا تلك المكيدة، والقرائن الكثيرة تدل على أن رمضان السويحلي ألصقت به التهمة، ولا يوجد دليل واحد قوي على إثباتها، بل القرائن تدل على عكس ذلك حيث أن رمضان السويحلي كان في تلك الفترة يتلقى الدعم من تركيا وألمانيا بواسطة الغواصات، وأحمد الشريف نائب الخليفة في إفريقيا، قام بتضحية عظيمة وجهاد جليل، خدم به المصالح التركية، كما أن سيرة رمضان السويحلي تدل على أنه من المجاهدين الذين ذادوا عن هذه البلاد، إلا أن له أعداء كثيرين عملوا على تشويه سيرته الجهادية التي تحتاج إلى من يتفرغ لدراستها، وتحليلها وإلقاء الضوء عليها، ولا ننسى أن إيطاليا عملت بواسطة عملائها على إيجاد الفرقة والعداوة بين رمضان والحركة السنوسية وقادة الجهاد في غرب ليبيا، ويبدو أنها نجحت بواسطة مكائدها ومؤامراتها المتوالية لتحقيق هذا الهدف الحقير.

أما رأي أحمد الشريف في رمضان السويحلي فيظهر في الرسالة التي أرسلها إلي وصفي بك في المحرك سنة 1340هـ قال ﷺ مخاطباً وصفي بك:

«نعم أيها الولد الكريم المحترم، فإني والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل..» إلى أن قال: «فبالله الذي لا إله إلا هو إني كنت عازماً على إكرام رمضان بك السويحلي وإنزاله المنزلة التي ما كان يظنها، والناس الذين سعوا في الفساد مثل أمين وغيره فهؤلاء لا حاجة لهم في صلاح الوطن، بل حاجتهم في امتلاء جيوبهم...» إلى أن قال: «وقد بلغني ما أساءني جداً وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلي فإني والله تأسفت غاية الأسف، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد، ومنفعة عمومية لأهلها، ونحن كل من سعى في المصالح العمومية فهو حبيبنا..»[1]. لقد اشتد الأمر بأحمد الشريف وأتباعه، وزادت الظروف قسوة عليهم، وأراد المجاهدون أن يهجموا على مصراته انتقاماً ممن قضى على القافلة إلا أحمد الشريف استطاع بفضل مكانته بين المجاهدين من تهدئة النفوس الثائرة[2].

بعث أحمد الشريف قائده محمد صالح حرب إلى الأمير عثمان فؤاد المتواجد في مصراته، وحمله رسالة هامة إليه، يطلب من الأمير العثماني أن تقوم إحدى الغواصات الألمانية بنقله إلى الأستانة ليقابل صديقه القديم أنور باشا وزير الحربية، وليبحث معه تطورات الموقف في ليبيا، وعلى ضوء ذلك يمكن أن يرجع السيد أحمد مزوداً بكل ما يساعده على الاستمرار في الجهاد في ليبيا، أو أن يبقى في الأستانة مؤقتاً حتى يتسنى له الذهاب إلى الحجاز «الأراضي المقدسة بمكة والمدينة» حيث يخلص العبادة إلى الله بعد أن عمل ما في وسعه من أجل قضية

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص200.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص164.

بلاده، ولكن الظروف المحلية في ليبيا والعالمية منعته من تحقيق أهدافه الإسلامية.

وقد اجتمع محمد صالح حرب مع الأمير عثمان فؤاد، وأوضح له حالة وظروف السيد أحمد الشريف، وبين له معظم آرائه ومطالبه، كما اجتمع برمضان السويحلي مع الكثير من أعيان مصراته، ووجهائها، وعاد مندوب أحمد الشريف بسلام، وكانت نتيجة هذه الرحلة العمل على نقل أحمد الشريف إلى العاصمة العثمانية بواسطة إحدى الغواصات الألمانية، وبالفعل وضعت وزارة الحربية الألمانية تحت تصرف أحمد الشريف غواصة لنقله مع بعض أتباعه إلى النمسا، واتفق على أن تبقى قواته في منطقة العقيلة في انتظار عودته، على أن تتلقى من القيادة العثمانية في مصراته، ما يمكن أن تجود به عليها مما كانت تحضره إليها الغواصات الألمانية[1].

ووصلت الغواصة الألمانية إلى برقة وكان بها يوسف باشا شتوان، وحسام الدين بي، وهما عضوان هامان في منظمة تشكيلات مخصوصة[2] ويحملان رسالة من السلطان محمد وحيد الدين إلى السيد أحمد الشريف، يدعوه فيها لزيارة إستانبول «والسبب الحقيقي لهذه الدعوة هو أن الحالة في تركيا أصبحت تنذر بالخطر العظيم بسبب ثورة أمير مكة حسين ضدها، ومتابعة القبائل والجيوش العربية له، وانحلال جبهات القتال في فلسطين وسوريا والعراق، وكانت الحكومة العثمانية تثق كامل الثقة في إخلاص السيد أحمد الشريف للإسلام والخلافة، فأرادت أن تقنعه بالدخول في مفاوضات بينها وبين الشريف الحسين بن علي، على أن تعطي الشريف حسين مطالبه، هذه هي الحقيقة التي طلب من أجلها، أما في الظاهر فهو كما ذكر في وقته لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه على العرش، وللمفاهمة معه في خصوص ليبيا»[3].

لبى سيادة أحمد الشريف طلب السلطان محمد وحيد الدين، وأناب عن المجاهدين أحمد بن محمد بن أحمد الريفي، وأمره بالانضمام إلى الأمير محمد إدريس بعد سفره، وسافر من البريقة وركب معه الشيخ محمد عبد الله الموهوب، محمد صالح حرب، عثمان الشائقي، عبد السلام أبو قشاطة، الدكتور عبد السلام المسلاتي، وصالح بن محمد أبو عرقوب البرعصي، وركب الغواصة في شهر سبتمبر سنة 1918م، الموافق ذي القعدة 1336هـ[4].

وجاء على لسان الأمير شكيب أرسلان قوله: «قال لي السيد أحمد الشريف: قبل ركوبي الغواصة تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيهم وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لي: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكني ما باليت بذلك لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الريفي في المنام

---

(1) انظر: الحركة الوطنية، ص172.

(2) المصدر السابق، ص172.

(3) انظر: الفوائد الجلية، 2/ 49.

(4) المصدر السابق نفسه، 2/ 50.

فقال لي: الشيء الفلاني ستأخذه من بولا، ففي اليوم التالي سألت الضابط: هل يوجد محل اسمه بولا؟ فقالوا لي: نعم إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه بولا، فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان بحول الله وقوته»[1].

اضطرت الغواصة أن تبتعد عن الجزر التابعة لإيطاليا خوفاً من الديناميت المزروع في المدخل، وصادف أن اصطدمت بقمة صخرة كبيرة في قاع البحر وتعطلت محركاتها، وخاف قبطانها والبحارة خوفاً شديداً، وكان أحمد الشريف أثناء ذلك منهمكاً في صلاته وعبادته التي كانت شبيهة بتسبيح نبي الله يونس عليه السلام عندما كان في بطن الحوت، وفي قعر البحر، فلما أخبروه بالواقع وأتم صلاته التي كان فيها، ثم قام ببساطة ورباطة جأش وبقدرة الله العلي القدير وسبب دعاء أحمد الشريف إذ بالمحركات تعمل فجأة، وسر الجميع وعادت لهم الطمأنينة وحمدوا الله على النجاة[2] ولا شك عندي أن أحمد الشريف قد تلا قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87-88].

وقد عرف عن أحمد الشريف صلته بالله القوية، وكان دائماً يرشد أتباعه إلى الالتجاء إلى الله القوي العزيز، ففي معاركه مع الإنكليز، وبعد معركة وادي ماجد الثانية انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر الصريحات، ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر يونس على أمل العثور على ماء، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك، أشار أحمد الشريف باستسقاء الماء، ففتحت أبواب السماء وانهمر المطر مدراراً حتى رويت قوات المجاهدين، وظل المطر ينهمر يومين[3].

إن صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة بإجماع علماء المسلمين، والاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند حدوث القحط والجدب والتضرر من ذلك، ولا شك أن التقرب إلى الله وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير[4].

وكان أحمد الشريف لصدقه وإخلاصه يقيض الله له من يدافع عنه في غيبته، فعندما كان أحمد الشريف مخالفاً لرأي أنور باشا وجعفر العسكري في شن الهجوم على الإنكليز في مصر ولم يوافق على ذلك، كانت حركة منظمة تشكيلات مخصوصة تشن حرباً إعلامية على أحمد الشريف في إستانبول، فقيض الله شكيب أرسلان للدفاع عنه حيث قال: كنت أشم من معية أنور

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 153.
(2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 51، 52).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة.
(4) انظر: توضيح الأحكام للبسام (2/ 432، 433).

باشا رائحة الوحشة من سيدي أحمد الشريف، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة «تشكيلات» التابعة للحربية يلمزون السيد، ويعزون إليه أموراً، كنت على يقين أنها بهتان محض، مثل كونه يريد الخلافة لنفسه، ومثل إنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك، وكان أنور دعاني مرة للإفطار معه في رمضان، فقلت له: «إن بعض بطانتك بدؤوا يغمزون السيد أحمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها، وهذا الأمر يمس جانبك أنت، ولا ينحصر في السنوسية، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة، فإن ظهر بعد ذلك أنهم خائنون، لا سمح الله، فتكون أنت الملوم، ويستدل الناس بذلك على كونك فاشل الرأي، وإن كان عندك شيء راهن بحقهم، فصرح لي به لنعلم درجة الخبر من الصحة، قال لي أنور رحمه الله: «حاشا، ما يقدر أحد أن يتهم سيدي أحمد الشريف بالخيانة ولكن الإنكليز كانوا يخدعونه أحياناً»، قلت له: «إن سيدي أحمد الشريف لم ينخدع للإنكليز، وإنما يصانعهم كما يصانعونه، وما تلكأ عن محاربتهم إلا خشية الفشل، إذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية للدخول إلى مصر، أفلا ترى كيف أن الإنكليز مجرد زحف الأربعة آلاف مجاهد إلى مرسى مطروح، رموهم بثلاثين ألف مقاتل، وبالمدافع والطيارات والدبابات، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة. . .» قال لي أنور: «أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة» فقلت له: «يا سبحان الله: أنت عسكري صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الأمور، أفإذا هاجم الإنسان من هو أقوى منه مراراً، أفيبقى له الاختيار في الكر والفر؟» وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور، وتركه مؤاخذة السيد[1].

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 152، 153).

المبحث السادس

وصول أحمد الشريف إلى تركيا

وصل أحمد الشريف إلى بولا «الساحل النمساوي» بعد أسبوع تقريباً من ارتحاله، وواصل سفره إلى فيينا عاصمة النمسا برفقة حاشيته، وهناك أرسل إليه الإمبراطور النمساوي يريد مقابلته، ودون علم السيد أحمد، أجاب يوسف شتوان الإمبراطور بالرفض، ولما علم السيد أحمد الشريف بذلك أبدى استياءه، وذكر أنه كان من اللائق مقابلته لا سيما أنه هو الذي طلب المقابلة[1].

وتابع السيد أحمد رحلته إلى إستانبول، وهناك استقبله كبار رجال الحكومة العثمانية استقبالاً حافلاً ورسمياً في محطة «سركه جي» حضره بعض المسؤولين العثمانيين، يتقدمهم صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية، كما حضره أيضاً إبراهيم بك، وإحسان بك كاتب الديوان السلطاني، وفؤاد بك مدير التشريفات، وعلي رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى.

وأنزل بسراي طوب كوبر، التي كانت مقر الخلفاء من آل عثمان[2] وفي اليوم التالي خصصت له مقابلة رسمية مع السلطان وحيد الدين، الذي منحه وسام النيشان المجيدي من الرتبة الخامسة[3].

ورغم بعد السيد أحمد الشريف عن ميادين الجهاد في ليبيا، إلا أنه واصل جهوده من أجل تحرير ليبيا، وكان له نشاطات على ذلك الطريق الطويل منها: اتفق مع أنور، والسلطان العثماني على الرجوع، لتقوى به عزائم المجاهدين، وقرر الأتراك مده بالمال والعتاد والسلاح وتقرر إعطاؤه 12،000 بندقية مع عدتها، عشر مدافع، وثلاثين رشاشاً، و200،000 جنيه فسأله السيد قائلاً: بلغني من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة، إنكم تبغونني أقاتل ابن عمي سيدي إدريس، لكونه اتفق مع الإنكليز والطليان» فقال له أنور: «معاذ الله أن نبغي منك ذلك، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام في إفريقيا حصن أحصن من هذا البيت السنوسي الكريم، وإنه إن وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر، واضمحلت القوة السنوسية التي عليها معول الإسلام في إفريقيا، فكن على ثقة بأننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء نصحاً بالإسلام وضناً باستقلاله، وإن معاونتنا لكم إنما هي محض حمية على الإسلام؛ لأن تركيا من جهتها لم يبق لها

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 154).
(2) سراي طوب كبو تقع على ضفة البسفور الغربية أجمل بقعة في إستانبول.
(3) انظر: الفوائد الجلية (2/ 52).

أدنى أمل باسترداد طرابلس؛ ولأننا لا نحب إخواننا مسلمي إفريقيا تبعة للأجانب»[1].

وتتابعت الحوادث بسرعة البرق، فتغيرت الوزارة في تركيا، وسقط أنور، وندم أحمد الشريف على تأخره عن سفره، وحاول الانسلال من الأستانة إلى النمسا، حتى يركب منها الغواصة راجعاً إلى ليبيا، واضطر مع دخول الخلفاء إلى الذهاب إلى بروسة، وكان الأتراك أينما حل يكرمونه غاية الإكرام، وكان في نيتهم الوقوف مع مجاهدي ليبيا ولكنه سبق السيف العذل، وحصل ما لم يخطر ببال، والأمر بيد الله وهو الفعال في ملكه ما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

لقد دخلت جيوش الحلفاء إلى إستانبول واستولت على عموم الولايات والموانىء، وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدءوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية بواسطة الأتراك أنفسهم المتصلين بالنوادي الصهيونية، والماسونية، والدول الغربية، وحرصوا على أن يجعلوا منهم أبطالاً ضد الحلفاء ثم يقومون بتدمير الخلافة الإسلامية كلياً، وكان من المؤهلين لتنفيذ هذا المخطط الرهيب: مصطفى كمال، الذي لبس في بداية أمره ثوب الإسلام ورفع شعار الجهاد لحين من الزمن، وقاد حرب التحرير ضد اليونان التي احتلت أزمير في 16 مايو 1919م وكان يلقي الخطب الحماسية ويقول: «موتنا أعزاء شرفاء خير من حياتنا أرقاء أذلاء تحت اليهود النصارى يلعبون بمقدراتنا ويمتصون دمائنا وأموالنا، ويعتدون على أعراضنا وديننا وكرامتنا»[2]، واستطاع أن يقود المقاومة الشعبية الضارية التي فضلت أن تموت في سبيل عقيدتها بدلاً من الرضوخ للأعداء، وهكذا ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الخلفاء، وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما له من المكانة الروحية العالية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتدأ حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور، وتكسير أدواتها ومعاملها، وإبعاد جميع النساء الموسات، وإغلاق دور الدعارة، وإصدار أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في أوقاتها، وجعل يوم الجمعة يوم عبادة للعموم، وأمر بإغلاق المتاجر والمقاهي، والمتنزهات في كل يوم جمعة اعتباراً من يوم الضحى إلى بعد صلاة الجمعة، وهكذا تظاهر بهذه الأمور حتى أغرى المسلمين وقالوا: هذا مجدد الدين ومنقذه، ولذلك قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 155).

(2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 53، 54).

وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة، وادعاءاته الكاذبة ويقولون لسيادته هذه كلها حيل لكسب عطف الشعوب الإسلامية عليه وإذا تمكن فسوف يقلب المجن، ويكون حرباً على الإسلام، وإليك ما كتبه الداماد خالد درويش باشا: «يا مولانا يا خادم الإسلام يا فرع الدوحة النبوية المباركة، إياك أن تغتر بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإنني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله ودينه هواه، ولو تمكن لأضر في الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت على جميع جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين آمين. المحب المخلص» الداماد خالد درويش، جمادى الأولى 1338هـ[1]، كل ذلك لم يغير عزمه، سافر أحمد الشريف إلى الأناضول ونزل في «اسكى شهر» وكان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيماً لمصطفى كمال لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية، وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق، واحتفل به قائد الجبهة في «اسكى شهر» المدعو عصمت باشا ودعا إلى الاحتفال قادة الجيش، وأعيان البلاد ووجهائها، وألقى كلمة في ذلك الاحتفال الكبير، فقال: إنكم اليوم في ميدان الشرف، وإنكم الآن بعملكم هذا تعيدون للإسلام عزه ومجده وتنفضون عنه الغبار الذي علق به وتخلدون بطولتكم وتكتبون في صحائف التاريخ الإسلامي أسماءكم بحروف من نور، وعليكم أن تتموا هذه الرسالة العظيمة التي كلفتم بها، وأن تغنموا هذه المكرمة وفقكم الله وأعانكم»[2] وتأثر بتلك الكلمة الحاضرون وقالوا: يا مولانا لقد أيقظتم فينا الهمم، وبعثتم فينا روح القوة، والمقاومة، والاستماتة في سبيل إعادة عزتنا ومجدنا، ولكم علينا عهد الله وميثاقه أن نمضي في هدفنا حتى النصر أو الشهادة، ثم توجه أحمد الشريف بعد مقامه في «اسكي شهر» إلى أنقرة بالسكة الحديدية، وفي محطة أنقرة قابله مصطفى كمال وكافة رجاله، وكان يوماً حافلاً بأنواع المظاهر والزينات، ونزل في منزل مصطفى كمال الخاص به، وبدأت اتصالات مصطفى كمال مع السيد الشريف في أمور كثيرة[3].

أولاً: عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:

عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف منصب نيابة الخليفة وقال لسيادته: إن كافة الوزارات أصبح لها عندنا وكلاء يقومون باختصاصها بصفة مؤقتة حتى تمام النصر إن شاء الله تعالى، غير أن مقام نيابة الخليفة لم نجد له من يليق به إلا سيادتكم ونرجو أن تتموا لنا هذا

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 57، 58).

(2 - 3) المصدر السابق نفسه (2/ 59، 60).

النقص في جهارنا، ولكم علينا ميثاق الله وعهده أنا سنقوم بكل ما يترتب علينا نحو هذا المقام، ونرجو أن تتموا لنا نقصنا هذا، فقال له السيد أحمد الشريف: أنتم الآن مشغولون بما هو أهم، مشغولون بصد العدو المهاجم لكم، والمحيط بكم من كل ناحية وتحتاجون إلى من يؤازركم فعلياً في ميادين الجهاد لا من يجلس على الكرسي، ثم أنتم فيكم البركة وإجراءاتكم حكيمة وصائبة، وأنا أحب أن أساهم معكم فعلياً في جهادكم هذا بقدر استطاعتي في أي جهة كانت، وأرجو أن تعذروني، وسوف يأتي الوقت الذي لا تحتاجون فيه إلى غيركم، وأنا معكم في السراء والضراء حتى يتم النصر إن شاء الله، فقال له مصطفى كمال: أنا مطمئن، وواثق من ذلك، وهذا ظني وظن كل من يشاركني في هذه الثورة، وفي الحقيقة ما تعلمت هذه الدروس المفيدة ولا تشربت في جسمي هذه الروح الأبية إلا في مدرستكم التي أسستموها في برقة المجاهدة، وها أنتم اليوم تؤسسونها عندنا من جديد، وبذلك سننتصر بحول الله وقوته وستجني ثمرة جهادنا هذه ببركة مشاركتكم لنا، ووجودكم بيننا، فأنت الأب، وأنا الابن، وكل ما تراه صالحاً مرنا به ونحن على أتم الاستعداد للتنفيذ وفي اتباعنا لكم شرف لنا(1).

لقد أتقن مصطفى كمال دور النفاق والتدليس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 204-206].

إن أحمد الشريف انخدع لكلام مصطفى كمال الذي مرد على النفاق وتفنن فيه؛ لأنه اكتفى بالظاهر، وترك الباطن لعالمه سبحانه وتعالى، ولأن مصطفى كمال ظهر بثوب الجهاد، وصد المعتدين، فالوقوف بجانبه واجب شرعي، هذا رأي أحمد الشريف حسب ظني.

ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة، والوقوف صفاً واحداً ضد أعداء الدين، وطلب شيوخ الأكراد من أحمد الشريف أن يقيم بوسطهم، ويتولى أمرهم، فامتنع عن ذلك وقال: إنما أنا مجمع ولست مفرق، ومصلح ولست بمفسد، وسمع الأكراد وأطاعوا، وأخذ عليهم مواثيق غليظة لوقوفهم مع مصطفى كمال، وبقي في ديار بكر، ونصيبين، وماردين، مدة ستة أشهر حتى تحقق تماماً من تهدئة الثورة.

وفي مدة إقامته في ديار بكر كانت القوات اليونانية تتقدم، والقوات الكمالية تدافع، غير أن القوات اليونانية انتصرت في عدة مواقع، وقامت بهجمات خاطفة، وجعلت هدفها أنقرة، فاندحرت القوات الكمالية أمام الجيوش اليونانية، واحتلت الجبهة تماماً، وتحققت حكومة

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 60.

مصطفى كمال من الفشل، وأخلت بلدة أنقرة من كل شيء إلا الجنود[1].

وكانت القوات اليونانية قد استولت على ولاية أزمير وبروسة ومدانية، وعلى كوتاهية، وإسبارطة، وأفيون قره حصار، وإسكيشهر، وأخيراً قصدت العاصمة أنقرة، حتى لم يبق بينها وبين أنقرة إلا عدة كيلومترات، واضطربت الأحوال، وارتبكت حكومة أنقرة، وبدأ مصطفى كمال يوالي برقياته المطولة المثيرة إلى سيادة أحمد الشريف ويقول لسيادته فيها: تغلب علينا العدو، فاضرعوا إلى الله ليدركنا بعنايته، وكانت برقيات مثيرة تأثر منها أحمد الشريف تأثراً بالغاً، ورد أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال وقال له: ثق بالنصر من الله، ويأتيك الغوث إن شاء الله تعالى، ثم انتدب إليه رفيقه في جهاده الشيخ محمد عبد الله الزاوي، وأعطاه مصحفاً شريفاً، وسيفاً، وبرنساً من ملابسه الخاصة، وقال له في كتابه الخاص: بعثت إليك بمصحف الله تعالى، وسيف النصر، وكسوة العز والفوز إن شاء الله تعالى، فلما وصل مندوبه إلى مصطفى كمال وهو في الجبهة على رأس الجيش المستميت على نهر «سقاريا» سلمه الرسالة، وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة، والهجوم المعاكس على العدو، ورتب الجبهة، وفي صباح اليوم الذي قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربه فوزي باشا، وعصمت باشا، ورأفت باشا، وغيرهم ثم لبس البرنس المرسل له من السيد أحمد الشريف، وتقلد السيف، وعلق المصحف الشريف، ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الزاوي، وتضرعوا إلى الله وطلبوا العون والنصر، ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم وبدأت معركة الاستماتة، ودامت ثلاثة أيام بلياليها، ففي خلالها ما ينوف على العشرين ألفاً من الأتراك، وما يزيد على الثلاثين ألفاً من اليونان، واختلت في نهايتها مقدمة جيش اليونان، وولت فلوله على أعقابها وتعقبتها الجيوش الكمالية وكان ذلك بداية الانتصار النهائي على اليونان[2].

وبعد ذلك الانتصار الحاسم ورجوع الحكومة الكمالية إلى أنقرة زار أحمد الشريف مصطفىء كمال مهنئاً بالنصر، واحتفلت به الحكومة التركية، ثم ذهب إلى طرسوس، وفي أثناء إقامته بها قام مصطفى كمال بجولة تفقدية في أنحاء الأناضول، وعرج على ولاية أضنة، وأتى خصيصاً لزيارة أحمد الشريف، فأقام أحمد الشريف لمصطفى كمال حفلة غداء فخمة حضرها كل من معه من القادة، كما حضرها عموم أعيان البلاد ووجهاؤها، والموظفون، وفي أثناء جلوس الجميع على المائدة وقف مصطفى كمال وقال مخاطباً لقادته باللغة التركية: «أيها الإخوان اسمحوا لي لأعرفكم بمن نحن في حضرته، وعلى مائدته، نحن الآن في حضرة فخر

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 64، 65).
(2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 65، 66، 67).

المسلمين، وحفيد سيد المرسلين، المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي، معلمنا الأول، ومؤسس أول مدرسة في برقة، كنا وفدنا إليها، وتلقينا دروس الجهاد، والمقاومة، والدفاع عن النفس، والدين، والوطن، وهذا يشير إلى سيادة أحمد الشريف، هو الذي غرس في نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة، وهو الذي آزرنا في محنتنا القاسية، وشجعنا بأفكاره، وآرائه الصائبة حتى نلنا شرفنا، وعزتنا، وأنقذنا من براثن الأعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركي كمال الشكر والتقدير، ثم اختتم كلامه وجلس فقابله سيادته بكلمات شكر، وقال: الشكر لله وحده هو الذي أيدكم ونصركم، ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق.

وبعد إقامته في طرسوس لمدة سنة تقريباً انتقل أحمد الشريف إلى مرفأ مرسين، وفي أثناء إقامته وفد إليه صديقه الحميم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وأتت بعض وجوه الناس من ليبيا، وأرسل الرسائل إلى ابن عمه محمد إدريس، وإلى قائد حركة الجهاد الغر الميمون عمر المختار يحثه على مواصلة الجهاد[1].

ثانياً: شكيب أرسلان يصف أحمد الشريف:

«فلما جئت إلى مرسين ذهبت تواً لزيارته، فأبى إلا أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان، ما كنت أتخيله عنه بالسماع وحق لي والله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

رأيت في السيد حبراً جليلاً وسيداً غطريفاً، وأستاذاً كبيراً، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالة القدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاحة خلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رئاء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد من الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة، والتلاوة والتهجد، ورأيته مراراً تنضج بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزىء هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً، وهكذا هي عادته، وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة، فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية، ويتناول كل منهم ثلاثة أقداح من شاي ممزوجاً بالعنبر، فأما هو فيتحامى شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته، وقد يتناول قدحاً من النعناع، ومن

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 68، 69.

عادته أنه يوقد في مجالسه غالباً الطيب، وينبسط السيد إلى الحديث، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي، والسيد المهدي وغيرهم من الأولياء والصالحين. . .»[1].

«والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر، سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً، وله عدة كتب. .»[2].

«وقد ذرف السيد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن، لندرة الشيب في شعره، وهو رائع المنظر، بهي الطلعة، عبل الجسم، قوي البنية، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه»[3].

ثالثاً: القضاء على سلطنة آل عثمان:

بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول، وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء تم الاتفاق على إخلاء إستانبول من قوات الاحتلال، وبذلك تحقق السلطان محمد وحيد الدين عدم قدرته على مقابلة القوات الكمالية، فقرر هو وحكومته الجلاء عن إستانبول والالتجاء إلى بعض دول أوروبا، وبذلك انطوى ملك آل عثمان بعد حكمهم للممالك الإسلامية مدة تزيد على السبعمائة سنة، فسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يذل سلطانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

وقد تحدثت عن الدولة العثمانية في عوامل نهوضها وأسباب سقوطها منذ النشأة حتى النهاية في كتابي السادس «صفحات من التاريخ الإسلامي».

بعد أن دخلت القوات الكمالية بلدة إستانبول نصبت ولي العهد الأمير عبد المجيد ولقبته بخليفة المسلمين لمدة ستة أشهر تقريباً دون أن يكون له أي حل أو ربط، أو أي مظهر رسمي، أو صفة رسمية، وإنما هو ذر للرماد في عيون المسلمين، وتسكيناً للحالة حتى لا يثور المسلمون ويطالبوا ببقاء الخلافة، ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء آل عثمان، وفي ذلك اليوم قال أحمد الشريف كلمته المشهورة: ما زال أحمد الشريف «يعني لم يبق أمام مصطفى كمال إلا أحمد الشريف».

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 2/ 156.
(2) المصدر السابق نفسه، 2/ 161.
(3) المصدر السابق نفسه 2/ 164، 165.

بدأت نوايا مصطفى كمال الشريرة تظهر رويداً رويداً، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي، والتمس منه إعادة النظر سريعاً في الموضوع، كما حضه على التمسك بعرى الدين، الذي به انتصر، واكتسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، فلم يرق هذا الكلام لمصطفى كمال، وعَدَّهُ تدخلاً في سياسته الشيطانية.

لقد كان مصطفى كمال أفعى يهودية بحق، وماسوني متضلع، وحاقد على الإسلام والمسلمين، أتقن فنون الكيد والمكر والخداع، ولما تمكن من تركيا وشعبها قام بإلغاء الخلافة الإسلامية، وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية، دولة الإسلام، وأعلن بكل وقاحة العلمانية في دار الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلق جثثهم على أعواد المشانق، وأغلق كثيراً من المساجد، وحرم الأذان والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على تغيير زيه الوطني، وألزم الناس بلبس الزي الأوروبي، وألغى وزارة الأوقاف، ومنع الصلاة في جامع آيا صوفيا، وحوله إلى متحف، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض القوانين السويسرية، وفرض العطلة الأسبوعية الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وألغى استخدام التقويم الهجري، واستبدله بالتقويم الميلادي، وألغى قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية، وحرم تعدد الزوجات، والطلاق، وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وشجع المرأة التركية والفتيات على الدعارة والفجور، وأباح المنكرات، وضرب من نفسه المثل الأعلى على انحطاط الخلق والإدمان على الخمر والنساء والانحلال، ومارس عن طريق حزب الشعب الإرهاب والبطش بالشعب التركي المسلم(1).

وأصبح مصطفى كمال مثلاً أعلى لكل طاغية مفسد في بلاد المسلمين، يقتدى به في كافة أموره بداية في لباس ثوب الدين حتى يتمكن، ثم خلعه وكشف الفجور والفسوق، وعلى العلماء والدعاة أن يتنبهوا لهؤلاء المجرمين الذين يستغلون الشيوخ، والعلماء، والدعاة لحين، ثم يضربون بهم عرض الحائط، ويعلقونهم على المشانق، أو يفتحون لهم أبواب السجون على مصراعيها، وكم من طاغية متكبر لا يؤمن بيوم الحساب مكن نفسه بواسطة الدين، وعلمائه، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن مصطفى كمال يعتبر مرتداً ملحداً زنديقاً خارجاً عن الإسلام، وهو أول جاهر بالعلمانية كنظام دولة نظرية وتطبيقاً، وما قام به مصطفى كمال في حقيقته تنفيذاً لمخططات قديمة أشرف على تنفيذها اليهود، والماسون، والنصارى، ومارس الإنكليز ضغوطهم بالقوة

(1) انظر: الأفعى في معاقل الإسلام، عبد الله التل، ص94، 95.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918م وقال وزير خارجية بريطانيا يومئذٍ «كرزون» بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا تركيا مستقلة حتى لا يجتمع المسلمون حولها مرة أخرى، وعندئذٍ طمأنهم مصطفى كمال بأن استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم في المستقبل، فأملى الإنكليز شروطهم المعروفة بشروط «كرزون» الأربعة:

1 - أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

2 - أن تلغي الخلافة.

3 - أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

4 - أن تختار لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية على حدودها[1].

وفرضت معاهدة لوزان التي ذكر فيها الشروط السالفة سنة 1340هـ/ 1923م على تركيا.

لقد اتفق الغرب الحاقد والصهيونية الماكرة والماسونية الخادعة، على تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية.

رابعاً: طرد أحمد الشريف من تركيا وهجرته إلى الحجاز:

ومن طرف خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وعلى المكاتبات الواردة إليه، والصادرة منه، ثم سحب بعض الجنود والضباط الذين كانوا مرافقين للسيد للقيام بحراسته وخدمته، ومرافقته، وأخيراً توقفت المصاريف التي كانت تعطى لسيادته لمدة أربعة أشهر، واشتدت الضائقة في بلاد الغربة، وقام الأتراك المحبين للسيد بالقيام بواجب الضيافة، وخشيت الحكومة حدوث ما لا تحمد عقباه، فقلبت المجن وعدلت عن خطتها وسارعت بحوالة الصرف، وبدأت تكيد في الخفاء لإيجاد أمر تدين به سيادة أحمد الشريف، فأرسلوا إليه شخصاً ادعى أنه طالب علم، وطلب منه أن يعطيه تزكية لحفيد السلطان عبد الحميد «الشهزادة سليم» الذي كان مقيماً في بيروت ليعينه على مهمته، وهي وصوله لطلب العلم بالجامع الأزهر، وبالغ الطالب الذي يدعى ضياء الدين جودت في الترجي والاستعطاف والتردد حتى أخجل أحمد الشريف، فكتب إليه: إن حامل هذا الكتاب إليكم هو أحد طلبة العلم المحتاجين للمساعدة، ويأمل أن تمدوا له يد العون بقدر المستطاع لإتمام مهمته، وإذ بالكتاب يصل إلى مصطفى كمال الذي طلب من مجلس الحكومة الاجتماع وقرأ عليهم الرسالة، فقالوا: هذه خيانة عظمى للدولة، وقرروا حالاً إبعاد سيادة أحمد الشريف عن تركيا في مدة لا تتجاوز العشرة أيام، أو

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، جمعة الخولي، ص100.

إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية «أظنة» مدة حياته دون اتصال بأحد ما، وبذلك أبلغت حكومة أنقرة أمرها هذا لسيادة أحمد الشريف بواسطة والي الولاية «أظنة»، فقال أحمد الشريف عندما سمع القرار: كنت أتوقع منذ خلع عبد المجيد؛ لأن بقائي في تركيا لا يروق لمن يريد أن يتلاعب بأمر الشرع الشريف، ويطمس معالم الدين الحنيف، وإنني أختار الخروج من تركيا، وهذا جزاء معاضدتي ومناصرتي لها، وسوف تخسر تركيا ميزتها بين عموم الشعوب العربية، والأمم الإسلامية، فرفع الوالي اختياره، وبذلك حددت لسيادته إقامة عشرة أيام، وتحصل على تأشيرة لدخول سوريا لمدة محدودة ونزل في دمشق ضيفاً على سعيد الجزائري حفيد المجاهد عبد القادر الجزائري، وفرح به أهل الشام فرحاً عظيماً، وتوافد الأعيان والشيوخ والزعماء لزيارته، ونشطت الحمية الإسلامية، وزار القدس ونزل ضيفاً عزيزاً على أمين الحسيني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وضايقه البريطانيون من أجل خروجه من القدس ورجوعه إلى دمشق، وعاملته فرنسا معاملة حذرة وطلبت منه الخروج، وأرادت إيطاليا أن تستغل الموقف، وعرضت عليه مساعدات، والرجوع إلى ليبيا للتفاوض مع الحكومة الإيطالية من أجل مصلحة البلاد والعباد، فأجاب السيد الجليل، والجبل الشامخ ﷺ: أما وأنا خارج حدود الوطن، فلن أساوم أو أصالح على شبر منه، كما لا حق لي في ذلك، وإذا كانت الحكومة الإيطالية صادقة في قولها فعندها الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في مصر، وعندها رؤساء الوطن فتتفاهم معهم وهم أسهل لها وأخف شروطاً مني، وبهذا قفل باب المفاوضات[1]، ولقد قال لمندوب الحكومة الإيطالية في تركيا من قبل: «. . . لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان، بل هما ملك أهلها»[2].

واشتد ضغط الحكومة الفرنسية على سيادة السيد أحمد الشريف للخروج من سوريا، فطلب مقابلة القنصل الإنكليزي بدمشق فقدم إلى سيادته وبعد مقابلة المجاملة قال له: إني أريد الخروج من سوريا إلى الحجاز عن طريق شرق الأردن، فقال القنصل: الحكومة الإنكليزية لا توافق، فقال له: إذاً إلى العراق، فقال له: أيضاً لا توافق، فقال له: إلى مصر، فقال له: ملك مصر لا يوافق، فقال له: إلى اليمن، أو الهند أو السودان، فقال له: لا نوافق، وكل بلد يعتليه العلم البريطاني لا يمكن أن تدخلوه، فغضب أحمد الشريف، واشتاط غضباً، وقال للقنصل: «إذاً مفاتيح الدنيا كلها بيد الإنكليز، أليس الأرض كلها لله وأن الأمر بيده، ثم قال له: أما أنا فسيجعل الله لي فرجاً ومخرجاً، وأما الحكومة البريطانية، والله، ثم والله سيأتي يوم تندم فيه على هذا التصرف[3] وستخسر كل ما تحت يدها من الممالك، وستندم ولا ينفعها الندم» فقال

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 73 - 81).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 158).

(3) انظر: الفوائد الجلية (2/ 81).

القنصل كالمستهزىء: عندكم طريق نجد، فقال له: نعرفها ولا حاجة لدلالتكم، فغضب القنصل وخرج محمر الوجه[1].

يقول عبد القادر بن علي بعد فترة من الزمن: وها هو اليوم تحقق ما أقسم عليه سيادته، فقد خرج العراق وشرق الأردن، والهند، ومصر، والسودان.. وغيرها من يد الإنكليز[2].

واتصل سعيد الجزائري بمندوب الملك عبد العزيز في دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحي، وعرض عليه رغبة السيد أحمد الشريف المرور للحجاز، واتصل مندوب الملك، وجاء الرد بالموافقة، وبدأت الرحلة إلى الحجاز عن طريق أراضي نجد تأخذ وضعها للاستعداد، وأعدوا ثلاث سيارات مع ثلاثة خبراء بمبلغ 270 جنيه ذهب، ولم يكن هذا المبلغ متوفراً، وضايقته السلطات الفرنسية وهددته بإرجاعه إلى تركيا، وعندما ضاق الأمر، واشتدت الكربة جاء فرج الله، وكان السبب الأمير شكيب أرسلان الذي أرسل للسيد أحمد الشريف 400 جنيه إسترليني أهداها الشيخ جاسم بن إبراهيم أحد تجار اللؤلؤ بمباي ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3] فعندما جاء الخبر لأحمد الشريف خر ساجداً لله تعالى يحمده، ويشكره على هذا الغوث الرباني، والمدد الإلهي، ثم رفع رأسه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: فرجت علينا يا شكيب، فرج الله عنك كرب الدنيا والآخرة، وساعدتنا في محنتنا ساعدك الله في كل أمور دينك ودنياك، ودعوات كثيرة نالها شكيب أرسلان بسبب إرسال ذلك المبلغ ووصوله في الوقت الحرج.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2 - 3].

وتحركت الرحلة إلى الحجاز عن طريق نجد، وكانت عناية الله وحفظه ورعايته محيطة به، ووصل إلى منطقة الجوف «دومة الجندل»، وظن أهل المنطقة أنهم أعداء، فألقوا القبض عليهم، وبعد أن عرف أميرهم عبد الله بن عقيل أن الذي أمامه أحمد الشريف السنوسي صاحب الجهاد في برقة وطرابلس، وأنه يقصد حج بيت الله الحرام، ثم زيارة الملك عبد العزيز بن سعود، ارتمى عليه الرجل وعانقه ورحب به، واعتذر لسيادته، وأحسن نزله، وأرسل إلى الملك عبد العزيز فرد عليهم بإكرامه واحترامه وإرجاع السيارات إلى محلها؛ لأن هذا من إكرام أحمد الشريف؛ لأن الأمير عبد الله بن عقيل فكر في إحراقها، وكانت هذه السيارات هي أول سيارات تشق هذا الطريق وتقطع هذه الصحراء العظيمة، وكان قد أشيع أن أحمد الشريف مات في الصحراء هو ومن معه، ونهبتهم الأعراب، ولم ينفِ هذه الإشاعات إلا رجوع السيارات إلى دمشق، واستمر في رحلته حتى وصل مكة واعتمر ثم جاءه وفد الملك عبد العزيز، ثم سافر إلى

(1 - 2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 81).

جدة والتقى بالملك عبد العزيز فأكرمه وأحسن نزله، وأصبح في ضيافته، وقدم خدمات عظيمة للإصلاح بين القبائل وتوحيدها تحت زعامة الملك عبد العزيز الذي كان يحارب الحسين بن علي في جدة، وأصبح أحمد الشريف يتردد بين مكة والمدينة في ضيافة الملك عبد العزيز[1].

خامساً: نصيحة الملك عبد العزيز لأحمد الشريف:

في عام 1346هـ أراد أحمد الشريف أن يحج بيت الله الحرام في ذلك العام، فأهلّ من ذي الحليفة، وعند وصوله إلى جدة، وجد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بها نازلاً في بيت أحد وجهاء جدة المسمى الشيخ محمد حسين نصيف، وزار أحمد الشريف الملك عبد العزيز، وطلب منه البقاء في جدة لمدة يومين لأمر خاص، وتم اللقاء بين الملك عبد العزيز، وأحمد الشريف، وكان المقصود من هذا الاجتماع هو التفاهم والمباحثة، لإيجاد طريق لحل مسألة الحرب القائمة في برقة، وعرض عليه فتح باب المفاوضات مع الحكومة الإيطالية، وعقد هدنة على شروط تعودون بموجبها إلى وطنكم وتتداركون البقية الباقية من أهله المتعبين، وقال الملك عبد العزيز: إن أهل وطنكم في ذمتكم ويحتاجون إلى تفكيركم في راحتهم، وتداركهم قبل القضاء عليهم، وهم مهما يقاومون فلا بد أن يكلوا لأن هذه الحكومة قوية قائمة ولديها ما يحتاجون من لوازم الحرب، وعقد الهدنة معها يجعل لكم فرصة تجتمعون خلالها بأهل وطنكم وتلمون شتاتهم، وترتبون أموركم على حسب ما تستطيعون من مصالحة أو محاربة فيما بعد، وهذا الذي دعاني إلى طلبكم، فأجاب أحمد الشريف: صدقتهم في كل ما قلتم، ولكن يا حضرة الملك؛ الحكومة الإيطالية غادرة وماكرة ولا عهد لها ولا ذمة، وإذا كانت صادقة في رغباتها فعندها أهل الوطن، وهم المحاربون لها، وأمامها الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي عرفته وعرفها، وهو ينوب عني وعن أهل الوطن فتتفاهم معه، وهو أهون لها مني وألين، أما أنا ما دمت خارجاً عن الوطن بعيداً عنه فلن نساوم فيه، وحكومة إيطاليا تريد أن تحكم الوطن باسمي نظير إغرائها بأموالها ووعودها الخلابة، وأنا أريد تخليص الوطن منها كلياً، كما سيكون إن شاء الله عاجلاً أو آجلاً، ولذلك أرجو أن تتموا إحسانكم لي، وتساعدوني على هجرتي، وإعفائي من ألاعيب إيطاليا، وعدم انشغالكم وانشغالي بما لا يأتي بنتيجة، فقال الملك عبد العزيز -رحمه الله-: أما مساعدتكم على هجرتكم فهذا حاصل إن شاء الله، ولا لنا فيه جميل، وأما موضوع الوطن وأهله، فأنتم أدرى به، ولن نشغلكم ثانياً إن شاء الله، نرجو الله أن يقدر للجميع ما فيه الخير والنصر والتوفيق[2].

ثم توجه أحمد الشريف إلى مكة وأدى مناسك العمرة، ثم أدى مناسك الحج، ثم رجع

---

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 88 إلى 120.

(2) انظر: الفوائد الجلية 2/ 122، 123.

إلى المدينة، وكان يتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام.

سادساً: وفاته:

أخذ أحمد الشريف بعد وصوله للحجاز يتنقل بين المدينة المنورة، ومكة المكرمة، وإذا بداعي الموت يناديه في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 1351هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة 1933م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة[1] إثر مرض عضال لم يمهله، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة[2]، بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاصبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين.

سابعاً: صدى وفاة أحمد الشريف في العالم الإسلامي:

نشر بمجلة «اللطائف» المصورة بعدد (945) 20 مارس سنة 1933م ما يلي:

يوم 11 الجاري نعت برقيات الحجاز السيد أحمد الشريف السنوسي الكبير، فكان لنعيه رنة حزن مرير أعادت إلى الأذهان تلك الجهود الجبارة، والتضحيات الغالية التي بذلها هذا الفقيد العظيم في نشر الإسلام، وتثقيف أهل البيد، ومكافحة الاستعمار الإيطالي سنوات عديدة، قضاها أرسخ ما يكون ثباتاً وإيماناً، فقد كان للفقيد نفوذ روحي عجيب استطاع به أن يعمم دعوته في أحشاء الصحراء وشمال إفريقيا، وأعمال السودان، ولما أغارت إيطاليا على طرابلس منذ ربع قرن ثارت نخوته الوطنية الدينية ووقف يدافع عن وطنه ودينه مثيراً روح العزم والقوة في أنفس العربان، ثم انضم إلى الأتراك ضد الإيطاليين إلا أن تركيا اشتغلت بالحرب البلقانية الثانية سنة 1911م فظل الفقيد يناضل وحده في الميدان، وصمد به ما يزيد عن ثلاث سنوات استطاع خلالها بجلده، ومضاء عزمه، ويقينه مع قواته القليلة أن يقهر القوات الإيطالية المنظمة الكبيرة، ويلحق بها الهزائم والخسائر حتى أرغم إيطاليا على طلب الصلح معه على يد الخديوي السابق عباس حلمي، فرفضه قائلاً: إني لا أصالح أبداً دولة مسيحية على شبر من أرض المسلمين، واستمر في جهاده المستميت إلى آخر سني الحرب العالمية، حيث سافر إلى تركيا، وعرضت عليه الخلافة الإسلامية فرفضها، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها التجأ إلى بلاد الحجاز، وظل فيها أربعة عشر عاماً بعيداً عن وطنه محتفظاً بإيمانه وتقشفه، ووطنيته، إلى

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص179.

(2) انظر: برقة العربية، ص323.

أن لبى نداء ربه، وله في القلوب أفعم الذكريات. . .»[1].

فرح إيطاليا بموته:

أعلنت إيطاليا وفاة السيد أحمد الشريف على لسان وزير مستعمراتها وقتذاك الجنرال دي بونو داخل قاعة المجلس الفاشيستي المنعقد حينذاك فقال: مات السيد أحمد الشريف السنوسي بالحجاز متأثراً بالشلل، وبموته ماتت جميع مخاوفنا في إفريقيا، وقال أيضاً ما معناه: إن موت هذا الرجل العدو اللدود لنا يجعلنا نطمئن لجميع أعمالنا، ومقاصدنا الدينية في شمال إفريقيا، وقد كتبت أكثر الصحف الإيطالية؛ يومية كانت أو أسبوعية في فصول عقدتها حول تصدع ذلك الصرح العظيم[2].

شكيب أرسلان يؤبن أحمد الشريف في عنوان كبير:

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين:

لم يشعر بالخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما أشعره النبأ الصادع، والخبر الفاجع الذي نقل إلى الآفاق نعي الأستاذ الأكبر، والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين، ومثال الغزاة المرابطين، السيف الباتر على هدي الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف ابن سيدي الشريف ابن سيدي محمد بن علي السنوسي ﷺ وعن سلفه وأرضاهم وجعل في جوار قدسه مأواهم.

إن فجيعة العالم الإسلامي بهذا الرجل الكبير من رجاله، بل بهذا الجبل الراسي من جباله هي من الحوادث التي تشغل مكاناً خاصاً في تاريخ مصائب الإسلام الذي أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب، وإن هذا الفقيد العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية والفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون إلى جدار الصين، فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله، ووقف مدة عشرين سنة في وجه دولة من الدول العظام في عصر دثرت فيه معالم الجهاد، وانطفأت جذوة الإسلام حتى لم يبق منها إلا الرماد، واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوروبية ضرباً من ضروب الحماقة، وعم ذلك جموعهم الحاضر منهم والباد، وانتشر في الربى والوهاد، ومع هذا فإن سيدي أحمد الشريف السنوسي قد أتى ببرهان ساطع، ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الإرادة، وثبات العزم، ومضاء الصريمة، وإباء الضيم،

---

(1) انظر: برقة العربية، ص323.

(2) المصدر السابق نفسه، ص325.

وترجيح المعنى على المادة، وإيثار الشرف على الترف، وامتلاء القلوب بالإيمان، ووقف النفوس على اعتزام عزائم الإسلام أن تثبت مدة 240 شهراً، بإزاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليوناً مجهزة بجميع ما هي مجهزة به عظميات دول العالم المتمدن، لها من فيالق البر وأساطيل البحر، وسيارات الكهرباء، والملحقات في الفضاء ما لا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول في ممالك الأرض.

وقد يقول المتعنتون الذين في قلوبهم مرض والذين لا يروقهم إلا أن يروا الإسلام ذليلاً مهيناً: وماذا أفادنا قيام السيد السنوسي في وجه إيطاليا، وهل كان ذلك إلا سبباً في زيادة قهر المسلمين، وإرهاقهم بأفانين الظلم، وأساليب الاستئصال في طرابلس الغرب؟ فلو كان هؤلاء الأهالي قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التي قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتهم عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذي هم فيه، والخطوب التي أبادت خضراءهم، وما أشبه ذلك من الأعاليل التي تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبي أياً كان.

وجوابنا على ذلك بسيط وهو: إننا ما رأينا أمة أوروبية مهما قل عددها وانقطع مددها، قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوروبية عظيمة مهما علا سلطانها، وغلظت ملكتها في الأرض؛ بل القاعدة عند الأوروبيين - الذين هم قدوة الشرقيين الآن في جميع المآخذ والمتارك - هي أن الأمة المستقلة لا بد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع بغير دفاع فالموت أولى بها من الحياة بلا نزاع، وأن بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً، وأرجى حياة من الكثرة المستنمية إلى الذل ولو كانوا كالجراد المنتشر، وقد حققت الحوادث، وأيدت التجارب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء، وأن قول الشاعر:

قاتل عدوك باللسان ... وإن قدرت فبالسنان
إن العداوة ليس ... يصلحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث، كما دانت بها دول العالم القديم، ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لإيطاليا لما كانت لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم، وامتداد أيدي الأوروبيين دون أدنى تردد إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية قياساً على قضية طرابلس، واعتقاداً بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهي لا تبدي، ولا تعيد، ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام، لأنه ما لجرح بميت إيلام.

قد استشهدنا على صحة المقاومة ولو كان المعتدي قوياً، والمعتدى عليه ضعيفاً بالقاعدة السياسية والمبادىء الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حرباً وسلماً، وعملاً وعلماً، ولم تتعرض إلى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاهم كتابهم عن الخضوع للأجنبيين عنهم

ويقول لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

ولم يكن تقديمنا الحجة الأولى لكوننا أشد بها اقتناعاً من الحجة الثانية، ولكن لمعرفتنا أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الأوروبية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية، وإنك إن لم تستظهر عليهم بكتاب أوروبي أو سنة غربية لم يفدك الأخذ والرد معهم شيئاً.

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا 17 سنة، وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وإسبانيا معاً وجهاً لوجه، وزلزلتا في حربه زلزالاً شديداً، ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله تعالى لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما، وإننا لا نزال نذكر كلام القواد، ورجال السياسة الأوروبية عن الحملة الإيطالية يوم جردتها ذينك القطرين إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر، وتستكمل هذا الفتح في مدة 15 يوماً، وقال أشدهم تشاؤماً وأقلهم تخيلاً، وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور أن هذا الفتح الذي يستقله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل.. فليتأمل أولوا الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عاماً ورزأت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح، هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند.

نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئاً ولم تشرب هنيئاً، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حسك لا يزول في الأحقاب، ولا في القرون، وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قد يفهم الإسلام حق الفهم، ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة، ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم الفاني لا توازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً، ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائداً من قواده.

قلت: إن السيد السنوسي لو كان في عصر السلف لكان في صف أعاظم أبطال

المسلمين، فكيف وهو في عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب؟ وإن هذه المقابلة تذكرني بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل، فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المديني المحدث المشهور: ولا أبو بكر الصديق، فأجاب: ولا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان له رجال وأعوان، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان، وإنما كان يناضل بقوة نفسه وحدها.

ونحن نقول: لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بتوالي الهزائم عليه لما كان في ذلك ما يقضي بالعجب، ولكن الذي قام هذا المقام الشريف، ووقف هذا الموقف التاريخي النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته، ومتانة إيمانه، وإيمان رجاله، وعزة أنفسهم بالإسلام، وصبرهم في البأساء وحين البأس، وبينهم وبين عدوهم في العُدد والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير في قليل ولا كثير، ففضله إذن أعظم جداً من فضل الدولة العثمانية في جهادها، وإن كان فضلها عظيم، وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت بإذن الله هذا الجهاد الطويل العريض، وحفظت شرف الإسلام المعتدى عليه في طرابلس، وغير طرابلس؛ لأنه مما يجب أن لا نتمارى فيه أن أوروبا لا تعرف في ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً، إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه، وزهده في الدنيا، وحبه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها، ومواساته للفقراء، وحنانه على الضعفاء، وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين، ومحافظته على الفرائض والسنن، وغير ذلك من الأخلاق العالية، والهمم الشماء، والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام، بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام، ولا أقول هذا في مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة، وأن يحملهم الموت على طي الهنات، وتناسي السيئات، بل أقول إنه كان هذا لسان جميع من خالطوه، والفقيد رحمه الله ملآن حياة، وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها، وطالما كان يقول الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم: إن الأمة الإسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره..

وإني لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان في مرسين وذلك سنة 1342هـ، فكنت أفطر في منزلي بالبلدة ثم أذهب إلى خرستيان كوى حيث يقيم السيد، ونصلي وراءه العشاء والتراويح، وكان يجتمع المغاربة الذين في مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً، فكان يقرأ خمس القرآن في كل صلاة، وكنت صليت وراءه ساعتين، فعجزت عن ذلك، وصرت أقتصر على صلاة العشاء، وكانوا هم يصلون التراويح، وبعد الصلاة نجلس إلى السحور، وكان في القراءة

يتدفق كالسيل ولا يتوقف، ولا يتردد ولا يتلعثم، وكنت أقضي من ذلك العجب العجاب، وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين والستين من العمر، وتحمل من الهموم والأثقال ما تنوء به الجبال، وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرؤه عن ظهر قلب كقراءته للفاتحة؟ ولم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله إلى آخره وفي الختمات الست التي ختمها لكتاب الله توقف في القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات، كان يقف قليلاً ليتذكر الآية، وكان وراءه شاب تونسي حافظ، فيسرع بإلقائه إياها، فيمضي في القراءة مضاء السهم، وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن، وانطوى على ذلك الهم العظيم، من فراق الأوطان وتنوع الأشجان، وجور الحدثان.

ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابني: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم، وإنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام. . . اللهم إنه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق، وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق، وإنه كان القدوة المثلى بين خلائقك، والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذي أدى إلى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب الذي عليه لدينه ولقومه، وللإنسانية التي كان لها مثالاً، فأعلِ درجته يا رب في جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه في عقباه المقام الكريم الذي يليق بكرمك العميم، وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم، واستحقوا النعيم المقيم، إنك أنت الرحمن الرحيم»[1].

لقد نعت أحمد الشريف ﷺ أغلب الصحف في المشرق الإسلامي بأقلام أكابر الشعراء والكتاب، وقد كتب السيد عبد الرحمن عزام فصلاً عن حياة السيد أحمد الشريف نشرته جريدة «البلاغ» الغراء الصادرة بمصر[2]، وقد صلى عليه المسلمون صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة الأولى من شهر المحرم فاتحة سنة 1352هـ، وقالت مجلة «المنار»: تقام صلاة الغائب على الزعيم الإسلامي المجاهد العظيم والمرشد الشهير السيد أحمد الشريف السنوسي في جميع المساجد الجامعة في القطر المصري، وسائر الأقطار التي بلغتها الدعوة إلى هذه الصلاة من مكتب المؤتمر الإسلامي العام في القدس الشريف، ستكون هذه الصلاة ممتازة لم يسبق لها نظير في مثيلاتها من صلاة الغائب التي يقيمها المسلمون في بعض الأقطار عندما يموت عظيم من عظماء الإسلام في علمه الواسع وعمله النافع، لا باتصاف السيد السنوسي بشرف الحسب

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 396 إلى 405.
(2) انظر: برقة العربية، ص325.

ولا باشتهاره بالصلاح والتقوى، ولا بمكانه المعروف في العلم والعمل والإرشاد والإصلاح، والبر والإحسان، ولا بالجاه العريض الذي ناله بتقليده سيف البيعة للسلطان محمد الخامس، وإنعام السلطان عليه بلقب الوزارة والنيشان المرصع، فكان أول عالم مرشد معهم تحلى بها، كما تقدم آنفاً، بل تمتاز هذه الصلاة على هذا الرجل العظيم بعمل له هو الذي تم به كماله وهو الجهاد بماله ونفسه في سبيل الله دفاعاً عن دينه، وقومه، ووطنه، وبما آل إليه أمره من جراء هذا الجهاد من هجرته الأولى إلى بلاد الترك، ثم إخراجه منها وتعذر رجوعه إلى وطنه، وتعذر إقامته في سوريا، ومصر، وفي كل قطر إسلامي خاضع لنفوذ الدول الاستعمارية الثلاثة المحاربة للإسلام المستذلة للمسلمين، وقد قاتلها كلها في سبيل الله، حتى لجأ أخيراً إلى مهد الإسلام في حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، ومات بجوار جده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فبهذا كله صار للصلاة عليه معنى لم يسبق لغيره من عظماء الإسلام المعاصرين[1].

هذا وقد أبنه الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم المصري بقصيدة قال فيها:

هتف النعي فما ملكت بياني ... ليت النعي إلى الإمام نعاني
فزع الحيطم وراع يثرب عاصف ... للموت ضج لهوله الحرمان
سهم أصاب المسلمين وجال في ... كبد الهدى وحشاشة الإيمان
جرح الأئمة واستمر فما ارعوى ... حتى استباح مقاتل الفرسان
ذهب الإمام يقيم حائط دينه ... ويراه أنفع ما يقيم الباني
ذهب المجاهد يشتري لبلاده ... عز الحياة بأشرف الأثمان[2]

وأما الأستاذ عبد القادر المجددي الأفغاني نزيل الحجاز فقد قال قصيدة عصماء في رثاء أحمد الشريف من أبياتها:

الله أكبر ما هذه المصيبات ... ذابت لأهوالها منا الحشاشاتُ
أعلام جيش الهدى قد نكست جزعاً ... لما توالت من الأيام صدمات
مات الذي كان للإسلام خير حمى ... رباه رحماك ما هذه الدهيات
من للبواتر من بعد الفقيد ومن ... للمشرفيه إن صحت ملاقات

إلى أن يقول:

ذببت عن حوض هذا الدين متكلاً ... على الإله فوافتك الشهادات
في الغرب في الشرق في الإسلام في عرب ... بطن الصحائف من ذكراك آيات[3]

---

(1) انظر: مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا 2/ 137 لعام 1933م.

(2) انظر: برقة العربية، ص326.

(3) انظر: برقة العربية، ص326 إلى 327.

هذه قصة أحمد الشريف السنوسي، السيد الصنديد والعالم الجليل، والعابد الخاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين، حاولت جاهداً أن أوضح للقارىء الكريم ملامحها الإيمانية، وروائحها الزكية، وروحها الأبية، وحياتها المليئة بالدعوة، والجهاد، والعبادة، والعطاء لهذا الدين العظيم.

إن هذه السيرة العطرة تبين لمسلمي ليبيا أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال، وعاشوا للذود عن الإسلام، ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال، وتقيم الحجة الدامغة بالبراهين الساطعة، والحجج الواضحة أن الشعب المسلم في ليبيا خرج منه قادة وأبطال، ورجال عظام، ندر الزمان أن يأتي بمثلهم، وأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا منذ زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأن ما نحن فيه من عثرة، وكبوة وذلة، وبلاء «لا شك أنه من ذنوبنا»، كما أنها فترة تمر بها الشعوب قبل تمكينها، فإلى الغد المشرق مع فجر الإسلام النير، فلتكن الهمم متجهة ولتتوحد الصفوف للعمل والتضحية والعطاء، والبذل من أجل أن تصبح بلادنا قلعة من قلاع المسلمين الحصينة منها تخرج جيوش المجاهدين، والدعاة العاملين، وتستقبل وفود طلاب العلم من العالم أجمع، ونسأل الله تعالى أن تعود بلادنا كما كانت وأكثر في دعوتها للإسلام وجهادها في سبيله على أسس صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وهدي الصحابة الميامين ومن تابعهم إلى يوم الدين.

وعلى أحمد الشريف السنوسي وإخوانه الميامين الذين سطروا لنا هذا التاريخ العظيم من الله المغفرة والرحمة والرضوان.

وكأن الشاعر عندما صاغ الأبيات الآتية يجسد لنا حال أحمد الشريف رحمه الله:

أقسمت أن لا أنثني عن غايتي ... ما دمت أحمل مصحفي وسلاحي
سأعيد للإسلام سالف مجده ... بعزيمتي وبوحدتي وكفاحي
أنا مسلم لا أرتضي بعقيدة ... تُملى من الدجال والسفاح
أنا مسلم سجلت أروع صفحة ... بعقيدتي وعدالتي وصلاحي
أنا ثائر أبني الحياة كريمة ... وعزيزة وعلى هدى وفلاح
في الأرض أبذر شرع دين محمد ... ويشع نور جلاله الوضاح
أقسمت - يا وطني - بأن لا أنحني ... إلا لربي فالق الإصباح
قسماً بأن أسعى لإسعاد الورى ... سعياً حثيثاً مؤذناً بنجاح

سبحانك اللهم وبحمده اشهد أن لا إله إلا انت استغفرك واتوب إليك

خلاصة القسم الثاني

1 - ولد محمد المهدي في الجبل الأخضر في ليبيا في شهر ذي القعدة عام 1260هـ الموافق نوفمبر 1844م.

2 - كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بمولد محمد المهدي عظيمة.

3 - لما ولد الابن الثاني لمحمد بن علي السنوسي عام 1262هـ/ 1846م، كتب عمران بن بركة لشيخه يهنئه بالمولود الثاني، ويسأله عن اسم الوليد الثاني، رد له الجواب بتسمية الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي ﷺ وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمداً المهدي ليحوز أنواع الهداية فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف.

4 - أسند ابن السنوسي تربية أولاده للإخوان وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة.

5 - وبعد أن حفظ محمد المهدي القرآن الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز وصحبة العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر.

6 - رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه وتربيته والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

7 - تميز محمد المهدي بالذكاء، وحسن الخلق، والصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة.

8 - تزوج محمد المهدي في حياة والده وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام 1275هـ/ 1858م، وقد أنجبت عدة أولاد وتوفيت سنة 1891م.

9 - بعد وفاة ابن السنوسي خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعة محمد المهدي.

10 - كون محمد المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من العلامة عمران ابن بركة، وأحمد الريفي، وعلي عبد المولى، وفالح الطاهري، وعبد الرحيم المحبوب، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن الحسن البسكري.

11 - كان المجلس الأعلى للحركة يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار

رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز، والسودان، وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة.

12 - من الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

13 - اهتم محمد المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي، والزراعي، وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب.

14 - كانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب.

15 - نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نمواً كبيراً، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي.

16 - كان من أسباب هذا النمو السريع: طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحركة، إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن من تركيز العلم الذي بدأه والده.

17 - تمكن الإمام المهدي أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا.

18 - كان محمد المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية، ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا، وبعد وفاته قاتلت إيطاليا.

19 - كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان، ومصر، وكذلك الدول الأوروبية.

20 - نشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً مادياً ومعنوياً جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا.

21 - حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

22 - تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشنت عليها حرباً دعائية بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد.

23 - إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء، والتربية، والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى نحو النهوض الشامل للأمة.

24 - إن علماء السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين واستيعابهم لكتاب الله، والسنة المطهرة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.

25 - إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك إدريس -رحمه الله- عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبداً لم يعتقد به».

26 - إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة إليها، وأكدوا في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات وقد كتبت على الاستمارات المعدة للجمع عبارة «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات قرابة «مائة ألف فرنك».

27 - كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الإستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطريق، والأمتعة الضرورية.

28 - كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبيا، واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس.

29 - تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها.

30 - تأثر محمد المهدي بوفاة أخيه محمد الشريف الذي كان عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم ودقة الفهم، والقدرة على التدريس.

31 - استطاعت الحركة السنوسية أن تفجر طاقات الشعراء، وأضفت عليهم معاني في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادىء الدعوة، وكونت أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل.

32 - بعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد المهدي رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد.

33 - تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني.

34 - استمرت المعارك بين قوات المجاهدين والجيش الفرنسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد 24 صفر 1320هـ الموافق 2 يونيو 1902م في زاوية قرو ثم نقل ودفن في زاوية التاج.

35 - كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية

مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعلمه وآرائه، وتدبيره عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام.

36 - ترك لنا أحمد رفيق المهدوي قصيدة رائعة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية، والدينية، والعملية، والنظامية.

37 - تولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر.

38 - يتفق معظم المؤرخين بأن أحمد الشريف ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ 27 شوال سنة 1290هـ الموافق لسنة 1873م، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة.

39 - تربى أحمد الشريف في حجر والده العلامة محمد الشريف، وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم.

40 - شارك أحمد الشريف مع عمه في معارك الحركة ضد فرنسا في تشاد، ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة.

41 - استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية، وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد.

42 - كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية في إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون في جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية.

43 - كان من أشهر قادة الحركة السنوسية في جهادها ضد فرنسا: المجاهد محمد كاوصن، عبد الله السني، عبد الله فضيل، الطوير الزوي، البراني الساعدي، غيث عبد الجليل سيف النصر، محمد بو عقيلة الزوي، صالح بو كريم الزوي، كيلاني الأطيوش المغربي، عابدين الكنتي.

44 - استمرت إيطاليا أكثر من ثلاثين سنة وهي تجمع المعلومات وترسل الجواسيس، وتخطط لغزو ليبيا، وتتوغل بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية لغزو بلادنا.

45 - كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جهداً كبيراً على مستوى

الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك، إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في دواخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام 1911م.

46 - في عام 1911م أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا وشرعت بوارجها في قصف المدن الليبية، واستعد أهالي البلاد للجهاد في سبيل الله.

47 - بعد وصول خبر احتلال ليبيا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه».

48 - تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير 1912م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل ليبيا وأصدر نداءه المشهور يحث فيه أهالي البلاد على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزام النزول بنفسه إلى ميدان القتال.

49 - اعترف السلطان العثماني بجهود أحمد الشريف، وأهداه في مارس 1912م سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر مكافأة وتقديراً لجهوده في الجهاد.

50 - خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا من أهمها: معركة طرابلس، معارك الخمس، معركة الهاني، سيدي مصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء.

51 - أرسل أحمد الشريف أخاه صفي الدين ليتولى قيادة الجهات الغربية من برقة، وكان لإرساله فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وقاد صفي الدين معركة عظيمة ضد إيطاليا بموقع «أبي هادي» واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة إيطاليا.

52 - كانت الانتصارات التي حققتها الحركة السنوسية محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي المجاهد الكبير على رأس أولئك الأبطال المغاوير.

53 - حقق المجاهدون نصراً عظيماً في معركة القرضابية، وبدأت قواتهم في تطهير البلاد من المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة، وهامت على وجهها عبر التلال

والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير على بعد 15 ميلاً من طرابلس.

54 - حقق المجاهدون انتصاراً عظيماً على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمراً آخر.

55 - تولى محمد عابد السنوسي جهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، واتخذ من زاوية «واو» مركزاً للقيادة.

56 - قاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة وهي ربوة عالية في «سبها» يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة وأصبحت تلك القلعة منيعة جداً، واستطاع سالم بن عبد النبي فتحها بقواته المجاهدة عام 1914م، لقد أبلى أهل الجنوب بلاءً حسناً في جهادهم ضد إيطاليا.

57 - جاهد أهالي بنغازي عن مدينتهم دفاعاً مجيداً، وأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة في سجل التاريخ.

58 - توافدت النجدات العسكرية إلى مدينة بنغازي بقيادة شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجدات التي جاء بها زعماء القبائل وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب.

59 - صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفظاً لماء الوجه أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين، لتقوية روح المقاومة والدفاع، وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات.

60 - كان من أبرز قادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من: الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، وفؤاد بولجا قاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي المصري، أدهم باشا الحلبي.

61 - تفاعل العالم الإسلامي مع البطولات العظيمة التي حققها المجاهدون في ليبيا، وقامت الشعوب الإسلامية بواجبها نحو إخوانهم في الدين.

62 - أدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية ليبيا، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة لترغمها على الدخول في المفاوضات للوصول إلى تخلي تركيا عن دعمها لليبيا ونجحت في ذلك.

63 - كان موقف أحمد الشريف واضحاً قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء

في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه» إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادةً حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية.

64 - قامت الدولة العثمانية بتنفيذ معاهدة أوشي، فأصدرت أوامرها لضباطها وجنودها في ليبيا للانسحاب.

65 - تولى القيادة الفعلية لحركة الجهاد بعد خروج أنور باشا أحمد الشريف الذي بذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد بعد انسحاب الأتراك، وكتب منشوراً إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية مواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشرة حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزوداً بمؤونته وسلاحه.

66 - عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحاً حديثاً لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم الذي وصل فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة.

67 - بعد تلك المعركة شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من الغريان، وانتهت بجدابية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية، والمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك في الكثير منها، لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى.

68 - حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو تحت سلطانه، وتحتفظ هي بالموانىء والثغور الساحلية، فضرب بقولها عرض الحائط.

69 - استمر المجاهدون في جهادهم بالرغم من احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، والضغوط الخارجية التي تدفعهم لوقف مسيرة الجهاد.

70 - بدأت ملامح الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، وكان أحمد الشريف يقظاً لما يجري حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة.

71 - كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا، وألمانيا بالدرجة الأولى وبريطانيا ومصر بعد ذلك.

72 - كانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، وحفظ التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنكليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف.

73 - بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومات التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنكليزي.

74 - أقحم الأتراك أحمد الشريف في حربهم ضد الإنجليز رغم رفض أحمد الشريف بشدة في البداية، لأنه كان على يقين أن ذلك الهجوم لا يتماشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الإستراتيجية.

75 - فشلت هجمات الأتراك على القوات الإنجليزية في القناة وفي الصحراء الغربية، وتدهورت الحالة الاقتصادية في برقة وساعدت تلك الظروف في ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف.

76 - فشلت حملة أحمد الشريف في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها: الضعف العسكري، والضعف الاقتصادي، وعدم التخطيط الإستراتيجي... إلخ.

77 - كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر.

78 - كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها: ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد إيطاليا، تزعزعت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين

وسقوط القتلى من كل جانب، انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد وسدت المنافذ المصرية.

79 - غادر أحمد الشريف ليبيا إلى إستانبول بواسطة غواصة ألمانية إثر طلب من الحكومة التركية ليقوم أحمد الشريف بفتح المفاوضات بينها وبين الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي أعلن الانفصال عن الدولة التركية.

80 - وصل أحمد الشريف إلى تركيا واستقبلة كبار رجال الدولة استقبالاً حافلاً ورسمياً في «سركه جي» حضره بعض المسؤولين العثمانيين يتقدمه صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية.

81 - دخلت جيوش الحلفاء إلى إستانبول واستولت على عموم الولايات والموانىء وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدأوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية.

82 - ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الحلفاء وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما كان له من المكانة الروحية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتدأ حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور وتكسير أدواتها، ومعاملها، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وأصدر أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في وقتها.

83 - قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة وادعاءاته الكاذبة.

84 - كان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيماً لمصطفى كمال؛ لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق.

85 - ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة والوقوف صفاً واحداً ضد أعداء الدين.

86 - بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء، تم الاتفاق على إخلاء إستانبول من قوات الاحتلال، ودخلت القوات الكمالية إستانبول ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء لآل عثمان.

87 - بدأت نوايا مصطفى كمال الشريرة تظهر رويداً رويداً، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية، وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك، ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي.

88 - من طرفٍ خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف، وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وانتهى الأمر بإخراجه من تركيا وسافر إلى الشام.

89 - اشتد ضغط الحكومة الفرنسية على أحمد الشريف للخروج من الشام وانتهى به المقام بالحجاز وأصبح يتنقل بين المدينة ومكة المكرمة ويتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام.

90 - توفي أحمد الشريف في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 1351هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة 1933م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة إثر مرض عضال لم يمهله، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاضبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين.

91 - هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها، وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير أن يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرّات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتِ

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

تاريخ
الحركة السنوسية
في أفريقيا

القسم الثالث

سيرة الزعيمين

إدريس السنوسي وعمر المختار

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

وبعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

فهذا الكتاب في سلسلة «صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي» يتحدث عن سيرة الزعيمين محمد إدريس السنوسي، وعمر المختار، فالسيد محمد إدريس السنوسي تولى زعامة الحركة السنوسية في ظروف دولية وإقليمية ومحلية شديدة الصعوبة واستطاع أن يقود قبائل برقة بحكمة وسياسة وحزم، ودخل في مفاوضات مع بريطانيا وإيطاليا لكي يحقق بعض المصالح لشعبه وبلاده، فيتحدث هذا الكتاب عن تلك المفاوضات بشيء من التفصيل، وعن الأسباب التي جعلته يضطر للمباحثات مع الدولتين البريطانية والإيطالية، وعن حكومة برقة التي تزعمها الأمير إدريس، وعاصمتها، ومجالسها، والأعمال التي حققتها، ويتطرق الكتاب للأسباب التي جعلت السنوسيين يصطدمون بالأتراك، ويشير الكتاب إلى الأسباب التي جعلت ليبيا في الحرب العالمية الأولى تنقسم إلى شطرين: شرقي وغربي، ولماذا تحالف الطرابلسيون

مع تركيا وألمانيا ضد الحلفاء؟ ولماذا تحالف البرقاويون مع بريطانيا ضد المحور؟ وما أثر ذلك الانقسام الخطير على ليبيا؟ وما موقف الطرابلسيين من الأحداث بعد هزيمة تركيا وألمانيا في الحرب العالمية الأولى؟ وكيف ظهرت الجمهورية الطرابلسية إلى حيز الوجود؟ ومن أصحاب هذه الفكرة؟ وما العوامل التي ساعدت على ظهورها؟ وما حقيقة مجالسها الشورية، والشرعية والرئاسية والاستشارية؟ وهل استجابت الدول الكبرى لبلاغاتها؟ وما هو القانون الأساسي الذي اتفق عليه الإيطاليون والطرابلسيون؟ وما أول حزب سياسي أقامه الطرابلسيون؟ وما أول جريدة في طرابلس تؤيد الجمهورية الطرابلسية؟ وما قرارات مؤتمر غريان؟ ولماذا كان اجتماع سرت بين زعماء طرابلس وبرقة؟ وما القرارات التي توصل إليها المجتمعون؟ ولماذا بايع أهل طرابلس الأمير إدريس السنوسي؟ وهل وافق الأمير على تلك البيعة؟ ما الأسباب التي دفعت الأمير محمد إدريس لمغادرة البلاد إلى مصر؟ ولماذا عاد القتال بين إيطاليا والليبيين؟ وما العوامل التي ساعدت إيطاليا على إخماد حركة الجهاد في غرب ليبيا؟.

ويتحدث الكتاب عن المقاومة التي قادها أحمد السويحلي وسعدون وصفي الدين السنوسي، وبشير السعداوي في غرب ليبيا حتى سكنت حركة الجهاد في غربها واستمرت جذوتها في برقة وكيف قاد كتائب المجاهدين الشيخ الجليل عمر المختار.

فيترجم الكتاب سيرة الشيخ عمر المختار منذ مولده حتى استشهاده، وعبادته وتلاوته للقرآن الكريم، وشجاعته وكرمه، ودعوته وجهاده قبل الاحتلال الإيطالي، ومعاركه الأولى ضدها، وسفره إلى مصر للتنسيق مع الأمير إدريس في أمور البلاد والقبائل واستمرارية الجهاد، ويعيش القارىء الكريم مع عمر المختار في معاركه التي خاضها كمعركة بئر الغبي، وعقيرة الدم، وعن وسائله في تموين المجاهدين، وعن تشكيلاته وخططه وقيادته لحرب العصابات التي أصبحت مَعْلَماً لمن جاء بعده من قيادات حركة التحرير.

ويتحدث الكتاب عن فقد عمر المختار لكبار المجاهدين وآثار ذلك على مشاعره وأحاسيسه وموقفه من تلك الصدمات المتكررة، كاستشهاد أخيه في الدين حسين الجويفي البرعصي، وابن أخيه المختار بن محمد وعن حرصه للشهادة وإخلاصه لقضية الجهاد، وعزيمته النافذة، وصبره العظيم، وحكمته في القيادة، وفهمه للأمور ببصيرته النافذة ونظره البعيد.

ويوضح الكتاب حرص إيطاليا على دخول المفاوضات مع عمر المختار لكسب الوقت، وتفريق المجاهدين، وكيف كان عمر المختار متنبهاً لأغراضهم الخبيثة، فكان في تلك المفاوضات واسع الأفق بعيد النظر، فاتخذ مواقف صحيحة وقوية فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه.

ويبين الكتاب حقيقة الجنرال غراسياني الذي كان عند قومه معظماً ومقدماً والذي أسندت إليه الحكومة الإيطالية بزعامة الدوتشي (موسليني) مهمة القضاء المبرم على حركة الجهاد مهما كلف ذلك بكل الطرق وكافة الوسائل، ولذلك أنشأ المحكمة الطائرة التي كانت تحكم على الأهالي بالموت وتصادر الأملاك لأقل شبهة وتمنحها للمرتزقة الفاشيست، فكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة وتصدر أحكامها وتنفذ في دقائق بحضور المحكمة نفسها لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذي انعقدت فيه لتنعقد في نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبواب السجون في كل مدينة وقرية ببرقة ونصبت أعواد المشانق في كل من العقيلة وإجدابية، وبنغازي، وسلوق، والمرج، وشحات، ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق، ولأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام وينفذ شنقاً أو رمياً بالرصاص، وقام الجنرال غراسياني بعزل الأهالي الخاضعين لهم عن المجاهدين وأدخلهم المعتقلات الرهيبة، فيجد القارىء في هذا الكتاب حقيقة تلك المعتقلات.

وتحدث الكتاب عن عمر المختار كقائد عسكري له القدرة على تغيير خططه وتطوير أساليبه القتالية مع ما يتمشى مع المراحل التي يخوضها حتى إن عدوه غراسياني اعترف بذلك فقال: «بالرغم من إبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا يستمر عمر المختار في المقاومة بشدة ويلاحق قواتنا في كل مكان».

وقال أيضاً: «عمر المختار قبل كل شيء لن يسلم أبداً؛ لأن طريقته في القتال ليست كالقادة الآخرين فهو بطل في إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يمكن تحديد موقعه لتسديد الضربات له ولجنوده... عمر المختار يكافح... إلى أبعد حد لدرجة العجز، ثم يغير خطته ويسعى دائماً للحصول على أي تقدم مهما كان ضئيلاً بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًا ومعنويًا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً وهنا يسلم أمره لله كمسلم مخلص لدينه».

ويتعرض الكتاب للأسلاك الشائكة التي مدها الإيطاليون على طول الحدود الليبية المصرية ما يزيد عن300 كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب بغية القضاء على حركة الجهاد التي كان يقودها المختار، ويجد القارىء الكريم في هذا الكتاب تفصيلاً دقيقاً موثقاً عن الأعمال الشنيعة القبيحة والمزرية والحاقدة التي قام بها الإيطاليون ضد الليبيين عندما احتلوا العاصمة السنوسية الشهيرة، وكيف اهتز العالم الإسلامي لتلك الأحداث؟ وكيف كان دور الصحافة الإسلامية؟ ويبين للقارىء الكريم وثائق تاريخية مهمة بقلم شكيب أرسلان، وجمعية الشبان المسلمين بمصر وقد وقّع عليها محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» الإسلامية، وتقي الدين الهلالي، الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند وغيرهم.

ويمضي الكتاب مع عمر المختار حتى الأيام الأخيرة من حياته، فيصف اللقاء الشهير الذي تم بين محمد أسد وعمر المختار وكيف وقع المختار في الأسر؟ ويتحدث عن مواقفه في

داخل السجن التي تدل على سلامة العقيدة، ورسوخ مفهوم القضاء والقدر في نفس ذلك الشيخ الجليل، وعن عزة الإيمان التي كان يتحدث بها في لقائه مع الجنرال غراسياني وأثناء المحكمة وكيف كان يقاد إلى المشنقة وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: 27 - 30].

إن هذا الكتاب يثبت بالحقائق التاريخية أن حياة عمر المختار مدرسة تستحق الدراسة والبحث في جوانب متعددة في شخصيته العلمية والدعوية والجهادية وصفاته الخلقية الرفيعة.

ويوضح الكتاب أحوال ليبيا بعد استشهاد عمر المختار، وعن مصير حركة الجهاد التي قادها يوسف بورحيل والمجاهدين، وعن اضطهاد واستعباد الإيطاليين لمسلمي ليبيا بعد القضاء على الحركة.

ويصف الكتاب أحوال المهاجرين الليبيين في مصر والشام وتونس ويدون للأجيال بعض القصائد الرائعة التي نظمها الأجداد شوقاً وحباً لديارهم، كالتي قالها الأستاذ بشير السعداوي رحمه الله:

قالوا تحن إلى البلاد وأهلها ... فأجبتهم هي بغيتي ومرادي
تالله لم أشغف بغير طلالها ... ولا منيتي مالت لغير بلادي
في حب هاتيك الديار وأهلها ... ذابت حشاشة مهجتي وفؤادي
بالله يا ريح الصبا ونسيمه ... إن زرت يوماً منزلاً لسعادي
أبسط لها شوقي وفرط صبابتي ... وأهد تحياتي لها ووادي
واخفض جناح الذل عني وقل لها ... أسرفت في هجري وفي إبعادي
حر النوى أوهى فؤادي وإنني ... متهتك متمزق الأكباد
مذ غردت بالبين أغربة النوى ... من بيننا ما ذاقت طعم رقادي
أمسى سمير في الدجى بدر السما ... والبدر جسم لا يجيب مناد
فلطالما ناديت في غسق الدجى ... حبي فتذهب صيحتي في واد
لهفي على تلك الديار وأهلها ... قوم لهم في المكرمات أياد
لا زلت أصبوا بحبهم وودادهم ... رغماً على أنف الزمان العادي

ويبين الكتاب جهود المهاجرين في ديار المهجر حتى ضاقت بهم إيطاليا ويجد القارىء وثيقة تاريخية مهمة قامت بإعدادها الجمعية الطرابلسية البرقاوية وقدمتها كورقة عمل للمؤتمر الإسلامي في القدس عام 1931م.

ويقف الباحث عند الحرب العالمية الثانية ويتحدث عن كونها آية من آيات الله في تصريف أمر الدول والشعوب والأمم وفق سننه وقوانينه في المجتمعات البشرية، ومن السنن التي وقف

عندها الكاتب، أنه عندما تتجبر أمة من الأمم وتعلو في الأرض ويصيبها البطر والكبرياء يهيئ الله لها أسباب الانهيار والزوال، كما يكون الزوال والانهيار بفشو الظلم، وعدم إقامة العدل.

ويتحدث الكتاب عن الأمير إدريس في مصر وعن دوره في جمع زعماء ليبيا والتشاور معهم ودراسة احتمالات الموقف ووضع الخطط التي يجب أن يسيروا عليها، وعن جهوده العظيمة في تكوين الجيش السنوسي الذي كان له أثر فعال في الحرب العالمية الثانية في شرق ليبيا، وكيف ساهم ذلك الجيش في إخراج الطليان من بلادنا؟ ويتكلم الكاتب عن اعتراض الليبيين على موقف الدول الكبرى وخصوصاً بريطانيا من قضيتهم العادلة بعد الحرب العالمية الثانية ويأتي بوثيقة تاريخية كتبها عمر فائق شنيب عام 1945م وكان عنوان المقالة (ليبيا مهد البطولة) وجاء فيها. . . (وبصفتي أحد قادة الحركة الوطنية وعضو الجمعية الوطنية التي ارتبطت مع بريطانيا يوم 9 أغسطس 1940م أصرح بأن الوضع الحالي في ليبيا شاذ لا يتناسب في شيء مع العدل والإنصاف، ولا مع وعود الحلفاء بأي وجه كان، بل إن ما يعانيه الشعب الليبي اليوم لا يختلف عن الاستعمار البغيض وأن الشعب الليبي يتطلب إقامة حكومة وطنية شرعية تحت إدارة أميره المطاع (إدريس السنوسي) بأسرع ما يمكن ليحقق لها اختيار الجهة التي ترغب في الارتباط معها. أقول هذا لدول الحلفاء عامة ولدولة بريطانيا العظمى قبل أن يعم الاستياء الذي أخذ يتسرب إلى النفوس وتتبدل وجهات النظر من الإخلاص والمحبة والتعاون النزيه إلى المقت والبغض والمشاكسة ويطغى اليأس؛ فتنعكس الآية ولا ينفع الندم، وإن ليبيا رغم قلة عددها وفقدان عدادها ومعرفتها بأنها لا تقوى على مقاومة الدول العظمى مع أنها جربت في حرب إيطاليا تفضل أن تضرب يوماً بألف، بل بمليون قنبلة ذرية حتى ينقطع فيها النسل والذرية على أن يطأ أرضها إيطالي أو أن تمس كرامتها أو ينتقص شيء من حريتها واستقلالها وحقها في الحياة أو يقرر مصيرها الغير بدون إرادتها وهي علمت الشعوب معنى التضحية في سبيل الحرية والاستقلال من سنة 1911م إلى يومنا هذا والتاريخ شاهد عدل. . .).

ويتحدث الكتاب عن الجمعيات التي أسست خارج ليبيا، وعن حل الأحزاب وإنشاء المؤتمر الوطني في برقة واضطراب الأحزاب في طرابلس، ويأتي بنص قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا، وبأسماء اللجنة التحضيرية المختصة بالإعداد للجمعية الوطنية، وبأسماء الجمعية الوطنية التأسيسية والتي عرفت بلجنة الستين، ويجد القارىء نص مبايعة الجمعية الوطنية التأسيسية للأمير إدريس السنوسي ملكاً دستورياً للمملكة الليبية المتحدة عام1950م، ونص الخطاب التاريخي الذي ألقاه الملك بمناسبة إعلان استقلال ليبيا يوم 24 ديسمبر 1951م، وقصيدة الاستقلال للشاعر أحمد رفيق المهدوي، وتعرض الكاتب في هذا الكتاب لاهتمامات الملك، فتحدث عن اهتمامه بالدين والعلم والأخلاق، وحبه للشعب وحب الشعب له، ونصحه لزعماء العرب، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وعن أدب العبارة في خطاباته وسمو معانيها

وتواضعها الجم والدعوة إلى الخير والتقوى، واهتمامه بالثورة الجزائرية، وحديثه عن الوحدة العربية وحالة العرب، وعن مفهوم الأخوة الإسلامية والعروبة عند الملك، وعن نظرته للعمل الإصلاحي، وعن الزعيم الأساسي الذي يؤسس حكومة راسخة البنيان، وعن مكانة الصحافة في زمن الملك، وحرية الكلمة في مجلس النواب وعن استقالته الأولى عام 1965م ونقل الكاتب استقالته الثانية قبل انقلاب عام 1969م والتي جاء فيها (. . . والذي أختتم به قولي بأن أوصي الجميع من أبناء وطني بتقوى الله في السر والعلن، وإنكم جميعاً في أرغد عيش وأنعم النعم من الله تبارك وتعالى فاحذروا من أن يصدق عليكم قوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

فالله الله مما يغضب الله وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ولا تفرقوا، قال ﷺ: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»**.

وتحدث الباحث عن نزاهة ملك ليبيا وعفته وكيف كان حاله في تركيا عند حدوث الانقلاب وكيف اعتذر للمسؤول المالي المرافق له عن أخذ ما تبقى من المال وقال له: «يا بني أنا بالأمس كنت ملك ليبيا، ولكني لم أعد كذلك اليوم، وبالتالي فإن هذا المال لم يعد من حقي، ويجب أن يسلم إلى خزينة الشعب».

ويتحدث الكتاب عن أقوال المؤرخين في الملك السابق وعن وفاته بمصر ودفنه بالبقيع بالمدينة المنورة في مايو عام 1983م.

هذا وقد تركت ما يتعلق بالمملكة الليبية بسبب قلة المصادر وندرة الوثائق التي بحوزتي واقتصرت الحديث على الملك إدريس كزعيم وقائد وإني أشعر بضعف المادة التي أمامي فيما يتعلق بتلك الأحداث؛ لأن قضايا ذلك العهد على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لملابساتها وآثارها الممتدة إلى زمننا الحاضر، وخصوصاً وإني قد بحثت في أسباب سقوط المملكة بحثاً دقيقاً وطلبت من رجال عاشوا تلك المرحلة المساهمة في دراسة وتتبع الأسباب التي أدت إلى سقوط المملكة الليبية، ولكن التفاعل كان ضعيفاً واعتذر البعض لأسباب أمنية وقد علمت بأن بعض الذين عاصروا تلك الأحداث قد كتبوا مذكرات مهمة في تلك المرحلة وينتظرون الوقت المناسب لنشرها؛ لذلك رأيت من الحكمة والتعقل التريث حتى يأذن الله في نشرها لأنها سوف تساهم بإذن الله تعالى في توفير معلومات تساعد الباحثين على تقصي الحقائق والوصول إلى نتائج صحيحة مبنية على معلومات يقينية، فإن كان للعمر بقية وأذن الله في مواصلة هذه الرحلة الطويلة التي بدأتها من الفتح الإسلامي إلى هذا الكتاب فإنني بإذن الله تعالى سوف أواصل المسيرة، وإلا فالأقلام الليبية لم تجف ولن تجف بإذن الله تعالى في تدوين تاريخها لأن شعبنا

ليس بعقيم بل يملك الطاقات الكامنة في كافة مجالات الحياة، السياسية، والتاريخية والأدبية، والتربوية والاقتصادية، وكم أتمنى أن يهيىء الله الأسباب لجمع المادة عن المملكة لأحد من أبناء بلادي فيواصل المسيرة المهمة في بناء الشعوب، فيكون البناء تراكميًا ونكون تابعين لمن سبقنا في الكتابة عن تاريخ بلادنا الحبيبة.

إن فترة المملكة الليبية من عام1951م إلى 1969م غنية بالأحداث على المستوى المحلي والإقليمي والدولي وتحتاج إلى دراسة واعية وباحث مدقق يتوخى العدل والإنصاف ويشمر عن سواعد الجد والاجتهاد ويعتمد على القويِّ العزيز الوهاب ثم على الوثائق والحجج والبراهين.

هذا وإني أشيد بالمجهودات القيمة التي قام بها كل من الوزيرين السابقين؛ مصطفى بن حليم ومحمد بن عثمان الصيد في كتابة مذكراتهم ثم نشرها بغية استفادة الأجيال منها، إن الجهود التي قام بها الوزيران السابقان تستحق الثناء والتقدير؛ لأنها أصبحت مرجعاً مهماً من مراجع تلك المرحلة وتعتبر من المبادرات الرائعة والرائدة لأن أصحابها عاشوا تلك الأحداث وساهموا في صناعة بعضها، كما أنهم حطموا جدار الصمت، وكتبوا تاريخهم السياسي الذي في حقيقته أصبح ملكاً للأجيال الصاعدة بغض النظر عن اختلاف الآراء حول تلك المذكرات.

إن الاعتناء بتاريخ بلادنا وبلاد المسلمين تظهر أهميته في هذا العصر الذي استخدم فيه التاريخ كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأمم المتقدمة في مكانة سامية لا يعلوها علم آخر.

إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغي في دراسته تحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العليا ألا وهي إحياء الأمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالشعوب، واجتناب سنن السقوط والهبوط.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: 28].

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول وخلاصة وهي كالآتي:

المقدمة.

● **الفصل الأول: محمد إدريس رحمه الله ويشتمل على ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: اسمه ونسبه وولادته وشيوخه وحجه.

المبحث الثاني: موقف الإسلام من المعاهدات مع العدو.

المبحث الثالث: الجمهورية الطرابلسية.

- **الفصل الثاني: عمر المختار -رحمه الله- نشأته وأعماله واستشهاده ويشتمل على ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: نشأته وأعماله.

المبحث الثاني: استمرار العمليات والدخول في المفاوضة.

المبحث الثالث: الأيام الأخيرة من حياته ووقوعه في الأسر ثم إعدامه.

- **الفصل الثالث: الليبيون بين المهجر والاستقلال ويشتمل على خمسة مباحث:**

المبحث الأول: الليبيون في المهجر.

المبحث الثاني: الحرب العالمية الثانية.

المبحث الثالث: قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا.

المبحث الرابع: الملك إدريس -رحمه الله- وشيء من سيرته.

المبحث الخامس: نظرة في كتاب الملك إدريس في اتحاد العرب وائتلاف الموحدين وبعض المقابلات الصحفية.

هذا وقد انتهيت من كتابة هذه السلسلة التاريخية يوم الثلاثاء 1ربيع الأول 1420هـ الموافق 15 يونيو 1999م والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 35].

وبهذا الكتاب أضع سلسلة: صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بين يدي قارئها، ولا أدعي الكمال فيها كما قال الناظم:

وما بها من خطأ ومن خلل	أذنت في إصلاحه لمن فعل
لكن بشرط العلم والإنصاف	فذا وذا من أجل الأوصاف
والله يهدي سبل السلام	سبحانه بحبله اعتصامي

فللّه الحمد على ما منّ به عليّ أولاً وآخراً، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا

أن يجعل هذه السلسلة التاريخية لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارىء الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: 180 - 182].

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته
علي محمد محمد الصّلابي

الفصل الأول

الأمير محمد إدريس السنوسي

المبحث الأول

اسمه ونسبه وولادته وشيوخه ورحلته إلى الحجاز

أولاً - اسمه ونسبه وولادته:

هو محمد إدريس بن محمد المهدي بن علي السنوسي، ولد يوم الجمعة في العشرين من شهر رجب 1307هـ الموافق 12 مارس 1890 بزاوية الجغبوب[1]، وتوفي بمدينة القاهرة عام 1983م، تزوج والده محمد المهدي وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره من والدته فاطمة ابنة عمران بن بركة، وذلك سنة 1275هـ الموافق 1858م وقد أنجبت له عدة أولاد في حياته وتوفيت سنة 1891م[2].

كان مولده يوم فرح وسرور لأتباع الحركة السنوسية، وخصوصاً أهالي الجغبوب، فعطل معهد الجغبوب، والكتاتيب القرآنية، ودور الأعمال، ونحرت الجزر، ومدت الموائد، وقدمت الصدقات شكراً لله تعالى، وكانت زوايا الحركة تحتفل بقدوم هذا المولود بمجرد وصول الخبر إليها، وجادت قرائح شعراء الحركة بالقصائد الشعرية التي أهديت إلى محمد المهدي بمناسبة مولد ابنه[3]:

قال العلامة فالح الظاهري:

(1) انظر: المغرب الكبير، جلال يحيى، (4/ 35).
(2) انظر: الحركة الوطنية في شرق ليبيا، مصطفى هويدي، ص(101).
(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، للأشهب، ص(350).

لاح في أفق الزهرا … كوكب الأفراح والبشرى
وأتى المقدور من غرض … بالذي أملته جهرا
إن للدهر لديّ يداً … ليس إقراري بها سرا

إلى أن قال:

يهنىء المخدوم ما خوله … الله من البشرى
بغلام اليمن كان له … منكم طول البقا ذخرا
وبلغتم فيه بغيتكم … في ظلاله عيشة خضرا
ودواعي البشر لا برحت … تنتحي ناديكم الدهرا(1)

وقال أبو سيف مقرب بهذه المناسبة:

هنئت بالكوكب الدري إذ سطعا … وأرّجَ الأفق والأرجاء وارتفعا
وغصت للدر بحراً لجه عظماً … وصغت للفظ نظماً حسنه جمعا
شنفت أسماعنا يا خير مبتكر … للشعر بلغك الله المنا جمعا
فانشر شمائلهم واذكر محاسنهم … واهزج بها دائماً لا زلت مخترعا
هم آل مجد لهم ظل يظللهم … قد آب بالذل من في شأوهم طمعا
لهم مفاخر والمهدي أعظمها … طوبى لمن طاف في ذاك الحمى وسعى
موفق ماجد للحق متبع … ثبت الجنان لأمر الله قد صدعا
وفرح دوحة مجد قد زكت ونمت … أغصانها حيث بدر الحسن قد طلعا
لا زال تشرق في الآفاق بهجته … مخولاً ببقا الأصلين مرتضعا(2)

ثانياً - شيوخه وطلبه للعلم وبعض صفاته:

نشأ محمد إدريس في رعاية أبويه، وبعد وفاة أمه احتضنته جدته لوالدته واهتم والده بتربيته تربية صالحة، وبدأ بتحفيظه للقرآن الكريم بنفسه مع دخوله في سن السابعة من عمره، وظل محمد إدريس يحفظ القرآن الكريم على أبيه وبعد فترة من الزمن أرسله والده لتلقي العلم على يدي شيخ عرف بالصلاح والتقوى وبصحبته أخيه محمد الرضا، وأبناء عمه محمد الشريف، وبعد وفاة والده كفله ابن عمه أحمد الشريف، وتفرغ محمد إدريس لطلب العلم بعد ما حفظ القرآن الكريم، وتتلمذ على مجموعة من أفاضل العلماء اشتهر من بينهم: العلامة العربي الفاسي، وأحمد أبي سيف، والعربي الغماري وحسين السنوسي، وأحمد الريفي،

(1) انظر: برقة أمس واليوم، ص(350 إلى 351).
(2) انظر: برقة العربية، ص(351).

وأحمد الشريف السنوسي[1]، فأتقن القراءات، وعلوم الحديث، كما أتقن البخاري، ومسلم ومسند أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وموطأ مالك، ومسند أبي حنيفة، ومسند الإمام أحمد، وكتاب الأم للشافعي، وغير ذلك من كتب الفقه والحديث والتفسير واللغة، وعلوم التاريخ، وتقويم البلدان، وتحصل على إجازات عدة[2].

ولما تقدم في السن أصبح من أعضاء مجلس شورى الحركة السنوسية ونظم لنفسه حياة خاصة، ورسم خطة سار عليها في حياته؛ فشيد منزلاً بزاوية التاج في «الكفرة» مؤثثاً بإبداع الأثاث والفرش، وعكف على الدراسة بهمة ونشاط واهتم بتكوين مكتبة خاصة أصبحت في طليعة المكاتب العربية، واتخذ حاشية مؤلفة من خيار الإخوان وكبارهم، وأقام منازل جميلة في مزارع السنوسية التي تقع في ضواحي التاج بواحة الكفرة أعدها بجميع ما تحتاجه من الضروريات، والكماليات، فإذا اشتاقت نفسه للتريض والنزهة والترفيه خرج بحاشيته يقضي بعض الأيام في تلك البساتين.

وكان مجلسه عامراً بالعلماء والأدباء، وكان يحب العلماء، ويجلهم ويكبر ما في نفوسهم من العلم، وينزلهم منه منزلة خاصة، ويحيطهم بعطفه، وكانت أحب العلوم إليه الحديث الشريف، وعلم التاريخ والأدب والسياسة ولا يتحدث في موضوع إلا ويعلل رأيه فيه بعد تدقيق وتمحيص ثم يأتي بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، تارة من كتاب الله ومرّة من الحديث الشريف، وحيناً من أقوال السلف الصالح وأئمة المسلمين، وكان قوي الذاكرة، سريع الخاطر متين الحجة، وله اهتمام خاص بالفقراء والمساكين، وكان جميل المعشر، رحيماً بأتباعه وخدمه، فيعود مرضاهم بنفس متواضعة ويصفح عن المذنبين منهم ما لم يكن الذنب مغضباً لله ولرسوله، وكان يميل إلى اقتناء جياد الخيل، وله شغف بجمع أنواع الأسلحة، وبجمع الكتب خصوصاً ما كانت حديثة، وكان كثير المطالعة، وله قلم سيال إذا كتب، كما كان خطيباً بارعاً يرتجل الخطبة، ويسترسل في المواضيع يتدفق كالسيل الجارف، فلا يتلعثم، ولا يتردد حتى ينتهي من موضوعه مع قوة اللهجة، وحدة في المنطق، وقد تغير صوته القوي إلى هدوء بعد المرض الذي أصابه عام 1923م[3]، وكان حريصاً غاية الحرص على وحدة الصف السنوسي أمام أعداء الإسلام، فعندما كان أحمد الشريف يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا في السودان الغربي لم يشأ أن يطلب منه أن يتخلى عن الزعامة لصاحبها الشرعي في نظره وفاءً منه للسيد أحمد الشريف الذي كفله بعد وفاة أبيه، ويتجلى حرص محمد إدريس على جمع كلمة

---

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(102).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(183، 184).

(3) انظر: برقة العربية، ص(354).

المسلمين ولمّ شملهم، وعدم التفرقة عندما اشتدت المحنة وقت أن بدأ الطليان هجومهم الغادر على الأراضي الليبية ورأى بعض الإخوان أن يسندوا الزعامة إلى إدريس السنوسي كحق موروث بدلاً من أحمد الشريف، فرفض إدريس السنوسي ذلك العرض وبذلك اجتمعت كلمة المجاهدين على أحمد الشريف[1].

لقد رأى محمد إدريس ببعد نظره، وثاقب فكره أن تغيير القيادة في أثناء المعركة ليس من مصلحة حركة الجهاد، ودفع ابن عمه لمواصلة قيادة كتائب الحركة نحو الواجب المقدس.

ثالثاً - رحلة الحج:

وقد ذكر محمد إدريس قصة رحلته إلى الحج بنفسه فقال: (وفي عام 1330هـ الموافق 1912م بلغت سن الرشد في «الكفرة»، فطلب مني بعض الإخوان السنوسيين بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن غيرهم أن أتسلم مسؤوليات المرحوم والدي من السيد أحمد الشريف الذي كان يومها يتأهب للرحيل إلى الجغبوب بناء على طلب أنور باشا حتى يكون على مقربة من المجاهدين، وكان ردي على طلب الإخوان هو أن السيد أحمد مشغول بالاستعداد للسفر، وأننا على حافة الحرب مع إيطاليا، فلا أرى من المناسب أن أتسلم منه في وقت كهذا، ثم إنني أقدر خبرته الطويلة المجربة في إدارة شئون الطريقة، ولكن متى استقرت الأحوال فسوف نلبي رغبتهم، ولا شك أن السيد أحمد سوف يوافق على ذلك.

وسافر السيد أحمد إلى الجغبوب، بينما بقيت أنا في «الكفرة» عاماً كاملاً تدربت خلاله على تسيير الأمور المتعلقة بمسؤولياتي المقبلة، وفي تلك الأثناء تخلت تركيا عن البلاد لإيطاليا، وبينما كان السيد أحمد يحارب الإيطاليين، قررت أن أذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ثم أعود لمساعدته، وبتاريخ الرابع من شوال (الموافق أغسطس 1913م) غادرت «الكفرة» برفقة ثلاثة من الإخوان هم (الحاج محمد التواتي، والحاج فرج، والحاج علي العابدية)[2]، وكان معنا أيضاً شيخ إحدى الزوايا، وثلاثة من الخدم، منهم واحد سوداني، بالإضافة إلى حداة الإبل، وكنت أركب فرسي، وتحمل أمتعتنا الجمال، وسرنا بطريق القوافل الرئيسي الذي يمر بمناطق طلاب وربيانة وبوزيمة وزيغن، وأبو عكشة، وبوطفل مؤدياً إلى جالو، فاستغرقت الرحلة إلى هنا واحداً وعشرين يوماً منها ستة عشر يوماً من السفر الفعلي، إذ كنا نسير ليلاً ونستريح نهاراً كالمعتاد أثناء الصيف. وقضينا تسعة أيام في جالو التي كانت مركزاً تجارياً هاماً ثم أخذت مكانتها في التدهور على أثر إغلاق طريق القوافل من الساحل إلى واداي، وبعدئذٍ

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(184).

(2) زعيم سنوسي معروف، ولد سنة 1870م، وهو من قبائل الزوية.

واصلنا السير نحو الجغبوب مروراً بخربة وقطمر، وترفاوي، وعبد السلام، واستمرت الرحلة كلها ستة عشر يوماً منها ثلاثة عشر يوماً في المسير.

ومكثت بالجغبوب سبعة أشهر من بيت أبي، وكان المعهد الذي أسسه جدي هناك لا يزال مزدهراً. وفي شهر جمادى الثاني الموافق لأبريل 1914م غادرت الجغبوب متجهاً إلى مصر مع نفس الجماعة وكذلك الحاج يونس العابدية الذي انضم إلينا في الجغبوب وبعد مسيرة سبعة أيام وصلنا إلى الساحل عند مكان يسمى بقبق (بالقرب من السلوم) حيث شاهدت البحر للمرة الأولى في حياتي.

ثم سافرنا إلى الضبعة (التي كانت في ذلك الوقت آخر محطة للسكة الحديدية المصرية من ناحية الغرب)، ومررنا في طريقنا بمرسى مطروح حيث رحبت بي السلطات المصرية، كما زرنا الزوايا السنوسية في كل من سيدي البراني شماس ونجيلة وأم الرخم وأبو هارون، ولدى وصولنا إلى الضبعة استقبلنا صالح حرب، وهو ضابط مصري جاء مندوباً عن الخديوي عباس الثاني ثم سافرنا إلى الإسكندرية بقطار خصوصي، ونزلت ضيفاً على الخديوي في قصر رأس التين، ولقيت ترحيباً حارًا من المصريين، فهم على الرغم من حيادهم رسمياً في الحرب مع إيطاليا كانوا يؤيدون إخوانهم المسلمين ويبذلون كل ما في وسعهم لمساعدة السنوسيين بإمدادات السلاح والمعدات الطبية، وفي ذلك الوقت كان اللورد يشغل منصب المندوب البريطاني في مصر.

وبقينا في الإسكندرية تسعة أيام بانتظار باخرة بريد الخديوي إلى حيفا، ثم سمعنا أنها سوف تعرج على ميناء بور سعيد فاستقلينا قطاراً خاصاً تفضل به الخديوي أيضاً لنقلنا إلى هناك حيث ركبنا الباخرة وأبحرت بنا عند الظهر في نفس اليوم. وكانت الرحلة مريحة وصلت بعدها إلى حيفا يوم 24 رجب فاستقبلني الوالي التركي استقبالاً رسمياً، وبعدها سافرنا بقطار سكة الحجاز، وقد وضعت تحت تصرفي المقصورة الملكية الخاصة، وكان القطار إلى المدينة يقوم بثلاث رحلات أسبوعياً تستغرق رحلته ثلاثة أيام يمر فيها بعدة محطات رئيسية، وهي درعا وعمان وتبوك ومدائن صالح؛ وهو كان مريحاً رغم بطئه، ويضم ثلاث عربات للنوم وواحدة للأكل، كما وجدت به زريبة لفرسي وبقيت في المدينة خمسة عشر يوماً كان الجو أثناءها قائظ الحر، فداهمتني الحمى، ولذا نصحت بالانتقال إلى مكة لأن جوها ألطف قليلاً. ومع أن موسم الحج لم يكن قد حل بعد، إلا أنني امتطيت فرسي وانطلقت في رحلة المائتي ميل من المدينة إلى مكة، فقطعتها خلال أحد عشر يوماً من السفر الوئيد أثناء الليل والراحة في ظل خيمة بالنهار. وبعد إقامة ثلاثة أيام بمكة نصحني البعض بالذهاب إلى مدينة الطائف الواقعة وسط التلال في جنوبي مكة، وكان الشريف حسين يمضي بها فصل الصيف مع ولديه عبد الله، وفيصل.

وقضيت في الطائف 75 يوماً، بما فيها رمضان وشوال وكان جوها لطيفاً بالفعل، فاستعدت صحتي تماماً. وفي تلك الأثناء حدث اغتيال أرشيدوق النمسا في ساريفو، واندلعت الحرب العالمية الأولى. وبعدئذٍ توجهنا إلى مكة لأداء مناسك الحج في أكتوبر 1914م، ونزلت بالزاوية السنوسية في أبو قبيس. ثم انتقلنا إلى المدينة فاضطررنا إلى البقاء فيها مدة شهرين لانقطاع المواصلات بسبب الحرب. وكان قد انضم إلينا في مكة اثنان من عرب برقة المعروفين، وهما رشيد الكخيا وعلي العبيدي.

وفيما كنا ننتظر بالمدينة أثناء شهر نوفمبر قامت الحرب بين بريطانيا وتركيا، فحاول الأتراك المسيطرون على الحجاز أن يحملوا العرب على الوقوف في صفهم، كما أخذ البريطانيون في التقرب إلى العرب على نحو مماثل، غير أن الشريف حسين التزم موقف الحياد، متجنباً إعطاء أي رد مباشر على الدعوة التركية إلى إعلان الجهاد. وفي ديسمبر عندما استأنفت القطارات رحلاتها العادية، سافرنا إلى حيفا حيث استضافنا الوالي التركي أبو شاهين. وهناك اكتشفنا أن الاتصالات مع مصر شبه مقطوعة تماماً؛ لأن البريطانيين والأتراك كانوا يتقاتلون قرب قناة السويس، وكان البريطانيون قد أعلنوا الحماية على مصر بعد خلع الخديوي عباس الثاني واستبداله بعمه حسين كامل الذي منح لقب السلطان، ولما كانت هناك باخرة إيطالية تقوم برحلات منتظمة بين حيفا ونابولي عبر ميناء بور سعيد، فقد أرسلنا واحداً من جماعتنا لاستطلاع إمكانية السفر بهذا الطريق، وجاءنا رده مشجعاً، فحجزنا أماكن على الباخرة، غير أن القبطان قال إنه لا يضمن السماح لنا بالنزول في بور سعيد، نظراً لأن السنوسيين كانوا حلفاء للأتراك وبالتالي فإننا نعد نظريًا من رعايا معادية. ولكن العلاقات في ذلك الوقت كانت قد تحسنت نوعاً بين السنوسيين والإيطاليين الذين أخذوا يسعون إلى التفاهم مع السيد أحمد الشريف، فاتفقنا على دفع عربون لقبطان الباخرة بحيث يحملنا إلى نابولي في حالة ما إذا رفض البريطانيون أن يسمحوا لنا بالنزول في بور سعيد، ومن نابولي يدبر الإيطاليون أمر ترحيلنا إلى برقة متى حانت الفرصة.

وهكذا غادرنا حيفا في فبراير 1915م، وقد اضطررت للأسف إلى ترك فرسي هناك؛ لأن القبطان لم يجد لها مكاناً على الباخرة، وهي كانت من سلالة برقاوية تربت في أرياف الجبل الأخضر، وكان أهداها إليّ خليل البناني، وقد حملتني طول الطريق من «الكفرة» إلى مكة، ثم في طريق العودة كذلك، فتأسفت كثيراً لتركها في حيفا حيث ماتت بعدها بمدة قصيرة.

ولدى وصولنا إلى بور سعيد طلبنا من رفيقنا علي العبيدي أن يسبقنا في النزول إلى البر حتى رأيناه مر بسلام فتبعناه كلنا في زحمة الحجاج متظاهرين بأننا مصريون، وفور وصولنا إلى الشاطىء بعثنا برقيات إلى كل من السلطان حسين والجنرال ماكماهون الذي خلف اللورد كتشنر

في منصب المندوب السامي البريطاني بمصر، وتلقينا منهما استجابة ودية، فتوجهنا إلى القاهرة في ضيافة السلطان حسين، وفي أثناء ذلك قمنا بزيارة لكل من الجنرال ماكسويل، قائد القوات البريطانية في مصر، والكولونيل كليتون، مندوب حكومة السودان المقيم بالقاهرة، وأعرب الاثنان عن رغبتهما الأكيدة في أن نقطع علاقتنا مع الأتراك ونؤيد البريطانيين في الحرب أو نبقى محايدين على الأقل. وكان ذلك أول لقاء بيني وبين البريطانيين وخرجت منه بانطباع جيد عن سلوكهم الودي وقوتهم العسكرية، ولم يكن بوسعي أن ألتزم بأي تعهد نيابة عن السنوسيين قبل استشارة السيد أحمد الشريف أولاً. ولكنني وافقت على متابعة الاتصال من خلال علاقتنا بعائلة الإدريسي في مصر، ووافقوا من جانبهم على تسهيل عودتي إلى برقة.

وبعد فترة إقامة قصيرة في القاهرة، ركبنا قطار الصباح إلى الإسكندرية، وفي نفس اليوم استقللنا باخرة لخفر السواحل وضعها البريطانيون تحت تصرفنا حتى أنزلتنا في السلوم ومن ثم توجهنا إلى أمساعد للالتحاق بمعسكر السيد أحمد الشريف، وكانت غيبتي عن برقة استغرقت عاماً كاملاً تقريباً(1).

إن رحلة محمد إدريس إلى الأراضي المقدسة كان لها أثر عميق في تفكيره حيث احتك بالحكومة المصرية، وبزعيم الثورة العربية الكبرى الشريف حسين، وقادة الإنكليز في مصر، ولا شك أنه ناقش وحاور واستمع إلى الأطراف المذكورة وتبلورت لديه قناعات مهمة فيما يتعلق بمجريات السياسة الدولية، وبطبيعة الصراع بين الأتراك والإنجليز، ورسم لنفسه تصوراً واضحاً يخدم به شعبه ووطنه ومصالح بلاده، ولذلك رأى أنه ليس من مصلحة الحركة السنوسية الدخول مع الأتراك في حربهم ضد الإنكليز وبعد رجوعه من الحج نصح أحمد الشريف بعدم الدخول في الحرب مع الأتراك ضد الإنكليز، وأعلن رأيه ذلك بصراحة.

رابعاً - محمد إدريس السنوسي في برقة:

بعد ما قرر أحمد الشريف الاشتراك مع الأتراك والألمان ضد بريطانيا على الحدود المصرية الغربية رأى أن يرتب شؤون الإدارة في برقة حتى يتفرغ هو للجهاد، فقسم القطر البرقاوي إلى مناطق، وجعل إدريس على منطقة برقة ومركزه في إجدابية على أن يكون تحت إشرافه، وفي دفنا محمد هلال، وفي الجبل الأخضر محمد الرضا، وأرسل محمداً صفي الدين لمنطقة طرابلس، وأما أحمد الشريف فقد ذكرت ما قام به في الحدود المصرية في الجزء الثاني من كتابي عن الحركة السنوسية.

انتقل محمد إدريس من السلوم شرقاً حتى إجدابية غرباً في أواخر سنة 1915م وكان معه

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره، ص(19 إلى 22).

حوالي سبعون مجاهداً من بينهم (جمعة أبو شناك، وسعيد الشامي، والشارف الغرياني، وإبراهيم الشلحي، ومحمد أحمد أبو بكر. . .)[1].

وأخذ يتنقل بين القبائل وكتائب الجهاد، فمر بكتائب البراعصة، والعبيدات وغيرهم، وشرع في إدارة دفة الحكم في برقة بكل حزم ومهارة، فأظهر مواهبه كرجل إدارة محنك، وحاكم حازم، وكانت برقة تشكو في هذه الفترة المضطربة اختلال الأمن، وتعرض الأهالي لشرور المفسدين، فضرب محمد إدريس على أيدي المفسدين واستصدر من علماء البلاد «فتوى» لإعدام بعض قطاع الطرق الذين وجدهم يعيثون في الأرض فساداً ينهبون الأموال ويفتكون بالأرواح[2]، فقام بشنق هؤلاء وكانوا سبعة رجال[3].

وقام محمد إدريس بتنظيم شؤون البلاد، وتوطيد الأمن وضرب على أيدي العابثين، وقطع دابر المفسدين[4]، كانت مهمة إدريس في برقة شاقة وعسيرة، وبخاصة بعد الفشل الذي أصاب المجاهدين بزعامة أحمد الشريف على أيدي الإنكليز، فإن برقة كانت تعاني الأمرّين في الحقيقة من جراء انتشار المجاعة بها وقتذاك (1915م) بسبب احتباس الأمطار، وفضلاً عن ذلك فقد غزت حملات الجراد البلاد في العام التالي فأتت على الزرع، وتفشى فيها مرض الطاعون، خصوصاً عام 1917م، وظل المطر محتبساً طول هذه المدة تقريباً، فكان أعظم بلاء شهدته برقة في تلك الفترة هو بلاء المجاعة[5].

وأمام هذه الظروف السيئة «اجتمع بعض أعيان أهل برقة وتدارسوا وتشاوروا في تلك الحالة المخيفة التي حلت بالوطن وأهله، وأرسلوا وفودهم وكتبهم إلى إدريس بمقره في إجدابية، وبصفته صاحب الحق الشرعي في إمارة السنوسيين ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف الوصي على الإمارة بمحاربته الإنكليز جرياً وراء الأتراك، خصوصاً وأنهم لم يوفوا بوعودهم التي قطعوها له، فلم يرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد في نكبة الحرب ضد بريطانيا وتركوا شعبها المخلص لهم يموت جوعاً»[6].

ويلخص عبد الرحمن عزام حالة الانتظار تلك في قوله: «. . . كنا نترقب السواحل

(1) مكتبة دراسة الجهاد الصوتية شريط رقم (14/ 34) محمد أحمد أبو بكر الدرس من كتاب الحركة الوطنية شرق ليبيا.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(186).
(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(107).
(4) انظر: برقة العربية، ص(360).
(5) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(187).
(6) انظر: تاريخ حرب طرابلس، إبراهيم لطفي، ص(57).

باستمرار مؤملين أن ترى الغواصات الألمانية إشاراتنا بالرايات في النهار، أو نيراننا التي كنا نشعلها في الليل، وتركزت آمالنا في أن تمدنا الغواصات بشيء من السلاح والمال والمؤونة، وقد بقينا نحو أربعة شهور وصلنا فيها إلى حالة مروعة من الفقر...»[1].

كان السيد محمد إدريس متأدباً مع ابن عمه أحمد الشريف غاية التأدب ولذلك لم يتخذ أي قرار لمعالجة الموقف الحرج الذي تمر به البلاد إلا بعد ما كتب إلى أحمد الشريف وشرح له ما كان يجري في برقة، فردّ عليه الأخير برسالة في أواخر عام 1916م جاء فيها: «... اعمل ما تراه مناسباً، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث أن لهم حقاً في ذلك...»[2].

كان ظهور محمد إدريس على مسرح العمل السياسي الليبي في تلك الفترة الحرجة مهماً للغاية لما تمتع به من صفات أهلته لزعامة البلاد، وآلت الأمور إلى أن بايعه أهل برقة بالإمارة، ثم أهل طرابلس بعد فشل الجمهورية الطرابلسية وهذا ما سوف نراه بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

كان من رأي إدريس أن يدخل في مفاوضات مع الإنجليز، والوصول على الأقل إلى اتفاق مؤقت من أجل فتح الطرق مع مصر، حتى يتمكن من القضاء على خطر المجاعة، ولم يكن زعماء برقة يمانعون من دخول محمد إدريس في التفاوض مع إيطاليا أو انجلترا ما دامت تلك المفاوضات تساعدهم في القضاء على شبح المجاعة الذي هدد البلاد، ولم تكن هناك عوائق أمام تحقيق تلك المطالب وخصوصاً أن محمد إدريس تعرف أثناء زيارته للحج على الكثير من رجالات العرب، مثل شريف مكة حسين ودرس معه القضية العربية التي كانت آنذاك في دور اليقظة[3] كما أنه أصبح بعد تلك الزيارة رجلاً مهماً بالنسبة لبريطانيا وحلفائها، وشرع محمد إدريس لدفع البلاد نحو دهاليز السياسة، فأرسل رسالة إلى ممثل الملك جورج الخامس في مصر، وهو الجنرال ماكماهون في ذلك الوقت مقترحاً عقد مفاوضات للصلح، فأجاب بالموافقة على فكرة إجراء المفاوضات من حيث المبدأ بشرط أن يشارك فيها الإيطاليون أيضاً، ولم يجد محمد إدريس مفراً من قبول ذلك الشرط، وخصوصاً أن موقفه كان صعباً حيث أن هزيمة جيش السيد أحمد الشريف في مصر جردت السنوسيين من عنصر القوة العسكرية جعلته مضطراً إلى التفاوض من موقع ضعف عسكري، بينما كان رصيده الوحيد في ولاء قبائل برقة، وحرص الإنجليز على كسبه لصفهم وإضعاف الزعامة السنوسية الموالية للأتراك، كما أن من العوامل التي

---

(1) ذكريات عزام، الحلقة 8، مجلة المصور، العدد1332هـ، 1950م، القاهرة، ص(19).
(2) انظر: ليبيا اليوم، محمد الأشهب، ص(7).
(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا.

ساعدت في دفع محمد إدريس نحو التقارب مع السياسة البريطانية: ثورة الأتراك ضد السنوسية.

خامساً - ثورة الأتراك ضد السنوسية:

بدأت تلك الثورة في أواخر سنة 1916م وانتشرت في جهات عديدة حتى تُوِّجت بالنصر على السنوسية في فزان خلال شهر سبتمبر سنة 1917م، وطردوا منها محمد عابد السنوسي الذي التجأ إلى «الكفرة» وترك واحة واو، وأصحبت فزان منذ ذلك الحين بيد الأتراك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[1].

وفي إجدابية بدأ تحرك الضباط الأتراك متهزين فرصة انشغال إدريس بالمفاوضات بعكرمة، فبدأوا بتأليب المجاهدين ضد السنوسيين هناك، فلما علم إدريس بذلك جاء بقوات كبيرة يقودها كل من عمر المختار والذي كان سنداً قوياً لمحمد إدريس، ويقودها قجة عبد الله، وعسكر إدريس بقواته خارج مدينة إجدابية، وضرب حول معسكر الأتراك بالمدينة حصاراً، وخيَّرهم بين أمرين: التسليم أو مغادرة إجدابية إلى أراضي طرابلس، وقبلوا الأمر الثاني فغادر الكثير منهم برقة إلى طرابلس، واعتقل جماعة منهم، وأرسل بعضهم إلى الجغبوب والبعض الآخر إلى «الكفرة»[2] وبعد إخماد تلك الحركة عاد مسرعاً إلى عكرمة لإكمال مفاوضاته[3].

واستمر الأتراك في مضايقة محمد إدريس، وتضييق الحصار عليه وعملوا على الإطاحة به، وأرسل نوري باشا بعثته الأولى الصغيرة إلى «الكفرة» لضرب النفوذ السنوسي هناك إلا أن تلك البعثة فشلت وانتهت بوقوع أعضائها في أيدي صفي الدين السنوسي الذي استطاع أن يكشف أمرهم بسرعة، وأودعهم السجن[4]، أما بالنسبة لفزان فقد استطاع نوري أن يشعل الثورة هناك ضد السنوسية وسيطر الأتراك عليها كما ذكرنا، وقد ودع نوري باشا أحد زعماء الحملة واسمه الملازم محمد الأرناؤوطي فقال له: «اذهب وافعل ما تستطيع عمله واكتب لي بما تحقق من نجاح في «مصراته»، إنني أثق في شخصك ولا أستطيع أن أعطيك مالاً أكثر مما أعطيتك لأنني لا أملكه، إنك ستجد في فزان ذهباً وسلاحاً بكميات كثيرة؛ لأن الإيطاليين قد تركوا منها الكثير هناك، ولا تنسَ أنك محارب وأنك ذاهب إلى حرب مقدسة للجهاد في سبيل الله»[5].

وقام الأتراك بمهاجمة الجفرة التي كان بها عبد الجليل سيف النصر، وكان يتولى قيادة هذه الحملة الضابط التركي برتو توفيق، وعبد النبي بالخير، وتكونت الحملة من قسم كبير من

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(116).

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص(133).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(117).

(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(118).

(5) انظر: المصدر السابق نفسه.

مسلحي مصراته وزليطن برئاسة شرف الدين العمامي الزليطي والحاج محمد الروياتي المصراتي كان غرض القيادة التركية توسيع نفوذها في تلك الجهات والقضاء على شوكة السنوسية وتأمين المواصلات بين طرابلس وفزان، ووصلت الحملة إلى الجفرة، وتمكنت من طرد الأهالي (أولاد سليمان، وقذاذفة، بعض المغاربة)[1] واضطر السنوسيون لجمع قوة مسلحة كبيرة من أنصارهم في النوفلية وذلك في منتصف شهر نوفمبر من سنة 1917م، وشنوا هجوماً معاكساً ضد الأتراك وأعوانهم في سوكنة واستطاعوا إحراز نصر كبير عليهم، وطردوا القوات التركية الطرابلسية في الجفرة بعد أن خسرت الكثير، وأسرت القوات السنوسية القائمقام التركي برتو توفيق وقامت بشنقه[2].

لقد كانت مواقف الأتراك من الحركة السنوسية مشجعة لمحمد إدريس على ضرورة المفاوضة مع الإنكليز لا لتدارك المجاعة المهلكة فحسب، بل للقضاء على الأتراك الذين سعوا للقضاء على نفوذ السنوسية وإقصائهم من ليبيا وتمكين القيادات الطرابلسية الموالية لهم في البلاد.

إن محمد إدريس فقد الثقة في الأتراك وعمل على إفشال أهدافهم وأرسل إلى ابن عمه أحمد الشريف رسالة يبين له غدر الأتراك به على حد زعمه، كانت الرسالة بتاريخ 26 ربيع أول عام 1335هـ (2 يناير 1917م) تساءل فيها إدريس عن ثمرة وعود الأتراك المتكررة عندما أرسل هؤلاء «الباروني ممثلاً لجلالة السلطان في طرابلس وأعطوه أسلحة وذخيرة وزودوه بمنشورات كثيرة مقدار ما يملأ الدنيا منها، بينما أنتم - مخاطباً السيد أحمد - تجاهدون من أجلهم، وهم لا يكتفون بعدم الاهتمام بكم، بل يغدرونكم بإرسال خائن إلى بلادكم ويبذلون له كل مساعدة في الوقت الذي يتحدث فيه - فقط وقبل كل شيء - عن طرابلس ولا يذكر السنوسية بكلمة واحدة، وفضلاً عن ذلك فإن السيد أحمد - على حد ما جاء في هذه الرسالة - كان يقول دائماً: (إن أنور أخبره) بأن السلطان أصدر فرماناً بتعيينه نائباً عن الخليفة في أفريقيا ولكن ما قيمة هذا الكلام إذا كانت الأقوال تختلف عن الأفعال؟ فإلى متى يجب علينا نحن وأتباعنا أن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذه الوعود الباطلة الكثيرة التي سوف تنتهي من غير شك بنتيجة واحدة هي القضاء علينا وعلى أوطاننا؟ ويا لها من كوارث عظيمة تلك التي نزلت بأهل هذا الوطن»[3].

ومن الأسباب التي جعلت محمد إدريس يتقارب مع الإنكليز قناعته بأن نهوضه ببرقة لا بد له من دعم خارجي؛ مادي ومعنوي، ورأى - ببعد نظره السياسي - أن الحرب العالمية سينتصر

(1) الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(120).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(223).
(3) انظر: المصدر السابق، ص(191).

فيها الخلفاء ولذلك حرص على التقارب من بريطانيا، صاحبة التفوق في منطقة الشرق ولذلك سعى إليها لتقليل الخسائر، والمحافظة على كيان السنوسية الذي تعمل تركيا على تحطيمه في البلاد في تلك المرحلة.

لقد حرص محمد إدريس على التقليل من الخسائر إلى أقصى حد، واتخذ قراراً بالانسحاب من الحرب ضد إيطاليا ووافقه زعماء القبائل التابعين للحركة السنوسية على ذلك.

المبحث الثاني
موقف الإسلام من المعاهدات مع العدو

قال الإمام الشافعي، في هذا الصدد ما يلي: «إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين، أو طائفة منهم لبعد دارهم، أو كثرة عَدَدِهم، أو خلة بالمسلمين، أو بمن يليهم منهم جاز لهم الكف عنهم، ومهادنتهم على غير شيء يأخذونه من المشركين - ثم يقول - فأحب الإمام، إذا نزلت بالمسلمين نازلة - وأرجو أن لا ينزلها الله ﷻ بهم، إن شاء الله تعالى - مهادنة يكون النظر لهم فيها. ولا يهادن إلا إلى مدة ولا يجاوز بالمدة مدة أهل الحديبية، كانت النازلة ما كانت، فإن كانت بالمسلمين قوة قاتلوا المشركين بعد انقضاء المدة. فإن لم يقْوَ الإمام فلا بأس أن يُجدد مدة مثلها أو دونها...»[1].

وقال في «المهذب» - بصدد ما نحن فيه -: (لا يجوز عقد الهدنة لإقليم، أو صقع عظيم إلا للإمام، أو لمن فوض إليه الإمام، فإن كان الإمام مستظهراً[2] نظرت: فإن لم يكن في الهدنة مصلحة لم يجز عقدها لقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: 35]. وإن كان فيها مصلحة بأن يرجو إسلامهم، أو بذل الجزية، أو معاونتهم على قتال غيرهم جاز أن يهادن... ثم يقول: وإن كان الإمام غير مستظهر بأن كان في المسلمين ضعف وقلة، وفي المشركين قوة وكثرة، أو كان الإمام مستظهراً لكن العدو على بعد ويحتاج في قصدهم إلى مؤونة مجحفة - جاز عقد الهدنة إلى مدة تدعو إليها الحاجة؛ وأكثرها عشر سنوات، لأن رسول الله ﷺ هادن قريشاً في الحديبية عشر سنين...)[3].

يفهم ما تقدم أنّ مصلحة الإسلام والمسلمين هي المحور الذي ينبغي أن يدور عليه عقد المعاهدات مع العدو، وهذه المصلحة يرجع تقديرها إلى خلفية المسلمين، أو من يفوض في هذه المسألة.

ففي عصرنا اليوم، وقد تخلف المسلمون عن غيرهم من الشعوب، والدول المتقدمة في مجالات العلم، والصناعات، والأجهزة والمعدات العسكرية... وما إلى ذلك، قد يكون من المصلحة عقد المعاهدات مع بعض تلك الدول، بحيث تؤدي إلى نقل ما تمتلكه في هذه

---

(1) انظر: المغني لابن قدامة (10/ 259).

(2) أي: غالباً.

(3) المهذب للشيرازي (2/ 259 - 260) هذا والجمهور على عدم تقييد المعاهدة بعشر سنوات بل يرجع تقييدها إلى المصلحة سواء زادت على عشر سنين أو نقصت عنها.

المجالات، إلى بلاد المسلمين، مما تتحقق معه المنفعة التي تربو على مايمكن أن ينشأ عن تلك المعاهدات من بعض المفاسد.

كما أننا في هذا العصر، حين نجد الدول الاستعمارية، وهي تبحث عن أية ذريعة تُسوِّغُ لها - في نظر العالم - أعمالها العدوانية ضد المسلمين، وتتحين أية فرصة مناسبة للسيطرة على ثرواتهم، وتمزيق شملهم، وتدمير منشآتهم الحيوية. . . حين نجد الدول الاستعمارية على هذه الحالة، فإن مصلحة الإسلام والمسلمين تحتم على المسؤولين أن يتجنبوا كل ما من شأنه أن يجعل تلك الدول الظالمة تكشف لهم عن مخالبها، أو تكشر عن أنيابها، وعليهم في مثل هذه الأحوال أن يعقدوا مع العدو من المعاهدات المشروعة ما يكون نفعه أكبر من ضرره بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين، من أجل قطع الطريق على مخاطر أكبر ومفاسد أعظم. هذا، مع وجوب السعي، في الوقت نفسه، إلى المعالجة الجادة لواقع الوهن، والهوان والخزي الذي يعيشه المسلمون بسبب ما هم عليه من عداوات وتمزق، وتجزئة، وتخلف[1].

إن هذا المدخل يساعدنا على الإنصاف، والحكم بالعدل عندما ندخل في دراسة المفاوضات التي مارسها محمد إدريس مع بريطانيا وإيطاليا، أو التي قام بها زعماء طرابلس بعد إعلان الجمهورية الطرابلسية مع إيطاليا، وتعطي الأجيال نوعاً من الفقه المتعلق بالعلاقات الدولية في الإسلام، وتجعلها تهتم بقضية المعادلة الدولية، وعدم إغفالها أثناء سعيها الدءوب لتحكيم الإسلام في دنيا الناس، وواقع الحياة.

أولاً - الدخول في المفاوضات بين محمد إدريس وبريطانيا وإيطاليا:

كانت السياسة الإنكليزية في مصر ترى محمد إدريس أقرب إليها من أحمد الشريف، ووصف الوفد الإدريسي الذي بعث به الإنكليز إلى برقة قبيل نشوب الحرب الليبية الإنجليزية على حدود مصر الغربية إدريس: «بأنه أكثر اعتدالاً وأشد حزماً وأنه من أشد المعارضين لغزو حدود مصر الغربية والاشتباك في حرب مع الإنكليز، لما تنطوي عليه من أخطار، وأنه غادر المسيعيد إلى جهة الجبل الأخضر احتجاجاً على سياسة السيد أحمد الشريف المائلة إلى الترك والألمان والتساهل معهم. . . .» وعلى ضوء تلك المعلومات أذن الحكام في مصر للوفد بأن يكاتب إدريس بغية الوصول إلى اتفاق معه[2]، والاستفادة من العلاقات القائمة التي كانت تربط الأسرة الإدريسية بمصر بالبيت السنوسي لكونها من أبناء وأحفاد أحمد بن إدريس الذي كان

(1) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، (3/ 1481، 1483).

(2) انظر: الدولة العربية المتحدة، أمين السعيد، ص(31 - 32).

شيخاً ومعلماً للسيد السنوسي الكبير في مكة[1].

واستمرت المراسلات بين أبناء البيت الإدريسي ومحمد إدريس السنوسي، وانتهت إلى الوصول لاتفاق يقضي بسفر وفد إنكليزي وإيطالي إلى أجدابية لعقد صلح بين الأطراف الثلاثة ينهي الخلافات بينهم[2].

وقد أبلغ الإنكليز إدريس بصفة رسمية أنهم لن يشرعوا في دخول مفاوضات معه لأجل الصلح إلا شريطة قبوله فتح باب المفاوضة مع حليفتها إيطاليا، وقد وصل في أواخر سنة 1916م إلى الزويتينة وفد من الإنكليز والإيطاليين ومعهم من المصريين أحمد محمد حسنين أفندي، ومحمد الشريف الإدريسي وابنه محمد المرغني، وكانوا جميعاً ضمن الوفد الإنكليزي، إضافة إلى الكولونيل تالبوت الذي له دراية كبيرة بشؤون الشمال الأفريقي، والضابط اللفتنت هلسم.

كان الوفد الإنكليزي قد جاء بطريق البحر من القاهرة إلى بنغازي للاجتماع بالوفد الإيطالي الذي كان مكوناً من الكولونيل بيلا، والكوماندانور بياجنتيني ومترجمهم ولم يطل الوفد الإقامة في بنغازي، بل سافر إلى الزويتينية بيخت خاص، فوافاهم إليها إدريس من إجدابية وكان من بين من معه: علي باشا العابدية[3].

بدأت المفاوضات بين الأطراف الثلاثة خلال شهري أغسطس وسبتمبر سنة 1916م[4]. وكان الوفاق والتفاهم ظاهراً فيما بين الجانبين الإنكليزي والسنوسي أما العلاقات الإيطالية فقد كانت مغايرة لذلك تماماً.

وكان أول طلب للإيطاليين هو موضوع الأسرى الإيطاليين، يقول برتشارد: «. . . لكن إدريس لم يكن ينوي تسليمهم بدون واحدة بواحدة، فاتبع تكتيكه المعتاد في المماطلة، لقد توسل بأن عليه أن ينال موافقة أحمد الشريف أولاً؛ لأن الأخير هو الذي أسرهم، أما من جهته فليس بوسعه أن يصدر أوامره فيما يصدر ابن عمه أوامر مناقضة لها. . .»[5].

وقد أجّل بحث هذه النقطة إلى فترة أخرى قريبة، ثم قدّم الوفد الإيطالي بقية شروطه للوصول للصلح مع السنوسيين، وقد تمثلت الشروط في الآتي:

1 - أن يعترف إدريس بالسيادة الإيطالية على كل برقة من (منطقة بنغازي إلى «الكفرة»).

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(126).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(130).
(3) انظر: المصدر نفسه، ص(132).
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) السنوسيون في برقة، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، ص(232).

2 - أن يسلم المجاهدون أسلحتهم فلا يبقى لديهم سوى ما يكفي للمحافظة على أنفسهم.

3 - إحلال السلام مع وقف العمليات الحربية بين الجانبين.

4 - اعتراف إيطاليا بالسنوسية زعامة وطريقة.

5 - منح «الكفرة» - مقر السنوسيين - استقلالاً إداريًا.

6 - تتعهد إيطاليا بقيام المحاكم الإسلامية الشرعية.

7 - تتعهد إيطاليا بالعمل على تحسين الأحوال الصحية في البلاد وإنشاء المستشفيات والمدارس.

إن شرط الإيطاليين الخاص بمسألة اعتراف السنوسيين بالسيادة الإيطالية في برقة كان مهدداً بفصل المفاوضات بصفة عامة، لقد فقد تأجل النظر في هذه المسألة من الجانب السنوسي، إلا أن الإيطاليين قد تمسكوا بهذا البند كثيراً، وكأن المفاوضات كانت من أجله فقط.

وتقدم محمد إدريس بوجهة نظره في هذه المفاوضات، وتتلخص أهم شروطه في الآتي:

1 - وجوب الاعتراف من قبل إيطاليا باستقلال السنوسيين.

2 - الاعتراف بشخص إدريس السنوسي أميراً على برقة.

3 - وضع حدود بين الأراضي الخاضعة لكل من الطرفين (السنوسي والإيطالي)، فكل طرف يحتفظ بما تحت يديه من أراضٍ تحدد بخرائط واضحة مع عدم التعدي على أراضي الطرف الآخر.

4 - الإسراع بفتح الطرق التجارية وضمان سلامتها.

لقد كان محمد إدريس يدرك جيداً بأن الاتفاق مع إيطاليا كان بالنسبة له ضرورة ملحة لا مفر منها، لكنه اتضح بدون شك بأن الاتفاق في صالح الإيطاليين أكثر مما هو في صالحه[1].

يقول الكاتب الإيطالي فبريتشربوسيرا:

«. . . لقد ساد جو المفاوضات بعض من التذمر نتيجة لأسباب نشأت بالمناسبة أثارت اشمئزاز إدريس ونفوره، خاصة وأن الظروف التي نشأت كانت تتعارض مع الأهداف التي كان إدريس يسعى إلى تحقيقها. ويضيف قائلاً: إن المفاوضين الإيطاليين رأوا أنه ليس هناك لزوم لاتباع محادثات الخطوة خطوة وذلك بالنظر إلى عدم التأكد من إحراز أية نتيجة تذكر، كما أن طريقة التصرف في الأمور وما لازمها من حنق وغيظ، إلى جانب مجاراة الزمن دون فائدة، كل

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(136).

ذلك كان له أثره الفعال لدرجة انعدمت معه تلك الآمال في الوصول إلى النتيجة التي كان يحبذها ويرغبها إدريس. . .)[1].

واستمرت هذه المفاوضات قرابة شهرين أو يزيد وانتهت بالاتفاق على بعض الأمور بين الطرفين على الأسس الآتية:

1 - تنتهي حالة الحرب بين السنوسيين والإيطاليين وينادى بالسلام.

2 - يعترف الإيطاليون باستقلال السنوسيين داخل برقة.

3 - يبقى الإيطاليون في الساحل ويحتفظون بما في حوزتهم من الأراضي الساحلية.

4 - تحديد مناطق النفوذ بين أراضي الطرفين.

5 - تفتح الطرق التجارية وتعود البلاد إلى حالة السلم ويكون الدخول والخروج بتصاريح.

6 - يعترف الإيطاليون بإدريس زعيماً للطريقة السنوسية في برقة.

وقبل أن تتفرق الوفود جرى تحديد أراضي الفريقين على الورق (خريطة) واحتفظ كل وفد بخريطة للاعتماد عليها عند الحاجة[2].

إلا أن الحكومة في روما نقضت هذا الاتفاق واعتبرت شروطه مذلة فنقضتها على أساس أن مفاوضيها لم يكونوا يملكون الصلاحيات لتوقيعها[3].

وأصدر والي برقة (جيوفاني أميليد)[4] أمراً بقطع المفاوضات وتم له ما أراد وأخفقت مفاوضات الزويتينة.

أما الوفد الإنكليزي فقد كانت مهمته يسيرة، فلم تكن هناك أية صعوبة في الوصول إلى اتفاق مع السنوسيين، ولكن الصعوبة تكمن في إصرار الكولونيل تالبوت رئيس الوفد على عدم التوقيع على أي اتفاق مع السنوسيين قبل أن ينتهي إدريس من الاتفاق مع الإيطاليين ويتم التوقيع من الطرفين على هذا الاتفاق[5].

ويذكر عزام: «. . . إن الوفد الإنكليزي كان قد طلب إلى إدريس السنوسي المبادرة

---

(1) انظر: إيطاليا والسنوسية، ترجمة محمد السيد أبو مدين، ص(90)، وما بعدها.

(2) انظر: الدولة العربية المتحدة، ص(38).

(3) انظر: السنوسية في برقة، إيفاتر برتشارد، ص(232).

(4) أحد القادة العسكريين والإيطاليين الكبار.

(5) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(196).

بالقبض على المتطوعين المصريين والعمل على تسليمهم إلى السلطات الإنكليزية في السلوم ولكن إدريس رفض ذلك. . .»[1].

كانت هناك عدة عوامل ساعدت محمد إدريس وقوّت موقفه في المفاوضات فمن أهمها:

1 - عدم وجود منافس قوي له في برقة، فالغالبية تنضوي تحت زعامته وخاصة بعد فشل حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز في مصر، بما في ذلك قادة المجاهدين وضباطهم وشيوخ القبائل ورؤساء الزوايا الدينية، مثل: إبراهيم المصراتي، خالد الحمري، عمر المختار، موسى بولامين الحمري، الفالح محمد الدرسي، الشارف الغرياني، محمد بومليحة العبيدي، السنوسي الغزالي، محمد أبو الشويخ، عياد بالقاسم الرعصي، شعيب الخدة، حمد أبو جالي العبيدي، عمر منصور الكخيا، وغيرهم كثيرون.

2 - استمرار الحرب العالمية الأولى وانشغال الجميع بها ورغبة الجميع في عدم فتح جبهات قتالية جديدة تكلفهم المزيد، أفاد إدريس وعزز مركزه في المساومة.

3 - وجود ضباط أتراك وألمان في برقة يدعم موقف إدريس وهذا ما يخيف بريطانيا وإيطاليا ويجعلهما تعملان على إنجاح التفاوض وإنهاء المشكلة بسرعة خوفاً من تغير موقفه.

4 - شجعت سياسة بريطانيا في الشرق - المتمثلة في تشجيع العرب وحصولهم على استقلالهم وتكوين دول وإمارات مستقلة - محمد إدريس على المطالبة بتكوين إمارة مستقلة في برقة لا تخضع للإيطاليين، وهو بهذا يكون مطالباً بحقوق إمارة له مثلما حدث في الحجاز (ثورة الشريف حسين) وفي عسير (إمارة الأدارسة) وخصوصاً أن بريطانيا كانت قد شجعت كل المناهضين والثائرين ضد الحكم العثماني واعدة إياهم بالحصول على استقلالهم وسيادتهم.

وفي أوائل سنة1917م تمت اتصالات جديدة بين الإنكليز والإيطاليين والسنوسيين، وقد لعب محمد الشريف الإدريسي وابنه المرغني دوراً هاماً في إنجاح هذه الاتصالات وموافقة جميع الأطراف على تجديد المفاوضات.

وتألف الوفد الإنكليزي هذه المرة من: الكولونيل تالبوت رئيساً، والضابط رود ابن السفير الإنكليزي بروما[2]، وأحمد محمد حسنين؛ أما الوفد الإيطالي فكان مكوناً من الكولونيل أرتوري برنتو رئيساً للوفد[3]، والكولونيل دي فيا وتراجمهما، وكان الوفدان الإنكليزي والإيطالي يقيمان في مدينة طبرق، أما إدريس ومستشاروه[4] وأعوانه فقد أقاموا في

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(138).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(196).
(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(143).
(4) المصدر السابق نفسه، ص(143).

منطقة عكرمة وبدأت المفاوضات مع بداية العام الجديد، ورغم أنها اتسمت بطابع الحذر والحيطة إلا أن جهوداً ومساعي قد بذلت فيما يبدو لإنجاحها والوصول إلى حلول يقبلها الجميع، وتقدم الوفد الإيطالي بمذكرة رقم(1) توضح وجهة نظره متمثلة في النقاط التالية:

1 - حل المعسكرات السنوسية وتسريح حامياتها.

2 - يتم نزع السلاح من رجال القبائل بصورة تدريجية في فترة زمنية قدرت بسنة واحدة.

3 - للحكومة الإيطالية تعيين شيوخ الزوايا الدينية التي تقع في مناطقها وذلك بمشورة إدريس.

إلا أن الوفد السنوسي لم يقبل كل ما جاء في المذكرة الإيطالية، وتقدم باقتراحاته في المذكرة رقم(2) وقد جاء فيها ما يلي:

1 - يقوم الإيطاليون بتنفيذ جميع طلبات الوفد السنوسي التي قدمها أثناء مفاوضات الزويتينة العام الماضي (1916م).

2 - يرجأ البحث في نقاط المذكرة الإيطالية رقم(2) إلى مباحثات تتم في المستقبل[1].

إلا أن الإيطاليين تقدموا بحلول جديدة قدموها في مذكرة جديدة رقم(3) وتنازل الوفد الإيطالي فيها عن بعض شروطه وتساهل في قبول بعض شروط إدريس حتى أن رينشارد يقول: (... إن الحل رقم (3) أعطى إدريس جميع مطالبه تقريباً)[2] وتقدم إدريس بمذكرة جديدة رقم(4).

لقد طالت المفاوضات، فاستغرقت الفترة ما بين شهر يناير إلى منتصف أبريل تقريباً، والجلسات معقودة والحوار مستمر، وكانت لضغوط الإنكليز أثر على الطرفين الإيطالي والسنوسي حتى تم التوصل إلى اتفاق ارتضاه الجميع وكانت بنوده تتمثل في الآتي:

1 - إيقاف العمليات الحربية بين الطرفين ابتداء من تاريخ هذه المعاهدة.

2 - يقف الإيطاليون عند النقط التي كانوا يحتلونها في شهر أبريل سنة 1917م ويتعهدون بأن لا يعملوا على إقامة وتحديد مراكز عسكرية مستقبلاً، على أن يكون هذا الشرط مقيداً للسنوسيين أيضاً[3].

3 - لا يحق لأي من الطرفين نهب أو اغتصاب أو أخذ ممتلكات الطرف الآخر.

4 - يعتبر كل من الطرفين مسؤولاً عن الأمن والسلام في المنطقة التي تخضع لنفوذه.

---

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(145).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(145).

(3) انظر: ليبيا في العصور الحديثة، نقولا زيادة، ص(90).

5 - يسمح لكافة التجار والعاملين بالتجارة بحرية الارتحال والمتاجرة مع الدخول في (طبرق - درنة - بنغازي) على أن تشمل حرية التجارة بقية الموانى مستقبلاً.

6 - بقاء جميع الزوايا السنوسية التي سيطر عليها الإيطاليون سابقاً تحت النفوذ السنوسي.

7 - تعفى جميع الزوايا السنوسية وممتلكاتها من الرسوم والضرائب.

8 - تدفع الحكومة الإيطالية مرتبات لمشايخ الزوايا الواقعة ضمن مناطق نفوذها على أن يقوم هؤلاء بدور الوسيط بين السلطات الإيطالية وأهل البلاد حين الحاجة(1).

9 - يطبق على السكان الليبيين القاطنين في مناطق النفوذ الإيطالي قانون الأحوال الشخصية الإسلامي(2).

10 - تدريس القرآن الكريم وأصول الدين في المدارس والمساجد الليبية الواقعة ضمن مناطق النفوذ السنوسي.

11 - تعفى البضائع المستوردة للسنوسيين وطلابهم من الجمارك عدا تجارة السلاح.

12 - تقدم إيطاليا المعونة المالية وتسمح بتوصيل الأدوار بأقرب المراكز الإيطالية بالهاتف لتسهيل الاتصال وتبادل الرأي(3).

13 - يقوم محمد إدريس بإبعاد كل من يكدر العلاقات بينه وبين الإيطاليين.

14 - يؤجل النظر في مرتبات العائلة السنوسية.

15 - يلزم الاتفاق استعجالاً ويتفق الجميع على الإصلاح وإطفاء الفتن(4).

وإضافة إلى هذه البنود فقد تم مسبقاً الاتفاق على نقطتين هما تبادل الأسرى، وإعادة فتح الأسواق.

أما الاتفاق السنوسي - الإنكليزي فقد تم التوصل فيه على النقاط الآتية:

1 - فتح طرق التجارة عند السلوم واتخاذ ميناء السلوم مركزاً للتبادل التجاري على أن يكون طريق الإسكندرية - السلوم الطريق الوحيد الذي تمر منه السلع إلى برقة.

2 - تسليم الضباط الأتراك وغيرهم من أعداء بريطانيا إذا وقعوا تحت قبضة إدريس مستقبلاً إلى الإنكليز.

---

(1) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، نقولا زيادة، ص(92).

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(146).

(3) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي، ص(83).

(4) انظر: قضية ليبيا، ص(83).

3 - خروج جميع المسلحين التابعين للسنوسية وأعوانها من كل الأراضي المصرية.

4 - عدم قيام أية تجمعات عسكرية أو مدنية مسلحة قرب الحدود المصرية الليبية.

5 - صيانة أموال السنوسية في مصر.

6 - تسمح السلطات البريطانية في مصر بجمع المعلومات المادية من أنصار الطريقة السنوسية ومؤيديها.

7 - تخضع واحة الجغبوب إلى إدارة وإشراف السنوسيين.

8 - يكفّ السنوسيون عن إنشاء زوايا دينية لهم داخل الأراضي المصرية.

9 - إبعاد المفسدين والعابثين بالأمن ومحدثي الشغب والقلاقل من مناطق الحدود بين البلدين.

10 - إطلاق سراح المعتقلين في مصر من أتباع السيد أحمد الشريف[1].

11 - تسليم جميع الرعايا البريطانيين التابعين لدول الحلفاء إلى الحكومة البريطانية في مصر.

وقبل أن تنتهي المفاوضات بين الأطراف المذكورة في عكرمة طلب اللواء تالبوت رئيس الوفد الإنكليزي، ومحافظ الصحراء الغربية إلى إدريس السنوسي أن لا يبقي رجالاً مسلحين في واحة الجغبوب، وقد رد محمد إدريس على هذا الطلب رداً سياسيًا دبلوماسيًا بكتاب مؤرخ في يوم 10 أبريل 1917م جاء فيه ما يلي:

«. . . إن الجغبوب واقعة في مكان سحيق في الصحراء وهي موصلة لعدة طرق مع مصر ومع الجبهات الغربية، والآن بما أن مهمتي حفظ النظام ومنع الدسائس في مصر وقطع دابر السرقات والتهريب، فلا بد أن يكون لدي لهذا الغرض قوة يخشى الناس بأسها. . .»[2].

واستطرد إدريس واصفاً حالة العرب في الصحراء ووجوب المحافظة على الأمن فيها إلى أن قال: «. . . هذه هي الأسباب التي تضطرني لطلب السماح لوجود رجال مسلحين في الجغبوب»[3].

يرى بعض المؤرخين[4] أن معاهدة عكرمة في طبرق كانت خير وسيلة لتحقيق السلم وصون مصالح العرب المجاهدين في برقة، كما أنه أتيحت فرصة لمحمد إدريس لتنظيم القبائل تنظيماً من شأنه أن يجمع الكلمة ويقضي على بذور الفتنة والاضطراب، كما ساعد ذلك الاتفاق على تأيد نفوذ محمد إدريس حتى بدأ الأهالي من ذلك الحين يلقبون محمد إدريس (بالمنقذ)،

---

(1) انظر: قضية ليبيا، ص(81).

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(149).

(3) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، ص(186).

(4) منهم دكتور محمد فؤاد شكري.

وكان من أهداف الطليان من إبرام اتفاق عكرمة تمكينهم من أن يتصلوا مباشرة بالأهلين وأن يمدوا نفوذهم في داخل البلاد عن طريق هذا الاتصال المباشر؛ وهذا ما كان السيد إدريس يدركه حق الإدراك ويعمل من جانبه على تعطيله ومقاومته، وتركزت جهود محمد إدريس في أمرين هامين بعد تلك المعاهدة:

أولاً: إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة التي تحفظ مصالح البلاد، وتتولى زعامة القبائل في برقة، وتطالب بكل حقوقهم.

ثانياً: مقاومة نفوذ الطليان ومنع اتصالهم بالعرب بكل الوسائل في داخل البلاد[1].

واستطاع محمد إدريس أن يقيم حكومة وطنية فعلية عاصمتها إجدابية عام 1917م.

ثانياً - إجدابية عاصمة الحكومة الوطنية:

اتخذ محمد إدريس إجدابية مركزاً لقيادته، وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلي:

1 - تتمتع إجدابية بموقع استراتيجي هام؛ لأنها تملك حماية محدودة من البحر وابتعادها عنه نسبياً، ثم أن لها ميناءً صغيراً تصلها به عن طريق (الزويتينة) كل الاحتياجات، كما أنها كانت قريبة من مرسى البريقة البحري الذي كانت تصل إليه بعض الأحيان الغواصات الألمانية قادمة من تركيا باحتياجات المجاهدين.

2 - وقوعها في منتصف قاعدة مثلث رأسه في «الكفرة» وقاعدته النوفلية والجبل الأخضر، كما أنها تمثل الامتداد الطبيعي لواحات جالوا وأوجلة، جخرة، و«الكفرة»، وهذا يعطيها بعداً استراتيجيًا هامًا.

3 - كونها من أهم المناطق في تجارة القوافل سواء بين طرابلس وبرقة، أو بين الواحات الجنوبية والساحل، أو بين تشاد وبرقة وغير ذلك من الخطوط التجارية.

4 - قربها من طرابلس زاد من أهميتها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، فكان لها دورها الهام في مختلف الأنشطة التجارية والحربية.

5 - كانت موطناً لمعظم القبائل التي كانت تؤيد الحركة السنوسية.

6 - كان الترتيب الإداري الذي وضعه أحمد الشريف أثناء غيابه عن برقة خلال الهجوم على مصر، يقضي بأن يكون إدريس مسؤولاً في برقة البيضاء، ويكون مركزه في إجدابية.

لهذه الأسباب وغيرها اتخذها محمد إدريس عاصمة لإمارته الجديدة، ومقر رئاسة حكومته، ونظم بها دواوين الحكومة السنوسية، وقسم الإدارات ونظم ورتب الجيش، وشمل

---

(1) انظر: السنوسية، دين ودولة، ص(205).

نفوذ هذه الحكومة جميع أراضي برقة من الحدود المصرية الليبية شرقاً إلى قصر سرت غرباً ما عدا المنطقة الساحلية التي كانت خاضعة للسيادة الإيطالية[1].

إن الاتفاق الذي أجراه السيد محمد إدريس سواء مع الطليان أو الإنكليز لا يحمل بأي شكل من الأشكال استسلاماً أو قبولاً للواقع، وإنما هي مرحلة مؤقتة هدفها إنقاذ البلاد وتوحيد الصفوف وتقويتها، فأثبت بعمله ذلك حرص الحركة السنوسية على صيانة البلاد وحمايتها، وما اتفاق عكرمة بطبرق الذي عقد في السادس من نيسان سنة 1917م إلا حل قصد منه تهدئة خواطر الأهالي وتبعه اتفاق الرجمة والتي اعترفت فيه إيطاليا بإمارة محمد إدريس، وقد قصدت إيطاليا من ذلك تجزئة البلاد، إلا أن زعماء ليبيا في غربها بددوا آمالها وأفشلوا مساعيها حينما عقدوا مؤتمر غريان في تشرين الثاني 1921م وأقروا تعيين محمد إدريس أميراً على البلاد فأرسلوا البيعة له في أيلول سنة 1922م، فحققوا بذلك الوحدة الوطنية للبلاد، ووضعوا محمد إدريس أمام مسؤولية عظيمة تتطلب منه تولي زمام الأمور والسير بالبلاد إلى حريتها واستقلالها، لقد أصبحت مسؤولية محمد إدريس بعد تلك البيعة التاريخية ليست برقة فقط، كما أرادت إيطاليا وإنما ليبيا بقطريها الطرابلسي، والبرقاوي، وإن إمارته ليست منحة إيطالية، وإنما هي رغبة شعبية وإرادة جماهيرية، وضرورة شرعية وقد جاء في رده على كتاب البيعة ما يلي: «وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهاداً صادقاً بالأنفس والثمرات في شخصي فأخذتها داعياً الله أن يحقق آمال هذه الأمة، ويكلل مساعيها كلها بنجاح، ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعيت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن أتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الأمة تكليفي بها، فعلي إذن أن أعمل بجد معكم، ولكن لا تنسوا أنني بغير إقدامكم لا قدرة لي على شيء إني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمم لا للأفراد وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هي التي تنصرف إلى صالح الجميع، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة.

إن من حق كل شعب أن يسيطر على شؤونه، والناس - منذ نشئوا - أحرار، وقد أظهر شعبنا في كل أدواره مقدار محبته للحرية فدفع مهوراً غالية، فلا يصح لأحد أن يطمع في استعباده والاستبداد بشؤونه، لقد اشترطتم عليّ الشورى وهي أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها...»[2].

لقد تأثرت البلاد في بداية الحرب العالمية الأولى وانقسمت إلى معسكرين: زعماء

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(111).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(261، 262).

الغرب (سلمان الباروني، رمضان السويحلي، و. . .) وكذلك أحمد الشريف السنوسي وقفوا مع تركيا وألمانيا، وأما محمد إدريس فهادن الإنكليز، وبعد هزيمة تركيا وألمانيا، تغيرت موازين القوى، وآل أمر طرابلس الغرب إلى فكرة الجمهورية الطرابلسية، ثم انتهى بها المطاف إلى مبايعة إدريس وهذا ما سوف نتعرف عليه عندما نشرع في دراسة الجمهورية الطرابلسية بإذن الله تعالى.

قام محمد إدريس بوضع نواة لجيش نظامي، واجتهد في تسوية الخلافات بين بعض القبائل، وتمكن من القضاء على عناصر السلب والنهب والقتل من أفراد العصابات الذين أطلقوا على أنفسهم حكومة الصلب، وكانت تتواجد بين الأبيار وتاكنس، وذلك باتباع سياسة حازمة ورادعة، وقام ببعض التنقلات، والإجراءات الإدارية، ففزّع ابن عمه صفي الدين بعد رجوعه من الجهات الغربية(سرت) لفض النزاعات القبلية في برقة، وكلف وكيله الشارف الغرياني لاستلام الأسلحة والذخائر من الإيطاليين، وذلك لإنشاء مراكز أمنية في الحدود مع سلامة تأمين هذه المراكز[1].

وقام بتقسيم برقة إلى منطقتين مقاطعتين، فكانت المنطقة الغربية يرأس إدارتها نائب مقر إجدابية ويقال عنه (نائب المنطقة الغربية)، وكانت المنطقة الشرقية يرأسها آخر بنفس اللقب ومقره (الأبيار) وقد تولى منصب هاتين المنطقتين خيرة رجال السنوسية[2].

وقام محمد إدريس بتشكيل مجلسين: أحدهما يضم كبار العلماء والإخوان ويقال عنه المجلس الخاص وله السلطة التشريعية والتنفيذية، وأما المجلس الثاني فكان أعضاؤه من شيوخ وأعيان القبائل ويقال له مجلس الأعيان، والمجلسان بمثابة البرلمان في بادىء الأمر، وقبل أن يكون مجلس النواب، في بنغازي وبجدابية قسم من الجيش النظامي يقال عنه جيش المعية وهذا مهمته حراسة القصر الأميري، ومنه قسم لا يفارق الأمير محمد إدريس في تجولاته الداخلية، وقد أصبحت منطقة العقيلة والبريقة للمعسكرات الاحتياطية وللتدريب وتضم هذه المعسكرات الكثير من خيرة الضباط، وكان من تولى رئاسة هذه المعسكرات الشارف باشا الغرياني، ثم أسندت إلى حسين الجويفي وكان عدد المعسكرات السنوسية كما يلي:

1 - معسكرات التدريب والاحتياطي بمنطقتي العقيلة، والبريقة، ويقال عنهما (خط النار).

2 - المعية بجدابية.

3 - يضم قدماء المحاربين بجدابية.

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص(112).

(2) انظر: برقة العربية، ص(362).

4 - بالزويتينة.

5 - بالآبار.

6 - بجردس.

7 - مراوه.

8 - معسكر خولان.

9 - عكرمة.

وفي إجدابية معسكر منفصل عن المعسكرات المذكورة ولكنه مرتبط بالقيادة وهو مؤلف من الذين يحسنون القراءة والكتابة ويقال عنه: (طابور الطلبة).

وأقام مراكز حكومية تابعة للمنطقتين المذكورتين، وجعل لكل مركز قائمقام أو مأموراً، أو وكيلاً، وفي كل مركز قاضياً أو نائب قاضٍ للنظر فيما يتعلق بالأحكام الشرعية، ومجلساً من المشايخ يرجع إليه حاكم المركز في كثير من الشؤون حسب التعليمات الحكومية، وفي كل مركز قسماً من البوليس للنظام، والأمن، وسلامة الناس[1].

أما التعليم:

فكانت بعاصمة الحكومة الوطنية(إجدابية) مدرسة قرآنية كبرى نهجت منهج معهد الجغبوب، وكان شيخها الأكبر الحاج طاهر المراكشي ومعه سعد المنفي وأحمد ابن موسى السيوي، وشرع الأمير محمد إدريس في بناء مدرسة على الطراز الحديث أرادها أن تكون كلية ووضع الحجر الأساسي لها في حفل كبير ضم الكثير من رجال السلطة والأعيان والوجهاء، وألقيت يومذاك الخطب والقصائد، وتم بناؤها وتنسيقها وجلبت الأدوات المدرسية وما يلزم من الكتب وبدأ تسجيل أسماء التلاميذ الذين ينتسبون إليها وجلهم من تلاميذ المدرسة القرآنية، إلا أن الإيطاليين بعد احتلالهم إجدابية عام 1923م اتخذوها مركزاً لضباط الطيران وفي عام 1927م اتخذت نادياً للضباط، وفي سنة 1930م جعلت مستوصفاً مدنيًا، وبقيت هكذا إلى عام 1942م حيث نسفها الألمان، ولم يبق منها إلا الأثر[2].

وكان مسجد إجدابية الكبير يجلس به فطاحل العلماء الذين تخرجوا من معهد الجغبوب لتدريس الفقه، والتفسير، والحديث، والرياضيات وعلم الفلك، وكان من هؤلاء الشيوخ: أحمد بن إدريس، سليمان الحوتي، المختار الغدامسي، حامد بركان الشريف، عبد العزيز

---

(1) انظر: برقة العربية، ص(363، 364).

(2) انظر: برقة العربية، ص(365).

الهوني، عبد العزيز العيساوي، علي المحجوب، محفوظ الورفلي، وكان الأخير قاضياً بمعسكرات الجبل، وقتل شهيداً في ساحات الفداء، وكان الناس مقبلين على حلقات العلم، فتبدأ حلقات العلم بعد الساعة التاسعة صباحاً، وبعد صلاة العصر، وكان الطلبة يلتفون حول الشيوخ، وخلف هؤلاء طبقات الأعيان والوجهاء والكثير من ضباط الجيش يستمعون إلى الوعظ والإرشاد، والعلم، وانتشرت مدارس قرآنية أخرى بدواخل البلاد وبجميع المراكز عدا مدارس الزوايا المعروفة[1].

وتقدمت الحياة الاقتصادية، وشرع التجار في مزاولة أعمالهم، واستتب الأمن في جميع أنحاء برقة، لقد استطاع إدريس أن يبحر بالسفينة بمهارة ويصل بشعبه إلى شط الأمان بعد أن أمضه الجوع حتى اضطر بعض الناس إلى أكل لحوم الخيل والبغال والحمير.

وكان يعمل مع إخوانه في حكومته بكل جد ونشاط لتطوير الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية.

لقد أوجد الأمير محمد إدريس حكومة في برقة أحبتها القبائل وهابتها، عملت على نشر العدل، وأزالت الظلم، ووحدت الصف، ونبذت الخلاف، وأقرت السلام.

كان الأمير محمد إدريس يدير دفة العلاقات مع إيطاليا بمنتهى الحذر واللباقة، والكياسة، والدبلوماسية، والسياسة، وحرص على توثيق علاقته مع الوالي الإيطالي الكونت جاكومودي مارتينو، وعين عمر باشا منصور الكخيا ممثلاً له في بنغازي، وكان لعمر باشا خبرة سياسية نادرة، حيث كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني في إستانبول[2].

ثالثاً - اتفاق الرجمة:

كان الإيطاليون غير راضين على الاتفاقات السابقة؛ لأنهم كانوا يطالبون بالسيادة التامة على ليبيا، وإنهم قبلوا بالأمر الواقع مؤقتاً، لذلك حاولوا أن يتقربوا من السكان، أملاً في أن ينتهي الأمر إلى القبول بالسيادة الإيطالية، ولعل هذا ما حدا بإيطاليا أن يمنح برقة (دستوراً أساسيًا) وقد تم ذلك في أكتوبر 1919م. وينص الدستور على أن يعين ملك إيطاليا والياً يشرف على الشؤون المدنية والعسكرية لبرقة، ويكون لبرقة مجلس نواب محلي يتألف من نواب عن القبائل والحضر، بحيث يضاف إليهم عدد من الأعضاء المعينين يجلسون فيه بحق وظائفهم أما إدارة البلاد فتتم على أساس تنظيم إدارات مدنية وعسكرية يعين رؤساؤها بأمر ملكي[3].

---

(1) برقة العربية، ص(365).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(207).

(3) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال، نقولا زيادة، ص(91).

وكفل القانون الأساسي حرية العبادة والدين، وحق الملكية الفردية، وحرية النشر، وإنشاء المدارس، واحترام لغة البلاد. هذا إلى تفصيل أمور كثيرة.

وقد أدرك مشايخ القبائل ما تنطوي عليه هذه المبادرة من خطر، فعقد نحو مائة من كبارهم اجتماعاً في إجدابية قرروا فيه: «أنهم لا يقبلون بالإيطاليين إلا في المدن الساحلية، على أن يقتصر عملهم هناك على التجارة»[1].

واتضح من إعلان الدستور من جهة، وقرار المشايخ من جهة أخرى، أنه من الضروري المبادرة إلى مفاوضات جديدة، لعلها تؤدي إلى وضع الأمور في نصابها وبدأت المفاوضات فعلاً، وفي 25 تشرين الأول (أكتوبر) 1920م وقع الاتفاق المعروف باتفاق الرجمة.

وبموجب اتفاق الرجمة تقسمت برقة إلى قسمين: الشمالي، وفيه السواحل وبعض الجبل الأخضر يخضع للسيادة الإيطالية، والجنوبي وهو داخل ويشمل الجغبوب، وأوجله وجالو، و«الكفرة»، يكوّن إدارة مستقلة هي الإمارة السنوسية، ويتمتع السيد محمد إدريس بلقب (أمير)، على أن يكون اللقب وراثيًا، ومع أن عاصمة الإمارة هي إجدابية، فقد اشترط في الاتفاق على أن للأمير أن يتجول ويقيم في جميع أنحاء برقة، ويتدخل في إدارة المنطقة متى شعر أن مصلحة العرب تتطلب ذلك. والحد الفاصل بين المنطقتين هو خط يمتد جنوبي خميس، والسلوق، والرجمة إلى شمال الأبيار ثم يمر بغوط ساس، وشمالي القصور وجنوبي سيدي رافع (الزاوية البيضاء) الصفصاف، ومرتوبة، وتميمي إلى طبرق.

وأدخل القانون الأساسي في صلب اتفاق الرجمة. وأعلنت إيطاليا أنها لا تنوي بحال من الأحوال نزع الأرض من أصحابها سواء في ذلك الأراضي التي يملكها الأفراد، أو أراضي الزوايا.

وتعهد سمو الأمير من جانبه في أن تحل الأدوار العسكرية وتسرح الوحدات العسكرية (في مدة ثمانية أشهر) على أن يحتفظ بألف جندي فقط يستخدمهم في شؤون الإدارة وحفظ النظام، ورضيت إيطاليا بأن تقدم مساعدات مالية للإمارة السنوسية تمكنها من تنظيم أعمالها، على أن يشجع الأمير التجارة ويضمن المواصلات والأمن.

وقد تم في الواقع انتخاب مجلس نيابي في عام 1921م (نيسان، أبريل)، واختير رئيساً له السيد صفي الدين.

لقد كان ذلك المجلس الأول من نوعه في دنيا العرب وقد عقد المجلس خمس جلسات (إلى مارس 1923)[2].

---

(1) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال، ص(92).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(92، 93).

لقد كان اتفاق الرجمة يتكون من مقدمة، وعشرين مادة إلى جانب ملحقين، فمن أراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع «السنوسية دين ودولة»[1].

مرت المدة المتفق عليها مع الأمير محمد إدريس لحل الأدوار، وهي ثمانية شهور، ولم تحل هذه الأدوار التي كانت تعمرها فلول من أفراد المقاومة السنوسية منذ سنة 1917م، وهذه الأدوار (في إجدابية والشليظيمة، ومروه وخولان والأبيار وتكنيس، وعكرمة)[2].

كان يشرف على كل منها قائمقام، وقائد جند، وقاض، وجامع ضرائب يجمع حاجاتها من العرب، ومن هنا كان لكل دور وحدة عسكرية إدارية قضائية، لا لنفسه فحسب ولكن للمنطقة المحيطة به، وكانت الأدوار واسطة لنشر النفوذ السنوسي ومن هنا كانت اهتمام إيطاليا بحلها، وتعلل الأمير بأن حل هذه الأدوار قد يثير العرب على غير فائدة، ولذلك بدأ أمر بحثها من جديد وانتهى البحث بالأمير والإيطاليين إلى اتفاق جديد بشأنها يعرف باسم (اتفاق بو مريم) الذي تم في 11 تشرين الثاني نوفمبر 1921م. ومع أن الفريقين جددا الاتفاق الماضي بشأن حلها فقد رئي أن يؤجل ذلك ليتسنى للإدارة الإيطالية توطيد أركانها في منطقتها، وإلى أن يتم ذلك رئي من المناسب إنشاء (الأدوار المختلطة) على أن يكون ثمة أربعة منها في عكرمة وسلطنة والأبيار وتكنس، فيكون الجنود فيها إيطاليين وسنوسيين، بنسبة خمسة إلى أربعة، ويقوم ضباط إيطاليون بالإشراف على الإيطاليين وضباط سنوسيون بقيادة الجند السنوسي.

والذي يبدو من هذا كله بحسب رأي الإيطاليين أنفسهم، هو أن النفوذ الإيطالي كان في سبيل التقدم من الناحية السياسية.

لكن هذا كان في الظاهر فقط، فهؤلاء الإيطاليون يعترفون بأن إدارة برقة باستثناء المدن، كانت في الواقع في أيدي السنوسيين، إما مباشرة أو بالوساطة، وهذه حالة ما كان ليرضى عنها الإيطاليون أبداً، وإن كانوا قد قبلوا بها مؤقتاً، وكان من الطبيعي أن يعود القتال إلى البلاد يوماً ما[3].

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(208).

(2) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالي، نقولا زيادة، ص(93).

(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص(94).

المبحث الثالث

الجمهورية الطرابلسية

إن تاريخ الجهاد الليبي مليء بالمحطات المهمة التي ينبغي الوقوف عندها درساً للوقائع واستجلاء للحقائق واستفادة من العبر قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

لقد كان إعلان الجمهورية الطرابلسية محاولة مبكرة لإقامة دولة مستقلة لها دستورها، ومؤسساتها، وهياكلها، وبذلك أصبحت لهذه الحادثة سبقاً تاريخيًّا في عالمنا الإسلامي والعربي، ولذلك لا بد من تسليط الأضواء عليها والتعريف بها، ونستطيع القول إن بداية الفكرة ظهرت مع ظهور ورجوع سليمان الباروني في ساحة الجهاد الليبي مرسلاً من قبل الخلافة العثمانية التي خولته الولاية على طرابلس والقيادة، ونقصد بظهوره بعد غيابه المفاجىء من ساحة الجهاد وذهابه إلى الأستانة عاصمة دارالخلافة، حيث نزل عن طريق غواصة ألمانية بقصر (حمد) بمصراته في 16 أبريل 1916م[1]. كان رجوع سليمان الباروني بعد أن مهد الأتراك لهذا الإلحاق فاستصدروا (فرماناً) مرسوماً سلطانياً من جلالة السلطان بإلحاق طرابلس بتركية.

وقد جاء هذا القرار في وقت كان الطرابلسيون محتاجين فيه إلى المساعدة، ففرحوا به، وكانت سياسة الترك والألمان تستهدف لإذكاء نار الثورة في طرابلس واستئنافها في برقة إن أمكن من طريق وجودهم في طرابلس من شغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الإنجليزية والإيطالية.

وقام الشيخ سليمان الباروني بمجموعة من الإجراءات الإدارية والمالية للإشراف على قيادة وتنظيم المجاهدين لمواجهة تحركات الجيوش الإيطالية، وفي إطار التنظيمات الإدارية للولاية قام بتشكيل المجلس العرفي الشرعي - وكان يتكون من مجموعة من العلماء ليتمكنوا من حل القضايا الجنائية والشرعية المعلقة بسبب الحرب - وقد ضم ذلك المجلس كلًّا من:

1 - الشيخ عمر المنصوري مفتياً للولاية.

2 - الشيخ علي الهمالي قاضياً لمصراته.

3 - الشيخ محمد سعيد المسعودي قاضياً للجبل.

4 - الشيخ الزروق أبو رخيص قاضياً للمنطقة الغربية.

---

(1) انظر: مجلة الإنقاذ عدد (29)، بقلم سالم نوح، ص(44، 45).

5 - الشيخ الشكشوكي قاضياً لورفلة[1]

6 - الشيخ عبد الرحمن زبيدة قاضياً لورفلة[2].

وفي تلك المرحلة كانت الأوضاع العسكرية تميل إلى صالح المجاهدين، فقد تصاعدت حركة الجهاد ضد إيطاليا، وقام سليمان الباروني بالاتصال بقادة البلاد وزعمائها، وعمل على نبذ الخلاف، وتوحيد الصف، ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل التي أرسلها سليمان الباروني من مصراته إلى الأعيان والمشايخ يخبرهم فيها بقدومه ومن هؤلاء المشايخ: الشيخ سوف رئيس المجاهدين في العزيزية: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: عدنا ولله الحمد - والعود أحمد - إلى وطننا العزيز من دار الخلافة العظمى تحملنا عفاريت البحر السابحة فوق جبال الأمواج تارة، وتحت عمق خمسين ذراعاً في لجج اليم أحياناً. . إلى أن قال: عدنا ولله الحمد، ومعنا كل ما يلزم، واستقبلنا أهل مصراته الكرام بكل سرور وابتهاج، هذا وقد تفضل أمير المؤمنين - أيده الله - فأمر حكومته بإلحاق طرابلس الغرب بلادنا بالولايات العثمانية، واقتضت إرادته السنية إرسالي لأجل إجراء الترتيبات اللازمة ملكية وعسكرية وتعهد أن يوالي المدد إلى النهاية كما تطلعون على ذلك في منشوره العالي الشأن.

وسنعرفكم من مركز مسلاته بعد المذاكرة مع البطل الغيور رمضان بك ومن معه من الأبطال عن المكان واليوم الذي يصير فيه الاجتماع العمومي إن شاء الله، فانتظروا جوابنا والسلام الأسنى على العلماء الأفاضل والمشايخ ورجالكم الكرام)[3].

19 ذي الحجة سنة 1334هـ

من أخيكم سليمان الباروني

وقبل سفره إلى مسلاته أرسل كتاباً إلى محمد إدريس السنوسي يطلب منه الانسحاب من سرت قطعاً للفتنة والنزاع. وهذا نصه بعد الديباجة:

«هذا وقد وصلت مصراته مرسلاً من لدن حكومتنا السنية بطلب من الأهالي بعنوان والي قومندان طرابلس. ولدى وصولي المركز وصل الخبر بأن قوة قدمت من جهة برقة تحت قيادة القائمقام موسى بك واحتلت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الزاندرمة التي هناك من طرف

---

(1) انظر: جهاد الأبطال للزاوي، ص(203).

(2) انظر: مجلة الإنقاذ عدد (29)، بقلم سالم نوح، ص(44، 45).

(3) انظر: جهاد الأبطال، ص(205).

رمضان بك السويحلي باسم الدولة العثمانية، فبادرت بإرسال جواب إلى موسى بك والشيخ صالح الأطيوش؛ لأنه بلغني أنه مع القوة المذكورة، فجاء الجواب من الشيخ صالح مبيناً فيه أنه ما قدم إلا بأمر من سيادتكم ومن نوري باشا بعنوان (متصرف سرت) فتأسفت لأنه كان أول أمر أصدرته متعلقاً بتجهيز قوة لمقابلة تلك القوة المنسوبة إليكم إلا أنني أمرت قومندان القوة أن يتحاشى - ما أمكن - الدخول فيما يكدر الخواطر بين بني وطن واحد ودين واحد رجاء أن تتخلى القوة مختارة عن القصر بعد أن يبلغها المنشور السلطاني الذي أرسلناه إليكم.

بناء عليه أرجو المبادرة إلى تسوية هذه المسألة إن كان أمر حركتها صادراً منكم[1].

27 - 28 ذي الحجة سنة 1334هـ

فرد عليه السيد محمد إدريس برسالة قال فيها:

«. . . وذكرتم نزول عساكرنا بسرت فصحيح ذلك قبل قدومكم، إذ كانت الفتن مشتعلة بين السويحلي وترهونة، فأجبرنا الحال على أن نطفأها بأي كان، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ. . .﴾ [الحجرات: 9] وذكر الآية، فأرسلنا الجيش ونزل بسرت من دون إذن أحد. . وها نحن أمرناهم بأن يقفوا بالقصر.

ونحن لا غرض لنا إلا اتحاد الإسلام وتخليص رقاب المسلمين فقط، كما أننا نأمل من جانبكم معاونتنا على إطفاء الفتن. . ونحن وأنتم لا فرق بيننا، كلنا قصدنا شريف ومحارب تحت الراية الإسلامية العثمانية[2].

8 محرم سنة1335هـ

محمد إدريس بن السيد المهدي

كانت تركيا حريصة على دعم ثورة ليبيا في تلك الأيام ولذلك أرسلت الأمير عثمان فؤاد قائداً عامًا بدل الباروني في مارس 1918م، وكان في صحبته البارون فريد فون توندروف الألماني الذي جاء معه فريق فني لتسيير التلغراف اللاسلكي، وكان الأمير عثمان يحمل لقب (القائد الأعلى للقوات الإفريقية)[3].

جاء الأمير عثمان فؤاد إلى مصراته في مارس سنة 1918م لتنفيذ سياسة متفق عليها بين

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(205).

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص(206).

(3) انظر: عبد النبي بالخير: داهية السياسة وفارس الجهاد، محمد المرزوقي، ص(102).

الترك والألمان لتغذية الثورة في طرابلس ضد الطليان، حتى إذا ما وافقوا حاولوا أن تمتد الثورة إلى برقة للإغارة على الإنجليز في مصر مرة ثانية.

وكان مما تنطوي عليه هذه السياسة إحياء فكرة جمهورية شمال إفريقية التي قامت من أجلها ثورة الحامة بتونس عام1915م، وقد وجدوا من نشاط الطرابلسيين ما شجعهم على المضي في العمل من أجلها.

كان الاستعمار الفرنساوي في شمال إفريقية مضرب المثل في الاستبداد بالمسلمين والإساءة إليهم، وكان الأحرار من التونسيين، والجزائريين والمراكشيين يفكرون دائماً في التخلص من هذا الكابوس الذي جثم على صدورهم وسلب حقوقهم، وقد انتهزوا فرصة نشوب الحرب في عام 1914م فألف جماعة منهم في الأستانة وفداً أخذ يعمل لإنشاء (جمهورية شمال إفريقية) ينضوي تحت لوائها من حدود مصر إلى حدود بحر الظلمات، وكان في مقدمة هؤلاء السادة المجاهدين السيد علي باشا حنبه، والشيخ صالح الشريف، والشيخ إسماعيل الصفجايجي، وهؤلاء الثلاثة من تونس، ومعهم جماعة من الجزائريين والمراكشيين، وزار الوفد ناظر الخارجية العثمانية، وأبلغه رغبة سكان شمال إفريقية في الاستقلال، وإنشاء جمهورية إفريقية متحدة، وطلبوا منه إبلاغ ذلك إلى ألمانيا والنمسا رسميًا، وأن يسمح لهم بالسفر إلى برلين وفيينا لبسط مطالبهم والحصول على الوعود والمساعدات اللازمة.

وعرض اقتراح الوفد على سفير ألمانيا في تركيا، فأبلغه بأن حكومته لا تتعهد لأبناء شمال إفريقية بالاستقلال إلا إذا ثاروا على الفرنساويين الذين يحتلون بلادهم، وغادر الوفد الأستانة عقب ذلك إلى برلين وزار وزارة الخارجية الألمانية، وقدم طلباته فقبلتها وسجلتها رسميًا، كما اعترفت بها النمسا وتركية أيضاً، فكان ذلك أول اعتراف دولي بالجمهورية الإفريقية المتحدة في شمال إفريقية. وقصد الوفد بعد ذلك إلى لهاي (مقر المحكمة الدولية)، فسجل هذا الاعتراف في سجلاتها؛ لأن عصبة الأمم لم تكن أنشئت إذ ذاك.

وتنفيذاً لرغبة الألمان في الثورة على الفرنساويين، ورجاء الوفاء بما وعدوا به الوفد من المساعدة، وإمداد الثورة بما يلزمها من المال وآلات الحرب وإنشاء جمهورية شمال إفريقية قامت ثورة الحامة سنة 1915م، فاضطرت فرنسا إلى أن ترسل من جيشها ثلاثين ألفاً لإخماد الثورة. وقد اختيرت الحامة مكاناً للثورة لقربها من الحدود الطرابلسية، وليسهل الاتصال بها والاستناد إليها، وكانت إذ ذاك على أشدها، وقد قام بهذه الثورة الشيخ سعيد دبان من أعيان جنوب تونس وممثله في الجمعية الشورية، فأغار على مراكز الفرنساويين في الحامة، وقد تداركها الفرنساويون بجيوشهم فأخمدوها في مدة خمسة أيام، وأسفرت عن قتل الشيخ سعيد وابنه وخادمه، وجماعة [illegible] رجاله، وعن نحو مئة قتيل من الفرنساويين. وانتقم الفرنساويون ممن وقعوا في [illegible] شيخ سعيد بالقتل والشنق والسجن. والتجأ كثير منهم إلى

الحدود الطرابلسية، وجاهدوا مع الطرابلسيين، وكانوا يسمونهم المهاجرين وكان كبيرهم الشيخ الوحيشي رحمه الله [1].

إن هذه الثورة، وهذه الدعوة لقيام جمهورية شمال إفريقية تحتاج إلى دراسة واعية متأنية عميقة، لعل الأجيال تستلهم دروساً من الماضي وتجعلها نبراساً لها في المستقبل.

كانت الحرب إذ ذاك قائمة في جزيرة العرب بين الإنجليز والعرب من ناحية، وبين الترك من ناحية أخرى، ولم يطل الأمر حتى رجحت كفة الإنجليز على الترك، ثم اشتد الضغط عليهم من الجيوش العربية والإنجليزية في الشام، وتلاحقت عليهم الهزائم، وتحطمت جيوشهم، وضعفت عزائمهم، واضطروا للاستسلام وعقد الترك والحلفاء معاهدة جزيرة موندروس في 31 أكتوبر سنة 1918م تعهدت فيها بسحب جيوشها من جميع البلاد ومما جاء في هذه المعاهدة مما يتعلق بطرابلس في المادة 17: (يجب على جميع الضباط الترك في طرابلس الغرب أن يسلموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالي، ويجب على تركية أن تقطع الأرزاق والمساعدات وكل صلة مع هؤلاء إذ لم يذعنوا ويسلموا).

وجاء في في المادة 19: (تسلم جميع الموانىء في طرابلس ومصراتة إلى أقرب قائد لجيوش الحلفاء).

وكانت هذه المعاهدة آخر سلاح استعمله الحلفاء لقطع صلة الترك بالعرب، كما كانت آخر عهد العرب بدولة آل عثمان التي تفككت أوصالها، وتراخت بها الحياة، وزال ظلها بعد أن حكمتها 416 سنة، من عام 922هـ إلى 1338هـ لم تنقطع صلتها بها. حتى وصلت في آخر عهدها إلى أحط الدركات، وطوى التاريخ صفحاته على ما لها وما عليها[2]. ولقد تعرضت للدولة العثمانية في كتابي السادس (الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط).

إن لله سبحانه وتعالى سنناً ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون، وهذه السنن - كما عرّفنا عليها القرآن الكريم ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان، والكفر والعدل والظلم، وقضايا السلوك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات البشرية، والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم فهو الذي عرفنا بالخير والشر وبالحق والباطل، والعدل والظلم[3]، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى.

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(218، 219).

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص(319، 320).

(3) انظر: صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي، علي محمد الصلابي، ص(83).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

وإن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك الهلاك وضنك الحياة المادية منها والنفسية، ويرفع التمكين والنصر، وتنزل الهزيمة والخذلان بسبب المعاصي، والذنوب، والكبائر والابتعاد عن صراط الله المستقيم وحبله المتين.

لقد كان لسقوط تركيا في الحرب العالمية الأولى أثر سيء على حركة الجهاد بطرابلس، وساهم خبر سقوطها في إخماد جذوة الحماس، وبث في قلوب الطرابلسيين الوهن، وأفزعهم كثيراً على مصيرهم المظلم.

وسرعان ما انتشر خبر هزيمة تركيا في مصراته وامتد منها إلى غيرها، فاضطربت أحوال الناس، وهاجت نفوسهم، وتشوشت أفكارهم.

كان لسقوط تركيا سبب رئيسي في ظهور فكرة الجمهورية الطرابلسية وطرحت على بساط البحث، واشترك فيها رمضان بك، وعزام بك، والباروني باشا، والأمير عثمان، ومختار بك كعبار، وانتهت نتائج المباحثات بالموافقة على فكرة تأسيس الجمهورية، وأرسلت الدعوة إلى رؤساء القبائل وزعمائها وشيوخها باسم الأمير عثمان لعقد اجتماع عام في مسلاته لإعلان الجمهورية، وفي يوم السبت الثالث عشر من صفر سنة 1337هـ الموافق 16 من نوفمبر سنة 1918م اجتمعت الوفود الطرابلسية في جامع المجابرة بمسلاته، وهو أكبر جامع فيها، وحضر الأمير عثمان فؤاد وأخبر المؤتمرين أن الأستاذ عبد الرحمٰن عزام بك سيخطب فيهم بالنيابة عنه، وأنه سيتحدث نيابة عنه وطلب منهم الموافقة على ما سيطلبه منهم.

وخطب الأستاذ عزام خطبة مؤثرة حث فيها الناس على وحدة الصف، ونبذ الخلاف، وعلى العمل الجاد للوصول إلى استقلال البلاد، وطرد الغزاة ثم طرح عليهم فكرة إنشاء حكومة وطنية تتوحد فيها الكلمة وتتولى أمور البلاد، وتنظر في شؤون الأمة، فلقيت الفكرة استجابة من الجميع، وإجماعاً بدون خلاف وسميت الجمهورية الطرابلسية(1). وأجريت الانتخابات في الحال لاختيار أعضاء الجمهورية، فأسفرت الانتخابات عن الآتي:

أولاً - تشكيل مجلس إدارة الجمهورية:

وكان أعضاء هذا المجلس أربعة من أقوى الزعماء نفوذاً على سكان منطقتهم وهم: سليمان الباروني، أحمد بك المريض، ورمضان بك السويحلي، عبد النبي بك بالخير، وكانت جميع القرارات والأوامر الصادرة من هذا المجلس، تمضي بأسماء الأعضاء الأربعة، إظهاراً

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(224).

لاتحاد أصحابها وتقوية لاعتمادها بين الناس، وانتخب إلى جانب الأربعة مراقباً ومديراً مالياً لماليّة الجمهورية، هو زعيم غريان مختار بك كعبار، وكان ذا ثقافة عصرية عالية درسها بالمعاهد التركية، وكان أحد نواب طرابلس في البرلمان العثماني بإستنابول، وجعل الأستاذ عبد الرحمٰن عزام مستشاراً لشؤون الجمهورية، وارتبط بمجلس الإدارة جميع الموظفين، وشؤون الجهاد، والأمور الاجتماعية.

ثانياً - مجلس شورى الجمهورية:

وشكلت الهيئة الثانية وهي مجلس شورى الجمهورية، والغاية من إيجاده ليساند مجلس الإدارة الحكومية، في قيامها بأعمال وواجبات تشبه إلى حد ما، وظائف مجلس النواب والشيوخ في البلدان الأخرى ذات الأنظمة الدستورية، وقد تألف هذا المجلس من أربعة وعشرين (24) عضواً، ضم كافة أعيان الجهات من فزان جنوباً إلى العجيلات شمالاً، ومن سرت شرقاً إلى نالوت وغدامس غرباً.

واختاروا المجاهد الكبير، الشيخ محمد بك سُوف زعيم قبيلة المحاميد وحفيد غومة المحمودي صاحب الثورة الكبيرة ضد الترك رئيساً لمجلس الشورى، ونائبه يحيى بك الباروني، شقيق سليمان الباروني[1].

وأما باقي الأعضاء فهم:

1 - الشيخ عبد الصمد النعاس	عضواً	ترهونة
2 - الشيخ متفاح التريكي	عضواً	مسلاته
3 - الشيخ علي بن رحاب	عضواً	قماطة
4 - الحاج محمد بن خليفة	عضواً	الساحل
5 - عبد السلام الجدايمي	عضواً	زليتن
6 - الحاج علي المنقوش	عضواً	مصراته
7 - محمد المنتصر	عضواً	سرت
8 - مفتاح التايب	عضواً	أرفلة
9 - السيد محمد بن بشير	عضواً	أولاد أبي سيف
10 - عبد الرحمٰن بن بركان	عضواً	من مرزق - فزان

(1) انظر: رمضان السويحلي، محمد فشيكة، ص(195، 196).

11 - محمد بن أحمد الفايدي	عضواً	الشاطىء
12 - الشيخ الحبيب عز الدين	عضواً	غدامس
13 - إبراهيم أبي الأحباس	عضواً	الجبل
14 - الحاج محمد فكيني	عضواً	الرجبان
15 - الشيخ أحمد البدوي	عضواً	الزنتان
16 - سالم البرشوشي	عضواً	الجبل - يفرن
17 - علي بن عبد الرحيم	عضواً	ككّلة
18 - الشيخ شطيبة	عضواً	غريان
19 - علي بن تنتوش	عضواً	ورشفانة
20 - عبد الرحمٰن شلابي	عضواً	الزاوية
21 - علي شلابي	عضواً	النواحي الأربع
22 - عبيدة المحجوبي(1)	عضواً	عن صرمان والعجيلات

ثالثاً - مجلس الجمهورية الشرعي:

وعرفت الهيئة الثالثة باسم (مجلس الجمهورية الشرعي) وكانت أعماله وأحكامه القضائية وفقاً لأحكام الفقه الإسلامي، على مذهب الإمام مالك، وعرف وتقاليد البلاد، وأسندت عضويته إلى أربعة من كبار العلماء وهم:

الشيخ الزروق بوخريص (من غريان) - الشيخ محمد الإمام (من الزنتان)، الشيخ عمر المساوي (من الزاوية)، الشيخ مختار الشكشوكي (من مدينة طرابلس)(2).

مؤشرات ودلائل:

كان لاختيار اسم الجمهورية دلالة واضحة على اطلاع الليبيين في ذلك الوقت على أنواع الأنظمة السائدة في العالم ومنها النظام الجمهوري، ولإطلاق لفظ الشوى دلالته الخاصة التي توحي بالتأصيل والتمسك بالمصطلح وما يضيفه ذلك المصطلح من أبعاد إسلامية وتاريخية، كما تدلنا على معرفة الأجداد لأهمية الشورى وأنها من قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم.

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(225، 226).

(2) انظر: رمضان السويحلي، فشيكة، ص(199).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38].

لقد قرنت الآية الكريمة الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة واجبة شرعاً، فكذلك الشورى واجبة شرعاً[1].

إن هذه الآية قد نزلت في سورة سميت سورة الشورى، وهي مكية، ولقد جاءت مؤكدة أن تكون الشورى صفة ملازمة للجماعة الإسلامية، وسلوكاً اجتماعيًا لا يغادرهم قبل قيام الدولة الإسلامية وبعد قيامها، فإن كلمة «أمرهم» من ألفاظ العموم تشمل جميع شؤونهم في الحياة العامة والمشتركة[2].

كما أن اعتماد طريقة الترشيح والانتخاب كوسيلة مثلى لتولي المسؤولية والوصول إلى المناصب السياسية الهامة في الدولة إشارة ودلالة على اهتمام الأجداد بهذا المبدأ رغم أن الفترة كانت فترة جهاد وحرب واستنفار.

كما أن اختيار المسجد (جامع المجابرة) للاجتماع وإجراءات الترشيح والانتخابات والاتفاق على إقامة الجمهورية والتعهد بإقامة العدل، يؤكد على أن نظرة المجاهدين للجامع لا تقتصر على اعتباره مكاناً للعبادة فقط، وإنما هو محلاً للعمل السياسي، والنشاط الاجتماعي، والحكم القضائي، كانت مساجد بلادنا عامرة بالنشاطات الشاملة، ونرجو من الله تعالى أن يوفق المسلمين للعمل الدؤوب حتى ترجع المساجد شعلة نور، ومحضن تربية، ومنبراً للدعوة إلى الله.

إن المساجد في بلادنا أصبحت في أحسن أحوالها مقتصرة على أداء الصلوات فيها وجردت من مَهامِهَا الأخرى.

إن ما قام به الأجداد من التقاء واجتماع في مسجد المجابرة في مسلاته دليلاً على معرفتهم لوظائف المسجد في الأمة.

لقد كان المسجد في عهد رسول الله ﷺ مكان الاجتماع العام الذي كانت جلسات الشورى تعقد فيه، وكان يتم توزيع العطايا، كما كانت التبرعات تجمع للمحتاجين... إلى آخره.

ومن الأدلة على ذلك:

استشارة النبي ﷺ في غزوة أحد، فقد استشارهم في المسجد بعد صلاة الجمعة، وكان

(1) انظر: النظام السياسي في الإسلام، لأبي فارس، ص(90).

(2) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي، ص(447).

رأيه ﷺ أن يبقى المسلمون متحصنين داخل المدينة، لكن الأغلبية من الشباب كانت تفضل ملاقاة المشركين خارج المدينة حتى لا يفوتهم أجر الشهادة في سبيل الله الذي فاتهم يوم بدر، وقد فضل النبي ﷺ النزول لرغبتهم أخيراً، فخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة[1].

إن الأدلة في هذا المعنى كثيرة، ومن أراد التوسع فعليه مراجعة كتاب الدكتور محمد أحمد «كيف نعيد للمسجد مكانته؟».

كما أن تشكيل المجلس الشرعي للنظر في قضايا الجمهورية الوليدة، والمخالفات والجنايات بين المواطنين، وتحديد العلماء الذين يشرفون على هذه المهمة لدلالة قاطعة على احترام الأجداد للعلماء والفقهاء، وعلى حرصهم على جعل الشريعة الإسلامية هي الدستور للجمهورية مما يؤكد على اجتهاد الليبيين الأصيل وعدم نجاح الغزو الفكري في ذلك الوقت في التأثير على اختيارات المواطنين النابعة عن عقيدتهم ودينهم وتراثهم الإسلامي العظيم.

إن من أخطر عوائق النهوض بالأمم غياب القيادة الربانية، وذلك أن قادة الأمة عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة في حياة الأمة الإسلامية، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور، وأزمّة الحكم في الأمة الإسلامية، ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ(العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة)[2].

إن العمل السياسي عندما يكون خالياً من العلماء الربانيين، لا تتحقق ثماره المرجوة. إن العلماء الربانيين هم الذين جعل الله ﷻ عماد الناس عليهم في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، والعلماء وهم: أئمة الدين، ونالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد، والصبر، واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

إن العمل السياسي في بلادنا خالي من العلماء الربانيين، وكأن العالم الرباني والعمل السياسي طرفي نقيض وهذا فهم خاطىء، بل تاريخ الأمة في صراعها بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام، لخير دليل على دور العلماء الربانيين في حركة النهوض.

ولا بد من التفريق بين العلماء والمفكرين والمثقفين، إن مفكري الأمة لهم مكانتهم، وقد نفع الله بهم نفعاً كبيراً، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شيئاً إلا في حدود علمهم،

(1) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، (8/162).

(2) قادة الغرب يقولون، جلال العالم، ص(63).

وقدراتهم. كما أن المثقفين - وهم فئة من الأخيار الصالحين - ذوو تخصصات علمية برزوا فيها، سواء في العلوم التجريبية مثل، الطب والهندسة والكيمياء، أو في العلوم المسماه بـ(العلوم الإنسانية) مثل علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع، فهؤلاء وإن حُمِدَ لهم تخصصهم في مثل هذه العلوم فصاروا مرجعاً فيها، فإنهم غير مختصين في العلوم الشرعية، وهم في الاصطلاح العلمي الشرعي جمهور المسلمين، وعوامهم الذين يجب عليهم أن يكونوا وراء العلماء ويجب عليهم أن يرجعوا للعلماء في أمور الشريعة، ويكونوا عوناً لهم في شرح واقع تخصصاتهم، فالطبيب يشرح الأمور الطبية، والاقتصادي يشرح الجوانب الاقتصادية العصرية، وهكذا ليفهم العلماء والفقهاء الأمور على حقيقتها، ويستخرجوا الحكم الشرعي وفق دراسة واعية ومتفتحة، إن كلام (المفكرين) والمثقفين يجب أن يكون محكوماً بالشرع، وأما إذا بنى هؤلاء المثقفون والمفكرون كلامهم في أمور الشريعة، وأحوال الأمة العامة على أساس من العقول والأهواء، وإطلاق القول بالمصالح دون نظر في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأقوال العلماء الراسخين، فإنهم بذلك يكونون أشبه بأهل الكلام[1].

ولا بد من التفريق بين القارىء للعلوم الشرعية والفقيه فيها؛ إن القارىء لديه نتف وجزئيات أمسك بها من خلال قراءاته لبعض الكتب، واطلاعه على أقوال أهل العلم فهو لم يعان العلم، ولم يشافه العلماء، ولم يزاحمهم بالركب في الحلق.

أما العالم الفقيه فليس كأولئك بل هو ذو فهم شمولي عام للإسلام، واطلاع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفاً، بل درس العلوم الشرعية دراسة شاملة عامة.

فمر على مسائل العلم واستطاع تخريجها على أصولها، وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة وأهدافها العامة.

إن علمه لم يأته من قراءة ليلة بل من سهر الليالي ومعاناة الأيام، فشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حد في التعليم، بل هم دائمو الطلب، دائبو التعلم[2].

ولا بد من التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ. إن العالم قد يكون بطبعه قليل الكلام غير قادر على الخطابة، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يقلب الألفاظ كيف يشاء.

هذا التفريق مهم جدًا في ما بين العلماء الراسخين وممن يشتبه بهم، ولذلك بد أن يقود العمل الإسلامي القادة الربانيون وعلى رأسهم العلماء الراسخون.

إن الشريعة الإسلامية أعطت اعتباراً للعلماء، وبنته على أمرين مهمين:

---

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص(232).

(2) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص(33).

1 - طاعتهم طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ، فالتزام أمرهم واجب.

2 - أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها، بل هي تابعة لطاعة الله ورسوله ﷺ.

والأدلة على هذه المنزلة، وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة غير منحصرة، فمنها: قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59].

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منهم على أقوال:

فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما)[1].

إن وضع الثقة في العلماء الربانيين لخطوة مباركة في ترشيد الأمة التي تسعى نحو تحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

إن القيادة الربانية، والتي على رأسها العلماء الذين وصلوا إلى درجة النظر في فقه الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم الذين يجب أن يقودوا الأمة نحو مرضاة الله.

إن أعداءنا من اليهود، والنصارى، والملاحدة والعلمانيين، أيقنوا أن من أسباب قوة المسلمين التفافهم حول علمائهم وقادتهم، ولذلك شنوا هجوماً عنيفاً من أجل زعزعة ثقة الأمة في علمائها وقادتها واستعملوا أساليب متنوعة للتشويه والطعن فيهم؛ لأن العلماء هم الوصلة الحقيقية بين الأمة، وقرآنها وسنة نبيها ﷺ.

وقد لاحظ الاستعمار الأوروبي الحديث ذلك، وما الثورات التي فجرت الاستعمار إلا بقيادة العلماء والقادة الربانيين، من المغرب إلى المشرق وفي كل ديار المسلمين ولذلك قام اليهود والنصارى والملاحدة بتشويه صورة القادة والعلماء بواسطة المسرح والتلفاز والمجلة والجريدة، والنوادي، والغناء، وكل وسائل الإعلام، وإذا أردت أن تعرف هجومهم الإعلامي ابتداء من العقود الماضية، فلتراجع كتاب «المشايخ والاستعمار» للأستاذ حسني عثمان، فإنه أجاد.

---

(1) انظر: أعلام الموقعين، (1/10).

إن القيادة الحكيمة وهي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، وإقامة دولة الإسلام توقن إيقاناً جازماً أن المجتمع لن يكون إسلاميًا بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك، أو رئيس، أو مجلس قيادة، أو برلمان، إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، والإعداد، والتهيئة الفكرية، والنفسية، والأخلاقية، والاجتماعية، وإقامة البدائل الإسلامية للأوضاع الجاهلية التي تأسست عليها مؤسسات عدة لأزمنة مديدة.

فهي تعين الهدف، وتضع الخطة، وتحدد المراحل بوعي وصدق، بحيث تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتخطيط، وتنظيم، وإرادة قوية، معتمدة على الله تعالى حتى تصل المسيرة إلى مرحلة النهوض الشامل لدولة الإسلام المنشودة.

إن القيادة الربانية الحكيمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعطي للعلوم بأنواعها أهمية، وخصوصاً في علوم الشرع، وتركز على علم المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه الخلاف وفقه الأولويات، وفقه السنن الربانية، لأهميتها في زماننا هذا؛ بل هي من أفضل العدة بعد تقوى الله تعالى للعاملين من أجل تحكيم شرع الله[1].

إن القيادة الربانية الحكيمة هي التي تفجر طاقات الأمة، وهي التي تحتضن الإسلام وتتهجه قلباً وقالباً، عقيدة وشريعة، وديناً ودولة، هي التي تصبح وتمسي وهمها عقيدتها وأمتها، وهي التي تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التي تواجهها، وتعمل بكل جهد، وإخلاص للقضاء على عوائق النهوض الداخلية والخارجية.

إن العمل لبناء الأمة، وإحياء الشعوب يحتاج لمعرفة بالسياسة الشرعية، وأمور الجهاد، والهدنة، والمصالح والمفاسد، وغير ذلك من الأحكام التي تتناول مظاهر الحياة، وهذه العلوم من لها إن لم يكن العلماء الربانيون لها؟.

رابعاً - قسم الجمهورية والبلاغات:

لم يستطع بعض أعضاء مجلس الشورى الاجتماع، بل كان بعضهم غائباً، وإنما انتخب توزيعاً للمسؤولية وتحقيقاً للمساواة والوحدة بين جميع القبائل.

وقبل الانصراف من المسجد أقسم الحاضرون جميعاً يمين الولاء والإخلاص للجمهورية، وتوكيداً لليمين أحضروا مصحفاً وكل من أراد اليمين وضع يده عليه وهذا نص اليمين:

(أقسم بالله العظيم قابضاً بيدي على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسي ومالي فداء

---

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص(240).

لوطني، وحكومتي الجمهورية الطرابلسية، وأن أكون لعدوها عدوًا ولصديقها صديقاً، ولقانونها الشرعي مطيعاً)[1].

ثم وزع الأمير عثمان بعض النياشين والرتب على أعضاء الجمهورية وكثير من الأعيان والوجهاء. ومن هذا التاريخ أصبحت الحكومة الجمهورية الطرابلسية قائمة وأصبح لها عهد في عنق كل طرابلسي يحميها مما يحمي منه نفسه وماله، وأصبح واجب عليه الالتزام بما أقسم عليه من الولاء والإخلاص[2].

أ - بلاغات الجمهورية:

وكان أول ما قام به مجلس الإدارة من الأعمال أنه أذاع بلاغه الأول على أبناء الشعب الطرابلسي عن قيام الجمهورية الطرابلسية، وذيل بتوقيعات الأعضاء الأربعة بمجلس الإدارة وكان هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(في الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك، الثالث عشر من شهر صفر سنة 1337 هـ قررت الأمة، تتويج استقلالها بإعلان حكومة الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء، وأشرافها وأعيانها، ورؤساء المجاهدين المحترمين، الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الجمهورية، وإن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة لاستقلالها الذي اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها منذ سبع سنين، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي أشرف ما تصل إليه الأمم، وتهنىء أبناءها بتمام نجاحهم واتحادهم على الثبات في الدفاع عن وطنهم وحكومة الجمهورية الجديدة والتوفيق من الله تعالى وحده).

13 صفر سنة 1337هـ

سليمان الباروني، أحمد المريض، رمضان الشتيوي، عبد النبي بالخير[3]. وفي أثناء إعلانات البلاغات السياسية عن الجمهورية، كانوا قد اختاروا المتصرفين والقائمقامين، ونقل بعضهم، وعين موظفي المناطق، وعين الموظفين للعمل بمجالس الجمهورية، كما عين لقيادة الجيش الجمهوري اللواء الفخري عبد القادر الغناي وهو من بنغازي، ولكنه لم يكن من المقدرة القتالية المطلوبة، وبلغ من ضعفه أن سلم الزاوية الغربية للطليان في أول يناير 1919م[4].

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(226).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(227).
(3) انظر: رمضان السويحلي، محمد مسعود، ص(199، 200).
(4) انظر: جهاد الأبطال، ص(228).

ب - البلاغ الثاني:

كان البلاغ الثاني إلى الضباط الوطنيين:

(إلى حضرة الوطني

بما أن جنابك وطني صادق، ومجاهد في سبيل الدين والوطن، منذ ابتداء الحرب الطرابلسية فإننا ندعوك إلى تقديم طاعتك لحكومتك الجمهورية الجديدة والقيام بما نقلدك إياه من الخدمة والدفاع عن شرف الوطن حتى تنال منها شرف الاحترام والترفيع وتبرهن للعالم أنك ابن الوطن العزيز وأحد رجاله الذين سيحفظ لهم التاريخ ذكرهم المجيد)[1].

ج - البلاغ الثالث إلى رئيس الحكومة الإيطالية:

(تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري وانتخاب نواب عنها من كافة أنحاء القطر لمجلسي الحكومة والشورى ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة، ولا تقصد إلا أن يعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الأمم التي لا تحاول غصب حقوقها لذلك فالحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها، وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع)[2]

13 صفر سنة1337هـ

ملحق:

إذا قبلت المواد الآتية ووضعت موضع الإجراء فالحكومة الجمهورية الطرابلسية مستعدة للبحث مع الحكومة الإيطالية في عقد صلح طبقاً للقواعد الآتية:

1 - في حالة دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة.

2 - لا تقرب السفن الحربية السواحل غير المحتلة بالعساكر الإيطالية.

3 - لا تتجاوز الطائرات حدود الاستحكامات.

4 - لا تقع مخابرة خصوصية مع أي أحد كان لا من جهة المناطق الحربية ولا من غيرها.

5 - يقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالأهالي من طرف الحكومة الإيطالية كأخذ وإعطاء البضاعة وتوزيع الإعلانات على أي صورة وبأي طريقة كانت.

(1 - 2) انظر: جهاد الأبطال، ص(228).

6 - المخابرات الرسمية والدخول والخروج لا يكون إلا من الموقع الذي يصير تعيينه في منطقة الخمس من طرف الحكومة الطرابلسية.

7 - الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة في شؤونها وحركاتها تمام الاستقلال، وغير مقيدة بأي شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به لحكومة إيطاليا في طرابلس.

8 - ضباط الترك والألمان الموجودون في داخل طرابلس هم بمنزلة ضيوف عند الحكومة الطرابلسية، ولا تسمح بسفرهم إلا بصورة تكفل منفعة وشرف الأمة الطرابلسية وحكومتها الجمهورية.

9 - بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق في إظهار حقوقها للعالم الإنساني وبالخصوص الحكومات الموجودة قناصلها في مدينة طرابلس مثل إنكلترا، وفرنسا، وأمريكا فعلى الحكومة الإيطالية قبول وتوصيل ما يرسل من الحكومة الطرابلسية إليها بدون اطلاع عليه، وأخذ سندات من القناصل المذكورين، وإرسالها إلى الحكومة الطرابلسية حتى لا تضطر إلى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة.

10 - المخابرة مع الحكومة الإيطالية لا تجوز إلا تحريراً ولا يعتبر أي كلام شفهي[1].

13 صفر سنة 1337هـ

الإمضاءات

د - البلاغ الرابع: إلى الرئيس ولسن:

(نتشرف بأن نعرض على فخامتكم أن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها حكومة وجمهورية. وفي 16 نوفمبر 1918م تم انتخاب مجلس شوراها، ومجلس جمهوريتها.

إن قواعدكم المشهورة بالنسبة لمقدرات جميع الأمم سواء كانت في أوروبا أو خارجها قد شجعتنا على أن نضع آمالنا في مقاصدكم العظيمة ونواياكم العالمية الإنسانية.

إنه ليس هناك حد للحقوق والواجبات البشرية لذلك فإننا متأكدون من أنه لا يمكنكم أن تنظروا بعدم الاكتراث إلى استعباد أمة صغيرة بقوة السلاح مثل أمة طرابلس وهي تقاتل لثامن سنة ضد الغاصب المعتدي بكل متانة وهي متأكدة من أن بسالة أبنائها قادرة على أن ترد قوات المعتدين عليها في كل زمان.

وإننا نؤمل أن عواطفكم السامية نحو الحكومات والأمم الصغيرة الحية ستحثكم على أن تمنعوا تكرار سفك الدماء بيننا وبين الطليان بتكليفهم بالاعتراف بحكومتنا.

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(228، 229).

وفي الختام نرجو قبول احترامنا ووضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومي).

هـ - البلاغ الخامس: إلى رئيس الوزراء الإنجليزي:

نتشرف بأن نحيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها الحكومة الجمهورية. وفي 16 نوفمبر سنة 1918م أعلنت نتيجة انتخابات مجلسي شوراها ومجلس جمهوريتها.

(ليس بين الأمم من هو جدير بحريته واستقلاله أكثر من الأمة الطرابلسية التي تقاتل إلى الآن ثمان سنوات ضد غاصب أرضها وحريتها، وإننا لا شك في أن إحساساتكم العالية نحو حرية الأمم والحكومات الصغيرة، كما أن غيرتكم على حماية العرب تجبركم على العطف على جمهوريتنا الجديدة الحرة. وإننا نؤكد لكم أيضاً أن قومنا وضعوا جلّ آمالهم في إنكلترا حامية حقوق الأمم الصغيرة، فرجاؤنا أن تتفضلوا بوضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومية حتى تنال جمهوريتنا ما يضمن لها مستقبلها. والمرجو قبول عظيم احترامنا)[1].

و - البلاغ السادس: إلى رئيس الجمهورية الفرنسية:

(نتشرف بأن نحيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري. وفي 16 نوفمبر سنة 1918م أعلنت نتيجة انتخاب مجلسي الجمهورية والشورى.

إن ما قامت به فرنسا الحرة من نشر إعلان الحرية في العالم وتكبدها كل الصعوبات في سبيل حمايتها لا يجهله أحد، وإنه لمكتوب على صفحات القلوب بمداد الحياة تتغذى به أرواح الأحرار في كل الأقطار لا ينسخه توالي الدهور ولا تمحوه زلازل الحروب.

إن ما قام في هذا العصر بطلب حريته سواء كان بسيفه أو قلمه فإنما هو مستمد من منبع الحرية الزلال، ومقتبس من سناها الساطع، ومغترف من بحرها الطافي، ومستخرج من معدنها الصافي (قاعدة فرنسا الحرة) فلا عجب إذا قامت الآن فرنسا لحماية الأمم الصغيرة، كأمة طرابلس الغرب التي ما برحت تريق دماء أبنائها منذ سبع سنين وزيادة في سبيل نيل حريتها واستقلالها ورد جيوش إيطاليا الغاصبة لأرضها المعتدية على شرفها.

إن الأمة الطرابلسية التي لا تجهل تاريخ فخرها القديم لم ترض أن تساق الآن بعصا الذل

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(230).

والهوان، وأن تُستعبَد في زمن مادت فيه الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بالحروب الهائلة لأجل تحرير بني الإنسان.

إن كل من يتتبع التاريخ بإنصاف يجد أن الأمة الطرابلسية لم تملكها دولة من الدول، كما تملك البلاد ملكاً مطلقاً، بل لم تزل منذ خلقت أو عرفت بين الأمم في مناضلة كل من يقصد استعبادها سواء كان من الدول الإسلامية أو المسيحية وكانت ولا تزال تفضل الجلاء وسكنى القفار على تحمل الضيم والاحتقار.

وها هي أطلال بلادهم الخالية بادية، وأنسابها المنتشرة شرقاً وغرباً شاهدة؛ فعسى الأمة الإيطالية وراء استعبادها الآن هو ضرب من طلب المستحيل، ولو راجعت تاريخ أجدادها، وأجدادها القدماء لرأت فيه ما يصدها الآن عن سفك الدماء.

لذلك تؤمل حكومة طرابلس الجديدة من جارتها الجمهورية الفرنسية أن تنظر إلى المسألة الطرابلسية بنظرة الاهتمام والاعتبار، وأن تعني بوضعها على بساط مذكرات الصلح العمومي، وأن تقنع حليفة ألمانيا القديمة وحليفتها هي الآن حكومة إيطاليا بالاعتراف بحقنا المشروع، حتى يقف تيار إراقة الدماء بين الأمتين، وتستريح البلاد والعباد، وتنال البلاد الطرابلسية نصيبها من هذه الراحة أيضاً فإن منفعة البلدين ومضرتهما واحدة)[1].

وقد أرسلت هذه البلاغات إلى الحكومات الموجهة إليها ممضاة كلها بإمضاءات أعضاء الجمهورية. وعين موظفو الإدارة في جميع أنحاء القطر، وانصرف الأعضاء والموظفون كل إلى عمله[2].

وهذه البلاغات تدل على اهتمام زعامة الجمهورية بالدول الكبرى، وحرصها على استمالتها والوقوف معها ومحاولة انتزاع الاعتراف بها، ولكن يبدو أن تلك البلاغات لم تجد تجاوباً من أمريكا وفرنسا وبريطانيا وذهبت في أدراج الرياح واستنكرت إيطاليا إعلان الجمهورية الطرابلسية، وعندما تلقى الإيطاليون بلاغ الجمهورية، أعلنوا فوراً أن دولتهم ترفض بكل تصميم الاعتراف بقيام واستقلال الجمهورية الطرابلسية، ولا تسلم لها بشيء مما جاء في البلاغ الموجه إليها والمواد الملحقة به، بل ليس لها من جواب على ذلك سوى استئناف الحرب الضارية معها إلى أن تخضع البلاد لحكمها بالقوة[3].

ومارست إيطاليا القوة ضد الطرابلسيين، ولكن بدون جدوى، واضطرت لدخول

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(232).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: رمضان السويحلي، ص(202).

مفاوضات تمّ تتويجها بانعقاد صلح «سواني بنيادم» وعقد ذلك الصلح في ليلة 17 إبريل 1919م في قرية «سواني بنيادم»، غرب مدينة طرابلس نحو 12 كم، واعتبر الطرابلسيون ذلك الصلح انتصاراً سياسيًا وحربيًا على خصمهم المتعجرف العنيد، وأصدرت إيطاليا القانون الأساسي، الذي جعل الفرد الطرابلسي، في مصاف الفرد الإيطالي في الحقوق السياسية والاجتماعية(1).

وعلق غرسياني على فوز العرب بهذا القانون فقال: (تلاشى به كل أمل لسيادتنا الفعلية على طرابلس، وأصبح السبيل ممهداً للطمات شديدة نتلقاها.. وقد كان من جانبنا تسليماً حقيقًا، وهذا الدستور يمنح عرب طرابلس تفوقاً وامتيازات مدنية وسياسية واسعة، دون أن يتحملوا - كما هو الحال في البلاد المتمدنة - أعباء واجبات ثقيلة، في مقابل ممارسة الحرية بمفهومها الحديث)(2).

خامساً - القواعد الأساسية للقانون:

والقانون الأساسي أو الدستور، اشتمل على أربعين فصلاً ولكن قواعده الأساسية ارتكزت في 16 مادة منه ونصها حرفيًا كما يأتي:

1 - تسمى الحكومة (حكومة طرابلس الغرب).

2 - يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة، مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسي من بين أعضائه، ومن عضوين إيطاليين ينتخبهم النائب العام.

3 - يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطات الملكية والعسكرية، معين من جانب ملك إيطاليا (لم يحدد القانون الحاكم فقد يكون عربيًا وقد يكون إيطاليًا).

4 - يسن قوانين البلاد مجلس ينتخبه الأهالي، يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتمدنة من سلطات وحقوق، وتكون مدته أربع سنوات، كلما جدد انتخابه، جدد مجلس الحكومة من بين أعضائه.

5 - لا تنفق ضرائب البلاد إلا فيها، حسبما يقرره مجلس نوابها في وصفها وتوزيعها وجبايتها.

6 - لا يطبق من القوانين الإيطالية في طرابلس إلا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسي. ويوافق عليه لمصلحة البلاد.

7 - ينظم من أبناء البلاد جند وطني بالتطوع حسبما تقتضيه الحاجة وقائده هو الحاكم العام.

8 - للوطنيين حق التوظف في الوظائف ملكية وعسكرية وقضائية وصحية وغيرها بالامتحان.

(1) انظر: رمضان السويحلي، ص(202).

(2) انظر: نحو فزان، ص(26).

9 - التعليم الأهلي حر تحت إشراف الحكومة.

10 - اللغة العربية رسمية كاللغة الإيطالية.

11 - ينتخب الأهالي رؤساء البلديات في العاصمة والملحقات.

12 - يؤلف مجلس شرعي تستأنف إليه الأحكام الشرعية، وهو يعين القضاة.

13 - للطرابلسيين الحائزين على شهادات عالية، الحق في مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها في إيطاليا كما هو في طرابلس.

14 - الطرابلسي والإيطالي متساويان في الحقوق.

15 - الأوقاف تدار بمعرفة هيئة إسلامية.

16 - تراعي حرية الدين والتقاليد الوطنية كما في السابق.

وختمت مواد الدستور أو القانون الأساسي البالغ نيفاً وأربعين فصلاً بتوقيعات الآتي أسماؤهم:

عن الطرابلسيين: سليمان الباروني - أحمد المريض - رمضان الشتيوي - أحمد الصويعي نيابة عن عبد النبي بالخير.

وعن الطليان: الجنرال ماجور تارديتي، رئيس الدائرة السياسية، الجنرال (باسكانو) رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيطالي[1].

كانت إيطاليا تريد تخدير الرأي العام في إيطاليا الذي سئم من الحروب وويلاتها وأصبح الشعب بعد خروجه من الحرب العالمية الأولى محطم القوى، مهيض الجناح، لما تكبده من خسائر فادحة في إمكاناته الحربية، والعسكرية، والاقتصادية، مما جعل الرأي العام ينادي بنبذ الحروب، والاستعمار، وتزعم الحزب الاشتراكي الإيطالي هذه الدعوة، وعارض الحكومة في البرلمان.

وكانت الحكومة الإيطالية موطدة العزم سيراً على نقض العمل بالقانون الأساسي، ببث الدسائس والفتن بين الزعماء في الظروف المناسبة لذلك، ثم إخضاع البلاد لحكمها والقضاء على الجمهورية[2].

كان مما جاء في القانون الأساسي الاعتراف بحكومة وطنية مقرها مدينة طرابلس وقد شكلت من ثمانية أعضاء وصدر أمر من الوالي الإيطالي بتعيينهم، وهذا نصه:

(1) انظر: رمضان السويحلي، ص(209).

(2) انظر: رمضان السويحلي، ص(210).

(إن والي طرابلس بعد اطلاعه على فصل 23، 24 من قانون أساسي القطر الطرابلسي الصادر بتاريخ أول جونيو سنة1919 عدد 931. وإنما أنه في التحرير المؤرخ 3 سبتمبر الجاري المتقدم من أحمد بك المريض إلى الحكومة قد صار عرض الثمانية الوطنيين المنتخبين أعضاء في مجلس الحكومة. وأن هؤلاء الثمانية قد صار تقديمهم علناً بمراسم احتفالية إلى الوالي من طرف رمضان بك شتيوي الذي كان برفقته جمع كثير من رؤساء وأعيان القطر الطرابلسي. وحيث إنه من التحرير والمبحوث ومن الاحتفال الواقع تحقق أن العرض المذكور حصل باتفاق من رؤساء جهات طرابلس المختلفة يأمر بما يأتي:

إن الذوات الآتي ذكرهم قد صار تعيينهم أعضاء لمجلس حكومة القطر الطرابلسي:

عمر بك أبو دبوس. أحمد بك شتيوي.

علي بك الشنطة. أحمد بك الفسّاطوي.

محمد الصويعي بك. الحاج محمد فكيني بك.

محمد بك ابن الفقيه حسن.

وسيصير تعيين مخصصاتهم بأمر آخر[1].

حرر بطرابلس في 4 ديسمبر سنة 1919م.

صورة مطابقة للأصل الوالي

صار الاطلاع عليه كاتب الوالي الوالي

الوالي طابع الحكومة الإمضاء: متير نيجر

طابع الحكومة

واجتمع مجلس الحكومة في مدينة طرابلس وصارت مراكز القطر كلها مربوطة به، وحاولت هيئة الحكومة أن تباشر أعمالها في دائرة سلطاتها. ولكن الطليان سرعان ما شرعوا في الدسائس، وظهرت بوادر تشير إلى عزمهم على عدم الوفاء للطرابلسيين بالحقوق التي اعترفت لهم بها في القانون الأساسي، ودليل ذلك:

1 - أنه على الرغم من مطالبة الزعماء لهم بأن يخصصوا مكاناً للمجلس النيابي، وآخر لمحل الحكومة الوطنية، فإنهم صاروا يسوفون لاستجابته بأقوال وأعذار كاذبة.

2 - بينما أصر الأعضاء العرب في مقابلة الوالي، بأن تكون أصوات نوابهم في المجلس النيابي، قرارية حسب المادة (15) من القانون الأساسي، إذا الوالي يرفض التسليم لهم بهذا

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(264).

الرأي، ويعتبر أصواتهم فيه استشارية، ومعنى هذا أنه غير ملزم بتنفيذها، ولما استقال أربعة أعضاء من الحكومة الوطنية وهم: (مختار كعبار - أحمد الشتيوي - عمر أبو دبوس - محمد الفقيه حسن)، احتجاجاً على اعتبار أصوات النواب استشارية لا قرارية، وجد الطليان استقالتهم فرصة ذهبية، لإلغاء عضوية الأربعة الآخرين رغم رضاء هؤلاء بأن تكون أصواتهم استشارية.

3 - لما رأوا الجيش الوطني قد تمركز مع رمضان في سواني المشاشطة لكي يتخلصوا من مقاومته لهم في المستقبل، بذلوا كل مساعيهم وجهودهم بواسطة عملائهم، لإغرائه بالانضمام إلى الجيش الإيطالي، ونزوله معه بثكناته في المدينة، بزعم أن القانون الأساسي وحد بين الطرفين العربي والإيطالي في كل الأمور[1].

سادساً - حزب الاصطلاح وجريدة اللواء:

في 30 سبتمبر سنة 1919م أعلن الطرابلسيون رسميًا عن تأسيس حزب الإصلاح لأجل الدفاع عن مكاسب البلاد، وإيقاظ الوعي الجماهيري السياسي، وأسندوا رياسته إلى أحمد بك المريض، ورياسة شرفه إلى رمضان بك، وكان من أعضاء هذا الحزب النشيطين عبد الرحمٰن عزام، وخالد القرقني، وعثمان الغرياني مدير جريدة (اللواء الطرابلسي) وكانت أهم مبادىء الحزب:

1 - المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة في القانون الأساسي كاملة.

2 - التعجيل بتنفيذ القانون الأساسي، خصوصاً ما يتعلق بالإصلاح، وما ينص على تدريب الطرابلسيين على حكم أنفسهم حتى يصلوا إلى حريتهم في أقرب وقت.

3 - تحقيق التضامن بين العرب والإيطاليين على أساس المساواة التامة واتحاد المصالح.

4 - نشر التعليم بكل الوسائل، مع المحافظة على العادات الإسلامية لتدعيم الأخلاق العربية.

5 - بذل العناية لإصلاح الحالة الاقتصادية وتوزيع الثروة الوطنية على أساس عادل.

وأنشؤوا جريدة اللواء الطرابلسي لتكون لسان حاله. وكان الحزب يستمد قوته من الشعب، واستندت الحكومة الوطنية على الحزب في تأييدها وإقناع الطليان بمطالبها، وأبدى الطليان مراوغة في انتخاب مجلس النواب الذي ينص عليه القانون الأساسي، فكان حزب الإصلاح الوطني يطالب بتنفيذه، وكانت جريدة اللواء الطرابلسي تشير إلى هذا المعنى في جرأة وشجاعة فائقة، فكانت الحكومة الوطنية، والحزب الوطني والجيش الوطني يؤيد بعضها بعضاً في المطالبة بحقوق الأمة وإلزام الطليان بتنفيذ القانون الأساسي، ورأى الطليان خطورة

(1) انظر: رمضان السويحلي، ص(219).

الموقف، فعملوا على إفساد هذا الصلح[1]، وشرع الوالي الإيطالي وأعوانه يبذرون بذور الشقاق بين الزعماء ويديرون حملة عدائية ضد القادة ويحركون كوامن الحقد والعداء[2].

يقول الأستاذ التليسي عن تلك الفترة: (ففي مجال العمل السياسي عملت إيطاليا على إثارة الفتنة والانشقاق والانقسام بين صفوف الزعماء، وسعت إلى استمالة بعض الفئات وتأليبها على الفئات الأخرى، وكان أهم ما توخته في هذه الفترة العمل على إحداث انقسام بين مصراته وورفلة، وبين ترهونة ومصراته، ثم بين زعماء الجبل الغربي، ولا مناص من الاعتراف بأن السياسة الإيطالية التي فشلت عسكريًا في هذه المرحلة التي أعقبت القرضابية قد نجحت نجاحاً كبيراً في إحداث الصدع بين الصفوف، بحيث لم تستأنف العمليات في عهد (فولبي) إلا بعد أن أوجدت من ذلك الانقسام قاعدة كبيرة تعتمد عليها عملياتها[3].

لقد انتهز الإيطاليون فرصة المهادنة ليلقوا بذور الفتنة بين العرب والبربر من جهة، وبين البدو والحضر من جهة أخرى، وبين سكان البلدان المتجاورة أيضاً، واشتغل بعض الزعماء المخلصين بإخماد نار الفتن ومحاولة رتق الفتوق في كل جهة، ولكن الخروق اتسعت على الراقع، وكلما حاول دعاة الإصلاح إطفاء نار الفتنة من جهة أوقد الإيطاليون ناراً أخرى من جهة أخرى، ونفخوا في جمرها من جديد[4].

وكانت من أكبر الفتن الحرب الطاحنة بين الزنتان والبربر فقدت بها طرابلس من أبنائها ما لا يعلم عدده إلا الله، وقعت الحرب الأولى بينهم سنة 1916م وخلفت من الضغائن بين الفريقين ما كان سبباً من أكبر الأسباب في الحرب الثانية التي دارت رحاها في سنتي 1920م، 1921م[5].

استغل الإيطاليون ذلك الصراع وتلك الفتن وتحركت جيوشهم للقضاء على الطرابلسيين، فاحتلوا يفرن في 31 أكتوبر سنة 1922م وكان معهم من الليبيين العملاء الذين انضموا إلى الجيش الإيطالي عدد كبير، وفي 17 نوفمبر 1922م احتلت غريان وبدأت المدن تتساقط أمام الجيوش الإيطالية، وانتهى الصراع بين مصراته وورفلة بمقتل رمضان السويحلي في عام 1920م. لقد كانت فترة ما بعد صلح بنيادم 1919م من أتعس الفترات التي مر بها التاريخ الليبي المعاصر، فترة سواد يتحاشى المؤرخ الحديث عنها.

لم تستطع الحكومة الوطنية التي تكونت بعد الصلح أن تصنع شيئاً، وكل ما تقرره لا

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(226، 267، 268).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(252).
(3) انظر: معجم المعارك، ص(58، 59).
(4) انظر: عبد النبي بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، ص(112، 113).
(5) انظر: جهاد الأبطال، ص(285).

ينفذ؛ لأن الزعامات كانت تتناحر داخلها، وذلك لا يستغرب من حكومة في جمهورية لها أربعة رؤساء.

وهكذا ولدت الجمهورية وفي جسمها جراثيم هلاكها، إذ أن جمهورية يحكمها أربعة، لا بد أن تغرق سفينتها بمجرد إقلاعها من الشاطىء، فتعدد الربانية مدعاة لإغراق السفينة[1].

وقد صور الأستاذ خليفة التليسي تلك الفترة المظلمة فقال: (يلاحظ أن هيئة الإصلاح المركزية لم تكن حكومة بالمعنى المفهوم للحكومة، وأن كثيراً من المناطق قد ظلت غير خاضعة لحكمها ونفوذها، كما أن بعض الزعامات قد ظلت محافظة على موقفها الفردي، وكانت تستقل في كثير من الحالات بتقدير الوضع السياسي على أساس جهوي، وبما تقتضيه مصلحة منطقتها أو مقاطعتها، وأحياناً قبيلتها وعشيرتها، مما انعدم معه عنصر الوحدة الوطنية الملزمة بالموقف الموحد، خاصة في هذا الظرف العسير، بحيث يعد الخروج عليه أو التخاذل عنه خيانة تحسب على الخارج أو المتخاذل، وكانت هذه هي الثغرات التي نفذ منها الإيطاليون واستطاعوا استغلالها أحسن استغلال، وقد فطن الوطنيون إلى الخطر الكامن وراء انعدام توحد القيادة، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، وقد نتج عن ذلك تعدد في المواقف واختلاف في وجهات النظر، وترك الأمر للاجتهاد الخاص يحدد الموقف ويرسم الطريق، فرأينا بعض الزعماء يعارضون - عن اجتهاد خاص - المقاومة المسلحة لإيطاليا عقب نزولها بقصر أحمد، ورأينا آخرين يقفون على الحياد، كأن الأمر لا يتصل بهم من قريب أو بعيد، ورأينا بعضهم يتشبث بأن يكون صاحب الكلمة النهائية في إبرام الهدنة، نظراً لأن الاعتداء واقع على أرضه (بالمعنى الجهوي)، وهكذا تحددت مواقف الزعماء في تاريخنا في كثير من الحالات على أساس جهوي، وكان لكل جهة صاحب يتولى أمرها ويقرر مصيرها ويحدد موقفها، وانعدام القاعدة السياسية قد عرض مواقف الزعماء وشخصياتهم لكثير من الخلخلة والاهتزازات)[2].

سابعاً - مؤتمر غريان:

بعد التطورات الخطيرة والانشقاقات العظيمة، التي وقعت بين الزعماء، رأى عقلاء طرابلس الاجتماع في مؤتمر عام ليتدارسوا الأوضاع الراهنة، ويتخذوا حيالها موقفاً مشتركاً.

اجتمع المؤتمر في شهر ربيع الأول 1339هـ، نوفمبر سنة 1920م بعد أن اختار كل بلد من يمثله ما عدا بلاد البربر وأسفرت النتيجة عن انتخاب:

أحمد بك المريض رئيساً

---

(1) انظر: عبد النبي بالخير، ص(103).

(2) انظر: عبد النبي بالخير، ص(121).

الأستاذ عبد الرحمٰن بك عزام	مستشاراً
محمد بك فرحان	عضواً
الصادق بك الحاج	عضواً
عمر أبو دبوس	عضواً
صالح بن سلطان	عضواً
التهامي قليصة	عضواً
الشيخ أحمد الرحيبي	عضواً
العيساوي بو خنجر	عضواً
محمد التايب	عضواً
عثمان القيزاني	عضواً
علي بن تنتوش	عضواً
مختار كعبار	عضواً
عبد الرحمٰن زبيدة	عضواً
الحاج محمد بن عمر	عضواً
عبد السلام الجدايمي	عضواً
نوري السعداوي	عضواً
بشير السعداوي	عضواً
حسين بن جابر	عضواً
سالم البحباح	عضواً
الصويعي الخيتوني	عضواً

وقد اختار المؤتمرون أحمد بك رئيساً للمؤتمر وكانت الظروف إذا ذاك تتطلب ذلك، فرمضان السويحلي قتل، وسليمان الباروني امتنع عن الحضور؛ لأنه كان متأثراً بالحرب التي وقعت بين الزنتان والبربر، وأرسل إليه أحمد بك المريض بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر بأنه مستعد للتنازل له عن الرياسة فأبى وحاول المؤتمر إقناعه فامتنع، واستمر المؤتمر في أعماله الوطنية، وامتنع عبد النبي بالخير عن الحضور بسبب مقتله لرمضان السويحلي، ومثل أرفلة عبد الرحمٰن زبيدة ومحمد العيساوي(1) وأصدر المؤتمر بعد انتهاء جلساته قراراً هذا نصه: (إن الحالة التي

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(299، 300).

آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامي بزعامة مسلم ينتخب من الأمة ولا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية، بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة)[1].

وانفض المؤتمر، وأبلغ قراراته إلى الحاكم الإيطالي في طرابلس وقرر إرسال وفد إلى روما ليطالب بتنفيذ قراراته.

وكان الوفد يتكون من: محمد بك فرحات الزاوي رئيساً، ومحمد نوري السعداوي، والصادق بن الحاج، وخالد القرفني، وعبد السلام البويصري.

واستطاع هذا الوفد أن يتصل برؤساء الأحزاب في إيطاليا ومحرري الجرائد، وتمكن من إعلان قضيته في بعض الجرائد وامتنعت الحكومة وأصحاب القرار عن الاجتماع بهم، وقام والي طرابلس بإرسال وفد ليبي لوفد غريان، وأسفرت نتيجة الوفد الوطني عن الرجوع بخفَّيْ حنين، وتأزم الموقف بعد رجوع الوفد، وقام الطليان بنشاط عسكري، لمقاومة الروح الوطنية، واعتقلوا أناساً من حزب الإصلاح الوطني[2].

كانت الفتنة بين طرابلس وبرقة قد اشتدت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحصل فتور بين البرقاويين والطرابلسيين استمر لمدة خمس سنوات، وترتب على ذلك تعدٍّ على الأموال والأشخاص[3].

وكان عقلاء طرابلس وبرقة لا ترضيهم تلك الحالة المزرية التي لا يرضى عنها عقل، ولا شرع ولا عرف، وبادر السيد أحمد المريض بإرسال رسالة لأخيه الأمير محمد إدريس السنوسي، وكانت مليئة بالمعاني الرفيعة والعبارات السامية، ورد على تلك الرسالة الأمير محمد إدريس وترتب بعد ذلك اجتماع سرت العظيم[4].

ثامناً - اجتماع سرت:

اجتمع الوفدان الطرابلسي والبرقاوي في سرت، وكان يمثل الوفد الطرابلسي كل من أحمد بك السويحلي، وعبد الرحمٰن بك عزام، وعمر بو دبوس، ومحمد نوري السعداوي، والشتيوي بن سالم، والصويعي الخيتوني، والحاج صالح بن سلطان، ويمثل برقة كل من:

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(301).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(303).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(304).
(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(256).

الشيخ صالح الأطيوشي، والشيخ نصر الأعمى، والشيخ خالد القيصة، والشيخ صالح السنوسي بن عبد الهادي البرّاني، وشرع المجتمعون في استعراض الحال التي وصلت إليها البلاد، ومعالجة أسباب الخلاف وخرجوا بهذه القرارات التي اتفق عليها ممثلو طرابلس وبرقة.

(الحمد لله المبدىء المعيد، الفعال لما يريد، ألف بين قلوب المسلمين وجعهلم خير أمة للعالمين، والصلاة والسلام على رسول الهدي والرحمة الذي جاء يدعونا إلى العزة والإباء، ويعلمنا كيف نقاتل الأعداء وبعد: فقد اجتمعنا نحن الموقعين على هذه المعاهدة المفوضين من قبل طرابلس وبرقة، وقررنا بعد مداولة الفكر المواد الآتية المتضمنة اتفاق القطر الطرابلسي البرقاوي على الاتحاد والتعاون في السراء والضراء:

1 - يجب أن نوحد كلمتنا ضد عدونا الغاصب لبلادنا وضد المفسدين.

2 - يجب أن يكون عدونا واحداً وصديقنا واحداً.

3 - إن كافة ما وقع بين الطرفين من التجاوز لا يطالب به أحد الآخر إلى أن تستقر الحالة في الوطن، وتتعين وضعيّة البلاد العمومية. ومع ذلك يجب أن يسعى الطرفان في المسامحة بين العربان، ومن يتعدى بعد الآن فعلى الحكومة التابعة لها أن تعاقبه بما يستحق.

4 - كل من يخالف الجماعة ويدس الدسائس الأجنبية، على الحكومة المنسوب إليها إعدامه ومصادرة أمواله حسب الشريعة الإسلامية.

5 - يرى الطرفان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضي بتوحيد الزعامة على البلاد، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة.

6 - يتخذ الطرفان الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الغاية المذكورة في المادة الخامسة، وأن تكون تولية الأمير بإرادة الأمة.

7 - متى تحقّقت الغاية المذكورة في المادة الخامسة يجب انتخاب مجلس تأسيسي من الفريقين لوضع القانون الأساسي والنظم اللازمة لإدارة البلاد، وقبل ذلك، وتمهيداً لهذه الأعمال، يجب على الفريقين أن يرسل كل منهما مندوباً للبلدين لأجل أن يشتركا في سياسة البلاد والتدابير المقتضاة للدفاع عن الوطن.

8 - يتعهد الطرفان بألا يعترفوا للعدو بسلطة، وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الأماكن المتحصن بها الآن، وفي حالة وقوع حرب يتضافر الفريقان على حرب العدو، وألا يعقد صلحاً أو هدنة إلا بموافقة الفريقين.

9 - إذا خرج العدو من حصونه مهاجماً جهة من الجهات وجب على الجهة الأخرى أن

تمد المهاجَم بالمهمات الحربية والمال والرجال، وأن تنذر العدو بالكف عن التجاوز وإذا لم يكف تهاجمه هي بدورها.

10 - تجتمع هيئة منتخبة من أهالي طرابلس وبرقة مرتين في كل سنة في شهر المحرم ورجب للنظر في مصالح البلاد.

11 - يشترط أن توافق على هذه المعاهدة كل من حكومة برقة والهيئة المركزية في جهة طرابلس.

12 - مهمة الهيئة المذكورة تأييد العلائق الودية بين الطرفين وتأييد هذه الاتفاقية[1].

قصر سرت في يوم السبت 22 جماد الأولى سنة 1340هـ(21 يناير سنة 1922م).

كانت الحكومة الإيطالية تتابع الأخبار وما يدور بين برقة وطرابلس، وخافوا أن يترتب على اتفاق طرابلس وبرقة ما لا تحمد عقباه، فقرر وولبي احتلال مصراته قبل أن يصل الليبيون إلى نتيجة في مؤتمر سرت، واستطاع الطليان أن يحتلوا قصر حمد وبدأ الجهاد من جديد، وأراد الطليان أن يخدعوا المجاهدين ودعوا إلى عقد المفاوضات في فندق الشريف لكسب الوقت وإعداد العدة، وانتظار المدد من إيطاليا، واستمرت المفاوضات واتضح للمجاهدين أن الطليان عازمين على الحرب، وانقطعت المفاوضات في يوم 10 أبريل سنة 1922م واستعد كل من الطرفين لما تتمخض عنه الأيام المقبلة.

وكان من أقوى العوامل التي جعلت والي طرابلس وولبي يتشدد مع المجاهدين ويرفض مطالبهم ظهور الفاشستية في إيطاليا، وأصبحت وشيكة أن تستولي على مقدرات إيطاليا[2].

وكان من مبادئهم المنحرفة الوصول إلى أغراضهم بكل وسيلة ولا يجدون في نفوسهم غضاضة إذا كانت أعمالهم مخالفة للإنسانية أو للحقوق العامة متى كان فيها مصلحة لهم أو لبلادهم، ولا يستحون من أن يعلنوا صراحة بأنهم لا يعرفون الحرية، ولا يقدسون الحقوق العامة، ولا يحترمون العهود متى كان ذلك ضروريًا لمصلحة إيطاليا[3].

يقول شكيب أرسلان: (لموسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون إشكال، فلهذا لم تبق في إيطاليا لا حرية قول، ولا حرية كتابة، وكل شيء يصادم إرادة الفاشست فهو ممنوع)[4].

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(307).

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص(308 إلى 316).

(3) المصدر السابق، ص(316).

(4) انظر: حاضر العالم الإسلامي.

بعد انقطاع مفاوضات فندق الشريف في 10 أبريل سنة 1922م استؤنفت الحرب من جديد، وأصبح الطليان يتوغلون في طرابلس، والمجاهدون يتراجعون أمام هجماتهم الشرسة.

فرأى الطرابلسيون إرسال وفد إلى الأمير محمد إدريس ليبايعوه بالإمارة تنفيذاً لما قررته هيئة الإصلاح المركزية في فندق الشريف، وكان ذلك الوفد يتألف من الشيخ محمد بن حسن، والشيخ محمود المسلاتي، والشيخ طاهر الزاوي، ووصل الوفد إجدابية في شوال عام1340هـ وقابل الأمير محمد إدريس، وأبلغه الوفد هدفه الذي جاء من أجله، فاعتذر عن الذهاب إلى طرابلس لشدة الحر وانحراف صحته، ووعد بالسفر عندما تتحسن صحته[1].

وحرصت إيطاليا أن تستشف ما وصل إليه زعماء برقة وطرابلس، فأرسلت أمندولا وزير المستعمرات الإيطالية للدخول في مباحثات مع الأمير إدريس واشترط الإيطاليون قبل الدخول في المباحثات أن يغادر بشير السعداوي ممثل الحكومة الوطنية الطرابلسية إجدابية وكان الأمير إدريس يأمل أن يصل إلى إيقاف الحرب بين إيطاليا والطرابلسيين ولذلك طلب من بشير السعداوي وزملائه أن يخرجوا إلى الطبيل[2].

وبعد ذلك حضر وزير المستعمرات الإيطالي إلى غوط الساس بالقرب من المرج، والتقى بالأمير محمد إدريس في 22 يونيه 1922م وعمل على إقناع أمندولا بضرورة تهدئة الأحوال في طرابلس، وبعد انتهاء المباحثات أرسل الأمير إدريس إلى بشير السعداوي وزملائه كلا من صالح الأطيوش، والفضيل المهشهش وأحد أبناء الكزة وسلم هؤلاء كتاباً لبشير السعداوي من سمو الأمير أخبره فيه بمقابلته مع وزير المستعمرات في غوط الساس، وبحث القضية الطرابلسية معه؛ وبأن المباحثات قد أسفرت عن إظهار إيطاليا استعدادها للصلح معها، وفضلاً عن ذلك فقد جاء الجماعة بكتاب آخر من الأمير موجهاً إلى رئيس هيئة الإصلاح المركزية بهذا المعنى. فبادر بشير السعداوي بأنه يعتزم العودة فوراً إلى طرابلس لإتمام البيعة ووعد بالعودة سريعاً إلى إجدابية يحمل معه البيعة[3].

وغادر بشير السعداوي برقة إلى طرابلس، وبمجرد وصوله إلى مصراته اجتمع بالزعماء الطرابلسيين ونادى بالبيعة لسمو الأمير محمد إدريس مستنداً في ذلك إلى أنه لا سبيل إلى الخلاص البتة إلا بالاتفاق والتعاون ضد العدو الإيطالي، وكتب بشير السعداوي نص البيعة بنفسه ثم ذهب بها من مصراته إلى مسلاته ثم إلى غريان، وهناك كانت هيئة الإصلاح المركزية

---

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(323).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(258).
(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

مجتمعة برئاسة أحمد المريض فقرأ عليهم البيعة ووافق هؤلاء عليها بالإجماع ودون مناقشة[1].

وما إن علم الطليان بتلك التطورات ومجيء الوفد الطرابلسي إلى إجدابية، حتى ثارت ثائرتهم، وأعلمت الحكومة الإيطالية الأمير محمد إدريس بأنها لن تتوانى عن مهاجمة إجدابية ذاتها، ولما أدرك الأمير إدريس خطورة الموقف بدأ يبذل قصارى جهده لإقناع الحكومة الإيطالية، بأن الطرابلسيين ما قصدوا بما فعلوه سوى حقن الدماء وفض خلافهم مع إخوانهم أهل برقة، وأن واجب الحكومة الإيطالية يحتم عليها أن توقف اعتداءاتها على الطرابلسيين فضلاً عن أن كان للأمير - على حسب اتفاق الرجمة - الحق في أن يعرض ما يراه في مصلحة البلاد على الحكومة الإيطالية، كما أن معاهدة الرجمة قد ألزمت الطليان كذلك بأن يضعوا موضع الاعتبار كل ما يبديه من آراء في ذلك[2].

تاسعاً - نص البيعة بالإمارة:

تقرر أن يذهب السيد بشير السعداوي بوصفه مندوباً من هيئة الإصلاح على رأس وفد لتسليم كتاب البيعة إلى الأمير محمد إدريس، وكان ضمن هذا الوفد كل من عبد الرحمٰن عزام، محمد الصادق بالحاج، نوري السعداوي، الشيخ محمد عبد الملك. ووقع على كتاب البيعة أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية وعبد الرحمٰن عزام مستشارها، ثم أعضاء الهيئة؛ محمد بن عمر، وبشير السعداوي، وحسين بن جابر، ومحمد فرحات، وعبد الرحمٰن زبيدة، ومحمد التائب، وسالم البحباح، وعثمان القيزاني، وعمر بو دبوس، ومحمد صادق بن الحاج، ومحمد مختار كعبار، ومحمد فكيني، والصويعي الخيتوني، كما وقع على البيعة من الأعيان محمد الديب ومحمد سوف، وعمر ضياء، وعلي أبو حبيل، وأحمد القاضي، ومحمد القرقني، وأحمد السني، والبغدادي بن معيوف، ومحمد الصغير، وهذا نص البيعة:

(سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس - حفظه الله ورعاه - إنه لا يخفى على سموه أن الخلاف ما يزال قائماً بينهم وبين الحكومة الإيطالية؛ وذلك لأن الحكومة الإيطالية وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعيها، وسياسيها، وإداريها، وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية، ونحن خير أمة أخرجت للناس لا نتحمل ضيماً ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كائناً ما كان، الأمر الذي حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب المتوالية، معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية ألا وهي تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاثة:

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(259).

(2) انظر: المصدر نفسه، ص(259، 260).

الدينية والسياسية والعسكرية، مع مجلس نيابي تنتخب الأمة أعضاءه، وبهذا يسلم وطننا ويتم أمر ديننا وتصلح أحكام قضايانا ونحفظ شرعنا، وعنعنة تاريخنا الباهر، وهذا لا ينافي ما تدعيه إيطاليا وما دأبت عليه من خطب رجالها من أنها لا تحتل ديارنا بنية الاستعمار، وإنما ساقتها دواعي السياسة الدولية في البحر المتوسط، ولو كانت صادقة في دعواها هذه لما عرضت بلادنا للخراب بتوالي الهجمات، واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى، وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفا حول أمير واحد يرضيانه وحيث كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجتمع في ذاتكم الشريف من المزايا العالية، والأوصاف الجليلة فإن (هيئة الإصلاح المركزية) الحائزة للوكالة المطلقة من (مؤتمر غريان) الذي يمثل الأمة الطرابلسية، بانتخاب واقع منها قد وجدت في سموكم أميراً، حازماً قادراً على جمع الأمة للثقة العامة محبوباً، فهي لذلك تبايع سموكم أميراً للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوه عنها.
على أن مبايعتكم كانت مضمرة في كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبي القطرين في (سرت) وكان السبب في تأخير تحقيقها طوارىء الحرب التي طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة، ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية. وبهذه البيعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين، ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم إيانا حسب رغبة الأمة تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم. والله سبحانه وتعالى يمدكم بروح من عنده ويجعل البركة في البيت السنوسي المؤسس على التقوى والصلاح)[1].

وبادر الأمير محمد إدريس بمصافحة تلك اليد الممدودة وقبل البيعة دون تردد وأجاب على كتاب البيعة في 22 ربيع الأول 1341هـ(22 نوفمبر 1922م) فقال: (وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهاداً صادقاً بالأنفس والثمرات في شخصي فأخذتها داعياً الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكلل مساعيها كلها بالنجاح. ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعيت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن أتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الأمة تكليفي بها، فعلي أذن أن أعمل بجد معكم، ولكن لا تنسوا أنني بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لي على شيء. إني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمم لا للأفراد، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هي التي تنصرف إلى صالح الجميع، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة. إذ من حق كل شعب أن يسيطر على شؤونه، والناس منذ نشؤوا أحرار.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(262).

وقد أظهر شعبنا في كل أدواره مقدار محبته للحرية فدفع مهوراً غالية، فلا يصح لأحد أن يطمع في استعباده والاستبداد بشؤونه.

لقد اشترطتم علي الشورى وهي أساس ديننا، وسأعمل على قاعدتها. هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ما هي عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد، فلذلك أَكِلُ إلى الهيئة المركزية - لما أبدت من الحمية، والعدل، والدراية - أن تستمر على إدارة شؤون القطر الطرابلسي، ولي الثقة العظيمة في حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيدوا مساعي الهيئة الملية أن يتحملوا مشاق المسؤولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطني الذي شيدوه وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ويثبت الأقدام ويقهر الأعداء ويمن بالنصر الموعود إنه على ما يشاء قدير)[1].

حاول مستشار الأمير محمد إدريس عمر منصور الكيخيا أن يوافق بين سياسة الأمير إدريس مع الطليان، وحرصه على وحدة الصف واجتماع الكلمة تحت زعامته، وانعقدت اجتماعات ومناقشات واستمر هذا الميدان مفتوحاً نحو أربعين يوماً ولم يهتد الباحثون إلى الحل المطلوب إلا بمغادرة الأمير محمد إدريس إجدابية إلى مصر في اليوم الثاني من جمادى الأولى سنة 1341هـ 21 ديسمبر سنة 1992م[2]، وكان ذلك السفر بسبب مرض ألمّ به ونصحه الأطباء بالذهاب إلى مصر للعلاج، وكان قبل سفره قد تعكرت وتغيرت العلاقات السنوسية مع إيطاليا، وحدثت بعض الاشتباكات بين الطليان والعربان بسبب حرص الطليان على نزع السلاح منهم، وتمّ اعتقال الشيخ العوامي ظلماً وزوراً، وكانت هناك محاولة أخرى للقبض على صفي الدين ولكنها باءت بالفشل بسبب الخبر الثمين الذي سربه عثمان العنيزي إلى صفي الدين محذراً إياه من غدر الطليان به.

إن الأمير محمد إدريس اتخذ قرار الهجرة إلى مصر بعد دراسة وافية للمرحلة التي مرت بها البلاد، وللتطورات السياسية والعسكرية التي حدثت على الساحة فالحل العسكري كان يعرف باستحالته منذ البداية وكان يعمل ما في وسعه لإقناع الآخرين بذلك للمحافظة على دماء المواطنين التي كانت تهدر بدون نتيجة مما كان سيسبب في إحباط الروح المعنوية وتمكين العدو، فقد كان يرى أن المقاومة الليبية المسلحة لن يمكنها بأي حال من الأحوال دحر القوات الإيطالية.

ثم إن المجهودات الدبلوماسية التي كان يقوم بها قد أعطت كل ما يمكنها إعطاؤه في تلك

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(262).

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص(331).

المرحلة، فرحل عن البلاد ليحتفظ بحريته ويراقب الوضع الدولي ويتحين الفرص[1].

لقد تعرض الأمير إدريس للانتقاد بدعوى أنه ترك شعبه أثناء منعطف تاريخي هام في 1922م، لقد حاول الإيطاليون قتله بالسم[2]، وتنامت الخلافات والمشاكل بينه وبين الحكومة الإيطالية حتى لم يجد في مقدوره التغلب عليها، فمعاهدة الرجمة لا تعدو كونها محاولة عقيمة لإقامة نوع من الحكم الثنائي يشارك فيه الإيطاليون والسنوسيون معاً، ولم يقدر لها النجاح أبداً من الناحية العملية، ثم انقطع الرجاء في استمرارها نهائياً عقب استيلاء الفاشست على مقاليد السلطة في إيطاليا، ولم يعد من المصلحة البقاء في وجود نظام فاشي، فلو أن الأمير إدريس أصر على البقاء داخل ليبيا في ذلك الوقت لكانوا قبضوا عليه حتماً، وكانت أهميته القصوى بالنسبة لليبيين تكمن في سعة نفوذه وهيبته في العالم الإسلامي كزعيم للحركة السنوسية، وحنكته في أساليب التفاوض السياسي، وخبرته بالقضايا الدولية، وقد ظهر أثره في الحرب العالمية الثانية، واستفاد من الفرص التي أتيحت، وشكل الجيش السنوسي الذي خاض معارك ضارية ضد إيطاليا وألمانيا، وساعد ذلك الجيش الحلفاء مما اضطرهم بالاعتراف بالجهود التي بذلها الليبييون واستفاد الأمير محمد إدريس من تلك الأعمال الجليلة في مباحثاته ومفاوضته مع الإنجليز[3].

إن فترة المهجر التي عاشها الأمير محمد إدريس في مصر كانت من أصعب أيام حياته فقد قال عنها: (وكانت تلك الفترة تعيسة للغاية، فقدت أثناءها الكثيرين من أخلص أصدقائي وأنصاري الذين استشهدوا في معارك الجهاد ضد الإيطاليين، كما غمرني الحزن والأسى الشديد لمعاناة أهل برقة. وعقب احتلال الكفرة دمّر المسجد الذي كان يضم رفات والدي ونهبت وبعثرت محتويات المكتبة التي كان فيها الكثير من كتبنا ومخطوطاتنا. وما كان يشد من أزري عبر تلك الظروف العصيبة سوى ثقتي بالله وتعاطف أصدقائنا في العالم العربي)[4].

إن الأمير محمد إدريس قبل أن يغادر البلاد حاول تنظيم أمور المقاومة ضد الاحتلال الإيطالي، وبحث الأمر مع زعماء ورؤساء برقة من جانب، ومع بشير السعداوي والوفود الطرابلسية من جانب آخر.

واستقر رأي الأمير على أن يعهد بالأعمال السياسية والعسكرية في برقة إلى عمر المختار

(1) انظر: تعليق محمد عبد بن غلبون على كتاب الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره، ص(43).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(262).
(3) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(44).
(4) المصدر السابق نفسه، ص(47).

نائباً عنه في تنظيم معسكرات المجاهدين وعهد بالمسائل الدينية، وما يتعلق بالسنوسية وشؤون الأسرة الكريمة إلى أخيه السيد محمد رضا، وكان السيد محمد الرضا في جالو نائباً عن سموه في إدارة شؤونها، وزود الأمير رجاله بالتعليمات اللازمة وأوصاهم باتخاذ الحيطة دائماً من غدر الطليان، واتفق مع الشيخ عمر المختار على بعض القادة ليكونوا رؤساء على معسكرات المجاهدين في برقة، ومن هؤلاء القادة السيد محمد الصديق بن محمد رضا وأخيه الحسن، وقجة عبد الله السوداني، والفضيل بو عمر، ويوسف بورحيل، وحسين الجويفي، وعبد الله سلوم على أن يتولى قيادة هذه الجيوش جميعاً الشيخ عمر المختار(1).

وبحث الأمير مع بشير السعداوي مسألة استمرار الجهاد في طرابلس ضد الطليان، وقبل ذلك تقدم بشير السعداوي بمشروع إنشاء هيئة مركزية في برقة من رؤساء القبائل تضطلع بأعباء الإدارة، واختار الأمير لرئاستها الشيخ مختار الغدامسي وهو من القضاة الشرعيين ومن أكابر علماء البلاد، وبعد مغادرة الأمير إجدابية عقدت الهيئة المركزية البرقاوية جلسات عدة للبحث في شؤون البلاد وتهيئة وسائل الجهاد ضد العدو الإيطالي النصراني الحاقد، وحضر بشير السعداوي جلسات الهيئة، وعرض على الحاضرين تشكيل جبهة متحدة من برقة وطرابلس لمتابعة ضد إيطاليا دون أي إبطاء، وبعد تبادل الرأي وافق الحاضرون على رأي السعداوي.

وتأهب السعداوي للسفر إلى طرابلس وكان معه صفي الدين السنوسي في 21 رجب 1341هـ (9مارس 1923م) وكان في رفقتهم مجموعة من خيار المجاهدين من أمثال أحمد باشا سيف النصر، وعمر سيف، يقول صفي الدين: (وعندما وصلنا إلى النوفلية وجدنا بها خالداً بك القرقني وعثمان بك الجيزاني فارتحلنا جميعاً إلى سرت وفي أثناء الطريق وصلنا خبر مشؤوم مفاده أن محمد سعدون السويحلي أخا رمضان السويحلي قد استشهد في القتال، وكان محمد سعدون من خيرة القواد الذين تولوا قيادة العمليات العسكرية في الحركة الأخيرة على أننا تابعنا السير بعد ذلك حتى بلغنا سرت، وهناك قابلنا أحمد بك المريض، ثم ذهبنا إلى وادي نفد بين مصراتة وورفلة، وفي ورفلة وجدنا معسكر المجاهدين العام)(2).

وقال: بذل بشير السعداوي جهوداً عظيمة لحشد جموع المجاهدين حول السيد صفي الدين وتحت زعامة السنوسية، وكان قائد معسكر المجاهدين الطرابلسيين في وادي نفد حوالي ثمانية شهور من شعبان 1341هـ إلى شهر جمادى الأولى من عام 1342 هـ(أبريل - ديسمبر 1923م).

وبعد فترة من الزمن بدأ زعماء المجاهدين في ترك معسكر نفد ولم يبق إلا أحمد

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(267).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(268).

السويحلي وكانت القوات الإيطالية تتقدم وتحتل المدن في منطقة طرابلس، وقد ذكر الشيخ طاهر الزاوي كيف احتل الطليان منطقة طرابلس ومدنها بنوع من التفصيل(1)، واضطر صفي الدين أمام انحلال المقاومة، وضعف حركة الجهاد أن يذهب إلى جالو وبعث إلى الأمير محمد إدريس بمصر يخبره بكل ما وقع فأجابه الأمير بأن له أن يختار إما البقاء في جالو وإما الذهاب إلى جغبوب، وارتحل صفي الدين إلى الجغبوب في صفر 1243 هـ، سبتمبر 1923م.

وكان بشير السعداوي يواصل جهاده المرير بجمع كلمة المجاهدين، وعقد الاجتماعات لتحقيق هذه الغاية في القرضابية ثم في قصر بوهادي واستطاع أن يؤسس مركزاً للجهاد في المكان الأخير، وتسلم القيادة في سرت، وجمع شتات المنهزمين اللاجئين إلى سرت، وكانوا حوالي خمسين أو ستين ألفاً، وثبت المجاهدون في مصراتة وترهونة أقدامهم نتيجة لهذا العمل، ولكن الطليان بقواتهم الجرارة، وطائراتهم استطاعوا القضاء على حركة المقاومة رويداً رويداً، ثم هاجموا في آخر الأمر ورفلة، وعندئذٍ انحلت المقاومة تماماً، واضطر بشير السعداوي إلى مغادرة سرت في عام 1924م بعد أن مكث بها سنة تقريباً، وكان السعداوي ﷺ من أشد المجاهدين تحمساً في هذه الفترة العصيبة، ومن أعظمهم مثابرة على الجهاد وكان يتحلى برجاحة العقل والرزانة والهدوء، ويتصف بالقدرة على النظر البعيد وتقليب وجوه الرأي في عواقب الأمور(2).

قال محمد فؤاد شكري: إن خروجه كان مؤذياً لأن الثورة قد انتهت فعلاً وأن الأمر قد استتب للطليان في طرابلس أخيراً، وأن برقة وحدها هي التي أصبحت تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو، وكان والي برقة الجديد بونجيو فاني قد بدأ يحل الأدوار المختلفة في برقة عنوة واقتداراً وتم له ما أراد في الأسبوع الأول من شهر مارس 1923م، فحلت الحكومة في 6 مارس معسكرات الأبيار وتكنس وسلنطة، والمخيلي، وعكرمة، وانتهز بونجيو فاني فرصة افتتاح الدورة البرلمانية في اليوم نفسه وهجم في البرلمان على السنوسية.

وقال: إن السنوسيين كانوا غير مخلصين للحكومة الإيطالية ثم أبلغ سامعيه التدابير التي اتخذها للقضاء على السنوسية، وكانت أولى التدابير احتلال إجدابية ذاتها في 21 أبريل 1923م وهي مقر الإمارة السنوسية، وفي 24 أبريل أعلن الوالي (أن كل الاتفاقيات التي أبرمتها إيطاليا مع السنوسيّة قد أصبحت لاغية ولا أثر لها)(3).

وفي أول مايو من السنة نفسها عاد بونجيو فاني فأكد إلغاء هذه الاتفاقات في منشور أعلن

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص(235 إلى 262).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(269).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(270).

فيه: (أن السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة تشبه غيرها من الطرق الإسلامية وأن نشاطها يجب أن يظل نشاطاً دينيًا محدوداً فحسب)، وفي يوم 3 مايو ذهب الدروفاندي الوزير الإيطالي في مصر لمقابلة الأمير محمد إدريس وأبلغه أن الاتفاقات التي عقدتها إيطاليا معه قد أصبحت لاغية، ولا وجود لها.

يقول الأمير محمد إدريس: (بعد بضعة أشهر من قدومي إلى مصر أبلغني الوزير الإيطالي المفوض في القاهرة بأن حكومة موسوليني ألغت كافة العهود والمواثيق المعقودة مع السنوسيين، وكان ذلك في مايو 1923م وكان الإيطاليون قد ألقوا القبض على عمر باشا الكخيا بتهمة التواطؤ في هروبي، فحبسوه أولاً في بنغازي ثم نقلوه إلى معتقل في إيطاليا، وبعدها بشهور قلائل علمت أن الحكومة الإيطالية قد طلبت من الحكومة المصرية تسليمي إليها ووعدت بعدم تعريضي لأي أذى.

وشعرت بالخطر المحقق نظراً لأن الملك فؤاد كانت أمه إيطالية وقد تربى في إيطاليا وتربطه بالإيطاليين علاقة حميمة ربما تدفعه إلى تلبية طلبهم...)[1].

ومن ذلك الحين بدأ الجهاد بقيادة عمر المختار في برقة ضد إيطاليا من غير هوادة أو لين، أو ضعف أو خوار، وقبل الدخول في سيرة الشيخ عمر المختار العطرة نحاول أن نقف مع الأحداث السابقة لنتأمل في العبر والدروس لتسترشد بها الأجيال في مستقبلها.

إن من الأمور الخطيرة التي مرت بها البلاد فيما بين 1916 و1923م أن انقسم زعماء ليبيا إلى قسمين بالنسبة للأوضاع الدولية في بداية الحرب العالمية الأولى، مما ضاعف من توسيع هوّة الخلاف، فأهل برقة عقدوا مصالحة مع الإنجليز وإيطاليا وأهل طرابلس وقفوا مع الأتراك قلباً وقالباً، وحدث تنازع على النفوذ ووصل إلى حد القتال بين الأشقاء، وبعد هزيمة الأتراك والألمان، وخروجهم من ليبيا جاءت فكرة الجمهورية الطرابلسية، ولم يستطع الزعماء أن يتغلبوا على أهوائهم الشخصية، فانتهى بهم الأمر إلى مقتل رمضان السويحلي رحمه الله تعالى، وهاجر سليمان الباروني رحمه الله من البلاد، وأصبح مستشاراً لحكومة مسقط بدولة عمان وتوفي إثر مرضه ببومباي بالهند عام 1941[2]، وعبد النبي بالخير رحمه الله توفي في الصحراء الكبرى أثناء هجرته إلى تونس بسبب العطش[3]، وأحمد المريض رحمه الله توفي في الفيوم بمصر عام 1941م[4] ومحمد إدريس السنوسي رحمه الله أصبح لاجئاً سياسيًا.

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(435).
(2) انظر: الأعلام للزركلي، (3/ 129).
(3) انظر: عبدالنبي بالخير، داهية السياسة، ص(251).
(4) انظر: جهاد الأبطال، ص(333).

أقول: لو اتفق زعماء طرابلس في بداية أمرهم على قلب رجل واحد لكانت النتائج لصالح الإسلام والمسلمين، لقد كانت البلاد في تلك الفترة في أشد الحاجة إلى توحيد الكلمة تحت قيادة رجل له مدارك الباروني، وهدوؤه وحياده، وذكاء عبد النبي ودهاؤه، وصلابة رمضان وشجاعته، وحلم أحمد المريض وسعة صدره، وكان كل من يحاول من الزعماء أن يتطلع إلى الانفراد بالحكم في تلك الفترة المظلمة، إنما يحاول المستحيل، فكان من اللازم التضحية بنصيب من الأنانية، والنعرة القبلية، ومحاربة الأهواء، ونبذ التعصب لتوحيد الشعب نحو مقصد الجهاد ضد المحتل الحاقد، وأن يختاروا زعيماً من بينهم ويقف الجميع لدعمه، ويقفلوا الأبواب على كل مخططات الأعداء التي تريد تمزيق الصف، وتعميق الخلاف، وضرب الزعماء ببعضهم، كما أن ما وصل إليه الطرابلسيون من وجوب توحيد جهودهم مع البرقاوين جاء متأخراً، وبعد فوات الأوان، ولو كان قبل ذلك بسنين، أو في زمن قيادة أحمد الشريف لكان ذلك الاتحاد من عوامل النهوض، وأسباب النصر، ولقامت إمارة قوية تستطيع أن تتغلب على العدو المحتل، وتبني دولة عصرية قوية ولوجدت فيها الأجيال امتداداً حضاريًا وبعداً سياسيًا، وانتماءً حقيقيًا لمفهوم العقيدة والدين والأمة والشعب والوطن، لقد شبه أحد المؤرخين تلك المرحلة بفترة ملوك الطوائف في الأندلس، فالنزعة القبلية لا تزال في عنفوانها، ودكتاتورية زعيم القبيلة لا يمكن محوها والتغلب عليها وإن كانت المنطقة الشرقية تغلبت عليها بالدعوة الشاملة، والتربية العميقة وبتوفيق الله تعالى ثم بسبب جهود الحركة السنوسية في قبائل برقة.

إن الدرس المهم هو أن يتغلب الزعماء على أهوائهم من أجل المصالح العليا للبلاد والعباد وإلا أصبحت بلادنا فوضى يسهل عندئذٍ لأعدائنا اختراقها، ومصّ خيراتها، وتشتيت رجالها، إن الخطاب لوحدة الصف، وتوحيد الجهود، نقصد به كل مسلم من أبناء ليبيا حريص على بلده وشعبه وأمته.

إن الابتعاد عن الهوى ومحاربته في النفوس من أسباب النهوض ومن الأمور التي أرشد الله تعالى لها زعماء الأمة وقادتها. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [صٓ: 26].

إن اتباع الهوى من أسباب الفرقة، والفرقة من أسباب تأخر النهوض، فإذن على المخلصين من أبناء شعبنا الحريصين على تحكيم شرع الله تعالى، محاربة الهوى وقلع جذوره وأسبابه من النفوس، إن محاربة الأهواء طريق نحو الاجتماع والائتلاف، ونحو الأخذ بأسباب النهوض والتمكين لهذا الدين، إن العلاج الناجح والبلسم الشافي لمن ابتلي بشيء من الهوى،

إلزام النفس بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائماً فيما يصدر منها، وعدم الاغترار بأهوائها وتزييناتها وخداعها، والإكثار من النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة وإن كانت مخالفة لما في النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام، وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التي قد يكون فيها إفراط أو تفريط، وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن، ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق في الغضب والرضا. ويكثر من الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لأمته: «وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب»[1] ومن قوله ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»**[2].

إن سنة الله ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم والشعوب الاختلاف قال ﷺ: **«فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»** وفي رواية **«فأهلكوا»**[3].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: **«فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»**[4] قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[5].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف)[6].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[7].

«وإنما كان الاختلاف علّة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي

---

(1) انظر: النسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (3/ 55) صححه الشيخ الألباني رحمه الله.
(2) رواه الترمذي وصححه الألباني، كما في صحيح سنن الترمذي (3/ 183).
(3) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/ 101، 102).
(4) المصدر السابق نفسه (9/ 102).
(5) انظر: المصدر السابق (9/ 102).
(6) انظر: مجموع الفتاوى (19/ 116).
(7) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص(139).

مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيها، ويحتل أرضها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها[1].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع بلادنا وتسلط الطليان عليها وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم تتخذ سبيل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة. والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق.. ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول»[2].

---

(1) انظر: السنن الإلهية، ص(139).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(140، 141).

الفصل الثاني

الشيخ الجليل عمر المختار رحمه الله

نشأته، وأعماله، واستشهاده

المبحث الأول

نشاته واعماله

أولاً - مولده ونسبه ونشأته وشيوخه:

ولد الشيخ الجليل عمر المختار من أبوين صالحين عام 1862م[1] وقيل 1858م، وكان والده مختار بن عمر من قبيلة المنفة من بيت فرحات وكان مولده بالبطنان في الجبل الأخضر، ونشأ وترعرع في بيت عز وكرم، تحيط به شهامة المسلمين وأخلاقهم الرفيعة، وصفاتهم الحميدة التي استمدوها من تعاليم الحركة السنوسية القائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

توفي والده في رحلته إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعهد وهو في حالة المرض إلى رفيقه السيد أحمد الغرياني (شقيق شيخ زاوية جنزور الواقعة شرق طبرق) بأن يبلغ شقيقه بأن عهد إليه بتربية ولديه عمر ومحمد، وتولى الشيخ حسين الغرياني رعايتهما محققاً رغبة والدهما، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى[2].

لقد ذاق عمر المختار - رحمه الله - مرارة اليتم في صغره، فكان هذا من الخير الذي أصاب قلبه المليء بالإيمان وحب الله ورسوله ﷺ حيث التجأ إلى الله القوي العزيز في أموره كلها، وظهر منه نبوغ منذ صباه مما جعل شيوخه يهتمون به في معهد الجغبوب الذي كان منارة للعلم وملتقى للعلماء والفقهاء والأدباء والمربين الذين كانوا يشرفون على تربية وتعليم وإعداد

---

(1) انظر: عمر المختار نشأته وجهاده، د. إدريس الحريري، ص(65).

(2) انظر: عمر المخ للأشهب، ص(26).

المتفوقين من أبناء المسلمين ليعدُّوهم لحمل رسالة الإسلام الخالدة، ثم يرسلوها بعد سنين عديدة من العلم والتلقي والتربية إلى مواطن القبائل في ليبيا وإفريقيا لتعليم الناس وتربيتهم على مبادىء الإسلام وتعاليمه الرفيعة، ومكث في معهد الجغبوب ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة: كالفقه والحديث والتفسير، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم: السيد الزروالي المغربي، والسيد الجواني، والعلامة فالح بن محمد بن عبد الله الظاهري المدني وغيرهم كثير، وشهدوا له بالنباهة ورجاحة العقل، ومتانة الخلق، وحق الدعوة، وكان يقوم بما عليه من واجبات عملية أسوة بزملائه الذين يؤدون أعمالاً مماثلة في ساعات معينة إلى جانب طلب العلم وكان مخلصاً في عمله متفانياً في أداء ما عليه، ولم يعرف عنه زملاؤه أن أجل عمل يومه إلى غده، وهكذا اشتهر بالجدية والحزم والاستقامة والصبر، ولفتت شمائله أنظار أساتذته وزملائه وهو لم يزل يافعاً، وكان الأساتذة يبلغون الإمام محمد المهدي أخبار الطلبة وأخلاق كل واحد منهم فأكبر السيد محمد المهدي في عمر المختار صفاته وما يتحلى به من خلال[1]، وأصبح على إلمام واسع بشؤون البيئة التي تحيط به وعلى جانب كبير في الإدراك بأحوال الوسط الذي يعيش فيه، وعلى معرفة واسعة بالأحداث القبلية وتاريخ وقائعها وتوسع في معرفة الأنساب والارتباطات التي تصل هذه القبائل بعضها ببعض، وبتقاليدها، وعاداتها، ومواقعها، وتعلم من بيئته التي نشأ فيها وسائل فض الخصومات البدوية وما يتطلبه الموقف من آراء ونظريات، كما أنه أصبح خبيراً بمسالك الصحراء وبالطرق التي كان يختارها من برقة إلى مصر والسودان في الخارج وإلى الجغبوب والكفرة من الداخل، وكان يعرف أنواع النباتات وخصائصها على مختلف أنواعها في برقة، وكان على دراية بالأدواء التي تصيب الماشية ببرقة ومعرفة بطرق علاجها نتيجة للتجارب المتوارثة عند البدو وهي اختبارات مكتسبة عن طريق التجربة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، وكان يعرف سمة كل قبيلة، وهي السمات التي توضع على الإبل والأغنام والأبقار لوضوح ملكيتها لأصحابها، فهذه المعلومات تدل على ذكاء عمر المختار وفطنته منذ شبابه[2].

ثانياً - وصف عمر المختار:

كان عمر المختار متوسط القامة يميل إلى الطول قليلاً، ولم يكن بالبدين الممتلىء أو النحيف الفارغ، أجش الصوت بدوي اللهجة، رصين المنطق، صريح العبارة، لا يمل حديثه، متزناً في كلامه، تفتر ثناياه أثناء الحديث عن ابتسامة بريئة، أو ضحكة هادئة إذا ما اقتضاها الموقف، كثيف اللحية وقد أرسلها منذ صغره، تبدو عليه صفات الوقار والجدية في العمل،

---

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(26).

(2) انظر: المصدر نفسه، ص(27).

والتعقل في الكلام والثبات عند المبدأ وقد أخذت هذه الصفات تتقدم معه بتقدم السن[1].

ثالثاً - تلاوته للقرآن الكريم وعبادته:

كان عمر المختار شديد الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها وكان يقرأ القرآن يومياً، فيختم المصحف الشريف كل سبعة أيام منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي: (يا عمر وردك القرآن) وقصة ذلك كما ذكرها محمد الطيب الأشهب، أنه استأذن في الدخول على الإمام محمد المهدي من حاجبه محمد حسن البسكري في موقع بئر السارة الواقع في الطريق الصحراوي بين الكفرة والسودان، وعندما دخل على المهدي تناول مصحفاً كان بجانبه وناوله للمختار وقال: هل لك شيء آخر تريده؟ فقلت له: يا سيدي إن الكثيرين من الإخوان يقرؤون أوراداً معينة من الأدعية والتضرعات أجزتموهم قراءتها وأنا لا أقرأ إلا الأوراد الخفيفة عقب الصلوات فأطلب منكم إجازتي بما ترون، فأجابني ﷺ بقوله: (يا عمر وردك القرآن) فقبلت يده وخرجت أحمل هذه الهدية العظيمة (المصحف) ولم أزل بفضل الله أحتفظ بها في حلي وترحالي ولم يفارقني مصحف سيدي منذ ذلك اليوم، وصرت مداوماً على القراءة فيه يوميًا لأختم السلكة كل سبعة أيام، وسمعت من شيخنا سيدي أحمد الريفي أن بعض كبار الأولياء يداوم على طريقة قراءة القرآن مبتدئاً (بالفاتحة) إلى (سورة المائدة) ثم إلى (سورة يونس)، ثم إلى (سورة الإسراء) ثم إلى (سورة الشعراء) ، ثم إلى (سورة الصافات) ثم إلى (سورة قَ) ثم إلى آخر السلكة ومنذ ذلك الحين وأنا أقرأ القرآن من المصحف الشريف بهذا الترتيب[2].

إن المحافظة على تلاوة القرآن والتعبد به تدل على قوة الإيمان، وتعمقه في النفس، وبسبب الإيمان العظيم الذي تحلّى به عمر المختار انبثق عنه صفات جميلة، كالأمانة والشجاعة، والصدق، ومحاربة الظلم والقهر والخنوع، وقد تجلى هذا الإيمان في حرصه على أداء الصلوات في أوقاتها قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103] وكان يتعبد المولى ﷻ بتنفيذ أوامره ويسارع في تنفيذها وكان كثير التنفل في أوقات الفراغ، وكان قد ألزم نفسه بسنة الضحى وكان محافظاً على الوضوء حتى في غير أوقات الصلاة، ومما يروى عنه أنه قال: لا أعرف أنني قابلت أحداً من السادة السنوسية وأنا على غير وضوء منذ شرفني الله بالانتساب إليهم[3].

لقد كان هذا العبد الصالح يهتم بزاده الروحي اليومي بتلاوة القرآن الكريم، وقيام الليل واستمر معه هذا الحال حتى استشهاده.

(1) المختار، للأشهب، ص(28).
(2) انظر: عمر المختار، ص(28، 29).
(3) انظر: مذكرات مجاهد، محمود الجهني، محمد مناع.

فهذا المجاهد محمود الجهمي الذي حارب تحت قيادة عمر المختار وصاحبه كثيراً، يذكر في مذكراته أنه كان يأكل معه وينام معه في مكان واحد ويقول: (لم أشهد قط أنه نام لغاية الصباح، فكان ينام ساعتين أو ثلاثاً على أكثر تقدير، ويبقى صاحياً يتلو القرآن الكريم، وغالباً ما يتناول الإبريق ويسبغ الوضوء بعد منتصف الليل ويعود إلى تلاوة القرآن، لقد كان على خلق عظيم يتميز بميزات التقوى والورع، ويتحلى بصفات المجاهدين الأبرار. . . .)(1).

وأما الأستاذ محمد الطيب الأشهب فقد قال: (وقد عرفته معرفة طيبة وقد مكنتني هذه المصاحبة من الاحتكاك به مباشرة، فكنت أنام بخيمته وإلى جانبه وأهم ما كنت أمقته منه ﷺ وأنا وقت ذاك حديث السن هو أنه لا يتركنا أن ننام، يقضي كل ليلة يتلو القرآن مبكراً فيأمرنا بالوضوء بالرغم مما نلاقيه من شدة البرد ومتاعب السفر. . .)(2).

وكأني أراه من خلف السنين وهو قائم يصلي لله رب العالمين في وديان وجبال وكهوف الجبل الأخضر وقد التف ببرده الأبيض في ظلمة الليل البهيم وهو يتلو كتاب الله بصوت حزين، وتنحدر الدموع على خدوده من خشية العزيز الرحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29].

لقد وصى رسول الله ﷺ أبا ذر بذلك فقال ﷺ: **«عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء»** وقد حذر الرسول الكريم من هجر القرآن فقال ﷺ: **«إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب»**(٣).

قال الشاعر:

قم في الدجى واتل الكتاب ... ولا تنم إلا كنومة حائر ولهان
فلربما تأتي المنية بغتة ... فتساق من فرش إلى الأكفان
يا حبذا عينان في غسق الدجى ... من خشية الرحمن باكيتان
أعرض عن الدنيا الدنيئة زاهداً ... فالزهد عند أولي النهى زهدان
زهد عن الدنيا وزهد في الثناء ... طوبى لمن أمسى له الزهدان(4)

إن من أسباب الثبات التي تميز بها عمر المختار حتى اللحظات الأخيرة من حياته إدمانه

---

(1) انظر: مذكرات مجاهد، محمود الجهني، محمد مناع.
(2) انظر: برقة العربية، ص(439).
(3) رواه البخاري.
(4) انظر: نونية القحطاني، ص(42).

على تلاوة القرآن الكريم والتعبد به وتنفيذ أحكامه، لأن القرآن الكريم مصدر تثبيت وهداية وذلك لما فيه من قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين وأوليائه بأساليب متعددة[1].

لقد كان عمر المختار يتلو القرآن الكريم بتدبر وإيمان عظيم فرزقه الله الثبات وهداه طريق الرشاد ولقد صاحبه حاله في التلاوة حتى النفس الأخير، وهو يساق إلى حبل المشنقة وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[2] [الفجر: 27 - 28].

رابعاً - شجاعته وكرمه:

إن هذه الصفة الجميلة تظهر في سيرة عمر المختار منذ شبابه الباكر، ففي عام 1311هـ(1894م) تقرر سفر عمر المختار على رأس وفد إلى السودان يضم كلاً من السيد خالد بن موسى، والسيد محمد المسالوسي، وقرجيلة المجبري وخليفة الدبار الزوي أحد أعضاء زاوية واو بفزان (وهو الذي روى القصة)، وفي الكفرة وجد الوفد قافلة من التجار من قبيلتي الزوية والمجابرة، وتجار آخرين من طرابلس وبنغازي تتأهب للسفر إلى السودان، فانضم الوفد إلى هؤلاء التجار الذين تعودوا السير في الطرق الصحراوية، ولهم خبرة جيدة بدروبها، وعندما وصل المسافرون إلى قلب الصحراء بالقرب من السودان قال بعض التجار الذين تعودوا المرور من هذا الطريق إننا سنمر بعد وقت قصير بطريق وعر لا مسلك لنا غيره ومن العادة - إلا في القليل النادر - يوجد فيه أسد ينتظر فريسته من القوافل التي تمر من هناك، وعودت القوافل أن تترك له بعيراً كما يترك الإنسان قطعة اللحم إلى الكلاب أو القطط، وتمر القوافل بسلام واقترح المتحدث أن يشترك الجميع في ثمن بعير هزيل ويتركونه للأسد عند خروجه، فرفض عمر المختار بشدة قائلاً: (إن الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا على الضعيف بدون حق أبطلت فكيف يصح لنا أن نعيد إعطاءها للحيوان؟ إنها علامة الهوان والمذلة، إننا سندفع الأسد بسلاحنا إذا ما اعترض طريقنا) وقد حاول بعض المسافرين أن يثنيه عن عزمه، فرد عليهم قائلاً: (إنني أخجل عندما أعود وأقول إنني تركت بعيراً إلى حيوان اعترض طريقي وأنا على استعداد لحماية ما معي، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته إنها عادة سيئة يجب أن نبطلها)، وما كادت القافلة تدنو من الممر الضيق حتى خرج الأسد من مكانه الذي اتخذه على إحدى شرفات الممر فقال أحد التجار - وقد خاف من هول المنظر وارتعشت فرائصه من ذلك - أنا مستعد أن أتنازل عن بعير من بعائري ولا تحاولوا مشاكسة الأسد، فانبرى عمر المختار ببندقيته وكانت من النوع اليوناني ورمى الأسد بالرصاصة الأولى فأصابته ولكن في غير مقتل واندفع الأسد يتهادى نحو

---

(1) انظر: الثابت، د. محمد بن حسن عقيل، ص(12).

(2) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(159).

القافلة فرماه بأخرى فصرعته، وأصر عمر المختار أن يسلخ جلده ليراه أصحاب القوافل فكان له ما أراد[1].

إن هذه الحادثة تدلنا على شجاعة عمر المختار وقد تناولتها المجالس يومذاك بمنتهى الإعجاب، وقد سأل الأستاذ محمد الطيب الأشهب عمر المختار نفسه عن هذه الحادثة في معسكر المغاربة بخيمة السيد محمد الفائدي فأجاب بقوله: تريدني يا ولدي أن أفتخر بقتل صيد؟ قال لي ما قاله قديماً أحد الأعراب لمنافسه وقد قتل أسداً: (أتفتخر عليّ بأنك قتلت حشرة) وامتنع عمر المختار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

إن جواب عمر المختار بهذه الآية الكريمة يدل على تأثره العميق بالقرآن الكريم، لأنه تعلم أن أهل الإيمان والتوحيد في نظرتهم العميقة لحقيقة الوجود، وتطلعهم إلى الآخرة ينسبون الفضل إلى العزيز الوهاب سبحانه وتعالى، ويتخلصون من حظوظ نفوسهم، فهو الذي مرّ كثيراً على دعاء نبي الله يوسف عليه السلام ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وهو الذي تعلم من سيرة ذي القرنين هذا المعني الرفيع والذي لا بد من وجوده في الشخصية القيادية الربانية في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98] فعندما بنى السد، ورفع الظلم، وأعان المستضعفين نسب الفضل إلى ربه سبحانه وتعالى.

إن عمر المختار كان صاحب قلب موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعد ما تخلص من الأسد الأسطورة وأزاح الظلم وقهر التعدي بل نسب الفضل إلى خالقه ولذلك أجاب سائله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

إن صفة الشجاعة ظهرت في شخصية عمر المختار المتميزة في جهاده في تشاد ضد فرنسا، وفي ليبيا ضد إيطاليا، ويحفظ لنا التاريخ هذه الرسالة التي أرسلها عمر المختار ردًا على رسالة من الشارف الغرياني الذي أكرهته إيطاليا ليتوسط لها في الصلح مع عمر المختار وإيقاف الحرب.

(قال بعد البسملة والصلاة على رسول الله القائل: «**إن الجنة تحت ظلال السيوف**».

إلى أخينا سيدي الشارف بن أحمد الغرياني حفظه الله وهداه، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ومغفرته ومرضاته. نعلمكم أن إيطاليا إذا أرادت أن تبحث معنا في أي موضوع تعتقد أنه يهمها ويهمنا فما عليها إلا أن تتصل بصاحب الأمر ومولاه سيدي السيد محمد إدريس ابن السيد محمد المهدي ابن السيد محمد السنوسي رضي الله عنهم جميعاً، فهو الذي يستطيع قبول

---

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(39، 40).

البحث معهم أو رفضه، وأنتم لا تجهلون هذا بل وتعرفون إذا شئتم أكثر من هذا ومكان سيدي إدريس في مصر معروف عندكم، وأما أنا وبقية الإخوان المجاهدين فلا نزيد عن كوننا جنداً من جنوده لا نعصي له أمراً ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن لا يقدر علينا مخالفته فنقع فيما لا نريد الوقوع فيه حفظنا الله وإياكم من الزلل، نحن لا حاجة عندنا إلا مقاتلة أعداء الله والوطن وأعدائنا وليس لنا من الأمر شيء إذا ما أمرنا سيدنا وولي نعمتنا رضي الله عنه ونفعنا به بوقف القتال نوقفه، وإذا لم يأمرنا بذلك فنحن واقفون عند ما أمرنا به ولا نخاف طيارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس المكسرين (هؤلاء الآخرين هم المجندون من بعض الليبيين) ولا نخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار ويخوا به الزروع النابتة في الأرض نحن من جنود الله وجنوده هم الغالبون ونحن لا نريد لكم ما يدفعكم إليه النصارى، وظننا بكم خير والله يوفقنا ويهدينا وإياكم إلى سبل الرشاد وإلى خدمة المسلمين ورضاء سيدنا رضي الله عنه وسلام الإسلام على من تبع الإسلام.

13 ربيع الثاني 1344هـ

نائب المنطقة الجبلية عمر المختار(1)

ومحل الشاهد من هذه الرسالة قوله: (ولا نخاف طيارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس، ولا نخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار ووضعوه على الزروع النابتة في الأرض نحن من جنود الله وجنوده هم الغالبون).

إن صفة الشجاعة ملازمة لصفة الكرم، كما أن الجبن والبخل لا يفترقان ولقد حفظ لنا التاريخ عبارة جميلة كان يرددها عمر المختار بين ضيوفه: (إننا لا نبخل بالموجود ولا نأسف لمفقود).

لقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة بمدح الكرم والإنفاق وذم البخل والإمساك، قال تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16 - 17].

لم تكن همة عمر المختار منصرفة إلى جمع المال والثروة والغنى وإن كان قد ورث عن والده بعض الماشية إلا أنه تركها في رعاية بعض أقاربه في القبيلة وترك أرضه وموطنه منذ أن كان عمره 16 عاماً، وكان طيلة فترة إقامته في معهد الجغبوب تتكفل إدارة المعهد بمصروفاته، وبعد أن تزوج وكوّن أسرة أصبح مورد رزقه ما يتحصل عليه من نتاج الحيوانات القليلة ولم يكن يوماً

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(87).

من الأيام متفرغاً لجمع المال، وإنما عاش للعلم والدعوة والجهاد، وانشغل عن جمع الأموال والثروات وقضى حياته فقيراً مقتنعاً بما رزقه الله من القناعة والرضى بالكفاف وكان يبذل ما في وسعه لضيوفه وجنوده وينفق على أفراد جيشه إنفاق من لا يخشى الفقر، ويقدم إخوانه على نفسه وأصبح شعاره (إننا لا نبخل بالموجود ولا نأسف لمفقود)[1].

خامساً - الدعوة والجهاد قبل الاحتلال الإيطالي:

تفوق عمر المختار على أقرانه بصفات عدة منها: متانة الخلق ورجاحة العقل، وحب الدعوة، ووصل أمره إلى الزعيم الثاني للحركة السنوسية محمد المهدي السنوسي فقدمه على غيره واصطحبه معه في رحلته الشهيرة من الجغبوب إلى الكفرة عام 1895م، وفي عام 1897م أصدر محمد المهدي قراراً بتعيين عمر المختار شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج، وقام عمر المختار بأعباء المهمة خير قيام، فعلّم الناس أمور دينهم، وساهم في فض النزاعات بين القبائل وعمل على جمع كلمتهم وسعى في مصالحهم، وسار في الناس سيرة حميدة، فظهر في شخصيته أخلاق الدعاة من حلم الدعاة وتأنٍ، وصبر، ورفق، وعلم، وزهد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن وقوع الاختيار عليه للقيام بأمور هذه الزاوية كان مقصوداً من قبل قيادة الحركة السنوسية، حيث إن هذه الزاوية كانت في أرض قبيلة العبيد التي عرفت بقوة الشكيمة وشدة المراس، فوفقه الله في سياسة هذه القبيلة ونجح في قيادتها بفضل الله، وبما أودع الله فيه من صفات قيادية من حكمة وعلم وحلم وصبر وإخلاص.

إن الفترة التي قضاها في زاوية القصور تدلنا وتشهد لنا على أعماله الجليلة؛ كداعية رباني يدعو إلى الإسلام ونشره بالفكرة والإقناع والإرشاد والتوجيه، فهو قمة شامخة في هذا المجال، فهو لم يدخل مجال الدعوة والإرشاد إلا بعد أن تعلم من أمور دينه الكثير، فشق طريق الدعوة بزاد علمي، وثقافة متميزة، وتفوق روحي، ورجاحة عقل، وقوة حجة، ورحابة صدر، وسماحة نفس، لقد كان حريصاً على تعلم العلم والعمل به وتعليمه، وعندما زحف الاستعمار الفرنسي على مراكز الحركة السنوسية في تشاد، نظمت الحركة السنوسية نفسها وأعدت للجهاد عدتها، واختارت من القادة من هم أولى بهذا العمل الجليل، فكان عمر المختار من ضمنهم فقارع الاستعمار الفرنسي مع كتائب الحركة السنوسية المجاهدة في تشاد وبذل ما في وسعه حتى لفت الأنظار إلى حزمه وعزمه وفراسته وبعد نظره وحسن قيادته فقال عنه محمد المهدي السنوسي: (لو كان لدينا عشرة مثل المختار لاكتفينا)[2].

---

(1) انظر: عمر المختار، ص(32).

(2) انظر: مجلة المسلم.

وبقي عمر المختار في تشاد يعمل على نشر الإسلام ودعوة الناس وتربيتهم إلى جانب جهاده ضد فرنسا، فحمل الكتاب الذي يهدي بيد والسيف الذي يحمي باليد الأخرى، وظهرت منه شجاعة وبطولة وبسالة نادرة في الدفاع عن ديار المسلمين، وكانت المناطق التى يتولى أمرها أمنع من عرين الأسد، ولا يخفى ما في ذلك من إدراك القيادي المسلم لواجبه تجاه دينه وعقيدته وأمته[1].

وعندما أصيبت الإبل التي كانت تحمل الأثقال للمجاهدين بمرض الجرب، وكان عددها لا يقل عن أربعة آلاف بعير وكانت تلك الإبل هي قوام الحياة بالنسبة للمجاهدين، واهتم السيد المهدي السنوسي بشأن علاجها ووقع اختياره على عمر المختار ليكون المسؤول عن هذه المهمة التي شغلت بال المجاهدين، فأمره بأن يذهب بالإبل إلى موقع (عين كلك) نظراً لوفرة مائه ولصلاحيته، وكان على عمر المختار مهمة أخرى وهي الاحتياط والحرص الشديد واتخاذ التدابير اللازمة للدفاع، واختار عمر المختار من المجاهدين مجموعة خيرة، وذهب لتنفيذ أمر القيادة وكان توفيق الله له عظيماً في مهمته العسيرة فنال إعجاب السيد المهدي[2].

وفي عام 1906م رجع عمر المختار بأمر من القيادة السنوسية إلى الجبل الأخضر ليستأنف عمله في زاوية القصور، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد بدأت المعارك الضارية بين الحركة السنوسية والبريطانيين في منطقة البردى ومساعد والسلوم على الحدود الليبية المصرية. ولقد شهد عام 1908م أشد المعارك ضراوة وانتهت بضم السلوم إلى الأراضي المصرية تحت ضغوط بريطانيا على الدولة العثمانية، وعاد الشيخ عمر المختار إلى زاوية القصور وبرزت شخصيته بين زملائه مشايخ الزوايا، وبين شيوخ وأعيان القبائل، ولدى الدوائر الحكومية العثمانية، وظهرت مقدرته في مهمته الجديدة بصورة تلفت النظر، وأصبح متميزاً في حزمه في إدارة الزاوية وفي تعاونه مع زملائه الآخرين وفي معالجته للمشاكل القبلية، وفي ميدان الإصلاح العام مضرباً للأمثال.

وكانت تربطه صلات شخصية مع عدد كبير من زعماء وأعيان القبائل في برقة، وكذلك زعماء المدن، وكان زعماء البراعصة يحبون عمر المختار حبًا نابعاً من قلوبهم في حين أنهم لم يكونوا من القبائل التابعة لزاويته، وارتبطت علاقاته الأخوية مع شيوخ الزوايا كالسادة السنوسي الأشهب شيخ زاوية مسوس، وعمران السكوري شيخ زاوية المرج، وعبد ربه بوشناف الشيخي، والحسن الغماري شيخ زاوية دريانة[3].

---

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(27).

(2) انظر: عمر المختار، ص(37).

(3) المصدر السابق، ص(40، 41).

سادساً - الشيخ عمر المختار في معاركه الأولى ضد إيطاليا:

عندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية عام 1911م كان عمر المختار وقتها بواحة (جالو) فخفّ مسرعاً إلى زاوية (القصور) وأمر بتجنيد كل من كان صالحاً للجهاد من قبيلة العبيد التابعة لزاوية (القصور)، فأجابوا نداءه، وأحضروا لوازمهم، وحضر أكثر من ألف مقاتل، وكان عيد الأضحى من نفس السنة الهجرية على الأبواب أي لم يبق عنه إلا ثلاثة أيام فقط، ولم ينتظر السيد عمر المختار عند أهله حتى يشاركهم فرحة العيد، فتحرك بجنوده وقضوا يوم العيد في الطريق وكانت الذبائح التي أكل المجاهدين من لحومها يوم العيد من السيد عمر المختار شخصيًا، وصل المجاهدون وعلى رأسهم عمر المختار وبرفقته أحمد العيساوي إلى موقع بنينه حيث معسكر المجاهدين الذي فرح بقدوم نجدة عمر المختار ورفقائه ثم شرعوا يهاجمون العدو ليلاً ونهاراً وكانت غنائمهم من العدو تفوق الحصر[1]. وقد بينت دور الزوايا في جهادها ضد إيطاليا في الجزء الثاني عن الحركة السنوسية والذي سميته «سيرة الزعيمين محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف».

ويذكر الشيخ محمد الأخضر العيساوي أنه كان قريباً من عمر المختار في معركة السلاوي عام 1911م فوصف لنا بعض أحداث تلك المعركة فقال: (. . . وقد فاجأنا العدو فقابله من المجاهدين الخيالة، بينما كان العدو يضربنا بمدافعه الرشاشة واضطررنا للنزول في مكان منخفض مزروع بالشعير وكانت السنابل تتطاير بفعل الرصاص المنهمر، فكأنها تحصد بالمناجل، وبينما نحن كذلك إذا رأينا مكاناً منخفضاً أكثر من المكان الذي نحن فيه، وأردنا أن يأوي إليه السيد عمر المختار بسبب خوفنا عليه فرفض بشدة حتى جاءه أحد أتباعه يدعى السيد الأمين ودفعه بقوة إلى المكان الذي اخترناه لإيوائه وحاول الخروج منه فمنعناه بصورة جماعية. . . . .)[2].

كما أشار الشيخ محمد الأخضر إلى إعجاب الضباط الأتراك به وبشجاعته وبالآراء السديدة التي تصدر عنه فكأنما هي تصدر من قائد ممتاز تخرج عن كلية عسكرية، وكان قدومه إلى معسكرات المجاهدين مشجعاً وباعثاً للروح المعنوية في قوة خارقة، وقد تحدثت في سيرة أحمد الشريف في الجزء الثاني من الحركة السنوسية عن حركة الجهاد في أيامها الأولى ضد إيطاليا، وكان عمر المختار من المقربين للشيخ أحمد الشريف السنوسي، وبعد هجرته لازم عمر المختار الأمير محمد إدريس وقام بواجباته خير قيام، وبعد هجرة الأمير إلى مصر تولى أمر القيادة العسكرية بالجبل الأخضر، وأخذ في تهيئة النفوس لمجابهة العدو وبدأ جولاته في أنحاء المنطقة للاتصال بالأهالي وزعمائهم، بل وبالأفراد كخطوة أولى للعمل الجديد الشاق في نفس

(1 - 2) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(6).

الوقت، وقام بفتح باب التطوع للجهاد، فأقبل الليبيون من أبناء قبائل الجبل بوجوه مستبشرة وقلوب مطمئنة وتلهف على مجابهة العدو الغادر، وكانت ترافقه لجنة مكونة من أعيان وشيوخ قبائل المنطقة (البراغيث، والحرابي، والمرابطين) لمساعدته في عمله العظيم وكان من بينهم: بوشديق بومازق حدوث، الصيفاط بوفروة، محمد بولقاسم جلغاف، حمد الصغير حدوث، دلاف بو عبد الله، محمد العلواني، سويكر عبد الجليل، موسى بوغيضان، الغرياني عبد ربه بوشناف، عبد الله الخرساني، عوض العبيدي، رجب بوسيحة، رواق بودرمان، كريم بوراقي، قطيط الحاسي، وغير هؤلاء من علية القوم، فزار أغلب مناطق الجبل والبطنان، وكان سمو الأمير قد وصل إلى لمصر (يناير 1923م) وما كاد السيد عمر ينتهي من جولته هذه ويطمئن للنتائج حتى قرر الالتحاق بسمو الأمير في مصر ليعرض عليه نتيجة عمله ويتلقى منه التوجيهات اللازمة[1].

سابعاً - سفره إلى مصر:

سافر في شهر مارس سنة 1923م إلى مصر بصحبة علي باشا العبيدي وترك رفقاءه عند بئر الغبي حتى يعود إليهم، واستطاع اجتياز الحدود المصرية وتمكن من مقابلة السيد إدريس بمصر الجديدة، وكان عمر المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها وظهر ذلك الولاء في إقامته بمصر عندما حاول جماعة من قبيلة المنفة وهي قبيلة السيد عمر المختار، وكانوا قد أقاموا بمصر، أن يقابلوا السيد عمر المختار للترحيب به، فاستفسر المختار قبل أن يأذن لهم بذلك عما إذا كانوا قد سعوا لمقابلة الأمير عند حضوره إلى مصر، فلما أجاب هؤلاء بالنفي معتذرين بأن أسباباً عائلية قهرية منعتهم من تأدية هذا الواجب رفض المختار مقابلتهم قائلاً: (وكيف تظهرون لي العناية وتحضرون لمقابلتي وأنتم الذين تركتم شيخي الذي هو ولي نعمتي وسبب خيري، أما وقد فعلتم ذلك فإني لا أسمح لكم بمقابلتي ولا علاقة من الآن بيني وبينكم)[2].

فما أن بلغ السيد إدريس ما فعله عمر المختار مع من جاء إليه من أبناء قبيلته حتى أصدر أمره بمقابلتهم فامتثل المختار لأمره[3].

حاولت إيطاليا بواسطة عملائها بمصر الاتصال بالسيد عمر المختار وعرضت عليه بأنها سوف تقدم له مساعدة إذا ما تعهد باتخاذ سكنه في مدينة بنغازي أو المرج، وملازمة بيته تحت رعاية وعطف إيطاليا، وأن حكومة روما مستعدة بأن تجعل من عمر المختار الشخصية الأولى في ليبيا كلها وتتلاشى أمامه جميع الشخصيات الكبيرة التي تتمتع بمكانتها عند إيطاليا في

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(56).
(2) المصدر السابق، ص(8).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(271).

طرابلس وبنغازي، وإذا ما أراد البقاء في مصر فما عليه إلا أن يتعهد بأن يكون لاجئاً ويقطع علاقته بإدريس السنوسي، وفي هذه الحالة تتعهد حكومة روما بأن توفر له راتباً ضخماً يمكّنه من حياة راغدة، وهي على استعداد أن يكون الاتفاق بصورة سرية وتوفير الضمانات لعمر المختار ويتم كل شيء بدون ضجيج تطميناً لعمر المختار، وقد طلبت منه نصح الأهالي بالإقلاع عن فكرة القيام في وجه إيطاليا[1]، وقد أكد عمر المختار هذا الاتصال وهو في مصر لما سئل عن ذلك وقال: ثقوا أنني لم أكن لقمة طائبة يسهل بلعها على من يريد، ومهما حاول أحد أن يغير من عقيدتي ورأيي واتجاهي فإن الله سيخيبه ومن (طياح سعد) إيطاليا ورسلها هو جهلها بالحقيقة. وأنا لم أكن من الجاهلين والموتورين فأدعي أنني أقدر أعمل شيئاً في برقة، ولست من المغرورين الذين يركبون رؤوسهم ويدعون أنهم يستطيعون أن ينصحوا الأهالي بالاستسلام، إنني أعيذ نفسي من أن أكون في يوم من الأيام مطية للعدو وأذنابه فأدعو الأهالي بعدم الحرب ضد الطليان، وإذا - لا سمح الله - قدّر عليّ بأن أكون موتوراً فإن أهل برقة لا يطيعون لي أمراً يتعلق بإلقاء السلاح. إنني أعرف أن قيمتي في بلادي إذا ما كانت لي قيمة أنا وأمثالي فإنها مستمدة من السنوسية[2].

لقد استمرت عروض الإيطاليين على عمر المختار حتى بعد رجوعه للبلاد وحاولوا استمالته بالمال الطائل، والمناصب الرفيعة، والجاه العريض في ظل حياة رغيدة ناعمة ولكنهم لم يفلحوا، لقد كان عمر المختار رجل عقيدة، وصاحب دعوة ومؤمناً بفكرة استمدت أصولها وتصوراتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ويفهم جيداً معنى قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18 - 19].

وعندما خرج السيد عمر المختار من مصر قاصداً برقة لمواصلة الجهاد اجتمع به مشايخ قبيلته الموجودن بمصر من المتقدمين في السن وحاولوا أن يثنوه عن عزمه بدعوى أنه قد بلغ من الكبر عتياً وأن الراحة والهدوء ألزم له من أي شيء آخر وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائداً غيره لتزعم حركة الجهاد في برقة، فغضب عمر المختار غضباً شديداً وكان جوابه قاطعاً فاصلاً فقال لمحدثيه: (إن كل من يقول لي هذا الكلام لا يريد خيراً لي؛ لأن ما أسير فيه إنما هو طريق خير ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها، وكل من يحاول ذلك فهو عدو لي)[3].

لقد كان عمر المختار يعتقد اعتقاداً راسخاً أن ما كان يقوم به من الجهاد إنما هو فرض

(1) انظر: عمر المختار، ص(56).

(2) انظر: عمر المختار، ص(58).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(271).

يؤديه وواجب ديني لا مناص منه ولا محيد عنه ولذلك أخلص في عمله وسكناته وأحواله وأقواله لقضية الجهاد في ليبيا، وكان يكثر من الدعاء لله تعالى بأن يجعل موته في سبيل هذه القضية المباركة، فكان يقول: (اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة)[1]، وأصر على البقاء في أرض الوطن الحبيب وقال: (لا أغادر هذا الوطن حتى ألاقي ربي والموت أقرب إلي من كل شيء فإني أترقبه بالدقيقة)[2].

وعندما عرض عليه أن يترك ساحة الجهاد، ويسافر إلى الحج قال: (لن أذهب ولن أبرح هذه البقعة حتى يأتي رسل ربي وإن ثواب الحج لا يفوق ثواب دفاعنا عن الوطن والدين والعقيدة)[3].

وقال: (كل مسلم الجهاد واجب عليه وليس منه، وليس لغرض أشخاص وإنما هو لله وحده)[4].

إن هذه الكلمات التي كتبت بماء الذهب على صفحات تاريخنا المجيد نابعة من فهم عمر المختار لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 19 - 22].

ومن فهمه لأحاديث رسول الله ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[5].

ولقوله ﷺ: **«من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»**[6].

إن هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، كانت المنهج العقدي والفكري الذي تربت عليها كتائب المجاهدين وقادتها الكرام الذين تربوا في أحضان الحركة السنوسية.

تم الاتفاق بين الأمير إدريس وعمر المختار على تفاصيل الخطة التي يجب أن يتبعها المجاهدون ضد العدو الغاشم المعتدي على أساس تشكيل المعسكرات، واختيار القيادة الصالحة لهذه الأدوار، وأن تظل القيادة العليا من نصيب عمر المختار نفسه، وزوده الأمير بكتاب إلى السيد الرضا بهذا المعنى، وتم الاتفاق على بقاء الأمير في مصر ليقود العمل

---

(1) انظر: عمر المختار نشأته وجهاده للحساوي، ص(36).

(2 - 4) المصدر السابق نفسه، ص(37).

(5) رواه مسلم.

(6) انظر: صحيح سنن أبي داود، للشيخ الألباني رحمه الله.

السياسي، ويهتم بأمر المهاجرين ويضغط على الحكومة المصرية والإنكليزية بالسماح للمجاهدين بالالتجاء إلى مصر، ويشرف على إمداد المجاهدين بكل المساعدات الممكنة من مصر، ويرسل الإرشادات والتعليمات اللازمة إلى عمر المختار في الجبل واتفق على أن يكون الحاج التواتي البرعصي حلقة الوصل بين الأمير وقائد الجهاد، وبعد ذلك الاتفاق غادر عمر المختار القاهرة، وعند وصوله إلى السلوم وجد بعض رفقائه في انتظاره، فأخذ الجميع حاجتهم من المؤن الكافية لرحلتهم إلى الجبل الأخضر وغادروا السلوم إلى برقة[1].

وقد حدث في أثناء وجود عمر المختار أن اشتبك المجاهدون مع الطليان في معركتين كبيرتين في بير بلال والبريقة في ذي القعدة 1341هـ/ 1923م، فانتصر المجاهدون على الطليان في معركة بير بلال بقيادة المجاهد قجة عبد الله السوداني واستشهد كل من المهدي الحرنة، والشيخ نصر الأعمى وغيرهم، وقد ساهم في هذه المعركة صالح الأطيوش، والفضيل المهشهش وكانت نفقات المجاهدين في هذه المعركة على حساب الفضيل المهشهش، ووقعة معركة البريقة بعد بير بلال بأربعة أيام واستشهد فيها من أبطال الجهاد إبراهيم الفيل[2].

ومع هذه الانتصارات إلا أن الطليان استطاعوا احتلال أماكن للمجاهدين في برقة، وزحفوا على معسكر العواقير بموقع البدين وبعد معركة شديدة كبدت الطرفين خسائر فادحة انسحب المعسكر إلى إجدابية واستمر الزحف الإيطالي يلاحق المجاهدين حتى اشتبك مع طلائع معسكر المغاربة في الزويتينة؛ ولم يطل الدفاع عنها حتى احتلها الطليان وواصلوا زحفهم إلى إجدابية حيث احتلوها في (إبريل، 1923م)[3].

ثامناً - معركة بئر الغبي:

كانت عيون إيطاليا ترصد حركة المختار في دعوته إلى برقة ولكنها فشلت في اللقاء به قبل أن يصل إلى رفاقه، وما كاد يصل إلى بئر الغبي حتى فوجىء بعدد من المصفحات الإيطالية، وإليك أحداث المعركة كما رواها عمر المختار بنفسه: (كنا لا نتجاوز الخمسين شخصاً من المشايخ والعساكر وبينما تجمع هؤلاء حولنا لسؤالنا عن صحة سمو الأمير، وكنا صائمين رمضان، وإذا بسبعة سيارات إيطالية قادمة صوبنا فشعرنا بالقلق لأن مجيئها كان محل استغرابنا ومفاجأة لم نتوقعها، وكنا لم نسمع عن هجوم الطليان على المعسكرات السنوسية، واحتلالهم إجدابية، فأخذنا نستعد في هدوء والسيارات تدنو منا في سير بطيء فأراد علي باشا العبيدي أن يطلق الرصاص من بندقيته ولكني منعته قائلاً: لا بد أن نتحقق قبلاً من الغرض

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(273).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(273، 274).

(3) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(63).

ونعرف شيئاً عن مجيء هذه السيارات؛ كي لا نكون البادئين بمثل هذه الحوادث وبينما نحن في أخذ ورد وإذا بالسيارات تفترق في خطة منظمة المراد منها تطويقنا، وشاهدنا المدافع الرشاشة مصوبة نحونا فلم يبق لنا أي شك فيما يراد بنا فأمطرناهم وابلاً من رصاص بنادقنا، وإذا بالسيارات قد ولت الأدبار إلى منتجع قريب منا وعادت بسرعة تحمل صوفاً، ولما دنت منا توزعت توزيعاً محكماً وأخذ الجنود ينزلون ويضعون الأصواف (الخام) أمامهم ليتحصنوا بها من رصاصنا[1] وبادرنا بطلق الأعيرة فأخذ علي باشا يولع سيجارة وقلت له: رمضان يا علي باشا منبهاً إياه للصوم فأجابني قائلاً: (مو يوم صيام المنشر زام)[2].

وفي أسرع مدة انجلت المعركة عن خسارة الطليان وأخذت النار تلتهم السيارات إلا واحدة فرت راجعة، وغنمنا جميع ما كان معهم من الأسلحة)[3].

ثم استمر المجاهدون في سيرهم حتى بلغوا الجبل الأخضر ووصلوا إلى زاوية القطوفية (مكان معسكر المغاربة) وقابلهم صالح الأطيوش والفضيل المهشهش ووقف عمر المختار على تفاصيل معركة البريقة وحال المجاهدين، ثم واصل سيره إلى جالو مقر السيد محمد الرضا ليبلغ التعليمات التي أخذها من سمو الأمير.

وبعد أن تم اللقاء بين عمر المختار والسيد الرضا اتفقا على تنظيم حركة الجهاد وإنشاء المعسكرات في الجبل الأخضر، واقترح عمر المختار على الرضا أن يرسل ابنه الصديق إلى معسكر المغاربة عند صالح الأطيوش، معسكر العواقير بقيادة قجة عبد الله السوداني، وهي معسكرات قريبة من بعضها، ثم غادر عمر جالو إلى الجبل الأخضر وشرع في تشكيل المعسكرات للمجاهدين، وأنشئت معسكرات البراعصة والعبيد والحاسة، فاختار الرضا حسين الجويفي البرعصي لقيادة البراعصة، ويوسف بورحيل المسماري لمعسكر البراغيث والفضيل بو عمر لمعسكر الحاسة وأصبح عمر المختار القائد الأعلى لتلك المعسكرات.

وبدأ الجهاد الشاق والطويل واستمر متصلاً ومن غير هوادة حوالي ثمانية أعوام.

وكان عامي 1924م، 1925م قد شهدا مناوشات عدة ومعارك دامية، ووسع المجاهدون نشاطهم العسكري في الجبل الأخضر، ولمع اسم عمر المختار نجمه كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر ويتمتع بنفوذ عظيم بين القبائل، وأخذ العرب من أبناء القبائل ينضمون إلى صفوف المجاهدين وبادرت القبائل بإمداد المجاهدين بما يحتاجون من مؤن وعتاد وأسلحة، وكان

---

(1) كان الصوف الخام الكثيف يستعمل ضد الرصاص.

(2) هذا المثل باللهجة البدوية ومعناه: لم يكن اليوم من أيام الصيام حيث إن صوت البنادق أخذ يدوي. وكلمة المنشر هي اسم لنوع من البنادق. وكلمة زام دواء من الأدوية.

(3) انظر: عمر المختار، ص(64).

لقبائل العبيد، والبراعصة، والحاسة والدرسة والعواقير وأولاد الشيخ والعوامة، والشهيبات والمنفا والمسامير أكبر نصيب في حركة الجهاد.

كان معسكر البراغيث هو مركز الرياسة العامة ومقر القائد العام عمر المختار، وهو النواة الأولى وحجر الأساس لمعسكرات الجبل الأخضر الثلاثة، وكان عمر المختار يلقب بنائب الوكيل العام، وكان السيد يوسف بورحيل يعرف بوكيل النائب وهكذا فقد تنظم الجهاز الحكومي في هذه المنطقة الواسعة بتشكيل المحاكم الشرعية والصلحية وإدارة المالية (المحاسبة، والأرزاق، جباية الزكاة الشرعية، الخمس من الغنائم) واستمر التعاون بين هذه المعسكرات الثلاثة وفروعها في السراء والضراء وأخذت تقوم بحركات عظيمة ضد العدو وشن الغارة عليه في معاقله؛ كما كانت تتصدى لزحفه عليها، .فتهجم حيناً، وتنسحب حيناً آخر حسب ظروف الحرب[1].

أصبح تفكير إيطاليا محصوراً في برقة التي لم يتمكن الطليان منذ زحفهم على إجدابية سنة 1923م من احتلال مواقع تذكر عدا مدينة إجدابية، ولذلك اهتمت إيطاليا ببرقة وانحصرت مجهوداتها في الفترة الواقعة بين سنة 1923م وبين 1927م على معسكرات عمر المختار الذي لم يخرج يوماً من معركة إلا ليدخل في معركة أخرى.

وفي عام 1927م وقع الوكيل العام السيد رضا المهدي السنوسي في الأسر بطريق الخديعة والخيانة والغدر وسقطت مناطق برقة الحمراء والبيضاء تدريجيًا.

كانت قيادة الجيش الإيطالي في برقة قد بدلت وتولى أمرها لتنفيذ الخطة الجديدة التي تستهدف ضرب الحصار على حركة الجهاد في الجبل الأخضر (ميزتي) كما استبدل والي بنغازي الإيطالي (مومبيلي) بخلفه الجنرال (تيروتس) وهو من زعماء الحزب الفاشيستيين، وزود الجنرال ميزتي بعدد كبير من الجنرالات وكبار الضباط وأركان الحرب لمساعدته وفي نفس السنة تقدمت القوات الإيطالية من طرابلس بقيادة الجنرال غرسياني فاحتلت واحة الجفرة والقسم الأكبر من فزان، واشتبكت قبائل المغاربة بزعامة صالح الأطيوش وقبائل أولاد سليمان بزعامة عبد الجليل سيف النصر، ودور حمد بك سيف النصر، وبعض اللاجئين إلى تلك الجهات من قبائل العواقير بزعامتي عبد السلام باشا الكزة، والشيخ سليمان رقرق، ودخلت هذه القبائل في معارك بجهات الخشة وكانت الغلبة فيها للجيش الإيطالي الزاحف فالتجأ المجاهدون إلى منطقة الهاروج من الصحراء ومن ثم اشتركوا مع العدو في معارك عنيفة منها معركة الهاروج، ومعركة جبل السوداء، ومعركة قارة عافية وكان من بين من حضروا هذه المعركة الأخيرة السيد محمود

(1) انظر: عمر المختار، ص(70).

بوقوطين أمير اللواء وقائد عام قوة دفاع برقة في زمن المملكة الليبية المتحدة، والسيد السنوسي الأشهب[1].

كانت القيادة الإيطالية حريصة على الاستيلاء على فزان فخرجت في أواخر يناير 1928م قوتان. . . إحداهما من غدامس والأخرى من الجبل الأخضر، وكان الجيش بقيادة غرسياني والتحم المجاهدون مع ذلك الجيش في معركة دامية استمرت خمسة أيام بتمامها، انهزم فيها الطليان شر هزيمة فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر ثم ما لبث أن خرجت قوة أخرى قصدت فزان مباشرة، فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثة أيام وانسحبوا إلى الداخل، حتى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بين جبلين يعرفان بالجبال السود انقض المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر، فعمل قواد الحملة إلى الفرار بسياراتهم تاركين وراءهم الجيش الذي وقع أكثره في قبضة المجاهدين فاستأصلوهم عن آخرهم، وعندئذٍ لم يجد الطليان مناصاً من أن يجددوا محاولتهم، فخرجت هذه المرة قوات عظيمة من جهات متعددة غير أن الطليان ما لبثوا أن انهزموا في هذه المعارك وتركوا وراءهم غنائم وأسلاباً كثيرة[2]، وجدد الطليان المسعى وخرجوا من الجفرة في 3 فبراير 1928م بجيش كبير وزحفوا على زلة واحتلتها في 22 فبراير وواصلت القوات الإيطالية سيرها واحتلت آبار تتقرفت في 25 فبراير واستمرت العمليات وانتهت باحتلال مراده، وأصبحت زلة وجالوا، وأوجلة ومرادة تحت سيطرتهم، ومما ساعد الطليان على احتلالهم لتلك الواحات سقوط الجغبوب قبل ذلك في أيديهم، وسياستهم الرامية لتفتيت الصف بواسطة بعض عملائهم، وكان الطليان يبذلون الأموال والوعود لزعماء القبائل، لوقف القتال وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً.

كان احتلال الجغبوب، جالو، أوجلو وفزان وغيرها من الواحات قد جعل عمر المختار في عزلة تامة في الجبل الأخضر، ومع هذا ظل عمر المختار يشن الغارات على درنة وما حولها حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم لمقابلته، فاشتبك معهم في معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه وفرّ الطليان تاركين عدداً من السيارات والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة والجمال، ودواب النقل[3].

وكانت القبائل تتعاون مع قائد حركة الجهاد، تمده بالرجال والمؤن والمعلومات، وعلى سبيل المثال كان حامد عبد القادر المبروك من شيوخ قبيلة المسامير يمد المختار بالمعلومات المهمة دون تأخر، ويشارك في عمليات الجهاد مع أبناء قبيلته بدون علم الطليان، ويرجع من

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(73).
(2) انظر: حياة عمر المختار، لمحمود شلبي، ص(114، 115).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(114).

كتبت له الحياة إلى موطنه ويستشهد من يستشهد، وكان زعماء القبائل التابعة للحركة السنوسية يجمعون الأعشار والزكاة ويمدون بها حركة الجهاد بالرغم من وجود الكثير منهم تحت السلطات الإيطالية وخصوصاً من كان في المدن كبنغازي، والمرج، ودرنة، وطبرق وغيرها، وكانت وسائل مد المجاهدين بأموال الزكاة والأعشار تتم في غاية السرية، وعجزت المخابرات الإيطالية عن اكتشاف اللجان الخاصة بالدعم المالي للمجاهدين، ومن وقع في أيدي السلطات الإيطالية كانت عقوبته الإعدام وكانت الغنائم تمثل مصدراً مهمًا لتمويل حركة الجهاد في فترة عمر المختار، ومعظم الغنائم تم الحصول عليها في المعارك التي تمكن فيها المجاهدون من هزيمة الإيطاليين؛ مثل معركة الرحيبة في مارس 1927م(1) وقد وصف حافظ إبراهيم هذا المصدر في أبياته الشعرية فقال:

حاتم الطليان قد قلدتنا ... منة نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عدة ... ولباساً وشراباً وطعاما
وسلاحاً كان في أيديكم ... ذا ملال فغداً يفري العظاما
أكثروا النزهة في أحيائنا ... وربانا إنها تشفى السقاما
لست أدري بت ترعى أمة ... من بني الطليان أم ترعى سواما(2)

وقال الأستاذ أحمد كاشف ذو الفقار:

يآل رومة تطلبون أمانياً ... ختالة أم تطلبون منونا
جئتم تجرون الحديد ورحتم ... بحديدكم في اليم مغلولينا
ورقصتم فيه سكارى فارقصوا ... في الليلة السوداء مذبوحينا
لكن استفزكم صليل سيوفكم ... فلقد تبدل زفرة وأنينا

إلى أن قال:

هاتوا الذئاب إلى الليوث فخمسة ... منهم أبادوا منكم خمسينا
واستجمعوا حيتانكم ونسوركم ... فالصائدون هناك مرتقبونا
واستكثروا الذار الشهي فإنكم ... وسلاحكم والزاد مأخوذينا
لم يبق منهم معسر أو أعزل ... بعد الذي غنموه منتصرينا
واستكملوا المدد الكبير بفتية ... سيقوا إلى الهيجاء هيابينا

---

(1) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، عقيل البربار، ص(82، 83).
(2) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(91).

أحسبتم بطحاء برقة حانة لكم وغزو القيروان مجونا[1]

وكانت كل عائلة قد أخذت على عاتقها تزويد مجاهديها بما يلزم من شؤون وملابس، ترسله شهرياً إلى الدور (المعسكر).

وكان الأمير إدريس يتحين الفرص لتزويد المجاهدين فقد ذكر الأشهب بأن قافلة وصلت المجاهدين قادمة من مصر وكان فيها سليمان العميري (من قبيلة أولاد علي) وبومنيقر المنفى (من رفاق عمر المختار) يحملان رسائل من سمو الأمير، وكانت القافلة محملة بالأرز والدقيق والسكر والشاي وبعض الملابس، وكان الطيب الأشهب موجوداً في معسكر المجاهدين وقت وصول القافلة[2] وقد ذكر صاحب كتاب «حياة عمر المختار» بأن القافلة استطاعت أن تخرج من السلوم محملة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة معسكر المجاهدين في الجبل الأخضر، فعلم الطليان بذلك وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها، ولكنَّ المجاهدين صمدوا لهم، وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات فتعطلت السيارات، وعندئذٍ انقض المجاهدون على القوة الإيطالية فأبادوها عن آخرها وكان ذلك في عام 1928م[3]. وكان المجاهدون يستفيدون من تلك المصادر ويقومون بشراء حاجيات المجاهدين من الأسواق في المدن والقرى، ويشترون ما يلزمهم من المؤن والأسلحة ويجمعون المعلومات عن تحركات العدو العسكرية، كل هذه الأعمال يقوم بها أتباع عمر المختار وبمساعدة سكان المدن والقرى الذين يخفون المجاهدين في بيوتهم ومخيماتهم، وكان المتطوعون يتدفقون على معسكرات الجهاد، وكانوا يعتمدون على أنفسهم في توفير السلاح ووسيلة الركوب والتموين، وكان نظام الأدوار (المعسكرات) يتميز بالآتي:

1 - يلتزم كل دور بتوفير التموين اللازم لأفراده، فهم بالإضافة إلى اشتراكهم في عمل واحد، وهم أبناء عشيرة واحدة مترابطة، ويوجد بالدور أشخاص مكلفون بجباية الزكاة وجمع الأعشار، وهؤلاء يقومون بعملهم بناء على تكليف كتابي من عمر المختار وهم بدورهم يجرون إيصالات (كوشان) بقيمة المبالغ والأشياء التي استلموها.

وقد عين لكل دور رئيس إدارة يشرف على تموين الدور من حيث التوزيع والتخزين والتدبير وتسلم الأموال والتبرعات التي تصل لقيادة الدور، فقد عين عمران راشد القطعاني رئيساً لإدارة دور البراعصة والدرسة، وعين التواتي العرابي رئيساً لإدارة دور العبيدات

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(95).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(79).
(3) انظر: حياة عمر المختار، لشلبي، ص(117، 118).

والحاسة، وعين الصديق بو هزاوي مأموراً للأعشار ويتبع عمر المختار مباشرة، وعين داود الفسي رئيساً لإدارة دور العواقير(1).

2 - يقوم كل دور بتعويض الشهداء من المقاتلين بآخرين من قبائلهم وهكذا لا يتأثر الدور كثيراً لفقد الشهداء، فبعد كل معركة يتم حصر الشهداء وإلى أي القبائل ينتمون ثم يرسل إلى كل قبيلة العدد الذي يجب أن تعوضه عن شهدائنا، وإذا لم تجد العدد المطلوب تدفع لقيادة الجهاد 1000 فرنك عن كل شهيد لكي يجند بها العدد اللازم.

3 - تتبارى مجموعات القبائل في تقديم البطولات والتضحيات حتى لا تكون موضع سخرية واستهزاء أمام بقية القبائل، وكان المجاهد الليبي يغضب غضباً شديداً ويحزن إذا فاته الاشتراك في إحدى المعارك أو تخلف عنها لسبب من الأسباب، وإبراهيم الفيل العريبي نموذج لهؤلاء فقد فاته أن يشارك في معركة بلال فحزن حزناً شديداً، إلا أن قادة الجهاد طمأنوه وقالوا له: إن أيام الجهاد كثيرة، وفي اليوم التالي جرت معركة البريقة فاشترك فيها وهجم بفرسه على سيارات الأعداء وصار يقاتل حتى أكرمه الله بالشهادة.

4 - يسهل على كل دور توفير الحماية اللازمة لذويه عن طريق الدوريات والرباطات التي تراقب تحركات القوات الإيطالية أو أية تحركات غير عادية لمعرفتهم بمسالك المنطقة ودروبها وأماكن المياه بها، فعندما يحل الدور بمنطقة ما يضع دورية في كل اتجاه لتراقب وضع القوات الإيطالية في تلك المنطقة وتغطي أخبار تحركاتها للمجاهدين أولاً بأول حتى يكونوا على علم باتجاه وتحركات العدو، وحين يلتقي أفراد الدورية بالأعداء يطلقون ثلاث إطلاقات وعند سماع تلك الإطلاقات يستعد الجميع لملاقاة الأعداء في الجهة التي سمع منها إطلاق الرصاص.

كما تقوم دوريات أخرى تعرف باسم (الرباط) بمراقبة الإيطاليين في مراكزهم التي يحتلونها للحصول على معلومات عن تحركاتهم عن طريق الأهالي الموجودين داخل تلك المدن، وكثيراً ما يتعرض بعض هؤلاء الأهالي بسبب تعاونهم مع المجاهدين لعقوبة الإعدام، كما حدث مع سليمان بن سعيد العرفي الذي أدانته المحاكم الإيطالية بالتعاون مع المجاهدين وحكمت عليه بالإعدام، فأعدم شنقاً(2).

كان نظام الأدوار يقوم على أساس قبلي ويعتبر الدور وحدة عسكرية وإدارية واجتماعية يرأسها قائمقام، وتتمثل فيه السلطة الإدارية والعسكرية يساعده قوماندان (قائد) أو أكثر حسب حجم الدور المنضوية تحته.

---

(1) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(105).

(2) انظر: المصدر نفسه، ص(106).

وقد استخدم عمر المختار النظام العسكري العثماني، فبالإضافة إلى القائمقام والقومانداان هناك الرتب الآتية: بكباشي - يوزباشي - ملازم أول - ملازم ثاني - كوجك ضابط (ضابط صغير) باش شاوش - شاوش - أمباشي.

وكانت الترقيات تتم على أسس ميدانية بناء على ما يقدمه الشخص من أعمال وبطولات في ميادين المعارك والمواقف الدقيقة، إذ يرفع إلى عمر المختار تقرير من الرئيس المباشر بشرح الحالة التي استحق عليها المعنيّ الترقية، ويصدر بذلك أمر كتابي من عمر المختار على بقية المجاهدين[1].

وكان هناك مجلس أعلى يرأسه المختار يتكون من: يوسف بورحيل، حسين الجويفي، الفضيل بو عمر، محمد السركسي، موسى غيضان، محمد مازق، محمد العلواني، جربوع سويكر، قطيط الحاسي، رواق درمان وفي حالة غياب عمر المختار يرأس المجلس يوسف بو رحيل[2].

وكان لكل من الأدوار مجلس يتكون من مشايخ القبائل وأعيانها من المعروفين بالحكمة وسداد الرأي: ومهمة هذا المجلس استشارية وهو في حالة انعقاد دائم لمواجهة الطوارىء والإسهام في حل المشاكل التي قد تحدث بالدور[3].

تاسعاً - معركة أم الشفاتير (عقيرة الدم):

استمر المجاهدون في الجبل الأخضر يشنون الهجمات على القوات الإيطالية وحققوا انتصارات رائعة من أشهرها موقعة يوم الرحيبة بتاريخ 28 مارس 1927م[4]، جنوب شرقي المرج وقرب جردس العبيد، ووقعت بعد معركة الرحيبة معارك ضارية في بئر الزيتون 10 محرم 1335هـ، 10 يوليو 1927م، ورأس الجلاز 13 محرم 1335هـ، 13 يوليو 1927م.

أراد الإيطاليون أن ينتقموا لقتلاهم في معركة الرحيبة، فشرعت تعد العدة للانتقام لقتلاها الضباط الستة وأعوانهم المرتزقة البالغ عددهم (312) في محاولة لإعادة معنوياتهم المنهارة نتيجة لتلك الهزيمة الساحقة تم إعداد الجيوش الجرارة، لتتخذ من الجبل الأخضر قاعدة لها على النحو التالي[5]:

(1) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ندوة علمية، ص(100).
(2) انظر: برقة العربية، للأشهب، ص(425).
(3) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(102).
(4) انظر: معجم معارك الجهاد، خليفة التليسي، ص(79).
(5) انظر: جذور النضال العربي، محمد عبد الرزاق مناع، ص(130).

1 - الجنرال مازيتي القائد العام للقوات الإيطالية قائداً لإحدى الفرق فوق الجبل الأخضر 8 يوليو من مراوة:

أربع فرق أرترية - فرقة ليبية - أربع فرق - خيالة - بطارية أرترية.

2 - الكورنيل إسبيرا إنذائي: 8 يوليو من الجراري (جردس الجراري) أو جردس البراعصة أربع فرق أرترية - فرقة ليبية - بطارية ليبية - فرقة نظامية.

3 - الكورنيل متاري: 8 يوليو من خولان - فرق أرتريا - فرق غير نظامية.

4 - الماجور بولي: 9 يوليو غوط الجمل - فرقة مهما ريستا - فرقة سيارات مصفحة - نصف فرقة ليبلير - فصيلتين قناصة على الدبابات.

ويضاف إلى تلك الاستعدادت سلاح الطيران الذي انطلق من قواعده بالمرج ومراوة وسلنطة.

وقد كانت قوات الإيطاليين ضخمة مما تدلنا على خوفهم ورهبتهم من قوات المجاهدين.

كان عدد المجاهدين ما بين 1500 إلى 2000 مجاهد[1] منهم حوالي 25٪ من سلاح الفرسان ويرافقهم حوالي 12 ألف جمل[2]، ما يثقل تحركاتهم من النساء والأطفال والشيوخ والأثاث. علمت إيطاليا بواسطة جواسيسها بموقع المجاهدين في عقيرة أم الشفاتير فأرادت أن تحكم الطوق على المجاهدين فزحفت القوات الإيطالية نحو العقيرة بعد مسيرة دامت يومين كاملين واستطاعت أن تضرب حصاراً حول المجاهدين من ثلاث جهات، وبقوات جرارة تكونت من حوالي (2000) بغل 5000 جندي، 1000 جمل بالإضافة إلى السيارات المصفحة والناقلة.

علم المجاهدين بذلك وأخذوا يعدون العدة لملاقاة العدو فأعدوا خطة حربية وقاموا بحفر الخنادق حول أطراف المنخفض ليستتر بها المجاهدون، وخنادق أخرى لتحتمي بها الأسر من نساء وأطفال وشيوخ، وتم ترتيب المجاهدين على شكل مجموعات حسب انتمائهم القبلي، ووضعت أسر كل قبيلة خلف رجالها المقاتلين، وكان قائد تلك المعركة التقي الزاهد الورع الشيخ حسين الجويفي البرعصي، وكان عمر المختار من ضمن الموجودين في تلك المعركة.

---

(1) انظر: جذور النضال العربي، ص(137).

(2) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة، عام1984م، ص(9).

كان الشيخ حسين الجويفي ممن تجرد للجهاد في سبيل الله وطلب رحمة الله تعالى وكان يقول: (أنا لا أريد قيادة ولا منصباً بل أريد جهاداً رغبة في ثواب الله تعالى)[1].

كان ذلك الصنديد محل تقدير من قبل إخوانه. قال في حقه قائده الأعلى عمر المختار عقب استشهاده: أتذكر حسين الجويفي عند اللقاء مع العدو أو عند قراءة القرآن الكريم وقت الورد[2].

كما عرف عنه أنه لم يبرح فرسه يوماً أثناء المعركة لينال من أسلاب العدو، بل يتركها للمجاهدين لعفته وقناعته بما يملك من أموال ومواشٍ.

لقد أسندت إليه قيادة المعركة لمعرفته بشعاب ودروب المنطقة التي كان يسكنها مع كونه أحد قادة الجهاد، وأحد المستشارين لعمر المختار، وقائمقام البراعصة والدرسة في فترة سابقة، فكان في تلك المعركة فوق جواده يجوب الميمنة والميسرة والقلب وهو عاري الرأس لا يخشى الموت يوزع صناديق الذخيرة على المقاتلين تارة ويطلق عبارات التشجيع مرة أخرى، ويقوم بتحريك جبهات القتال، وتنظيم هجومات المجاهدين، وترتيب صفوفهم.

وسقط الشهداء واشتدت المعركة، وارتفعت درجة حرارة البنادق بسبب استمرار إطلاق العيارات النارية، واستعمل المجاهدين الخرق البالية لتقيهم حرارة مواسير البنادق التي لا تطيقها يد المجاهد. وكان بعض المجاهدين يملك بندقيتين يستعمل الواحدة مدة ثم يتركها حتى تبرد ويتناول الأخرى.

وخصص القائد حسين فرقة من المجاهدين للتصدي للمصفحات المهاجمة من الجنوب وعددها ثلاثون مصفحة، ولعب كومندار طابور المعية المجاهد سعد العبد السوداني دوراً بارزاً وأظهر شجاعة نادرة بأن قاد تلك الفرقة المواجهة للمصفحات الإيطالية وتمكن من تدمير أغلبها مع رجاله، وانتزع المجاهد رمضان العبيدي العلم الإيطالي من على إحدى المصفحات، وبدأ الجيش الإيطالي في التقهقر ودخل الرعب نفوس ضباطه وجنوده الذين وجدوا فرصة الحياة في الهروب وبالرغم من قصف الطائرات إلا أن الإيمان القوي، واحتساب الأجر عند الله كان دافعاً مهماً لدى المجاهدين.

كانت خسائر المجاهدين في الأرواح 200 شهيد من بينهم القائمقام محمد بونجوي المسماري الذي استشهد في اليوم الثالث أثر إصابته بجرح مميت، وكانت له مكانة عظيمة في نفوس المجاهدين ووالد زوجة عمر المختار الذي بكاه بكاءً حارًا وقال بعد أن سمع باستشهاده: (راحو الكل يا عين الجيران وأصحاب الغلا)[3].

(1) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، 1984م، العدد الأول، ص(10).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(10، 11).
(3) انظر: برقة العربية، ص(440).

واستشهد كل من جبريل العوامي، وستة من قبيلة العوامة، ومحمد بو معير الدرسي والشلحي الدرسي، ومحمد الصغير البرعصي، وفقد المجاهدون في تلك المعركة عدداً كبيراً من الإبل والمواشي وتم حرق بعض الخيام من جراء الغارات الجوية.

ومكث المجاهدون طيلة الليل يدفنون الشهداء وينقلون الجرحى، وقبل بزوغ الفجر رحلوا عن ذلك الموقع، بهدف الإعداد والاستعداد للقاء العدو في موقع جديد من مواقع القتال[1]، وأصبحت القوات الإيطالية كما يقول تيروتسي: (أصبحت الآن منهوكة القوى تخور إعياء من شدة المعارك المستمرة منذ فترة طويلة دون توقف..)[2].

وكانت نتائج تلك المعركة فيما يلي:

1 - كانت معركة أم الشفاتير بداية نقطة فاصلة في اتباع استراتيجية جديدة عند عمر المختار، وهي ضرورة إعادة تنظيم المجاهدين على هيئة فرق صغيرة[3]، تلتحم مع العدو عند الضرورة وتشغله في أغلب الأوقات، مما يقلل في عدد الشهداء أثناء المعارك ويلحق الخسائر الفادحة بالأعداء وفق التكتيك الجديد لحرب العصابات (اهجم في الوقت المناسب وانسحب عند الضرورة).

2 - لمح عمر المختار بنظره الثاقب ملامح السياسة الفاشستية الجديدة وهي الإبادة والتدمير (للمصالح والرجال)، فاتخذ إجراءات ترحيل النساء والأطفال والشيوخ إلى السلوم لحمايتهم من الغارات الجوية الإيطالية، وتيسيراً لسهولة تحرك المجاهدين وفق ما يتطلبه الموقف الجديد.

3 - كما سُمِحَ لأحد الأخوين بالهجرة للمحافظة على وريث لهما فيما بعد حتى يكون دائماً هناك من يطالب بحقوقه ويزعج المستعمرين الطليان، وللتعريف بالقضية الليبية بتلك البلدان ونتج عنه فيما بعد تشكيل الجاليات الليبية في الخارج[4].

4 - أيقن الإيطاليون أنه لا جدوى من الاستمرار في العمليات العسكرية ضد المجاهدين، مما كان سبباً في توقفها طيلة سنة 1928م[5]. لقد تحققت لموسليني ما قاله من قبل: (إننا لا

---

(1) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، 1984م، العدد الأول، ص(16).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(16).

(3) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص(153).

(4) انظر: كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام، (192 - 195)، تيسير بن موسى.

(5) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، 1984م، العدد الأول، ص(17).

نحارب ذئاباً كما يقول غرسياني بل نحارب أسوداً يدافعون بشجاعة عن بلادهم.. إن أمد الحرب سيكون طويلاً)[1].

عاشراً: استشهاد حسين الجويفي والمختار بن محمد في معركة أبيار الزوزات 13/ 8/ 1927م:

استشهد الشيخ حسين الجويفي رئيس دور البراعصة، وكان صاحب مكانة عظيمة عند المختار[2]، كان حسين الجويفي سباقاً للخيرات، حريصاً على الشهادة في سبيل الله، وكان يحرص على الخروج للمعارك مع مرضه حتى أن عمر المختار في إحدى المعارك طلب منه أن يبقى حفاظاً على صحته وقال له: (الجايات أكثر من الفايتات والطليان لمحاربينا ونحن لا نبطل الهجوم عليهم وستشبع من القتال فأيامه كثيرة)[3].

لقد تأثر عمر المختار لاستشهاد القائد العظيم الجويفي ووقف عند قبره وقال:

شـــهـــيـــر لَـــسَـــم وَاف الـــديـــن   تـــمَّـــا غـــفـــيـــر فـــي فـــاهـــق خـــلا

لقد فقد عمر المختار عدداً كبيراً من رفاقه الأبطال الذين وقعوا شهداء في ساحة الوغى وكان من بينهم المختار ابن شقيقه محمد، فشق عليه فقده رغم أنه لا يزيد مكانة عند عمه السيد عمر المختار أكثر من إخوانه المجاهدين، لقد كان ابن أخيه عائلاً له يهتم بشؤون أسرة عمر المختار ويشرف على شؤونه الخاصة وخدمته الشخصية، وكان بمثابة الابن حيث لم يكن لعمر ابن يتولى شؤون العائلة لأن ابنه الوحيد محمد صالح كان لا يزال طفلاً، ثم إن السيد عمر المختار تعود مصاحبة الفقيد منذ سنة 1916م وإلى جانب كل ذلك فإنه من أبطال الجهاد ومن الأبناء البررة. لقد احتسب المختار وأظهر التجلد وصبر صبراً جميلاً وكان يقول لكل من جاء لتعزيته:

إن كل فرد من رفاقي المجاهدين هو عندي بمنزلة المختار. إنني فقدت مختاراً واحداً، ولكنني أعيش بين عدد من المختارين كل منهم يملأ مكان ابن أخي وردد قول الشاعر الشعبي:

الـدنـيـا أمـفـيـت الله مـن والـيـهـا   ويـن الـصـحـابـا قـبـلـنـا أو نـبـيـهـا
ويـــــن بـــــون يـــــا دم   ويـن الـشـيـوخ الـلـي كـبـار مـقـاوم
الـلّـي يـنـدهـوا لـلـعـبـد هـو والـخـادم   وَنْ جـاهـم الـطـالـب حـاجـتـا يـقـضـيـهـا

(1) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(14).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(284).
(3) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(81).

ومعنى الأبيات:

أن الله سبحانه وتعالى ولي الدنيا ووارثها وكل ما في هذه الدنيا مصيره الفناء، فأين رسول الله وصحابته وهم أكرم خلق الله عليه، وأين السادة الكبار الذين سبقونا وكان من شمائلهم المناداة للخدم من أجل خدمة الضيف وكل من جاء يطلب حاجة تقضى له، ومما قاله عمر المختار من الشعر:

يـا عـيـن كـفـى راه يـومـك قـادم   صـيـور الـبـنـا دم حـفـرتـا مـالـيـهـا

ومعنى البيت أنه يخاطب نفسه بأن تكف عن البكاء لأن أجله في طريقه إليه ومصير بني آدم هو تلك الحفرة (القبر) التي يملؤها رفاته بعد الموت[1]

(1) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(100، 101).

المبحث الثاني

استمرار العمليات والدخول في المفاوضة

في سبتمبر عام 1927م غزت جموع الزاوية الجخرة ومرسي بريقة وجالو وأوجلة، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة، واشتدت مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر على الرغم من احتلال الطليان للواحات ومراكز السنوسية الهامة، فلم يعد هناك مناصاً من أن يعيد الطليان النظر في خططهم، مما أدى إلى وقوع أزمة كبيرة في روما، وبدأت الحكومة تبحث بصورة جدية وسائل إخماد المقاومة وترسم الخطط السياسية الجديدة التي ترى ضرورة التقيد بها في كل من برقة وطرابلس، وقد اضطر فيدرزوني وزير المستعمرات، وديبونو والي طرابلس، وتيروتزي والي برقة للاستقالة في ديسمبر 1928م، فعين ديبونو وزيراً للمستعمرات وأعلن موسوليني توحيد الإدارة في القطرين الليبيين، وعين الماريشال بادوليو حاكماً على طرابلس وبرقة.

كان مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة الجهاد الحاسمة بالنسبة للمجاهدين، وكان تاريخ تعيينه في شهر يناير من عام 1929م وكان برنامجه الجديد يتلخص في تخفيض الجيش إلى القدر الذي يكفي للقيام (بحرب العصابات) والمحافظة على هيبة الحكومة مع إنفاق الأموال المتوفرة في مد الطرق في الجبل الأخضر مما يسهل عليه التنقلات العسكرية، فإذا ما تم له ذلك قام بهجوم شامل كاسح على المجاهدين يقضي على المقاومة نهائيًا، ومن أجل ذلك سعت إيطاليا إلى مفاوضة السيد عمر المختار لتهدئة الأحوال[1]، فكان برنامج بادليو مبنياً على كسب الوقت أولاً ثم العمل رويداً رويداً من أجل تقوية المراكز المحتلة.

واهتم بادوليو بكسب الرأي العام وتخويفه، فأعلن العفو عن الأفراد الذين يسلمون أنفسهم وسلاحهم مختارين للحكومة، ويتوعد كل معاند بالعقوبة الصارمة، وقد أسقطت الطائرات هذا المنشور من الجو على البلدان والقرى والنجوع في أنحاء ليبيا جميعها وكان لهذا المنشور آثار مباشرة، فظن بعض زعماء ليبيا بمدينة طرابلس الضعف ووهن العزيمة في الحكومة، وقام أحمد سيف النصر ومحمد بن الحاج حسن (من قبيلة المشاشة) بالزحف على منطقة القبلة لجمع البدو المحاربين وإرسالهم إلى الجبل الأخضر حتى يعززوا قوات المجاهدين في الجبل ويرغموا الحكومة على اتخاذ لهجة متواضعة عند بدء المفاوضات مع عمر المختار وصحبه، وشرع صالح الأطيوش ينظم في جبل الهروج جماعات من المحاربين للاشتباك مع

(1) انظر: حياة عمر المختار، ص(119).

الطليان في برقة أو في طرابلس وفي منتصف فبراير 1929م نزلت قوات المجاهدين من الهروج الأسود للانقضاض على النوفلية من جانب وعلى إجدابية من جانب آخر، فاجتمعت من الجيفة ثم انقسمت ثلاث فرق التحمت إحداها مع الطليان في معركة عند قارة سويد في 5 مارس، واشتبكت الثانية معهم في معركة كبيرة عند النوفلية في 14 مارس واتجهت الثالثة بقيادة عبد القادر الأطيوش من الجيفة صوب منطقة العقيلة في 23 مارس، ثم استقر المجاهدون في جبل سلطان واضطر المجاهدون إلى الانسحاب أمام قوات العدو العظيمة صوب وادي الفارغ[1].

كانت لتلك الأعمال أكبر الأثر في إقناع بادوليو بضرورة العمل فوراً من أجل استمالة المجاهدين إلى المفاوضة إذا أراد أن يضع برنامجه الواسع موضع التنفيذ فبدأ من ثم متصرف المرج الكولونيل باريلا من أوائل مارس 1929م يطلب الاجتماع بالسيد عمر المختار للمفاوضة في شروط الصلح، وحدد باريلا موعداً للاجتماع غير أن باريلا لم ينتظر جواب المختار وأراد أن ينتهز فرصة اطمئنان المجاهدين لقرب بداية المفاوضات وانشغالهم بعيد الفطر المبارك، فانقض الطليان على المجاهدين وهم يقومون بصلاة العيد (1347هـ) وردهم المجاهدون على أعقابهم، ولكن مناوشات صالح الأطيوش وجماعته ونشوب المعارك المستمرة اضطرت بادوليو إلى تحديد المسعى، فكلف متصرف درنة دودياشي لتمهيد المفاوضة مع عمر المختار وصحبه، فاتصل بالمجاهدين واقترح على السيد عمر أن يكون الاجتماع يوم 2 مارس في منزل علي باشا العبيدي للبحث في موضوع الصلح وأصر عمر المختار على أن تظهر الحكومة الإيطالية حسن نواياها ويكون ذلك بإطلاق السيد محمد الرضا وإعادته إلى برقة واضطرت الحكومة الإيطالية للرضوخ وأحضرت السيد محمد الرضا من جزيرة أوستيكا إلى بنغازي واجتمع بعد ذلك عمر المختار مع مندوب الحكومة دودياشي في منزل علي العبيدي في 20 مارس، وحضر الاجتماع عدد كبير من مشايخ البلاد وأعيانها ثم أجلت المفاوضة إلى أسبوع وانعقد اجتماع آخر في سانية القبقب ولم يستطيع المتفاوضون الوصول إلى نتيجة مجدية، واجتمع المختار مع باريلا في الشليوني في الجبل الأخضر في يوم 6 إبريل ولم يصل المتفاوضون إلى نتيجة، وفي 20 إبريل عادت المباحثات في بئر المغارة (في وادي القصور)، وقد حضر هذا الاجتماع محمد الرضا والشارف الغرياني، وخالد الحمري، وعبد الله فركاش ورويفع فركاش وعلي باشا العبيدي وعبد الله بلعون مدير المرج، وحضر كل هؤلاء اجتماع المختار بالسيد رضا، ثم خير مندوب الحكومة عمر بين ثلاثة أمور:

الذهاب إلى الحجاز، أو إلى مصر، أو البقاء في برقة، فإذا رضي بالبقاء في برقة أجرت

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(321).

عليه الحكومة مرتباً ضخماً وعاملته بكل احترام ولكن المختار رفض هذه الشروط وكان السيد رضا يخضع لرقابة صارمة منعته من تبادل الرأي مع عمر المختار.

واستؤنفت المفاوضات في هذه المرة في مكان يسمى قندولة بالقرب من سيدي رويفع وحضر اجتماع قندولة باريلا، وكمباني وعدد من الضباط والأعيان وكان سيشلياني قد بيت النية على الإيقاع بالمختار وأسره، ولكن عمر المختار احتاط للأمر ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء.

وفي 26 مايو بدأت المفاوضات من جديد، فحضر المختار إلى مكان قريب من القبقب. وفي هذا الاجتماع دارت المباحثات على أساس ما جاء في منشور بادوليو فعرض دودياشي شروط الحكومة وهي:

أولاً: عودة السيد إدريس وأحمد الشريف والسيد صفي الدين وسائر أعضاء الأسرة السنوسية إلى البلاد على أن يكونوا تحت إشراف الحكومة وأن يتم رجوعهم بترخيص من الحكومة بوصفهم مهاجرين يبغون العودة إلى أوطانهم وتعهدت الحكومة بمعاملتهم المعاملة اللائقة بهم على غرار ما تفعله مع السيد الرضا.

ثانياً: احترام الزوايا وأوقافها ودفع المرتبات لشيوخها.

ثالثاً: إرجاع أملاك الأسرة السنوسية.

رابعاً: إعفاء الزوايا وأملاك السنوسية من الضرائب.

خامساً: تسليم المجاهدين نصف ما معهم من أسلحة لقاء ألف ليرة إيطالية تدفع ثمناً لكل بندقية يسلمونها، وعلى أن ينضم بقية المجاهدين المسلحين إلى المنظمات التي تنشئها الحكومة تحت إشرافها وإدارتها وذلك لمدة معينة تحددها الحكومة فيما بعد، في نظير أن تعد أماكن لإقامتهم يسهل على الحكومة إمدادهم فيها بالمؤن فضلاً عن إحكام الرقابة عليهم.

سادساً: إبعاد كل الإخوان السنوسيين من الأدوار وتتعهد الحكومة بإعطائهم المرتبات التي تناسب مراكزهم. فاعترض المختار على تسليم الأسلحة وحل الأدوار، وأصر على بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا على أن يكون للحكومة نوع من الإشراف العام فحسب، وأيد رأي المختار عبد الحميد العبار، ورفض دودياشي عروض المختار وانفض الاجتماع على أن يعرض دودياشي هذا الحل - كما طلب المختار من نائب الوالي في برقة - حتى يفصل فيه سيشلياني بنفسه[1].

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(392، 396).

وبعد أربعة أيام فقط طلب دوداشي مقابلة المختار في قندولة (30 مايو)، فجاء المختار إلى نجع علي العبيدي شيخ العبيدات بالقرب من القبقب، وحضر معه السيد حسن الرضا والفضيل بو عمر وعبد الحميد العبار وحامد القماص وآخرون ومعهم حرس يتألف من مائة وخمسين فارساً، وجاء من طرف الحكومة دوداشي وباريلا كما حضر هذا الاجتماع علي العبيدي وخالد الحمري ورويفع فركاش، وأظهر فيها المختار استعداده للتفاهم طالما أنه يؤدي إلى المحافظة على كرامة السنوسية. وفضلاً عن ذلك فقد أصر المختار على عدم حدوث أي اتفاق بينه وبين الحكومة الإيطالية إلا إذا حضر مندوب عن الحكومة المصرية وآخر عن الحكومة السنوسية كدليل على رغبة الطرفين الصادقة في الاتفاق بصورة قاطعة، ولكن دوداشي اعترض على هذا الطلب، وقال بأن الطليان معروفين بوفائهم للعهود وحفظهم للمواثيق، فرد عليه عمر المختار وذكر ما فعله الجنرال متأتي بقبيلة العبيدات، وهي من القبائل التي سالمت الطليان، عندما اغتصب هؤلاء كل ما تمتلكه هذه القبيلة حتى أنهم نزعوا حلي النساء من آذانهن، وذكر ما فعله لويللو مع أسرة إبراهيم من قبيلة العواقير، وقد سالم هؤلاء الطليان كذلك، فأخذ لويللو منهم أربعين رجلاً قتلهم رمياً بالرصاص ثم جعل السيارات تمر على جثثهم فما زالت السيارات تدهسهم ذهاباً وإياباً حتى اختلطوا بالتراب، وتدخل بعض الحاضرين لتهدئة الموقف وتمسك المختار بحقوق الحركة السنوسية وزعامتها وأصر على أن يكون للقطر البرقاوي الطرابلسي نفس الامتيازات التي تتمتع بها جاراته مصر وتونس، وكان عمر المختار وحده هو الذي يتحدث، وأما سائر المجاهدين فقد صمتوا ثم قرر الذهاب إلى معسكره وقال: إذا أراد المتصرف دوداشي الحديث فإن موعد ذلك جلسة أخرى، وبعد أيام اتصل علي العبيدي بالسيد عمر، وقبل عمر المختار استئناف المفاوضة، فعقد اجتماع آخر في يوم 7 يونيه حضره دوداشي وباريلا ثم شيشلياني الذي جاء الاجتماع موفداً من قبل الماريشال بادوليو بغية الوصول إلى اتفاق حاسم مع العرب، وجدد الطليان عروضهم القديمة وتمسك المختار بمطالبه، وأصر على حضور مندوبين من قبل الحكومتين المصرية والتونسية ووعد سيشلياني بأن يحمل مطالب المختار إلى بادوليو. وفي 13 يونيه اجتمع نائب الوالي سيشلياني بالسيد عمر في قلعة شليوتي، وأظهر المختار رغبته الصادقة في الاتفاق إذا أقرّت الحكومة الإيطالية مطالبه، وهي نفس المطالب السابقة، وتأجل الاجتماع إلى يوم آخر حتى يتم الاتفاق النهائي بحضور والي طرابلس وبرقة نفسه، وفي يوم 19 يونيه حضر الاجتماع سيدي رحومه المشهور بحضور بادوليو وسيشلياني وعدد من الطليان والأعيان كالشارف الغرياني، وعلي باشا العبيدي، وظل عمر المختار متمسكاً بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية وعرض شروطه النهائية بحضور والي ليبيا، فقرأ الفضيل بو عمر هذه الشروط ووافق الطليان عليها، ثم تسلمها بادوليو ووعد بأن يعمل على حضور مندوبي الحكومتين المصرية والتونسية في اجتماع يحدد

فيما بعد قريباً، واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما مراسلة مرجعه[1].

وقال بادوليو إنه على استعداد تام لقبول عودة أمير البلاد السيد محمد إدريس إلى برقة ما دام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك.

وكانت الشروط التي عرضها المختار تكفل المحافظة على هوية الشعب وعقيدته ودينه ولغته، وتحفظ أوقاف الزوايا وتعطي عمر المختار الحق في أخذ الزكاة الشرعية من القبائل ومن أهم هذه الشروط:

1 - أن لا تتدخل الحكومة في أمور ديننا، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية معترفاً بها في دواوين الحكومة الإيطالية.

2 - أن تفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، وسائر العلوم.

3 - وأن يلغى القانون الذي وضعته إيطاليا والذي ينص على عدم المساواة في الحقوق بين الوطني والإيطالي إلا إذا تجنّس الأول بالجنسية الإيطالية[2]، كما كانت شروط المجاهدين تنص على إرجاع جميع الممتلكات التي اغتصبتها الحكومة من الأهالي وإعطائهم مطلق الحرية في حمل السلاح وجلبه من الخارج إذا امتنعت الحكومة عن بيع السلاح لهم، كما نصت هذه الشروط على أن يكون للأمة رئيس منها تختاره بنفسها ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على مصالحها، كما يكون للقاضي الإسلامي وحده الفصل بين المسلمين، وطالب عمر المختار بإعلان العفو الشامل عن جميع من عدتهم إيطاليا مجرمين سياسيين سواء كانوا داخل ليبيا أم خارجها، وإطلاق سراح المسجونين، وسحب كل المراكز التي استحدثها الطليان في أثناء الحرب بما في ذلك مراكزهم في الجغبوب وجالو[3]، كما اشترط بأن لزعماء المسلمين الحق في تأديب من يخرج عن الدين أو يهزأ بتعاليمه أو يتهاون في القيام بواجباته[4].
إن حرص عمر المختار على رفض الخضوع لأي إرادة أو سلطة غير سلطة الله واضح في حياته، ويظهر ذلك جلياً في شروطه، فقد كان دائماً مصرًا على شرط تطبيق الشريعة الإسلامية بين المسلمين ورفض كل ما عداه من قوانين وضعية في مفاوضاته[5].

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(298).
(2) انظر: شروط عمر المختار في قضية ليبيا، ص(111 - 114).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(298).
(4) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(62).
(5) المصدر السابق نفسه، ص(62).

أظهر بادوليو قبول الشروط ولكنه نكث بوعوده وأخذ يستعد للقضاء على المجاهدين، وشرع الطليان يبذرون بذور الشقاق في صفوف المجاهدين على أمل أن يضعفوا من قوتهم، وفي اجتماع سيدي رويفع ادعى سيشلياني أنه لا يمكن إبرام الاتفاق النهائي إلا في بنغازي[1].

أراد المجاهدون أن يقطعوا حجة الطليان فاتفقوا على أن يحضر اجتماع بنغازي السيد الحسن رضا السنوسي، وكان عمر المختار مقتنعاً بعدم جدوى الاجتماع ولكنه اضطر مكرهاً، وعاد الحسن يحمل شروطاً إيطالية مجحفة فرفضها عمر المختار والمجاهدون، وكتب المختار إلى نائب الوالي يخبره برفض الشروط الإيطالية جملة وتفصيلاً، ويلفت في هذه الرسالة نظر الحكومة الإيطالية إلى الشروط السابقة التي تسلمها المارشال بادوليو من السيد عمر نفسه وقطع على نفسه عهداً بالإجابة عنها بعد دراستها إذ لا يوجد سبيل لحل المشكلة بدونها، وطلب عمر في نفس الرسالة تحديد موعد لمقابلة الجنرال سيشلياني نائب الوالي، وفي حالة الرفض أو عدم الإجابة يكون السيد عمر المختار في حل مما قيدته به آداب المجاملة في انتظار نتيجة المفاوضات وسوف تعود الأمور لما كانت عليه، وكان جواب إيطاليا هو أنها على استعداد ولا داعي للإنذار بإعادة الحرب[2].

لما ذهب الحسن بن الرضا إلى بنغازي تأثر ببعض أقوال الليبيين التابعين للحكومة الإيطالية وقَبِلَ أن يوقع على شروط الصلح التي خالفت ما طلبه المجاهدون، فلما رفض عمر المختار تلك الشروط عز على الحسن أن ينقض المختار كلمته، وانفصل بجماعته من البراعصة والدرسة، وكانوا يبلغون حوالي الثلاثمائة واتخذ مكانه في غوط الجبل وهو مكان قريب من مراكز الطليان في مراوة[3].

كان عمر المختار بجانب إيمانه الراسخ واسع الأفق عالماً بواقعه مدركاً لما يجري حوله متابعاً له، وقد كان ذلك أكبر عون له بعد الله على صحة مواقفه وقوتها التي فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه، وما أعظم أن يجتمع الإيمان والفقه بالواقع، وما أقبح أن يتفرقا، ولئن كان هذا واضحاً جليًا في كل المواقف التي خاضها عمر المختار رحمه الله وآرائه التي قالها إلا أنه يتجلى كأوضح ما يكون في إدراكه لعدم جدوى المفاوضات السياسية[4].

أولاً - النداء الأخير:

خاطب السيد عمر المختار المجاهدين وأبناء شعبه قائلاً: فليعلم إذاً كل مجاهد أن غرض

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(299).

(2) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(111، 112).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(300).

(4) مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثاني، 1988م، ص(87).

الحكومة الإيطالية إنما هو بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لهم الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة، ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك. وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية وأن مقاصد إيطاليا وأغراضها ترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدمه... فهيهات أن يصل الطليان إلى غرضهم ما دامت لنا قلوب تعرف أن في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال، ثم ختم المختار هذا النداء بقوله: (لهذا نحن غير مسؤولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يتوب أولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع[1]. وقد نشرت بعض الصحف المصرية هذا النداء في 2 يناير 1929م. من كان عبداً لله يستحيل أن يرضى بأن يكون عبداً لحكومة ظالمة كافرة أو لدنيا أو مال أو لهوى، فأكثر الناس أحرار وتحقيقاً للحرية على مفهومنا الصحيح ذلك العبد الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

ثانياً - غدر وخيانة:

لقد نقضت الحكومة عهودها وغدرت بالمجاهدين وكان السيد حسن الرضا أول من ذاق مرارة غدرهم، فقد غادر المعسكر في غوط الجبل جماعة من عائلة عريف، وانتهز الطليان هذه الفرصة فطلبوا من الحسن أن يتقدم بالدور إلى ناحية مراوة وأجاب الحسن رغبتهم، وعندئذٍ سيرت الحكومة قوة كبيرة على الدور لجمع الأسلحة من أتباعه بدعوى أن رجاله قد (غزوا) بعض الأهلين في مراوة. وأبدى الحسن ورجاله معارضة شديدة، ولكن معارضتهم هذه سرعان ما أكدت للطليان - على حد قول هؤلاء - أن الدور كان مركزاً لدعاية سنوسية خطيرة، وأن حل الدور قد بات لذلك أمراً لا مناص منه ولا محيد عنه، وكان مما جعل الطليان ينقلبون على الحسن أن امتنع في المدة الأخيرة عن إجابة رغبتهم عندما طلبوا منه الانتقال إلى بنغازي، وعلى ذلك فقد اشتبكت القوات الإيطالية مع الدور في قتال عنيف ذهب ضحيته كثير من المجاهدين ووقع الباقون في أسر هذه القوات، وفي 10 يناير 1930م قبض الطليان على الحسن نفسه وساقوه أسيراً إلى بنغازي ثم ما لبثوا حتى نفوه إلى جزيرة أوستيكا ثم إلى فلورنسه بعد ذلك، وقد بقي الحسن منفياً بهذه المدينة الأخيرة حتى وفاته في عام 1936، وبعد ذلك اندلعت المعارك بين المجاهدين والطليان في الجبل الأخضر، وكانت الطائرات الإيطالية تلقي قذائفها على معسكرات المجاهدين ونشطت عمليات الطليان العسكرية بعد أن غدروا بالحسن وهاجموا دور

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(303).

المجاهدين في وادي مهجة (28 يناير 1930) وألقت الطائرات قذائفها على العرب، وانتشرت المعارك في منطقة الجبل حتى أقفلت جميع الطرق[1].

ثالثاً - تعيين الجنرال غراسياني حاكماً لبرقة ونائباً للمرشال بادوليو الحاكم العام:

كان الجنرال غراسياني عند قومه معظماً ومقدماً وقد قام بأعمال عسكرية في فزان شنيعة للغاية، واستطاع أن يقضي على حركة الجهاد فيها بدخوله غات في 25 فبراير 1930م وكان نصرانيًا حقوداً على الإسلام والمسلمين لا يرقب في مؤمن إِلًّا ولا ذمة.

بعد بقائه في ليبيا لمدة تسع سنوات متتالية وبعد احتلاله الغاشم لفزان، دُعِيَ إلى إيطاليا لتشريفه وتكليفه.

ذكر في مذكرات وداعه لطرابلس فقال: (وداعاً طرابلس أرض آلامي وعذابي، غير أنه تبقى في روحي، وداخل نفسي ذكريات كل حجر مرتفع في جبالك وفي صحرائك الواسعة، ولكن لن ينطفىء أبداً ألمي وعذابي من أجل إفريقيا وأنت يا طرابلس، وفي روما كانت تنتظرني الاحتفالات التي يطمع كل جندي مخلص أمين يحظى برضا وتصفيق الزعيم الدوتشي (موسليني)... وقد نلت هذا وصفق الزعيم ومجلس الأمة الإيطالي لي في جلسة بتاريخ 21/ 3/ 1930م، هذا الاحتفاء وهذا الرضا، كان أعظم مكافأة في حياتي، فلقد جددت في نفسي حب العمل والتضحية في سبيل الواجب الكبير الذي ينتظرني في ليبيا بجسم متعب في الأعمال التي تحملها في الماضي، ولكن بالروح والقلب الحريص والحاضر للعمل. وبعد أن استلمت التعليمات العليا سافرت على السفينة إلى برقة... ويوم 27/ 3/ 1930م وصلت بنغازي التي غادرتها سنة 1914م خلال الحرب العالمية الأولى وكانت رتبتي ملازم أول في الجيش الإيطالي).

إن التعليمات التي صدرت عن رغبة الدوتشي، وقسمت ونظمت من قبل صاحب السيادة دي بونو (والفريق) الماريشال بادوليو، بيتوا فيها تصميم الحكومة الفاشستية القضاء المبرم على الحركة الوطنية (الثورة) مهما كلف ذلك وبكل الطرق والوسائل لأنها القضية البرقاوية[2].

والتعليمات هي:

1 - تصفية حقيقية لكل العلاقات بين الخاضعين وغير الخاضعين من الثوار سواء في قاعدة العلاقات الشخصية أو الأعمال والحركات التجارية.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(34).

(2) انظر: برقة الهادئة، للجنرال غراسياني، ص(82، 83، 84).

2 - إعطاء الخاضعين أمناً وحماية ولكن مراقبة لكل نشاطاتهم.

3 - عزل الخاضعين عن أي تأثير سنوسي ومنع أي كائن منعاً باتاً من قبض أي مبالغ من الأعشار والزكاة.

4 - مراقبة مستمرة ودقيقة في الأسواق وقفل الحدود المصرية بكل صرامة بحيث تمنع أي محاولة تموين لقوافل العدو (أي المجاهدين).

5 - تنقية الأوساط المحلية التي توجد بها عناصر تدعي الوطنية ابتداءً بالمدن الكبيرة وخاصة بنغازي.

6 - تعيين عناصر غير نظامية من الطرابلسيين لكي يكونوا قوة مضادة للمجاهدين وتعنى بتطهير الإقليم من كل تمرد أو ثورة.

7 - حركة دقيقة وخفية لكل قواتنا (الطليان) المسلحة في المنطقة لخلق جو مذبذب ضد كل (الأدوار)، والمعسكرات، والضغط عليها حتى تتكبد الخسائر وتشعر بأن قواتنا موجودة دائماً وفي كل مكان مستعدة للهجوم.

8 - الاتجاه السريع للاحتلال الكامل لكل أراضي مستعمرة الكفرة[1].

هذا هو جزار ليبيا غراسياني الذي جاء محملاً لتنفيذ الأوامر السالفة الذكر من أسياده في روما الكاثوليكية الفاشستية الميكيافلية.

ومنذ عودة غراسياني إلى بنغازي، بدأ نائب الوالي الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء معلناً أنه سوف: (يتبع بكل إخلاص تعاليم الدولة الفاشستية ويسير على مبادئها، لأنه وإن كان قائد من قواد الجيش وأحد الرجال العسكريين إلا أنه يدين بمبادىء فاشستية محضة ويعلن هذه الحقيقة بكل وضوح وصراحة تامة)[2].

كان الجنرال غراسياني معروفاً بالعجرفة والطيش وبالجبروت الوهمي، وكان أول عمل قام به في الدوائر المدنية بعد وصوله هو استبدال الموظفين الإيطاليين بآخرين ممن يتمتعون بثقته عندما كان يعمل في طرابلس، كما جاء بقائد جديد للكربنير (الضابطية) هو الكولونيل كاستريوتا، وبالجنرال نازي ليكون مساعده الأول في القيادة العسكرية، واستعان بعصابة من المدنيين قد أخذوا ينفذون أهدافه الشريرة وأفكاره الشاذة بكل الوسائل ومن هذه العصابة الكمندتور موريتي (السكرتير العام) الكمندتور أجيدي متصرف لواء بنغازي، ثم بدأ زيارته للمناطق الخاضعة لنفوذ إيطاليا، وكانت السلطات تجمع لاستقباله جميع الأهالي بما في ذلك

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(84، 85).

(2) انظر: عمر المختار، محمود شلبي، ص(126).

النساء والأطفال والعجزة، فيخطب فيهم متوعداً ومهدداً[1]، وكان يستفتح خطاباته الطائشة بقوله: (صموا أفواهكم، افتحوا آذانكم) ليلقي الرعب في نفوس المستضعفين الذين استسلموا وخضعوا لإيطالية وكان قد ألقى كلمة تهديدية في جموع حشدتها السلطات في موقع (البريقة) استهلها بقوله:

(ما أنت إلا مثل سيجارة موقودة من الجانبين تلتهمها النار من هنا ومن هناك حتى تصبح رماداً، وها هو ذا أنا أولع السيجارة من جانبي ويقودها عمر المختار من جانبه حتى يؤتي عليكم)[2].

وقال في خطاب ألقاه من شرفة قصره في بنغازي (تحت يدي وتصرفي باخرة تقف في الميناء وبأقل إشارة مني تنقل كل من أرى من الصواب نقله إلى إيطاليا وهذا أخف ما نعاقب به)[3] وفي خطاب تهديدي آخر قال: (عندي لكم ثلاث حالات: الباخرة الموجودة في الميناء، وأربعة أمتار فوق الأرض - مشيراً إلى أعمدة المشنقة - ورصاص بنادق جندنا - مشيراً إلى القتل رمياً بالرصاص)[4]، لقد قام غراسياني وحكومته بحشد المجهودات الضخمة للقضاء على عمر المختار بالصورة التي كلفت الخزانة الإيطالية في سنة واحدة ما لا يقل عن النفقات التي تتكبدها دولة عظيمة لمجابهة دولة تماثلها في عدة سنوات.

فقد قال السنيور فيتيتي وكيل وزارة الخارجية في حديث له مع سماحة مفتي فلسطين الأكبر الأستاذ محمد أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين، وقد أورد سماحته هذا الحديث في مذكراته التي أخذت تنشرها جريدة أخبار اليوم، قال وكيل وزارة الخارجية المذكور: حقًّا أن ما وقع في ليبيا سبب لنا متاعب كثيرة، فعندما كانت السياسة الإيطالية تتأثر في الماضي كثيراً بالسياسة البريطانية قبل عهد الفاشيست خدعتنا إنكلترا وفرنسا فاستولت على أغنى وأغلى أقطار أفريقيا، وأغرتنا باقتحام ليبيا عام 1911م، فلم نجنِ فيها رغم الجهود المضنية والخسائر الفادحة في الأنفس والأموال غير الرصاص والرمال، ولم نجنِ من ذلك إلا بغض العرب ومقت المسلمين لنا[5].

رابعاً - المحكمة الطائرة:

لم يمض على وصول غراسياني سوى أيام قلائل حتى أنشأ ما عرف في تاريخ الاستعمار

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، (124).
(2) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(124).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(124).
(4) المصدر السابق نفسه ص(125).
(5) المصدر السابق نفسه، ص(126).

الإيطالي الأسود باسم المحكمة الطائرة (أبريل 1930م)، كانت تلك المحكمة تقطع البلاد على متون الطيارات وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة وتمنحها للمرتزقة الفاشست، وكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة وتصدر أحكامها وتنفذ في دقائق وبحضور المحكمة نفسها لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذي انعقدت فيه لتنعقد في نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبواب السجون في كل مدينة وقرية ببرقة وانتزعت الأموال من المسلمين بدون مبرر، ونصبت أعواد المشانق في كل من العقيلة، وإجدابية، وبنغازي، وسلوق، والمرج، وشحات ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق، ولأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام وينفذ في حينه شنقاً أو رمياً بالرصاص، وكان ممن قتل شنقاً أو رمياً بالرصاص في مدة لا تزيد عن شهرين من استلام غراسياني مقاليد الحكم في برقة: المشايخ بحيح الصبحي، علي بويس العربي وابنه عبد ربه بوموضاخ، خير الله هليل، محمد يونس بوقادم، علي حميد أو ضفيرة، اثنان من قبيلة سعيد أشقاء حمد الرقيق، وهؤلاء من منطقة إجدابية، ثم محمد الحداد وابنه بنغازي، وعبد السلام محجوب من الإخوان السنوسيين، سليمان سعيد العرفي (المرج)، وخمسة عشر شخصاً بينهم الشيخ سعيد الرفادي (عين الغزالة وغيرهم كثير)[1].

خامساً - عزل المجاهدين ووضع القبائل في معسكرات الاعتقال الجماعية:

بدأ غراسياني ينفذ سياسة عزل الأهالي الخاضعين عن المجاهدين، وشرع في جمع الإخوان السنوسيين من شيوخ الزوايا وأئمة المساجد ومعلمي القرآن بها مع ذويهم جميعاً وكل من تربطه بأحد هؤلاء أية صلة، وكذلك بمشايخ وأعيان القبائل وبكل من يربطه أي نوع من أنواع الصلات بأحد المجاهدين أو المهاجرين، جيء بهذه المجموعات يساقون إلى مراكز التعذيب ثم إلى السجون ولم يشفع في أحدهم سن الشيخوخة الطاعنة، أو الطفولة البريئة أو المرض المقعد، أو الضرر الملازم، وأنشئت معتقلات جديدة في بنينة والرجمة، وبرج توبليك، وخصص غراسياني مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء، والمقرون وسلوق في أواسط برقة الحمراء لتكون مواقع الاعتقال والتشريد والتعذيب لجميع سكان منطقتي الجبل الأخضر والبطنان بصورة جماعية، ولغير سكان هاتين المنطقتين ممن تحوم حولهم أية شبهة، أو تلفق ضدهم أقل فرية، وأمر بنقل قبائل هاتين المنطقتين المذكورتين إلى هذه المعتقلات الخاصة بهم ثمانين ألفاً، وما هي في الحقيقة إلا مقابر يدفن فيها الأحياء وأداً، فخصص معتقل العقيلة والبريقة لقبائل العبيدات والمنفا، والقطعان، والشواعر، والمسامير، . . . ولبعض عائلات الإخوان السنوسيين بما في ذلك سكان الجغبوب، ولبعض من سكان مدينتي بنغازي

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(126، 127).

ودرنه، وأسند حكم هذين المعتقلين لممثلي الظلم والجبروت والوحشية الفظيعة لكل من كسوني، باريلا (غير بازيلا متصرف المرج).

وخصص معتقلي المقرون وسلوق لكل من قبائل البراعصة والدرسا والعرفا والعبيد وأتباعهم وشطر كبير من عائلات الإخوان السنوسيين الذين سبق أن أبعد غراسياني رجالاتهم إلى إيطاليا أو فرقهم بين السجون المختلفة، جيء بهذه القبائل التي بلغ تعدادها الثمانين ألف نسمة يساقون زمراً إلى المعتقلات المذكورة، فمنهم من جاءها عن طريق البحر حيث حشروا بالمراكب حشراً، ومنهم من جاءها عن طريق البر بعد أن أتت إيطاليا على جميع المنقولات حرقاً بالنار، كما أحرقت الزراعة ومحصولاتها، وأهلكت الحيوانات فيما عدا ما استعملته للنقل، وأحيط القسم المساق عن طريق البر بجنود من الصوماليين والإريتريين ليتعقبوا كل من يتخلف عن المساقين إلى حتفهم، ويرمي المتخلف بالرصاص، وكان الرامي غير مسؤول عن عمله هذا، وأصبحت جميع مناطق الجبل والبطنان هلاكاً تلعب فيه الرياح[1].

لقد أراد غراسياني الانتقام من القبائل التي أثبتت الأيام أنها نعم العون للمجاهدين بعد الله، فجمع النواجع المنتشرة في منطقة الجبل الأخضر في أماكن أحاطها بالأسلاك، حدث في تلك المعتقلات الجماعية ما لم يصدقه بشر ولا خطر على بال إنسان يعقل، لقد اشتدت المحنة واعتدى الإيطاليون على الأبدان والأموال والأعراض في تلك المعتقلات ولقد قام الباحث يوسف سالم البرغثي بدراسة متميزة سماها «المعتقلات والأضرار الناجمة عن الغزو الإيطالي» وذكر فيها تفصيلاً محزناً، ووثائق تاريخية من أفواه من عاش تلك المرحلة العصيبة التي مر بها شعبنا المظلوم[2].

لقد وصف مراسل جريدة ألمانية زار معسكرات الموت التي جمع فيها غراسياني أكثر من 80 ألف نسمة فقال: إن الانتقادات التي يوجهها الآن الفرنسيين والإنكليز إلى خطة الفاشيست في برقة، موجهة في الدرجة الأولى إلى التدابير التي اتخذها الجنرال غراسياني لإجلاء 80 ألف بدوي عن أراضيهم، دون أن يراعوا حالة هؤلاء البدو الروحية، أو يلاحظوا تأثير مثل هذا القيد والحصار فيهم، ولا يجوز لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا في النهار، بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل أن يخيم الظلام وكل واحد من رؤساء القبائل مسؤول عن أتباعه فرداً فرداً.

يجب أن نقول: إن الحالة السيئة للغاية تفوق كل تصور، فإن معدل الأموات من الأطفال يبلغ 90٪ وأمراض العيون التي ينتهي أكثرها بالعمى كثيرة جدًا ومنتشرة ويكاد لا ينجو أحد من الأمراض، أما غذاء هؤلاء المساكين فالأحسن أن لا نتكلم عنه بالمرة، ومن الطبيعي أن نرى

(1) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(113 - 149).
(2) عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(113 - 149).

هؤلاء يتألمون أشد الألم، وفي الدرجة الأولى من هذه الأسلاك الشائكة، رمز الأسر، ورغم تلاصق الخيام، وشدة تقاربها ببعضها، فإن حصرها ضمن أسلاك شائكة، يجب أن نعتبره من المتناقضات الغريبة التي لا يتصورها العقل[1].

إن ما ارتكب في العقيلة والبرقة وغيرها من المعتقلات من جرائم جعل المناضلين في العالم يصرخون ويندّدون بالاستعمار الفاشيستي في ليبيا فقال عبد الرحمٰن عزام يصف حالة المعتقلين ويلفت الأنظار إليهم: (يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الإسبانيون بالمسلمين هناك وما لهم والأندلس والأمور جرت في القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فضائح لا تقل عما جرى بالأندلس)[2].

وعبر غراسياني نفسه عن المأساة التي كانت أكبر من قلبه القاسي فقال: (لقد نتج عن هذا كله أن أكثر الناس هاجرت ونزحت إلى مصر وتونس والسودان تاركة وراءها أهلها وذويها. . . فإني حاسبت نفسي وضميري. . الأمر الذي جعلني لم أنم هادئاً أكثر الليالي)[3] ويقول - مبرراً جرائمه البشعة -: (لا نستطيع إنشاء حاضر جديد إذا لم نقض على الماضي القديم)[4].

سادساً - عمر المختار يغير إستراتيجية الحرب:

كانت معسكرات المجاهدين قريبة من نواجع الأهالي حتى يسهل على المختار وصحبه أخذ العشور والحصول على الذخائر والأسلحة والمؤن، ولكن بعد حشر القبائل في المعتقلات الجماعية تغيرت خطة عمر المختار وطور أساليبه القتالية لما يتماشى مع المرحلة، واعتمد على عنصر المباغتة وركن إلى مفاجأة القوات الإيطالية بعد كشفها والاستطلاع عليها في أماكن متفرقة[5].

يقول غراسياني: (بالرغم من إبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا يستمر عمر المختار في المقاومة بشدة ويلاحق قواتنا في كل مكان)[6].

وقال عنه أيضاً: (عمر المختار قبل كل شيء لم يسلم أبداً لأن طريقته في القتال ليست كالقادة الآخرين فهو بطل في إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يمكن تحديد موقعه لتسديد الضربات له ولجنوده، أما غيره من الرؤساء فإنهم أسرع من البرق عند الخطر، فيهربون إلى القطر

(1) انظر: عمر المختار، شلبي، ص(188).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(346).
(3) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(145).
(4) المصدر السابق نفسه، ص(145).
(5) انظر: عمر المختار، لمحمود شلبي، ص(127، 128).
(6) انظر: برقة الهادئة، ص(227).

المصري تاركين جنودهم على كفة القدر معرضين لخطر الفناء، عمر المختار عكس هذا فهو يكافح إلى أبعد حد لدرجة العجز ثم يغير خطته ويسعى دائماً للحصول على أي تقدم مهما كان ضئيلاً بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًا ومعنويًا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً وهنا يسلم أمره لله كمسلم مخلص لدينه)[1].

كان عمر المختار قطباً تدور عليه رحى الأعمال، والتف المجاهدون حوله التفاف السوار بالمعصم واستمر العمل بقيادته ومساعدة معاونيه كيوسف بورحيل، والفضيل بو عمر، وعصمان الشامي، عوض العبيدي، وعيسى الوكواك العرفي، عبد الله بو سلوم، وعبد الحميد العبار، وكانت مواقف عمر المختار تدل على شخصيته القيادية البارعة في أحلك الظروف وأثناء المحن، ففي أحد الأيام وعقب انتقام الإيطاليين من أحد المتجعات التي كانت تقدم مساعدات للمجاهدين تقدم بعض زعماء القبائل باحتجاج إلى عمر المختار وطلبوا منه إما أن يسلم إلى الإيطاليين، أو أن يرحل عن مواطنهم، أو أنهم سوف يحاربونه لكي يتجنبوا انتقام الإيطاليين، وعلى أثر تسلم هذا الإنذار دعا عمر المختار إلى عقد اجتماع في منطقة قصر المجاهير وقد ساد هذا اللقاء حالة من التوتر وشدة في النقاش في محاولة لتجنب حرب أهلية بين المجاهدين والليبيين الواقعين في المناطق الخاضعة للاحتلال، فرأى بعض المجاهدين تجنباً لهذا الوضع الحرج أن يهاجروا إلى مصر لكي لا يتعرض الأهالي إلى الانتقام وبعد حوار طويل، أظهر المختار مصحفه وأقسم عليه بأنه لن يتوقف عن مجاهدة الإيطاليين، وأنه لن يترك الجبل الأخضر حتى يتحقق النصر أو الشهادة، وفي نفس الوقت أعلن للمجاهدين أنه من يريد الهجرة إلى مصر فله مطلق الحرية في السفر أو التسليم للإيطاليين، وعندما رأى المجاهدون موقف قائدهم عدلوا عن رأيهم وأطاعوه وانفض الاجتماع على وحدة صف المجاهدين[2].

استمر غراسياني في تدابيره العسكرية، فلم يأت يوم 14 يونيو حتى كان الطليان قد استولوا على منطقة الفايدية بأجمعها واحتلوها ونزعوا من الأهالي الخاضعين لهم 3175 بندقية، 60،000 خرطوش.

نقل عمر المختار دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية في الدفنا نظراً لقربها من الحدود المصرية وذلك حتى يتمكن من إرسال المواشي التي يأتيه بها الأهالي إلى الأسواق المصرية في نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق، مما جعل غراسياني يقرر إقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية. قال: . . . إن اطمأن على خطوط تموينه البعيدة أصدر أمره إلى قواته الموزعة في كل مكان ألا تزعج بعد الآن الليبيين الخاضعين لسلطاتنا حتى لا يكونوا سلاحاً آخر ضده

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(129).
(2) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، ص(71).

وألا يغضبوا من حركته، وهكذا يصبح أمام ضميره بأنه مسلم حقيقي، ونضيف أن مد الأسلاك الشائكة المكهربة على حدود مصر كادت أن تنتهي وستضيق الخناق عليه تدريجيًا حتى يقع في الفخ الذي سننصبه له، إن مصر هي المأوى الآمن لعدد كبير من آلاف المؤلفة من البرقاوين الذين ينتمون إلى القبائل العمامة والتي لها إمكاناتها البشرية والمادية، وكذلك لها التأثير الكبير على كثير من النفوس التي يسهل تجنيدها وتوجيهها نحو القتال مقتنعين بأنهم يدافعون عن الدين الإسلامي وعن كيانهم معتبرين أننا مغتصبين ومعتدين على حقوقهم . . . هؤلاء الخارجين عن القانون - ومن بينهم أعداؤنا - يكونون المخازن الثانية لتمويل الثورة بالأسلحة والمؤن والرجال لكل الأدوار رغم كل الاحتياطات التي اتخذتها سلطاتنا الحاكمة، زد على ذلك الأموال التي تجمع من لجان التبرعات من الأقطار العربية لمساعدة الثوار القائمين بالحرب المقدسة فوق الجبل الأخضر في برقة وحتى أن اتخذنا كل الاحتياطات ضد الخاضعين لسلطاتنا وإبعادهم، فالثوار لا يزالون أقوياء يهاجموننا في كل مكان[1].

عزم غراسياني على مد الأسلاك الشائكة في الحدود الليبية المصرية المصطنعة من قبل الاستعمار ما يزيد على 300 كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب وقد كلف الدولة الإيطالية عشرين مليوناً فرنكاً إيطاليًا. وقد حقق لهم ذلك العمل أموراً عدة ذكرها غراسياني في كتابه منها:

1 - قضى على الثوار.

2 - قضى على التهريب وأصبح دخل الدولة الإيطالية في ازدياد من ناحية الضرائب الجمركية.

3 - قضى على حركة الإمدادات التي كانت تأتي للثوار المجاهدين من مصر عن طريق المهاجرين[2].

سابعاً - استشهاد الفضيل بو عمر:

استمرت المعارك بين الإيطاليين والمجاهدين ومن أشهر تلك المعارك (كرسة) التي وقعت في يوم 20 ديسمبر، وقد استشهد في هذه المعركة الساعد الأيمن لعمر المختار الشيخ الجليل والمجاهد الفذ الفضيل بو عمر الذي شارك في مسيرة الجهاد منذ دخول الغزو الإيطالي في 1911م وشهد له بالشجاعة والإخلاص في جهاده، وقد ذكر عمر المختار تفاصيل هذه المعركة في رسالة له جاء فيها أن العدو هاجم المعسكر، وكان رئيسه السيد فضيل بو عمر وقد

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(229).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(232، 233).

استشهد في هذه المعركة إلى جانب الفضيل أربعون شهيداً، وقد وجدنا في ميدان القتال ما يزيد عن 500 من العدو وبينهم ماجور وثلاثة ضباط، وشدد الطليان عملياتهم العسكرية في منطقة الجبل الأخضر بعد هذه الواقعة، واستمرت جموعهم تناوش المجاهدين مدة أسبوعين، ولكن دون الوصول إلى نتيجة.

وفي أكتوبر 1930م تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد المختار، كما عثروا على جواده المعروف مجندلاً في ميدان المعركة، فثبت لهم أن المختار ما زال على قيد الحياة، وأصدر غراسياني منشوراً ضمنه هذا الحادث حاول فيه أن يقضي على (أسطورة المختار الذي لا يقهر أبداً) وقال متوعداً: (لقد أخذنا اليوم نظارات المختار وغداً نأتي برأسه)[1].

ومع شدة قبضة الاستعمار الإيطالي على المدن إلا أن ذلك لم يمنع الأهالي من القيام بواجبهم المقدس، واستطاعت المخابرات الإيطالية أن تقبض على عدد من الليبيين الذين يزودون حركة الجهاد بالمؤن والمعلومات وتم إعدامهم وقد ذكر غراسياني بعض الأشخاص في كتابه فقال: وهنا أعرض بعض الأحوال الهامة لبعض الأشخاص الليبيين الذين نفذت فيهم المحكمة الخاصة حكم الإعدام في 14 يونيو 1930م عقدت المحكمة الخاصة في شحات لمحاكمة المواطن حمد بو عبد ربه الدرسي في الميدان العام، باعتباره خائناً للدولة الإيطالية، لأنه كان شيخاً لبيت من بيوت قبيلته الدرسة، وكان محترماً من سلطاتنا ولكن اتضح لدى قسم المخابرات أنه يتعاون مع الثوار في إمدادهم بالمؤن والسلاح، وكانت مخيماته تعتبر شبه استراحة لجنود الثوار(المجاهدين) وعدد هذه الخيام يزيد عن عشرين خيمة بمنطقة (قصر بن قدين) المكان الذي يتزود منه الثوار بالمؤن والسلاح، وقد حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص في الميدان بشحات وأمام الجماهير، وبعد أسبوع من هذا الحادث حصلت حركة انتقامية من الثوار (المجاهدين). هجموا على نفس الميدان، وفي وضح النهار قتل فيه عدد كبير من جنودنا... وكذلك تاجر من تجار المنطقة.

وفي شهر سبتمبر 1930م اكتشفت قوة الأمن بمنطقة البركة ببنغازي أن المواطن محمد الحداد أحد أعيان بنغازي ومن تجارها يتعاون مع الثوار وعن طريقه تتم حركة الإمدادات من المؤن والأسلحة وكان يستضيف في بيته الثوار ويمدهم بما يلزمهم، وفي الوقت والحين حضرت المحكمة الخاصة وحكمت على الأب والابن بالإعدام شنقاً أمام الجماهير التي أرادت السلطات الإيطالية إحضارهم خصيصاً لمشاهدة تنفيذ الحكم، وهذا مثال آخر سليمان سيد شيخ قبيلة الطرش، كان عضواً في مجلس النواب، حاملاً لوسام النجمة الإيطالية للمستعمرات برتبة

(1) انظر: حياة عمر المختار، ص(130 - 133).

ضابط، وكان يرتدي برنوس الشرف الخاص بالنواب الليبيين كنا نعتمد على آرائه ولم نفكر في يوم من الأيام أن يكون ضدنا حكمت عليه المحكمة بالإعدام؛ لأنه كان يستغل نفوذه ويتعاون مع الثوار... ومن هذا النوع الكثير من المشاهد التي لا يمكن حصرها وقد نفذ مع مجيء المحكمة الطائرة 250 حكماً بالإعدام، ونفذ فيهم الحكم في مدة وجيزة ورغم ذلك لا زال الشعب الليبي يتعاون مع الثوار إلى درجة الضياع التام[1].

إن هذه الحقائق والمواقف التاريخية تشير إلى فاعلية أهل المدن في جمع المعلومات والأموال والمؤن والأسلحة، وتهريبها إلى قادة حركة الجهاد المبارك، وحرصهم على استمرارية جذوة الجهاد.

لقد وجد الإيطاليون أنفسهم في حرب مع شعب دفع بكافة طاقاته نحو ساحات الوغى والفداء، وشارك معظم أبنائه بكافة ما يملكون في حركة الجهاد المقدس.

ثامناً - احتلال الكفرة:

بعد أن استطاعت القوات الإيطالية أن تعتقل قبائل برقة في معسكرات واسعة، وأخذ غراسياني في مد الأسلاك الشائكة على طول الطريق على البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب ليفصل برقة عن مصر، وكان قد شرع في جمع قواته الضخمة من مختلف وحدات الجيش الإيطالي والجيوش الملونة من المرتزقة ومن المعدات الحربية لاحتلال الكفرة.

كانت نقاط الاحتشاد هي العقيلة ومرادة وإجدابية وجالوا، وحشدت إيطاليا عدداً كبيراً من الإبل استعداداً لنقل المؤن إلى جانب سيارات النقل الكثيرة، هذا ما كان عن استعداد القيادة الإيطالية ببرقة، أما عن القيادة الإيطالية بطرابلس فقد جهزت هي الأخرى حملة مماثلة بقيادة الكولونيل قالينا، وكانت نقطة ارتكاز هذه الحملة واحة زلة وكانت القيادة العامة للحملة الموحدة تتمثل في شخص الجنرال رونكيتي تحت إشراف الجنرال غراسياني مباشرة وتحركت الجيوش الإيطالية من طرابلس وبرقة في وقت واحد وبنظام موحد تسلك طريق الصحراء إلى الكفرة، وتجمعت يوم 29 شعبان سنة 1349هـ بموقع الهواري، وهناك اشتبكت قواتهم مع المجاهدين في أولى المعارك وكانت معركة غير متكافئة، وقد اشترك قسم من الطائرات الإيطالية مكون من عشرين طائرة واستمرت المعركة ثلاثة ساعات قتل أثناءها العدد الكثير من الإيطاليين ومن المدافعين الذين ما كانوا يفكرون في صد العدوان طويلاً ولكنهم يحاولون إيقافه بعض الوقت ريثما يتمكن من يستطيع الفرار ليأخذ طريقه إلى السودان أو مصر[2]، لقد قاتل

---

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(153، 154).

(2) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(129، 130).

المجاهدون جميعاً بشجاعة وبسالة نادرة، فلم يكفوا عن القتال، واستشهد العشرات ووقع في أسر الطليان ثلاثة عشر فقط، وغنم الطليان مائة بندقية، واحتلوا الكفرة، وهتكوا الأعراض وفعلوا ما لم يفعله إنسان.

لقد كتب غراسياني عن اهتمامه باحتلال الكفرة، وعن الاستعدادات التي اتخذتها الحكومة الإيطالية أكثر من خمسة وأربعين صفحة، لقد اعترف غراسياني بقوة وشجاعة المجاهدين الذين تعرضوا لقتال الإيطاليين عبر الصحراء الكبرى.

قال غراسياني: لقد حملتنا خسائر فادحة وكنا حريصين على تحقيق النصر بأي ثمن لكون قوات المجاهدين غير متكافئة، رغم هذا كله كانوا أشداء أقوياء صامدين، صابرين لا يتقهقرون أبداً حتى ولو أدى ذلك لفنائهم جميعاً مؤمنين بأنهم أصحاب حق وشجاعة[1].

لقد اعترف العدو بهم، كان زادهم التمر والشعير ومع ذلك دوخوا إيطاليا، وكان من بين القادة الذين أثخنوا في الأعداء عبد الحميد بومطاري الذي تزعم قيادة الزوية والمغاربة في تلك المرحلة في جهادها ضد إيطاليا، وصالح الأطيوش وسيف النصر الذي قال فيهم غراسياني: (لقد وصل سيف النصر، وصالح الأطيوش إلى المنطقة وبصحبتهم الذين هاجروا من القطر الطرابلسي فأصبح الموضوع دقيقاً وبالأخص صالح الأطيوش فهو مكابر وشديد المراس)[2].

إن المجاهد صالح الأطيوش من المجاهدين العظام الذين ساهموا في الذود عن حياض المسلمين، لقد شهد له عدوه غراسياني بشدة مراسه، فله منا الدعاء بالمغفرة والرحمة والرضوان وله ولجميع إخوانه الذين سطروا لنا صفحات من البطولة والرجولة للذود عن ديننا العظيم.

إن عائلة آل الأطيوش تعرضت لبلاء عظيم، ولقد أعطى السنوسي الأطيوش صورة حية عن ذلك البلاء الذي كابده الفارون من جحيم الكفرة في ذلك الوقت.

إن أسرة عائلة الأطيوش أسرة مشيخة أصيلة في قبيلة المغاربة، تعد نموذجاً لما قاسته مختلف العائلات الليبية البارزة عبر فترة الكفاح الطويل ضد الإيطاليين، فمن المعلوم أن الكيلاني الأطيوش، الذي عينه الوالي التركي في منصب القائمقام الكفرة سنة 1910م، توفي في العام التالي مباشرة وهو في طريقه إلى جالوا للالتحاق بقوات المقاومة التركية ضد الغزو الإيطالي، وأخوه سعيد قضى نحبه خلف أسوار معتقل إيطالي في العقيلة ومن بني أخيه واحد شنقه الطليان في سرت، وعبد الله استشهد في معركة النوفلية، كما قتل في البريقة اثنان آخران

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(211).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(198).

هما علي وأحمد عبد القادر الذي قتل في سرت سنة 1918م والآخر استشهد في معركة سرت بالقرب من إجدابية، وكذلك فقدت هذه العائلة ما لا يقل عن أربعة آخرين ماتوا في أثناء محاولة النجاة بأرواحهم من الكفرة.

فعندما هاجم الإيطاليون الكفرة رحل صالح باشا الأطيوش بأهل بيته، وكان من بينهم السنوسي ابن أخيه، وبضعة أشخاص آخرين، في قافلة من الإبل اتجهوا بها أولاً صوب العوينات على حدود السودان فبلغوها بعد ستة أيام، وهناك ملؤوا قربهم بالماء وانقسموا إلى فريقين، توجه أحدهما إلى الشمال نحو وادي النيل، بينما عمد الفريق الآخر إلى معرقة وهي واحة صغيرة غير مأهولة تقع في ناحية الجنوب الشرقي بالسودان. ويبلغ طول هاتين المسافتين 500 ميل و300 ميل على التوالي، أي مسيرة 25 يوماً و15 يوماً بمعدل سير الإبل العادي، ولم يكن ثمة أي أثر يمكن للمسافر اقتفاؤه ولا مورد ماء في الطريق، ولا أحد يستطيع أن يتصور مدى خطورة رحلة كهذه ما لم يكن قد جرب اجتياز تلك الصحاري على ظهر جمل، وقد حكى السنوسي الأطيوش قصة تلك الرحلة فقال: (بعد مسيرة عدة أيام أخفقنا في الوصول إلى مرقة وعرفنا أننا تائهون في الصحراء، فرجعنا أدراجنا نقصد العوينات. لما كنا استنفدنا مؤنتنا من المياه، أصبحنا مضطرين إلى نحر ناقة أو جمل كل يوم لشرب الماء المخزون في بطون الإبل، وكان كل منا يحمل في مخلاته بعض لحم الذبيحة ويأكل أثناء السير ومع أن المسافة التي قطعناها منذ خروجنا من العوينات كانت قد استغرقت منا ثمانية أيام كاملة، فقد بلغت بنا شدة المحنة أننا في طرق العودة قطعنا نفس المسافة خلال أربعة أيام فقط، راكبين أو ماشين ليلاً ونهاراً وفي العوينات ملأنا قرب الماء من جديد، وبعد استراحة قصيرة واصلنا السفر عامدين نهر النيل رأساً، باقتفاء آثار الفريق الآخر من جماعتنا وعثرنا في الطريق على جثث البعض، ومن بينهم أمي وأختي واثنين من إخوتي قصفتهم طائرات الطليان، أو ماتوا عطشاً. وكنا نواصل السير ليل نهار حتى وصلنا آبار كريم بعد تسعة أيام ونحن أقرب إلى الموت منا إلى الحياة، وهناك أسعفنا الحظ بلقاء بعثة استكشافية كان قد نظمها الأمير عمر طوسون بقيادة ضابط بريطاني، فحملتنا معها إلى واحة الخارجة ثم إلى الداخلة ومنها انتقلنا إلى المنيا حيث استقر بنا المقام مع ناس من قبيلة الجوازي التي تربطنا بها صلة القرابة. ومكثنا هناك حتى عام1940م وعندها التحقنا بالقوات الليبية تلبية لنداء الأمير)[1].

إن هذه القصة الحزينة تعطينا صورة واضحة عن ما كابده الليبيون الذين استطاعوا الهروب من هجمة غراسياني الوحشية على الكفرة، وتلك الغارة الهمجية، ولقد تأثر العالم الإسلامي من الأخبار التي سمعوها من العوائل الليبية التي كتب الله لها النجاة، وقد قام الأمير شكيب أرسلان

---

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(58، 59).

بدور مشكور في توضيح تلك الأعمال، وكتب مقالات صادقة أصبحت وثائق مهمة للمؤرخ لتلك المحنة العظيمة التي مرّ بها الشعب الليبي المسلم فقد قال: (. . . . إنهم لما احتلوا واحة الكفرة في 13 يناير من سنة 1931م استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالي وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل محمد عمر الفضيل، والسيد حميد الفضيل، والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل في ذلك من قتلوا من المعركة التي جرت بين الأهالي وجيش الحملة الطليانية وهم 200 شخص، ثم إن الطليان انتشروا في القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع في أيديهم ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء، وصادفوا الشيخ مختار الغدامسي وهو شيخ فانٍ بلغ ثلاثاً وتسعين سنة، ومن جلة علماء السنوسية فحملوه مقيداً بالحبال على جمل ونفوه من الكفرة فمات في الطريق. ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهن كثيراً ممن دافعن إلى الآخر عن أعراضهن. وكان نحو من 200 امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالي، فأرسلوا قوة في أثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حين خلا بهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن وهكذا نزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريباً لا ترى وجههن من الصون، والعفاف، وقد أشارت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة وصرحت من باب الافتخار قائلة: (إن الجيش قبض على 200 امرأة من نساء الزعماء) وقرأنا ذلك بأعيننا ولحظنا أن مقصود البلاغ العسكري الإيطالي التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن إلى الضباط، إلا أننا انتظرنا جلاء الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأن هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم بيوت الطهارة والصون قد قُبض عليهن في الصحراء وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً. وعلمنا أن بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم، ثم لما هاج هائج العالم الإسلامي من جراء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الإيطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر للنسوة المائتين المذكورات شفقة عليهن، ولأجل أن يرجعن إلى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأقاويل التي قصدت إيطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفضائح من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة (التاج) وإراقة الخمور فيها، ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام هذا منظماً إلى ما كان بلغهم من قبل من إجلاء 80 ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وإماتتهم بالجوع والعطش، وأخذ أطفالهم قهراً إلى إيطاليا لأجل تنصيرهم إلى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حمل الشيخ سعد شيخ قبيلة (الفوائد) وخمسة عشر شيخاً من رفاقه بالطائرات وقذفهم بهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطع إرباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين: (ليأت محمد هذا نبيكم البدوي الذي أمركم بالجهاد وينقذكم من

أيدينا) هذه حادثة وغيره من الأمور في هذا الشأن كثيرة جرحت قلوب المسلمين، فجرت مظاهرات بالشام، وحلب، وطرابلس الشام، وبيروت، وفلسطين، وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا، وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بجنيف وإلى نفس موسليني بالعبارات القاسية وقامت قيامة الجرائد العربية وحملت على توحش الفاشيست من كل جانب، وامتلأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن في إيطاليا إلى أن عطلتها الحكومة المصرية إجابة لطلب الحكومة الإيطالية ووصل الصريخ إلى الهند والجاوي، وأضج المسلمون لهذه الأخبار وانعقد في الجاوي اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطباً شديدة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الإيطالية، وتدخلت الحكومة الهندية في الأمر وانتصرت لإيطاليا بمقتضى قاعدة التكامل الأوروبي بوجه المسلمين، وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة، وأشاع قناصل إيطاليا أن كل هذه الأخبار عمّا حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم الوقاحة أنهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا إلى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كذب هذه الأقاويل، وبلغ بهم البهتان أنهم أشاعوا أيضاً أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل إلى طرابلس لجنة من عندهم للتحقيق عما ينسب إلى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أبرياء منها، وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التمويه وتخدير الأعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها، وقد سكن كثير من المسلمين إلى هذه التكذيبات، وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك، وكل ما شاع من الأخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجيء دول الفاشيست هو دون الواقع، ولو تأمل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست في نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين، ومن حجر كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم وأمام هذا الانتقام الرهيب من المسلمين في قتلهم وتغريبهم عن ديارهم، فلا تسأل، فقد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء بالاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته، فقد نزح عن طرابلس وبرقة نحو مائتي ألف نسمة وقيل 300 ألف نسمة؛ منهم 20 ألف دخلوا تونس والجزائر، 60 ألفاً دخلوا مصر، ومنهم من شردوا إلى السودان، ومنهم من تفرقوا في الصحاري وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الأفعال بالعيان، وأنه ليستحيل اتفاق الألوف المؤلفة على الكذب، هذا فضلاً كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الأهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البراري أو يلتمس الرزق عاملاً في أرض غيره بعد أن كان سيداً في أرضه، ومن أغرب المتناقضات - والتناقض من عادة كل كاذب - أنه بينما ممثلو إيطاليا في بلاد الإسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب إلى طرابلس بنفسه ليتحقق من كذب تلك الأخبار عن فظائع الطليان فيها فإن أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب إلى هناك وبينما قنصلهم في بيروت يشيع ذلك في بيروت، وبينما الحكومة الإيطالية تقول هذا القول لشوكت علي الزعيم المسلم

الهندي إذا بقيت إيطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلا يقف أهل مصر على الحقائق والأخبار فيزدادوا هياجاً. ولكن الحقائق لا بد أن تظهر ولا يمكن لإيطاليا إخفاء كل ما تأتيه من الأعمال الوحشية في طرابلس، وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها، بل ثمة كثير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها[1].

لقد قام الأمير شكيب أرسلان بدور مشكور في الدفاع عن الليبيين وإظهار وحشية الإيطاليين، ولقد كتب في صحف ذلك الزمان مقالات حزينة، بيّن فيها الأعمال الوحشية التي قام بها الإيطاليون ضد الشعب الليبي المظلوم وهذه وثيقة أخرى تاريخية لمقال كتبه الأمير شكيب في مجلة الدولة العربية ولقد انتشر هذه المقال شرقاً وغرباً ونص هذا المقال:

تاسعاً: دور الصحافة الإسلامية:

التعذيب الإيطالي في طرابلس

تحرير الأمير شكيب ارسلان

كانت الحركة الإسلامية تائهة عن كل ما يحدث في طرابلس من تعذيب وهمجية من البرابرة الإيطاليين الذين ما أتوا إلى هذه الأرض إلا ليؤخروها عن التقدم والمدنية، بعكس ما كانوا يقولون ويكتبون.. نعم إن الناس علمت بأن الحكومة الإيطالية الفاشستية نقلت ما يزيد عن 80 ألف عربي من الجبل الأخضر ووضعتهم في الصحراء (سرت)... نزعت منهم أراضيهم بحجة التعمير وأن المعمرين الإيطاليين هم أحق من أي أحد آخر، لأنهم يتقنون هذا العمل أكثر وأحسن من العرب.

إن العالم علم بأن الجيش الإيطالي احتل الكفرة وواحاتها بعد قتل السكان العزل والثوار الذين دافعوا عن وطنهم إلى النهاية، وأن الصحافة الإيطالية تتبجح وتنشر بأن جيشها أسر مائة امرأة وهن زوجات الشيوخ هناك.

وفي مجلتنا (الدولة العربية) وجهنا سؤالنا إلى الإيطاليين الفاشستيين عن معنى هذا التبجح بأسر مائة امرأة.

مع العلم بأن التقاليد والعادت العالمية وبالأخص البيئة العربية التي تنفي اضطهاد المرأة أو النساء خصوصاً أثناء قيام الحرب.

---

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 69، 70، 71، 72).

ولكن ما كنا نعتقد أن دولة تعتبر نفسها من دول البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة الأوروبية أن تصل إلى هذه الدرجة من الانحراف والخروج عن جادة التمدن والرقي.

لم يسبق في تاريخ البشرية، بل في تاريخ البربرية أن معاملة الجيش الإيطالي الفاشيستي للنساء هي معاملة وحشية بدرجة تتقزز منها النفوس، فهي معاملة سيئة سواء في طرابلس أو في برقة.

إن هذه الأخبار لم تكن نسيجاً من خيال أو فكرة طارئة وإنما هي حقائق يرويها من أسعده الحظ بالنجاة من المذابح التي قام بها الجيش الإيطالي الفاشيستي.

شرحوا لنا ما يلي:

1 - عندما اتجهت القوات الإيطالية لاحتلال الكفرة كانت معززة بالطائرات التي تلقي قنابلها على السكان العزل من شيوخ ونساء وأطفال، وخلاف هذا سمحوا لجنودهم أن يعبثوا بالسكان لمدة ثلاثة أيام مطلقي الأيادي في البيوت والأسواق والمساجد وفي كل النواحي تصرفات وحشية لم تخطر على بال أحد؛ نهبوا وقتلوا وأحرقوا كل ما مروا به ولم يتركوا أي جريمة تخطر ببالهم إلا وارتكبوها، قتلوا العلماء والمشايخ، هتكوا حرمات البيوت ويقروا بطون النساء وأن عدد العائلات التي قضي عليها عند احتلال الكفرة يزيد عن 70 عائلة من علية القوم، وعلاوة على هذا فقد اتخذوا زاوية السنوسي (التاج) كحانة شربوا فيها الخمر حتى ثمالة الجنون، وشربوا نخب القضاء على المسلمين واحتلال طرابلس وبرقة.. ألقوا بالمصاحف القرآنية في الإصطبلات تحت سنابك الخيل وبالكتب العلمية أوقدوا بها النار تحت قدورهم لطهي طعامهم. وقد استشهد من الثوار في احتلال الكفرة ما يزيد عن (200) شهيد من بينهم المشايخ الآتي أسماؤهم:

الشيخ صالح العبادية، الحاج سليمان بومطاوي، الشيخ غيث بو قنديل، الشيخ سليمان الشريف، الشيخ محمد يونس، الشيخ أحمد بو أشناك وحفيده الشيخ عمر، الشيخ حمد الحامي، الشيخ عبد السلام بوسريويل، الشيخ محمد المسحوق وحفيده علي بن حسين، الشيخ محمد العربي، الشيخ محمد بو سجادة، الشيخ محمد الفايدي الجلولي، الشيخ خليفة الدلال. أما الرواية الثانية هي كيف تم احتلال الكفرة من أولئك الغاشمين المتوحشين من مشاهدين حقيقيين لتلك الأحداث، قبل دخول الإيطاليين إلى الكفرة قامت طائراتهم بقصف واحات الكفرة بقنابلهم الفتاكة فوق السكان العزل حيث قتل عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال، وبعد أن دخلوا الكفرة أطلقوا أيدي جنودهم لمدة ثلاثة أيام للعبث والتخريب في الكفرة، فقد أطلقوا بغالهم وخيولهم حيث دوت كل المزروعات فاستولوا على كل المواد الغذائية وقطعان الأغنام والبقر لتموين جنودهم المحتلين دون مقابل، وعلاوة على هذا نهبوا

أثاث السكان وقسموها على إدارات الجيش الزاحف كذلك ملابس النساء وحليهن، هذا قليل من كثير، زد على ذلك اعتداءاتهم على حرمات الناس العزل دون وازع من ضمير، وعندما اتجه بعض المشايخ إلى قائد الحملة راجين منه إصدار أمره إلى الجنود بالكف عن هذه الاعتداءات على الناس كان مصيرهم القتل رمياً بالرصاص باعتبارهم خونة، وبالاختصار إن الإيطاليين عندما احتلوا الكفرة قاموا بأعمال وحشية لم يسبق أن حدثت في التاريخ حتى في القرون الوسطى عهد الهمجية.

إن قضية الـ 80،000 عربي الذين نقلتهم القوات الغاشمة من أراضيهم الخصبة في الجبل الأخضر إلى مناطق جدبة صحراوية لا ماء فيها ولا كلأ، هي منطقة (سرت) كي تموت المواشي جوعاً وعطشاً، أما البقية فقد استولى عليها الجنود الإيطاليون، وأصبحوا فقراء تدفع لهم الحكومة الإيطالية فرنكين عن كل يوم لكل شخص مهما كان عدد عائلته. أما بالنسبة لحلي النساء وملابسهن فقد نهبها الجنود الإيطاليون، وأصبحت العائلات في هوة الفقر سواسية. وفي أثناء مرافقة هذا العدد الضخم من رجال ونساء وأطفال، كان الجنود يسومونهم سوء العذاب وكل من يعجز عن المسير مصيره الموت فيقتلونه ويتركونه يتخبط في دمه.

إن الرجال والشبان الذين تتراوح أعمارهم من 15 إلى 40 سنة أجبروا على الانخراط في قوات الجيش. وأما الصغار الذين تتراوح أعمارهم من 14 سنة فقد أخذوا بالقوة من أهليهم وأرسلوا إلى إيطاليا بحجة تعليمهم، ولكن في الحقيقة من أجل تنصيرهم.

وهذا ما كان يتحدث به سكان(روما) وهو تنصيرالليبيين بصورة عامة والطرابلسيين بصورة خاصة، ورغبة الإيطاليين الفاشيستيين هي القضاء المبرم على العنصر الإسلامي في ليبيا، فإذا ليبيا تصير إيطالية وبجوارها مصر، سوف تتعرض إلى أكبر خطر. وإن مصر لن تسكت عن هذا الإجراء لأن الإيطاليين في اعتقادهم المريض أن مصر ليست دولة عربية، وإنما هي خليط من عدة أجناس. . الأمر الذي يجعل إيطاليا تحكم بأن تغزو مصر وتتمكن من أرضها وشعبها كما تمكنت من طرابلس. إن الوعود المعسولة التي كانت تصرح بها السلطات الإيطالية، وتمنياتها الطيبة التي كانت تعرضها على الشعب الليبي وإنها - يعني إيطاليا - ما أتت إلا لتخلص الشعب الليبي من الاستبداد التركي. ولأجل أن تذر الرماد في أعين الناس، أتت بإدريس وقلدته لقب الإمارة ووعدته بالحكم الذاتي، ولكن كانت دائماً وعوداً فقط. وها هي إيطاليا تلغي كل شيء وتبدأ في سفك الدماء وتطرد السكان من أراضيهم وأموالهم وأخذت أولادهم وبناتهم إلى إيطاليا من أجل تعليمهم، وفي الواقع من أجل تنصيرهم. . . إني أُقل على المسلمين أن يتذكروا هذا كله وأن يتفهموه. . . فإن هناك من يتفلسف ويتشدق بالقول بأن في أوروبا تسود العدالة والحرية، وأن الدول الأوروبية لا تتعرض للقضايا الدينية، وأن السبب في سقوط المسلمين هو التعصب الأعمى، إن هذه الألفاظ وهذه المغالطات تنذر المسلمين جميعاً بأنهم إذا لم يتحدوا

ويذودوا عن حياضهم سوف يتعرضون إلى القضاء ويفقدون قواتهم المسلحة وحرياتهم السياسية، سوف يحدث لهم كما حدث لطرابلس إذا لم يحافظوا على حريتهم واستقلالهم. إن موقف إيطاليا من حضارة القرن العشرين موقف غير مشرف فقد رجعت إلى معاملات القرون الوسطى.

إن الإيطاليين المتوحشين لم يتحرجوا لا كبيراً ولا صغيراً فقد اعتدوا على الحريات، اغتصبوا النساء وهتكوا الأعراض. كل هذه الأعمال من أجل اضطهاد المسلمين وروحهم الانتقامية.

لقد زجّ الإيطاليون في السجون الكثير من الأهالي ومشايخ القبائل وقد عارضهم وندد بأعمالهم الشيخ سعد الفايدي شيخ قبيلة الفوايد، فما كان منهم إلا أن قتلوه ومعه 15 من أبناء قبيلته البعض منهم ألقي من الطائرات من علو 400 متر، وكلما كانت الطائرة تلقي بواحد منهم هناك كان الهتاف يعلو وصياح الجنود يزداد.

إن الصحفي الدانماركي الشهير (كنود هولمبوي) الذي اعتنق الإسلام وقام بجولة سياحية أثناء هذه الفترة في ليبيا، قد شاهد بنفسه وعينيه كل التعذيب والاضطهاد الذي يقوم به الجنود الإيطاليون الفاشيست يقول:

شاهدت 20 عربيًا مسلسلين.. شنقهم الجنود بأمر من ضباطهم دون محاكمة ولم تكن هناك محكمة.. هذا المنظر البشع أثر في نفسي ولم يكن في اعتقاده أن دولة مثل إيطاليا الفاشستية وهي إحدى دول البحر الأبيض المتوسط تقوم بمثل هذه القسوة وهذه الوحشية. إنها جرائم سيسجلها التاريخ في صفحة سوداء، وسيبقى وصمة عار في جبين الدولة الإيطالية على مدى الدهر والأزمان.

إن إيطاليا أرادت أن تحذو حذو فرنسا في تنصير المسلمين إبان حكمها في المغرب، فقد عملت ووزعت المبشرين في طول البلاد وعرضها وبنت العديد من المعابد والكنائس في كل المدن والقرى لتقضي على الدين الإسلامي، وهكذا عملت إيطاليا فقد بنت المعابد في طرابلس وبنغازي وكل القرى وأمرت المبشرين بأن يسعوا بكل الوسائل لتنصير العرب مهما كان الثمن. وقد فاقت على فرنسا بطريقة أخرى فأخذت الأطفال من حجور أمهاتهم وبعثت بهم إلى إيطاليا إلى تلك المعاهد المسيحية لتعليم هؤلاء الأطفال الدين المسيحي.. وعزلهم عزلاً كليًا عن وطنهم وبيئتهم... بحيث يشبون ويترعرعون في الجو الفاشستي والكنيسة المسيحية.

إن سياسة إيطاليا الفاشيستية هي القضاء على الدين والعقيدة وإبعاد المسلمين عن معابدهم ومساجدهم، وكم من مرة صرح موسوليني رئيس الحكومة والحزب الفاشيستي في خطاباته بعد احتلال (الكفرة) بأنه عازم على تثبيت ثلاثة ملايين من السكان الإيطاليين في الأراضي الليبية الخصبة.

وقد أيد هذا الرأي الكثير من السياسيين وأبرزها الكثير من الصحفيين على صفحات جرائدهم ومجلاتهم.

منذ أيام قرأت بالجريدة الرسمية المرسوم الملكي القاضي بمصادرة أملاك المواطنين وأوقاف المسلمين والزوايا السنوسية وأوقافها. وبهذه الطريقة الجهنمية عملت إيطاليا الفاشيستية على تملك الإيطاليين كل الممتلكات الليبية وبالتدريج، وإبعاد الليبيين من كل المجالات حتى تصبح ليبيا خالية من كل العناصر ولا يبقى بها إلا الإيطالي المسيحي الكاثوليكي.

إذاً الكلام الصادر من الجنرال أو المارشال لم يكن إلا زوراً وبهتاناً وتضليلاً لتهدئة المسلمين، حتى تستطيع السلطات الإيطالية الفاشيستية تنفيذ أغراضها الاستعمارية. وهي إن استحوذت على الملايين من هكتارات الأراضي الزارعية وغيرها (من أين لها هذه الأراضي؟) فالجواب معروف. استحوذت عليها بطرد أهلها الحقيقيين ونقلهم إلى مناطق الهلاك هم ومواشيهم على السواء أمام أعين العالم المتمدن، وأمام عصبة الأمم.

وبالاختصار تبجح الإيطاليون بقولهم: إن طرابلس وبرقة كانتا رومانيتين.. فلا بد أن ترجعا رومانيتين كما كانتا - هذا هو هدف الفاشيست بدون تردد.

إننا لا نصدق ما يقولون لقد خالفوا القواعد الدولية والإنسانية، ولم ينفذوا حرفاً واحداً من تعهداتهم إلى الطرابلسين والبرقاويين، حتى التعهدات الكتابية والاتفاقات المبرمة بينهم وبين إدريس السنوسي، كانت عبارة عن أكاذيب وكسب للوقت. نحن مقتنعون بأن كل ما كتبناه وأعلناه على الملأ أجمع ستكذبه السلطات الفاشيستية، وستوجد لنا مضابط لكي تدحض أقوالنا، ولكن كل ما كتبناه ثابت وصحيح ومصدره من جهة عاصرت الأحداث وهي هيئة التحرير الليبية في دمشق فقد أثبت الحوادث والاعتداءات بالوثائق الرسمية، وبالأخص في احتلال الكفرة فقد ارتكب الجنود الإيطاليون الفاشيست أبشع الجرائم باعتداءاتهم على النساء وقتلهم الشيوخ والأطفال، واعتدوا على حرمات المساجد والمقدسات. وقد ادعت إيطاليا بأن كل الأعمال العسكرية التي قامت بها ما هي إلا تأديب لأناس أعلنوا العصيان على دولتهم، وهذه حجة واهية لا يقبلها العقل ولا تقوم بها دولة متمدنة كما تدعيه إيطاليا الفاشيستية. وأن الثوار في العرف الدولي لم يكونوا من العصاة على الدولة وإنما هم أصحاب حق يدافعون عنه، اغتصبه عدو دخيل.

بقي عليّ أن أختتم مقالي هذا الذي كتبته لا أريد منه تحريض المسلمين على أن ينتقموا من الإيطاليين الذين يعيشون معهم، حاشا لله نحن لسنا من الانتقاميين ولا في الجهل مثل الإيطاليين الفاشيست وليس من شيم أخلاقنا أن نستعمل القوة على من هو أضعف منا.

وأن المسلمين لن يغيروا أبداً تراثهم الخلقي الذي ورثوه أباً عن جد. ولكني أقترح ما هو آت:

1 - جمعية الشبان المسلمين في كل بلد عليها أن تحتج على كل أساليب الاعتداء والإجرام التي ارتكبتها إيطاليا الفاشيستية في ليبيا، وأن ترسل برقية احتجاج شديدة اللهجة إلى عصبة الأمم وتنشر على الصحف العالمية.

2 - كل المدن والمقاطعات الإسلامية التي تتقد حماساً والدم الساخن الذي يجري في عروقهم، عليهم أن يقدموا احتجاجاتهم إلى عصبة الأمم بالبرق مستعجلاً ونشرها جميعاً على صفحات مجلاتهم وجرائدهم المحلية.

3 - إن مجموعة الدول الشرقية بالقاهرة هي كذلك عليها أن تحتج وتندد بأعمال القمع والعنف التي تقوم بها إيطاليا الفاشيستية وتقدمه إلى عصبة الأمم مثل الهيئات الأخرى.

4 - كل الهيئات الإسلامية والعربية والشرقية بالقاهرة وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية والهند وجاوا وغيرها لا بد وأن يقوموا بواجبهم نحو القضية الليبية.

5 - عقد اجتماعات شعبية في المدن الإسلامية وإلقاء الخطب الحماسية لشرح ظلم واستبداد السلطات الإيطالية الفاشيستية وهتافات بسقوط العدو الغاصب.

6 - يجب على كل المسلمين أن يقاطعوا كل البضائع الإيطالية والسفن وكل الوسائل والأعمال وكل شيء يحمل اسم إيطاليا، وقطع كل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكذلك تكوين لجان شعبية خاصة بمراقبة البضائع الإيطالية.

7 - طبع منشورات وكتيبات تبين فيها تصرفات إيطاليا الفاشيستية واضطهادها للشعب الليبي، ويكون طبعها كذلك باللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ويكون توزيعها بالآلاف في أوروبا وفي كل العالم، ومن واجب كل مسلم أن يقوم بإلصاق هذه المنشورات في كل الشوارع والميادين، وتوزيع الكتيبات في كل مكان من العالم. كذلك على كل مسلم أن يعلق في بيته بعضاً من هذه المنشورات حتى لا ينسى ما يعانيه الشعب الليبي من اضطهاد وتعذيب.

أيها المسلمون:

لا تقولوا بأن هذا الحديث في طرابلس وليبيا فقط، وإنما الليبيون الشرفاء طُعنوا في شرفهم.. في دمائهم.. في دينهم وفي أموالهم وممتلكاتهم وكذلك سيحدث لكم أنتم مثل هذه المأساة وسيحل بكم العذاب كما حل بالليبيين الشرفاء إذا لم تدافعوا عن أنفسكم، إذا لم تبينوا أنفسكم أنكم أحياء.

أيها المسلمون:

في الوقت الحالي لن تستطيعوا الدفاع عن أنفسكم وبسلاحكم فقط؛ بل سخروا أقلامكم

وكذلك باجتهادكم ويصبركم على المكائد، لتدافعوا عن كيانكم وعن أرضكم وعن مقدساتكم وتثبتوا للعالم بأنكم شعب يعرف كيف يقاوم.

لوزان 12 ذو القعدة 7 أبريل 1931م

شكيب أرسلان

قال شكيب أرسلان ولما حررت المقالة التي نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة 1931م على أثر دخول الطليان إلى الكفرة وارتجف لها العالم الإسلامي غضباً وعلا الصراخ من كل جهة جاءني من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي:

عاشراً: رسالة من عمر المختار إلى شكيب أرسلان:

كانت تلك الجهود التي قام بها الأمير شكيب أرسلان وصلت أخبارها للمجاهدين، فأرسل قاد حركة الجهاد رسالة شكر واحترام وتقدير لتلك الأعمال وهذا نص الرسالة(إنه من خادم المسلمين عمر المختار إلى المجاهد الأمير الخطير أخينا في الله وزميلنا في سبيل الله الأمير شكيب أرسلان حفظه الله، بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم ورحمة الله وبركاته، قد قرأنا ما دبجه قلمكم السيال عن فظائع الطليان وما اقترفته الأيدي الأثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فإني وعموم إخواني المجاهدين نقدم لسامي مقامكم خالص الشكر، وعظيم الممنونية. كل ما ذكرتموه عما اقترفته أيدي الإيطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتطتم كثيراً ولو يذكر للعالم كل ما يقع من الإيطاليين لا توجد أذن تصغي لما يروى من استحالة وقوعه، والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح، وأننا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون، وعلى الله في نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته في 20 ذي الحجة 1349 هـ)[1].

وقد علق شكيب أرسلان على تلك الرسالة فقال: وما لاحظه الشهيد المشار إليه هو عين الحقيقة فإن الناس يصعب عليهم أن يصدقوا الشناعات والدناءات والنذالات التي أقدم عليها الطليان في طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم[2].

إن رسالة عمر المختار للأمير شكيب أرسلان نستخلص منها فوائد جمّة: ففي قوله من «خادم المسلمين» دليل على تواضعه وافتخاره بكونه من خدّام المسلمين، وهذا المعنى له مدلول عند الشيخ عمر المختار، فهو يتقرب إلى الله تعالى بخدمة المسلمين وهي من أعظم

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (2/ 84).

(2) المصدر السابق نفسه(2/ 84).

القربات عند الله تعالى، وفي قوله «إلى المجاهد الأمير الخطير» وصف الأمير شكيب بالمجاهد وهو بالفعل جاهد مع الليبيين بجانب جنود الأتراك ضد الطليان، وفيه دلالة على اهتمام عمر المختار بالمصطلحات الشرعية فلم يقل: مناضل، أو مكافح، أو ثائر..

وإنما تقيد بوصفه مجاهداً لدلالة هذه الكلمة وعمقها في أوساط المسلمين، ووصفه بالخطير كيف لا وقد كانت مقالاته أنفذ من الرصاص في قلوب الإيطاليين، وساهمت في تشكيل تعاطف إسلامي وعربي كبير مع القضية الليبية العادلة، وفي قوله «أخينا في الله» فيه دلالة رابطة العقيدة التي جعلت المسلمين أخوة، فهي فوق كل الروابط الأرضية، وفي قوله «بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم» فيها قوة العبارة، وبلاغة الأسلوب، وروعة المدخل، وفي قوله: «قد قرأنا ما دبجه قلمكم السيال عن فظائع الطليان» دليل على متابعة المجاهدين لما يجري خارج البلاد وله علاقة بقضية شعبنا، وأما بقية الرسالة ففيها تأكيد للأمير شكيب عن المعلومات التي وصلت إليه وقام بنشرها، وفيها إصرار قوي على مواصلة الجهاد والدفاع عن الدين والوطن، وفيها توكل على الله عظيم.

الحادي عشر: السياسة الإيطالية لاستئصال وإبادة الشعب الليبي

هذا وقد قامت جمعية الشبان المسلمين بمصر بنشر بيان عن سياسة الإبادة والاستئصال التي اتبعتها إيطاليا في طرابلس الغرب وألقي ذلك البيان في اجتماع عظيم في نادي جمعية الشبان المسلمين ووقع عليه أهل الرأي والمكانة في مصر ليرسل إلى جمعية الأمم، ويذاع في العالم الإسلامي وجاء في ذلك البيان الحديث عن:

1 - سياسة التهجير:

لقد شهدت مصر مشهداً لا تستطيع الإنسانية أن تعرض عنه متجاهلة ما انطوى عليه من الآلام، وذلك أن مئات من بني الإنسان بين رجال ونساء وأطفال وشيوخ اضطروا تحت ضغط الجور إلى أن يتركوا أوطانهم تخلصاً من الظلم، وأن يهيموا على وجوههم في القفار، ولولا مروءة مأجور الواحات المصري الذي خرج هو ورجاله للبحث عنهم حتى لقيهم وأنقذهم لهلكوا عطشاً وجوعاً، أولئك هم فريق من إخواننا الطرابلسيين الذي خرجوا من قسوة الحكم الإيطالي الذي لا يطاق.

2 - سياسة القتل والرمي في البحر:

ولم تكد أعيننا تكفكف الدموع على هذا المشهد الذي شهدته على اليابسة حتى حملت إلينا أمواج البحر في السلوم مشهداً آخر أفظع من هذا وأشنع، فرمى البحر إلى هذا الساحل المصري أربع عشرة جثة من جثث هؤلاء الطرابلسيين مغلولة في سلسلة واحدة.

3 - عمل الإيطاليين في الكفرة:

ثم توالت الأخبار بأن زاوية الكفرة المنقطع أهلها للعبادة قد أمطرتها طائرات الإيطاليين بالقنابل وفتكت بأهلها فتكاً ذريعاً، وبعد ذلك هاجمها الجيش، وكاد يأتي على البقية من أهلها ولم يتعفف عن هتك الأعراض وسلب الأموال وبقر بطون الحوامل.

4 - قتلهم لأهل العلم:

وقد قتل من أهل الكفرة في هذه النازلة كثيرون منهم الشيخ أبو شنة، وابن أخيه الشيخ عمر والشيخ حامد الهامة، والشيخ عبد السلام أبو سريويل، والشيخ محمد المنشوف، وابن أخيه علي بن حسين، والشيخ محمد العربي، والشيخ محمد أبو سجادة، والشيخ أحمد الفاندي الجلولي، والشيخ خليفة الدلاية.

5 - قتلهم لكبار شيوخ الكفرة:

ولما ذهب كبار شيوخ زاوية الكفرة إلى القائد الكبير يرجونه وضع حد لهذه المذابح أمر بذبحهم أمامه كما تذبح الشياه.

6 - قتل الأبرياء برميهم من الطائرات:

ومن الفظائع التي ارتكبها الإيطاليون في برقة، ونقلها الرواة الصادقون أنهم وضعوا أحد مشايخ عائلة الفوائد المدعو الشيخ سعد وخمسة عشر شخصاً من العرب في الطائرات وارتفعوا بهم عن سطح الأرض ثم جعلوا يلقونهم واحداً بعد الآخر ليموتوا ميتة لم يسبق لها مثيل.

7 - انتزاع الأراضي من أهاليها وتجويعهم:

ومن الفظائع التي ارتكبوها في الجبل الأخضر إخراج أهله منه وهم لا يقل عددهم عن ثمانين ألف عربي إلى بادية سرت القاحلة، ثم أذاعوا بواسطة قنصليتهم في بلاد الأرجنتين أن حكومة طرابلس وبرقة تعطي الأراضي الخصبة فيها لكل إيطالي يريد النقلة إليها، وبلغت مساحة الأراضي التي أخذت غصباً نحواً من مائتي ألف هكتار، ولا تزال الحكومة الإيطالية تحث الإيطاليين على استعمار هذه الأراضي وقبل انتزاع أراضي الجبل الأخضر من أهله في هذه السنة انتزعت في سنة 1924م ما مساحته 420 ألف هكتار بدون مقابل، وفي بعض الأحيان كان كل المقابل عن المائة ألف هكتار ستة آلاف فرنك إيطالي - أي خمسين جنيهاً تقريباً - وقد خرج أهالي الجبل الأخضر عند إجلائهم منه وهم لا يملكون ما يقتاتون به فرتبوا لكل عائلة فرنكين في اليوم وهم الآن يعيشون بهذا المرتب عيشة بؤس تفتت الأكباد، وفي أثناء نقلهم إلى صحراء سرت كان كلما عجز واحد منهم عن مواصلة المشي يرمى بالرصاص.

8 - ترحيل الأطفال إلى إيطاليا لتنصيرهم:

وفضلاً عن كل ذلك فقد جمع الإيطاليون الأطفال الوطنيين من 3 إلى 14 وأخذوهم من أهلهم وأرسلوهم إلى إيطاليا بزعم تعليمهم فيها، وجمعوا الشبان من سن 15 إلى 40 وألحقوهم بالجيش واستخدموهم في محاربة أهلهم وبلادهم.

9 - إرساليات التبشير بين الأهالي:

وبلغ الاستهتار بالشعور الإسلامي مبلغاً عظيماً بين إرساليات التبشير المنبثة الآن بين الأهالي، ومن صدور الأوامر المشددة على الخطباء في الجوامع بالدعاء لملك إيطاليا على المنابر.

10 - خداعها للأهالي(1):

وقد حدث مراراً أن الحكومة تعلن عن العفو والأمان، فإذا وقع العفو عنهم وغدوا في قبضتهم غدرت بهم، وممن ذهبوا ضحية هذا الغدر من رؤساء القبائل خليفة بن عسكر، والشيخ عبيدة الصرماني، وأحمد الباشا، وإبراهيم بن عباد، والهادي كعبار وابنه محمد كعبار، والشيخ أحمد أحمد الحجاوي، والشيخ علي الشويخ، والشيخ عبد السلام بن عامر، والشيخ محمد التريكي، والشيخ شرف الدين العمامي، والشيخ أحمد بن حسن بن المنتصر، والشيخ عمر العوارني، والشيخ محمد عبد العال، ومن الضحايا الذين لا يعرف لهم ذنب؛ الشيخ صالح العوامي وهو شيخ يبلغ التسعين عاماً من أهل العلم والصلاح قبضت عليه إيطاليا سنة 1923 وزجته في سجن بنغازي إلى أن مات فدفن بمحل مجهول، فأرواح هؤلاء الضحايا تصيح بالإنسانية جميعها، وبجمعية الأمم بنوع خاص أن هلمّي إلى إنقاذ البقية الباقية من أبناء الإنسانية المعذبة في هذه الربوع من سياسة الفتك والاستئصال والإبادة التي تتّبعها إيطاليا في طرابلس المنكوبة، وأن العالم الإسلامي يعتبر ما وقع ويقع في طرابلس الغرب عدواناً مباشراً على كل مسلم مهما كانت جنسيته ووطنه، وسيبقى عار هذه الأعمال لاصقاً لإجراء تحقيق دولي حر دقيق في نفس بلاد برقة وطرابلس عن كل ما جرى فيها وإعلان نتيجته كما تقتضيه العدالة والحق، والموقعون على هذا يطلبون من جمعية الأمم إجراء هذا التحقيق تنزيهاً للإنسانية عن لحوق هذا العار بها إلى الأبد ويرجون بإلحاح أن يكون لهم مندوب يختارونه مع لجنة التحقيق، وهم ينتظرون ما تقرره العصبة في هذا الشأن بفارغ الصبر.

التوقيعات:

1 - محمد الشرقاوي.

---

(1) انظر: مجلة المنار (ج9، م3، ص714، 715، 716).

2 - خليل الخالدي رئيس الاستئناف الشرعي بفلسطين.

3 - محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار الإسلامية.

4 - محمد عبد اللطيف دراز من العلماء وعضو مجلس إدارة.

5 - جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

6 - محمد عبد الرحمٰن قراعة من العلماء ومدرس بالأزهر الشريف.

7 - عبد الوهاب النجار، وكيل جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

8 - محمد كامل القصاب.

9 - محمد تقي الدين الهلالي، الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند.

10 - علي سرور الزنكلوني، المدرس بقسم التخصص بالأزهر.

لقد عبث الجنود الإيطاليون بالمكتبة السنوسية، التي كانت ثروة علمية ضخمة فأخذت أيدي الجنود تبددها ذات اليمين وذات الشمال وتوقد بها النيران للطعام، وأخيراً صدرت الأوامر بجمع ما تبقى منها ونقله إلى بنغازي فنقلته أربعون سيارة شحن كبيرة وعدد كبير من الإبل، ولم تنج هذه المكتبة بعد وصولها إلى بنغازي من العبث فقد تسرب الكثير منها إلى أيدي الأفراد ونقل قسم كبير منه إلى إيطاليا، وهكذا وصلت يد الفساد الإيطالية إلى كل شيء في ليبيا[1].

عندما تم اعتقال جميع أهالي برقة وحصرهم، وتم احتلال واحة الكفرة لم يعد إذن أمام سفاح برقة إلا شيء واحد؛ هو إتمام وضعية مد الأسلاك الشائكة التي ستفصل بين برقة ومصر فصلاً نهائيًا، فأخذ في سرعة تتميمها مجنداً لذلك كل ما لديه من إمكانيات، وكان قد استدعى شركات المقاولات الخاصة من إيطاليا، فتعهدت كل شركة منها بإتمام الجزء المخصص لها تحت إشراف القيادة العسكرية التي وضعت مهندسيها تحت تصرف هذه الشركات، وقد استوردت الحكومة الإيطالية معدات خاصة من ألمانيا فضلاً عما جاءت به من إيطاليا لهذا الغرض المطلوب، ووضعت تحت تصرف هذه الشركات عشرات الآلاف من العمال الذين جندتهم من المعتقلات تلهب ظهورهم السياط، وهكذا امتد خط الأسلاك الشائكة من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب فكان طوله حوالي ثلاثمائة كيلومتر، ثم وضع غراسياني نقاطاً عسكرية مزودة بجميع المعدات الحربية، وربط بعضها ببعض من حيث الاتصال فيما إذا احتاجت نقطة لمساعدة الأخرى تهب بسرعة، ومن هذه النقاط: مساعد، والشقة، وبئر الغبي، وقبر صالح، وسيدي عمر، وبئر حكيم، ثم زوّد غراسياني هذا السياج المحكم بمولدات كهربائية لمده بالنور حتى لا يستطاع الإفلات منه مهما تكن الأحوال، وإذا ما قدر لأي إنسان أن يصل إليه فسيواجه معركتين عسيرتين لا سبيل لإفلاته من إحداهما إذا ما تيسر له الإفلات من

(1) انظر: عمر المختار، ص(134).

الأخرى، وتتمثل المعركتان في محاولة تقطيع الأسلاك، وفي الدفاع عن النفس، وتقطيع الأسلاك يحتاج إلى معدات فنية وإلى وقت من الزمن فكيف إذن لمن يتمكن من الوصول إلى هذا السياج إجراء عملية التقطيع وعملية الدفاع في آن واحد[1].

كان المجاهدون مستمرين في جهادهم والقوات الإيطالية تشتبك معهم وهي مجهزة بالمصفحات والطائرات والمدفعية وكان القتال لا يتوقف، وقد أورد الجنرال غراسياني في كتابه أنه التقى مع عمر المختار في مائتين وستين معركة خلال الثمانية عشر شهراً ابتداء من حكمه في برقة إلى أن وقع عمر المختار أسيراً وقد ثبت المجاهدون في حالتي الدفاع والهجوم.

كان المجاهدون يقضون معظم أوقاتهم في حالة استعداد قصوى ويوجهون الضربات المحكمة للطليان وحار سفاح برقة في أمر المجاهدين، ورغم الإجراءات التي اتخذها والتي كان يثق في فائدتها إلا أنه أصيب بالقنوط واليأس وأصبح كل أمله في موت عمر المختار الطبيعي قائلاً لكبار مرؤوسيه في أكثر من مناسبة: إن عمر المختار شيخ كبير ولا بد من موته عاجلاً أو آجلاً فعلينا أن ننتظر تلك الساعة ولعلها لا تكون بعيدة، وفكر غراسياني ذات مرة تفكيراً غريباً وإن كان لا يستغرب على تفكيره أي شيء، فكر في إحراق جميع غابات الجبل الأخضر، ودرس هذا الموضوع جدياً مع مستشاريه السياسيين والعسكريين[2]. إلا أن السيد صالح بك المهدوي أحد زعماء بنغازي استطاع أن يثني غراسياني عن هدفه بعد أن اجتمع به، وشرع غراسياني يتكلم عن عمر المختار محملاً مسؤولية ذلك إلى جميع أهل البلاد، وقال عنهم لو أنهم صدقوا معنا لما استمر عمر المختار في موقفه اليائس يقاتل جنودنا، ثم انتقل فجأة ليتحدث عن موضوع حرق غابات الجبل الأخضر وقال: إن الحكومة الإيطالية يهمها أن تنهض بهذه البلاد، وإن عمر المختار وقف عقبة في سبيل النهوض، وحاولت الحكومة أكثر من مرة أن تنصحه للإقلاع عن محاربتنا ولكنه رفض الانصياع إلى نصائح الحكومة معتمداً على اختفائه في مغارات الجبل وغاباته، ولقد صممت أن أزيل هذه الغابة التي يحتمي وراءها ساخراً بقوة الحكومة، وسكت الجنرال قليلاً، ثم طلب من صالح بك المهدوي أن يشاركه البحث في هذا الموضوع فأجابه بقول:

إن عمر المختار سينتهي بلا شك فقاطعني عند كلمتي هذه بقوله: (إكُو إكُو... كويستا لفيريتا.. يانوتا يانوتا... سيتا... سيتا... ديري.. ديري... أوانتي... أوانتي..) ومعنى هذه الكلمات الإيطالية هو: هكذا.. هكذا... هذه هي الحقيقة (... اسمع يايانوتا (الترجمان) اسمع... اسمع... قل... قل... استمر... استمر) إنكم يا دولة الوالي

---

(1) انظر: عمر المختار، ص(135).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(137).

اتخذتم بحزم جميع الاحتياطات التي من شأنها القضاء عليه، والمسألة وقت لا أقل ولا أكثر، وهنا تحمس الجنرال لكلماتي هذه كأنها صادفت هوى في نفسه، أو كأنني قلت له شيئاً كان يريد أن يسمعه.

وقلت له مواصلاً الحديث: إن الدولة الإيطالية في حاجة لاستثمار كل شجرة في هذه البلاد، وسوف يكون فضل هذا الاستثمار المنتظر على أيديكم فإذا ما أقدمتم على حرق الغابات - والكلمة الأخيرة لدولتكم - فسوف يمر زمن طويل وطويل جداً دون إعادتها من جديد لما كانت عليه، هذا إذا لم يكن إعادتها مستحيلاً، وإليكم يا دولة الوالي نذكر مسألة لها وجه الشبه برأيكم هذا. في عهد الدولة العثمانية قامت قبيلة البراعصة بعصيان ضد الحكومة وتعذر على الحكومة إنهاء العصيان، واعتبرت أن غابات الجبل الأخضر كانت أكبر مشجع للقبائل على العصيان فتتخذ منه مخابىء لا يقوى الجنود العثمانيون على اكتشافها فأرادت الحكومة أن تقوم بحرق جميع الغابات وسمع السلطان بذلك فاعترض على هذه الفكرة قائلاً: إذا كان الموجب لعصيان الأهالي هو تمنعهم عن دفع العشور والعوائد الحكومية فإنني أدفعها عنهم من جيبي الخاص حماية للغابات في الجبل الأخضر، ولا أوافق على حرقها. وعندما انتهيت من الحديث معه ودعني شاكراً)[1].

لقد حرص صالح بك المهدوي على حماية الجبل الأخضر من عبث غراسياني الذي كانت في يده إمكانات إيطاليا للقضاء على حركة الجهاد، ولذلك جادل وناقش وحاول أن يقنع غراسياني بالإقلاع عن تلك الفكرة الجهنمية لقد قال صالح بك عندما سئل عن صحة ما إذا كانت الحكومة العثمانية فكرت في إحراق غابات الجبل الأخضر، فأجاب بقوله: إن المسألة التي ضربت بها المثل للجنرال غراسياني كان لها أثر في عهد قديم، والحديث عنها يطول، والطليان لا يريدون ذكرها من وجهة سياسية محضة وعلى كل حال كنت أرمي بذكرها للجنرال غراسياني إلى حماية جبلنا من عبث هذا المجنون الذي وضعوا في يده سيفاً حادًا.

كان غراسياني يملك القوات الضخمة في البر والبحر والجو، والسلطة الغاشمة المستبدة في برقة، والخزائن المرصوفة بالأموال، والسجون والمعتقلات والمشانق، ومع هذا يضعف ويسيطر عليه العجز أمام المجاهدين وقائدهم العظيم حتى دفعه تفكيره إلى حرق الغابات بعد أن تمكن من حرق الأكباد والأفئدة والأجسام، لقد وقع تحت تأثير عصبي حاد من جراء ما أصابه من الفشل الذريع وكان في طريقه إلى الاستقالة أو الإقالة لولا تقدير الله بوقوع عمر المختار في الأسر[2].

---

(1) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(139).

(2) انظر: المصدر السابق، ص(141).

المبحث الثالث

الأيام الأخيرة من حياة المختار ووقوعه في الأسر ثم إعدامه

أولاً - أحمد الشريف يحترق على بلاده ويرسل محمد أسد لمعرفة أخبار المجاهدين:

كان محمد أسد صاحب كتاب «الطريق إلى الإسلام» قد تعرف على أحمد الشريف أثناء إقامته في الحجاز وقد تأثر به غاية التأثر، وأحبه حبًا عظيماً، يقول محمد أسد: (ليس في الجزيرة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد؛ ذلك أنه ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة عن كل غاية في سبيل مثل أعلى، كما فعل هو، لقد وقف حياته كلها عالماً ومحارباً على بعث المجتمع الإسلامي بعثاً روحيًا، وعلى نضاله في سبيل الاستقلال السياسي ذلك أنه كان يعرف جيداً أن الواحد لا يمكن أن يتحقق من دون الآخر)(1).

لقد تعرف محمد أسد على أحمد الشريف بواسطة المجاهد الأندونيسي حاجي آغوس سالم الذي كان يمثل مركز القيادة في جهاد إندونيسيا ضد أعدائها، وكان قد جاء معه بقصد الحج وعندما عرف السيد أحمد الشريف أن محمد أسد حديث عهد بالإسلام، مد إليه يده وقال: (مرحباً بك بين إخوانك، يا أخي الشاب. . .)(2). لقد أحب محمد أسد أحمد الشريف وتفاعل مع قضية ليبيا وكان يمضي معه وبصحبة السيد محمد الزاوي الساعات الطوال للبحث في وضع المجاهدين في ليبيا، واستمرت الاجتماعات في مساء كل يوم طيلة أسبوع تقريباً لبحث ما كان بالإمكان صنعه، وقد رأى الشيخ محمد الزاوي أن إمداد المجاهدين بين الفينة والأخرى لم يكن من شأنه أن يحل المشكلة، فقد كان يعتقد أن واحة الكفرة، في الجنوب من صحراء ليبيا يجب أن تكون ثاني محور لكل العمليات الحربية في المستقبل، وكان يظن أن الكفرة ما تزال بعيدة عن تناول الجيوش الإيطالية، وفوق ذلك فقد كانت تقع على طريق القوافل (ولو كان طويلاً وشاقًا) إلى واحتي بحرية وفرفرة المصريتين، ولذا كان يمكن تموينها بصورة جادة أكثر من أي موقع آخر في ليبيا، كما كان يمكن أن يتحول كثير من المهاجرين إلى مصر لتكون مستودعاً دائماً لإمداد عمر المختار في الشمال، وكان أحمد الشريف مستعداً للذهاب بنفسه، لو أمكن إعادة تنظيم القتال على تلك الصورة، للإشراف على العمليات الجهادية بنفسه(3).

---

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(331).

(2) انظر: المصدر نفسه، ص(446).

(3) انظر: المصدر نفسه.

لقد تحدث محمد أسد عن سبب اهتمامه بالقضية السنوسية فقال: لم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئاً عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في قضية عادلة مقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك هو ما يمكن أن يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله إذا أنني لم أستطع أن أرى في العالم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثالي: الحركة السنوسية، التي كانت تحارب الآن معركتها الأخيرة في سبيل الحياة وبسبب أن السيد أحمد كان يعرف مبلغ عطفي الشديد على القضية السنوسية، فقد التفت إليّ وسدد نظره إلى عيني وسألني قائلاً: (هل تذهب يا محمد إلى برقة بالنيابة عنا، فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين؟ لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأجلى مما يراها بنو قومي. . .)[1].

وبعد أن وافق محمد أسد على تلك المهمة الصعبة تناول أحمد الشريف من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم ملفوفة بغلاف من الحرير، وبعد أن وضعها على ركبته أمسك بيدي اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب وقال:

(اقسم يا محمد، بالله الذي يعلم ما في القلوب، على أنك ستبقى أميناً للمجاهدين. . .).

قال محمد أسد: فأقسمت ولم أشعر في حياتي يوماً كنت أكثر وثوقاً بوعدي مما كنت في تلك اللحظة[2].

قام أحمد الشريف بترتيب أمور هذه الرحلة واتصل بأتباع الحركة في مصر ووصل الخبر إلى عمر المختار واستعد محمد أسد لهذه الرحلة المثيرة مع رفيقه زيد من قبيلة شمّر، وشرع في تنفيذ خطواته وكان رجال الحركة السنوسية يقودونه بمهارة بارعة حتى وجد نفسه أمام عمر المختار في الجبل الأخضر وقد فصّل الأستاذ محمد أسد تلك الرحلة في كتابه المشهور[3].

لقاؤه بعمر المختار:

بعد دخول محمد أسد إلى الجبل الأخضر من جهة الصحراء الغربية المصرية بواسطة المجاهدين الذين أرسلهم عمر المختار لاستقباله وجد محمد أسد نفسه أمام قائد حركة الجهاد، ويصف لنا محمد أسد ذلك اللقاء فيقول: كان يحيط به رجلان من كل جانب، ويتبعه كذلك عدد آخر، وعندما وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها، ساعده أحد رجاله على النزول،

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(347).
(2) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(348).
(3) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(348 إلى 360).

ورأيت أنه كان يمشي بصعوبة (عرفت بعدئذٍ أنه قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام) وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح: كان رجلاً معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة، وكانت عيناه عميقتين، ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين براقتين في غير هذه الظروف، إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة.

واقتربت منه لأحييه، وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي (مرحباً بك يا بني) قال ذلك وأخذ يجيب عينيه فيَّ متفحصاً: لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي.

وفرش أحد رجاله حراماً على الأرض فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً انحنى عبد الرحمٰن[1] ليقبل يده ثم يشرع بعد استئذانه، يوقد ناراً خفيفة تحت الصخرة التي كنا محتمين بها وعلى ضوء النار الخافت، قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد أحمد إليه: لقد قرأه باهتمام وعناية، ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه - وهي إمارة الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها في جزيرة العرب ولكنه كثيراً ما يراها في شمالي إفريقيا - ثم التفت إليَّ مبتسماً وقال: (لقد أطراك السيد أحمد، أطال الله عمره، في كتابه. أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكني لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة، إلا من الله العلي الكريم. إننا حقًّا على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا..).

فقلت: (ولكن.. هذه الخطة التي وضعها السيد أحمد، ألا يمكن أن تكون بداية جديدة؟ وإذا أمكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من الكفرة بصورة ثابتة، أفلا يمكن صد الإيطاليين؟)[2].

لم أر في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر: (الكفرة...؟ لقد خسرنا الكفرة، فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسبوعين تقريباً...)[3].

وأذهلني الخبر، ذلك إنني والسيد أحمد، طوال تلك الأشهر الماضية، كنا نبني خططنا على افتراض أن الكفرة يمكن أن تكون نقطة تجمع لتقوية المقاومة، أما وقد ضاعت الكفرة فإنه لم يبق للسنوسيين سوى نجد الجبل الأخضر لا شيء سوى كماشة الإيطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار.. وخسارة نقطة بعد نقطة.. واختناق بطيء).

- وكيف سقطت الكفرة؟ فأومأ سيدي عمر إيماءة متعبة إلى أحد رجاله أن يقترب: (دع

---

(1) هذا من المجاهدين الذين استلموا محمد أسد ورفيقه عند الحدود المصرية.

(2) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(360، 361).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(361).

هذا الرجل يقص عليك الخبر. . إنه واحد من أولئك القلائل الذين هربوا من الكفرة، ولم يصل عندي إلا بالأمس).

وجلس الكفري على ردفيه أمامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلم ببطء دون أن يبدو في صوته أي أثر للانفعال، ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الأهوال التي شهدها.

(لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق من ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة. أما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل. لم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح، أما الباقون فقد كانوا نساء وأطفالاً وشيوخاً. لقد دافعنا عن أنفسنا بيتاً بيتاً، ولكنهم كانوا أقوى كثيراً منا، وفي النهاية لم يبق إلا قرية الهواري. لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا، وتمكن عدد قليل جدًا من الهرب. أما أنا فقد اختبأت في حدائق النخيل، مترقباً الفرصة لشق طريقي خلال الخطوط الإيطالية، وكنت طوال الليل أسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الإيطاليون والعساكر الأرتيريون يغتصبونهن وفي اليوم التالي أحضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز، وأخبرتني أن الجنرال الإيطالي قد حشد كل من تبقى من على قيد الحياة أمام قبر السيد محمد المهدي وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن الكريم ثم رماها إلى الأرض وداس عليها بحذائه صائحاً: (دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن إذا استطاع!) ثم أمر بقطع أشجار النخيل في الواحة وهدم آبارها، وأحرق كل ما كان في مكتبة السيد أحمد البدوي من كتب، وفي اليوم التالي أصدر أمره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق، وطوال الليلة التالية كنت أسمع من مخبئي صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بنادقهم. . وأخيراً زحفت إلى الصحراء في ظلام الليل فوجدت جملاً شارداً امتطيته ووليت فراراً. .)[1].

وعندما أنهى الرجل قصته المروعة قربني سيدي إليه بلطف وكرر قوله: (إنك تستطيع أن ترى، يا بني، أننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا) ثم أضاف: (إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت نحن وليس لنا أن نختار غير ذلك. إنا لله وإنا إليه راجعون - لقد أرسلنا نساءنا وأولادنا إلى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا أن نموت).

قلت: (ولكن يا سيدي عمر، أليس من الأفضل لك وللمجاهدين أن تنسحبوا إلى مصر بينما لا يزال هناك طريق مفتوح أمامكم؟ فلقد يكون من الممكن في مصر جمع المهاجرين

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(362).

الكثيرين من برقة وتنظيم قوة أكثرة فعالية وجدوى. إن القتال هناك يجب أن يوقف بعض الوقت حتى يستعيد الرجال شيئاً من قوتهم... أنا أعرف أن البريطانيين في مصر لا ينظرون بعين الرضى إلى وجود قوات إيطالية راسخة الأقدام على خاصرتهم، فقد يغضون الطرف، والله أعلم، عن استعداداتكم فيما إذا أقنعتموهم بأنكم لا تعتبرونهم أعداء...)

فأجاب: (كلا يا بني، لم يعد هذا يجدي الآن، إن ما تقوله كان ممكناً منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة، قبل أن يقوم السيد أحمد، أطال الله عمره، بمهاجمة البريطانيين كي يساعد الأتراك - الذين لم يساعدونا... أما الآن فلم يعد في الأمر ما يجدي.. إن البريطانيين لم يحركوا إصبعاً لكي يسهلوا علينا أمرنا، والإيطاليون مصممون على أن يقاتلونا حتى النهاية، وعلى سحق كل إمكانية للمقاومة في المستقبل، فإذا ذهبت وأتباعي الآن إلى مصر، فإننا لن نتمكن مطلقاً من العودة ثانية، وكيف نستطيع أن نتخلى عن قومنا ونتركهم ولا زعيم لهم، لأعداء الله يفترسونهم؟).

- وما قول السيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي يا سيد عمر؟

- (إن السيد إدريس رجل طيب، إنه ولد طيب لوالد عظيم، ولكن الله لم يعطه قلباً يمكنه من تحمل مثل هذا الصراع...)[1].

كان زيد الشمّري رفيق محمد أسد في رحلته بصحبة خليل أحد المجاهدين لإحضار قرب الماء، وبعدما رجع وقع بصر خليل على سيدي عمر هجم لتقبيل يده، وبعد ذلك قدم محمد أسد زيداً إلى عمر المختار فوضع المختار يده على كتفه وقال:

(مرحباً بك، يا أخي، من أرض أجدادي، من أي العرب أنت؟ وعندما أخبره زيد أنه من قبيلة شمر، أومأ عمر برأسه مبتسماً: (آه، إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم الناس يداً...).

وقدم لهم رجال المختار بعض التمر، ودعاهم المختار إلى ذلك الطعام البسيط فأكلوا، ونهض قائد المجاهدين وقال: (آن لنا أن نتحرك من هنا، إننا على مقربة من المركز الإيطالي في بوصفية، ولذا لا نستطيع أن نتأخر حتى الفجر..).

وتحرك محمد أسد مع قائد حركة الجهاد ووصل إلى معسكر المجاهدين ووقعت عيناه على امرأتين إحداهما مسنة والأخرى شابة - في المعسكر كانتا جالستين بالقرب من أحد النيران، مستغرقتين في إصلاح سرج ممزق بمخرز غليظ.

وعندما لحظ الشيخ عمر المختار دهشة محمد أسد قال: (إن أختينا هاتين تذهبان معنا

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(363).

حيثما نذهب، لقد رفضتا أن تسعيا إلى أمن مصر مع سائر نسائنا وأولادنا، إنهما أم وابنتها، وقد فقدتا جميع رجالهما في الحرب...)[1].

اتفق عمر المختار مع محمد أسد على طريقة إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح عن طريق الطريق التي جاء منها محمد أسد، مع إنشاء مستودعات سرية في واحات بحرية وفرفرة وسيوة، وكان عمر المختار يشك في إمكانية الإفلات من مراقبة الإيطاليين بهذه الطريقة مدة طويلة.

وقد تبين بعد ذلك أن ظنونه ومخاوفه كانت في محلها، ذلك أنه بعد بضعة أشهر تمكنت قافلة تحمل المؤن والذخائر من الوصول فعلاً إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين اكتشفوها بينما كانت تجتاز الفجوة بين الجغبوب وجالو، وسريعاً ما أنشئوا بعد ذلك مركزاً محصناً في بير طرفاوي على نصف المسافة تقريباً بين الواحتين، مما جعل - بالإضافة إلى الدوريات الجوية المستمرة - كل مسعى آخر من هذا النوع خطراً إلى أبعد الحدود[2].

وكان قد تقرر رجوع محمد أسد وزيد الشمّري إلى الحجاز ورجعوا من حيث أتوا بواسطة المجاهدين البواسل الذين رتبوا الأمور، وأخذوا بالأسباب، وحافظوا على ضيوفهم الكرام.

يقول محمد أسد: وودعت وزيد عمر المختار، ولم نره بعد ذلك إطلاقاً، ذلك أنه بعد ثمانية أشهر، قبض عليه الإيطاليون وأعدموه.

وقد وصف لنا محمد أسد آخر لقاء مع السيد أحمد الشريف فقال: ومرة أخرى وقفت أمام إمام السنوسية ونظرت إلى وجه ذلك المحارب القديم المرهق، ومرة أخرى قبلت اليد التي حملت السيف طويلاً جدًا حتى أنها لم تعد تستطيع بعد أن تحمله.

(بارك الله فيك يا بني.. لقد مضت سنة منذ أن التقينا أول مرة، وهذه السنة قد شهدت نهاية آمالنا ولكن الحمد لله على كل حال...).

والحق أنها كانت سنة مفعمة بالهموم والأكدار بالنسبة إلى أحمد: لقد أصبحت الأخاديد حول فمه أكثر عمقاً، وأصبح صوته أكثر انخفاضاً من أي وقت مضى.

لقد هوى النسر، إنه يجلس منكمشاً على السجادة، وقد لف نفسه ببرنسه الأبيض كأنما يطلب الدفء، ويحدق بصمت في الفراغ وهمس: (ولو أننا استطعنا فقط أن ننقذ عمر المختار، لو أننا تمكنا من إقناعه بالهرب إلى مصر بينما كان هناك متسع من الوقت...).

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(365).

(2) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(366).

فقلت له: (لم يكن باستطاعة أحد أن ينقذ سيدي عمر، إنه لم يرد أن ينقذ، لقد فضل أن يموت إذا لم يستطع أن ينتصر، لقد عرفت ذلك عندما فارقته يا سيدي أحمد...)[1].

إن أحمد الشريف اهتم ببلاده بمجرد هجرته منها وكان على اتصال بالمجاهدين وقد حدثني السيد عبد القادر بن علي أن أحمد الشريف قام بكتابة رسائل إلى قبائل برقة يحثهم فيها على السمع والطاعة للشيخ عمر المختار رحمهم الله.

ثانياً - الأسد يقع أسيراً:

ظل المختار في الجبل الأخضر يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تحيط به وبرجاله، وكانت من عادة عمر المختار الانتقال في كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيها إخوانه المجاهدون لتفقد أحوالهم، وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارىء، ويأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذي يتربص به الدوائر في كل زمان ومكان، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة كعادته في نفر قليل يقدر بمائة فارس، ولكنه عاد فردٌ من هذا العدد ستين فارساً وذهب في أربعين فقط. ويوجد في الجبل الأخضر واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادي الجريب (بالتصغير) وهو صعب المسالك كثير الغابات، كان لا بد من اجتيازه، فمر به عمر المختار ومن معه، وباتوا فيه ليلتين، وعلمت بهذا إيطاليا بواسطة جواسيسها في كل مكان، فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة، فما شعر عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو[2] وقرر منازلة الأعداء وجهاً لوجه فإما أن يشق طريقاً يمكنه من النجاة وإما أن يلقى ربه شهيداً في الميدان الذي ألف فيه مصارعة الأعداء، والتحمت المعركة داخل الوادي، وحصد رصاص المجاهدين عدداً كبيراً من الأعداء، وسقط الشهداء، وأصيب عمر المختار بجراح في يده، وأصيب فرسه بضربة قاتلة، وحصلت يده السليمة تحت الفرس فلم يتمكن من سحبها، ولم تسعفه يده الجريحة وأصبح لسان حاله يقول:

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... وكم من صدى صوتي ليوث الشرى فروا
وما أحد في الحرب يجهل سطوتي ولا ... فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرىء ... يكون ولا يغني من القدر الحذر
ومن رام من أمر الإله وقاية ... فليس له بر يقيه ولا بحر[3]

والتفت المجاهد بن قويرش فرأى الموقف المحزن وصاح في إخوانه الذين شقوا الطريق

(1) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص(370).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(313).
(3) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(145).

للخروج من الحصار قائلاً: (الحاجة التي تنفع عقبت أي تخلفت)، فعادوا لتخليص قائدهم ولكن رصاص الطليان حصد أغلبهم، وكان ابن قويرش أول من قتل وهو يحاول إنقاذ الشيخ الجليل، وهجم جنود الطليان على الأسد الجريح دون أن يعرفوا شخصيته في البداية، وتم القبض عليه وتعرف عليه أحد الخونة، وجاء الكمندتور داود باتشي متصرف درنة ليتعرف على الأسير وبمثل سرعة البرقة نقل عمر المختار إلى ميناء سوسة محاطاً بعدد كبير من الضباط والجنود الإيطاليين، وأخذت كافة الاحتياطات لحراسة جميع الطرق والمواقع القريبة لتأمين وصول المجاهد العظيم إلى سوسة ومن ثم نقل فوراً إلى بنغازي عن طريق البحر(1).

يقول غراسياني في مذكراته: في صباح يوم 11 سبتمبر 1931م وصل الخبر برقيًا إلى الحكومة من متصرفية الجبل هذا نصها: (بالقرب من (سلطنة) فرقة الفرسان (الصواري) قبضت على وطني وقع من على جواده أثناء المعركة وقد تعرف عليه عساكرنا بأنه عمر المختار ونظراً للخبر المهم ومن أجل التأكد والتحقق أمرت الحكومة متصرف الجبل الحكومندتور (الوجيه داود باتشي) فجهزت طائرة خاصة لنقله إلى (سلطنة) على الفور للتعرف على شخصية الأسير وتثبت هويته إن كان هو زعيم المجاهدين عمر المختار وتأكد متصرف الجبل من أنه عمر المختار وسرى الخبر سريان البرق وصدرت الأوامر بنقله إلى سلطنة ومنها إلى سوسة تحت حراسة شديدة حيث وصلها عند السابعة عشر من مساء نفس اليوم سبتمبر 1931م دون أي عائق أو حادث أثناء الطريق من سلطنة إلى سوسة، مكث هناك في انتظار الطراد الحربي (أورسيني) الذي تحرك من بنغازي خصيصاً ليعود بالأسير إلى بنغازي وفي أثناء الرحلة تحدث معه بعض السياسيين التابعين لإدارتنا ووجهوا إليه الأسئلة، فكان يجيب بكل هدوء وبصوت ثابت وقوي دون أي تأثر بالموقف الذي هو فيه، وفي يوم 12 سبتمبر 1931م عند الساعة السابعة عشر وصل الطراد أورسيني إلى ميناء بنغازي حاملاً معه الأسير عمر المختار...)(2) وقال أيضاً: هذا الرجل أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام؛ لأنه الرأس المفكر والقلب النابض للثورة العربية (الإسلامية) في برقة وكذلك كان المنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة والآن وقع أسيراً في أيدينا(3).

وهذا الاعتراف من غراسياني الخسيس في كتابه بأن عمر المختار قاد المعارك سنين طويلة واعترف بأنه محترم من أتباعه إلى مكانة عالية جدًا، ثم بأنه الرأس المفكر والقلب النابض للجهاد الإسلامي المقدس في برقة، ثم الصبر والمهارة التي لا مثيل لها... فهذا اعتراف من

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(146).
(2) انظر: برقة الهادئة، ص(274).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(266، 267).

الجنرال غراسياني خريج الكليات الحربية والأكاديمية العسكرية وله تجارب طويلة في حرب الاحتلال إلى الحرب العالمية الأولى وحروبه الصحراوية حتى لقبه بنو قومه بلقب أسد الصحراء، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ويقول الجنرال غراسياني عن عمر المختار أيضاً: «كان عمر المختار كرئيس عربي مؤمن بقضية وطنه وله تأثير كبير على أتباعه مثل الرؤساء الطرابلسيين يحاربون بكل صدق وإخلاص، أقول ذلك عن تجارب مرت بي أثناء الحروب الليبية، وكان عمر المختار من المجاهدين الكبار لما له من مكانة مقدسة بين أتباعه ومحبيه، إن عمر المختار يختلف عن الآخرين فهو شيخ متدين بدون شك، قاسٍ وشديد التعصب للدين ورحيم عند المقدرة، ذنبه الوحيد يكرهنا كثيراً وفي بعض الأوقات يسلط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة، مثل الجبليين، كان دائماً مضادًا لنا ولسياستنا في كل الأحوال لا يلين أبداً ولا يهادن إلا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخن أبداً مبادئه فهو دائماً موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا إن خيانة موقعة (قصر بنقدين) ضيعت على عمر المختار كل الفرص التي يمكن للدولة الإيطالية أن ترحمه فيها[1].

وقال غراسياني في مذكراته: (أما وصف عمر المختار فهو معتدل الجسم عريض المنكبين شعر رأسه ولحيته وشواربه بيضاء ناصعة، يتمتع بذكاء حاضر وحاد، كان مثقفاً ثقافة علمية دينية، له طبع حاد ومندفع، يتمتع بنزاهة خارقة لم يحسب للمادة أي حساب، متصلب ومتعصب لدينه، وأخيراً كان فقيراً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا إلا حبه لدينه ووطنه رغم أنه وصل إلى أعلى الدرجات حتى أصبح ممثلاً كبيراً للسنوسية كلها)[2] وهذا وصف دقيق يدل بوضوح على عظمة المختار وإمكاناته الذاتية التي وهبه الله فتقلد بسببها أكبر المناصب وخاض أكثر المعارك وصفه عدوه بصفات الورع والتدين ومثقف ثقافة دينية وعلمية، وصفه بشدة المراس والصبر على الشدائد، وهكذا يا أخي المسلم الكريم يصنع الإسلام من أتباعه.

ثالثاً - دخول المختار في سجن بنغازي:

وعندما وصل الأسير إلى بنغازي لم يسمح لأي مراسل جريدة أو مجلة بنشر أخبار أو مقابلات، وكان على الرصيف مئات من المشاهدين عند نزوله في الميناء ولم يتمكن أي شخص مهما كان مركزه أن يقترب من الموكب المحاط بالجنود المدججين بالسلاح، ونقل فوق سيارة السجن تصحبه قوة مسلحة بالمدافع الرشاشة، حيث أودع في زنزانة صغيرة خاصة منعزلة عن كافة السجناء السياسيين وتحت حراسة شديدة وجديدة، ويقول مترجم كتاب «برقة الهادئة»

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(268).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(271).

الأستاذ إبراهيم سالم عامر: كنت من الذين أسعدهم الحظ على أن يتكلموا مع بطل الجهاد عمر المختار أثناء قيامه في السجن فقد أوقفوا كل الأهالي المعتبرين في مراكز الأمن والسجون وكان نصيبي في سجن بنغازي المركزي وعندما أتى بعمر المختار غيروا الحراس المحليين بحراس إريتريين والموظفين بالإيطاليين من الحزب الفاشيستي، وبعد أن أودعوه في الزنزانة كان هناك سرير من خشب وقماش وعلى الأرض قطعة من السجاد البالي لأجل وقع الرجلين عليه فسحبها الشهيد بقرب الجدران وجلس عليها واستند على الجدران ومد رجليه إلى الأمام وعندما كان مدير السجن يتجول على زنزانات السجناء رأى الشهيد جالساً على الأرض ولم يستطع أن يسأله لماذا هو جالس على الأرض. ولأن المدير لا يعرف العربية فناداني من بين السجناء السياسيين وطلب مني أن أترجم سؤاله فسألت الشهيد، فأجاب بصوت هادر كالأسد الهصور: قل له أنا أعرف أين أجلس لا يحمل همًا فهذا ليس من شأنه، فترجمت الكلام فانصعق المدير واصفر وجهه وقال: هيا ارجع إلى مكانك بلهجة الأمر غير أن قلبي كاد يطير من صدري فرحاً عندما سمعت هذه الإجابة القاطعة. رحم الله عمر المختار كم كان عظيماً وهو قائم وأعظم وهو أسير[1].

ويقول غراسياني الجنرال الإيطالي السفاك الجلاد: (وأثناء الرحلة من سوسة إلى بنغازي أعطى لنا معلومات هامة عن كيفية سقوطه في الأسر والقبض عليه قائلاً: عندما ضرب جواده وسقط على الأرض فجرحت يده اليمنى مما سببت له بعض التشقق في عظام ذراعه ورغم هذه الآلالم حاول جر نفسه ليبتعد ويختفي في أحد الشجرات التي في الغابة، ولكن فرقة الفرسان حالت بينه وبين غرضه، وقد تعرف عليه أحد الصواري من فرقة الفرسان وسرعان ما أحاطت به قوتنا، وقد تأسف كثيراً أثناء حديثه بأن رفاقه حاولوا إنقاذه بكل وسيلة، وقد ضاع منهم بعض الرفاق ولكن الكثرة حالت دون بغيتهم كذلك قلة الذخيرة لها عاملها الأصلي في عدم إنقاذي وأثبت كذلك أن وقوعه في الأسر لا يعني توقف الثورة والجهاد بل هناك أربعة من القادة يحلون محلي وهم: الشيخ حمد بوموسى، عثمان الشامي وعبد الحميد العبار ويوسف بورحيل المسماري، وهذا الأخير هو أقربهم إليه لأنه كان دائماً بجانبه، ولقد بالغ كثيراً بالنسبة لعدد الجنود فقد قال: إن دوره يتكون من 500 مقاتل عادي، 400 فارس. واستطرد قائلاً شارحاً أن وقوعه في الأسر لا يؤثر ولا يغير سير القتال أو وضع الدور بل سيزداد قساوة ثم أضاف: إني أحارب الإيطاليين الفاشيستين لا لأني أكره الشعب الإيطالي، ولكن ديني أمرني بالجهاد فيكم لأنكم أعداء الوطن[2].

---

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(274، 275).

(2) انظر: برقة الهادئة، ص(276).

قلت: ما أعلم أحد من المسلمين الصادقين يجد في نفسه ودًّا للنصارى على العموم فكيف بالذين يقولون الله ثالث ويقولون عيسى ابن الله، لكن قول غراسياني أن عمر المختار لا يبغض الشعب الإيطالي فهذا ادعاء منه، وأما قول عمر المختار: ديني أمرني بقتالكم فهذا الذي يليق بحاله وبغض المسلم للنصارى الكفرة يتدينون بها خالقهم ورازقهم، ومالكهم ومتولي أمورهم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: 73 - 74].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: 88 - 91].

فالآيات السابقة الواضحة البينة تمنع العالم الرباني والشيخ الجليل أن يقول بأنه لا يبغض أعداء الله حماة الصليب.

واستطرد غراسياني في كتابه «برقة الهادئة» قال: (لقد قال عمر المختار كلمات تاريخية: إن وقوعي في الأسر تأكيد بأمر الله وسابق في علمه سبحانه وتعالى، والآن أنا بين يدي الحكومة الإيطالية الفاشيستية وأصبحت أسيراً عندها والله يفعل بي ما يشاء، أخذتموني أسيراً ولكم القدرة أن تفعلوا بي ما تشاؤون، والذي أريد أن أقوله بكل تأكيد لم أفكر في يوم من الأيام أن أسلم نفسي لكم مهما كان الضغط شديداً، ولكن مشيئة الله أرادت هذا فلا راد لقضاء الله)[1].

وهذه بعينها عقيدة القضاء والقدر وهي من أركان الإيمان التي جاء بها الإسلام، وقد تجسدت في حياة عمر المختار فهذه الآيات الكريمة تبين أنّ ما وقع للإنسان قد كتب فعليه ألّا يحزن ولا ييأس لأن الأمور بقضائه وقدره، قال تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: 22 - 23].

وقد تربى المختار رحمه الله تعالى على الآيات القرآنية وأحاديث المصطفى، فعن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»**[2].

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(276).

(2) انظر: أصول أهل السنة والجماعة، اللالكائي، (2/ ح1095).

وهذه العقيدة الصحيحة كانت مستقرة في قلب الشيخ الجليل رحمه الله وتحولت إلى عمل في حياته جسدته مواقف عقدية ومشاهد بطولية ولا نكون مخطئين إن قلنا كانت مواقفه وسيرته العطرة تدل على أنه رجل عقيدة.

رابعاً - من مواقف العزة داخل السجن:

أراد الكمندتور رينسي (السكرتير العام لحكومة برقة) في أمسية الرابع عشر من سبتمبر أن يقحم الشارف الغرياني في موقف حرج مع عمر المختار وهو في السجن، وأبلغ الشارف الغرياني بأن المختار طلب مقابلتك والحكومة الإيطالية لا ترى مانعاً من تلبية طلبه، وذهب الشارف الغرياني إلى السجن لمقابلة الشيخ الجليل وعندما التقيا خيم السكوت الرهيب، ولم يتكلم المختار، فقال الشارف الغرياني هذا المثل الشعبي مخاطباً به السيد عمر (الحاصلة سقيمة والصقر ما يتخبل) وما كاد المختار يسمع المثل المذكور حتى رفع رأسه ونظر بحدة إلى الشارف الغرياني وقال له: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه وسكت هنيهة ثم أردف قائلاً: رب هب لي من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، إنني لم أكن في حاجة إلى وعظ أو تلقين، إنني أؤمن بالقضاء والقدر، وأعرف فضائل الصبر والتسليم لإرادة الله، إنني متعب من الجلوس هنا فقل لي ماذا تريد؟ وهنا أيقن الشارف الغرياني بأنه غرّر به فزاد تأثره وقال للمختار: ما وددت أن أراك هكذا ولقد أرغمت نفسي للمجيء بناءً على طلبك... فقال الشيخ الجليل والجبل الشامخ: أنا لم أطلبك ولن أطلب أحداً ولا حاجة لي عند أحد، ووقف دون أن ينتظر جواباً من الشارف الغرياني، وعاد الأخير إلى منزله وهو مهموم حزين وقد صرّح بأنه شعر في ذلك اليوم بشيء ثقيل في نفسه ما شعر به طيلة حياته، ولما سئل الشارف الغرياني عن نوع الثياب التي كان يرتديها عمر المختار أهي ثياب السجن أم ثيابه التي وقع بها في الأسر؟ كان جوابه هو البيتان الآتيان مستشهداً بهما:

عليه ثياب لو تقاس جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا[1]

خامساً - عمر المختار أمام غراسياني السفاح:

أراد المولى عز وجل لحكمة يريدها أن يقف البطل الأشم والطود الشامخ الذي حير إيطاليا الكافرة النصرانية الكاثوليكية وأشاع الرعب في قلوب جيوشها، أمام الرجل التافه الحقير المدعو غراسياني هذا، حقير النفسية، وضيع الأخلاق، من أولئك الذين يرتفعون في كل عهد، ويأكلون على كل مائدة وكان من قادة الجيش الإيطالي فلما جاء موسوليني ذلك الطبل الأجوف، وادّعى

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(166، 167).

الزعامة على إيطاليا وحشر نفسه حشراً في صفوف الزعامات العالمية، كان غراسياني أول من صفق وقرع الطبول للزعامة الجديدة، وصار فاشيستياً أكثر من الفاشيستيين أنفسهم، أمام هذا الرجل الحقير الذليل الخسيس التافه وقف البطل الأشم والطود المنيف شيخنا عمر المختار رحمه الله وتستطيع أن تفكر في هذا الموقف وتطيل التفكير، فإن النفوس الحقيرة الوضيعة، لا تعرف الشرف، ولا الرجولة ولا الكرامة ولا الأخلاق، إذا خاصمت فما يكاد عدوها يقع في يدها حتى تفعل به الأفاعيل، وتصب عليه أصنافاً وألواناً من العذاب!! يدفعها إلى ذلك شدة إحساسها بحقدها وعظمة عدوها، وشدة شعورها بنقصها وكمال أسيرها[1].

من أجل ذلك دفعت الشماتة هذا الرجل الحقير أن يقطع رحلته إلى باريس وأن يعود فوراً إلى بنغازي، وأن يدعو المحكمة الطائرة إلى الانعقاد ودفعت غريزة الشماتة غراسياني أن يستدعي البطل في صبيحة اليوم نفسه، وقبل المحاكمة بقليل[2].

يقول غراسياني في مذكراته: (وعندما حضر أمام مدخل مكتبي تهيأ لي أني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية، يداه مكبلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، وجهه مضغوطاً لأنه كان مغطياً رأسه (بالجرد) ويجر نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر. ها هو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوت هادىء وواضح، وكان ترجماني المخلص النقيب (كابتن) خليفة خالد الغرياني الذي أحضرته معي خصيصاً من طرابلس ووجهت له أول سؤال: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة الفاشيستية؟[3]

ج - لأن ديني يأمرني بذلك[4].

س - هل كنت تأمل في يوم من الأيام أن تطردنا من برقة بإمكاناتك الضئيلة وعددك القليل؟.

ج - لا، هذا كان مستحيلاً.

س - إذاً ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

س - لا شيء إلا طردكم من بلادي لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهو فرض علينا وما النصر إلا من عند الله.

---

(1) انظر: عمر المختار، لمحمود شلبي بتصرف، ص(142).

(2) انظر: عمر المختار، لشلبي، ص(142).

(3) انظر: برقة الهادئة، ص(279).

(4) انظر: عمر المختار، ص(143).

س - لكن كتابك يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] بمعنى: لا تجلبوا الضرر لأنفسكم ولا لغيركم من الناس، القرآن يقول هذا.

ج - نعم.

س - إذاً لماذا تحارب؟

ج - كما قلت من أجل وطني وديني[1].

قال غراسياني: فما كان مني إلا أن قلت له: أنت تحارب من أجل السنوسية تلك المنظمة التي كانت السبب في تدمير الشعب والبلاد على السواء، وفي الوقت نفسه كانت المنظمة تستغل أموال الناس بدون حق، هذا هو الحافز الذي جعلك تحاربنا لا الدين والوطن كما قلت.

فنظر إليّ نظرة حادة كالوحش المفترس وقال: لست على حق فيما تقول ولك أن تظن ما ظننت، ولكن الحقيقة الساطعة التي لا غبار عليها أنني أحاربكم من أجل ديني ووطني لا كما قلت. بان عليّ وجهه بعد أن زال الجرد من على رأسه واستطردت في توجيه الأسئلة إليه:

س - لماذا قطعت المهادنة السارية وأمرت بالهجوم على (قصر بن قدين)؟.

ج - لأنه منذ شهر أرسلت إلى المارشال (بادوليو) ولم يجيبني عنها وبقيت بدون رد حتى الآن.

يقول الجنرال: لا، أنت أردت قطع المهادنة لحاجة في نفسك وهاك الدليل، وقرأت له البيان الذي نشره فوق الجرائد المصرية بتوقيعه؟ ولم يرد في بادىء الأمر وحنى رأسه مفكراً ثم قال:

عمر المختار: نعم نشرت البيان في مصر بتوقيعي ولكن ليس هذا هو الدليل وإنما هو عدم تجاوبكم معنا في تنفيذ شروط الهدنة، ولم يزد شيئاً بل حنى رأسه إعياء.

س - هل أمرت بقتل الطيارين هوبر وبياتي؟

ج - نعم، كل الأخطاء والتهم في الواقع هي مسؤولية الرئيس والحرب هي الحرب.

الجنرال: قلت له هذا صحيح لو كان حرباً حقيقية لا قتل وسلب مثل حروبك.

عمر المختار: هذا رأي فيه إعادة نظر وأنت الذي تقول هذا الكلام ولا زلت أكرر لك الحرب هي الحرب.

الجنرال: بموقفك في موقعة (قصر بن قدين) ضيعت كل أمل وكل حق في الحصول على رحمة وعفو الحكومة الإيطالية الفاشيستية.

عمر المختار: مكتوب (كلمة لتفسير معنى القضاء والقدر في العقيدة الإسلامية) وعلى

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(280).

كلٍّ عندما وقع جوادي وألقي القبض عليّ كانت معي ست طلقات وكان في استطاعتي أن أدافع عن نفسي وأقتل كل من يقترب مني، حتى الذي قبض عليّ وهو أحد الجنود من فرقة الصواري المتطوعين معكم وكان في إمكاني كذلك أن أقتل نفسي.

الجنرال: ولماذا لم تفعل؟

عمر المختار: لأنه كان مقدراً أن يكون.

الجنرال: ولكن قد تحقق فيما بعد إلقاء القبض عليه كانت بندقيته فوق ظهره وبسقوطه على الأرض لم يستطع نزعها وبالتالي لم يتمكن من استعمالها بسرعة وكذلك من أثر الجروح والكسر الذي بيده اليمنى وهذا في الحقيقة جدير بالاعتبار والتقدير[1].

وهذا اعتراف من السفاح إبان تجبره وطغيانه ونشوة انتصاره، يعترف بقوة عمر المختار ويقدر فيه بطولته وجهاده التي لم يُر لها مثيل، وقال شوقي رحمه الله في رثاء عمر المختار ما يجسد هذا الموقف.

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء[2]

عمر المختار: كما ترى أنا طاعن في السن على الأقل اتركني بأن أجلس.

الجنرال: أشرت له فجلس على كرسيه أمام مكتبي وفي هذه الأثناء ظهر لي وجهه بوضوح وقد زالت رهبة الموقف وقد تأملته جانبيًا فرأيت بعض الاحمرار في وجهه وبدأت أفكر كيف كان يحكم ويقود المعارك؟ وبينما هو يتكلم كانت نظراته ثابتة إلى الأمام وصوته نابع من أعماقه ويخرج من بين شفتيه بكلمات ثابتة وبكل هدوء وفكرت ثانية هذا هو القديس؛ لأن كلامه عن الدين والجهاد يدل بكل تأكيد أنه مؤمن صادق يتكلم عن الدين بكل حماس وتأثر. ثم قلت له فجأة: بما لك من نفوذ وجاه وكم يوم يمكنك أن تأمر العصاة (يعني المجاهدين) بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتنا وينهوا الحرب.

عمر المختار مجيباً: أبداً كأسير لا يمكنني أن أعمل أي شيء واستطرد قائلاً: وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الآخر ولا نسلّم أو نلقي السلاح، وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت هذا على ما أظن حقيقي وثابت عندكم.

الجنرال: قلت له وأنا متماسك: يمكن ذلك لو تم تعارفنا في وقت سابق والخبرة طويلة التي أخذتها عليكم لكان علينا أن نصل إلى أحسن حال في سبيل تهدئة البلاد وازدهارها.

---

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(280، 281، 282).

(2) انظر: تعليق المترجم، إبراهيم بن عامر، ص(282).

(عمر المختار): رفع حاجبيه بكل عمق وبصوت جهوري، وثابت قال: ولم لا يكن اليوم هو ذلك اليوم الذي تقول عنه.

الجنرال: فأجبته: لقد فات الأوان.

وعند هذا الحد رأيت أن نوقف المحادثة فيما بيننا ربما عمر المختار فكر في تلك اللحظة أن الحكومة الإيطالية ستبعثه إلى الجبل من أجل أن يسلّم أتباعه السلاح ويخضعوا إلى سلطتنا ولكن لا: لقد قالها منذ لحظات بأنهم يموتون جميعاً ولن يستسلموا وعليه لقد فات الأوان وقلتها بنفسك لا فائدة من المحاولة إن الأمل الذي لاح منذ قليل قد انهار ولم يعد. ثم قلت له: هل تعرف هذه؟ وعرضت عليه نظارته في إطارها الفضي.

عمر المختار: نعم إنها لي وقد وقعت مني أثناء إحدى المعارك وهي معركة (وادي السانية).

(الجنرال) فأجبته: منذ ذلك اليوم اقتنعت بأنك ستقع أسيراً بين يدي.

عمر المختار: مكتوب: هل ترجعها لي لأني لم أعد أبصر جيداً بدونها؟.

واستطرد يقول: ولكن ما الفائدة منها الآن هي وصاحبها بين يديك؟.

(الجنرال) قلت له: مرة أخرى أنت تعتبر نفسك محميًا من الله تحارب من أجل قضية مقدسة وعادلة؟

(عمر المختار): نعم وليس هناك أي شك في ذلك، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51] صدق الله العظيم.

إذاً استمع إلى ما أقوله لك، أمام قواتي المسلحة من نالوت إلى الجبل الأخضر في برقة كل مشايخ ورؤساء العصاة(يعني رؤساء المجاهدين) منهم من هرب، ومنهم من قتل في ميدان القتال ولم يقع منهم أي أحد حيًا في يدي أليس من العجيب أن يقع أسيراً بين يدي حيًا من كان يعتبر أسطورة الزمن الذين لم يغلب أبداً المحمي من الله دون سواه؟

(عمر المختار): تلك مشيئة الله... قالها بصوت يدل على قوة وعزم.

(الجنرال) قلت له: الحياة وتجاربها تجعلني أعتقد وأؤمن بأنك كنت دائماً قويًا ولهذا فإني أتمنى أن تكون كذلك مهما يحدث لك ومهما تكن الظروف.

(عمر المختار) عندما وقف ليتهيأ للانصراف، كان جبينه وضاء كأن هالة من نور تحيط به فارتعش قلبي من جلالة الموقف. أنا الذي خاض المعارك والحروب العالمية، والصحراوية، ولقبت بأسد الصحراء، ورغم هذا فقط كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنبس بحرف واحد فانتهت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه للمحاكمة في المساء وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي ولكنه لم يتمكن، لأن يديه كانت مكبلة بالحديد.

لقد خرج من مكتبي كما دخل عليّ وأنا أنظر إليه بكل إعجاب وتقدير[1].

قال شوقي رحمه الله:

وأتى الأمير يجر ثقل حديده   أسد يجرجر حية رقطاء

سادساً: محاكمة عمر المختار رحمه الله:

في الساعة الخامسة مساءً في 15 سبتمبر 1931م جرت تلك المحاكمة التي أعد لها الطليان مكان بناء (برلمان برقة) القديم وكانت محاكمة صورية شكلاً وموضوعاً.

ودليل ذلك أن الطليان - قبحهم الله - كانوا قبل بدء المحاكمة بيوم واحد قد أعدوا (المشنقة) وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره، وإنك لتلمس ذلك في نهاية الحديث الذي دار بين البطل وبين غراسياني حيث قال له: (إني لأرجو أن تظل شجاعاً مهما حدث لك أو نزل بك).

وإنها لكلمات تفوح بالخبث والدناءة والشماتة، ومعناها إنك يا مختار سوف تعدم شنقاً، فلا تجبن أمام المشنقة، ولا شك عندي لو كان غراسياني في موقف شيخنا لمات من الجبن قبل أن يساق للمشنقة ولكن شيخنا الجليل وأستاذنا الكريم وقائد الجهاد يزداد سموًّا بعد سمو ثم يقول: (إن شاء الله).

ويصف الدكتور العنيزي ذلك فيقول (جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد، وحوله الحرس من كل جانب.. وكان مكاني في القاعة بجوار السيد عمر، وأحضر الطليان أحد التراجمة الرسميين واسمه نصرت هرمس (فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد، بلغ التأثر بالترجمان حدًّا جعله لا يستطيع إخفاء تأثره وظهر عليه الارتباك، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر فوقع الاختيار على أحد اليهود، وهو لمبروزو، من بين الحاضرين في الجلسة (وقام لمبروزو بدور المترجم، وكان السيد عمر رحمه الله جريئاً صريحاً، يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصاً حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي)[2].

وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعي بيدندو، فطلب الحكم على السيد بالإعدام.

(وعندما جاء دور المحامي المعهود إليه الدفاع عن السيد عمر وكان ضابطاً إيطاليًا يدعى الكابتن أونتانو، وقف وقال: (كجندي لا أتردد البتة إذا وقعت عيناي على عمر المختار في

---

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(285).

(2) انظر: حياة عمر المختار، ص(153، 154، 155).

ميدان القتال، في إطلاق الرصاص عليه وقتله وأفعل ذلك كإيطالي أمقته وأكرهه، ولكنني وقد كلفت الدفاع عنه فإني أطلب حكماً هو في نظري أشد هولاً من الإعدام نفسه، وأقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظراً لكبر سنه وشيخوخته).

وعندئذٍ تدخل المدعي العمومي، وقطع الحديث على المحامي وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستنداً في طلبه هذا إلى أن الدفاع خرج عن الموضوع، وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيخوخته ووافقت المحكمة[1]، أمر القاضي المحامي بأن لا يخرج عن الموضوع ويتكلم بإيجاز، وهنا تكلم المحامي بحدة وقال: إن عمر المختار الذي هو أمامكم وليد هذه الأرض قبل وجودكم فيها ويعتبر كل من احتلها عنوة عدو له، ومن حقه أن يقاومه بكل ما يملك من قوة حتى يخرجه منها أو يهلك دونها هذا حق أعطته له الطبيعة والإنسانية، وهنا كثر الصياح من الحاضرين بإخراج المحامي وإصدار الحكم على المتهم الذي طالب به المدعي العام، ولكن المحامي استمر قائلاً: العدالة الحقة لا تخضع لأي سلطان ولا لأية غوغاء وإنمايجب أن تنبع من ضميرنا وإنسانيتنا، وهنا قامت الفوضى خارج المحكمة، وقام المدعي العام محتجًا على المحامي، ولكن المحامي استمر في دفاعه غير مبال بكل هذا بل حذر القاضي أن يحكم ضميره قائلاً: إن هذا المتهم عمر المختار الذي انتدبت من سوء حظي أن أدافع عنه شيخ هرم حنت كاهله السنون وماذا بقي له من العمر بعدما أتم السبعين سنة؟! وإني أطلب من عدالة المحكمة أن تكون رحيمة من (تحقيق) العقوبة عنه؛ لأنه صاحب حق ولا يضر العدالة إذا أنصفته بحكم أخف، وإنني أحذر عدالة محكمتكم حكم التاريخ؛ لأنه لا يرحم فهو عجلة تدور وتسجل كل ما يحدث في هذا العالم المضطرب، وهنا كثر الضجيج في الخارج ضد المحامي ودفاعه.

ولكن المحامي استمر في دفاعه قائلاً: سيدي القاضي حضرات المستشارين لقد حذرت المحكمة من مغبة العالم الإنساني والتاريخ وليس لدي ما أضيفه إلّا طلب تخفيف الحكم على هذا الرجل صاحب الحق من الذود عن أرضه ودينه وشكراً).

وعندما قام النائب العام لمواصلة احتجاجه قاطعه القاضي برفع الجلسة للمداولة وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشارون والمدعي العام بينما المحامي لم يحضر لتلاوة حكم القاضي بإعدام عمر المختار شنقاً حتى الموت، وعندما ترجم الحكم إلى عمر المختار قهقه بكل شجاعة قائلاً: الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف - إنا لله وإنا إليه راجعون[2].

---

(1) حياة عمر المختار، ص(155).

(2) انظر: برقة الهادئة، ص(286، 287).

وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ما قاله السيد عمر. . فسأل الترجمان أن ينقل إليه عبارته ففعل، وعندئذٍ بدا التأثير العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحكمة الصورية وأظهروا إعجابهم لشجاعة شيخ المجاهدين بليبيا الحبيبة وبسالته في آن واحد.

وأما المحكمة، فقد استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب، من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السادسة والربع، وكذلك قضت إرادة الله تعالى أن يتحكم الطليان في مصير البطل، لتتم الإرادة الإلهية وتمضي الحكمة الربانية[1]. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68]. وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

سابعاً: إعدام شيخ الجهاد في بلادنا الحبيبة:

وفي يوم 16 سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة 1931م عند الساعة التاسعة صباحاً نفذ الطليان في (سلوق) جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقاً في شيخ المجاهدين وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير.

ودفعت الخسة بالإيطاليين أن يفعلوا عجباً في تاريخ الشعوب، وذلك أنهم حرصوا على أن يجمعوا حشداً عظيماً لمشاهدة التنفيذ فأرغموا أعيان بنغازي، وعدداً كبيراً من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ فحضر ما لا يقل عن عشرين ألف نسمة، على حد قول غراسياني في كتات «برقة الهادئة»[2].

ويقول الدكتو العنيزي: (لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات الاعتقال والنازلين في بنغازي على حضور المحاكمة، وحضور التنفيذ وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على المحاكمة، ولكني قد استبد بي الحزن شأني في ذلك شأن سائر أبناء بلدتي، لم أكن أستطيع رؤية البطل المجاهد على حبل المشنقة فمرضت، ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشؤوم، إلا عندما تيقنوا من مرضي وعجزي عن الحضور.

ويا لها من ساعة رهيبة تلك التي سار المختار فيها بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظل المختار يردد الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

لقد كان الشيخ الجليل يتهلل وجه استبشاراً بالشهادة وارتياحاً لقضاء الله وقدره، وبمجرد

---

(1) انظر: حياة عمر المختار، ص(156، 157).

(2) انظر: برقة الهادئة، ص(288).

وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض، وبصوت مدوٍّ لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار إذ ربما يتحدث إليهم أو يقول كلاماً يسمعونه وصعد حبل المشنقة في ثبات وهدوء.

وهناك أعمل فيه الجلاد حبل المظالم فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، هذا وكان الجميع من أولئك الذين جاءوا يساقون إلى هذا المشهد الرهيب ينظرون إلى السيد عمر وهو يسير إلى المشنقة بخطى ثابتة، وكانت يداه مكبلتين بالحديد وعلى ثغره ابتسامة راضية، تلك الابتسامة التي كانت بمثابة التحية الأخيرة لأبناء وطنه، وقد سمعه بعض المقربين منه ومنهم ليبيون أنه صعد سلالم المشنقة وهو يؤذن بصوت هادىء أذان الصلاة وكان أحد الموظفين الليبيين من أقرب الحاضرين إليه، فسمعه عندما وضع الجلاد حبل المشنقة في عنقه يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: 27 - 28].

لقد استجاب الله دعاء الشيخ الجليل وجعل موته في سبيل عقيدته ودينه ووطنه لقد كان يقول: (اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة)[1].

ويقول شاعر القطرين خليل مطران:

أبيت والسيف يعلو الرأس تسليماً وجدت بالروح جود الحر أن ضيما
لله يا عمر المختار حكمته في أن تلاقي ما لاقيت مظلوما
أن يقتلوك فما أن عجلوا أجلا قد كان مذ كنت مقدوراً ومحتوما

ولقد رثاه الشعراء وتكلم في تأبينه الأدباء والكتاب، ولو تتبعنا ذلك لوجدناها أكثر من مجلد[2].

ونختم استشهاد عمر المختار رحمه الله بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: 145 - 146].

ومن سيرة عمر المختار العطرة نستخلص دروساً وعبراً تفيدنا كثيراً في حياتنا المعاصرة:
ليس عمر المختار رحمه الله أول من جاهد ولا أول من استشهد ولكن كان حاله كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

---

(1) انظر: عمر المختار، للأشهب، ص(159، 160).
(2) انظر: إبراهيم سالم بن عامر، مترجم برقة الهادئة، ص(289).

ومفتاح شخصيته الفذة أنه آمن بالله واستقرت معانيه في قلبه فأصبح لا يخشى إلا الله وهذا الصنف من المسلمين هو أقوى ما عرفته البشرية وهو الإنسان الحر في أعلى معاني الحرية.

جرد قلبه من الأوهام ومن الشركيات والضلال ومن الشبهات والشهوات، وخلص قلبه من كل ظلمة تحيل بينه وبين دخول التوحيد الصحيح إليه، كان كثير المراقبة لله، ومن هنا كان شديد الخوف من الله يعلم إنه شديد العقاب وخوفه من الله جعله أهلاً لتوفيق الله ولذلك كان راسخاً كالجبل الأشم[1].

فالفريد في سيرته، أنه أحيا شيئاً كاد يندثر، أحيا معاني الإيمان التي كان الناس قد بدأوا ينصرفون عنها إنه بنيان أسس على التقوى فعاش مباركاً في حياته وفي مماته.

والعبرة الثانية: أنه كان داعياً إلى الله بإذنه، تربى على أيدي دعاة السنوسية فلما اكتمل وترعرع، أدى الرسالة وبلغ الأمانة وأنذر وبشر، وخيركم من تعلم القرآن وعلمه.

والعبرة الأخرى: أنه كان على فهم صحيح لدينه، يأخذ كلًّا لا يتجزأ، فلا هو بالتدين المنحرف، ولا هو بالتدين البعيد عن جوهر الدين، وإنما هو رجل مؤمن، يعلم أن الإسلام لا يصح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، وإنما عليه أن يعمل به كله.

وكان في حرارة الشباب وحيويتهم رغم شيخوخته وتلك طبيعة المقاتلين في سبيل الله، الذين يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره.

والعبرة الأخرى، أنه لم يسع للشهرة، لأن المخلصين لا يبحثون عن الشهرة وإنما يبحثون عن رضى الله سبحانه وتعالى[2]. ولذلك جعل الله له ذكراً في الدنيا ونسأل الله أن يتغمده برحمته في الآخرة.

إن أعداءه الأوروبيين أعجبتهم سيرته البطولية والكفاحية والجهادية فهذه صحيفة التايمز البريطانية في مقال نشرته في 17 سبتمبر سنة 1931م تحت عنوان نصر إيطالي: (حقق الإيطاليون انتصاراً خطيراً ونجاحاً حاسماً في حملتهم على المتمردين السنوسيين في برقة، فلقد أسروا وأعدموا الرجل الرهيب عمر المختار شيخ القبيلة العنيف الضاري. . .) ثم تستمر الصحيفة حتى تقول: (ومن المحتمل جدًا أن مصيره سيشلُّ مقاومة بقية الثوار، والمختار الذي لم يقبل أي منحة مالية من إيطاليا، وأنفق كل ما عنده في سبيل الجهاد وعاش على ما كان يقدمه له أتباعه، واعتبر الاتفاقيات مع الكفار مجرد قصاصات ورق، كل محل إعجاب لحماسته وإخلاصه الديني، إنه كان مرموقاً لشجاعته)[3].

---

(1) انظر: حياة عمر المختار، ص(190).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(193، 194).

(3) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثاني، 1409هـ ص(82).

وقد وصفه أحد الإيطاليين قائلاً (كان عمر المختار مخلصاً وذكيًا، وكان عقل الثورة وقلبها ببرقة).

وقال آخر: كان إنجازه رائعاً، فقد حارب إيطاليا الفاشستية تسع سنوات من حرب فدائية لم تكن ضعيفة في ذاتها وكان التحدي والتضحية والاستشهاد بالنفس عند عمر المختار وأتباعه شيئاً نبيلاً[1].

ونحن نقول:

ومليحة شهدت لها ضراتها   والفضل ما شهدت به الأعداء

لقد كانت حياة عمر المختار شيخ المجاهدين في الجبل الأخضر بليبيا مكرسة كلها للعلم والدعوة وتربية الناس على الإسلام والجهاد في سبيل الله، وكان من رواد الحركة السنوسية فقضى حياته حين نادى منادي الجهاد معتلياً صهوة جواده ممسكاً سلاحه، لم يهادن ولم يستسلم بل قارع أعداء دينه مقارعة الند للند رغم قلة الإمكانات ورغم عدم التكافؤ في العدد والعدة، ولكنه استعلاء الإيمان وقوة اليقين، الذي ازداد صلابة وعمقاً في ميادين الجهاد وساحات المعارك، إن جهاد عمر المختار ﷺ سيظل معلماً بارزاً في تاريخ ليبيا خاصة وتاريخ الأمة الإسلامية عامة وسيظل دليلاً على أن الإسلام صنع ولا يزال نماذج عظيمة من البطولات على مر العصور، وعلى أن العطاء الحقيقي إنما هو عطاء الإيمان[2].

إن الشيخ الجليل عمر المختار ﷺ مدرسة تستحق الدراسة والبحث في جوانب متعددة في شخصيته العلمية والدعوية والتربوية والجهادية ويعلم الله ما أعطيت الشيخ حقه ولا حتى بعض حقه، وأحس إحساساً عميقاً صادقاً في قرارة نفسي أنه أعظم مما كتبت وأجل مما توهمت وأفضل من عايشت من سيرة أبطال الجهاد في ليبيا الحبيبة، فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان وعلى إخوانه الميامين الكرام ونفعنا الله بسيرته الزكية العطرة النقية.

وهكذا يا أخي الكريم يصنع الإسلام من أتباعه في ميادين النزال وساحات القتال وكذلك عند الوقوف أمام الطغاة والجلاوزة الظلمة؛ لأن العقيدة تحركه ورعاية الله تحفه وإن هذه الوقفات الخالدة من سيرة شيخ الجهاد في ليبيا لحريٌّ بنا أن نكتبها بحروف من ذهب ونعلمها للأجيال ونربي عليها الأشبال لغد مشرق مجيد قد بدأت بوادره تلوح في عنان السماء ومظاهرها متجسدة في رجوع شعوب المسلمين لدينها مع ما يحف هذا الرجوع من مخاطر عديدة من قبل اليهود والنصارى الملاحدة والحكام الظلمة وأنى لهم أن يطفئوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(1) انظر: جون رايت، تاريخ ليبيا، ص(158).

(2) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ص(82، 83).

فما علينا إلا أن نستعين بالله في تحقيق وتطبيق دينه على نفوسنا وأسرنا ومن حولنا ثم على الناس أجمعين.

قال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 55].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10].

ثامناً: بعض ما قيل في تأبين الشيخ عمر المختار من الشعر:

أ - قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء ... يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... يوحي إلى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد ... بين الشعوب مودة وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراء
يا أيها السيف المجرد بالفلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحاري غمد كل مهند ... أبلى فأحسن في العدو بلاء
وقبور موتى من شباب أمية ... وكهولهم لم يبرحوا أحياء
لو لاذ بالجوزاء منهم معقل ... دخلوا على أبراجها الجوزاء
فتحوا الشمال سهوله وجباله ... وتوغلوا فاستعمروا الخضراء
وبنوا حضارتهم فطاول ركنها ... دار السلام وجلق الشماء
خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاها أو تلم ثراء
إن البطولة أن تموت على الضما ... ليس البطولة أن تعب الماء
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ... ضجت عليك أراجلاً ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم ... لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم ... يبكون زيد الخيل والفلحاء
في ذمة الله الكريم وحفظه ... جسد ببرقة وسد الصحراء
لم تبق منه رحى الوقائع أعظما ... تبلى، ولم تبق الرماح دماء
كرفات نسر أو بقية ضيغم ... باتا وراء السافيات هباء

بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك) ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها وأراد من أعرافها الهيجاء
لبى قضاء الأرض أمسى بمهجة لم تخش إلا للسماء قضاء
وفاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جر إلى القضاء رداء
شيخ تمالك سنه لم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بكاء
وأخو أمور عاش في سرائها فتغيرت فتوقع الضراء
الأسد تزأر في الحديد، ولن ترى في السجن ضرغاماً بكى استخذاء
وأتى الأسير يجر ثقل حديده أسد يجرجر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم ينوء ومشت بهيكله السنون فناء
سبعون لو ركبت مناكب شاهق لترجلت هضباته إعياء
خفيت عن القاضي، وفات نصيبها من رفق جند قادة نبلاء
والسن تعطف كل قلب مهذب عرف الجدود وأدرك الآباء
دفعوا إلى الجلاد أغلب ماجدا يأسو الجراح ويطلق الأسراء
ويشاطر الأقران ذخر سلاحه ويصف حول خوانه الأعداء
وتخيروا الحبل المهين منية لليث يلفظ حوله الحوباء
حرموا الممات على الصوارم والقنا من كان يعطي الطعنة النجلاء
إني رأيت يد الحضارة أولغت بالحق هدما تارة وبناء
شرعت حقوق الناس في أوطانهم إلا أُباة الضيم والضعفاء
يا أيها الشعب القريب أسامعُ فأصوغ في عمر الشهيد رثاء
أم ألجمت فاك الخطوب وحرمت أذنيك حين تُخاطبُ الأصغاء؟
ذهب الزعيم وأنت باق خالدُ فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى واحمل على فتيانك الأعباء(1)

ب - قال الأستاذ نعمان عبد الوهاب ناظر مدرسة لملوم بمغاغة بمصر وذلك بمناسبة أول ذكرى للشهيد قام بها الليبيون أثناء الحرب العالمية الثانية:

ذكرى بها ألم النفوس دفين وأسى له صلد الصخور يلين
وسقام شعب في رفاة ضحية ونداء قطر بالفلاة سجين
ودموع ثكلى من دم أذراعها (سفاح برقة) والرحاب أمين

(1) الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي، (2/ 18، 19).

صاحت على بطل يساق مكبلاً   إذ قال: عرضي، والحمى، والدين
فارتاع شعب أعزل لكما   في كل ركن في البلاد عرين
من واحة الجغبوب قامت أسرة   بالله يربطها هدى ويقين
بيت الإمارة والمهابة والتقى   والعزم ما جدت هناك شؤون
فاصطفت الأبطال تحت لوائها   وتجرد الهندي والمسنون
والسيد المهدي يذكي نارها   بالحزم والإقدام ضل يبين
يستنهض الفرسان في ساحتها   والشعب منقاد له ورهين
يستعذبون الموت في إرضائها   في حب برقة يضحك المطعون
عشرون عاماً في الجهاد بهمّة   لم تكتحل فيها المنام جفون
صبر الألى فتحوا ممالك قيصر   وتسوروا الإيوان وهو حصين
لو كان للإسلام سالف عهده   والجار للجار الضعيف معين
ما بات أبطال الجهاد على الطوى   يستنجدون الشرق وهو ضنين
يا لهف نفسي كيف سار بغله   من كان للسرج الرهيب يزين
عمر بن مختار الشهيد ومن له   في كل قلب لوعة وحنين
فختامه يحكي نهاية (جعفر)   حتى حلي لي فيهما التأبين
عيناه قد رأت الحصان مجندلا   والجو أطبق والرصاص هتون
والسيف في اليمنى وإن قطعت فما   يلقيه حتى أن يحين الحين
من كان الله القدير جهاده   والحق يعلم أنه المغبون
لا ينثني عن عزمه والموت في   حبل المشانق جاثم مرهون
ما ردّ إلا حيث قال قضاتهم   نعم، وفي الصوت الجهور رنين
فاضت على حبل المظالم روحه   والله قدر ما عليه تكون
دار السنوسي لقنت أشبالها   موت المعزة بالكماة قمين
فالصبر يا شعب الجهاد فضيلة   يا مرسل الشكوى وأنت حزين
لا زال رب الدار ليثاً رابضاً   إن غاب عنها ليس عنك يبين
لا زال إدريس الوفي بعهدكم   والحر للعهد النزيه يصون
لا زال يسعى للخلاص بفتية   منكم، وقد سهرت عليه عيون[1]

(1) انظر: عمر المختار للأشهب، ص(187، 188).

ج - وقال أحد الشعراء الليبيين الأستاذ أبو الخير الطرابلسي:

دك طود الجهاد باسم السلام وثوى الحر في مهاوي الظلام
وأبيدت معالم الحق لما زلزل الأمن في ربوع الأنام
وأميتت مبادىء الدين كفراً وأزيلت منارة الإسلام
وأقيمت مجازر الإثم والبغـ ي، وزلت مواطىء الأقدام
وتحامت عناصر الظلم والعدوا ن، فهدت دعائم الأقدام
ليت تلك السماء تحكي فتروي كيف حيكت مؤامرات اللئام
ليت هذا الأديم ينشق توًّا فيواري مخلفات الطغام
أيهذا الشهيد!. ما أنت إلا طارف العز.. تالد المجد.. سامي
أيهذا الشهيد!. ما أنت إلا قدوة لجيش.. في اللواء الأمامي
خصك الله بالعزيمة والصبـ ر، وخص الطغاة بالإحجام
خصك الله بالعقيدة والطهـ ر، وخص الدناة بالآثام
أمم الأرض... طأطأت في احترام رأسها... يا جلال هذا المقام
أمم الأرض... قلدتهم هوانا وازدراء بهم أحط وسام
أيهذا الشهيد قدمت شنقاً بيد الغدر ذقت كأس الحمام
فتوارت غزالة الصبح حزناً واختفى البدر في ليالي التمام
خالد أنت... رغم أنف المنايا (عمر) أنت... والردى تتعامي
إن تناسوك، فالثمانون عاماً ليس ينسى على مدى الأعوام
كللت كاهليك بالعزم تاجا فتوثبت قاهراً في اعتصام
ما تحدوك.. إنما قد تحداك القضا.. بالردى ونصل الختام
إنهم ألبسوك حلة فخر ثم أعلوك فوق أسمى مقام
طوقوا جيدك الأغر وغطوا جسمك الحر.. خيفة الإيلام
سنة الغدر.. رحمة الذئب بالشا ة وخبث الجبان في الإيهام
أرجحوا جسمك الضعيف فضجت في الأعالي ملائك السلام
وعووا كالذئاب: هيا تعالوا فاشهدوا مصرع الزعيم الهمام
فأبوا ثم سيق قهراً وجلداً من تأبى حضور ملقى الزؤام
ثم دقوا الطبول للموت تدوي صارخات على العدا كل عام
لعنة الله.. لعنة الحق صبي بشواظ على الكوافر جامي
لعنة الكهل.. لعنة الطفل والخدر ولعنة الشاكلات الدوامي

لعنات على الجناة السفالى دائمات إلى نشور العظام
يا أخي! عبرة الخطب هاجت فأفاضت لنا الدموع الهوامي
ولغ القوم في الدما فأثاروا ديدان الحقد، مبعث الانتقام
ردد اللحن هائجاً مائجاً مسـ ـتفيض الشعور صاخب الأنغام
يا جهاد الشيوخ يا فداء الشبا ب يا حثيث النساء للإقحام
يا دعاة السلام صمتاً فإنا قد شهدنا مقاصل الإعدام
قد شهدنا قذائف الموت تعوي هاويات على رؤوس الشهام
فشهيد يميل فوق شهيد ودماء تفور فوق رغام
يا رياح الفناء! هبي وذري في المآقي قذى القنا والسهام
وارقصي ثورتي وميدي جنوناً واطربي يا فتوتي! لن تضامي
وتمطي عزيمتي للعلا واستـ زري ناطح السحب شاهق الآكام
رب شعب عن المعالي قعيد خانه العزم بالوغى والسقام
ورمته الخطوب لما تواني وارتضى بالقيود والألجام
فعلت من ثراه صيحات جد داعيات إلى البنا والقيام
ونمت فيه بنته النهضة الغضـ ـى على مصرع الأبناء المسام
وتقوت سواعد النشىء لما صقلتها يد العرمى بالنظام
أمة المجد! . إن المجد صعب والخنى مستسر قد استضام
سائلي الأمس. . . كيف أنّا ولدنا ونشأنا في أحلك الأيام
ولبثنا سنين جهلاً عبيداً واستنمنا لباطل الأحلام
وقعدنا عن النهوض ففات الركـ ـب وتهنا بمهمة الأوهام
فالمضاء المضاء يا فتية النصـ ـر! فقد طال عهد المنام
والبدار البدار يا أمة الفخـ ـر! فحسب الحصاد نيل المرام

د - وقال الأستاذ حسين الغناي أحد شعراء الشباب الليبيين:

يبيد الزمان ومدته وتفنى الخلائق جدته
وتطوى الدهور سجل الحياة وتبقى من المرء سيرته
ومن أخلد الذكر في العالمين مضاء الفتى وعزيمته
ووقفته عند قرع السلاح تذود عن الحق مهجته
إذا عجمته شداد الخطوب تدرع بالصبر مهجته
سواء لديه اعوجاج الزمان كذا عدله واستقامته

ومن أبرز الذائدين فتى ... إلى أرض برقة نسبته
من العرب الشوس والفاتحين ... جبلته وأرومته
إذا عد (عمر) و(ابن الوليد) ... و(عقبة) ثم صحابته
وأمثالهم نخبة المسلمين ... رجال الفتوح وقادته
فـ(مختار) برقة ذاك الأبي ... الذي طافت الأرض شهرته
لصنو لهم في قياس الفحول ... وتمتاز عنهم صلابته
عقيدته في الحياة الجهاد ... لتحفظ للشعب حرمته
وتلقاه في البأس والمكرمات ... له فضله ومهابته
إذا اتصفت بالدهاء الرجال ... وبانت من العدل وجهته
فقول الكتاب له مبدأ ... وصوت السلاح سياسته
أبى شرفاً أن يفك الركاب ... وأن تلتقي السيف راحته
وما زال في السرج شاكي السلاح ... توشحه بندقيته
يصادم في طلعة الهاجمين ... وأول طلق رصاصته
ويغزو على القوم في دارهم ... فتقضي إلى النصر غزوته
إلى أن قضى تحت حكم القضاء ... شهيداً فكانت نهايته
لئن مات شهم الوغى عمر ... ولما تحقق رسالته
فقد أوجدت في شعور العروبة ... نوراً يشع عقيدته
يسير بها في دروب الظلام ... فتهدي إلى الحق لمعته
كما علم الروم أن الجهاد ... مُنى العربي وبغيته
وعلمهم أن وكر النسور ... حرام على البوم وطأته
حديثك يا عمر الخيرين ... تغذى النفوس روايته
وذكرك باق مع الخالدين ... به تختم المجد صفحته[1]

تاسعاً: آخر وثيقة من أحمد الشريف وصلت للمجاهدين في ليبيا:

وكانت آخر وثيقة أرسلها أحمد الشريف رداً على رسالة المجاهد الكبير يوسف بو رحيل الذي تولى الأمر مؤقتاً بعد استشهاد عمر المختار رحمه الله تعالى وقد أعلم في رسالته أحمد الشريف باستشهاد عمر المختار وطلب منه أن يعين من يقوم بهذا الدور العظيم.

نص الرسالة التي بعث بها أحمد الشريف رحمه الله:

(1) انظر: عمر المختار، ص(190، 191).

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من عبد ربه سبحانه، خادم الإسلام، أحمد الشريف السنوسي.

إلى حضرة الفاضل المحترم، والجليل المفخم، المجاهد الصادق، واللبيب الحاذق، قائم مقام دور العواقير ولدنا الشيخ عبد الحميد العبار، وكافة أولادنا العواقير حفظهم الله ورعاهم وحرسهم وحماهم آمين آمين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وتحياته ورضوانه وعميم فضله وإحسانه، وبعد، فالمرجو من الله تعالى أن تكونوا جميعاً على أيسر الأحوال محفوظين بالله ومنصورين به وإننا لن نغفل عنكم وقت من الأوقات من الدعاء عند بيت الله الحرام وفي حضرة مولانا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعلى الله القبول، إنه أكرم مسؤول، وخير مأمول، هذا وقد بلغنا ما أزعجنا وكدرنا غاية الكدر، وهو استشهاد حضرة النائب العام سيدي عمر المختار رحمه الله ورضي الله عنه وجعل جنة الفردوس مسكنه ومحله، وجزاه الله عنا وعن الإسلام أحسن الجزاء، فإنه كان عاملاً صادقاً ناصحاً، وإننا لم نتكدر على نيله للشهادة بل نحمد الله على ذلك ولا نقول إنه مات، بل إنه حي لقول الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة: 154] وإنما كدرنا فقدانه من بينكم وغيابه عنكم، ولكن هذا أمر الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يمكننا إلا تسليمنا لله ورجوعنا إليه، ولا نقول إلا ما يقول الصابرون، إنا لله وإنا إليه راجعون، نعم استشهد سيدي عمر المختار ولكنه أبقى العمل الطيب والذكر الحسن إلى يوم القيامة فهذا ليس بميت ولن يموت أبداً ما دامت الدنيا، إنه شهيد، والشهيد ليس بميت لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169 - 171] فالله يا أولادي في التمسك وإياكم واليأس إياكم والقنوط، إياكم وأقاويل الناس الفاسدة فجدوا واجتهدوا كما كنتم، واجعلوا أعمالكم لله؛ لأنه لنا ولا لغيرنا لأن من قاتل لله، فالله حي باقي، ومن قاتل لغير الله فعمله لا يفيده شيئاً، واعلموا أن الله معكم، ولن يتركم أعمالكم، فاصبروا وصابروا واعلموا أن العاقبة للمتقين، وأن الله مخزي الكافرين، وما ترونه من الأهوال، فإنه والله زائل عن قريب وسترون ما يسركم دنيا وآخرة، ففي الدنيا سترون بحول الله العز والنصر والفتح الذي لا يخطر لكم على بال، وفي الآخرة رضاء الله ورسوله والنعيم المقيم، فأنتم في الخير أحياء وأموات، وها نحن نوبنا عنا عليكم حضرة أخيكم المجاهد الغيور الصادق، ولدنا الشيخ يوسف بو رحيل، فإنكم ستلقونه بعون الله وقوته، مثل السيد عمر وأكثر، ونحن ما قدمناه إلا بتقديم سيدي عمر له في حياته، وامتثلوا أمره واسمعوا كلامه، وكونوا له عوناً معيناً، ومن خالفه منكم فلا يلومن إلا نفسه، ومن تبعه وامتثل أمره، فهو الذي منا وعلينا، وولدنا الشيخ يوسف المذكور

هو النائب عنا عموماً، فلا تروه إلاّ بالعين التي تروننا بها، وبذلك يتم بالله أمركم، وتجتمع كلمتكم وتقهرون عدوكم، وإياكم ثم إياكم والمخالفة والنزاع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] واعلموا يا أولادي أن العدو خيبه الله ساعٍ بكل جهده في القضاء عليكم في هذه المدة القريبة، لا بلغه الله مناه، لأنه بعد مدة قليلة يقوم معه حرب عظيم يشغله عنكم وهو مع الفرنسيين، والدول الأخرى، فعند ذلك لا يقدر على دوام القتال معكم، والحرب قريب النشوب، فجدوا في عملكم، واصبروا وأبشروا بالنصر والفتح ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110] ولا نشك يا أولادي أن الله منجز وعده؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، وإني والله ثم والله ما يمنعني من الوصول إليكم إلا عدم الطريق، ولكن بحول الله، لا زلت مجتهداً بكل جهدي في وصولي إليكم وعن قريب يتم ذلك بحول الله وقوته، هذا وسلموا منا على عموم أولادنا المجاهدين، والبارىء يحفظكم وينصركم ويجمعنا بكم عن قريب[1].

16 جمادى الثاني سنة1350هـ

عاشراً: إيطاليا تحاول أن تستفيد بعد مقتل عمر المختار:

يقول غراسياني عن عمر المختار في كتابه: «برقة الهادئة»: إن خبر القبض على عمر المختار وإعدامه سرى في كل مكان وفي الأوساط المحلية بين الأهالي والخاضعين لسلطاتنا، وبين الثوار الخارجين عن طاعتنا والمهاجرين في مصر وفي كل البلدان من المشرق إلى المغرب، كلها تأثرت من هذا الحادث الجلل، وإعدام عمر المختار ولكي ننتهز هذه الفرصة في هذا الظرف الدقيق من أجل إثارة الفوضى بين القادة الذين خلفوا عمر المختار في القيادة رأينا أن ننشر بياناً إلى كافة أو البقية من العصاة نعلن لهم فيه أن الحكومة الإيطالية الفاشيستية مستعدة أن تقبل استسلامهم وتسليم السلاح وتضمن لهم الحياة، وفي 17 سبتمبر 1931م نشرت التعليمات الآتية من أجل توزيعها وهي:

1 - أن نعطي للثوار الإحساس بسخاء الدولة الإيطالية الفاشيستية وكذلك للسكان المحليين.

2 - إفراد الحالة أمام العالم الإسلامي وغير الإسلامي بكل دقة وأن تصرفاتنا لا لبس فيها، فهي من اختصاصنا وكذلك من مسؤولياتنا في كل العمليات الحربية التي أجريت في برقة، ولهذا فقد قامت طائرتنا بقذف المنشورات على المناطق الجبلية وعلى المدن والقرى وبها البيان الآتي:

(1) انظر: مجلة الإنقاذ، العدد (39)، 1412هـ، ديسمبر، 1991م، ص(25).

«إلى أدوار عمر المختار

إن الرئيس العظيم رئيس الثوار عمر المختار يحارب منذ عشرين سنة كان يقودكم فيها إلى الخراب والدمار والتأخر والانحطاط، قبضت عليه قواتنا المظفرة قوات إيطاليا الفاشيستية وقد حكمت عليه المحكمة الخاصة بالإعدام وهذا انتقام من الله من أجل المساكين الذين بسببه تركوا أراضيهم ومسقط رأسهم»[1].

قال مترجم كتاب «برقة الهادئة» إبراهيم بن عامر عن هذا المنشور: سبحان الله يا جنرال من الذي شرد الناس من أراضيهم؟ ومن الذي أفنى ثمانين ألفاً من المواطنين في المعتقلات ألم تكن أنت الذي قضى على الناس وأموالهم؟ وفي نفس الصفحة تعترف بأن عمر المختار منذ عشرين سنة يحارب من أجل من؟ من أجل أن يطردك ويطرد قوات إيطاليا الغاصبة[2].

واستمر غراسياني في المنشور: «يا أهل الدور إن الحكومة الإيطالية الفاشيستية القوية والسخية تحذركم مرة أخرى إنه بعد وفاة واختفاء عمر المختار أنها مستعدة بأن تعفو عن كل الذين يخضعون لحكمنا ويسلمون أسلحتهم، ومن غير هذا فالحكومة كما قضت على عمر المختار ستقضي على كل الذين يواصلون العصيان إما عاجلاً وإما آجلاً. اسمعوا كلامي وسلموا أنفسكم وفي نفس الوقت أصدرت الأوامر إلى قوات الجيش بعد أن قذفت الطائرات المنشورات بالاستمرار في القتال دون توقف، بل بذل أكثر من الجهد دون تردد حتى نجعل أمام العصاة (يعني الثوار) الطريق الوحيد هو الاستسلام دون قيد أو شرط». وخلاف إلقاء البيان بالطائرات ما يزيد عن 35،000 منشور وأكثر منها وزعت من الدوريات الكشافة على كل بئر وفي كل حقل ومرعى وكل هذه الأماكن التي يمر بها العصاة (يعني المجاهدون) أما (المريشال بادوليو) من جانبه وجه إلى قوات الجيش البرقية التالية:

«أوجه إلى قوات الجيش الشجاعة ببرقة أعظم الثناء وأحر تهنئتي على كل ما قاموا به من عمل مجيد وانتصار باهر في هذه الحروب، والنتيجة المرضية التي كنا نتمناها أن نهاية عمر المختار يجب أن لا تؤثر على السير فوق الطريق التي رسمناها وهي مطاردة العصاة أينما وجدوا واقتفاء أثرهم وضربهم بكل شدة ودون هوادة أو رحمة إلى آخر واحد منهم وليكن شعارنا؛ لا توقف ولا ارتخاء واصلوا الزحف بكل حماس متجرد ولسوف نقضي على العصاة نهائيًا»[3].

انظروا إخواني إلى هذا الحقد والبغض والكيد والمكر الذي ظهر من أفواههم وما تخفي

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(294، 295).
(2) انظر: برقة الهادئة، ص(294، 295).
(3) انظر: برقة الهادئة، ص(296).

صدورهم أكبر، وصدق الله حيث قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217].

الحادي عشر: تعيين يوسف بو رحيل قائداً للحركة الجهادية:

وبعد سقوط عمر المختار ﷺ في الأسر تجمع المجاهدون بين يوم وليلة وأجمعوا على تنصيب الشيخ المجاهد (يوسف بو رحيل) قائداً للجهاد الإسلامي ووكيلاً عامًا للجهاد، وعلى أثر هذا التنصيب كلف الشيخ عبد الحميد العبار بالرحيل نحو شرق البلاد للقيام بحثٌ الناس على الانخراط في جيش المجاهدين وحمل السلاح لمكافحة الجيوش والجهاد في سبيل العقيدة الإسلامية والدين، واستقبل المجاهدون خبر استشهاد قائدهم العظيم بالعزيمة والاستمرار ومواصلة السير، إما الشهادة أو النصر على النصارى الحاقدين.

وواصلت الحكومة الإيطالية حملات الانتقام ضد أولئك الأبطال، وبرز في تلك المرحلة الحاسمة والتي ندر فيها وجود الرجال الشيوخ الفرسان والقادة الأبطال والميامين الكرام أجدادنا البواسل كل من عبد الحميد العبار ويوسف بو رحيل وعصمان الشامي، وحشدت إيطاليا قواتها وواصلت شن حملاتها بشراسة منقطعة النظير. وبعد قتال عنيف عند الحدود المصرية قرب الأسلاك الشائكة اجتاز الأسلاك بعض المجاهدين ببطولة منقطعة النظير وفروسية عالية القياس، وقتل من قتل وأسر من أسر وبقي الزعماء الأربعة يقاومون فقتل حمد بو خير الله أحد الزعماء وقتل يوسف بو رحيل وجرح عصمان الشامي فأخذ أسيراً، وأما الفارس المغوار عبد الحميد العبار فاستطاع أن يجتاز الأسلاك الشائكة بجواده رغم مطاردة القوات الإيطالية له[1].

وبهذه النهاية المؤلمة الحزينة انكسرت شوكة المجاهدين وتعثرت خطواتهم وأخمدت حركة الجهاد وذهب الأجداد تاركين خلفهم تاريخاً بطوليًا كفاحيًا جهاديًا رائعاً من أجل العقيدة والدين والشرف والكرامة، فعلى طريق الإسلام نحن سائرون ومن أجل إعزاز دين الله عاملون ولرفع راية التوحيد مجاهدون، ونسأل الله المغفرة والرحمة والرضوان للأجداد والأبطال الكرام من أمثال رمضان السويحلي، وسليمان الباروني، والفضيل بو عمر، وأحمد الشريف السنوسي، وصالح الأطيوش، وإبراهيم الفيل، وأحمد سيف النصر وسعدون وعبد الحميد العبار وغيرهم كثير.

إن عبد الحميد العبار قد أمد الله في عمره وقد شاهدته مرات عديدة وأنا طفل لم أتجاوز الرابعة، وكنت أراه كل يوم بعد صلاة الفجر أمام بيته في الحي الذي كنت أسكن فيه بمدينة بنغازي والذي يسمى مدينة الحدائق بقرب مسجد السيد بالقاسم أحمد الشريف السنوسي

(1) انظر: برقة الهادئة، ص(304).

المعروف بمسجد الأنصار، وكان منظره وهو يتلو كتاب الله وقد تقدمت به السن مؤثراً في نفسي، وبلادنا في تلك الفترة عمّها السفاد وما كنا نرى ونحن أطفال من يحافظ على تلاوة القرآن الكريم بالكيفية المذكورة وأخبرت والدي عن ذلك الذي أسر قلبي بتلاوته القرآن الكريم فقال لي: يا بني ذاك الشيخ عبد الحميد العبار من كبار المجاهدين، وبدأت جدتي وهي من قبائل برقة من قبيلة الدرسة وقد كانت ضمن المعتقلين بمعتقل المقرون تسرد لي أموراً عجيبة عن جهاده وفروسيته وشجاعته ونجدته، ولا زالت صورته في ذهني إلى وقت كتابتي هذه وعندما توفي رحمه الله كان لوفاته مأتم مشهود وحضرت جموع غفيرة من شرق البلاد وغربها، واستمر المأتم أياماً عديدة فرحمة الله على أولئك الأبطال.

الثاني عشر: اضطهاد الشعب:

وباستشهاد عمر المختار ويوسف بو رحيل وأسر عصمان الشامي بعد جرحه وهجرة عبد الحميد العبار إلى مصر وقتل كثير من المجاهدين انتهت حركة الجهاد الفعلية، ومع وجود معظم السكان في معسكرات الاعتقال حكم الإيطاليون البلد من الحصون المحاطة بالأسلاك الشائكة والدوريات والمصفحات والسيارات المسلحة والرشاشات والأنوار الكاشفة والطائرات، وفي يناير 1932م أعلن بادوليو حاكم ليبيا العسكري الإيطالي أن الثورة قد انتهت كلية وتماماً، وأصرت إيطاليا على جعل ليبيا الشاطىء الرابع لإيطاليا، وأعلن موسليني ذلك الطبل الأجوف سنة 1934م بأن الحضارة الحقيقية هي ما تخلقها إيطاليا على الشاطىء الرابع لبحرنا (الحضارة الغربية بصفة عامة، والحضارة الفاشيستية بصفة خاصة) وأخذ الرأسماليون الإيطاليون يقسمون ممتلكات الشعب المسلم على بعضهم البعض ويرحّلون الأسر الإيطالية للاستيطان الكامل في ليبيا المسلمة وأصبح الليبيون عمالاً مستأجرين وخداماً للعائلات الإيطالية في مزارعهم التي نزعت من أيديهم وسلمت للإيطاليين، وأصدرت وسنت القوانين التي تخدم مصالح الحكومة الإيطالية في مصادرة الأملاك والاستيلاء عليها ونزعها من المواطنين بمبالغ زهيدة باسم المصلحة العامة، واهتمت إيطاليا بليبيا اهتماماً بالغاً من أجل جعلها قطعة إيطالية لها دورها في توسيع مستعمراتها نحو الجزائر ومالطا وجبل طارق، وشجعت إيطاليا هجرة الألوف من العائلات الإيطالية ضمن شروط لا بد من توفرها في الراغبين بالاستيطان في ليبيا المسلمة، ومن هذه الشروط: كثرة عدد أفراد الأسرة بحيث تكون أكثر من سبعة، وأيضاً الصحة، والقراءة والكتابة وأن تكون هذه الأسرة من أعضاء الحزب الفاشيستي، أو ذات الوعي السياسي، وكان معظم القادمين هم من المناطق الفقيرة في شمال إيطاليا وخرجوا من إيطاليا وسط دعاية عالمية، واستقبلوا في طرابلس وبنغازي استقبال الأبطال ونقلوا في سيارات إلى القرى التي كانت جاهزة لهم وكان بالبو يرافقهم من نابولي حتى القرى التي اغتصبوها من الشعب المسلم المسكين، [illegible] كل أسرة منزلاً ومزرعة جاهزة للعمل وكانت الحقول قد زرعت وفي كل إسطبل كان

يوجد بقرة وبغل، وأدوات وحبوب وعلف وكذلك عربات وخشب للوقود وفي كل بيت كان هناك طعام يكفي لأسبوع[1]، حتى الكبريت والشمع كان موجوداً جاهزاً، وسخر الشعب الليبي المسلم لخدمة النصارى واستعبد النصارى الحاقدون المسلمين في حربهم لليبيا واهتموا بطرابلس ولبده وصبراته وشحات لجعلها دعاية للحكومة الإيطالية ودعوة انحلالية للخمور والدعارة في حوض البحر المتوسط على مستوى عالمي، وكانت أهداف الإمبراطورية الفاشيستية حسب تعبير الطبل الأجوف موسليني (تغييراً إقليميًا حربيًا تجاريًا فحسب بل تغييراً روحيًا وأخلاقيًا أيضاً) وعمل على انسلاخ المسلمين من أخلاقهم ودينهم ورضوا بأن يحصر دين المسلمين في الشعائر التعبدية. وقد أعلن بالبو مرة أنه (لن يكون في ليبيا حكام ومحكومون، وبدلاً من ذلك سيكون فيها إيطاليون كاثوليك، وإيطاليون مسلمون، متحدين من جماعة مشتركة كعناصر بناءة في تنظيم جبار للأمبراطورية الفاشيستية) وحرموا الشعب الليبي المسلم من كل حقوقه الطبيعية فلا فرصة في التعلم والتعليم والثقافة والتثقيف، ولم يكن الفاشيستيون يرون نهاية لوجودهم في بلادنا العزيزة وكانت الطبقة المثقفة الصغيرة إما في المنفى، أو لا صوت لها. وقد أخمدت كل معارضة بقسوة بالغة وأضعف البناء القبلي التقليدي بتعيين زعيم لكل عدد من القبائل والفاشيستيون يأمرون والشعب المستضعف ينفذ بدون سؤال أو تعليل وكان التعليل الكافي الذي ربي عليه الشعب (يجب عليك لأنه يجب عليك أن تفعل كذا وكذا) وكانت السياسة التعليمية الإيطالية رسمت من أجل تخريج عدد كبير من التلاميذ الليبيين الذين يتكلمون الإيطالية ويخلصون الولاء لإيطاليا[2].

وعملوا على القضاء على الأخلاق الإسلامية وبث روح الكثلكة في المدارس بين الأطفال، والقضاء على مصارف أهل البلاد والتعليم الديني وأغلقوا الكتاتيب ودور العلم الوطنية، وأكثروا من إقامة دور الفحش ومنعوا الليبيين من أداء فريضة الحج وازداد امتهانهم للدين الإسلامي بدرجة شنيعة فكان من سوء فعالهم، أن ألقى قائد طبرق الإيطالي بالمصحف الشريف إلى الأرض، ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من المسلمين ويقول: (إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشراً ما دام هذا الكتاب بين أيديكم).

وسخروا المسلمين واستعبدوهم في بناء الطرق والقلاع والمزارع والقرى ونشط المبشرون الطليان في دعوتهم، وعمدت الحكومة إلى تشجيعهم وأرغمت النساء على التنصير والزواج من الطليان.

وزاحموا أهالي البلاد في الصناعة والتجارة، وسيطروا عليها سيطرة كاملة ومنعوا الناس

---

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(158، 159، 160، 163).

(2) انظر: تاريخ ليبيا، ص(164، 167، 170).

من التظلم وقيّدوا حرياتهم، فمنعوهم من محادثة بعضهم بعضاً، ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب، ومن مراسلة أقاربهم في الخارج، حتى صاروا في سجن داخل بلادهم محرومين من كل صلة تربطهم بالعالم العربي والإسلامي.

لقد كان من أحلام الفاشيست إعادة الإمبراطورية الرومانية الغابرة فقرروا لذلك امتلاك البلدان الإسلامية القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، ثم إبادة أهل هذه البلاد وإفنائهم وتحويلها إلى رقعة لاتينية، وإنها لوقاحة منقطعة النظير أن يعمل شعب على إبادة شعوب ليحل محلها بالقوة، ولكن هذا هو منطق الصليبيين الحاقدين، وبلغ استهتارهم أنهم ألزموا خطباء الجمعة بالدعاء على المنابر لملك إيطاليا، عم نويل الثالث، وعندئذٍ امتنع المسلمون عن صلاة الجمعة فلما هاج الرأي العام الإسلامي على هذا الفعل، استكتبوا الأئمة تكذيباً بتوقيعاتهم، جاء فيه أن الدعاء كان بمحض إرادتهم ومن تلقاء أنفسهم، ومن غير تدخل من جانب الحكومة الفاشيستية!!

فهل رأيت وقاحة أبلغ من هذه؟

وفي عهد بادوليو صاروا يمنعون الناس من أداء الحج ويضعون العراقيل في سبيلهم، حتى يجبروا على تركه.

كان أقبح ما فعل المارشال بادليو أنه أمر بأن ترصف (الصالة) في قصره بالبلاط المنقوش عليه (محمد) ﷺ، وبعد انتهاء مرحلة الحرب المسلحة كما علمنا نفذ الشطر الثاني من برنامج إبادة الليبيين وإفنائهم، ونعني ذلك ما اغتصبه الطليان من الأراضي والمزارع وإعطائها للعائلات الفاشيستية بالقوة، وترك أصحاب الأرض الحقيقيين وأبناء البلاد يتضورون جوعاً ويخدمون هؤلاء الحاقدين كخدمٍ وعبيدٍ[1].

وأراد الله أن ينتقم للمجاهدين من الطليان بقدرته وجبروته وعزته وحكمته النافذة التي لا يعلمها كثير من عباده، وبعد أن اطمأن النصارى الكاثوليك في ليبيا جاءت الحرب العالمية الثانية قدراً من الله وتسليطاً من الله من ظالم على ظالم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

وبعد أن اطمأنت الإمبراطورية الإيطالية إلى سلطانها، ودانت لها الأقطار الليبية من أقصاها إلى أقصاها من بعد استشهاد المختار عام1931م حتى عام 1942م.

أحد عشر عاماً من اليأس المطلق الذي لا يبشر بشيء من الأمل، أهل الحل والعقد الليبيين بعيدين عن البلاد.

---

(1) انظر: حياة عمر المختار، ص(172).

نصف الشعب أو يزيد أهلكوا، أو أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً، البقية الباقية مستضعفة في بلادها لا حول ولا قوة لها.

غراسياني ينفخ أوداجه، ويختال على أرض المسلمين يمنة ويسرة حيث شاء[1].

ثم جاء من ورائه بادوليو المارشال العجوز ليتم قصة إبادة الشعب الليبي ويسلم الأراضي إلى رعاع الطليان.

ليل هنا وليل هناك وظلام دامس وظلم مخيم ويأس مرير وذلة أصابت المسلمين وعزة زائفة سيطرت على النصارى الحاقدين وكانت قصة خروج الطليان من بلادنا غريبة جداً ينبغي أن يتدبر فيها ليعلم الناس وليطمئنوا إلى عدل الله المنتقم الجبار ولو بعد حين، وكانت قصة هزيمة الطليان في ليبيا: بدأت في الحرب الثانية في سبتمبر وحرصت إيطاليا أول الأمر على عدم دخولها حتى إذا رأت فرنسا تنهار على أثر الزحف الألماني الخاطف عليها أعلنت إيطاليا الحرب على إنكلترا وفرنسا في 10 يوليو 1940م، وبدأ الجبل الأخضر يضيق حول عنق الإمبراطورية الجوفاء العرجاء ودخلت إيطاليا الحرب بقيادة زعيمها موسوليني الطبل الأجوف طمعاً في الغنائم، وكانت توقن أن الأرض قد دانت لحليفتها ألمانيا فأخلف الله ظنها وأفضى الأمر إلى زوالها نهائيًا من الوجود كإمبراطورية صاحبة مستعمرات واندحرت إيطاليا باندحار ألمانيا في شمال إفريقيا، ولم تغرب شمس يوم 7 أبريل عام 1943م حتى كانت جيوش ألمانيا وإيطاليا بقيادة روميل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسي بأجمعه.

وكانت فرحة عظيمة شاملة عمت قلوب الناس وعبر عنها الملك السابق بقوله: (إني أحمد الله الذي جعلني أشهد خروج هؤلاء الطليان الظالمين من بلادنا) وتدفق الليبيون إلى بلادهم التي ترعرعوا فيها وأخرجوا منها ظلماً وزوراً وهكذا استدار الزمان وسلط الله الإنكليز على الطليان ونزل العار بهم[2].

لقد أرادت إيطاليا إبادة المسلمين في ليبيا فبادوا هم وبقي المسلمون في ليبيا، وأراد غراسياني إعدام المختار فهلك وبقي المختار علماً وقدوة لأجيال المسلمين.

---

(1) حياة عمر المختار، ص(185).

(2) انظر: حياة عمر المختار، بتصرف، ص(185 إلى 188).

الفصل الثالث

الليبيون بين المهجر والاستقلال

المبحث الأول

الليبيون في المهجر

هاجر الليبيون إلى تونس والجزائر، وتشاد، وسوريا، والأردن ولبنان، ومصر، والحجاز، وتركيا، وتركوا أوطانهم بسبب الظلم والجور الذي وقع من الطليان وشرعوا في جمع شتاتهم في المهجر استعداداً ليوم قريب تتاح لهم فرصة تخليص بلادهم من الاحتلال الطلياني البغيض، وكانت قلوبهم تتقطع شوقاً للرجوع إلى ديارهم وتفجرت ملكاتهم الشعرية وتركوا لها بعض القصائد المعبرة عن الشوق للأوطان.

أولاً - قال الشاعر أحمد رفيق في هذه المعاني:

كادت تطير بأضلعي أشواقي ... يوم الفراق فهل يكون تلاقِ

ودعته والله يعلم أنني ... ودعت راحة قلبي الخفاق

لو كان قبل يوم قيامة ... كان الفراق قيامة العشاق

وطني من الإيمان حبك ليس لي ... من عليك وأنت ذو استحقاق

ويقول أيضاً:

يا أيها الوطن المقدس عندنا ... شوقاً إليك فكيف حالك بعدنا؟

كنا بأرضك لا نريد تحولا ... عنها ولا نرضى سواها موطنا

في عيشة لو لم تكن ممزوجة ... بالذل كانت ما ألذ وأحسنا

عفنا رفاة العيش فيك مع العدا ... وأبى شمم النفوس وعزنا

إلى أن يقول:

جعلوك مسخرة بأيدي صبية ... لا يبعدون عن الحمير تمدنا
قالوا لنا جئنا نمدن أرضكم ... أين التمدن والذي قالوا لنا؟
هدموا من الأخلاق في أوطاننا ... أضعاف ما شادوه فيها من بنا[1]

ثانياً – وقال الأستاذ محمد الطيب قصيدة فاضت من الشعور لا من الشعر:

قال ﷺ:

ما جنة الحسن إلا في طرابلس ... عهدي به وسناها مشترق عال
يا برقة الخير يا دار الأحبة ما ... أقسى الفراق بقلبي يوم ترحال
وصوت ذكرك (يا برقا) يردده ... قلبي فيشغلني عن كل أشغالي
نار الفراق لها في مهجتي شرر ... لولا الدموع لأوهت جسمي البالي
دار الأحبة لا أبغي بها بدلاً ... فلا بمصر ولا بالشام آمالي
ولا العراق ولا صنعا تغيرني ... عن حب (برقة) ولا الخضراء تحلو لي
ولا دمشق ولا الدنيا بأجمعها ... أنس بها برقة الفيحاء من بالي
فهي النعيم إذا ما جئت أذكرها ... طاب المقام بها في عصري الخالي
حصباؤها ذهب والتبر تربتها ... وماؤها من رحيق الشهد سيال
وأهلها عرب قعساء همتهم ... شادوا المفاخر جيلاً بعد أجيال
الدهر يعرفهم أسداً غطارفة ... في حالة الجد لا في القيل والقال
عرّج بها يا رعاك الله في أسف ... وأروي الربوع بدمع منك شتال[2]

ثالثاً – وأما الجهاد بشير بك السعداوي فقد قال:

قالوا: تحن إلى بلاد وأهلها؟ ... فأجبتهم هي بغيتي ومرادي
تالله لم أشغف بغير طلالها ... ولا منيتي مالت لغير بلادي
في حب هاتيك الديار وأهلها ... ذابت حشاشة مهجتي وفؤادي
بالله يا ريح الصبا ونسيمه ... إن زرت يوماً منزلاً لسعادي
أبسط لها شوقي وفرط صبابتي ... وأهد تحياتي لها ووِدادي
وأخفض جناح الذي عني وقل لها ... أسرفت في هجري وفي إبعادي

(1) انظر: برقة العربية، ص(531، 532).
(2) انظر: المصدر نفسه، ص(532، 533).

حر النوى أوهى فؤادي وإنني — متهتك متمزق الأكبادي
مذ غردت بالبين أغربه النوى — من بيننا ما ذقت طعم رقادي
أمسى سميري في الدجى بدر السما — والبدر جسم لا يجيب منادي
فلطالما ناديت في غسق الدجى — حبي فتذهب صيحتي في وادي
لهفي على تلك الديار وأهلها — قوم لهم في المكرمات أياد
لا زلت أصبو بحبهم ووادهم — رغم على أنف الزمان العادي[1]

وقال أيضاً:

يا حاد الركب حث السير في عجل — نحو المواطن بين السهل والجبل
وقف بذاك الحمى والأربع الدرس — وجول الطرف الآكام والقلل

إلى أن يقول:

عهدي به وأسود الليل رابضة — حول الكنائس لها غاب من الأسل
واليوم قد أصبحت والذل رائدها — وتشتكي دولة الأوغاد والسفل
قوم أحلوا بها لا أصل يردعهم — ولا خلاق سوى الفحشاء والزلل
ظنوا بأن وعدوا أنا نصدقهم — وعندنا وعدهم كذباً بلا خجل
لا تيأس يا ربوع العز وانتظري — فإن دولتهم من أنقص الدول[2]

لقد ذاق المهاجرون ألوان العذاب في المهجر، ومع ذلك فقد واصلوا الجهاد وهم في ديار الهجرة حتى ضاقت بهم إيطاليا ذرعاً وبرز من المجاهدين في مصر السيد إدريس السنوسي الذي قال في حقه الجنرال غراسياني: (إذا أردنا أن نقضي مرة واحدة على العصيان يجب أن يغيب إدريس من عالم الوجود، فإذا مات هو مات معه التمرد والعصيان، يجب لتحقيق هذا أن نضغط على مصر حتى تسلمه لنا أو نقضي المهمة وراء ستار)[3] وأما في بلاد الشام فقد ظهرت جهود بشير السعداوي واضحة العيان، فقد قام مع إخوانه الميامين بصور شتى من صور الجهاد، فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل، فتأسست في دمشق في عام 1928م (جمعية الدفاع الطرابلسي والبرقاوي بالشام) وانتخب بشير السعداوي رئيساً لها وكانت هذه الجمعية تضم إليها مجموعة من المجاهدين كسكرتير الجمعية عمر فائق شنيب (بك)، وأمين الصندوق فوزي النقاش ثم عبد الغني الباجقمي، وكامل عياد، وعبد السلام أدهم، والبمباشي طارق، ومحمد ناجي التركي، ومصطفى بن نوح، وأحمد راسم، وأبو بكر قدوره، وأبو بكر التركي، وخليفة بن شعبان، وعمل هؤلاء الأخوة الأبطال جميعاً على إعداد البحوث التي تكشف عن

(1 – 3) انظر: برقة العربية، ص(531).

أعمال الطليان وفظائعهم في القطر الليبي، وصاروا ينشرونها في الصحف والجرائد والمنشورات، وأظهر بشير السعداوي نشاطاً واسعاً ونشر بحوثاً ومقالات كثيرة، وسار عمر فائق شنيب على نفس المنوال، وفي عام 1929م وضعت الجمعية الميثاق الوطني المشهور للشعب الطرابلسي البرقاوي؛ فنصت المواد على التالي:

المادة الأولى: تأليف حكومة ذات سيادة قومية لطرابلس وبرقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

المادة الثانية: دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

المادة الثالثة: انتخاب الأمة مجلساً نيابيًا حائزاً على الصلاحية التي يخوله إياها الدستور.

المادة الرابعة: اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم.

المادة الخامسة: المحافظة على شعائر الدين الإسلامي وتقاليد القطر في جميع أرجائه.

المادة السادسة: العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية منتخبة.

المادة السابعة: العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.

المادة الثامنة: تحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة خاصة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي(١).

وقامت الجمعية بفتح فرع لها في تونس عام 1930م برئاسة محمد عريقيب الزليطني، وحققت الجمعية بعض النجاحات الكبيرة، وكان الأمير إدريس السنوسي قد أولى عنايته الخاصة، وأمدها بالمساعدات القيمة، فيرسل لها الإعانات المالية حيناً وبالمعلومات والأخبار الجديدة عن القطر الليبي حيناً آخر، وتمكنت الجمعية من دعم مركزها ومتابعة النشر والقيام بحملة صحفية واسعة تهيب بالأمة الإسلامية والعربية أن تنهض للوقوف بجانب الشعب الليبي بكل الطرق. ونشرت اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية نص الميثاق وقدمت له بنداء خاطب فيه مواطنيها في الأقطار العربية، جاء فيه: (أيها الإخوان الأعزاء: إن الواجب يقضي عليكم أن تعملوا لخير بلادكم وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع كلمتكم وأن تؤلفوا في كل قطر تسكنونه (جمعية) تلم شعثكم وتجمع شملكم وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطني؛ فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً؛ وارفعوا أصواتكم بالشكوى مما تلاقيه أمتكم البائسة من مظالم الإيطاليين واملؤوا الصحف بالمقالات والفضاء بالاحتجاجات وانشروا النشرات، وقفوا للحوادث بالمرصاد وانتهزوا الفرصة وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع؛ فالفكرة الناضجة تكوّن الأمم وتبعث فيها روح اليقظة والانتباه؛ ثم ربوا نشأكم على حب

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(373).

الوطن، والحرية والاستقلال أرضعوهم هذه المبادىء مع اللبن وانفثوها في صدورهم منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار، علموهم مناقب السلف الصالح وأبطال التاريخ والفتح الإسلامي فإنها تبث في نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادىء الوطنية، وليكن شعاركم الاستقلال وتخليص وطنكم من الأغلال، وفكروا في الوسائل التي تقربكم من هذه الغاية الشريفة؛ فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد بها الصلف والغرور إذا رأتنا أمامها أمة ناهضة منتشرة في الآفاق واقفة لها بالمرصاد تحارب الظلم والاستبداد ولا تدين لسنن الاستعمار والاستعباد لا بد أن تذعن لمطالبنا الحقة ولميثاقنا القومي الذي عاهدنا الله على تحقيقه ببذل النفس والنفيس والله مع الصابرين)[1].

لقد استطاعت الجمعية أن توسع دائرة نشاطها، وطلبت من شكيب أرسلان في عام 1929م أن يقف معها لما كان بالحجاز، ولبى الأمير شكيب نداء الليبيين وشرع في نشر مخازي ومظالم الطليان في الصحف والمجلات العالمية والعربية وفي نشرات صغيرة حتى يسهل تداولها وحققت مقالات شكيب هدفها وانتبه العالم الإسلامي لما يفعله الطليان في ليبيا بسبب مقالاته الرائعة التي دبجها بقلمه السيال.

واستمرت الجمعية في نشاطها وتوالت نشراتها تَصِفُ فظائع الطليان، وتحذر الأمة من تصديق دعايتهم الكاذبة المغرضة وتسوق الحجج والبراهين والأدلة على انتهاك أبسط حقوق الإنسان في ليبيا، وتفننت في ابتكار وسائل عدة لإيصال هذه النشرات إلى داخل ليبيا وبذلت جهوداً عظيمة لتوزيع نشراتها في جميع أنحاء العالم العربي، لقد نجحت في حرب الأقلام وشاركت في المؤتمر الإسلامي في القدس وعرضت قضيتها وهذا نص الوثيقة التاريخية التي قدمتها:

رابعاً - وثيقة تاريخية عن القضية الطرابلسية البرقاوية تقدمت بها الجمعية الطرابلسية البرقاوية للمؤتمر الإسلامي في القدس:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

منذ أن أخذ الأوروبيون يشنون الغارة على البلاد الإسلامية بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد إسلامية - بعد الأندلس - بمثل ما فجعت بطرابلس - برقة - تلك البلاد التي منذ سطا الإيطاليون وسيوف نقمتهم، لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة، حتى آلت إلى مجزرة تمثل فيه أفظع الأدوار الهجمية.

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(374).

لا نريد أن نطيل البحث في مناقشة الوسائل التي تذرعت بها الدولة الإيطالية لاحتلال طرابلس - برقة - التي لا تربطها بها أية علاقة، ونكتفي هنا بنظرة عامة في تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الإيطالي إلى يومنا هذا، إذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة:

لقد أغارت الدولة الإيطالية على القطر الطرابلسي - البرقاوي في 5 تشرين الأول سنة 1911م على حين غفلة من أهلها، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحماية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندي مبعثرين في عدة مناطق، بيد أن سكان تلك البلاد الذين كلهم كتلة عربية - إسلامية واحدة قد فطروا على عزة النفس والإباء ولذلك قاموا في وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياتهم بقلوب ملؤها الإيمان بالله والاعتماد عليه.

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن من خلالها الجنود الإيطالية من التقدم شبراً عن مرمى مدافع أسطولهم، إلى أن اضطرت الدولة العثمانية إلى عقد صلح مع الإيطاليين منحت فيها الطرابلسيين استقلالهم الإداري وسحبت جنودها وهي مرغمة.

وعقب ذلك أخذ الإيطاليون يدعون أهالي البلاد إلى السكينة ويظهرون لهم حسن النية لخير تلك البلاد فوضعت الحرب أوزارها وألقى أكثر أهالي طرابلس وبرقة السلاح وعادت السيوف إلى أغمادها، ولكن رجال الدولة الإيطالية ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالي من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن وأخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرض الناس على قتالهم، فيخلقون لهم تهماً واهية ويزجون بعضهم في أعماق السجون ويرمون بالبعض إلى جزر إيطاليا.

فثارت ثائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود، فانقضوا على إيطاليا، وكان أول وقعة دموية جرت وقعة تسمى بوقعة (القراضابية) وهو مكان قرب خليج سرت، جرت تلك الوقعة في أوائل سنة 1914م أضاع فيها الإيطاليون ما ينيف على (8000) جندي، وعقب ذلك ازداد حقد الإيطاليين على الأهالي فانهالوا على العرب بالقتل والتعذيب فقتلوا في يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص 300 نسمة في فضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال والنساء والرجال.

وعلى أثر ذلك اشتعلت في بلادنا حرب سرى لهيبها في كل ناحية من النواحي وظلت الفتن تتقد إلى أن نشبت الحرب العالمية، فأرسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نوري باشا شقيق أنور باشا الشهير، عندئذٍ اضطرت الجنود الإيطالية أن تنسحب من كل المواقع التي شغلتها أثناء السلم وتتحصن في مدينة طرابلس، زواره، الخمس، بنغازي، درنة،

طبرق، إلى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت إيطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمة تلو الهزيمة في ساحات أوروبا.

ورغم ذلك ساقت عدة فيالق من جيوشها إلى طرابلس - برقة - وجهزت منهم مائة ألف جندي زحفت بهم على خطوط المجاهدين في منطقة طرابلس.

وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة، وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة.

ولما باءت الدولة الإيطالية في تلك التجربة بالفشل، وعلمت أنها غير قادرة على إخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت إلى التضليل والتمويه فسنت قانوناً سمته «القانون الأساسي» وأعلنته في سنة 1919م، ومع أنه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين فقد قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين، وانتظروا من رجال الحكومة الإيطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يبثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لإيقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبين الأخ وأخيه.

وكادوا يصلون إلى رغباتهم ويوقعون البعض في تلك الحبائل التي نسجتها أياديهم الأثيمة، لولا أن عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام في مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلد في سنة 1920م فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى.

وكان الجيش الإيطالي وقتئذٍ كما ذكرنا منحصراً في بعض المدن الساحلية وبعد المداولة في جلسات متوالية قرروا بالإجماع ما يلي:

إن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة ومؤسسة على ما يحتمه الشرع الإسلامي من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة، لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة.

وقد تناقش المؤتمر في أن ذلك لا يتنافى مع منافع دولة إيطالية التي جاءت إلى وطننا من أجلها، مع اللزوم القطعي لراحتنا وسلامتنا، وبين ثقته في أن الشعب الإيطالي لا يرضى في هذا الزمن الذي تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيها، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة في سبيل النظام والأمن والعدل في طرابلس الغرب، ولذلك لا تزال للأمة ثقة في أن تسعف بضرورياتها، وأن لا تصادم في أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال بغيرها.

وقد أُنبنا للمطالبة بذلك وفداً من حضرات نوري بك السعداوي، ومحمد خالد بك القرقني ومحمد فرحات بك، ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة في القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم وأن يحقق أماني أمتنا.

حرر في 6 ربيع الأول سنة 1339هـ

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومية عهد إليها إدارة شؤون البلاد الداخلية التي عمت فيها الفوضى بسبب الفتن التي خلقها رجال الحكومة الإيطالية، وذهب الوفد المشار إليه في ذلك الحين إلى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الإيطالية سوى الإعراض والاستخفاف بمهمته.

أما هيئة الحكومة الوطنية التي عهدت إليها إدارة شؤون البلاد فإنها أخذت في إقرار دعائم الأمن وتنظيم الشؤون الإدارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث من الطوارىء، فساد الأمن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذي استولى على النفوس وانصرف الأهلون إلى معائشهم ومصالحهم.

أما منطقة بنغازي فإن نوري باشا الذي أوفدته الحكومة العثمانية إليها خلال الحرب العالمية حمل الأهالي على التعرض على القطر المصري وهي خطة رسمتها وزارة الحربية العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من (5000) مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسي وتجاوزوا به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه في برقة ابن عمه السيد إدريس السنوسي.

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الإنكليزية وبعد حروب بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة واشتدت المجاعة.

فرأى السيد إدريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الإيطاليين وأوقفت رحى الحرب وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوي بالإمارة ووافقت على ذلك الحكومة الإيطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين.

بيد أن رجال الحكومة الإيطالية - كعادتهم في كل عهد يعقد معهم - أخذوا ينقضون العهود، فاضطر الأمير السيد إدريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية (سرت) المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والتضامن

على المطالبة بحقوقهما معاً، وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين.

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الإيطاليون سواحل مصراته في منطقة طرابلس سنة 1922م، فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب في كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الإيطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلومتراً، وضحت البلاد بألوف الخلق في سبيل الدفاع، كما أن الإيطاليين خسروا أضعاف ذلك؛ لأنهم كانوا المهاجمين، ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وانتدبوا للمذاكرة السنيور (بيلا) والسنيور (رابكس) وخرجا في الموعد المضروب الذي قررته الحكومة الوطنية في مكان يسمى (فندق الشريف) وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالي الكتاب الآتي:

(باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت في البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة إلى عقد مؤتمر في غريان بلغت مقرراته الصائبة إلى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه إلا الإعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق.

ولما حال الحوار على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرة على تلك السياسة المنفردة. وتحقق أهل القطرين طرابلس - برقة - أن حياتهما محفوفة بالخطر في الحال والاستقبال، وأن ما داهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما أن إدارتهما إلى عهد الاحتلال واحدة، عندئذٍ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الإخاء ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية في سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسي.

فقرر الفريقان بالإجماع في سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد إدارة القطرين، وهو الحل النهائي الذي لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التي لا تريدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد إلا تحكيماً في عقد الخلاف، فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الأمتان من الخسارة وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى، أما نحن أهل القطرين فإن الأدوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا إلى صورة حل هذه المشكلة حلاً لاحظنا فيه المنافع الإيطالية سياسية كانت أو اقتصادية، وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الأمة وتكون له السلطات الإدارية جميعها مع السلطة الدينية، ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد إن تجردت عن ملاحظة الأشكال والاعتبارات، ووجَّهت دقيق نظرها إلى الحقائق والجوهريات، كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعلمنا خلالها أن سفركم إلى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك

والحصول على إذن وصلاحية واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول إلى ما يرفع الخلاف الذي لا تتحمل البلاد دوامه، ورعاية لأحكام اتفاقية سرت المذكورة فإنا في انتظار مندوبي برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لإشعار سمو الأمير السيد محمد إدريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التي لا تشك أنها ستبنى على أساس الإخلاص وحسن النية، والأمل وطيد في أن دولتكم ستضم إلى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر في حل المشكلات واقبلوا يا دولة الوالي عاطر التحية وفائق الاحترام.

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والإيطاليون يراوغون في أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لإعداد العدة للحرب، وقد تجلت فكرتهم هذه في تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذي بيد الأهلين قبل أي حل وإلا الحرب، عندئذٍ لم تر الحكومة الوطنية بدًّا من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب، واستؤنف القتال الذي لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

إن الحكومة الإيطالية بعد أن اتخذت كل ما في وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتاً في سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه، عمدت إلى تنفيذ سياسة الشدة والإرهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم، فإنهم أضافوا إلى تلك الشدة فكرة إبادة ذلك الشعب وإمحائه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا فيها المستعمرين من أبناء بلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم، وهكذا أخذ الفاشيست في تنفيذ سياستهم الغاشمة وما برحوا يُنْزِلون بذلك الشعب العربي ضروب العذاب فلا يرحمون طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً.

فإنهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية، وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة في كل بلد من ذلك القطر، فإدارة البلاد تحت حكم عسكري مطلق اليد لا يسأل عما يفعل وله في كل لواء وقضاء وناحية حاكم إداري وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم، وليس للأهلين مشاركة في شؤون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الأبواب وجميع المعاملة باللغة الإيطالية، والأغرب من هذا كله أن جباة الأموال من الفاشيست، فيطرحون الضرائب ويجبونها من المكلف وهو لا يدري ما عليه ولا يعرف بأية نسبة تجبى منه تلك الضريبة؛ بل إنه مرغم على أدائها عن يد وهو صاغر، وإذا سأل سائل عن أساس الضريبة يعد خائناً ويعاقب العقاب الأليم.

وبالجملة فإن السياسة المرهقة التي تتمشّى عليها الحكومة الفاشيستية لم يسبق لها مثيل منذ أن عرف التاريخ، فسفك الدماء، وقتل النفوس البريئة، والتجاوز على الأعراض، والنفي والحكم بالسجن المؤبد، وسلب الأموال، وغصب الأملاك والأراضي من أيدي أصحابها، وقذف البشر من الطائرات، وإلقاء بعضهم مكبلين بالأغلال في لجج البحر، وقتل الأسرى،

وهتك حرمات الدين، ودوس القرآن الكريم تحت الأقدام أمام جماهير من المسلمين، وهدم أضرحة بعض الصحابة الكرام والأولياء واتخاذها إصطبلات للحيوانات، والترنم بالأناشيد في الطعن بالدين الإسلامي فحدث عن ذلك ولا حرج، ولا نريد أن نأتي في هذه العجالة على ذكر الفظائع التي كتب فيها تأليف خالص يغنينا عن التفصيل فإن فيه من الفظائع ما تتفطر منه الأكباد ويذيب الفؤاد.

ومنه يعلم القارىء أن سياسية الفاشيست في ذلك القطر ترمي إلى إبادة أهله، فقد كان عدد الشعب الطرابلسي - البرقاوي قبل الاحتلال الإيطالي يربو على (1،500،000) نسمة وقد صرح الجنرال غراسياني قائد الحركات العسكرية إنه بعد الإحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس - برقة لم يتجاوز عددهم (700) ألف، ولا ريب من أنهم قد أفضوا على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء؛ لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الأعناق لا بد أن يؤدي إلى تلك النتيجة، وعدا ذلك فإن مرافق الحياة في تلك البلاد، قد استولي عليها جميعاً، فالمسلم لا يتمكّن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة وبأية حرفة تؤمن معاشه، فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول في البلاد لتوسيع نطاق عمله، بل إنهم يحددون له المبالغ التي يمكنه أن يتاجر بها والأيام التي يمكنه أن يتغيبها في الأقطار المجاورة وصنف البضاعة، وإذا تغيب عن الأجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له تسحب من يده الإجازة ويعاقب؛ زد على ذلك أنهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط في دياجير الجهل فلم تكن في تلك البلاد إلا بضع مدارس ابتدائية أسست في عهد الترك يعلمون فيها الأطفال باللغة الإيطالية للوصول إلى إماتة اللغة العربية حتى لا تبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب إلا ويقضي عليها القضاء المبرم.

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التي تقطن مختلف الأقطار الإسلامية ما أحاط ببلادها من الأخطار فكرت في تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع وانتخبت هذه اللجنة ووضعت أساساً لعملها «الميثاق الوطني» وهذه مواده.

1 - تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

2 - دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

3 - انتخاب الأمة مجلساً حائزاً على الصلاحية التي يخوله إياها الدستور.

4 - اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم.

5 - المحافظة على شعائر الدين الإسلامي وتقاليد القطرين في جميع أرجائه.

6 - العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية.

7 - العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.

8 - تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي.

ومنذ تأسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها القضية بشتى الوسائل الداخلية في حيز إمكانها، فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التي تتمشى عليها الدولة الإيطالية في تلك البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل، وهي ترسل في كل موسم حج إلى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين في جميع الأقطار علماً بما هو حادث في تلك الديار النائية، ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست وبينت له عقم سياسة الحديد والنار التي يتعقبها في طرابلس وبرقة ولكن نصحها له لم يزده إلا غروراً وعتواً كبيراً، وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لا يرضيهم إلا تمزيق اللحوم والولوغ في دم البشر.

لذلك يتحتّم على المسلمين الاهتمام بإخوانهم في الدين والقومية في تلك البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت في وجوههم السبل إلا سبل الموت، وفي الموت راحة البائسين ولطالما ملأنا الفضاء بأصواتنا ورفعنا شكوانا إلى العالم الإسلامي ليصرخ في وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم ويؤوبون إلى رشدهم رحمة بالإنسانية وشفقة على البشرية، ولكن أنى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعتهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب، ولما كان المؤتمر الإسلامي الموقر من ضمن واجبه التفكير في مثل هذه الشؤون الهامة فها أننا نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التي يجب العناية بها، فإن ذلك الشعب المفجوع في وطنه ودينه إذا لم تشمله عناية المخلصين من إخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح «لا سمح الله» أثراً بعد عين وفي ذلك ما فيه من المسؤولية الكبرى والبلاء العظيم.

فيا أيها السادة الكرام:

إن الشعب الواقف في وجوه أعدائكم منذ إحدى وعشرين سنة هو منكم، والدين المهان في تلك الديار هو دينكم، وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله هم شهداؤكم، هنالك في تلك الصحارى المحرقة والفيافي المقفرة إخوان لكم ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

أجل؛ إن إخوانكم في تلك الديار النائية يستصرخونكم ويناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شؤونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا، وبذلك تفقدون قطراً إسلاميًا فتحه جدودكم الكرام ورفعوا فيه راية الإسلام منذ أربعة عشر قرناً.

وقد أصبيت اليوم تلك التربة التي خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء تمطر ظلماً وجوراً على إخوانكم البؤساء، هناك تسمعون الصراخ والعويل والبكاء والنحيب، هنالك

الإنسانية المعذبة، هناك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار، ولا منجد، ولا مغيث، ولا معين.

فإن في تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم ويدافعون عن كيانهم، وعدوهم الجائر يتربص بهم الدوائر، فنرجو أن تفكروا فيما يخفف عنهم المصائب التي تحل قبل أن تمزقهم القوى الغاشمة ولا نخال إنها تعوزكم الوسائل لمد يد المساعدة لأولئك البؤساء وأنتم رجال الإسلام الذين يمثلون (400) مليون مسلم في الكرة الأرضية، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه[1].

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات
الطرابلسية البرقاوية
بشير السعداوي
26 رجب سنة 1350هـ
6 كانون الأول سنة 1931م

لقد تزعم اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية السيد بشير السعداوي ويعتبر من الشخصيات الفريدة في التاريخ الليبي المعاصر، فقد قام بدور فعال في حركة الجهاد التي كانت تتصدى للاستعمار الإيطالي في ليبيا، وبعد أن أخضعت إيطاليا منطقة طرابلس بالكامل وتوقفت حركة الجهاد من الإقليم اختار بشير السعداوي العيش في المهجر ولكن نشاطه الجهادي السياسي المعادي للاستعمار الإيطالي في الخارج لم يتوقف، وظل يحرض الليبيين على الصمود في وجه الممارسات الإيطالية الغاشمة وأخذ يحث الدول والشخصيات العربية والإسلامية على مساندة الشعب الليبي، وتقديم كافة صور الدعم الممكنة له، واستفاد من عمله كمستشار للملك عبد العزيز في التعريف بالقضية الليبية.

استمرت الجمعية الطرابلسية البرقاوية في عملها وفي عام 1940م أعيد تشكيل الجمعية من جديد في دمشق برئاسة الدكتور كامل عيد يضم إليه نخبة من أفاضل المجاهدين، كالسيد عبد الغني الباجقمي أميناً للسر، وأبي بكر قدورة وغيرهما، وبقيت الجمعية تعمل من ذلك الحين تحت إرشاد الأمير إدريس وتوجيهاته[2].

خامساً - إيطاليا تحتل الحبشة:

كانت إيطاليا تسعى حثيثاً لتحقيق طموحاتها الجنوبية الهادفة إلى إنشاء إمبراطوريتها القديمة في إفريقيا الشرقية ولذلك أغارت على الحبشة واحتلتها بالقوة، وتمت السيطرة التامة في

---

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (3/ 385).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(375).

عام 1936م، وكان الليبيون المجندون من قبل إيطاليا وقوداً لتلك المعارك المحرقة، حاولت عصبة الأمم أن تنزل العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ولكن بدون جدوى، وأصبحت الحبشة جزءاً من إمبراطورية إيطاليا واتخذ ملكها لقب إمبراطور أثيوبيا، وكان من نتائج ذلك الاحتلال أن تغيرت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا لمصلحة المجاهدين في ليبيا.

وقامت بريطانيا بالاتصال بالأمير إدريس عن طريق الكولونيل برملو (بك) ورتب لقاءً بين إدريس السنوسي وأدميرال الأسطول الإنكليزي الرابض بالإسكندرية، وتحدث الأدميرال إلى الأمير السنوسي عن المستقبل الطيب الذي ينتظر بلاده ولكن تلك المقابلة والأحاديث لم تؤتِ ثمارها؛ لأن بريطانيا لا ترغب في إعلان الحرب على إيطاليا. وكان رجال حكومتها شديدي الحرص على السلم في أوروبا باسم سياسة التسكين والتهدئة ولذلك رفعت العقوبات الاقتصادية عن إيطاليا نهائيًا في عام 1937م، وترك أمر الليبيين لأهله، وهكذا منطق المصالح ينظر للأحداث.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية أصبح البريطانيون يسعون لإيجاد تحالف قوي مع المعارضة الليبية ومدوا خيوطهم لكافة المعارضين وخصوصاً أقواهم: الأمير إدريس السنوسي.

المبحث الثاني
الحرب العالمية الثانية

إن الحرب العالمية الثانية آية من آيات الله في تصريف أمر الدول والشعوب والأمم وفق سننه وقوانينه في المجتمعات البشرية، ومن السنن الواضحة في حياة الأمم أنه عندما تتجبر أمة من الأمم وتعلو في الأرض ويصيبها البطر والكبرياء يهيء الله لها أسباب الانهيار والزوال قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: 6 - 14].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي؛ فعصوا وفسقوا فيحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم، وفي قراءة ﴿أَمَّرْنَا﴾[1] بالتشديد أي؛ جعلناهم أمراء، والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله وليس كل ثراء ترفاً[2].

إن هلاك الأمم يكون كذلك بفشو الظلم وعدم إقامة العدل، فلقد أمر سبحانه وتعالى بالعدل وحرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»**[3].

لقد اختلت الموازين وانعدمت القيم وتحكم الجبابرة الطغاة في المسلمين المستضعفين ووزع المجتمع بين سادة (الإيطاليين) وعبيد (الليبيين)، وأرادت حكمة الله ومشيئته أن يخلص الشعب المظلوم من القوى الباغية فجاءت الأسباب التي قادت الأمم المتجبرة إلى الحرب العالمية الثانية.

بدأت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939م بالهجوم الألماني النازي على بولندة، وحرصت إيطاليا في بداية الأمر على عدم الدخول فيها حتى إذا رأت فرنسا تسقط أمام الجيوش الألمانية؛ أعلنت الحرب على إنكلترا وفرنسا في 10 يونيه 1940م فمهدت بذلك العمل إلى زوال

(1) انظر: تفسير ابن كثير (5/ 58).
(2) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، للوابل، ص(65).
(3) رواه مسلم(4/ 1944) رقم (2577).

إمبراطوريتها الإفريقية وانهيار دولتها الفاشيستية في النهاية، وكان دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا فرصة ثمينة بالنسبة لليبيين في المهجر وفي أوطانهم ينتظرونها للتحرر والخلاص، واسترداد حقوقهم التي اغتصبها العدو في أعوام طويلة، فما دخلت إيطاليا الحرب حتى شرع الليبيون في العمل، واتصل فريق منهم بالمفوضية الفرنسية بالقاهرة وغادروا مصر فعلاً إلى الجزائر حيث اتصلوا بالجنرال (نوجس) واتفقوا معه على أن يجهزوا حملة من الليبيين الموجودين في الجزائر وتونس للعمل ضد إيطاليا في ليبيا إلا أن هذا المشروع لم ينفذ بسبب استسلام فرنسا للزحف الألماني.

وكان الأمير إدريس في مصر يتحين تلك الفرصة بمجرد أن تحقق بأن الحرب العالمية لا محالة واقعة، فشرع بجمع زعماء الليبيين والتشاور معهم ودراسة احتمالات الموقف، ووضع الخطط المناسبة التي يجب أن يسيروا عليها وعقد الزعماء الليبيين اجتماعاً تاريخيًا في منزل الأمير إدريس السنوسي بالإسكندرية لبحث المستجدات واتخاذ قرار نهائي، وكان تاريخ ذلك الاجتماع 6 رمضان 1358هـ/ 20 أكتوبر 1939م اجتمع فيه حوالي أربعون شيخاً من رؤساء الليبيين وزعمائهم الموجودين بمصر في منزل الأمير إدريس في جهة فكتوريا برمل الإسكندرية، وظلوا يبحثون ثلاثة أيام بتمامها، وأسفر تبادل الرأي عن اتخاذ قرار بتفويض الأمير في أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية أو الحكومة الإنكليزية بشأن تكوين جيش سنوسي مهمته الاشتراك في افتتاح الأقطار الليبية واسترجاع أرض الوطن عند دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، ووقعوا على وثيقة تاريخية مهمة في يوم 9رمضان 1358هـ/ 23 أكتوبر 1939م جاء فيها: (بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، قد اجتمع زعماء ومشايخ الجالية الطرابلسية البرقاوية المهاجرون بالديار المصرية في اليوم السادس من شهر رمضان المعظم 1358هـ بالإسكندرية وتشاوروا في حالتهم الاستقبالية وقر قرارهم على انتخاب من يمثلهم في كل الأمور ويعرب عن آرائهم وبذلك وضعوا ثقتهم في سمو السيد محمد إدريس السنوسي الذي يمثلهم تمثيلاً حقيقيًا؛ لما له من المكانة الرفيعة في نفوسهم حيث يرونه أحسن قدوة يقتدى بها. وقد قبل منهم ذلك على أن تكون هيئة منتخبة شورية مربوطة به ومربوط بها لتكون الأداة المبلغة والمعربة عن منتخبيها وهي التي تمثل جميعهم تمثيلاً صحيحاً، وأن يعين وكيلاً لها يقوم مقامه في حالة الغياب ويكون من أفراد الهيئة في حالة حضوره، وللهيئة الحق في تثبيت هذا الوكيل أو رفضه بأغلبية الأصوات وعليه حرر هذا التوقيع رؤساء القبائل الطرابلسية البرقاوية، والمولى سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه)[1].

وكان عدد الذين وقعوا على هذا التفويض من ترهونة، ومصراته، وبنغازي، وورفلة،

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(379).

وغريان والقصور، والمنفة، والعواقير، والبراعصة، والعبيد، والمغاربة، والحاسة وغير ذلك من القبائل الطرابلسية البرقاوية واحداً وخمسين شيخاً منهم من المجاهدين القدماء، عبد السلام الكزة عن قبيلة العواقير، وصالح الأطيوش رئيس قبيلة المغاربة، وعبد الحميد العبار، وعون محمد سوف، وأحمد شتيوي، وعبد الحميد أبو مطاري، ومحمد توفيق الغرياني، وإبراهيم أحمد الشريف وغيرهم[1].

وبادرت (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي) بعقد اجتماع في دمشق في يوم29 شوال 1358هـ واطلعت على صورة القرار الموقع عليه من زعماء ورؤساء المجاهدين في مصر بتاريخ 9 رمضان 1358هـ/ 23 أكتوبر 1939م ووافقت عليه وقالت في بيان لها: (إن جميع الزعماء ورؤساء القبائل وكبار المجاهدين بدون استثناء اتفقت كلمتهم وتعاهدوا جميعاً على أن يدينوا بالولاء والطاعة والإخلاص لسمو الأمير إدريس المهدي السنوسي، وأنهم عقدوا عليه الآمال في حياتهم ومستقبلهم ليمثل أمام الحكومات والسلطات والهيئات أماني القطر الطرابلسي البرقاوي تمثيلاً حقيقيًا صحيحاً، ويتكلم باسم الجميع على أن تكون هيئة منتخبة منهم وله نائب يقوم مقامه عند مسيس الحاجة، وتليت التوقيعات فتبين أنها هي توقيعات من بأيديهم الحل والعقد في القطر الطرابلسي البرقاوي من الأحرار الذين عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن، وحقوق الأمة، فكان ما جاء فيه من الغاية السامية أبلغ الأثر في نفوس الجميع؛ لأنه حقق رغباتهم الصادقة في توحيد الكلمة، وبرهن على ثبات هذه الأمة في المطالبة بحقوقها وولائها بالإمارة أولاً وآخراً وهو محط آمال الجميع في الحاضر والمستقبل لإخلاصه للوطن ودفاعه المجيد عنه ولا يوجد من يشذ عن آرائه الصائبة ولا من يخالفه في التضحية بالنفس والنفيس في سبيل سعادة الوطن والأمة وإعلاء كلمة الله، قرر الجميع تأييد قرار إخوانهم الطرابلسيين والبرقاويين في القطر المصري بدون قيد ولا شرط، وكلفت الهيئة تنظيم هذا القرار الإجماعي للإعراب لسمو الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في الثقة التامة به والولاء الكامل له ما دام متمسكاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ متخذاً التأهبات اللازمة للقيام بعمل جدي حين تدعو الظروف إليه، وهذه تواقيعنا تشهد أمام الله والوطن بعهدنا هذا، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه، والله ولي الجميع)[2].

وشرع إدريس السنوسي في مفاوضة الإنكليز، فأسفرت مباحثاته عن السماح له بتشكيل فصائل من القبائل الليبية المهاجرة لاسترداد حريتها واستخلاص بلادها من العدو الإيطالي، وإعادة الاستقلال للبلاد، ودعا الأمير إدريس مشايخ القبائل وزعماء المجاهدين الموجودين

---

(1) السنوسية دين ودولة، ص(379).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(380).

بمصر أو أولئك الذين كانوا في خارجه وذلك للاجتماع في مكان بالقاهرة في يوم الخميس 8 أغسطس سنة 1940م من أجل دراسة الأحداث والتطورات الأخيرة.

وانعقد الاجتماع قبل الموعد المعين بيوم واحد في أحد أحياء القاهرة واستمر البحث طيلة يومي 7، 8 أغسطس، وفي يوم 9 أغسطس سنة1940م وصلت الجمعية الوطنية الليبية إلى القرارات التالية:

1 - وضع الثقة في بريطانيا العظمى التي مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسي البرقاوي من براثن الاستعمار الإيطالي الغاشم.

2 - إعلان الإمارة السنوسية والثقة بالأمير السيد محمد إدريس السنوسي المهدي المبايع له بالإمارة على القطرين.

3 - تعيين هيئة تمثل القطرين؛ طرابلس وبرقة تكون مجلس شورى للأمير المشار إليه.

4 - خوض غمار الحرب ضد إيطاليا بجانب الجيوش البريطانية وتحت علم الإمارة السنوسية.

5 - تعيين حكومة سنوسية تدير الشؤون اللازمة في الوقت الحاضر مؤقتاً.

6 - تعيين هيئة للتجنيد يكون مقرها ضمن مقر الحكومة السنوسية.

7 - التوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير المشار إليه بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد وإدارة الحكومة وتعيين ميزانية خاصة ونظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطني حسب عوائد وتقاليد العرب.

8 - تفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقيات، والمعاهدات السياسية، والمالية، والحربية التي توفي هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله[1].

وفي يوم 9 أغسطس حضر الجنرال ويلسن إلى مكان الاجتماع فاستقبله سمو الأمير، وألقى الجنرال على الحاضرين كلمة قال فيها: (إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة في سحق العدو المشترك هو تحرير لوطنكم واسترداد أملاككم وحريتكم واستقلالكم) ثم أضاف أنه على استعداد لتزويد الجيش بكل ما يلزمه من أسلحة وعتاد[2].

وقد تحدث الأمير إدريس السنوسي بنفسه عن تلك الأحداث فقال: (عندما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا بتاريخ 10 يونيه 1940م اتصل بي في مقر إقامتي بمنطقة الحمام الجنرال ويلسون، آمر القوات البريطانية في مصر تحت قيادة الجنرال ويفل، وطلب مني المساعدة في

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(381).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(382).

المجهود الحربي ضد الإيطاليين، فدعوت الزعماء الليبيين إلى عقد اجتماع بالقاهرة خلال شهر أغسطس، لمناقشة الإجراء الذي ينبغي لنا اتخاذه لتحديد موقفنا من الحرب، ولم يبد البرقاويون أي اعتراض على انتهاز الفرصة لاستئناف الجهاد ضد الطليان، باعتبار أنه لا يمكن أن يعود علينا إلا بالكسب، فنحن لن نخسر أكثر مما خسرنا على أي حال.

ولكن موقف الطرابلسيين كان أكثر حرجاً بسبب الخوف من أن تنتهي الحرب بانتصار دول المحور، فيأخذ عليهم الطليان أنهم حاربوا في صفوف الأعداء، وكنت شخصيًا على يقين كامل من أن النصر النهائي سوف يكون نصيب الحلفاء لإيماني بحتمية انتصار الحرية على الطغيان، وعملت جهدي لإقناع الحاضرين بأن يضعوا ثقتهم في قدرة بريطانيا بحيث نوحد كلمتنا في مساندتها في الحرب.

وجاء قرار الأغلبية (باستثناء بعض الطرابلسيين) معبراً عن الثقة في الحكومة البريطانية، والاعتراف بي مفوضاً عن الليبيين في علاقتهم مع بريطانيا، والاتفاق على إنشاء جيش ليبي يسمى (القوة العربية الليبية) للقتال إلى جانب القوات البريطانية ضد الإيطاليين، فأصدرت تعليمات فورية بالبدء في تجنيد جيش من الليبيين المقيمين بمصر، وَعُين قائداً للجيش ضابط بريطاني برتبة كولونيل (أي عقيد) يدعى بروميلو سبق له العمل في خدمة القوات العربية العراقية، بينما أقيم مركز القيادة بفندق سميراميس بالقاهرة، بينما أقيم ضابط الاتصال الكولونيل آندرسون وهو من خيرة المتخصصين في الدراسات العربية، وقد أمضى فترة من الوقت، فخبرته بالشؤون المحلية ساعدت كثيراً في تسهيل إنشاء الجيش.

وكان مكتبي في شارع بركات ومحل سكني شقة بالدور الأرضي في مبنى من طابقين بشارع حشمت باشا في حي الزمالك. . . والقوة العربية الليبية تكونت في معظمها من البرقاويين اللاجئين بمصر، ومن ضمنهم بعض المجاهدين الذين فروا بعد اشتراكهم في مقاومة الإيطاليين، ولم يلبث الجيش أن وصل إلى قوة قوامها أربع كتائب قتالية وكتيبة أركان، وكان مستودع السلاح والذخيرة ومعسكر التدريب يقع عند الكيلوا (9) بجوار الأهرام، استغرقني العمل في الإشراف على تجنيد المتطوعين ومعالجة المشاكل العديدة المتعلقة برفع مستوى القدرة القتالية للجيش الذي كان على أحر من الجمر لخوض المعركة، وبعد أول هزيمة لحقت بجيش غراسياني قرب سيدي براني في ديسمبر 1940م وقع في الأسر آلاف الليبيين المجندين بالجيش الإيطالي ونقلوا إلى معسكرات أسرى الحرب في منطقة قناة السويس؛ فأخذت أتردد على تلك المعسكرات لمحاولة إقناعهم بالانضمام إلى القوة العربية الليبية وامتنع أغلب الطرابلسيين خوفاً من تعريض عائلاتهم لانتقام الطليان من جهة؛ ولأنهم من جهة أخرى كانوا سعداء بمجرد الخروج من خضم الحرب، وفي الوقت نفسه كانت وحدات الجيش الليبي

الناشىء ترسل إلى خطوط القتال أولاً بأول حالما ينتهي تدريبها، ومنها كتيبتان شاركتا في معركة الدفاع عن طبرق عام 1941م[1].

ووجه الأمير إدريس نداء نقلته أمواج الأثير إلى شعبه في ليبيا بين لهم فيه تحالفه مع بريطانيا ضد إيطاليا وحثهم على الجهاد والعمل للتخلص من الاستعمار الإيطالي البغيض[2].

أولاً - الليبيون في الحرب:

قدم الليبيون بقيادة السيد إدريس كل ما عندهم لدعم الحلفاء ضد المحور، وكانت كتائب المجاهدين قد قامت بدور بارز في حرب الصحراء، وكذلك الأهالي المدنيون فقد كانوا يقدمون للجيش البريطاني مساعدات جريئة بعد أن أصبحت بلادهم كلها ميدان قتال هائل مزروع بالألغام، وكانت قبائل برقة تأوي الجنود البريطانيين الفارين من الأسر، وقامت بتوصيلهم إلى مواقع وحداتهم التي ضلوا طريق العودة إليها في بعض الأوقات، وكان هذا الموقف عظيم الأهمية والفائدة للوحدات البريطانية العاملة خلف خطوط الأعداء، مثل مفرزة العمليات الصحراوية البعيدة المدى التي كانت تغير على المواقع الأمامية للإيطاليين في الصحراء الليبية، ومثل قوة بنياكوف لحرب العصابات التي اشتهرت باسم (جيش بوسكي الخصوصي).

وقد اعترف البريطانيون رسميًا بأهمية المساعدات التي قدمها السنوسيون أثناء الحرب، وذلك حين نوه بها وزير الخارجية إيدن في تصريح أدلى به أمام مجلس العموم البريطاني بتاريخ 8 يناير 1942م[3] وفيما يلي نصه:

(اتصل السيد إدريس السنوسي بالسلطات البريطانية في مصر قبل مضي شهر واحد على سقوط فرنسا، بينما كان موقفنا في إفريقيا متأزماً للغاية وبعدئذ تم إنشاء قوة سنوسية من بين أنصاره الذين فروا من الاضطهاد الإيطالي في فترات مختلفة خلال العشرين سنة الماضية، وهذه القوة أدت عدة مهام جديرة بالاعتبار أثناء المعارك الظافرة التي دارت بالصحراء الغربية شتاء عام 1940 - 1941م، كما أنها تقوم بدور فعال في سياق الحملة الجارية حالياً وأود أن أنتهز هذه الفرصة للتعبير عن مشاعر التقدير الحار التي تحملها حكومة صاحب الجلالة للمساهمة التي قدمها ويقدمها السيد إدريس السنوسي وأنصاره دعماً للمجهود الحربي البريطاني، ونحن نرحب باشتراكهم مع قوات صاحب الجلالة في مهمة دحر العدو المشترك، وأن حكومة صاحب

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(64، 65، 66).
(2) انظر: إدريس السنوسي، للأشهب، ص(76).
(3) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(66، 67).

الجلالة المصممة على ألا يعود السنوسيون في برقة بأي حال من الأحوال للوقوع تحت السيطرة الإيطالية مرة أخرى لدى انتهاء الحرب)[1].

ثانياً - وصف آثار الحرب على برقة:

كان غرب مصر وبرقة مسرحاً لأطول حملة في الحرب العالمية الثانية، وضربت المدن والموانىء والقرى والمطارات والطرق والتركيبات التي أقامها الطليان، وتحطم أمل إيطاليا في استعمار ليبيا، وخلال احتلال بريطانيا برقة سنة 1940م - 1941م واندحار الطليان أتيحت فرصة لليبيين للجهاد ضد الإيطاليين ومستعمراتهم فلم يقصروا في ذلك، وبهجوم روميل الألماني المشهور ربيع 1941م أجبر البريطانيين على التقهقر إلى مصر وبحلول شتاء 1941م - 1942م عندما طردت جيوش المحور مرة أخرى من برقة كانت الديار الليبية ترزح تحت الدمار والخراب.

وقد كتب الصحفي البريطاني مورهيد عن ذلك فقال: المدينة الجميلة (درنة) قد أحرقت ونهبت وخربت المزارع الإيطالية، وأما بنغازي في شتاء 1941م (فلم تعد مدينة البتة) فقد حطمتها المتفجرات الثقيلة وتركتها خالية خربة ومحزنة باردة. وأغلقت المتاجر والأسواق، وتتابع الخراب بعد الخراب واستمر سلاح الطيران البريطاني مدة عام كامل يقصف المدينة ليل نهار حتى أصبحت أثراً بعد عين[2] ومرة أخرى أجبر البريطانيون على التخلي عن برقة، ولم يعودوا لاحتلالها إلا في خريف 1942م للمرة الثالثة والأخيرة، وأقلع الاستعماريون الإيطاليون الذين كانوا قبل سنوات أربع قد حاولوا أن يدفعوها بطابع الاستقرار، ولكنهم فرّوا إلى إيطاليا هاربين، أما بقية المدنيين منهم فقد رجعوا لبلدهم أو هربوا إلى طرابلس برًا أو بحراً أو جوًا.

تسليم طرابلس:

وفي يناير 1943م كان جيشان من جيوش الحلفاء يلتقيان حول طرابلس: جيش مونتجمري الثامن وجيش فرنسي بقيادة ليكلرك الجنرال الفرنسي ويصف حاكم طرابلس الإيطالي الذي سلم المدينة للحلفاء تلك اللحظات الرهيبة بالنسبة له: (كانت تلك المقابلة أول مقابلة مع القوات البريطانية، وكنا نتصور أنها ستكون لحظة مهيبة أو عنيفة، وكنا نتوقع عدوان المعتدي ونعد أنفسنا لما يجري وأصبح الحاكم واحداً من الفاشيست الكثيرين الذين ذهلوا في ذلك الصباح، لقد ذهبوا كلهم - القادة الذين أقسموا اليمين على الدفاع عن المدينة حتى آخر حجر - كلهم هربوا وأقلعت آخر سفينة إسعاف من زوارة، لا تحمل الجرحى، ولكن تحمل

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(67).
(2) انظر: تاريخ ليبيا، ص(172، 173).

الضفائر الذهبية والصدور المحلاة بالحرير والأوسمة) ويضيف حاكم طرابلس الإيطالي في مرارة: (إن المدنيين الذين لا يحملون الأوسمة هم الذين بقوا هناك) وفي صباح 23 يناير تسلّم (مونتوجمري) عند باب ابن غشير المدينة بصفة رسمية بحضور الحاكم ونائبه ورئيس البلدية واحتلت بقية البلاد وانتزعت من الهيمنة الإيطالية بينما الطبل الأجوف موسوليني يحث شعبه على تحمّل خسارة طرابلس (بشجاعة ورجولة رومانية) وحينها كان وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط يعلن بأن قادة الفاشيست بليبيا سيعتقلون، وأن المنظمات الاجتماعية والنوادي الإيطالية ستغلق وأن المدارس الفاشيستية ستنتهي.

ثالثاً - أثر الليبيين في القتال:

لعب الجيش الليبي دوراً نشيطاً في حملات 1940 - 1943 وساعد المدنيون الليبيون جيوش الحلفاء المقطوعة خلف خطوط المحور، وترك المجندون الجيش الإيطالي كلما واتتهم الفرصة، والتحقوا بالبريطانيين وقد انتقد بعض القادة من الليبيين سياسة إدريس في تأييد بريطانيا قبل أن يحصل على ضمانات أكيدة باستقلال ليبيا، وزاد ضغطهم لدرجة إن بعض القادة اضطر أن يهدد بالانسحاب من التعاون مع بريطانيا، وكان كل ما وعد به البريطانيون علانية هو أن أعلن إيدان وزير الخارجية في مجلس العموم في 8 يناير 1942 (بأن حكومة صاحب الجلالة مصممة في نهاية الحرب على أن لا يرجع السنوسيون في برقة بأي حالة تحت السيطرة الإيطالية).

وإعلان (إيدان) المذكور لم يعد حتى باستقلال برقة، فضلاً عن عدم ذكره لمنطقة طرابلس، والواقع يمكن أن يفهم منه الإنذار المسبق بنية السيطرة البريطانية وقوة أخرى ومع ذلك وبعد الرفض البريطاني لحق إدريس في المطالبة باستقلال ليبيا في فبراير 1942م قنع إدريس بالوعود الشفوية التي أعطيت له[1] ومعلوم أن الضعيف لا يستطيع أن يملي شروطه في عالم السياسة والهيمنة على الشعوب، ولكن الضعيف إن دخل في هذه اللعبة عليه أن يسمع ويطيع وينفذ ويرضى بالفتات على الموائد.

لقد اعترفت بريطانيا بالدور الخطير الذي قام به الليبيون في الحرب العالمية الثانية ضد المحور، وتحدثت الصحافة في تلك الفترة عن دور الليبيين في تلك الحرب، فبعنوان «صفحة جديدة في تاريخ ليبيا» للمستر هـ. م فوت H.M.FOOT، مساعد المعتمد البريطاني في عمان، ونائب الحاكم العسكري البريطاني في برقة سابقاً، مجلة المنتداء الفلسطينية العدد السابع (أكتوبر سنة 1943م) قال:

---

(1) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص(175، 176).

قليل من الناس يذكر حملة الصحراء الغربية المصرية في الحرب الماضية أيام كنا نحارب عدواً غير جيش ألمانيا الإفريقي وغير الجيوش الإيطالية، نعني بهذا العدو جماعة صغيرة من الأعراب كانت تركب الإبل وليس لديها من السلاح إلا النزر اليسير، ولكنها مع ذلك شغلت جزءاً هامًا من القوى البريطانية طول الحرب الماضية تقريباً، ولم يكن بين هؤلاء الليبيين وبين بريطانيا العظمى خلاف، ولكنهم عقدوا النية على طرد الإيطاليين من بلادهم فتصدوا لمنازلة قوى الحلفاء الجبارة.

إن المقاومة التي أبداها هؤلاء العرب القلائل ضد الفرق الإيطالية تلك المقاومة الطويلة الباسلة، لهي قصة رائعة من قصص البطولة، فقد أمضوا في كفاحهم ثلاثين عاماً بين تلال برقة وصحاريها، وفي أثناء ذلك علق زعماؤهم على أعواد المشانق وصودرت أملاكهم وقتلت مواشيهم.

أما الأهالي أنفسهم فإنهم سيقوا مع أطفالهم إلى معتقلات كبيرة في صحراء العقيلة ومع كل ذلك لم يدب اليأس في قلوبهم، وإنه ليتسنى للذين خالطوا هؤلاء العرب منا واستمعوا في مضاربهم إلى حديث الثورة التي أشعلوا نيرانها ضد الطليان أن يتفهموا قوة كفاهم وما ينطوي عليه من مجد وفخار، فكثير من رجالهم ما زالوا يحملون آثار جراح بليغة، ويندر أن تجد عائلة منهم لم تصب في فرد من أفرادها على يد الإيطاليين.

إن تلك الشجاعة التي اشتهر بها الليبيون عن جدارة واستحقاق قد تبدت مرة أخرى في الحملات الأخيرة، فنحن لا نزال نجهل قسطاً كبيراً من المساعدة التي قدموها لنا خلف خطوط الأعداء، كما أن مساعدتهم الفردية لكثير من الضباط البريطانيين شواهد ناطقة على الكرم العربي وحب العرب للمجازفة.

يقول هؤلاء الضباط إن كل خيمة عربية كانت بمثابة ملجأ، وإن كل عربي كان بمثابة دليل، ومن طريف ما يروى أن أحد المدفعين البريطانيين أصيب بجرح فآواه عربي إلى أحد الكهوف وسهر على راحته ستة أشهر، فلما تماثل للشفاء حمله فوق جمله مسافة 400 ميل وأوصله إلى العلمين، قام العربي بكل ذلك وسلم الجندي الجريح إلى إحدى الوحدات دون أن يعلن عن اسمه أو يطلب مكافأة، وليس هذا الحادث هو الوحيد من نوعه، فإنه ما كان ليتسنى لمئات من جنودنا أن يعودوا إلى وحداتهم دون مساعدة العرب، تلك المساعدة التي كانوا يقومون بها عن طيب خاطر والتي كانت تعرض حياتهم لخطر الموت، ولم يتطرق الوهن إلى قلوب العرب حين كنا نتراجع تراجعاً كليًا وحين ظن الناس أن الدائرة قد دارت علينا، بل كانوا أبداً علي استعداد لتقديم المساعدة.

وقد جرى أثناء احتفال عظيم في درنة أقامه الطليان على أثر استيلاء المحور على طبرق أن كان بين النظارة ضابط بريطاني متخف، فلم يفكر واحد من الأهلين أن يكشف أمره ويفضحه.

ومن الطبيعي أن تتضاءل قوة العرب بعد كفاح دام ثلاثين سنة، فقد انتهت ثورتهم بسقوط كفرة عام 1929م، وكانت النتيجة أن انتشر الليبيون المنفيون في أنحاء الشرق الأدنى، أما الذين بقوا منهم في برقة فقد أرغموا على قبول حكم الموظفين الطليان والقانون الإيطالي أيضاً، وشر من هذا أن اللغة الإيطالية حلت محل اللغة العربية في المدارس وأخذ الجيل الناشىء ينسى العربية.

ولقد كنت أخشى أن نجد فيهم شعباً متخاذلاً جباناً، ولكن الأمر كان لحسن الحظ عكس ذلك، فالشيوخ والزعماء مستقيمون في معاملاتهم، عادلون في أحكامهم، يتصفون بالشجاعة والصراحة، نعم إن وقت التخلص من الاضطهاد قد جاء وكان مجيئه في الوقت المناسب - قبيل فوات الأوان - لو تأخر الخلاص نصف جيل لتمت عملية تحويل الشباب العربي إلى خدم أذلاء لإيطاليا.

ولو سئلت عن أهم ما يستلفت النظر في برقة لقلت أنه النشاط العجيب والعزيمة الماضية التي يتحلى بها قوم يجمعهم دين واحد، وتجمعهم شجاعة يمتاز بها كل واحد منهم ومقاومة مستمرة للاضطهاد، فقد مضى عليهم ثلاثون عاماً وهم يقاسون الأهوال، وترك ذلك في نفوسهم أثراً سيئاً فهم لا يتحلّون باللطف الزائد والدماثة التي يتحلى بها العرب في سائر الأقطار، وتنقصهم خبرة الآخرين ومعارفهم، أما التقاليد العربية القديمة وأعني بها الكرم والشجاعة فلا ينازعهم فيها منازع[1].

وأما الأستاذ (ف. بنيكوف) فقد ألقى محاضرة أذيعت في محطة لندن اللاسلكية في 31 مايو سنة 1947م بعنوان عرب ليبيا الكرام جاء فيها: اشتركت في القتال أثناء الحرب الماضية بين بلدان مختلفة مدة خمس سنوات متوالية وما زلت أستعيد ذكراها جميعاً بالغبطة والسرور لا لشيء سوى لأني رجل حرب وقتال ونزال، ولكن المدة التي أحمل لها أطيب الذكريات هي تلك التي قضيتها في برقة بين الاحتلال البريطاني الثاني للجبل الأخضر وتحرير البلاد نهائيًا بعد معركة العلمين، ومن أسباب ذلك أنني وإن كنت إنكليزيًا وربيت في إنكترا على الطريقة الإنكليزية إلا أني أجد الحياة مع العرب في الجبل الأخضر أخف ظلاً وأسعدها حالاً من الحياة في إحدى المدن الغربية الكبيرة، وهناك سبب آخر هو أني وثقت عرى الصداقة مع بعض رجال القبائل العربية هناك، وهم رجال يمتازون بذكاء ووقار وشجاعة عظيمة وخلال سامية وأخلاق فاضلة ولا تقل منزلتهم في نفسي عن منزلة أي شخص آخر من بني وطني وجلدتي.

ولعلي أحمل للجبل الأخضر هذه الذكريات الطيبة لسبب ثالث وهو أن العرب هناك

---

(1) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، د. محمد فؤاد شكري، ص(107، 108).

علموني طرقاً جديدة في فنون الحرب والقتال علمتها بدوري فيما بعد لزملائي الجنود ومارسناها على نطاق واسع في إيطاليا وغيرها بنجاح وتوفيق.

زرت الجبل الأخضر لأول مرة عندما احتللنا مدينة درنة في سنة 1941م، وهناك وثقت عرى الصداقة والمودة مع كثيرين من العرب، أخص بالذكر منهم الشيخ عبد القادر بوبريدان والشيخ علي بو حامد وكلاهما من قبيلة العبيدات، وبعد بضعة شهور منيت الجيوش البريطانية بنكسات متوالية، واحتل العدو برقة مرة أخرى حتى بلدة غزالة غربي طبرق، وكانت هيئة القيادة البريطانية العليا في القاهرة في حاجة ماسة إلى معلومات عن حركات العدو، فأرسلت بناء على طلبي لجمع تلك المعلومات بمساعدة العرب في منطقة تمتد من بني غازي إلى غزالة، ومن المهام الأخرى التي كلفت بها أن أنسف مستودعات العدو وطائراته.

أنزلتني إحدى الدوريات مع جماعتي في إحدى الأمسيات بالقرب من (بلدة الزلخ) ومن هناك امتطيت صهوة الخيول والجمال إلى المكان الذي نقصده، وكان بين أفراد جماعتي عربيان: أحدهما الملازم سعد علي رحومة وهو من الجيش السنوسي التابع للشيخ السيد إدريس السنوسي، والآخر جندي عادي، وزرت في المرحلة الأولى معظم قبائل العبيدات الغربية وبعض قبائل البراعصة والدرسة، وقوبلنا في كل مكان بالترحيب الودي وكرم الضيافة رغم أن البلاد بأسرها كانت في قبضة العدو رغم ما يتعرض له العرب من أخطار محققة، إذا علم أنهم كانوا يأوون ضابطاً بريطانيًا، وآمل أن يكون كل من السيد عبد القادر بوبريدان والسيد علي بو حامد ما زالا على قيد الحياة إلى الآن، وأن يذكرا مجلساً عقدناه في ذلك الوقت مع مشايخ قبيلة العبيدات الآخرين في مكان لا يبعد كثيراً عن مراكز العدو واستطعنا الحصول على معلومات على درجة عظيمة من الخطورة والأهمية، بل ويمكنني أن أقول الآن: إن الحرب في الصحراء ربما اتخذت شكلاً آخر بدون تلك المعلومات، ويرجع معظم الفضل في ذلك إلى إخلاص العرب الذين يرقبون بعين لا يغمض لها جفن طريق مرتوبة، وأولئك الذين أخذوا يتنقلون من بني غازي إلى المرج إلى القبة إلى درنة إلى المخيلي العزيات للحصول على المعلومات عن حركات العدو وخططه الحربية.

وكان جمع المعلومات جزءاً يسيراً من واجباتنا، فمن عملياتنا الهجومية الموفقة العديدة غزوة قمنا بها في شهر يوليو 1942م بمساعدة العرب الذين وضعوا خطتها بدقة ومهارة لنسف مستودع كبير للبترول خارج بلدة العقبة مباشرة، وكانت تدور في تلك الوقت معركة هامة في عين غزالة، وكان لخسارة العدو تلك الكمية الهائلة من البترول في هذا الوقت الحرج أكبر الأثر في عرقلة عملياته الحربية.

وأصبنا بعد ذلك بنكبات متوالية وفقدنا (طبرق) ولو لم تكن للعرب قلوب قدت من

الصلب جرأة وشجاعة لاعتقدوا أننا فقدنا كل شيء ولحاولوا الفرار بأنفسهم، ولكنَّ أصدقاءنا العرب وقفوا إلى جانبنا قلباً وقالباً، ولم يخن من سكان الجبل الأخضر بأسره سوى شخص واحد يجدر بي أن لا أذكر اسمه لينطوي في زوايا العار والنسيان. وقد ذهب إلى الجنرال بياتي القائد الإيطالي وأطلعه على أمرنا وأمر محطتنا اللاسلكية، ولكن خيانته لم تجده فتيلاً لأن القبائل ناصرتنا، وطافت بدوريات الجنرال الإيطالي في كل مكان إلا المكان الذي كنا فيه فجعلت منهم أضحوكة الصحراء بأسرها.

ولقد غررنا بالعدو مرات عديدة لا يتسع بي المقام لذكرها الآن، ولكن أريد أن أتحدث عن مغامرة لنا قدر لها النجاح والتوفيق بمساعدة إخواننا العرب، وقد ذهبت في إحدى ليالي الصيف إلى درنة عقب سقوط طبرق وهناك رسمنا أنا والشيخ علي البرعصي خطة لتهريب عدد كبير من الأسرى البريطانيين الموجودين في قبضة الطليان وكان بعضهم في المستشفى وبعضهم الآخر في المعسكر خارج المدينة التي كانت تعج بالجنود والألمان والطليان، وأنها كانت تضم بعض العناصر المعادية لبريطانيا في ذلك الوقت وكنت أثناء تلك الغارة أرتدي ملابس عسكرية كضابط محارب، فلم يكن عقابي إذا وقعت في يد العدو يتجاوز الاعتقال حتى نهاية الحرب، ولكن إذا قدر سوء الطالع لأحد زملائي العرب أن يقع في قبضة العدو لكان جزاؤه الموت على حبل المشنقة.

إن أنسَ لن أنسى مأدبة العشاء التي أقامها لي السيد علي قبل رحيلي حيث كنا على أحسن ما يكون من البهجة والسرور فيمكنني إذاً أن أخفي ما أشعر به من سعادة لذكريات الجبل الأخضر وأنا أعلم أن الأخطار والمشاق والأهوال لم توهن من عزائم رجاله قيد شعرة، بل أطلقت ألسنتهم بالفرح والفكاهات.

ولم أكن الشخص الوحيد الذي نعم في ظل العناية العربية الكريمة بالراحة والأمن والطمأنينة، فإن مئات من الطيارين والأسرى الفارين وغيرهم ممن ضلوا عن وحداتهم كانوا موضع عناية العرب وحسن ضيافتهم إلى أن أعادوهم سالمين إلى صفوفهم، وتتجلى قيمة هذه المعونة إذا عرفنا أن العرب أنفسهم في ذلك الوقت كانوا يعانون نقصاً فادحاً في جميع ضروريات الحياة، فلم يكن لديهم ما يكفي من الملابس، وكان الشاي والسكر أثمن من الذهب، ومع ذلك كانوا لا يتاونون عن التضحية بالقليل الذي لديهم عن رضى وطيب خاطر.

ولعلي أكون مبالغاً إذا قلت إن جميع جنود الجيش البريطاني الذي قاتلت في الجبل الأخضر يدينون بالشكر للعرب، فكثير منا مدينون لهم بحياتهم، وسوف لا ننسى كيف مهد ولاء العرب وإخلاصهم وتضحياتهم طريق النصر الأخير الحاسم.

لقد مر عرب برقة على وجه خاص بوقت عصيب حقًا، فقد خاضوا غمار حروب مستمرة

متواصلة مدة ثلاثين عاماً فقدوا فيها نصف عددهم ولكن روحهم المعنوية ما زالت قوية جبارة، وما زالوا يعيشون كما عاش آباؤهم و أجدادهم من قبل رجالاً محاربين أحراراً.

لقد أتيحت لي فرصة المعيشة مع هؤلاء القوم القليلين في العدد الأقوياء بالروح، وأستيطع أن أقول إني لا أثق في شعب آخر مثل ثقتي بهم، وأرجو أن تتاح لي فرصة زيارة أصدقائي في الجبل الأخضر، مرة أخرى، وآمل أن أراهم جميعاً في أحسن صحة وأسعد حال، وقد اتسعت مضارب خيامهم، وزادت أنعامهم وأصلحت آبارهم ونشر السلام جناحيه على ربوعهم اليانعة الخضراء[1].

هذه بعض الوثائق التاريخية المهمة من بعض ضباط الجيش البريطاني من الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية ضد دول المحور وهي تدلنا على الدور العظيم الذي قام به المجاهدون لتحرير بلادهم من إيطاليا.

رابعاً - إعلان مونتجمري بعد الاحتلال الثالث وحكم الإدارة البريطاني:

وفي أعقاب الاحتلال البريطاني الثالث لمنطقة برقة أعلن الجنرال (مونتوجمري) في 11 نوفمبر 1942م، في رسالة إلى الشعب، بأن المنطقة ستدار من قبل حكومة عسكرية بريطانية حتى نهاية الحرب العالمية، وليس حتى نهاية الحرب في شمال إفريقيا، وأضاف قائلاً: «لن تتدخل الحكومة العسكرية في المسائل المتعلقة بالشؤون السياسية الخاصة بالمستقبل ولكنها ستحكم بحزم وعدل وبالنظر إلى مصالح الشعب في البلد».

وفي يناير 1943م كانت ليبيا كلها قد احتلت، وأصبحت تحت الحكم العسكري لقوتين: البريطانية في منطقتي برقة وطرابلس، والفرنسية في فزان حسب اتفاق عقد بين الجنرال (إلكسندر) الإنكليزي والجنرال (ليكلرك) الفرنسي[2].

الطريق نحو الاستقلال:

كان طريق ليبيا نحو الاستقلال فريداً من نوعه بالمقارنة مع جميع البلدان الأخرى التي استقلت بعد الحرب العالمية الثانية، ففي سنة 1943م أصبحت القوات الإيطالية، وكذلك سلطتها لا وجود لها في البلد وحلت محلها القوات والسلطات البريطانية والفرنسية، وفي نهاية الحرب اشتركت كل من الولايات المتحدة وروسيا مع بريطانيا وفرنسا كقوى تريد (مصالح) لها في ليبيا، وتريد أن يكون لها دور في تقرير مصير مستقبلها وكنتيجة لذلك، وجهت حركة

---

(1) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، ص(110، 111، 112).

(2) انظر: تاريخ ليبيا، ص(176، 177، 178).

الاستقلال، لا كما حدث في المستعمرات الأخرى ضد القوى الاستعمارية الحاكمة، بل ضد المقترحات التي ظهرت في الحوار العالمي حول مستقبل ليبيا والنقطة التي اتفق عليها في هذا الحوار، وهي اعتبار الليبيين غير أكفاء لحكم أنفسهم وكان الرأي الغالب أن تقسم ليبيا وتوضع تحت وصاية قوتين أو ثلاثة لمدة أربع سنوات بعد الحرب.

وفي سنة 1945م، ظهر رأي قوي ضد استقلال ليبيا وبموافقة الاتحاد السوفياتي أيضاً، وكان الضمان الوحيد الذي أعطي لليبيين حول مستقبلهم هو بيان (إيدان) ولكن لم يطبق إلاّ في منع رجوع الإيطاليين إلى برقة، وكان شعبنا المنكوب في تلك الفترة خالياً من قيادة إسلامية رشيدة أو شخصيات إسلامية فعالة إذ جل القادة والدعاة استشهدوا وقتلوا وماتوا في الفترة العصيبة التي سبقت هذه الأحداث، فلم تبق إلا بعض الشخصيات السياسية الوطنية الخيرة والجمعية المحلية وبعض القيادات الدينية الضعيفة وزعماء الحركة السنوسية الذين أصبحوا يعانون من ضغط الإنجليز، وكان تعداد شعبنا قد بلغ أكثر من مليون بقليل، وكانت تجربته السياسية بسيطة وكان مستوى التعليم بينهم منخفضاً. وكانوا فقراء للغاية. إذ كان يقدر متوسط الدخل الفردي 15 جنيهاً في العام.

وقد تلا الحرب انهيار اقتصادي وتضخم خطير وانتشرت البطالة وحطمت الحرب المدن والقرى والمنشآت والطرق وخاصة في منطقة برقة، وزرعت الأراضي بالألغام لذا كانت ليبيا سنة 1945 م - وهي تحت احتلال جيوش ثلاثة - ضحية حرب وفي حاجة إلى مساعدات اقتصادية وطبية واجتماعية وفنية وغيرها.

وحكمت الإدارة الحربية البريطانية في منطقتي طرابلس وبرقة، والإدارة الفرنسية في فزان حسب شروط اتفاقية (لاهاي) لسنة 1907م الخاصة بالتصرف الحربي والعسكري.

واعتبرت ليبيا مقاطعة عدو محتلة، وكانت حكومتها، حسب القانون الدولي تقوم على أساس العناية والصيانة، وبقيت القوانين السارية المفعول زمن الاحتلال الإيطالي هي نفسها السارية المفعول بعد ذلك، مع تجريدها من العناصر الفاشيستية، ومن سوء حظ بلادنا العزيزة أن تبقى هذه الإدارات الأجنبية العسكرية طيلة تلك السنين العديدة، وأصبحت السلطات البريطانية العسكرية - التشريفية والإدارية والسياسية - كلها تصدر عن القائد العام لقوات الشرق الأوسط وعين سنة 1944م العميد (بلالكي) حاكماً لطرابلس، والعميد (ويوكان كمنج) في برقة[1].

وسيطرت بريطانيا على نواحي البلاد الإدارية واستعانت بعناصر ليبية وطورتها وأعدتها إعداداً يخدم مصالحها، وبالنسبة لفزان فعزلت عن طرابلس وبرقة وأصبحت تابعة لفرنسا التي

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(178، 179).

جعلت من فزان قلعة لها في الدفاع عن مصالحها في إفريقيا، أما بريطانيا فكانت تنظر إلى منطقتي طرابلس وفزان على أنهما ذواتي أهمية استراتيجية. وأصبحت طبرق أشبه بوصلة في سلسلة القواعد البريطانية من جبل طارق إلى سنغافورة، بينما صارت قاعدة العدم الجوية مركزاً مرحليًا على طريق جنوبي إفريقيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى، وكانت بريطانيا تفكر في أن تصبح منطقة برقة قاعدة بديلة في الشرق الأوسط إذا ما جلت عن قناة السويس، عند انتهاء الاتفاقية الأنجلو - المصرية.

وقبل نهاية الحرب العالمية الثانية دخلت إلى ليبيا قوة غربية ثالثة بإقامة قاعدة (للوجود الأمريكي) وهي قاعدة أم عتيقة حالياً والملاحة سابقاً شرقي مدينة طرابلس وقد ذكرت صحيفة (نيويورك تايمز): أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية حتى فبراير 1945م مبلغ مائة مليون دولار على تطوير قاعدة هويلس (سابقاً).

وأصبحت القاعدة الأمريكية الأولى في إفريقيا التي لعبت في الخمسينات دوراً هامًا في استراتيجية الحرب الباردة، كواحدة من سلسلة القواعد الأمريكية من غربي أوروبا وشمال إفريقيا وجنوب شرقي آسيا التي تحيط بالكتلة الشيوعية[1].

وهذه الفوضى التي حدثت لبلادنا من أسبابها سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية التي حافظت على سلامة ديار المسلمين من نفوذ النصارى والملاحدة لقرون عديدة، وإن الأمة الإسلامية بدون خلافة رشيدة على منهج النبوة لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعاً، وتكون ألعوبة في أيدي الدول الاستعمارية الكبرى بأنماط وأشكال استعمارية متجددة وتصبح لشعوبنا الإسلامية تبعية عمياء لغيرها في أمورها العسكرية والسياسية والاقتصادية والتعليمية، وما وصل إليه شعبنا من انحدار شديد في مجالاته المتعددة إلا لبعده عن عقيدته وإسلامه ودينه.

خامساً - اعتراض الليبيين لموقف الدول الكبرى من قضيتهم العادلة:

عارض المجاهدون الليبيون موقف الدول الكبرى من قضيتهم، ووجهوا نقدهم وسهامهم إلى الدول الكبرى وخصوصاً الحكومة البريطانية التي لم تلتزم بعهودها مع الليبيين، وبرّر بعض الزعماء أسباب تحالفهم مع بريطانيا بأسلوب علمي أدبي رفيع وهذه وثيقة تاريخية تثبت ما ذهبت إليه وعبارة عن موضوع كتبه المجاهد عمر فائق شنيب في عام1945م بعنوان (ليبيا مهد البطولة) قال بعد أن افتتح موضوعه بالبسملة:

إذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما أعلك ما شفاكا

كثر الأخذ والرد في قضية ليبيا الباسلة ذات الشعب المحارب في صفوف الحلفاء من سنة

---

(1) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص(180، 181).

1940م، ليبيا التي لم ترضخ للاستعمار الإيطالي فحاربت 21 سنة بلا انقطاع، ليبيا التي اشترك جيشها وشعبها في طرد العدو منها، ليبيا المضحية بمليون نسمة من خيرة أبنائها في سبيل عروبتها واستقلالها وحريتها، ليبيا التي رفعت رأس العروبة عالياً من سنة 1911 إلى 1945 وكثر عدد الطامعين فيها والمتزلفين إليها - بعد أن كان بعضهم علة شقاء عليها - وتعددت الدوافع فتباينت المنافع، وتضاربت الآراء فكثرت التكهنات وجلها - إن لم أقل كلها - لا يخلو من غايات ومناورات ومساومات بعيدة عن محجة الصواب كل ذلك على حساب ليبيا الدامية.

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

حتى أبهم الأمر لا على المنصفين الذين يهتمون بلب الحقائق ليأخذوا منها درساً وعبرة أو يجابهوا الموقف على ضوئها؛ بل على الليبيين أنفسهم الذين أصبحوا في حيرة من أمرهم، وبمعزل عما يراد بهم، وهم الذين اشتهروا بالأفعال في ميادين النضال، لا بزخرفة الأقوال ولله در من قال:

إذا اشتبهت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

لذلك رأيت لزاماً علي أن أصرخ بالحقيقة الناصعة ولو كانت مؤلمة جارحة من على منبر الصحافة العربية الحرة - التي أخذت في هذه الأيام تشد أزر ليبيا والليبيين - لأضع أمام الرأي العام العربي ولو صورة (مصغرة) عن حقيقة ما قدمه الشعب الليبي من تضحيات قاسية في سبيل حريته واستقلاله ومناصرته للحلفاء في هذا الصراع العالمي الذي قيل عنه أنه دفاع عن المبادىء الإنسانية الحرة للتخلص من الوحشية الغادرة، والاستعمار البغيض ليكون على بصيرة من قضية ليبيا العتيدة التي استهتر بها القريب وطمع البعيد والتي لا تنفصل عن قضية العروبة المقدسة بأي حال من الأحوال.

1 - أقول لإخواني الليبيين عامة - على اختلاف نزعاتهم وأهدافهم في الطرق الموصلة لوحدتهم واستقلالهم -: احذروا ولا تنخدعوا، ووحدوا صفوفكم تحت راية أميركم، وأن ما ترونه الآن في جو السياسة هو الدعاية، وأن ما تتصورونه منها هو الظن، وأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً، فاعتمدوا على أنفسكم وأعدوا العدة لمستقبلكم واشكروا كل من يناصركم لمبدأ العروبة الصادق الذي يحمي الجار ولا يرضى العار.

2 - وتيقنوا أن كان هناك ثمة عتاب أو لوم أوما يسمى بمسؤولية عما يقع في ليبيا في الحال، أو ما يقع لها في الاستقبال فكل ذلك يقع بالدرجة الأولى على عاتق الدولة البريطانية، بل وعلى بعض رجالها الذين ائتمناهم على وطننا وأرواحنا، وسلمنا إليهم مقدراتنا وذلك أمام التاريخ والإنسانية والوجدان، وبالدرجة الثانية على أنفسكم أنتم فيما إذا تخاذلتم وتفرقتم وغرتكم الأقوال المعسولة فسبحتم في بحر الأماني المجهولة.

إن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى فشجرة الحرية رويتموها بدمائكم وستثمر بمجهوداتكم وتضامنكم، فالدولة البريطانية هي الدولة الوحيدة التي اشتهرت ببعد النظر وتقدير العواقب، ولكنها مع ذلك في هذه القضية الهامة إن لم أقل أضرت بمصالحها الخاصة، وبمصالح الليبيين عامة، أقول بصراحة إنها نسيت أو تناست لسوء حالها أو لسوء حظنا موقفها في سنة 1940 عندما كانت واقفة في الميدان تجاه القوة الغازية الفاشيستية وحدها بلا حليف ولا معين، مصيرها معلق في كفة القدر، والعدو في إبان منعته وسطوته يتقدم في الأراضي المصرية بعد أن احتل موقع (سيدي براني) وقد طعنت يومذاك فرنسا التي يقول عنها زعيمها المحنك الجنرال ديجول اليوم: (يجب أن تعاد مستعمرات إيطاليا إليها)! طعنت من الخلف فركعت على ركبتيها مسلمة للعدو، ولكن صدق من قال:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ففي تلك الساعة العصيبة القاسية - على بريطانيا العظمى - كما قال عنها وزير خارجيتها المستر إيدن في تصريحه لمجلس النواب البريطاني يوم 7 يناير 1942 ما ندرجه بالحرف الواحد: (إني أصرح بأن السيد إدريس السنوسي اتصل بالهيئات المسؤولة بمصر خلال شهر من انهيار فرنسا في وقت لم يكن الموقف العسكري في إفريقيا ملائماً لنا على الإطلاق، فتألف جيش سنوسي يضم الذين تخلصوا من نير الظلم الإيطالي بين حين وآخر في خلال العشرين سنة الماضية وقام هذا الجيش بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية الموفقة في الصحراء الغربية في شتاء 1940م و1941م، وهو الآن يقوم أيضاً بنصيب قيم في الحملة العسكرية الحالية فأنتهز هذه الفرصة لأعبر التقدير العام الذي تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذي قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسي وأتباعه في المجهود الحربي البريطاني، وإننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية في مهمة سحق العدو المشترك، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين في برقة تحت النير الإيطالي مرة أخرى بأي حال من الأحوال).

قلنا في تلك الساعة العصيبة التي كانت فيها أعظم الدول ومنها فرنسا - لا الشعوب الصغيرة - ترتعد فرقاً وتنهار سراعاً تحت ضربات النازية الفاشيستية الخاطفة، نعم في تلك الساعة الرهيبة التي اقتنعت فيها الدول والشعوب بأن زوال بريطانيا من الوجود شيء مقدور، بل وأصبحت تحدد لانهيارها الأيام، لا الشهور تقدم أمير ليبيا الشجاع غير هياب ولا وجل وعقد مجلساً حربياً ضم ممثلي البلاد من قادة الحركة الوطنية قديماً وحديثاً - وهم بقايا السيوف الأماجد - ولم ينفض اجتماعهم التاريخي الذي حضره الجنرال ولسن يوم 9 أغسطس 1940 وخطب فيهم قائلاً: (إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة في سحق العدو المشترك هو لتحرير وطنكم واسترداد أملاككم وحريتكم واستقلالكم) ثم أعلن الحرب على إيطاليا وانضم

إلى الخليفة البريطانية في إبان محنتها وقدم لفخامة الجنرال ولسن قرار الجمعية الوطنية الليبية الذي رفعه بدوره إلى لندن، وبعد أن استعرض ما اتفق عليه زعماء المهاجرين بقيادة زعيمهم الأكبر إدريس السنوسي قال:

على هذا الأساس الواضح بني جهاد ليبيا لحريتها واستقلالها، وعلى هذا الأساس سلمت ليبيا بأرواح أبنائها وثروتها ومدنها لبريطانيا العظمى، ولم يمض على هذا القرار برهة وجيزة حتى تكون الجيش الليبي بضباطه وجنوده تحت علمه الوطني الذي استعرضه الجنرال ولسن في احتفال عسكري رسمي، حيًا فيه العلمين: الإنجليزي والليبي فأعجب به، وقد اشترك هذا الجيش فعليًا في كل المعارك الدامية في سيدي براني وفي حصار طبرق، وفي طرد العدو من الوطن، وفي كل موقعة رأت القيادة العامة البريطانية وجوده فيها ضرورياً خلف خطوط الأعداء وخارجها وفي الجبهة نفسها وعلى قناة السويس وفي فلسطين - وغيرها - بكل شجاعة وبسالة وحزم.

وهل اكتفى أمير البلاد المطاع بذلك؟ كلا، بل أرسل الرسل إلى المدن والقرى ومواطن البادية ونشر في طول البلاد وعرضها أوامر كانت موفقة، ووقع النشرات التي كانت تلقى على الشعب من الطيارات، واستصرخ الشعب لمناصرة بريطانيا من محطات الإذاعة وزود ضباط الاستعلامات البريطانية الذين يعملون خلف خطوط الأعداء سرًا بالرجال الأمناء والتوصيات للزعماء وأهل الوطن لإخفائهم وإرشادهم ومدهم بالمساعدات والمؤن.

فهب الشعب الليبي على بكرة أبيه رجالاً ونساءً وشباناً كل يعمل على قدر استطاعته خلف خطوط الأعداء في إخفاء ضباط الاستعلامات وتموينها وإنقاذ الجرحى وتمريضهم وإخفائهم وتهريب الأسرى من الضباط والجنود البريطانيين والطيارين الذين وقعوا في قبضة الأعداء وإبلاغهم مأمنهم وإظهار عورات الأعداء بواسطة الأدلاء على محال قواتهم واستحكاماتهم وطيرانهم ووقودهم، وتدمير أدوات حربهم ومؤنهم، حتى اضطر العدو أن يجعل في ليبيا قوة عظيمة خاصة لمراقبة السكان والتنكيل بهم حيث ثبت لديه أن ضباط الاستعلامات البريطانيين كانوا يحضرون اجتماعات الأعداء سرًا بدون أن يعرفوا بينهم وذلك بفضل تدابير زعماء الوطن.

وقد استسلم ما ينيف عن 17،000 جندي ليبي - كان قد جندهم العدو قسراً - وذلك عندما شاهدوا أعلام وطنهم المقدسة تخفق على الدبابات ومزينة بها المصفحات وفي طلائع الجيوش؛ ثم اشترك معظم هؤلاء مع إخوانهم في الدفاع عن أوطانهم وقد استشهد الكثير من جنود وضباط الجيش، كما أسر البعض منهم أثناء هذه الحرب برًا وبحراً، ولم يزل بعضهم مفقوداً والبعض لا يعلم عنه شيء منذ وقع في معتقلات الأعداء.

واستهدفت المدن للخراب الأبدي والدمار الذي لا يعوض كطبرق التي أصبحت أثراً بعد عين، وبنغازي عاصمة برقة التي دمر ثلاثة أرباعها وقسماً من درنة وسرت وطرابلس وغيرها،

وتعرض الكثير من المدنيين العزل للقتل والشنق والنهب، حتى أن الفاشيست شنقوا في يوم واحد في مدينة واحدة وهي المرج (300) رجل، وغير هذا كثير، حتى أنه في ذلك اليوم صادر الفاشيست جميع ما في الأسواق عنوة واقتداراً وهدموا ما يقدر بنصف ثروة التجار، وتبددت ثروة البلاد وتشتت الأهلون سنين في البراري والقفاز بعد أن دمرت مدنهم وهدمت أملاكهم وقتلت نساؤهم وأطفالهم وضاعت ثروتهم ولا مجال الآن لإيضاح موقف الليبيين في انتصار العلمين، ذلك الانتصار الذي غير وجهة الحرب، وما قدموه من مجهودات كادت أن تقضي على البقية الباقية من الليبيين حيث نسفوا مخازن البنزين ودمروا معدات الحرب التي أعدها الألمان والطليان كاحتياطي لهم في برقة يعتمدون عليها في تقدمهم على مصر، وهو ما يقدر بمئات الملايين، وسيخصص لذلك فصل مدعم بالأرقام والبراهين في الكتاب الأبيض الذي ينشر عن العالم قريباً عن موقف ليبيا المشرف في هذه الحرب وعن معاملة أصدقائها الإنكليز لها، كما سيبين فيه عملهم ضد الطيارين الألمان الذين أنزلوا بعد الفتح بالبارشوتات، أفبعد هذا كله، وبعد فتح ليبيا باشتراك أهلها وتضحياتهم هذه يجوز أن تكون ليبيا الباسلة موضع مساومة؟ أو يجوز أن تطبق فيها أحكام عسكرية جائزة وغير ملائمة لطبيعة أهلها؟ أو يطبق على شعبها المحارب في صفوف الحلفاء ما يسمونه بالقانون الدولي؟ ذلك القانون الذي لم يطبق منه حرف واحد في الحبشة لا، ولا حتى في بلاد العدو المحتلة التي سلمت إدارتها لأهلها تحت إشراف الحلفاء مع أن وضع الحبشة لا يختلف عن وضع ليبيا دوليًا من حيث دخولها تحت الحكم الإيطالي واعتراف الدول بضمها إليه، وخروجها منه باشتراكها في هذه الحرب؟ أو يبدل في ليبيا استعمار باستعمار؟ أو تفكر إيطاليا الغادرة ناكثة العهود التي جربت حظها في ليبيا وخبرت ذلك الشعب العربي الأبي في حروب متواصلة معه 21 سنة أن تعود إليه؟.

اللهم إن هذا بعيد عن العدل، بعيد عن الإنصاف، وحتى عن أحكام القانون الدولي الذي قبر من يوم احتلال الحبشة فشيعت جنازته عصبة الأمم التي التحقت به سنة 1935م وعن كافة الوعود والعهود وعن الغايات السامية التي قيل إن الدول الحليفة حاربت من أجلها، وعن الشرف البريطاني الذي لا يقر مثل هذا العمل فيما أظن بوجه من الوجوه.

فلو كانت الدولة البريطانية أقامت للحق والعدل والعهود أقل وزناً أو قدرت هذه الجهود والتضحيات حق قدرها أو إعادة النظر في موقفها سنة 1940م - لأننا عند اشتراكنا معها لم تكن هناك روسيا ولا أمريكا ولا فرنسا - لما كانت في هذا المأزق الحرج الدولي من جهة، ولكانت ليبيا اليوم تتمتع بحكومة وطنية تحت إدارة أميرها، مندمجة في الجامعة العربية، ولما كان اختلف وضعها عن وضع الحبشة من يوم طرد العدو منهما.

ولكن الدولة البريطانية بجحود بعض رجالها لهذه التضحيات وبميلهم للأعداء - لأنهم إفرنج - وتخليهم عن الأصدقاء - لأنهم عرب - أضروا بهذه القضية التي لها مساس بالسلم

العالمي، وأساءوا لأهل ليبيا وهم الذين أخلصوا لهم في إبان محنتهم، بل وعاملوهم معاملة لا تمت للإنصاف والمروءة بصلة في كل مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية والكرامة والعزة القومية، وفي نفس الوقت واجهوا وسيواجهون مشكلات عديدة كانوا في غنى عنها؛ لأن امتلاك القلوب أهم بكثير من استبعادها والسيطرة على الشعوب بدون إرادتها معناه الحقيقي تكوين عداوتها.

3 - بتر ليبيا بل والشمال الإفريقي من جسم الجامعة العربية يوم انعقادها في القاهرة كان أكبر محك دقيق للجامعة (فيما إذا كانت هي الجامعة) ولغاياتها أهدافها المقدسة عند الدول التي تهتم بمعرفة قوة الاتحاد العربي وضعفه، بودنا يومئذ أن ألقينا أنفسنا في أحضانها بصفتنا أمة عربية مجاهدة أن تقف موقف المدافع عن الجميع والمطالب بحقوق الجميع وتضمنا إليها شاءت - السياسة الغامضة - الفرقة الجامعة - أم أبت فتكون بذلك أحيت عضواً منها تشد أزره في الملمات، لأن ليبيا هي القنطرة الوحيدة التي تعبر منها العروبة إلى الشمال الإفريقي، أما اليوم فلا أدري على الوجه الأصح هل يسمع صوتها بشأن ليبيا أم يصبح صرخة في واد بعد أن تقاربت السياسات الاستعمارية التي كانت متباعدة يوم انعقادها، وأخشى ما أخشاه أن العرب رغم يقظتهم ووحدتهم المبتورة سيواجهون تضحيات جديدة ومصاعب شديدة وسيلعب بهم دور آخر يكونون فيه هم كبش الفداء - لا سمح الله - لأن الغرب لا يرتد والشرق لا يتعظ.

4 - مع استنكارنا الشديد واحتجاجنا القطعي الذي ليس عليه مزيد للضربة التي كانت ذكرتها جريدة (التايمس) وبعض الصحف الاستعمارية الأخرى والتقولات التي تقع أحياناً من بعض المغرضين بأن الليبيين يكرهون المصريين نقول بكل صراحة ما دمنا نقر الحقائق: إنها وقعت بعض غلطات مؤلمة من بعض رجال الإدارة في الحدود الغربية المصرية ولم تزل تقع أحياناً منهم ومن غيرهم، وربما كانت تلك الغلطات مدبرة بعلة خفيت عنهم لا يعلمها إلا الله والراسخون في تفرقة الشعوب وهي أنه بعد أن كان المصريون هم الذين آووا وأيدوا إخوانهم الليبيين من سنة 1911م إلى يومنا هذا، ولهم عليهم الأيادي البيضاء في جهادهم وهجرتهم، فعندما تقرر رحيل المهاجرين إلى وطنهم بعد فتحه كان الواجب يتحتم أن يودعوا بما هو لائق في كرم وسخاء وتسامح وصلة رحم وحق جوار، بل ومساعدات قيمة أدبية ومادية لمن هم منهم وإليهم شأن المصريين الذين جبلوا على هذه المزايا العالية في كل أدوار حياتهم، ولكن انعكست الآية فتصدى للمهاجرين بعض الموظفين الذين لا يقدرون العواقب فجردوهم من أمتعتهم وأقواتهم وفتشوا نساءهم - بصورة مخجلة - وصادروا حليهن وما معهم من نقود جنوها في هجرتهم أو جلبوها معهم عند التجائهم واضطروهم بهذا العمل لتهريب ما يسدون به الرمق أو ما يسترون به العورة؛ لأن الحالة وقتئذٍ في ليبيا بلغت درجة إلى أن دفن أهالي ليبيا أمواتهم بدون أكفان، وأصبحت نساؤهم لا يجدون ما يسترن به العورات بسبب منع التجارة عنهم

والتضييق عليهم، وما زالت أموالهم وأشياؤهم محجوزة عند السلطات المصرية بحجة التهريب ومخالفة القوانين، نعم وإن كان للموظفين بعض العذر وعلى الليبيين بعض الوزر للأسباب الآنفة الذكر إلا أن هذا العمل الذي وقع بين شعب واحد ووطن واحد - كما يعتقد الليبيون وأبناء مصر - جرأ الغير على الاستخفاف بالعلائق الحسنة بين الشعبين، وأن ما وقع من الليبيين من تضحيات وما عانوه من مشقات وأزمات هي بين سمع إخوانهم المصريين وبصرهم في وطنهم دفاعاً عن بلادهم التي هي الحصن الحصين لمصر العزيزة حيث كانت أرواحهم فداء لها، لو تدبروا الأمر بعين المصلحة والأخوة ربما كانت تلك الغلطات مدبرة من الغير لتتخذ منها جريدة مثل «التايمس» والجرائد الاستعمارية مادة للحط من قيمة الروابط الودية بين الشعبين المتجاورين لغاية بعيدة المرمى ستظهر نتائجها الأيام المقبلة.

وإني أعتقد عقيدة ثابتة أن الليبيين عامة والسنوسيين خاصة لم ينسوا ولن ينسوا فضل مصر ولا عطف مصر وزعماء مصر مهما حدث أو يحدث؛ لأن الشعب المصري الكريم بريء من تلك الغلطات المدبرة ومصر هي الملجأ الوحيد ليس لليبيين فحسب بل للعرب والعروبة لا سيما وتربط مصر وليبيا روابط لا انفصام لها من جهة الدين والجوار واللغة والنسب، ولا نريد أن نوضح أكثر من ذلك، فعظماء مصر وأكابرها يعلمون أكثر من هذه الحقائق ويعلمون ما يكنه الليبيون من إخلاص ومحبة للتاج المصري وصاحبه المفدى، وسيأتي يوم يتضح فيه كل شيء بالوثائق؛ لأننا متّنا هذه الروابط وأدلينا بما فيه المصلحة للطرفين في بدء الحركة سنة 1940م وفي أثناء الحرب 1942م قبل غيرنا ممن تبنى هذه المشاريع اليوم، ومع ذلك يشكر كل من يسعى لتوحيد الشعوب العربية ويعمل على إسعادها ولكل مجتهد نصيب.

كان بودنا أن لا تهمل الصحافة العربية الحرة ما قدمه الليبيون في هذه الحرب من تضحيات قاسية سنة 1940م حتى لا تفقد مادة قيمة تساعدها في الدفاع اليوم عن الحق المهضوم وتستعين بها على ما تسجله للتاريخ والأجيال المقبلة، ولكن السياسات التي كمت أفواه الصحف وكسرت أقلام الصحافيين حتى حظرت عليهم ذكر كلمة ليبيا كانت جائرة عليها وعلينا وعلى التاريخ والإنسانية وها أننا نستبشر اليوم بتعويض ما فقدته الصحافة فلها خالص الشكر وعاطر الثناء.

وأخيراً بصفتي - أحد قادة الحركة الوطنية وعضو الجمعية الوطنية التي ارتبطت مع بريطانيا يوم 9 أغسطس 1940م - أصرح بأن الوضع الحالي في ليبيا شاذ لا يتناسب في شيء مع العدل والإنصاف ولا مع وعود الحلفاء بأي وجه كان، بل إن ما يعانيه الشعب الليبي اليوم لا يختلف عن الاستعمار البغيض وإن الشعب الليبي يتطلب إقامة حكومة وطنية شرعية تحت إدارة أميره المطاع (إدريس السنوسي) بأسرع ما يمكن ليحق لها اختيار الجهة التي ترغب في الارتباط بها.

أقول هذا لدول الحلفاء ولدولة بريطانيا العظمى خاصة قبل أن يعم الاستياء الذي أخذ يتسرب إلى النفوس وتتبدل وجهات النظر من الإخلاص والمحبة والتعاون النزيه إلى المقت البغيض والمشاكسة ويطغى اليأس فتنعكس الآية ولا ينفع الندم، وإن ليبيا رغم قلة عددها وفقدان عدادها ومعرفتها بأنها لا تقوى على مقاومة الدول المعظمة مع أنها جربت في حرب إيطاليا تفضل أن تضرب يومياً بألف، بل بمليون قنبلة ذرية حتى ينقطع فيها النسل والذرية على أن يطأ أرضها إيطاليا أو أن تمس كرامتها أو ينقص شيء من حريتها واستقلالها وحقها في الحياة، أو يقرر مصيرها الغير بدون إرادتها، وهي علمت الشعوب معنى التضحية في سبيل الحرية والاستقلال من سنة 1911م إلى يومنا هذا والتاريخ شاهد عدل، وقد قلنا في بعض مذكراتنا لرؤساء الوفود في المؤتمر الذي كان منعقداً في سان فرانسيسكو - بعد أن شرحنا لهم الحالة يومئذ بوجه التفصيل - هذه العبارات: (هذا إذا كان هناك ما يسمّى عدلاً أو ما يسمى حقًّا، أما إذا كانت الوعود والعهود المقطوعة للشعوب الضعيفة هي بمثابة الطابور الخامس عند الحلفاء فلا حق لهذه الشعوب في المطالبة بالحق وليس لها إلا أن تموت) وسنعود للموضوع مرة أخرى، ومن لم يعرف ليبيا على حقيقتها فعليه بالاختبار فلا زال أشبال عمر المختار يعملون على ذلك الغرار.

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

هذا بعض ما كتبه ونشره السيد عمر فائق شنيب وهو كما قدم نفسه أحد قادة الحركة الوطنية، فبالإضافة إلى ذلك نقول أنه كان من خيرة أولئك القادة وقد لازم الحركة الوطنية الأخيرة منذ 9 أغسطس 1940 إلى أن توفاه الله سنة 1953م، فقد عين أميناً عامًّا لمكتب سمو الأمير، وكان ضمن أعضاء المؤتمر الوطني البرقاوي، وذهب إلى هيئة الأمم المتحدة عضواً ورئيساً للوفد الوطني مرتين، ثم وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالجمعية الوطنية التأسيسية الليبية وانتخب نائباً لرئيسها كما انتخب رئيساً للجنة الدستورية، وعين وزيراً للدفاع بالحكومة الليبية المؤقتة التي عهد إليها أن تتسلم السلطات من الإدارتين (البريطانية والفرنسية) وأخيراً عين رئيساً للديوان الملكي، وكان قد وضع بحثاً مفصلاً عن القضية الليبية كان صريحاً في التفاصيل التي تناولها في ذلك البحث، وقد أجاب فيه عن الكثير من الأمور الغامضة، وقد لفت فيه نظر وجهات معينة كان الكثير من حسان الظن قد تأثر بتصرفاتها وأراد طبعه سنة 1949م في مصر إلا أن الرقابة المفروضة يومذاك قد حذفت الكثير منه ووافقت على طبع ما وافقت عليه فرفض شنيب الطبع إلا إذا كان كاملاً، ولا يزال ذلك البحث مفقوداً نأمل أن تتكاثف الجهود ليرى النور وتستفيد منه الأجيال الصاعدة[1].

(1) انظر: إدريس السنوسي للأشهب، ص(101 إلى 111).

سادساً: الجمعيات التي تأسست خارج ليبيا:

وأسست جمعية في مصر بزعامة أحمد السويحلي وقامت بنشاط كبير وفتح عام 1943م نادي طرابلس الغرب الثقافي وشكلت الجاليات الليبية التي تقطن مختلف أرجاء العالم الإسلامي لجنة للدفاع عن حقوق بلدها بزعامة بشير السعداوي واتخذت ميثاقاً وطنياً بها قدمته إلى المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس عام 1931م وطالبت اللجنة المسلمين في أقطار الأرض لتقديم المساعدة لإخوانهم المنكوبين في ليبيا.

وتحرك الأمير إدريس سياسيًا مع بداية الحرب العالمية الثانية، ومن الشخصيات التي كان لها أثر سياسي في مصر في تلك الفترة بالنسبة للجالية الليبية أحمد السويحلي، وأحمد المريض، وعون سوف، وتوفيق الغرياني، ومحمد العيساوي وعبد السلام الكزة، وعبد الحميد العبار.

وشكل الأمير إدريس السنوسي جيشاً وفوض أمره إلى صفي الدين السنوسي الذي جند 14،000 من المهاجرين الليبيين، 120 ضابطاً، وشكلت الجمعية الوطنية الليبية التي قررت إعلان بيعة السنوسي، وتفويضه بدون قيد أو شرط وخوض الحرب إلى جانب بريطانيا ورفض بعض زعماء الليبيين ذلك، وفي معركة العلمين حققت بريطانيا نصراً حازماً على ألمانيا بقيادة روميل. وشارك السنوسيون مع الإنكليز رافعين العلم الستوسي، وكانت المعارك السياسية مستمرة ومستعرة بين الليبيين ولكن الكفة رجحت لصالح السنوسيين.

وظهرت بعض الزعامات الوطنية المتناثرة في بلادنا وعادت إلى الظهور الأحزاب التي أسست أثناء المفاوضات الليبية الإيطالية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وأسست أحزاب جديدة على أيدي القادمين من المهجر وكانت الأحزاب بليبيا امتداداً لتأثير الركات الحزبية في مصر وسوريا ولبنان وغيرها بواسطة العائدين من المهجر وكانت سرعة نموها كبيرة، لدرجة أن الليبيين وخاصة في منطقة طرابلس أصبحوا بعد ست سنوات يقومون بالمظاهرات مما يدل على نمو الوعي السياسي.

وظهر في عام 1942م (نادي عمر المختار الرياضي) الذي كان له نشاط سياسي يهدف إلى توحيد برقة وطرابلس يقوده الشباب في تلك الفترة الحرجة من تاريخ بلادنا.

وفي مطلع عام 1944م أصبح النادي يعلن بصراحة انتقاده للإدارة البريطانية ويظهر اتجاهاً وحدويًا مع الاتجاه الطرابلسي من أجل اتحاد وطني.

ولم يكن الاتجاه الإسلامي في هذه المرحلة المظلمة ممثلاً إلا في شخصية الأمير السنوسي بكونه الوريث الشرعي للحركة السنوسية، وبعض الأفراد القلائل والشيوخ التقليديين.

وفي سنة 1947م أصبح البريطانيون يرون الحاجة إلى منح برقة نوعاً من الحكومة الذاتية

تحت زعامة إدريس وأوصت لجنة بريطانيا ببرنامج استقلال على ثلاث مراحل، وتحت الإشراف البريطاني، أما في طرابلس فكان الوضع يختلف، وظهر الخوف هناك من عودة الحكم الإيطالي للمنطقة، وخاصة وجود الجالية الإيطالية الكبيرة بمطامعها وتطلعاتها.

واقتصرت غالبية الأحزاب والجماعات في منطقتي برقة وطرابلس على حاجتهم لدولة متحدة وأصبح (نادي عمر المختار) يشدد انتقاده ضد البريطانيين وضد سياسة إدريس المتحالف مع بريطانيا[1].

سابعاً - حل الأحزاب وإنشاء المؤتمر الوطني في برقة واضطراب الأحزاب في طرابلس:

وقام إدريس بإيقاف نشاط نادي عمر المختار ومنع جميع الأحزاب السياسية عن العمل في ديسمبر 1947م، وألف الأمير إدريس المؤتمر الوطني بحجة التحدث باسم أهالي برقة جميعاً، إلا أن المؤتمر كان يتكون من الجيل القديم من قادة القبائل الموالين له، وكان المؤتمر برئاسة أخيه محمد رضا السنوسي، وفي طرابلس كانت الأحزاب السياسية في اضطراب وبلبلة، ووجد في المنطقة أكثر من عشرة أحزاب وجماعات ونوادٍ ذات أهداف مختلفة تسعى كلها للاستقلال وتوحيد مناطق طرابلس وبرقة وفزان، ولكن الاختلاف كان على من يقود هذا الاتحاد، وهل هو ملكي أو جمهوري، وقد تكونت من الحزب الوطني الكتلة الوطنية بقيادة أحمد الفقي حسن لمناهضة السنوسية والدعوة لإقامة جمهورية وكان يوجد حزب الاستقلال ولجنة تحرير الليبية المتعاونة مع الجامعة العربية، ويرأسها بشير السعداوي.

وبقي في ليبيا 48000 إيطالي، ظهر بينهم حزب فاشيستي بدعم من روما، وحزب معاكس له إيطاليا.

وأرسلت الدول الكبرى لجنة لتقصي وضع ليبيا فوجدوا رغبة عارمة في الاستقلال التام، وأوضح تقرير اللجنة الرغبة الليبية الإجماعية للاستقلال التام وأضافت اللجنة أنّ القبائل الليبية لم تكن في وضع اقتصادي يمكنها من الاعتماد على نفسها، وأيضاً غير مؤهلة للاستقلال. . . وقالت اللجنة في تقريرها بأن حوالي 94٪ من السكان أميّون، ولا يوجد بها ما يزيد على 15 ليبيًا متخرجاً دون أن يكون فيهم طبيب واحد، وأن متوسط الدخل الفردي 15 جنيهاً في السنة، وأن نسبة الوفيات بين الأطفال 40٪، ورأت بريطانيا أن تكون برقة تحت الرعاية البريطانية، وأن تكون منطقة طرابلس تحت الوصاية الإيطالية، وفزان تحت الوصاية الفرنسية.

أما الولايات المتحدة فقد اتخذت موقفاً مغايراً، إذ اقترحت أن توضع ليبيا كلها تحت

---

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(181، 182، 183).

وصاية الأمم المتحدة لمدة عشر سنوات، على أن تحتفظ أمريكا بقاعدة هويلس (الملاحة) الجوية والتسهيلات الحربية الأخرى، وكانت بريطانيا مستعدة للموافقة على اقتراح الولايات المتحدة إلا أن فرنسا عارضت ذلك.

أما الاتحاد السوفياتي، فقد حبذ في البداية الخطة الأمريكية، بوصاية الأمم المتحدة، لكنه عارض فيما بعد الوصاية على منطقة طرابلس لمدة عشر سنوات، بحجة أنه لو حدث ذلك، فإن «النظام السوفياتي» لن يصل إلى منطقة طرابلس ولم تقبل بريطانيا أو فرنسا هذا العرض بارتياح.

وهكذا يا أخي القارىء كانت بلادك منذ خمسين عاماً لا تملك لنفسها خيراً ولا نفعاً ولا حلاً ولا عقداً. ومع نمو الوعي الوطني والحس السياسي قامت مظاهرات جماعية لم تدع شكًا في الشعور العام المعادي للخطة. وسارت الجماهير الكبيرة المنظمة عبر شوارع طرابلس محتجة ضد الوصاية الإيطالية على طرابلس، وقدّر عدد الذين اشتركوا في المظاهرة بستين ألفاً، بما في ذلك مظاهرات جاءت من مدن أخرى، وكانت منظمة تنظيماً محليًا، وصاحب المظاهرات دعاية واسعة جلبت رأي عالمي وعربي للقضية الليبية.

وفي خلال هذه المظاهرات اتحد الحزب الوطني والجبهة الوطنية المتعددة وغيرهما في حزب المؤتمر الطرابلسي تحت قيادة بشير السعداوي، واستمر حزب المؤتمر في تنظيم المظاهرات والاحتجاجات حتى رفضت نهائيًا خطة (بيفن - سفورزا) من قبل الأمم المتحدة. وكان هذا سبباً في بروز الحزب على أنه القوة السياسية الرائدة في منطقة طرابلس، وفي الجمعية العمومية في 18 مايو 1949م كانت كل الدلائل تشير إلى قرار الخطة سوف يحصل على أغلبية الثلثين في منح استقلال ليبيا ولكن مندوب هايتي (إميل لوت) عارض الوصاية الإيطالية على منطقة طرابلس وكانت النتيجة أن فشلت الخطة عند الاقتراع عليها، وذلك بسبب نقص صوت واحد كان مطلوباً لتأمين الأغلبية التي أعطت أصواتها لقرار الخطة (23 مقابل 17 وغياب 8) وكان الذي أقنع (إميل لوت) بالوقوف مع الشعب الليبي الدكتور علي العنيزي رحمه الله تعالى.

واستطاعت الوفود العربية في الأمم المتحدة أن تقنع بسهولة الوفد السوفياتي وبعض الوفود الأخرى المعارضة لمصلحة استقلال ليبيا، وبفشل التصويت على وضع الوصاية الإيطالية لم يعد هناك سبب يدعو كتلة أمريكا اللاتينية لدعم بقية القرار واقترعت ضده بالفعل مما سبب له هزيمته بأغلبية 37 صوتاً ضد 14 وغياب 7 أصوات وقد دعم استقلال ليبيا دول إسلامية وعربية مثل باكستان وسوريا ولبنان وكذلك الهند لمصالحها.

وقد تغير موقف الروس بشكل ملفت للنظر، فبعد أن كانوا في وقت ما يريدون الوصاية السوفياتية على منطقة طرابلس، ثم إرجاع ليبيا لإيطاليا، أصبحوا سنة 1949م ينادون باستقلالها خلال ثلاثة أشهر وجلاء جميع القوات الأجنبية عنها.

وأصبحت بريطانيا ترى لمصلحتها استقلال ليبيا كلها، وخاصة إذا أمكن الحفاظ على القواعد البريطانية في منطقتي طرابلس وبرقة.

ورفضت خطة بيفن - سفورزا، وأعلن إدريس استقلال برقة بتأييد بريطانيا ونصب نفسه أميراً عليها، وأصبحت الحكومة المحلية مسؤولة عن الشؤون الداخلية. أما الشؤون القضائية والمالية فبقيت تحت مسؤولية المستشارين البريطانيين، وكذلك ظلت الأمور الخارجية والدفاعية والأملاك الإيطالية تحت السيطرة البريطانية.

وأصبح استقلال ليبيا شيئاً لا بد منه بالنسبة للأمم المتحدة، وأعيدت قضية ليبيا إلى اللجنة السياسية في صيف 1949م وسمح لإيطاليا بالاشتراك بالنقاش، وكذلك لممثلين من المؤتمر الوطني البرقاوي، وحزب المؤتمر الوطني الطرابلسي، وممثلين من الجالية اليهودية بطرابلس، وفي أكتوبر بدأت لجنة فرعية في وضع قرار يتضمن جميع النقاط الرئيسية الواردة في مقترحات وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة، واتفق على القرار بأغلبية ساحقة في الجمعية السياسية في 12 نوفمبر، ثم قدم بعد أسبوع إلى الجمعية العامة[1].

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(188 - 190).

المبحث الثالث

قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا

وفي 21 نوفمبر 1949م تبنت الجمعية العامة القرار الذي اقترحته وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة وتبنته الجمعية بأغلبية 48 صوتاً ضد صوت واحد (الحبشة) وغياب تسعة فيها: فرنسا وخمس دول شيوعية.

ويتضمن القرار ما يلي:

1 - أن تصبح ليبيا المكونة من مناطق برقة وطرابلس وفزان دولة مستقلة ذات سيادة.

2 - أن يصبح هذا الاستقلال ساري المفعول في أسرع وقت ممكن وألا يتأخر بأي حال من الأحوال عن أول يناير 1952م.

3 - أن يقرر دستور ليبيا، يضم شكل الحكومة من قبل ممثلين عن سكان مناطق برقة وطرابلس وفزان يجتمعون ويتشاورون معاً في جمعية وطنية.

4 - ومن أجل مساعدة شعب ليبيا على وضع دستور وإقامة حكومة مستقلة يرسل مندوب من الأمم المتحدة إلى ليبيا، تعينه الجمعية العامة، ومعه مجلس لمساعدته ونصيحته.

5 - أن يقدم مندوب الأمم المتحدة، بالمشاورة مع المجلس، تقريراً سنويًا مع التقارير التي يعتبرها ضرورية، ويضاف إلى هذه التقارير مذكرة أو وثائق يرغب مندوب الأمم المتحدة أو أي عضو في مجلس في أن يضعها أمام انتباه الأمم المتحدة.

6 - أن يتكون المجلس من عشرة أعضاء، وبالتحديد:

أ - ممثل ترشحه حكومة كل من البلدان التالية: مصر وفرنسا وإيطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

ب - ممثل عن شعب كل من المناطق الثلاثة في ليبيا، وممثل عن الأقليات.

7 - أن يعين مندوب الأمم المتحدة الممثلين المذكورين في الفقرة 6 - ب بعد التشاور مع القوى الإدارية ومع ممثلي الحكومات المذكورين في الفقرة 6 - أ ومع الشخصيات القيادية وممثلي الأحزاب السياسية والمنظمات في المناطق المعينة.

8 - وإنجازاً لمهامه، يشاور مندوب الأمم المتحدة ويسترشد بمشورة أعضاء مجلسه، ويجب أن يكون معلوماً أن بإمكانه أن يقابل أشخاصاً مختلفين لسماع النصيحة بخصوص المناطق المختلفة أو المواضع المختلفة.

9 - يمكن لمندوب الأمم المتحدة أن يقدم المقترحات إلى الجمعية العامة، وإلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي وإلى السكرتير العام فيما يخص الإجراءات التي يمكن أن تتبناها الأمم المتحدة خلال الفترة الانتقالية بخصوص المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا.

10 - أن تقوم القوى الإدارية بالتعاون مع مندوب الأمم بالمتحدة:

أ - باتخاذ جميع الخطوات اللازمة حالاً لنقل السلطة إلى حكومة دستورية مستقلة.

ب - إدارة المناطق بهدف مساعدة أقسام الوحدة الليبية والاستقلال والتعاون في تكوين الإدارات الحكومية وتنسيق نشاطاتها من أجل هذه الغاية.

ج - تقديم تقرير سنوي للجمعية العامة حول الخطوات المتحدة لتطبيق هذه التوصيات.

11 - أن تدخل ليبيا الأمم المتحدة حسب المادة (4) من الميثاق، بعد أن تصبح دولة مستقلة.

وبعد أسبوعين عينت الجمعية العامة مساعد السكرتير العام (أدريان بليت) مندوباً للأمم المتحدة في ليبيا.

إن الخطوات المذكورة نحو الاستقلال - على حسب تقديري وفهمي للحقيقة - لا نعتبره استقلالاً بمفهومه الذي وضع له هذا المصطلح، إن الأمة التي تحكم شرع ربها من ذاتيتها وشخصيتها وعقلها وقلبها وعقيدتها هي تلك الأمة الحرة المستقلة التي رضيت بالله ربًا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًا ورسولاً؛ بل انتقلت بلادنا من الاستعمار الإيطالي النصراني إلى استعمار من نوع آخر في أموره الدستورية والسياسية والاقتصادية والتعليمية فأين إذن الاستقلال؟ ولا زال أمر الله وحكمه مغيّباً في واقع شعبنا وحياته إلى كتابة هذه السطور ولذلك فهو يئن من وطأة الظالمين الذين حكموا شعبنا بقوانين أرضية طينية وغيبوا شرع الله عنه ظلماً وبهتاناً وزوراً، وعلى الأحرار من أبناء شعبنا أن يعملوا ليلاً ونهاراً سرًا وإعلاناً من أجل الاستقلال الحقيقي وكسر القيود المكبل بها شعبنا، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يحكم شرع الله ودستور الإسلام الخالد على شعبنا المسلم الذي عانى ولا يزال يعاني من تكبيل حريته واستقلاله واتخاذ قراره وما ذلك على الله بعزيز.

وكان موعد استقلال ليبيا سيحل بعد 700 يوم من وصول مبعوث الأمم المتحدة لبدء مهمته، وعندما وصل المبعوث (أدريان بلت) إلى ليبيا في رحلة استطلاعية لمدة أسبوعين في 18 يناير 1950م، لخص مهمته على أنها لمساعدة شعب ليبيا على وضع دستوره وإقامة حكومة مستقلة[1].

وكان أول واجب عليه هو أن يكمل عضوية المجلس المنصوص عليه في قرار الجمعية

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(193).

المكلف باستشارته، وقد عين ممثلو مصر وفرنسا وإيطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة من قبل حكوماتهم المعنية، وطلب (بلت) مرشحاً متفقاً عليه من كل المناطق الليبية الثلاثة وممثلاً للجاليات الإيطالية واليهودية واليونانية بمنطقة طرابلس وقدمت فزان مرشحاً واحداً، إلا أن برقة قدمت ثمانية وطرابلس سبعة، والأقليات أربعة، وبعد التشاور مع القوى الحاكمة الأجانب، عين (بلت) أسد الجربي ممثلاً لبرقة، ومصطفى مزران عن منطقة طرابلس، وأحمد الحاج السنوسي عن فزان، وجياكو مو مارشينو الإيطالي للأقليات وأنشىء مجلس ليبيا (المشهور بمجلس العشرة) في 15 أبريل 1950م، وكان يضم ثلاثة ليبيين وممثلين عن دولتين إسلاميتين مستقلتين (مصر وباكستان) وإيطاليين (واحد يمثل إيطاليا والآخر يمثل الأقليات الأجنبية بليبيا) وثلاثة يمثلون ثلاثة قوى غربية هي: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، ولذلك يعتبر تكوين عضويته - أي المجلس - تحيزاً للغرب بمعدل سبعة مقابل ثلاثة، على اعتبار أن ممثلي برقة وفزان كانا خاضعين لتأثير بريطانيا وفرنسا، وأن الثلاثة هم ممثلو مصر وباكستان وطرابلس أيضاً تابعة للقوى الأجنبية المسيطرة.

وكانت معارضة قوية جدًا محتجة على دخول الإيطاليين والأقليات الأخرى في تقرير مصير الشعب المسلم في ليبيا ولوجود تخوف من تدخل الإدارة البريطانية في الانتخابات وبذلك ألغيت خطط (بلت).

إلا أنه لم ييأس واستطاع استدراج بعض الشخصيات الدينية والوطنية وشكل جمعية وطنية من طرابلس وفزان وألغيت كثيراً من الاقتراحات وأخمدت الأصوات المعارضة[1]، وبعد أن حازت الجمعية الوطنية السلطات كي تقرر الشكل التنظيمي والدستوري لمستقبل الدولة، وتختار من أعضائها لجنة لوضع الدستور عقدت الجمعية أول اجتماع لها في طرابلس في 25 يناير نوفمبر سنة 1950م وانتخب مفتي طرابلس رئيساً لها واتفقت خلال أسبوع على أن تكون ليبيا دولة ديمقراطية فدرالية ذات سيادة، وأن تكون الدولة ملكية دستورية ودعم ممثلو برقة وفزان الاتحاد بقوة وقبل الطرابلسيون ذلك.

وظهر بشير السعداوي كشخصية وطنية فذة وكان من أكبر المتحمسين للوحدة وكان له شعبية ومساندة معظم الوطنيين في تطلعاته نحو وحدة البلاد، ووقف ضد الجمعية الوطنية وقاد عدة حملات ضدها، وتساءل بشير السعداوي ﷺ عن أهلية الجمعية الوطنية في نداء وجهه إلى الأمم المتحدة والجامعة العربية، واستمر بشير السعداوي يهاجم عدم أهلية الجمعية الوطنية طيلة النصف الأول من عام 1951م وكسب تأييد عبد الرحمن عزام، وقام عزام أيضاً بالهجوم على

(1) انظر: تاريخ ليبيا، ص(198، 199).

الجمعية الوطنية وأن قراراتها غير قانونية ومخالفة لرغبات الشعب الليبي، وقررت اللجنة الدستورية للجامعة العربية بأنه لا حاجة للاتحاد في بلد يوحده الجنس واللغة والعادات والدين وأكثر من ذلك فإن الجمعية لم ينتخبها الشعب لذا فإنه ليس لها سلطة البت في أمور تؤثر على مستقبل البلاد، وقام (بلت) بإرسال مفتي طرابلس وهو عضو من الجمعية الوطنية إلى مصر ليخطب ود الجامعة العربية وتلاشت عداوة الجامعة العربية بالتدريج.

وفي الرابع من ديسمبر 1950م أقرت الجمعية الوطنية العلم الليبي وانتخبت لجنة الدستور على أساس ستة أعضاء من كل منطقة لتحضير وتقديم مسودة دستور، وقامت اللجنة، بدورها بتشكيل مجموعة عاملة من ستة أعضاء لكتابة المسودة وتقديمها فصلاً بعد آخر للجنة وكان (بلت) وخبراء آخرون من الأمم المتحدة مستعدين لتقديم المشورة عند أول اجتماع للمجموعة العاملة في 11 ديسمبر. ودرست دساتير أحد عشر اتحاداً منها الهند، وسويسرا وفنزويلا وقورنت ببعضها وأخذت دساتير مصر والعراق والأردن ولبنان وسوريا، وكذلك حقوق الإنسان كنماذج لفعل الحريات الأساسية، وغيبت عن المسلمين في ليبيا قواعد النظام الأساسي في الإسلام ومن هذه القواعد التي غيبت عن المسلمين مفهوم الحاكمية، فمدلول لا إله إلا الله يعني أنه لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا نافع ولا ضار إلا الله، ويعني أيضاً لا مشرع ولا محلل ولا محرم إلا الله، وغاب عن المسلمين في ليبيا أن التحاكم إلى الدساتير الوضعية ووضع القوانين البشرية يتنافى مع بدهيات التصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية، إن الله الذي جعل الإسلام ديناً هو الذي جعله عقيدة ونظاماً وإن الله ليأبى على الناس أن يبتغوا لأنفسهم ديناً غير هذا الدين ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

إن الذين أرادوا الفصل بين العقيدة الإسلامية والنظام الأسلامي إنما هم أعداء الإسلام ونحن نقول: إن الإسلام عقيدة وشريعة، فإن العقيدة والشريعة أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وإن الفصل بينهما ضلال وكفر وردة فإن الإيمان بالعقيدة وترك الشريعة كفر، وإن الأخذ بالشريعة وترك العقيدة كفر.

وهذه الفعلة الشنيعة في الجري خلف الدساتير الأرضية وقوانين الدول الغربية العلمانية وغيرها يدل دلالة قاطعة على خطورة الأمر الذي وصلت إليه بلادنا من الضعف العقدي والشرعي.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21].

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرع الله وأذن به كائناً من كان، والله وحده هو الذي يشرع لعباده بما أنه - سبحانه - هو مبدع هذا الكون ومدبره بالنواميس، ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع الله المحيط بتلك النواميس، وكل ما عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور.

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة، فإن الكثيرين يجادلون فيها، أو لا يقتنعون بها وهم يجرءون على استمداد التشريع من غير ما شرع الله، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم، كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله، أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله، وليس أخيب من ذلك وأجرأ على الله[1].

والذي دفعني إلى الوقوف عند هذه النقطة المظلمة من تاريخ بلادنا وهي اختيار دستورها من دساتير أرضية وتركهم لتشريع رب البرية وهو كون شعبنا مسلماً مؤمناً وإنما فرض عليه ذلك من أعدائه أعداء دينه وإلا موقف المسلم من ذلك بيّن وواضح وإليك موقف المسلم كما بينه القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

فالمسلم يهرع إلى شرع ربه ودستوره برضى وطواعية ورغبة وتسليم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

فشريعتنا الإسلامية ربانية شاملة شمول العلم الإلهي، محيطة بمشاكلهم إحاطة العليم الخبير، لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أوجدت لها حلاً، وهي يسيرة سهلة تحقق اليسر والسهولة وترفع الحرج عن الناس؛ لأنها لا تكلفهم إلا وسعهم[2].

وتدخل الأمم المتحدة في مصير الشعوب باسم مصلحة الشعوب وإسعادها والأخذ بيدها نحو الحرية والاستقلال والنور والديمقراطية يعلم الله إنهم لكاذبون ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

والتاريخ البشري يشهد أن أسعد الفترات التي كانت تعيشها البشرية على الإطلاق، تلك الفترة التي تحكم فيها بشريعة الله سبحانه وتعالى حيث كانت تنعم بالأمن والإيمان والسلامة والسلام، وكان العدل والرخاء والاستقرار يسود المجتمعات التي حكمت بشرع الله[3].

---

(1) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، (2/ 3512).

(2) انظر: النظام السياسي في الإسلام، أبو فارس، ص(30).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(31).

والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر.

لقد كان الضغط على البلاد عظيماً ولذلك لم يستطع الأمير إدريس، وكذلك القوى الوطنية المسلمة من جعل دستور البلاد ربانيًا نابعاً من الكتاب والسنّة وفهم السلف الصالح وبحيث يكون الإسلام هو المصدر الرئيسي والوحيد الذي يستمد الشعب منه قوانينه ودستوره كيف لا والله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] ومعلوم أن الإسلام دين ودولة وصالح لكل زمان ومكان.

والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره فإن النتيجة الطبيعية أن يكون صوت هذا المصلح صرخة في وادٍ ونفخة في رماد قد يكون مفهوماً أن يفتح المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه، وإيصالاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ أما والحال - كما نرى - التشريع الإسلامي في وادي والتنفيذ في وادي آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من الذين لا يدينون بالإسلام الحنيف[1].

ومضت المجموعة العاملة والمختصة من الجمعية الوطنية لمناقشة الجنسية الليبية واللغة وسلطات الملك، والمسؤوليات الوزارية والبرلمان وتشكيل مجلس الشيوخ وقانون الانتخابات، وقد أجريت تعديلات عند تقديم الفصول إلى اللجنة وقدمت مسودة إلى الجمعية الوطنية في سبتمبر 1951م واستمرت المناقشات ثلاثة أسابيع وكان هناك عدة خلافات فكان البرقاويون يصرون على أن يكون بنغازي هي العاصمة، وأصر الطرابلسيون بتأييد الفزانين على أن تكون طرابلس هي العاصمة واستقر الرأي على أن تكون طرابلس وبنغازي عاصمتين مشتركتين منعاً للنزاع، وأقر الدستور كله من 213 مادة (بلت) مبعوث الأمم المتحدة.

وأشاد (بلت) بإنجاز الليبيين للدستور في مدى عشرة أشهر، وتزايدت قوة الشعور بالوعي الوطني الليبي واتحاد جميع الممثلين في قرارتهم لإنشاء ليبيا المتحدة التي سماها الدستور (المملكة الليبية) وسميت المناطق الولايات بدلاً من دول، وكانت السلطة التشريعية مخولة للملك ومجلس الشيوخ والبرلمان على أن يكون أعضاء مجلس الشيوخ 24 عضواً ثمانية من كل ولاية نصفهم معين من قبل الملك والنصف الآخر متخب، أما النواب فيتخبون من الذكور

(1) انظر: رسائل حسن البنا، ص(272).

البالغين بمعدل واحد عن كل عشرين ألف من السكان، ويختار أعضاء الوزاة المركزية من البرلمان الاتحادي، ويعين الملك رئيس الوزراء ووالي كل ولاية.

وبدأ تخطيط نقل السلطات من الإدارات البريطانية والفرنسية للاتحاد الليبي في مطلع سنة 1951م، وقسمت لجنة (بلت) نقل السلطات على أربع مراحل من سبتمبر إلى نهاية السنة، وفي فبراير سنة 1951م أصدرت الجمعية الوطنية قراراً بتشكيل حكومات محلية لاستلام السلطة من السطات الإدارية، وفي 3 مارس أصدرت الإدارة البريطانية بموافقة إدريس بياناً بتأليف حكومة محلية في طرابلس، ولم يكن حزب المؤتمر الوطني الطرابلسي راض عن سير الأمور بتحكم بريطانيا في إجراءات نقل الوضع إلى السلطات المحلية[1].

وكان (بلت) قد دعا الأمم المتحدة منذ أول تقرير سنوي له إلى مساعدة ليبيا ماليًا بسبب فقرها وحاجتها، قال: «ما لم توجد الوسائل لتحسين الزراعة وخلق رأسمال استثماري جديد، فهناك خطر كبير في انهيار الاقتصاد الليبي وتحوله إلى اقتصاد رعوي، مع ما يترتب على ذلك من نتائج اجتماعية وسياسية ربما تعرض وجود الدولة الجديدة للخطر» وقدمت الأمم المتحدة مساعدات للدولة الجديدة وقامت منظمة اليونسكو ومنظمة الصحة بمساعدة محدودة، واستطاعت المنظمة الدولية تقرير كيفية حصول ليبيا على الوسائل الإدارية والاجتماعية والاقتصادية لصيانة استقلالها - المزيف - وتعهدت بريطانيا بتقديم ما يسد العجز في الميزانية للسنة المالية 52/ 1953 لولايتي طرابلس وبرقة، وكذلك فرنسا لفزان، وكان التعليم من أهم حاجات البلاد، وحاول (بلت) أن يقدم ما في وسعه من أجل النهوض المطلوب للدولة الجديدة.

وأعلن استقلال بلادنا في 24 ديسمبر سنة 1951م قبل أسبوع من الموعد النهائي الذي حددته الأمم المتحدة، وأصبح الدستور معدًا للتنفيذ وتولت الحكومة المؤقتة البلاد وأصبح لها صلاحيات كاملة.

وكان أول رئيس للحكومة المؤقتة محمود المنتصر وفتحي الكيخيا نائباً له ووزيراً للعدل والمعارف، وأصبح عمر شنيب مديراً للديوان الملكي، وعين الملك إدريس حكام الولايات الثلاثة، وتقدم بطلب انضمام ليبيا للأمم المتحدة واليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية.

وأصبح المستر (بلت) صديقاً حميماً لليبيين الذين اقتنعوا بالاستقلال، وسمي باسم أدريان (بلت) شارعان مطلان على البحر في كل من طرابلس وبنغازي، وكان حصول ليبيا على استقلالها تحت إشراف الأمم المتحدة دعاية ممتازة للمنظمة الدولية، وغاب في وقع الحياة في ليبيا دستورها الرباني المستمد من عقيدة الشعب ودينه[2]

---

(1) تاريخ ليبيا، ص(202، 203).

(2) انظر: تاريخ ليبيا بتصرف، وزيادة وحذف، ص(206، 207، 208).

أولاً - أعضاء اللجنة التحضيرية المختصة بالإعداد للجمعية الوطنية:

1 - الشيخ محمد أبو الأسعاد العالم.
2 - أبو الربيع الباروني.
3 - السيد سالم القاضي.
4 - السيد إبراهيم بن شعبان.
5 - السيد سالم المريض.
6 - السيد أحمد عون سوف.
7 - السيد علي رجب.
8 - السيد علي المخطوف.
9 - السيد طاهر الحريري.
10 - الحاج علي بدوي.
11 - السيد أبو القاسم بوقيعة.
12 - السيد أحمد الطبولي.
13 - السيد محمد بن عثمان الصيد.
14 - السيد المهدي (قاضي غدامس).
15 - السيد خليل القلال.
16 - السيد عمر فائق شنيب.
17 - السيد أحمد عقيلة الكزة.
18 - الحاج عبد الكافي السمين.
19 - السيد الطايع البيجو.
20 - السيد محمود بوهدمة.
21 - الحاج رشيد الكخيا[1].

ثانياً - الجمعية الوطنية التأسيسية (لجنة الستين) كل من السادة:

1 - عمر فائف شنيب.
2 - محمد السيفاط بوفروة.
3 - عبد الحميد دلاف.
4 - رافع بوغيطاس.
5 - أحميدة المحجوب.
6 - سالم الأطرش.
7 - خليل القلال.
8 - الطايع البيجو.
9 - أحمد عقيلة الكزة.
10 - محمود بوهدمة.
11 - عبد الكافي السمين.
12 - سليمان الجربي.
13 - محمد بو رحيم.
14 - عبد الجواد الفريطيس.
15 - المبروك الجيباني.
16 - الكيلاني لطيوش.
17 - طاهر العسبلي.
18 - عبد الله عبد الجليل سويكر.
19 - حسين جربوع.
20 - أبو بكر بوذان.
21 - أحمد عون سوف.
22 - عبد العزيز الزقلعي.

---

(1) انظر: مجلة الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، جماد الآخرة 1412هـ، ديسمبر 1991م، السنة العاشرة، العدد 39.

23 - منير برشان.
24 - علي تامر.
25 - أحمد السري.
26 - مختار المنتصر.
27 - سالم المريض.
28 - محمد المنصوري.
29 - محمد الهنقاوي.
30 - محمد أبو الأسعاد العالم.
31 - علي الكالوش.
32 - عبد المجيد كعبار.
33 - عبد الله بن معتوق.
34 - محمد الهمالي.
35 - إبراهيم بن شعبان.
36 - يحيى مسعود بن عيسى.
37 - أبو بكر بونعامة.
38 - محمود المنتصر.
39 - الطاهر القرمانلي.
40 - علي بن سليم.
41 - السنوسي حمادي.
42 - علي بدوي.
43 - الفيتوري بن محمد.
44 - الشريف علي بن محمد.
45 - طاهر القذافي بريدح.
46 - منصور بن محمد.
47 - المبروك بن علي.
48 - طاهر بن محمد.
49 - محمد بن عثمان الصيد[1].
50 - محمد الأمير.
51 - علي عبد الله القطروني.
52 - أبو القاسم بوقيلة.
53 - أحمد الطبولي.
54 - علي السعداوي.
55 - أبو بكر بن أحمد.
56 - السيد سعد.
57 - الأزهر بن علي.
58 - عبد الهادي بن رمضان.
59 - علي المقطوف.
60 - السيد العكرمي[2].

ثالثاً - مبايعة الجمعية الوطنية التأسيسية للأمير محمد إدريس السنوسي ملكاً دستورياً للمملكة الليبية المتحدة عام 1950م:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10].

---

(1) مجلة الإنقاذ الوطني، العدد (39)، جماد الآخر 1412هـ، ديسمبر 1991م، ص(24، 25).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(26).

نحن ممثلي شعب ليبيا من برقة وطرابلس وفزان، المجتمعين في طرابلس الغرب من جمعية وطنية تأسيسية بإرادة الله، والمزودين بالصلاحيات الكاملة المعترف بصحتها واستيفائها الشكل القانوني، والعازمين على تأليف اتحاد بيننا وتكوين دولة اتحادية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة، نظام الحكم فيها ملكي دستوري نستهل عملنا بحمد الله وشكره على ما قد منّ علينا من نعمته في تحرير بلادنا واستقلالها، وإننا اعترافاً بإخلاص صاحب السمو محمد إدريس السنوسي أمير برقة المعظم وجهاده الطويل المثمر لخير ليبيا وشعبها، وتحقيقاً لرغبة الشعب العامة وإقراراً للبيعات الشرعية السابقة التي صدرت من ممثلي الشعب الشرعيين لسموّه، وحرصاً على سعادة بلادنا واتحادها تحت تاج ملك نجد فيه المثل الأعلى للصفات التي يتطلبها هذا المنصب السامي.

فإننا ننادي بسمو الأمير السيد محمد إدريس السنوسي أمير برقة العظيم ونبايعه ملكاً دستوريًا للمملكة الليبية المتحدة، نرجو من جلالته أن يتفضل ويقبل ذلك.

وإننا قررنا انتقال الجمعية الوطنية التأسيسية بكامل هيئتها إلى بنغازي لرفع هذا القرار التاريخي لجلالة الملك المعظم، وتلقي قبول جلالته لهذه البيعة.

طرابلس الغرب

في يوم السبت 22 صفر الخير سنة 1370هـ

الموافق 2 ديسمبر سنة 1950م(1)

رابعاً - خطاب الملك إدريس بإعلان استقلال ليبيا يوم 24 ديسمبر 1951م:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى شعبنا الكريم: يسرنا أن نعلن للأمة الليبية الكريمة أنه نتيجة لجهادها وتنفيذاً لقرار هيئة الأمم المتحدة الصادر في 21 نوفمبر 1949م قد تحقق بعون الله استقلال بلادنا العزيزة وإنا لنبتهل إلى المولى بأخلص الشكر وأجمل الحمد على نعمائه ونوجه إلى الأمة الليبية أخلص التهاني بمناسبة هذا الحادث التاريخي السعيد، ونعلن رسميًا أن ليبيا منذ اليوم أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة، ونتخذ لنفسنا من الآن فصاعداً لقب صاحب الجلالة ملك المملكة الليبية المتحدة، ونشعر أيضاً بأعظم الاغتباط لبداية العمل منذ الآن بدستور البلاد كما وضعته الجمعية الوطنية في 6 محرم سنة 1371 هجرية الموافق 7 من أكتوبر 1951م، وإنه لمن أعز أمانينا كما تعرفون أن تحيا البلاد حياة دستورية صحيحة، وسنمارس من اليوم سلطاتنا وفقاً لهذا الدستور،

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره، ص(155).

ونحن نعاهد الله في هذه الفترة الخطيرة التي تجتازها البلاد أن نبذل كل جهدنا حتى تحتل بلادنا العزيزة المكان اللائق بها بين الأمم الحرة.

وعلينا جميعاً أن نحتفظ بما اكتسبناه بثمن غال وأن ننقله بكل حرص وأمانة إلى أجيالنا القادمة.

وإننا في هذه الساعة المباركة نذكر أبطالنا ونستمطر شآبيب الرحمة والرضوان على أرواح شهدائنا الأبرار ونحيي العلم المقدس رمز الجهاد والاتحاد وتراث الأجداد راجين أن يكون العهد خيراً وسلاماً للبلاد ونطلب من الله أن يعيننا على ذلك ويمنحنا التوفيق والسداد، إنه خير معين[1].

وإن من أهم المراجع التي تكلمت عن المملكة الليبية ومعركة الدستور والاستقلال هي:

1 - ليبيا في العصور الحديثة	د. نيقولا زيادة.
2 - ليبيا الحديثة	د. مجيد خدوري (ترجمة نقولا زيادة)
3 - السنوسية دين ودولة	د. محمد فؤاد شكري.
4 - صفحات من المذكرات السرية	عبد الرحمن عزام.
5 - إدريس السنوسي، للأشهب.	

خامساً - قصيدة بمناسبة الاستقلال للشاعر الكبير أحمد رفيق المهدوي:

عيد عليه مهابة وجلال ... عيد وحسبك أنه استقلالُ
يوم عليه من السعادة بهجة ... وعليه من نور السرور جمال
يوم سعيد نالت أمة ... ملكاً تمجد ذكره الأجيال
واستقبل التاريخ مظهر دولة ... فأهلّ برج السعود هلال
وبدا يسير إلى التكامل بدرها ... فتحققت بظهوره الآمال
وتحررت أعناقنا فتنفست ... أرواحنا وتبسم الإقبال
وتحطمت تلك القيود وكسرت ... تلك الكبول وفكت الأغلال
وإلى حياة حرة في عيدنا ... هذا تكلل بالنجاح نضال
أعظِمْ بعيدِ السماء تهللت ... فرحاً به شهداؤنا الأبطال

---

(1) انظر: الإنقاذ العدد (39)، جمادى الآخر 1412هـ، ديسمبر 1991).

وزهـا بـتـاج الـنـصـر شـعـب قـاده … مـلـك أغـر كـأنـه الـرئـبـال
يـا أيـهـا الـشـعـب الـكـريـم إلـى الـعـلا … سـر لا يـعـوقـك في الـمـسـير كـلال
سـر كـالـزمـان مـع الـزمـان مـلائـمـاً … إن الـزمـان مـسـيـرة اسـتـعـجـال
قـد أصـبـح الـطـيّـار لا يـرضـي بـه … عـصـره لـعـلـم الـضـوء فـيـه مـجـال
أضـحـى جـنـاح الـعـلـم قـاب الـقـوس … مـن قـمـر الـسـمـاء ودونـه أمـيـال
فـابـنـوا عـلـى الـعـلـم الـبـنـاء وأسـسـوا … بـالـعـدل مـلـكـاً لا يـلـيـه زوال
قـومـوا بـأمـر الـمـلـك شـورى بـيـنـكـم … إن الـتـحـكـم والـخـلاف وبـال
ومـصـائـب الأوطـان مـن أخـرابـهـا … إن قـام بـيـن الـمـفـسـديـن جـدال
وتـخـيـروا الـنـواب عـنـكـم واحـذروا … مـن أن تـقـوم بـأمـركـم جُـهّـال
الـمـلـك مـحـتـاج إلـى تـدبـيـره … بـعـقـول مـن عـركـتـهـم الأحـوال
بـالـمـخـلـصـيـن وهـم قـلـيـل فـانـظـروا … فـيـهـم ولا تـغـرركـم الأشـكـال
وإلـى الـشـبـاب الـحـي خـيـر تـحـيـة … فـهـم الـرجـاء.. وفـيـهـم الآمـال
وعـلـى كـواهـلـهـم وفـي أعـنـاقـهـم … عـهـد عـلـى أن يـحـفـظـوا مـا نـالـوا
مـا بـالـقـلـيـل ولا الـصـغـيـر فـإنـه … فـضـل عـظـيـم إنـه اسـتـقـلال
نـصـر عـزيـز جـل مـانـحـه لـه … مـن روحـنـا الـتـكـبـيـر والإجـلال
عـاش الـمـلـيـك وشـعـبـه وبـلاده … فـيـعـز دسـتـور زهـاه كـمـال[1]

---

(1) انظر: إدريس السنوسي للأشهب، ص(203، 204، 205).

المبحث الرابع
الملك إدريس رحمه الله وشيء من سيرته

أولاً - اهتمامه بالدين والعلم والأخلاق:

كان الملك محمد إدريس ﷺ تعالى يرى أن الحياة السعيدة لا تقوم إلا على الدين والعلم والأخلاق، ولنستمع إليه وهو يقول:

«إن سنن الإسلام السياسية تعتمد على دعائم متينة محكمة، فلو حفظت هذه السنن وسيست بها الحكومة الإسلامية لما أصاب دولة الإسلام ما أصابها. لا ريب أن ضعف المسلمين يرجع إلى إهمال هذا النظام وتركه، وإذا ما أراد المسلمون أن ينالوا مجدهم فليرجعوا إلى قواعد حكومتهم الأولى ولا يظنوا أن ذلك رجوعاً إلى الوراء؛ بل على العكس فهو التقدم والتكامل»[1].

وقال أيضاً: «إن بعث الروح الإسلامية أمر يحدث قوة لا يستهان بها، ولا سبيل إلى بعث هذه الروح إلا إذا فرقنا بين المدنيتين الحقيقية والصناعية وأخذنا الأولى باليمين والأخرى بالشمال، وفتحنا باب الاجتهاد، ورجعنا إلى قواعد السياسة الإسلامية»[2].

وقال أيضاً: «فمن تخلق منا بغير الأخلاق الإسلامية نجده فاسد التربية منحطاً في مستواه الأخلاقي، معطل الاستعداد الفكري الحر، مشوش العقل والاعتقاد، مقلداً تقليداً أعمى»[3].

وقال أيضاً: «إذا ما أراد المسلمون أن يصلحوا ما فسد من أحوالهم فليرجعوا إلى روح الإسلام؛ لأنه أكثر موافقة لرقي الأمم وسعادة الحياة ومدنيتها، ولن تتبدد هذه الغياهب المظلمة إلا بنور العلم؛ فالإسلام هو الدين الإنساني الطبيعي المسالم لكل من أحب السلام»[4].

لقد كان الملك إدريس ﷺ تعالى نصيراً للدين والعلم والأخلاق، ولذلك قام بتوجيه شعبه منذ تحرير بلادنا من الاستعمار الإيطالي إلى التعليم والإكثار من المدارس، والاهتمام بالأطفال، ولما تولى أمر المملكة الليبية وجه المسؤولين إلى وجوب العناية بالتعليم وتعميمه واهتم بوزارة المعارف، وتبرع بقصر المنار لوزارة المعارف ليكون نواة للجامعة الليبية.

وفي عام 1954م من شهر نوفمبر أصدر الملك إدريس توجيهاته إلى حكام الولايات

---

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(241).

(2) المصدر السابق نفسه ص(241).

(3) انظر: المصدر نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه، ص(241).

الثلاث: برقة، وطرابلس، وفزان لاتخاذ السبل الكفيلة بضرورة تدريس العلوم الدينية على الطلبة في جميع المدارس كمادة أولية مفروضة، وفرض الصلاة في أوقاتها (الخمس) على طلاب المدارس من بنين وبنات في كافة أنحاء المملكة لإعداد هذا الجيل إعداداً إسلاميًا رشيداً.

واهتم بتطوير معهد السيد محمد بن علي السنوسي حتى أصبح جامعة متميزة من حيث التعليم، والنظام والاستعداد، وكان يحث شعبه على الصلوات الخمس ويحذرهم من المعاصي والذنوب، وقام بتوجيه رئيس الوزراء ورئيس الديوان والولاة الليبيين وحملهم مسؤولية تهاون موظفي الدولة في أداء الصلوات الخمس ومسؤولية شرب الخمر، وحملهم المسؤولية العظمى أمام الله ثم أمام الملك، وكانت حيثيات هذا التوجيه مدعمة بالأحاديث النبوية الشريفة، وكان الإنذار الذي يحمله هذا التوجيه شديداً[1]. وكان يرى أن أركان النصر للشعوب في ثلاثة ركائز بالتمسك بالدين الكامل، والخلف الفاضل والاتحاد الشامل؛ ولذلك قال: «أنصح العرب الأشقاء بالتمسك بالدين الكامل والخلق الفاضل، والاتحاد الشامل؛ فلن يغلب شعب يحرص عل هذه الأركان»[2].

وقال: «الاتحاد العربي ضروري، والعصبية العربية مشروعة ومعقولة شريطة أن لا تتعارض مع الأخوة الإسلامية وأن لا تعتدي على حقوق الآخرين»[3].

وقال: «يجب على العرب والمسلمين أن يحرروا الفكر من قيود التقليد وأن يعتبروا الدين صديقاً للعلم»[4].

وقال أيضاً: «لقد نبغ في العرب رجال لو أنهم تماسكوا وتضافروا لأوجدوا في البلاد العربية حركة فكرية»[5] وقال: «إن كل شيء يمكن نيله إذا ما انتصرت حرية الفكر فبدونها لا يحصل أي تقدم ولا أي رقي ولا أي صلاح، ولا يمكننا الوقوف إلى جانب القوى التقدمية إلا إذا عممنا التربية والتعليم كما ينبغي وبذلك ننشئ نَشأً جديداً يكون أهلاً للنظر وللفكر والعمل»[6].

إن الاهتمام بالدين والعلم والأخلاق عند الملك إدريس رحمه الله نابع من عقيدة الإسلام،

---

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(243).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(246).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(246).
(4) المصدر السابق.
(5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص(246).
(6) المصدر السابق نفسه، ص(246).

ومن فهمه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويرى أن الحضارة الصحيحة هي التي تقوم على الدين والعلم والأخلاق وبهذه المقومات قامت الحركة السنوسية، فعندما سأله كاتب دانمركي أجرى معه مقابلة صحفية أثناء وجوده بالمنفى عن موقفه تجاه الاحتلال الإيطالي لليبيا آنذاك، فجاء رده مؤكداً لنظرته للحياة الروحية باعتبارها أهم من الوجود المادي، إذ قال في معرض حديثه: «إن الحضارة التي يريد الإيطاليون إدخالها إلى بلادنا تجعل منا عبيداً للظروف ، ولذا وجب علينا أن نحاربهم، فهي تبالغ في إضفاء الأهمية على قشرة الحياة الخارجية، كالتقدم الفني والآلي مثلاً وتعتبر مظاهر الأبهة والسلطان معياراً لا لحكم قيمة الفرد أو الأمة، في حين تستهين بالنمو الداخلي للإنسان، وأستطيع أن أقول لك شيئاً واحداً وهو أنه حيث تسود الدعوة السنوسية يستتب السلام والرضا من كل جانب»[1].

ثانياً - حبه للشعب وحب الشعب له:

عندما عينت الجمعية الوطنية التأسيسية الليبية حكومة مؤقتة في شهر أبريل عام 1951م برئاسة محمود المنتصر رأت الحكومة أهمية زيارة الملك إدريس لمنطقة طرابلس تلبية لرغبة الشعب الطرابلسي لهذه الزيارة؛ ولبى الملك تلك الرغبة وابتهجت المدن الليبية في الغرب بهذه الزيارة واستقبلته الوفود من الرجال والنساء والشيوخ والشباب، وعندما وصل موكبه إلى طرابلس واخترق شارع عمر المختار كان بعض العملاء المندسين يتربصون بالملك الدوائر وقذف موكبه ببعض القنابل ولكن الله سلّم، وظهرت من الملك شجاعة نادرة، وثبات عجيب فلم يهتز من بدنه شعرة واحدة، وما كاد يذاع نبأ هذه المحاولة الفاشلة في ليبيا حتى اجتمعت جموع الشعب في أسرع من لمح البصر من شدة حبها لزعيمها وقائدها وشرعت تهنىء بعضها بسلامة قائدها، وبهذه المناسبة قال أحمد رفيق المهدوي:

وقـــاك الله مـــن شـــر الأعـــادي ودام عـــلاك يـــا أمـــل الـــبـــلاد
وعـــشـــت لأمـــة جـــعـــلـــتـــك رمـــزاً لـــوحـــدتـــهـــا وروحـــاً لـــلـــجـــهـــاد
حـــيـــاتـــك بـــيـــنـــنـــا لله نـــور أيـــطـــفـــىء نـــوره أهـــل الـــفـــســـاد؟
أتـــم الله نـــعـــمـــتـــه عـــلـــيـــنـــا بـــحـــفـــظـــك واهـــتـــدائـــك لـــلـــســـداد
فـــدم مـــلـــكـــاً عـــلـــى عـــرش مـــتـــيـــن مـــحـــاطـــاً بـــالـــمـــحـــبـــة والـــوداد[2]

وقد أجاب الملك إدريس عن هذه الحادثة فقال: «إن هذه الحادثة لم تكن أبداً من ليبي

(1) انظر: الإنقاذ العدد (39)، 29 جماد الآخر 1412هـ، ديسمبر 1991م، ص(66).
(2) انظر: إدريس السنوسي، ص(191).

ولن يقدم عليها أحد من أبناء ليبيا، وإنني أحمد الله جلت قدرته الذي وقى هذه البلاد شر المصائب» إلى أن قال: «والضرر الذي يلحق بقضية البلاد أخطر من الضرر الذي يلحق بشخصنا أو بأي شخص آخر»، وقال: «إننا لسنا من أي حزب ولن نتحزب لحزب دون آخر، وإنما نحن للجميع ونَسعى لخير الكل ولصالحهم، هذا هو مبدؤنا الذي فطرنا عليه وعملنا من أجله زهاء ثلاثين سنة، ونحن لا نعتبر أنفسنا إلا فرداً من أفراد هذا الشعب لا يهمه غير مصلحة الشعب ومستقبل البلاد»[1].

وقام بزيارة ترهونة والزاوية وغريان، ويفرن ومصراته وزليطن والخمس، وكان يستقبل من الشعب بالحب والود والوفاء، وقام الشعراء بنظم القصائد تعبيراً عن فرحتهم بهذه المناسبة فقد قال عبد الغني البشتي:

اليوم يوم المجد والعلياء ... اليوم يوم العزة القعساء
اليوم يوم القطر من سلومة ... للبحر للسودان للخضراء
اليوم يومك ليبيا بل إنه ... يوم العروبة ساطع الأضواء
يوم قد انبعث له من يثرب ... الروضة الفيحاء باللألاء
يوم قد امتدت له من (مكة) ... أنوار طه من بني الزهراء
يوم المليك ومرحباً بك يومه ... يوم أغر بليبيا الفيحاء
إدريس يانسل النبي محمد ... اهنأ بملك في سنى وعلاء
ملك قد اختار الإله مليكه ... من أشرف الآباء والأبناء
تاج على هام القلوب منصب ... ولواؤه في الشرق خير لواء
إني أرى الأملاك في عليائهم ... يتباشرون بسيد البطحاء
يتباشرون بملكه في رفرف ... عال من الأضواء واللألاء
لم لا؟ وأنت سليل أحمد من له ... ما يبتغيه المجد من علياء
الله أكبر عشت يا فخر العلا ... للعرب، بل للشرق خير وفاء
تحمي حمى الإسلام ترفع صرحه ... وتعيد فيه بسيرة الخلفاء
مولاي شعبك روعت ألبابه ... يد أرعن يبغيك بالضراء
نفديك بالأرواح إن شئت الغداة ... ونجود بالأموال والأبناء
مولاي: أبقاك الإله لليبيا ... دهراً سعيداً في أعز علاء[2]

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص(192).

(2) انظر: إدريس السنوسي، ص(192، 193).

لقد كانت أعمال الملك من أسباب محبة الليبيين له، فقد أصدر أوامره بأن يعفى من الضريبة الجمركية كل من يرد إلى الديوان الملكي، وبأن لا يلقب بصاحب الجلالة تقدساً بذات الله جل جلاله وقال: «إن الجلالة لله وحده، وما أنا إلا عبد من عباد الله»(1).

ويعتبر هذا الحدث سابقة تاريخية من أروع ما شهد في دنيا الملوك ولقد تأثر ريفلي رئيس جريدة «بريد طرابلس» التي كانت تصدر باللغة الإيطالية لهذا الحدث وكتب مقالاً جاء فيه: «إن الرغبة التي أبداها الملك إدريس ليست في حاجة إلى تعليق؛ لأنه عندما تبوأ العرش كان تواضعه معروفاً، وسهره المتواصل وعطفه ورعايته لشعبه فإن دل هذا على شيء فإنما على الديمقراطية التي تجلت في أسمى معانيها، ولقد أتاح الحظ لليبيا - وهي لا تزال في بداية حياتها - أن تكون على رأسها شخصية صالحة مختارة تخاف الله العلي الأجل، وعندما قبل مهمته الصعبة الخطيرة بأن يقود شعبه إلى ما كتبه له القدر من مصير، فإن ذلك كان استجابة لأمر ربه الذي يمده بنوره فيما يتخذ من قرارات وفي أعماله، وقد تبين له أن لقب (الجلالة) لقب ضخم لا يتفق مع أساسه الديني الذي يرى أن المولى وحده صاحب الجلالة العظمى وهو وحده العلي الأعلى.. ولم يكن هذا التصرف بغريب على الملك محمد إدريس المهدي السنوسي الذي ينحدر من سلالة شريفة أراد الله تعالى أن يمكن في قلبها الإيمان والثقة به، وفي عالمنا هذا الذي يسير سيراً حثيثاً نحو المادية فإن تصرفاً مثل هذا يتعدى أي احتمال ويدل دلالة قاطعة على أن أي مسبب حتى وإن كان ذلك المسبب سامياً يمكنه أن يكون وسيلة لإظهار تواضع منبثق عن عقيدة راسخة في عظمة الله»(2).

وقد حدثني السيد أحمد العرفي عندما كنا معاً في السجن السياسي بطرابلس عن حادثة تدل على تعظيم الملك إدريس للمولى ﷻ وهي أنه كان هناك مسجداً جديداً في مدينة البيضاء وجاء الملك لافتتاحه ومع مجيئه ودخوله المسجد شرع الناس في الهتاف بحياة الملك إدريس، فغضب وأمر الناس بالصمت وقال لهم: هذا المكان لا ينبغي أن يذكر فيه غير اسم الله واستشهد بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18] ولذلك أحبه شعبه وأحب شعبه المسلم، كانت الإرادات السامية تصدر من الملك لتجسد هذه المعاني الرفيعة من التواضع والبساطة والبعد عن المظاهر وتحاشي الشبهات، فقد أصدر إرادة سامية بأن لا يطلق اسمه على الشوارع والمؤسسات بقصد التمجيد والتخليد محتسباً عند الله ما عمله لصالح أمته وشعبه، وأصدر إرادة سامية بأن لا تنشر صور ذاته على العملة أو على طوابع البريد ابتعاداً عن المظاهر الدنيوية الزائلة، وأصدر إرادة سامية بأن لا يتخذ من ذكرى ميلاده عيداً رسميًا وأن لا تقام

(1) إدريس السنوسي، ص(232).
(2) انظر: إدريس السنوسي، ص(232، 233).

الاحتفالات بهذه المناسبة، وذلك لأنه ليست مما جرى به العمل في السلف الصالح رضوان الله عليهم[1].

وأصدر أمراً بتعديل قانون البيت المالك، وألغى بموجب ذلك الأمر حصانات وامتيازات الأسرة، كما ألغى ألقاب الإمارة والنبل من أعضاء البيت السنوسي، وأمر أيضاً بأن لا يقبل أية هدية يرى الشعب فرادى أو جماعات أن يقدمها له في أية مناسبة تتعلق بذاته أو غيرها من المناسبات، وبهذه المناسبة صدر بلاغاً من الديوان الملكي يتعلق بأحد المواضيع التي نحن بصددها: «بالنظر لما أشيع من أن هناك هيئات حكومية وشعبية ستقوم بتقديم هدايا ثمينة إلى حضرة مولانا الملك المعظم وذلك بمناسبة قرانه السعيد فقد أمر حفظه الله بأنه لن يقبل هذه الهدايا بدون استثناء، ويطلب من الذين يرغبون في تقديمها إلى مقامه السامي أن يوزعوا المبالغ التي جمعت أو خصصت لهذا الغرض على الفقراء والمعوزين والله يجزي أجر من أحسن عملاً»[2].

كان الملك إدريس ﷺ يقوم صباح كل يوم مبكراً لأداء صلاة الفجر في وقتها ويشرع في قراءة القرآن الكريم وأوراده اليومية ويتناول إفطاره حوالي الساعة التاسعة، ثم يخرج إلى مكتبه حوالي الساعة العاشرة فيستقبل موظفي الديوان والخاصة الملكية لتصريف الأعمال اليومية، ويستقبل من الضيوف ورجال الحكومة وأصحاب الحاجات من الحادية عشر إلى الواحدة، ثم يتناول طعام الغداء بعد تأدية صلاة الظهر مباشرة، وكانت الجولة البرية من أحب الرياضات عنده وكان يستقبل بعض زواره قبل صلاة المغرب وبعد صلاة العشاء يتناول الشاي عادة مع موظفي القصر وضيوفه وينام عادة حوالي الحادية عشر مساءً.

وكان يحب المطالعة في مكتبته الخاصة ويعكف عليها طويلاً، وأحب ما عنده قراءة القرآن، ودراسة كتب الحديث، ومطالعة كتب التاريخ العام، وكان يحرص في غالب الأحيان على استماع نشرات الأخبار من المذياع.

وكان لا يهتم بالمظاهر في تحركاته، وقد ذكر السيد عمر فائق شنيب قصة طريفة عندما كان رئيس الديوان الملكي: كان مولانا الملك يريد أن يتوجه من بنغازي إلى البيضاء وحضرت سيارات الحرس، ولما شاهدنا قبل التحرك قال لي: لا داعي لأن تكون معنا هذه السيارات ونكتفي بسيارة واحدة تحمل بعض الضروريات، وكان قد فاتني أن أصدر هذا الأمر إلى قائد الحرس، وبينما ونحن في الطريق لفت نظري الملك إلى أمره السابق وقال: لماذا يكون معنا

---

(1) انظر: مجلة الإنقاذ العدد (29)، ص(76).

(2) انظر: إدريس السنوسي، ص(234).

هذا الحرس؟ فقلت له: يا مولاي إن هذا لم يكن حرساً لكم ولكنه محروساً بكم[1].

كان الملك ﷺ في يوم ربيع 1953م راجعاً من جولته التقليدية ورأى سيارة واقفة بسبب خلل فيها، وكان صاحبها الأستاذ محمد بن عامر، فأمر الملك سائق سيارته أن يقف حتى تلحق به سيارة الحرس وأمر هذه السيارة بأن تعود إلى الأستاذ ابن عامر لتحمله حيث شاء[2].

وخرج الملك إدريس ذات مرة في جولته المسائية المعتادة ولم يصحب معه حرساً ودخل إلى بعض المزارع في منطقة البيضاء، وعندما دخل إلى أحد البساتين وجد صاحب البستان منهمكاً في سقايته فحياه بتحية الإسلام، وكان البستاني لا يعرف الملك شخصيًا ولم يخطر بباله أن الملك يصل إلى ذلك الموقع بمفرده كأي شخص ترمي به الطريق، وبدأ الملك يسأل البستاني عن أنواع الشجر والمحصول وما إلى ذلك، وكان صاحبنا يجيب عن كل سؤال في حين أنه منهمك في عمله، وعندما فرغ الملك من الأسئلة وأراد الانصراف سأله البستاني قائلاً: (من حضرتك من غيار صغاره) وهذا هو سؤال كل شخص في برقة لمن لا يعرفه، فأجابه الملك بقوله: (أنا إدريس) ولشدة دهشة الرجل عندما سمع الإجابة قفز مسرعاً وعانق الملك قائلاً: مرحباً، مرحباً، أنت سيدي إدريس ولد سيدي المهدي، مرحباً، مرحباً، وأخذ يرد الترحاب والتساؤل في استغراب[3].

إن هذه الصفات الرائعة تدلنا على جوانب مضيئة في شخصية الملك إدريس الإسلامية وحبه لمعالي الأمور واهتمامه بالتواضع والبساطة، كما تدلنا على أنه تحصل على قسط من التربية الإيمانية من حركة أجداده الميامين الطيبين الطاهرين.

ثالثاً - نصحه لزعماء العرب، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

كان كثير الاتصال بجميع إخوانه ملوك ورؤساء العرب والمسلمين مسترشداً مستعيناً أو ناصحاً أميناً، وقد بذل جهوداً كبيرة ومساعي جليلة لدى كل من الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين أثناء الظروف العصيبة التي مرت بالسعودية واليمن وكان بينهما سوء التفاهم ما كاد أن يكون ثغرة يتسرب منها التدخل الأجنبي، كتب للملك عبد العزيز، والإمام يحيى ناصحاً أميناً، وأظهر كل من الزعيمين تقديره لشعور إدريس السنوسي، وقد تبودل بينه وبينهما عدد من الرسائل في هذا الصدد، وهذه صورة من رسالة أرسلها إلى الملك عبد العزيز ﷺ: قال بعد البسملة: (إلى عين الملوك الكرماء وحامي حوزة الحنيفية السمحاء

---

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(237).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(237).
(3) انظر: إدريس السنوسي، ص(238).

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود أدام الله بدور سعوده، ولا زال يعمر الأنام بعدله العمري وجوده وبعد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لقد بلغنا عن حكم جلالتكم البالغة ما شرح صدر كل ودود، وكمد كل معاند حسود، وجعل كل موحد يرقص لصنعكم طرباً، مفتخراً بجلالكم بين الملوك عجماً وعرباً، فقد جاء حكم جلالتكم العادل في تلك القضية التي كانت بين حكومة جلالتكم وبين حكومة جلالة ملك اليمن كالصاعقة على رؤوس الذين يصطادون في الماء العكر، وهم من بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فسقط بحمد الله في أيديهم ورد كيدهم في نحرهم، بعدما كانوا يعتقدون أن الدولتين واقعتان لا محالة في حرب، وكانت في نظرهم على قاب قوسين أو أقرب، ولكن الله سلم وكفى الله المؤمنين القتال، بما أوتيتموه من حكمة وروية فضربتم للناس خير مثال، وحمدنا الله كثيراً على أن الدسائس لا تجد منفذاً لجانبكم الحصين، وذلك ليقظتكم وسهركم على مصالح الإسلام والمسلمين، فقد تداركتم الأمر بحكمتكم قبل الفوات، وحزتم بذلك من العالم العربي والإسلامي أصدق الدعوات، وإني أتقدم إليكم أيها الأخ الكريم بخالص شكري القلبي على عدم تفضيلكم المصلحة الخاصة دون المصلحة العامة مما جعل الألسنة تلهج بالدعاء لجلالتكم أبقاكم الله للإسلام ذخراً وعضداً، وللدين الحنيف ركناً وسنداً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإمضاء (محمد إدريس السنوسي)[1]

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

بذل الملك إدريس رحمه الله ما في وسعه في القضايا التي تتنامى إلى سمعه، فيغضب لله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كانت هناك أمور لم يتدخل فيها لكونها خارجة عن إرادته وقدرته بحكم الوجود البريطاني والأمريكي.

وإليك أخي القارىء هذه الرسالة التي وجهها إلى الحكومة الاتحادية في 13 يوليو 1960م التي عممت على جميع الإدارات الحكومية، ثم نشرتها الصحف ووسائل الإعلام بسبب حصول ابن عمه عبد الله عابد السنوسي امتياز تنفيذ طريق فزان بكيفية مريبة، فأطلق الملك صرخته المدوية (لقد بلغ السيل الزبى).

وكانت الرسالة موجهة إلى رئيس الحكومة الاتحادية والوزراء والوكلاء، وكل مسؤول بها، وإلى والي طرابلس، ووالي برقة، ووالي فزان ونظارهن ومديريهن ومتصرفهن، وكل مسؤول فيهن: إنه بلغ السيل الزبى، وما يصم الآذان من سوء سيرة المسؤولين في الدولة من

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(227).

أخذ الرشوة سرًا وعلانية، والمحوسبية القاضيتين على كيان الدولة وحسن سمعتها في الداخل والخارج، مع تبذير أموالها سراً وعلانية، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

ولقد قال رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»**.

وقد قال رسول الله ﷺ في حديثه: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

وإنني بنعمة الله وقدرته سوف أغيره بيدي إن شاء الله ولن تأخذني في الله ولا في طهارة سمعة بلادي لومة لائم والسلام. وبالرغم من إن التحقيقات التي أجريت قد أثبتت براءة ذمة حكومة كعبار من التهم التي علقت بها، إلا أن الملك رأى أن نزاهة الحكم لا تتحمل وجود مثل تلك الشبهات، فطلب من الحكومة تقديم استقالتها، فتقدمت بها وقبلها الملك في 16 أكتوبر 1960م[1].

رابعاً - أدب العبارة في خطاب الملك إدريس وسمو معانيها وتواضعها الجم والدعوة إلى الخير والتقوى:

تميزت خطابات ملك ليبيا السابق برصانة الأسلوب، ومتانة التعبير، وقوة الحجة، وحرص الراعي على الرعية، ونصحه لشعبه، وكانت خطاباته عامرة بالدعوة إلى الخير والتقوى ومكارم الأخلاق، وهذا خطاب ألقاه بمناسبة توحيد الحكم في المملكة وألغى الحكم الاتحادي في عام 1963م يوم 26 أبريل يؤكد ما ذهبت إليه: مواطنيّ الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

في هذه اللحظات التاريخية التي تمر بها أمتنا المجيدة، وفي هذه المرحلة التي يجتازها ركبنا الصاعد يسرني غاية السرور أن أعلن للشعب الليبي الكريم انتهاء العمل بشكل الحكم الاتحادي والبدء رسميًا في نظام الوحدة الشاملة الكاملة تطبيقاً للتعديل الدستوري الذي وافقت عليه المجالس النيابية والتشريعية بالإجماع، وإنني لأحمد الله تعالى كثير الحمد وأتوجه إليه بالشكر العظيم والثناء الجميل على ما منّ به سبحانه وتعالى من نعمة حتى مشاهدة ولادة هذا الأمل الوطني الكبير ووفقنا جميعاً بتأييده وعونه إلى تحقيق هذه الأمنية الغالية.

إن الوحدة التي تبدأ اليوم عهدها الميمون هدف جديد من أهدافنا الوطنية التي جاهدنا من أجلها وضحى شعبنا في سبيلها، فهي ثمرة طيبة للجهاد ووفاء لأجر الصابرين، وهي بعد ذلك،

(1) انظر: مجلة الا [illegible] (29)، ص(69، 70).

خير وبركة ورمز لاجتماع الكلمة وتآلف القلوب ووعاء للمحبة والتآخي والوئام ومبدأ يتبوأ مكان السمو في عالم الأخلاق والفضيلة، وحبل الله المتين الذي أمرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام بعروته الوثقى، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103] وهو الدين القويم دين سيدنا محمد ﷺ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46] وقال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**.

فالحمد لله الذي جمع على المحبة قلوبنا ووحد على الوفاق بلادنا وجعلنا من أمة التوحيد التي هي خير أمة أخرجت للناس.

وإني لأنتهز فرصة إعلان الوحدة المباركة السعيدة فأوصيكم جميعاً بتقوى الله تعالى ومراعاة وجهه في السر والعلن، وأحثكم على مضاعفة الجهد وبذل المزيد من العمل حتى نوفر لبلادنا الازدهار والرخاء والرفاهية ونعيش جميعاً في ظل الوحدة أمة قوية في خلقها، عزيزة في شخصيتها، متينة في بنائها، نظيفة في سمعتها، إن الوحدة تلقي على كواهلنا مسؤوليات جساماً وتضع نصب أعيننا واجبات كثيرة فعلينا أن نقوم بها ونحافظ عليها، كما نحافظ على استقلالنا ونحوطها بالرعاية والحدب، ونغذيها بمشاعر المحبة والوطنية حتى نستمر في طريق النمو والاكتمال، فالوحدة ليست غاية في ذاتها وإنما هي وسيلة إلى عمل الخير وطريق إلى آفاق الإصلاح والفلاح، وواجبنا أن نأخذ منها القاعدة الصالحة للانطلاق إلى الأهداف العليا، ومصباح النور الذي ينير مواقع خطواتنا في طريق العمل الدؤوب والسعي المجدي والتعاون المثمر المفيد، إن كل مواطن مسؤول عن حماية الوحدة وتفرض هذه المسؤولية أن شعار الوحدة، تحت لوائه الخفاق كل السواعد العاملة، والهمم المتوثبة، والكفاءات الخلاقة، ويشمل كل بقعة تستظل بسماء هذا الوطن العزيز ويستمتع كل مواطن بخيراتها العميمة، ويعيش في كنفها عيشة الطمأنينة والسعادة والاستقرار، أبلغ شكر لنعمة ضيافتها، وأسمى مراتب الحق أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. وفقنا الله جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، وألهمنا الرشد والصواب، وجعل وحدتنا فاتحة عهد سعيد يفيض خيره ويزيد نفعه وتعم بركاته، ونبدأ مرحلة تنشط فيها العزائم، وتقوى الإرادات، فإنه تعالى أقرب مسؤول يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ومنه الهداية والتوفيق وإليه الملجأ والمصير[1].

إن هذا الخطاب مليء بأدب العبارة، وسمو المعاني، والتواضع الجم والدعوة إلى الخير والبر والتقوى.

---

(1) انظر: مجلة الإنقاذ العدد (29)، ص(63).

خامساً - اهتمام الملك إدريس بالثورة الجزائرية:

كان السنوسيون منذ زمن المؤسس الأول للحركة الإمام محمد بن علي السنوسي مهتمين بأمر الجهاد في الجزائر، وواصل الملك إدريس جهوده المادية والمعنوية لدعم ثورة الجزائر التي اندلعت في 1/ 11/ 1954م وقد أثبتت الوثائق التاريخية جهوده العظيمة، وأعماله الجسيمة في هذا الباب، فقد ذكر السيد مصطفى أحمد بن حليم في كتابه «صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي» في الباب التاسع تحت عنوان: «ثورة الجزائر ودور ليبيا الخطير في مساندتها» ما يقيم الحجة والبرهان على صدق الملك إدريس لدعمه للثورة الجزائرية، فقد ذكر السيد مصطفى بن حليم عندما كان بالقاهرة أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل به ودعاه لاجتماع منفرد معه، وفاجأه قائلاً: إنه يود أن يتحدث معه عن الثورة الجزائرية التي اندلعت، وشرح جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم أنه اتفق مع الملك سعود والأمير فيصل على أن تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم كافة الأموال اللازمة لشراء السلاح والعتاد والإمدادات اللازمة للثورة الجزائرية، وأن يقوم رجال الجيش المصري والمخابرات بشراء ذلك السلاح والعتاد وإيصاله إلى الحدود الليبية وهو يأمل أن يشرف رئيس الحكومة (السيد مصطفى بن حليم) بنفسه بنقل ذلك السلاح والعتاد عبر ليبيا إلى الحدود الجزائرية حيث يستلمه منه ممثلو الثورة الجزائرية ثم قال جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم: «أو لعلك ستخشى الفرنسيين وتخاف بطشهم؟».

فرد عليه مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا سابقاً وقال له: «يا ريس لعلك لا تعرف أن جد الملك إدريس جاء إلى ليبيا من الجزائر هارباً من الطغيان الفرنسي وأمضى حياته في نشر الدعوة الإسلامية وإيقاظ الأمة الإسلامية لتقاوم موجة الطغيان والتنصير الفرنسي، ووالد الملك إدريس ظل يقاوم تغلغل المد الفرنسي في تشاد والسودان والنيجر، حتى لقي وجه ربه، والسيد أحمد الشريف والملك إدريس أفنيا عمرهما في الجهاد ضد الطليان...»[1]. ورد جمال عبد الناصر على هذه الإجابة المقنعة بقوله: «ألا تستوعب الدعابة؟ إنني أعرف كل هذا وأعرف أن الليبيين أبطال جهاد ولكنني أرغب أن أرى رد فعلك.. وتبين لي أنك مغربي حاد المزاج لا تتقبل الدعابة بروح مرحة»[2].

كانت القوات البريطانية المتواجدة في ليبيا والمنتشرة على طول البلاد من طبرق إلى غرب طرابلس والجواسيس الإنكليز يسيطرون على مراكز حساسة، وموظفون من الإنكليز أيضاً في شرطة ولاية طرابلس، وفرنسا لا تزال تحتل جنوب ليبيا (فزان) ولسفاراتها في طرابلس وبنغازي جهاز مخابرات من الطراز الأول وله أعوان وعيون منتشرة في طول البلاد وعرضها، بين السيد

(1 - 2) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(351).

ابن حليم تلك الملابسات لجمال عبد الناصر الذي أجاب: «إنني على علم تام بأن ما أطلبه منك عمل ينطوي على خطورة كبيرة، ومغامرة خطيرة. . .»[1] ثم أضاف: «لولا أنني مطمئن لوطنية الملك إدريس ووطنيتك وحرصكما الشديد على تحرير الشمال الإفريقي من نير الاستعمار الفرنسي البغيض لما طلبت منكم ما طلبت، وعلى أية حال فأنا رهن إشارتكم لأي عون أو نصح أو مساعدة في سبيل هدفنا النبيل لتخليص الجزائر من ربقة الاستعمار» بعد ذلك قام جمال عبد الناصر بتعريف مصطفى بن حليم بالسيد أحمد بن بلاّ[2].

كان قائد قوة دفاع الفريق محمود بوقويطين لا يثق في جمال عبد الناصر ويراه حريصاً على تفجير القلاقل وزعزعة النظام داخل ليبيا ولربما اتخذ من ستار مرور السلاح إلى الجزائر وسيلة لتوزيع السلاح داخل ليبيا ضد المملكة وعُرِض الأمرُ على الملك رحمه الله فقال: «من ناحية لا يمكننا أن نرفض مساعدة ثوار الجزائر في جهادهم، هذا واجب ديني محتم علينا تلبيته ولا يمكننا أن نتردد في القيام به. . ومن ناحية أخرى فإنني لا أريد أن أعرّض استقلال هذا الوطن الذي ضحينا في سبيله بكل عزيز وغال واستشهد في سبيله مئات الآلاف من الليبيين، ولا أود أن أقامر بهذا الاستقلال خصوصاً مع فرنسا التي خرجت عن طورها وترتكب كل يوم الكثير من الجرائم والحماقات في قمع كل حركة استقلالية في الشمال الإفريقي. . . ومع توتر علاقتنا مع فرنسا بعد طلبنا إجلاء قواتها عن فزان فإنها ستلتمس أي عذر لترتكب معنا حماقة كبرى. . .)[3].

لقد وافق الملك إدريس على تمرير السلاح من مصر عبر الأراضي الليبية وقام بتوجيه وزير الوزراء والمسؤولين عن هذه الأمور باتخاذ الأسباب اللازمة للجمع بين الأمرين؛ مساعدة المجاهدين في الجزائر، وعدم تعريض استقلال البلاد لأي هزة من أي نوع كانت؛ وقام مدير عام قوة دفاع برقة الفريق محمود بوقويطين باتخاذ إجراءات الرقابة التي ستصاحب قوافل السلاح عبر برقة، واتخذ رئيس الوزراء مجموعة خيرة من ضباط مدينة طرابلس يشرف عليهم المجاهد العقيد عبد الحميد بيّ درنه للإشراف على هذه المهمة الخطيرة، وباشرالليبيون مع إخوانهم الجزائريين تنفيذ ما اتفقوا عليه وتسرب السلاح من ليبيا إلى الجزائر تدريجيًا واستمر هذا الحال في سرّية وكفاءة تامتين لمدة سنة تقريباً وكان الملك رحمه الله يبارك تلك الأعمال الجبارة[4].

ويحدثنا السيد مصطفى بن حليم عن قصة طريفة حدثت له مع السفير الفرنسي في ليبيا حيث قال: أذكر هنا قصة طريفة حدثت في منتصف سنة 1955م، فقد كنا في أوائل الصيف وأذكر كان يوم خميس وكنت على موعد مع الأخ أحمد بن بلاّ (من زعماء ثورة الجزائر) وبعض

(1 - 2) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(352).

(3) انظر: المصدر السابق، ص(353).

(4) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(354، 355، 356).

مساعديه، دعوتهم للغداء ثم التباحث بعد ذلك في أمور السلاح والعتاد والثورة. . . وأثناء النهار اتصلت بي وزارة الخارجية الليبية تقول إن السفير الفرنسي يلح في طلب مقابلتي حاملاً رسالة من إدجار فور رئيس الحكومة الفرنسية، وبدون تفكير قلت: ليحضر السفير الساعة الخامسة إلى المنزل (منزل رئيس الحكومة) ناسياً موعدي السابق مع ابن بلاّ وجماعته، ورجعت إلى مسكني عند الثالثة وتناولت الغداء مع الأخ أحمد وجماعته والعقيد بيّ درنه ومساعديه، ثم بدأنا مناقشة طويلة لاختيار أحسن المواقع التي تخزن فيها شحنات السلاح القادمة، وأثناء انهماكنا في هذه المناقشة الدقيقة دخل كبير المباشرين (وبرغم أوامري بعدم دخول أحد علينا في ذلك الاجتماع) واستأذن وأسرّ في أذني أن السفير الفرنسي وصل وأدخله في الصالون المجاور!! وارتبكت ثم قلت للأخ أحمد بن بلاّ: أستأذنكم لبضع دقائق فقد حان موعد كنت نسيته مع السفير الفرنسي! وأضفت: لعله لم يسمع مناقشتنا. . ! وذهبت لاستقبال (مسيو دي مارساي) الذي كان يحمل لي رسالة عاجلة من رئيس وزراء فرنسا يرجو المساعدة في القبض عن طريق العدالة الفرنسية على المدعو (بن بلاّ)! وتمكنت بصعوبة كبيرة من السيطرة على عضلات وجهي وكتم ضحكة ساخرة. . . وقلت للسفير أرجو أن تحضروا لنا صوراً للمجرم (ابن بلاّ) صوراً مواجهة وصوراً جانبية ووصفاً دقيقاً للرجل وتقدموا هذه المعلومات للسير يجادير جايلزبك في طرابلس وللفريق بوقويطن في برقة، وسأصدر تعليماتي لهما بمساعدتكم بكافة الوسائل، وودعت السفير ثم استأنفت الاجتماع فسألني الأخ أحمد عن سبب زيارة السفير قلت: أراد المساعدة في القبض عليك! قال: وماذا قلت له؟ قلت: وعدته بالمساعدة بعدما يقدم لي تفاصيل كافية تمكن رجال الشرطة من القبض عليك! وضحكنا كثيراً. .)[1].

لقد تدهورت العلاقات بين ليبيا وفرنسا بعدما تأكد للحكومة الفرنسية أن ليبيا تقف وراء حركة الجهاد في الجزائر مؤيدة لها قولاً وفعلاً، وتسربت الأخبار عن الدور السري الخطير الذي كانت تقوم به ليبيا بزعامة ملكها في مساندة الشعب الجزائري ومده بالسلاح والعتاد، بالإضافة إلى التأييد السياسي والمعنوي إثر اعتراض الطيران الفرنسي للطائرة التي كانت تحمل أحمد بن بلاّ ورفاقه وهم في طريقهم من الرباط إلى تونس، وأرغمت الطائرة على الهبوط في مطار الجزائر وتم اعتقالهم هناك[2].

لقد استشاط غضباً نواب اليمين في البرلمان الفرنسي ووصلت حملتهم على دور ليبيا في نصرة حركة الجهاد في الجزائر حد الهستيريا، الأمر الذي جعل الحكومة الفرنسية تحاول التملص من وعودها بالجلاء عن الجنوب الليبي في فترة أقصاها نوفمبر سنة 1956م وقامت

---

(1) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(357، 358).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(359).

فرنسا بإرسال السفير (بالائي) إلى الحكومة الليبية وأبلغها بأن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تنفذ جلاء قواتها عن فزان بعد ما تبين لها مواقف الحكومة الليبية المعادية لفرنسا، وكان رد رئيس الوزراء الليبي بأن حكومته سوف ترفع القضية إلى مجلس الأمن وطلبت من الرئيس أيزنهاور الأمريكي لكي يتدخل وينصح حلفاءه الفرنسيين باحترام ميثاقهم مع ليبيا[1].

لقد وقف الملك وحكومته وشعبه مع القضية الجزائرية، وكانت الحكومة الليبية شديدة الحرص على الادعاء بأنها تقف موقفاً محايداً تماماً، فبينما تعطف على آمال الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال إلا أنها لا تساعد على أعمال العنف! ولذلك فهي تدعو فرنسا وثوار الجزائر إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات للوصول إلى حل سلمي! كان كل هذا ستاراً دبلوماسيًا؛ لأن مساعدات ليبيا للجزائر زادت نوعاً ومقداراً، بل سمح للمؤسسات الشعبية في أنحاء ليبيا بتكوين جمعيات شعبية لنصرة الشعب الجزائري وجمع التبرعات، وإرسال برقيات التأييد للثورة الجزائرية، وبرقيات الشجب للحكومة الفرنسية، وكانت الحكومة الليبية برئاسة ابن حليم تدعي أن لا دخل لها بالأعمال الشعبية العفوية، وأن خير سبيل أمام فرنسا هو الاستجابة لنصائحها باتباع الطرق السلمية مع الثورة الجزائرية وإيقاف أعمال القمع والقتل والتشريد التي تقوم بها القوات الفرنسية في الجزائر[2].

كان رئيس الحكومة الليبية مصطفى بن حليم متعاطفاً مع القضية الجزائرية ووجد دعماً معنوياً من الملك نفسه، فمضى في طريقه بثقة واطمئنان، حتى أنه لما زار عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا ليبيا في عام 1957م في شهر فبراير اختلى ابن حليم بعدنان مندريس وبدأ بحديثه عن دور الأتراك العظيم في نشر الإسلام وزعامتهم للأمة الإسلامية عبر قرون عديدة من التاريخ الإسلامي المجيد، وشدد على روابط الدين التي تربط الأتراك ببقية الأمة الإسلامية، وعلى أن لتركيا دورها الإسلامي العظيم بالرغم من دعاوي العلمانية، ثم عرّج بحديثه عن شمال أفريقيا وشرح لمندريس مدى الظلم والقتل والتشريد الذي يعاني منه شعب الجزائر المجاهد ومحاولات فرنسا قمع ثورته الإسلامية وتنصيره وفرنسته، ثم دخل في صلب الموضوع وقال لعدنان بك: «إنني آمل أملاً قويًا أن تمد تركيا الشقيقة المسلمة الكبرى يد المساعدة لشعب الجزائر المجاهد في محنته الراهنة».

قال عدنان مندريس: إنه كمسلم يعطف بكل جوارحه على الشعوب الإسلامية جميعاً وبنوع خاص على شعوب الشمال الإفريقي وهو على إدراك تام بما يعانيه الشعب الجزائري في حربه الاستقلالية ثم قال: «ولقد بذلت تركيا الكثير من المساعي السرية الحميدة لدى حكومة

(1) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(360).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(358، 359).

باريس موصية وناصحة بأن مشكلة الجزائر لا تحل بالقوة والقمع بل بحلول سياسية وتفاوض مع ممثلي سكان الجزائر، وأضاف إنه على استعداد لمضاعفة هذه المساعي بل وتوسيعها بحيث تشمل ضغطاً وديًا لدى دول حلف الأطلنطي الأخرى مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا، وقام السيد مصطفى بن حليم يشكر عدنان مندريس على مساعيه الدبلوماسية الطيبة وحثه على المواصلة وقال له: «إن مساعدة شعب الجزائر تتطلب أكثر من المساعي الحميدة فهي تتطلب عوناً ماديًا، مالاً وسلاحاً» ونظر عدنان مندريس إلى مصطفى بن حليم وظهر على وجهه الاضطراب واختفت الابتسامة التي كانت تلازمه كثيراً، ثم قال للسيد مصطفى بن حليم: يا أخي العزيز أنت تعرف أن تركيا عضو هام في حلف الأطلسي فكيف ترى أن تقدم لثوار الجزائر سلاحاً من سلاح الحلف (الأطلسي) لكي يحاربوا به عضواً هامًا آخر من ذات الحلف أعني فرنسا؟ فقال مصطفى بن حليم: أنا أعرف أن تركيا من أقوى الدول الإسلامية وهي التي كانت تتولى القيادة والريادة للأمة الإسلامية لقرون عديدة، فكيف ترى أنت يا أخي العزيز ألا تمد تركيا العون المادي للجزائريين المسلمين الذين تقتلهم قوات فرنسا وتشردهم أو تعذبهم أنكل التعذيب؟ وما لهم من ذنب إلا أنهم يسعون لنيل حريتهم واستقلالهم؟

كرر مندريس مخاوفه الشديدة من عواقب اكتشاف أية شبهة بأن تركيا تمد الثورة الجزائرية بأي عون مادي.. وكرر عدة مرات بأن هذا سيسبب طرد تركيا من حلف الأطلسي وهو الركيزة الرئيسية التي يرتكز عليها دفاع تركيا في مواجهة الخطر الروسي العظيم، وكان ابن حليم يشعر بأن مخاوف عدنان مندريس حقيقية فهدأ من روعه وقال له: إن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفاً مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموه أنتم إلى شقيقتكم ليبيا فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا، وقال مصطفى لعدنان: إن الليبيين سوف يقومون بتسريب السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجيًا، وواعده بأن لا يعلم هذا السر إلا القيادة الجزائرية العليا، بل عدد قليل من أفراد تلك القيادة العليا، وواصل ابن حليم حديثه مع ضيفه رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس واستعرض له ماضي تركيا الإسلامي وتاريخها في الذود عن الإسلام، وإعلاء كلمته ومزج السياسة بالعاطفة الدينية، إلى أن قال عدنان مندريس: سنقدم لكم هدية السلاح، وأرجو الله أن يوفقكم في إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها في الدفاع عن دينهم، أما نحن في تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش ليبيا الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية المطلقة، وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركي واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري ثم بدأ تسريبها تدريجيًا إلى مجاهدي الجزائر[1].

---

(1) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(361، 362، 363).

كان الملك إدريس رحمه الله بعيد النظر، فبعد أن استقال السيد مصطفى بن حليم من الحكومة في آخر مايو عام 1957م عينه مستشاراً خاصاً له بمرتب رئيس وزراء وأصر على بقاء ابن حليم في خدمة الدولة، وشرح الملك لرئيس وزرائه السابق أنه سيحتاج إليه قريباً، ثم عرض عليه أن يرسله سفيراً لليبيا في باريس، لأن علاقته الممتازة مع رجال الثورة الجزائرية، ولأن الحكومة الفرنسية قد وصلت لقناعة بأن قضية الجزائر لا تُحل عسكريًا وإنما بالمفاوضة مع سكان الجزائر، وعندما رد ابن حليم على الملك بقوله: إن الحكومة الفرنسية أصبحت على علم تام بالدور الذي قام به في مساعدة الثورة الجزائرية وتهريب السلاح والعتاد لها، وإن الثقة منعدمة بينهم وبينه، رد الملك بأن هذا هو خير مؤهل يجعل الحكومة الفرنسية تستعمل مساعيك كقناة للوساطة مع الثورة الجزائرية لتأكدها من أن زعماء الجزائر سيتقبلون نصحك قبولاً حسناً ويثقون بما تنقل لهم من اقترحات وأضاف الملك: «عليك أن تكمل رسالتك نحو الثورة الجزائرية»[1] لقد كانت مهمة سفير ليبيا في فرنسا البحث مع الحكومة الفرنسية عن سبل سلمية لإعطاء الجزائر حق تقرير مصيره، وتشجيع الحكومة الفرنسية على انتهاج سياسة التفاهم والتفاوض مع جبهة تحرير الجزائر والإقلاع عن سياسة القمع والعنف والتشريد ضد الشعب الجزائري[2].

وبدأ السفير مصطفى بن حليم بتنفيذ دوره الذي رسمه له الملك، وقام الملك إدريس بطلب رسمي من الجنرال ديجول الذي أصبح رئيساً للجمهورية بأن يطلق سراح أحمد بن بلاّ ورفاقه من السجن، أو على الأقل أن يخفف وطأة السجن إلى إقامة جبرية أو شيء من هذا القبيل، وأجاب الجنرال ديجول على طلب الملك إدريس بواسطة سفير ليبيا بفرنسا مصطفى بن حليم الذي حمله ديجول رسالة إلى الملك إدريس بأن مسعاه لن يذهب سدى، وبعد أيام نُقل أحمد بن بلاّ ورفاقه إلى فيلا في ضاحية (شانتيي) بجوار باريس[3].

وفي يناير عام 1961م، زار ليبيا الكونت دوباري، موفداً من طرف الجنرال ديغول رئيس الجمهورية آنذاك، واستقبله محمد عثمان الصيد بصفته رئيساً للحكومة في طرابلس وكان الكونت دوباري يحمل رسالة خطية من ديغول للملك إدريس السنوسي، وأبلغ المبعوث الفرنسي السيد محمد الصيد رئيس الوزراء أن الجنرال ديجول يريد إبلاغ الملك إدريس عبر هذه الرسالة، أن فرنسا ستعمل قريباً على إيجاد حل لقضية الجزائر يضمن مصلحة الجزائريين ويلبي المطامح العربية، لكنه يرجو من القادة العرب خاصة أولئك الذين تعرف عليهم إبان الحرب العالمية الثانية، ومنهم الملك إدريس تفهم ظروف فرنسا الداخلية، ومساعدته حتى يمكن إخراج

---

(1) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، ص(364).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(366).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(374، 375).

هذا الحل إلى حيز الوجود، وبالفعل لم تمضِ أربعة أشهر حتى بدأت مفاوضات الاستقلال بين فرنسا والجزائر في 20 مايو 1961م في إيفيان.

عقب إطلاق سراح أحمد بن بلاّ ورفاقه الأربعة، وكان يطلق عليهم (الزعماء الخمسة) من السجون الفرنسية، قام هؤلاء الزعماء بزيارة إلى ليبيا واحتفى بهم الليبيون حكومة وشعباً احتفاءً كبيراً، واستقبلهم الملك إدريس السنوسي، وحثهم على التضامن ونكران الذات وذكرهم بالحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» وطلب منهم الاهتداء بهذا الحديث ودعاهم إلى نبذ جميع أشكال الخلاف والشقاق والأنانية التي تضر إن وجدت بالجزائر واستقلالها.

كانت الحكومات الليبية المتعاقبة بعد حكومة ابن حليم تدعم ثورة الجزائر وكان من وراء ذلك التأييد غير المنقطع الملك إدريس بتوجيهاته المستمرة، وكان يكن في أعماقه عطفاً خاصًا على ثورة الجزائر الإسلامية.

إن المملكة الليبية بحكومتها وشعبها ساعدت ثوار الجزائر في معركتهم المقدسة ضد فرنسا وقاموا بمد الثورة بالسلاح والذخائر والمساعدات وقد حدثني السيد محمد القاضي عبد الكبير الذي كان معي في المعتقل السياسي بطرابلس عام 1983م وكان حاكماً لمنطقة فزان زمن المملكة فقد أخبرني عن إشراف الحكومة على مخازن الأسلحة وتوصيلها للمجاهدين في الجزائر، وقد توفي ﷺ بعد خروجه من السجن وقد قضى في سجون ليبيا من عام 1969م إلى سنة 1988م وكان رجلاً عجيباً في دينه وصفاء فطرته، حفظ القرآن الكريم بعد الخامسة والأربعين من عمره، وكان يتحدث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية وكان شعلة من النشاط والاجتهاد والتعليم وقد جاوز الستين من عمره، وكان يحافظ على صيام السنن، والنوافل، والقيام، والرياضة البدنية، وكان يقول لي: إن أمله في الله أن يغفر له ذنوبه وأن يكون سجنه تكفيراً للذنوب والخطايا، وأن السجن وقفة مع الذات وفرصة لمحاسبة النفس لا تعوض أبداً وإن الذي أكرمني الله به في السجن لولا أن الله منّ علي به ما تحصلت عليه أبداً وما وصلت إليه، لقد كان فريداً في سنه، وفريداً في نشاطه، فرحمة الله عليه.

إن جميع الساسة والقادة العسكريين زمن المملكة الليبية والذين كانت لهم علاقة مباشرة بمد الثورة في الجزائر يشهدون أن الملك ﷺ كان مسانداً لحركة الثورة، وحريصاً على نجاحها، ولم يقصر معها لاماديًا، ولا معنويًا.

المبحث الخامس

نظرة في كتاب الملك إدريس رحمه الله في اتحاد العرب وائتلاف الموحدين وبعض المقابلات الصحفية

هذا الكتاب ذكره المؤرخ الليبي محمد الطيب الأشهب ﷀ تعالى ونقل لنا منه نقولاً ولا ندري أين الكتاب الآن، كان هذا الكتاب قد وضعه إدريس السنوسي بقلمه كرسالة شاملة في عام 1929م شكلت بحثاً سياسيًا علميًا عامًا، تنال فيه الموقف الإسلامي العربي والدولي من جميع الوجوه على حقيقته، فجاء بحثاً متميزاً مدعوماً بالحجج العقلية، والبراهين المنطقية، والأدلة التاريخية وتحدث فيه عن العوائق، والمشاكل التي تواجه تقدم العالمين «الإسلامي والعربي» والأسباب التي أخّرت المسلمين والعرب، والوسائل التي يجب اتخاذها لتمكين العرب من تحقيق وحدتهم التي يراها ضرورية، وتحدث عن الخلافة الإسلامية ومالها وما عليها، وعن سبب انهيارها، وتكلم عن المشاكل الدولية وعن الاستعمار وأهدافه، وعن المدنية الإسلامية والحضارة العربية، وعن دولة الإسلام وما تلاها من دول وحكومات عربية، وتحدث عن الأخطاء التي ارتكبت في مختلف عصور التاريخ الإسلامي والعربي، ثم انتقل من هذه المواضيع العامة إلى موضوع الوحدة العربية وما يقاسونه[1].

أولاً - حديثه عن الوحدة العربية وحالة العرب:

قال ﷀ: كل إنسان يعرف أن جزيرة العرب كانت قبل البعثة النبوية مضطربة بفعل الجهالة والفوضى والشقاق إلى أن قال: وكان لا بد من إصلاح أساس النظام، وعلى هذه الحاجة ظهر الإسلام.

وقال في موضع آخر من بحثه: صار العرب بعد زوال الحكومات العربية تابعين لكل متبوع ولم يعنوا برفعة أمتهم، ولم يتنبهوا من رقدتهم وبالأخص منهم من كانت دياره محتلة بالحكومات غير العربية، لقد فسدت أخلاقهم وسجاياهم تحت سيطرة الدول المختلفة، وظلوا ناسين عظمتهم ومدنيتهم وقد تعودوا طأطأة الرؤوس للذل، ومن الطبيعي أن لا تحتفظ أمة ببأسها وسجاياها وخصالها في سلطان حكومة مستبدة، وهكذا شرع العرب يتغيرون ويفسدون، على أن العرب لن ينسوا جنسيتهم وقتاً ما، وليس فيهم من خرج عن عروبته.

إن عروبة العرب الماضية لتؤثر تأثيرها النفسي الآن، وإن التاريخ يعيد نفسه، وإن العربية

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(218).

مثل الإسلام صبغة لا تزول، واستطرد إدريس السنوسي في بحثه إلى أن قال: فإذا نال العرب استقلالهم أو استقلت كل مقاطعة عربية إدارياً، واتحدت مع بقية أخواتها فإنهن يقمن إمبراطورية عظيمة وحكومة متحدة على نسق واحد.

واستطرد في حديثه عن العرب إلى أن قال: إنهم محتاجون إلى تربية أخلاقية، وتنمية عقولهم المنهوكة منذ مدة من الزمن حتى يستردوا شملهم العربي وأخلاقهم العالية، وفي الحقيقة أن جملة البلاد العربية أصبحت في سبات عما يراد بها من الممالك الأخرى، ولن تستيقظ إلا على أصوات مدافع المستعمرين، ورب أمة لا تعرف نفسها حتى تصاب بمظالم الأجانب(1).

ثانياً - الأخوة الإسلامية والعروبة:

قال: حقًا إن الإسلام يمنع تغلب الجنسية ولكن لا يأبى تكامل الأمم إذا لم يضر بسائر البلاد الإسلامية، ولم يضيع الأخوة الدينية والذي يمكنه الرقي في هذا العصر هو الذي يفهم الإحساس القومي، ولا يمكن الرقي بغير هذا؛ لأن الارتقاء رهين باتحاد الجماعات وتعاونها، والكمال لا يكون إلا بالأمة كلها، وما كان لرقي الأفراد إلى الآن فائدة كبيرة في الأمة، ولهذه الأمنية يربي السياسيون الأمم، والاتحاد القومي موجود بنفسه، ويكفي فيه أن يكون الإنسان عربيًا، فإن الفرد من هذه الأمة العربية يدرك بفطرته وبفكره الأول أنه ابن هذه الأمة التي زلزلت الأرض حيناً من الزمن، وحق له أن يفهم ذلك، وهذا العصر هو عصر القوميات فلا تستطيع الأمة العربية أن تقف بعيداً عن هذا التيار، والعرب هم أساس الإسلام ومنشؤه فإذا ما تماسكوا وتكاتفوا وشدوا أزرهم ينهض الإسلام بلا ريب، ولا خوف على المسلمين من تفرق الكلمة إذا ما عرب الجزيرة نهضوا، ومن أجل هذا نرى أن العصبية العربية معقولة ومشروعة، بل وضرورية، على شرط أن لا تتعارض مع الأخوة الإسلامية، وأن لا تتعدى على الآخرين وبهذه الوسيلة تقوى الأمة العربية ويقوى الإسلام معها(2).

ثالثاً - الحجاز وهو قطب رحى الجزيرة العربية:

قال الملك إدريس ﷺ: لا ريب أن الحجاز هو قطب رحى الجزيرة العربية، ومنه منشأ الرجال الذين نشروا في العالم أسمى مبادىء الحرية وعلموا الناس أجمل معاني العدل، والتسامح، والعلم، والقابض الآن على أزمة أموره هو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وفي بلاد اليمن جلالة الإمام يحيى بن حميد الدين، وهذان الملكان المستقلان المسيطران على

---

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(218).

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

صميم أحفاد عدنان وقحطان لا ريب في أنهما يشعران بثقل المسؤولية أمام الله وأمام أهل الجزيرة وعموم المسلمين، وهما الآن أمام صحيفة يسطر لهما التاريخ فيها من جديد كما سطر لغيرهما في الماضي، ولا يعزب عن ذكائهما كيف يجب أن تدار دفة الأمور لإعادة مجد العرب والإسلام وتعريف الأمم ما تجهله من مدنيتهم وآدابهم وحضارتهم، وليس هناك ما يقرب بين الشعوب ويعرف بعضها بالبعض الآخر غير الأعمال المجيدة النافعة والآخذة بأسباب الإصلاح من كل وجوهه المعلومة في هذا العصر، عصر المعارف والفنون، فعليهما أن يعرفا كيف يقودان صميم الأمة العربية من أحفاد عدنان وقحطان في القرن العشرين، إنهما يريدان أن يقفا بالأمة العربية في مستوى واحد مع الأمم التي سبقتهم الآن بمراحل، فعليهما إذن أن يستعدا للكفاح في معترك هذه الحياة، وعليهما أن يخلقا في أرض الجزيرة حيث لا امتيازات ولا عوائق مدنية جديدة شعباً قادراً على السير وحده، ولم يكن هذا بالشيء العسير؛ لأن الفرصة سانحة للعمل[1].

رابعاً - العمل الإصلاحي على وجهين: ديني ومادي:

وقال أيضاً: والعمل الإصلاحي على وجهين: ديني ومادي، أما الديني فهو تحرير الفكر من قيد التقليد، واعتبار الدين صديقاً للعلم وحاكماً عليه، وفهم الدين على طريقة السلف الصالح، ووضع ترتيبات ونظام للحج يكفل راحة الحجاج ورفاهيتهم وأمنهم، وأما المادي فهو: الاتحاد وتحسين المواصلات في البلاد العربية، ومد السكك الحديدية، وخطوط التلغراف، والتليفون وتعميمها، وتعبيد الطرقات لسير السيارات فبذلك ترتبط الممالك ارتباطاً منظماً، ثم وضع برامج واسعة وثابتة لنشر المعارف في عموم أنحاء المملكة بتعميم المدارس الدينية والثقافية، وتأسيس جماعة عربية بمكة لتعمل على ترقية الأمة العربية فنيًا وأدبيًا ولتنظيم الوحدة ومتجه السير وحرية الرأي، ثم المداومة على عقد المؤتمر الإسلامي في كل سنة أوان الحج وتنظيم طرق الدعاية إليه ونشرها في عموم الأقطار الإسلامية والعربية[2].

خامساً - الزعيم الأساسي هو الذي يؤسس حكومة راسخة البنيان:

وقال: إن الزعيم الأساسي هو الذي يؤسس حكومة راسخة البنيان لا تزول بزوال الأفراد والأسر، وهو صاحب النظريات السامية التي تؤثر في حياة الأجيال مع المحافظة على دوام السلام بقدر المستطاع ومراعاة الظروف الواقعية حتى لا يعتري بنيانه الخلل وهو لا يزال وليداً[3].

(1 - 2) انظر: إدريس السنوسي، ص(219).

(3) انظر: إدريس السنوسي، ص(220).

سادساً: أيها العرب اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص:

وقال أيضاً: أيها العرب اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فإن الواجب المقدس يدعوكم أن توحدوا صفوفكم وأن تجاهدوا جميعاً في سبيل الذود عن حياض بلادكم ودينكم، وليس الجهاد هو القتال فحسب، بل إن أول الجهاد هو أن تعرفوا معنى الأخوة العربية وتوحيد السبيل، ثم تدافعوا بكل ما استطعتم كلما أمكنكم الدفاع، وأوله باليد، وليس معنى ذلك هو إشهار السلاح فقط، ولكنه التعلم، تعلم كل ما يمكن أن تتفوقون به من الصنائع، وباللسان أي ببذل كل ما أوتيتم من النصيحة والإرشاد، وبالقلم، أي بتأسيس الصحف وارتباطها ببعضها لتوحيد الفكرة وتوجيه الرأي العام، وبعمل الملاجيء، والمستشفيات للفقراء واليتامى والمرض حتى لا يضطرون إلى الالتجاء للمؤسسات الأجنبية التي قد تدس لهم السم من عقائد دخيلة، ومذاهب فاسدة، ثم إنشاء المدارس الوطنية وتشجيع التجارة الوطنية والاكتفاء بمصنوعات البلاد.

وبعد أن تحدث في هذا الموضوع بإسهاب قال: والشعب العربي هو الآن على أبواب نهضة عظيمة ستتجاوز بعون الله ما كان عليه قبل قرون، وإن التاريخ سيعيد نفسه، والأحفاد - كما قيل - هم سر الجدود.

إن الشعب العربي له مواهبه العظيمة في الحزب والسياسة، وفي العلم والإقدام، هذا ما لا ينكره أحد، والبلاد العربية في نظر عموم المسلمين متقدمة، ولها المكان المرموق لوجود البيت الحرام وكذلك قبر النبي ﷺ وبيت المقدس[1].

وقال في مكان آخر من البحث: إن الإسلام معناه الاتحاد، والإسلام واحد لا يقبل التجزئة ولكن مع الأسف الشديد فقد أدى الجدل الكلامي إلى الاختلاف فتفرق المسلمون إلى معتزلة وأهل سنة، وتفرقت المعتزلة شعباً، وتفرق أهل السنة في الاجتهاد إلى مذاهب وهذا الاختلاف تجاذبته الأغراض السياسية، ولا سبيل لحسم هذا الخلاف إلا بالعودة إلى الإسلام الذي بينه صاحب الرسالة على بساطة أسلوبه وسمو معانيه وجوهره[2].

فلنفكر قليلاً في إنصاف وتعقل، ولننظر إلى الحقيقة، ولنرجع إلى أوامر النبي ﷺ وكنه الإسلام ونستعرض هذه المصائب التي انتابتنا منذ عصور طويلة، فإنه لا يوجد شيء مهلك كمنازعتنا معشر المسلمين. . . إلى أن قال: إن هذه الفوضى أفسدت الجماعة الإسلامية جيلاً بعد جيل، وأفسدت الثبات والصبر والسعي المضطرد والاجتهاد والتفكير، ثم قال: إن

---

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(221).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(221).

المسلمين لعدم تمسكهم بروح الإسلام أصبحوا في ضعف وانحطاط، وقد ذهب استعدادهم الفكري لانكبابهم على المنقولات، فالتقليد في الفكر لم يكن فضيلة، فكيف نقف هكذا صغاراً أمام الماضي؟ وكيف ننتظر من أسلافنا كل شيء كمن ينتظر الميراث ليعيش به؟[1].

هذه بعض النقولات من كتابه «اتحاد العرب وائتلاف الموحدين» يعطي الباحث خطوطاً عريضة في نظرة الملك إدريس ﷺ لبعض القضايا التي تتعلق بنهوض الأمة وسعيها نحو التمكين.

وزيادة في إيضاح المنهج السياسي الذي كان يتبناه الملك إدريس ننقل هذه المقابلة الصحفية التي أجريت عام 1942م بين الملك ومندوب جريدة «البصيرة» التي كانت تصدر في الإسكندرية حيث أجاب على عدة أسئلة تتعلق بالوحدة العربية، ونهوض الأمة فقال: من المشاهد الآن أن العالم يسعى إلى التكتل داخل مجموعات قوية كبيرة، والعرب في بلادهم المختلفة لا حياة لهم أقصد - حياة العز والقوة - إلا إذا اتحدوا داخل نطاق من التعاون التام، التعاون الذي يجمع بين الثقافة والصناعة والاقتصاد، وبذلك تستطيع المجموعة العربية الكبيرة المؤلفة من ثمانين مليوناً أن تحتفظ لنفسها بين الأمم العالمية بمكانة مرموقة محترمة، والوحدة العربية عندي أقرب إلى التحقيق في وقتنا الحاضر من اتحاد شرقي إسلامي، فإنه من المشاهد في بقاع الأرض المختلفة أن وحدة الدم واللسان والثقافة هي أكبر العوامل في تقارب الشعوب، واتحاد المصالح، وهذه الأمور جميعها متوفرة في الأمم العربية أكثر من توافرها في العالم الإسلامي، زد على هذا أن الأمم العربية متجاوزة الحدود، ومتقاربة التخوم مما يجعل الاتحاد بينها أقوى أثراً وأسرع تنفيذاً، وأجاب عن سؤال آخر لنفس المندوب بقوله:

إن الواجب المقدس الذي يحتمه الدين وتفرضه الوطنية على كل عربي هو أن يجاهد الطغيان بكافة الوسائل التي يملكها حتى يزول هذا الرعب الزاحف وتشرق شمس الحرية والكرامة الإنسانية على الأمم العربية والعالم أجمع من جديد[2].

وعن سؤال آخر أجاب: إن الأهداف التي نرمي إليها والتي طالما سفكنا دماءنا في سبيل تحقيقها هي الحرية الكاملة، والاستقلال الشامل، ولا ننسى نحن الطرابلسيين واجباتنا حيال النهضة العربية الكبرى باعتبارنا وحدة من الوحدات التي تتكون منها المجموعة العربية. سنعمل كما عملنا في السابق متعاونين مع الأحرار العالميين على أن يسود الشرق العربي روح النهوض

(1) انظر: إدريس السنوسي، ص(221).
(2) انظر: المصدر نفسه، ص(225).

في المرافق العلمية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية حتى يؤدي رسالته الإنسانية ويستعيد مجده الغابر[1].

وعندما التقت به مجلة «صوت الشرق» في فبراير عام 1957م وجهت له بعض الأسئلة فأجاب: إن ليبيا تمد يدها لكل عربي شقيق بإخلاص، واضعة كل مالها وأناسها في سبيل نصرة حرية هذا البلد، وتأييده في الذود عن حياضه وعزته وكرامته، ولن ننسى أبداً نصرة وتأييد البلاد العربية الشقيقة، والبلاد الحرة الصديقة لنا في جهادنا وكفاحنا في سبيل تحقيق استقلال ليبيا وتحريرها من الاستعمار، إلى أن قال: أنصح العرب الأشقاء بالتمسك بالدين الكامل، والخلق الفاضل، والاتحاد الشامل، فلن يغلب شعب يحرص على هذه الأمور الثلاثة[2].

إن دراسة كتابه المذكور، وتصريحاته الصحفية تبين للباحث ضعف القول القائل بأن الملك إدريس لا يفهم في أمور السياسة وأقرب إلى أهل التصوف من كونه رجل دولة، ولا توجد لديه رؤية سياسية واضحة ولا يعرف كيف تساس أمور الأمم والشعوب.

إن حياة هذا الرجل لغنية بالعبر والدروس والمواعظ، التي تحتاجها الأجيال الصاعدة التي تستلهم من الماضي ما يفيدها في حاضرها ومستقبلها وفق رؤية وتصور نابع من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

سابعاً: مكانة الصحافة في زمن الملك إدريس، وحرية الكلمة في مجلس النواب:

إن كثيراً من الحكام والملوك والقادة لا يتحملون النقد، ولا كلمة الحق الموجهة إلى حكوماتهم أو ذواتهم ويقتدون بفرعون مصر الذي قال الله فيه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] ويستعملون كافة الأساليب الوحشية لتكميم الأفواه، ومصادرة الحريات ويبررون مواقفهم أمام شعوبهم عند قمع الأخيار والمصلحين كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

وهكذا كل الطغاة يقولونها عندما يواجهون المصلحين، وكلما تواجه الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان.

وهكذا الطغاة في كل زمان ومكان يقدمون أنفسهم على أنهم الحريصون على الفضائل، الغيورون على الأخلاق، الراغبون في التعمير والتقدم، والأمن والازدهار، بينما يقدمون أهل الخير والصلاح على أنهم مفسدون مخربون ضالون، مضلون، أعداء الله والأمة والوطن،

(1 – 2) إدريس السنوسي، ص(226).

وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الخبيثة[1].

إن الملك إدريس ﷺ سمح للمصلحين أن يتكلموا وينقدوا الدولة والحكم، وشجع الصحافة والنواب على قول كلمة الحق، وحتى الذين يتجاوزون حدود القانون من المعارضة يعترفون بالمعاملة الحسنة التي يلاقونها من الشرطة، فقد ذكر الأستاذ محمد بشير المغيربي في كتابه: وثائق جمعية عمر المختار ما يدل على ما ذهبت إليه فقد قال: «لا بد أن أقول بعد كل ذلك إننا طيلة تلك المرحلة ونحن نعارض ونواجه بحدة وبشدة وتتخذ ضدنا إجراءات بالسجن والاعتقال والنفي وتحديد الإقامة إننا لم نتعرض لإهانة أو إذلال معنوي أو جسدي، بل إن كل ما طبق علينا من تلك الإجراءات كان في جو من الاحترام وبما لا يجرح كرامتنا أو يحط من إنسانيتنا. . .»[2].

إن من يدرس دور الصحافة في فترة الملك يلاحظ أنها كانت حرة ولكل شخص الحق في حرية التعبير عن رأيه وفي إذاعة الآراء والأنباء بمختلف الوسائل، وذلك في حقوق الحق الدستوري المنظم لقانون المطبوعات الذي ظهر عام 1959م.

كان قانون المطبوعات يشترط موافقة مجلس الوزراء على وقف إصدار الصحيفة مما أعطاها منعة وحصانة ضد أي قرار تعسفي في حالة تفرد جهة معينة بذلك، وأعطت الحكومة الليبية زمن الملك السابق ﷺ حرية للصحف في مباشرة نشاطها دون تدخل أو تعويق إداري، ورغم أنه بدرت من الحكومة بعض الممارسات التعسفية في حق بعض الصحف إلا أن طبيعة النظام الحاكم كانت دائماً تعطي مجالاً وبراحاً للأخذ والعطاء، كما أن دستورية المؤسسات تضمن للصحف والمجلات حقوقها، وعندما قامت الحكومة في عام 1952م بإغلاق صحيفة «التاج» عارضت الصحيفة ذلك القرار، ورفعت دعوى ضد الحكومة وألقى الشاعر أحمد رفيق المهدوي قصيدة في تجمع لرفض القرار جاء فيها:

«التاج» يشكو لرب التاج ما لاقى ... من الوزارة تعطيلاً وإغلاقا
وزارة جاوزت ما لا يطاق فأكثرت ... على الشعب أعناقاً وإرهاقا

وقد نشرت القصيدة في اليوم التالي في جميع الصحف ولم يتعرض الشاعر لأي أذى ويوم تعرضت صحيفتي «البلاغ» و«الميدان» للإغلاق ودخلت هذه الصحف في معارك قضائية

---

(1) انظر: قصص السابقين للخالدي، (5/ 105).
(2) انظر: وثائق جمعية عمر المختار، ص(8).

عنيفة ضد وزارة الإعلام كانت هذه الصحف تدافع عن وجهة نظرها علانية أمام الجميع وفي المحاكم وكانت هناك نوعان من الصحافة: حكومية وأهلية:

أ - فالصحافة الحكومية من أشهرها (ليبيا الحديثة، برقة الجديدة، فزان، وطرابلس الغرب) ومع كونها حكومية إلا أنها لم تخل في مرات عديدة من نقد واضح للسلطات الحاكمة، رغم كونها من أدواتها الإعلامية، ونذكر هنا بالقصيدة الشعبية التي نشرتها صحيفة حكومية:

(وين ثروة البترول يا سمسارة   اللي ع الجرائد نسمع بأخباره)

وقد تضمنت القصيدة رسالة جريئة وعنيفة في مهاجمة الحكومة[1].

ب - أما الصحافة الأهلية وهي قائمة على الشكل التجاري فكانت تتلقى دعماً غير مباشر من الحكومة على هيئة (إعلانات - اشتراكات) وبقدر ما كان ذلك يشكل دعماً ماليًا عُد بمثابة ضغط غير مباشر وربما قيدها أحياناً عن التمتع بحرية كاملة وقد ساهمت في إنضاج الرأي العام المحلي وتوعيته سياسيًا، وقد عرفت صحف «كالبلاغ» و«الرقيب» بمقالاتها المنتقدة للحكومة، كما اشتهرت صحيفة «الحقيقة» بأسلوبها الساخر في تناول الحكومة والتعريف بمساوئها، ولم تتوان الصحف بما فيها الحكومية عن نقدها وفضحها لبعض مشاريع الدولة حتى تلك التي كان وراءها مقربون كعبد الله عابد السنوسي (مشروع طريق فزان)، حيث نشرت القصة لأول مرة في صحيفة «المساء» في 20/ 8/ 1960م تقدمت المعارضة على أثرها بطلب إسقاط حكومة عبد المجيد كعبار عن طريق البرلمان وهو ما حدث في 16/ 10/ 1960م.

وأهم الصحف والجرائد التي ظهرت في زمن المملكة الليبية وقبلها بقليل هي:

1 - صحيفة (الوطن) أنشأها مصطفى بن عامر 1943م.

2 - صحيفة (التاج) لصاحبها عمر الأشهب ظهرت عام 1951م.

3 - مجلة (ليبيا) أنشأها مصطفى بن عامر 1951م.

4 - صحيفة (شعلة الحرية) أنشأها أحمد زارم 1951م.

5 - صحيفة (الصريح) أسسها إبراهيم أحمد البكباك 1951م.

6 - صحيفة (الليبي) أنشأها علي محمد الديب سنة 1951م.

7 - صحيفة (المنار) مؤسسها عمر الأشهب 1952م.

8 - صحيفة (الدفاع) أسسها صالح بويصير 1952م.

9 - صحيفة (اللواء) أسسها علي رجب 1952م.

---

(1) انظر: الإنقاذ، العدد (39) بقلم طاهر أحمد، ص(78، 79).

10 - صحيفة (البشائر) مؤسسها علي زاقوب 1953م.

11 - صحيفة (الزمان) أسسها عمر الأشهب 1954م.

12 - مجلة(طرابلس الغرب) أصدرها مكتب المطبوعات والصحافة والنشر الحكومي سنة 1954م.

13 - صحيفة (طرابلس الغرب) رئيس تحريرها فخر الدين عبد السلام أبو خطوة 1954م.

14 - مجلة (صوت المربي) صدرعن اللجنة الثقافية لرابطة المعلمين ظهرت عام 1955م.

15 - مجلة (النور) صاحب الامتياز عقيلة بالعون العدد الأول 1/ 5/ 1957م.

16 - مجلة (الأفكار) ورئيس تحريرها راسم قدري 1955م(1).

17 - صحيفة (الرائد) أنشأها بشير يوسف الطوبي سنة 1956م.

18 - مجلة (الضياء) صاحب الامتياز عمر الأشهب أول عدد 1/ 3/ 1957م.

19 - صحيفة (العمل) أحمد حسين أبو هدمه 1958م.

20 - صحيفة (الطليعة) سالم علي شيته 1958م.

21 - صحيفة (الرقيب) رئيس تحريرها رجب المغربي 1961م.

22 - مجلة (الهدى الإسلامي) الشيخ محمد أمين هلال رجب 1381هـ - 1961م.

23 - صحيفة (البلاغ) لصاحبها علي وريث 1963م.

24 - صحيفة (الأمة) رئيس تحريرها عبد الله عبد المجيد 1963م.

25 - صحيفة (الميدان) فاضل المسعودي 1964م.

26 - صحيفة (الحرية) رئيس تحريرها محمد عمر الطاشاني 1964.

27 - صحيفة (الحقيقة) صاحبها محمد بشير الهوني 1966م.

28 - صحيفة (الديلي نيوز) رئيس تحريرها عبد الرحمن خليفة الشاطر.

29 - صحيفة (الريبورتاج) رئيس تحريرها عبد القادر طه الطويل 1967م.

30 - صحيفة (الشعلة) رئيس تحريرها حسين الكيلاني الضريريط 1967م.

31 - صحيفة (الفجر) محمد فريد سيالة.

32 - صحيفة (ليبيا الحديثة) رئيس تحريرها صالحين عبد الجليل عمر.

---

(1) الإنقاذ، العدد (39)، جمادى الآخرة، 1412هـ، ديسمبر 1991، ص(80).

33 - مجلة الإذاعة، الكشاف، صحف برقة، طرابلس، الرأي العام، ليبيا تايمز[1].

وهذا العرض لأسماء الصحف والجرائد يدل على نهضة فكرية وسياسية جيدة للغاية، كما يدل على مرونة الملك وحكومته وبعدهم عن مصادرة الأصوات المعارضة لسياسة الدولة.

الأستاذ مصطفى بن عامر وكلمة حول الميزانية العامة في مجلس النواب:

كانت العناصر الحية، والحريصة على مصلحة شعبنا تستطيع أن تتكلم بكل وضوح وصراحة في مجلس الأمة، ويحفظ لنا التاريخ مرافعة مهمة في مجلس الأمة الليبي عام 1955م وقد تكلم الكثير ممن نقدوا سياسة الحكومة من أمثال الشيخ عبد العزيز الزقلعي وغيره إلا أن مرافعة الأستاذ مصطفى بن عامر كانت أقوى بياناً وأوضح حجة، وأدق عبارة، وأسهل أسلوباً، ومرافعته التاريخية يلاحظ الباحث وجود حرية في القول والنقد والتعبير تمتع بها نواب الشعب وتلك الحرية حسنة من حسنات ذلك النظام الذي كان يقوده الملك إدريس رحمه الله.

وقد جاء في كلمة مصطفى بن عامر في مرافعته: «لقد سبق لي وأنا لست عضواً في المجلس حين وضعت المعاهدة البريطانية والاتفاقية الأمريكية أمامكم لتقولوا كلمتكم فيها، أن أبلغتكم آرائي عن هذين القيدين الحديدين اللذين صيغا للبلاد وأعدا لمنع تقدمها من طريق العزة والكرامة والحرية رغم ما قدمته بريطانيا وأمريكا إلى خزينة الحكومات من فتات الإعانات، وفضلات المساعدات التي ظهرت أرقاماً ضخمة في الميزانية الحالية والميزانيات السابقة، ولكن أي أثر أحدثته تلك الأرقام الضخمة في النهضة الاقتصادية، وفي العدالة الاجتماعية، اللهم إلا إذا أحدثنا تعريفاً لحقيقة النهضة وحقيقة العدالة وفسرناهما تفسيراً يتمشى مع الأوضاع السائدة التي تقوم على ترف الأقلية، وبؤس الأغلبية، واعتبار الفساد ضرورة لا بد منها، والإصلاح حلماً من أحلام الطيش والغرور، لقد مددنا أيدينا للإنكليز والأمريكان وأخذنا منهم الشلنات والدولارات، وأعطيناهم أعز ما نملك وأكرم ما نحرص عليه فماذا عملنا بما أخذنا؟ لا شيء». . أين موقفنا هذا من ذلك الموقف الذي كنا نقفه في وجه الإدارة البريطانية السابقة عندما كانت تدعي وجود عجز في الميزانية وما كان يبلغ نصف مليون جنيه وكنا نعتبر هذا العجز مفتعل نتيجة الإسراف المقصود لإقامة حجة علينا؟ ومع ذلك فقد عاشت ليبيا تحت حكم الإدارة البريطانية تسعة أعوام تخللتها سنون عجاف كان الجفاف فيها أشد من الجفاف الآن، لكننا لم نشاهد بؤساً كما نشاهد اليوم، ولم يمت أحد من الجوع مثلما حدث في هذا الوقت كما أعلن ذلك أحد النواب المحترمين في قاعة المجلس بالرغم من وجود القمح الأمريكي الذي ظن أنه لن يترك بيتاً جائعاً.

(1) الإنقاذ، العدد (39)، ص(80، 81).

والآن نريد أن نعرف ما معنى أن نصبح دولة مستقلة ذات سيادة؟ معنى ذلك أن تضخم أرقام الميزانية حتى يقال أنها ميزانية دولة لا ميزانية مستعمرة ونبني المنازل لسكنى الوزراء ونقيم العمارات ونؤثثها وننشىء المكاتب الفاخرة ونستورد السيارات والسخانات وآلات التدفئة والمكانس الكهربائية ومكيفات الهواء وتنقل من عاصمة إلى عاصمة ونبعث بالسفراء والوزراء إلى أمريكا والشرق.

أمعنى ذلك أن يصبح جميعاً وزراء ونظاراً وأعضاء مجالس نيابية وتشريعية ورؤساء دوائر ومتصرفين ومدراء ومستشارين وسكرتيرين وكتاباً وطباعين ومباشرين ونتقاضى الرواتب والمكافآت والعلاوات ونتطاحن على التعيينات والترقيات والدرجات؟. أمعنى ذلك أن نشمخ بأنوفنا حينما نقلد منصباً حكوميًا ونمشي في الأرض مرحاً ونأبى أن نخاطب إلا بالعرائض ومن وراء حجاب ونمسي ونصبح وإذا هنا خلق لا عهد له بهذه الدنيا ومن فيها؟ لعل هذا هو المعنى الذي أدركه المسؤولون من إعلان الاستقلال وقيام دولة وممارسة السيادة، لعل هذا هو المعنى الذي أدركوه وطبقوه وتفهموا فقراته، على من تصرف الأموال وعلى من تنفق؟.

لا بل انظروا حواليكم أيها السادة، كم كلفكم هذا الأثاث الفخم الذي يحيط بكم؟ ألم تكن هناك مقاعد صاحلة ولائقة قبل هذه وإن كانت غير جميلة ولا أنيقة ولكنها كانت كافية بل فوق الكافية؟.

لِمَ أنفقتم آلاف الجنيهات في هذه المظاهر والمناظر وميزانيتكم تئن من العجز والأجنبي يحتل بلادكم وشعبكم يرزح تحت أثقال عيشة بائسة؟ أريد أن أعرف أهذا هو معنى الاستقلال أم هو الإسراف والتبذير والأبهة والترف؟ وأين الاقتصاد والإنتاج والعمل والاجتهاد؟ أريد الجلوس على الكراسي العادية والمناضد الخشبية قليلة التكاليف، فماذا يلحقنا من ضرر لو أننا فعلنا ذلك اللهم إلا الأجر عند الله والذكر الحسن عند الشعب ومن وراء ذلك خير الوطن ونفع البلاد، بل إني أستطيع أن أتطرق في التوفير وعدم التبذير إلى أبعد من ذلك.

وأتصور عندما أعلن استقلال ليبيا وقيل إن في ميزانيتها عجزاً يحتاج تغطية من المساعدات الأجنبية، واجتمع أول مجلس نيابي يمثل البلاد أتصور أن هذا المجلس رفض أن يكلف ميزانية الدولة الناشئة أي شيء لحساب أثاث قاعة وفضل أعضاؤه المحترمون البساطة على كل ما عداها وأن يأتي الزوار من هنا وهناك لينظروا إلى ممثلي الشعب وهم يضربون أروع الأمثلة في التقشف والعزوف عن المظاهر على حساب الأمة الفقيرة وهم يباشرون أعمالهم لمصلحة أمتهم على هذه الصورة الرائعة الخالية من الزخرف والبهرجة كأنهم في بيت من بيوت الله يعبدون الله بالعمل لصالح المجموع، فنحن مسلمون وشعار الإسلام في كل عمل عبادة.

أيكون ذلك لو كان دليلاً على تأخر وانحطاط؟ لم لا يكون دليلاً على وعي كامل وشعور رفيع بالمسؤولية وتفهم عال لحقيقة الاستقلال وبداية سليمة قوية في تشييد الكيان السليم

القويم؟ ولعل عشاق المظاهر يرون في ذلك عاراً ومهزلة لا يليق أن توصم بهما دولتنا الفتية وليس من الكرامة والشرف أن يجتمع مجلس الأمة على تلك الصورة. وإلى أولئك أذكر أن العار الذي يطمس الشرف هو أن يسمح لأقدام المحتلين أن تدوس أرضنا وهي عرضنا مقابل حفنة من المال ننفقها على مظاهر كاذبة ومناظر زائلة، والمهزلة التي تطيح بالكرامة هي أن نتجاهل قدر أنفسنا وحقيقة وضعنا وظروفنا وإمكاناتنا.

إني أشعر وأنا أتصفح الميزانية بأسى عميق وأسف شديد، إذ أن ذاكرتي تعود بي إلى الماضي القريب المليء بالآمال وأستعرض الذكريات وأقارن بينها وبين الحاضر المشحون بالآلام وأتطلع إلى المستقبل فلا أملك إلا التوجه إلى الله أن يلطف بنا ويهيىء لنا من أمرنا رشداً.

أذكر أيها السادة ذلك اليوم الأغر الذي صدر فيه قرار هيئة الأمم المتحدة التاريخي باستقلال ليبيا (مساء 21 نوفمبر 1949) وأذكر أن جريدة كتبت في اليوم التالي تعليق على هذا القرار: (منذ البارحة سيكون علينا أن نعمل وننتج أكثر مما قاتلنا وكافحنا، وسيكون علينا أن نكد ونجد حتى يفوق ما نصبه من عرق وما ذرفناه من دموع وأهرقناه من دماء أمامنا تركة عهدين يتطلبان التصفية النهائية حتى لا نكون بعد ذلك مطالبين بميراث عهد الإيطاليين الذين خرجوا من ديارنا بعد صراع عنيف وضحايا جمة وخلفوا ممتلكات مدمرة وعامرة ولكنها كلها ملك شرعي في أرض الوطن لأهل الوطن... وعهد البريطانيين الذين قسموا البلاد الواحدة واقتسموها سلباً حلال، وضيعوا عليها الفرص وشوهوا معالمها ووضعوا في طريق نهضتها كل معرقل وعائق، أمامنا هذه التركة أو هذه المشكلة التي يجب أن يوضع لها حد، ثم أمامنا ما أمام كل شعب مثلنا من الحاجة إلى إحصاء كل ماله وما عليه وتفهم كل دقيقة من لوازمه وضرورياته وتنسيق جميع متطلباته في جدول تراعي فيه الأهمية والأسبقية ثم المباشرة في العمل بما يستحق من العناية والإتقان في صغير الأمور وكبيرها.

هذا الكلام قالته الجريدة منذ خمسة أعوام وكأنها تلخص برنامجاً يجب أن تسير عليه الدولة الجديدة إذا أرادت أن تكون دولة، قالت هذا وقلوب الجميع مفعمة بالآمال، والآن أعود لتلاوة ما قلت ونفسي مليئة بالآلام، كيف لا أيها السادة؟ ونحن بدل أن نكد ونجد تخاذلنا وتكاسلنا، وبدل أن نقتصد ونجتهد أسرفنا ويذرنا أن نصفي التركة المتروكة جميعاً نحن من أنفسنا تركة في الحاجة إلى تصفية.

وبدل أن نحل المشكلة التي تواجهنا زدنا عليها مشاكل لا يمكن حلها وبدل أن ننتج أصبحنا نستجدي الإغاثة ونجلس في طلب الصدقة بدلاً من أن نحصي ونتفهم ضرورياتنا ولوازمنا صرنا نفرط في الكماليات حتى جعلناها ضرورة لازمة.

والاستقلال معنا أن نعيش في بلادنا ونملك أمر نفوسنا ولا نكن عالة على غيرنا في أي أمر من الأمور.. من أجل هذا الاستقلال بذلنا الأرواح وأهرقنا الدماء وذرفنا الدموع ولكي نحافظ على هذا الاستقلال، بهذا المعنى كان يجب أن نعصر أجسامنا عرقاً نتيجة الكد والجهد حتى نوفر المبالغ التي تسدد عجزنا ولكننا عكسنا الأمر وقبلنا الوضع، فلا بد من التضحية ولا بد من نكران الذات وضرب الأمثال للأجيال القادمة في الإخلاص والتفاني إلى أبعد الحدود[1].

لقد كانت مرافعة الأستاذ مصطفى بن عامر في مجلس الأمة في سنة1955م مفخرة تاريخية للأجيال حيث أن من أجدادنا من هو بهذه الشجاعة والإخلاص والحرص على تحرير البلاد من الغاصبين والدعوة إلى الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى هذا السبيل، وإن شعبنا في هذه الفترة الحرجة من تاريخه الجهادي لهو أحوج إلى أمثال الأستاذ مصطفى بن عامر لخوض معارك التحرير الفعلية في كافة مجالاتها التشريعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.... إلى آخره.

فنحو أسلمة بلادنا الحبيبة وإرجاع عز الأمة التليد نحن ساعون وعلى ربنا متوكلون.

ثامناً: استقالة الملك عام 1965م الأولى واستقالته قبل الانقلاب العسكري بأشهر عام 1969م:

مع مرور الزمن وتقدم السن رأى الملك إدريس أن يتخلى عن الملك وأن يقدم استقالته، ويترك إلى الشعب أو ممثله إسناد الأمر إلى من أحق منه أو أقدر على حمل الأمانة والقيام بالواجب المطلوب، ولذلك لم يتردد الملك إدريس في عام 1965م في عهد حكومة السيد محمود المنتصر الثانية أن يقدم استقالته بسبب التقدم في العمر، وخشيته نتيجة لذلك من التقصير في القيام بما عليه من الواجب والمسؤوليات إلى البرلمان الليبي تاركاً له أن يتخذ ما يراه مناسباً من نظام للحكم لصالح البلاد، ومن رئيس للدولة فيها؛ ولكنه عندما تقاطرت إلى مدينة طبرق، حيث كان يقيم الملك الجماهير الغفيرة من مختلف أطراف البلاد، وفي مقدمتهم الكثيرون من كبار قادة البلاد بما في ذلك قادة المعارضة فيها، وأحاط الآلاف منهم بالقصر عدة أيام يطالبون بإلحاح الملك المحبوب بالعدول عن استقالته، وبقائه ملكاً لبلاده إلى ما شاء الله، فإنه لم يكن بوسع الملك سوى الرجوع عن هذه الاستقالة، موضحاً إن استقالته هذه كان قد تحدث بشأنها من قبل مع بعض رؤساء الحكومات الليبية، الذين كان من بينهم السيد مصطفى بن حليم، والسيد محمد بن عثمان الصيد، وهي كانت فقط بسبب تقدمه في السن، وخشيته من يؤدي ذلك إلى التقصير في حسن القيام بما عليه من المسؤوليات، ولم تكن هذه الاستقالة بسبب

---

(1) انظر: وثائق جمعية عمر المختار، لمحمد المغيربي، ص(410، 411، 412).

خلاف مع الحكومة الليبية أو البرلمان الليبي، حيث كان كل منهما كما ذكر الملك قائماً بواجبه، وباذلاً جهده في خدمة البلاد، ولكنه أمام معارضتهم لهذه الاستقالة فلا يسعه إلا العدول عنها، على أن يكون لهم الحق في رفع يده عن الحكم إذا ما شعروا، مستقبلاً بعجزه عن حمل ما عليه من الواجبات وتكليف من هو أقدر منه على حملها[1].

وقد كانت استقالة الملك إدريس الثانية والأخيرة هي تلك المؤرخة في 4/ 8/ 1969م، والتي وجهها أثناء رحلة استشفائية إلى تركيا ثم اليونان إلى كل من رئيس وأعضاء مجلس الشيوخ ورئيس وأعضاء مجلس النواب، ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشيوخ عبد الحميد العبار ورئيس مجلس النواب مفتاح عريقيب، عندما جاءا إلى تركيا في ذلك الوقت للاجتماع بالملك بناءً على طلبه، وفي هذه الاستقالة أكد الملك إدريس أنه وقد تقدم به العمر حتى وهن العظم منه، وبلغ من العمر عتيًا ولهذا فهو قد قرر التخلي عن العرش إلى الأمير ولي العهد الحسن الرضا السنوسي مشترطاً موافقة البرلمان على ذلك، ومن ثم عليه حلف اليمين واعتلاء العرش، ومطالباً في هذه الاستقالة الشعب الليبي بتقوى الله ومخافته وحمد الله تعالى وشكره على ما أكرم بلاده من النعم، وأفاض عليها من الخير، وأن عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك خوفاً من أن يرفع الله تعالى عنها نعمه وخيره ويوليها الأشرار من عباده.

وكان نص هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد؛

يا إخواني الأعزاء رئيس وأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس النواب، يعني مجلس الأمة الليبية، ورئيس الحكومة الليبية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أقدم لكم هذا الخطاب قائلاً: منذ أن قلدتني هذه الأمة الكريمة الليبية ثقتها الغالية بتبوئي هذا المقام الذي شغلته بعد إعلان استقلال بلادنا العزيزة ليبيا.

قمت بما قدر الله لي مما أراه واجباً عليّ نحو بلادي وأهلها وقد لا يخلو عمل كل إنسان من التقصير، وعندما شعرت بالضعف قدمت استقالتي قبل الآن ببضع سنوات فرددتموها فطوعاً لإرادتكم سحبتها، وإني الآن نسبة لتقدم سني وضعف جسدي أراني مضطراً أن أقول ثانية أني عاجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة ولا يخفى أنني بليت في سبيلها خمسة وخمسين سنة قبل الاستقلال وبعده قد أوهنت جلدي مداولة الشؤون وكما قال الشاعر:

---

(1) انظر: السنوسيون، مخطوطة لم تر النور بعد طلب مني مؤلفها عدم ذكر اسمه.

(سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم)

وقد مارست هذه القضية وعمري 27 سنة، والآن أنا في الثانية والثمانين ولله الحمد أتركها في حالة هي أحسن مما باشرت في بلائي بها، فأسلمها الآن لولي العهد السيد (الحسن رضا المهدي السنوسي الأول) على أن يقوم بعبئها الثقيل أمام الله وأمام أهل هذه البلاد الكريمة على نهج الشريعة الإسلامية والدستور الليبي بالعدل والإنصاف فاعتمدوه مثلي ما دام على طاعة الله ورسوله والاستقامة.

وبعد اعتماده من مجلس الأمة يحلف اليمين الدستورية أمام مجلس الأمة قبل أن يباشر سلطاته الدستورية، وإني إن شاء الله عقدت العزم الأكيد على اجتناب السياسة بتاتاً، والله على ما أقول وكيل.

والذي أختتم به قولي بأن أوصي الجميع من أبناء وطني بتقوى الله في السر والعلن، وإنكم جميعاً في أرغد عيش وأنعم النعم من الله تبارك وتعالى.

فاحذروا من أن يصدق عليكم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112] فالله الله مما يغضب الله، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ولا تفرقوا، قال ﷺ: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»**.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

محمد إدريس المهدي السنوسي
في 21 جمادى الأول 1389
الموافق 4 أغسطس 1969م

تاسعاً: نزاهة ملك ليبيا وعفته وأقوال المؤرخين فيه ووفاته:

حينما وقع الانقلاب في سبتمبر 1969م كان الملك في رحلة إلى تركيا واليونان ولم يكن معه مال خاص ينفق منه، ومع ذلك فحينما عرض عليه المسؤول المالي للرحلة استلام ما تبقى في عهدته من مخصصات رفض الملك ذلك بعزة نفس وقال له: «يا بني أنا بالأمس كنت ملك ليبيا، ولكني لم أعد كذلك اليوم، وبالتالي فإن هذا المال لم يعد من حقي، ويجب أن يسلم إلى خزينة الشعب».

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(165، 166).

تقول الملكة فاطمة في رسالة لها بتاريخ 13 سبتمبر 1969م تصف فيها حالها ومآل زوجها الملك بعد وقوع الانقلاب: «إننا نحمد الله على أن تيجان الملكية لم تبهرنا قط، ولا نشعر بالأسف لفقدها، فنحن كنا دائماً نعيش حياة متواضعة، ولم يغب عن أذهاننا مثل هذا اليوم، كما نحمد الله كثيراً على أننا لا نملك مليماً واحداً في أي مصرف حتى يشغل بالنا المال، ولم نغير أبداً معاملتنا لأصدقائنا وهي لن تتغير مع الأيام»[1].

لقد تحدث الكثيرون عن سيرة ملك ليبيا السابق، ويجدر بنا أن نشير إلى بعض الذين عاصروه واتصلوا به شخصيًا، واطلعوا عن قرب على الكثير من أخلاقه الرفيعة ففي مقال نشر في صحيفة «الشرق الأوسط» في عددها بتاريخ 23 يونيو 1983م نعى السيد مصطفى بن حليم رئيس ليبيا السابق الملك محمد إدريس السنوسي وتحدث عن جهاد ليبيا تحت قيادته وكان ضمن ما قاله عن شخصيته: «لقد عرفت الملك إدريس رحمه الله معرفة حميمة على مدى نصف قرن تقريباً عرفته منذ كان صبيًا وعملت معه وزيراً ثم رئيساً لحكومته ثم مستشاراً له، كما عرفته وأنا مواطن عادي، وكما عرفته وهو لاجىء في مصر وكنت دائم التردد عليه في ملجئه في القاهرة، وفي طول نصف القرن عرفت فيه المجاهد المسلم الزاهد المتواضع لم يعر مباهج الدنيا أي اهتمام، وكان الملك المؤمن الورع والأب العطوف والقائد الحكيم المتواضع، كما كان يحن دائماً للهجرة إلى مكة والمدينة المنورة في الأراضي المقدسة، مرة واحدة رأيته يتلوى ألماً ويبكي دماً ويهدر هديراً، وهو الهادي الصبور، كان ذلك يوم سقوط القدس الشريف في أيدي الصهاينة، كان يخشى الله في السر والعلانية كان كريماً ندي اليد، خجولاً طالماً صرف مخصصاته الرسمية في أوجه الخير سرًا، وفي سنة 1955م عندما أنشئت الجامعة الليبية تبرع بقصر المنار في بنغازي ليكون لها المقر وكذلك فعل سنة 1956م تنازل عن قصر الغدير كمقر للكلية العسكرية، كان دائماً يتردد على الأراضي المقدسة للحج والعمرة[2].

ويقول الدكتور مجيد خدوري عن دوره في إنشاء الدولة الليبية وتحقيق الوحدة الوطنية: إن الدور الذي قام به الملك إدريس في إنشاء الدولة الليبية بالغ الأهمية إذ إنه لم يكتف بأن أقدم على العمل بجرأة لتخليص برقة من إيطاليا في الحرب العاليمة الثانية فحسب، بل استعمل نفوذه الشخصي وحنكته السياسية لإقناع أصحاب النفوذ من الزعماء الطرابلسيين بوجوب الالتفاف حول النظام الاتحادي الذي لولاه ما كانت لتتم وحدة ليبيا قط ولما كان حفيداً وخليفة للسيد محمد السنوسي، فضلاً عن ذلك فقد كسب أيضاً ثقة زعماء القبائل البرقاوية وأحاط نفسه بنفر من الرجال المقتدرين الذين تفانوا في تأييده كان بعض هؤلاء الزعماء قد تبعوه إلى المنفى،

---

(1) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(153، 154).

(2) انظر: الإنقاذ، العدد (39)، ص(64، 65).

والآخرين الذين ظلوا في البلاد لمقاومة الإيطاليين قاموا بذلك بتوجيهه، فلما عاد إلى برقة بعد الحرب لم يكن ثمة مجال للتساؤل عمن يمكن أن تؤول إليه الرئاسة في برقة، ولم يكن الزعماء الطرابلسيين يجهلون أثر الملك إدريس في توحيد البلاد، إذ أنهم أدركوا أنه الشخص الوحيد الذي يكن له الجميع الاحترام، لكنهم اختلفوا على شكل الحكومة المنوي إنشاؤها، وعلى الحدود الدستورية لاختصاصاته.. قبل عرش ليبيا بدافع من شعوره بالواجب الوطني ليزود البلاد المقسمة بالزعامة اللازمة لها»[1].

وأما المؤرخ دي كاندول صاحب كتاب «الملك إدريس عاهل ليبيا» فقد قال: «على الرغم من محاولات تشويه صورة الملك في أذهان الناس وتهويل بعض نقاط الضعف التي لا ينفرد بها عن بقية البشر، إلا أن الحقبة الطويلة التي قضاها في خدمة بلاده وأمته قد ترسخت في أعماق التاريخ بما يكفي للصمود أمام كل المساعي الخبيثة.

إن الملك إدريس رمز لعهد مضى ولن يعود، ولكنه عهد زاهر يجدر بالليبيين جميعاً والعرب عموماً أن يعتزوا به»[2].

وقال أيضاً: «كانت الدعاية التي رافقت الانقلاب كاذبة مفترية في مزاعمها ضد الملك الذي حاولت أن تصوره مثل فاروق فاسقاً متهتكاً فاسد الذمة وهو أبعد ما يكون عن تلك الصفات، فسمعته الشخصية كانت فوق مستوى الشبهات سواء في بلاده أو في العالم العربي عامة كرجل شديد الورع والتقوى كرّس حياته لحرية شعبه وكان في سلوكه الخاص مثلاً للاعتدال والاستقامة الكاملة، وإن الحملة الدعائية التي تواصلت ضده على ذلك النحو كانت من نوع الإسفاق الرخيص الذي لا يقوم على أساس»[3].

وفاته:

استقر الملك إدريس رحمه الله تعالى في مصر حيث بقي مدة حياته الأخيرة بها، ولم يغادر مصر إلا مرتين ذهب فيها إلى مكة للحج، وكانت وفاته في القاهرة بتاريخ 25 مايو 1983م وهو في سن الرابعة والتسعين[4].

وقد دفن الملك رحمه الله في المدينة المنورة، وكان قد طلب من جلالة الملك خالد بن عبد العزيز في لقاء لهما بموسم الحج سنة 1977م أن يأذن بدفنه متى حانت المنية في البقيع فكفل

---

(1) انظر: الإنقاذ، العدد (39)، ص(65).

(2) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره، ص(45).

(3) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص(141).

(4) المصدر السابق نفسه، ص(151).

الملك خالد للملك إدريس رغبته رحمهما الله، ثم إن الملك فهد بن عبد العزيز أجاز ذلك بعد وفاة الملك خالد بن عبد العزيز، ونقل جثمانه من القاهرة إلى المدينة المنورة في طائرة مصرية خاصة[1].

فنسأل الله له الرحمة والمغفرة والرضوان ونقول ما قاله المولى ﷻ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

لقد تركت ما يتعلق بالمملكة الليبية متعمداً في ذلك، إلى وقت آخر إن كان للعمر بقية وأذن الله في مواصلة هذه الرحلة الطويلة التي بدأتها من الفتح الإسلامي إلى هذا الكتاب؛ لأنني أشعر بضعف المادة التي أمامي فيما يتعلق بتلك الأحداث لأن قضايا ذلك العصر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لملابساتها وآثارها الممتدة إلى عصرنا الحاضر وخصوصاً وإنني قد بحثت في أسباب سقوط المملكة بحثاً دقيقاً وطلبت من رجال عاشوا في تلك المرحلة ليساهموا معي في تتبع الأسباب التي أدت إلى سقوط المملكة الليبية، ولكن التفاعل كان ضعيفاً واعتذر البعض لأسباب أمنية، وقد علمت بأن بعض الذين عاصروا تلك الأحداث قد كتبوا مذكرات مهمة عن المرحلة وينتظرون الوقت المناسب لنشرها؛ لذلك رأيت من الحكمة والتعقل التريث حتى يأذن الله في نشرها؛ لأنها سوف تساهم في إيجاد معلومات تساعد الباحثين على تقصي الحقائق للوصول إلى نتائج صحيحة مبنية على معلومات يقينية، ولا يفوتني في هذه الخاتمة أن أشيد بالمجهودات القيمة التي قام بها كل من الوزيرين السابقين: مصطفى ابن حليم ومحمد عثمان الصيد في كتابة مذكراتهم ثم نشرها بغية استفادة الأجيال منها.

إن الجهود التي قام بها الوزيران السابقان تستحق الثناء والتقدير؛ لأنها أصبحت مرجعاً مهمًا لتلك المرحلة وأخذت قيمتها التاريخية والعلمية وتعتبر من المبادرات الرائعة والرائدة لأن أصحابها عاشوا تلك الأحداث وساهموا في صناعتها، كما أنهم حطموا جدار الصمت، وكتبوا تاريخهم السياسي الذي في حقيقته أصبح ملكاً للأجيال الصاعدة بغض النظر عن اختلاف الآراء حول تلك المذكرات.

إن فترة المملكة الليبية من عام 1951م إلى 1969م غنية بالأحداث على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، وهي تحتاج إلى دراسة واعية وباحث مدقق يتوخى العدل والإنصاف ويعتمد على الله ثم على الوثائق والحجج والبراهين.

إن الاعتناء بتاريخ بلادنا وبلاد المسلمين تظهر أهميته في هذا العصر الذي استخدم فيه

(1) المصدر السابق نفسه، ص(151).

التاريخ كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأمم المتقدمة في مكانة سامية لا يعلوها علم آخر.

إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغي في دراسته تحقيق الرغبات، والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية ألا وهي إحياء الأمة بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالشعوب، واجتناب سنن السقوط والهبوط ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: 21].

هذا وقد انتهيت من كتابة هذه السلسلة التاريخية يوم الثلاثاء 1 ربيع الأول 1420هـ الموافق 15 يونيو 1999م، والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

وبهذه الأبيات:

إليك وجهت يا مولاي آمالي	فاسمع دعائي وارحم ضعف أحوالي
أرجوك يا مولاي لا نفسي ولا ولدي	ولا صديقي ولا أهلي ولا مالي
لما عرفتك لم أنظر إلى أحد	فلا الرعية أرجوها ولا الوالي
فلا تكلني إلى من ليس يكلؤني	وكن كفيلي فأنت الكافل الكالي(1)
واسقني كأس حب من ودادك يا	مولاي فهو شراب سلسل حالي
فلا وحقك ما للقلب من شغف	إلا بحبك فاشرح لي به بالي
وفيه سلوان قلبي عن علائقه	وسلسبيلي وسلوائي وسلسالي
ومنه أحيا ومن فقدي له مرض	ومرهمي أبداً منه وإبلالي(2)
أنا الفقير إلى مولاي يرحمني	إذ تقضي بهول الموت إمهالي
أنا الفقير إلى مولاي يرحمني	في بطن لحد وحيش مظلم خالي
هناك لحمي لدود القبر فاكهة	والعظم مني رميم في الثرى بالي

(1) كلأه: إذا حفظه ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ [الأنبياء: 42].

(2) الإبلال: الشفاء من المرض.

أنـا الـفـقـيـر إلـى مـولاي يـرحـمـنـي يـوم الـقـيـامـة مـن عـنـف وأهـوال
أنـا الـفـقـيـر إلـى مـولاي يـحـشـرنـي في زمرة الـمـصـطفى المختار والآل
صـلـى الإلـه عـلـى أرواحـهـم أبـداً ضـعـفـاً عـلـى قـدر زخـار وهـطـال[1]

(1) الزخار: صفة للبحر، وهطال: صفة للغيث.

الخُلاصة

- ولد محمد إدريس السنوسي يوم الجمعة في العشرين من شهر رجب 1307هـ الموافق 12 مارس 1890م بزاوية الجغبوب.
- كان مولده يوم فرح وسرور لأتباع الحركة السنوسية، وخصوصاً أهالي الجغبوب، فعطل معهد الجغبوب، والكتاتيب القرآنية، ودور الأعمال، ونحرت الجزر، ومدت الموائد، وقدمت الصدقات شكراً لله تعالى.
- نشأ محمد إدريس في رعاية أبويه وبعد وفاة أمه احتضنته جدته لوالدته، واهتم والده بتربيته تربية صالحة، وبدأ تحفيظه للقرآن الكريم بنفسه مع دخوله في سن السابعة من عمره.
- تتلمذ على مجموعة من أفاضل العلماء اشتهر من بينهم العلامة العربي الفاسي، وأحمد أبي سيف، والعربي الغماري، وحسين السنوسي، وأحمد الريفي وأحمد الشريف السنوسي.
- أتقن القراءات، وعلوم الحديث، كما أتقن البخاري، ومسلم، ومسند أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وموطأ مالك، ومسند أبي حنيفة، ومسند الإمام أحمد، وكتاب الأم للشافعي، وغير ذلك من كتب الفقه والحديث والتفسير واللغة، وعلوم التاريخ، وتقويم البلدان، وتحصل على إجازات عدة.
- لما تقدمت به السن أصبح له مجلس عامر بالعلماء والأدباء، وكان يحب العلماء ويجلهم ويكبر ما في نفوسهم من العمل، وينزلهم منه منزلة خاصة، ويحيطهم بعطفه وكانت أحب العلوم إليه: الحديث الشريف، وعلم التاريخ والأدب والسياسة.
- كان لا يتحدث في موضوع إلا ويعلل رأيه فيه بعد تدقيق وتمحيص ثم يأتي بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة، تارة من كتاب الله، وطوراً من الحديث الشريف، وحيناً من أقوال السلف الصالح وأئمة المسلمين.
- كان قوي الذاكرة، سريع الخاطر متين الحجة، وله اهتمام خاص بالفقراء والمساكين، وكان جميل المعشر، رحيماً بأتباعه وخدمه، فيعود مريضهم بنفس متواضعة ويفصح عن المذنبين منهم ما لم يكن الذنب مغضباً لله ولرسوله وكان يميل إلى اقتناء جياد الخيل، وله شغف بجمع أنواع الأسلحة ويجمع الكتب.
- كان حريصاً على وحدة الصف السنوسي أمام أعداء الإسلام، فبعد أن بدأ الطليان هجومهم

الغادر على الأراضي الليبية ورأى بعض الإخوان أن يسندوا الزعامة إلى إدريس السنوسي كحق موروث بدلاً من أحمد الشريف رفض إدريس ذلك العرض وبذلك اجتمعت كلمة المجاهدين على أحمد الشريف.

- سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج عام 1330 هـ، 1912م وكانت تلك الرحلة مليئة بالدروس والعبر وأصبح لها أثر عميق في تفكيره حيث احتك بالحكومة المصرية، وبزعيم الثورة العربية الكبرى الشريف حسين وقادة الإنكليز في مصر وتكونت له قناعات مهمة فيما يتعلق بمجريات السياسة الدولية، وبطبيعة الصراع بين الأتراك والإنكليز واتخذ لنفسه منهجاً سار عليه لخدمة شعبه ووطنه وبلاده.
- رأى أنه ليس لمصلحة الحركة السنوسية الدخول مع الأتراك في حربهم ضد الإنكليز، وبعد رجوعه من الحج نصح أحمد الشريف بعدم الدخول في الحرب مع الأتراك ضد الإنكليز وأعلن رأيه ذلك بصراحة.
- بعد انتهاء المعارك بين أحمد الشريف وبريطانيا ظهر محمد إدريس على مسرح العمل السياسي الليبي وكان بروزه مصلحة للبلاد، لما تمتع به من صفات أهلته لزعامة برقة؛ وآلت الأمور إلى أن بايعته القبائل في شرق ليبيا بالإمارة.
- دخل الأمير محمد إدريس السنوسي في مفاوضات مع الإنكليز لكي يتوصل معهم إلى اتفاق مؤقت يهدف به فتح الطرق مع مصر، حتى يتغلب على شبح المجاعة الذي هدد البلاد.
- اشترط الإنكليز للدخول في المفاوضات ضرورة دخول حليفتها في الحرب العالمية الأولى إيطاليا لتلك المفاوضات، واضطر الأمير إدريس للموافقة على ذلك الشرط.
- لم يكن موقف الأمير إدريس قويًا في المفاوضات بسبب هزيمة جيش السيد أحمد الشريف في مصر بينما كان رصيده الوحيد في ولاء قبائل برقة، وحرص الإنكليز على كسبه لصفهم.
- كانت ثورة الأتراك ضد السنوسية من العوامل التي ساعدت في دفع محمد إدريس نحو التقارب مع السياسة البريطانية، وقد بدأت تلك الثورة في أواخر عام 1916م وانتشرت في جهات عديدة حتى توجت بالنصر على السنوسية في فزان خلال شهر سبتمبر عام1917م وطردوا منها محمد عابد السنوسي الذي التجأ إلى الكفرة وترك واحة واو، وأصبحت فزان منذ ذلك الحين بيد الأتراك.
- استمر الأتراك في مضايقة محمد إدريس، وتضييق الحصار عليه وعملوا على الإحاطة به وأرسل نوري باشا بعثته الأولى الصغيرة إلى الكفرة لضرب النفوذ السنوسي هناك إلا أن تلك البعثة فشلت وانتهت بوقوع أعضائها في أيدي صفي الدين السنوسي الذي استطاع أن يكشف أمرهم بسرعة، وأودعهم السجن.

- كان الأمير محمد إدريس على قناعة راسخة أن النصر في الحرب العالمية الأولى سيكون للحلفاء ولذلك حرص على التقارب من بريطانيا، صاحبة التفوق في منطقة الشرق، ومن أجل تقليل الخسائر والمحافظة على كيان السنوسية الذي تعمل تركيا على تحطيمه في البلاد في تلك المرحلة، واتخذ قراراً بالانسحاب من الحرب ضد إيطاليا وبريطانيا ووافقه زعماء القبائل التابعين للحركة السنوسية على ذلك.
- كان أبناء البيت الإدريسي في مصر هم حلقة الاتصال بين الأمير إدريس والحكومة البريطانية وتم الاتفاق على سفر وفد بريطاني وإيطالي إلى إجدابية لعقد صلح بين الأطراف الثلاثة.
- وصل في أواخر عام 1916م إلى زويتينة وفد من الإنكليز والإيطاليين ومعهم من المصريين أحمد محمد حسنين أفندي، ومحمد الشريف الإدريسي وابنه محمد المرغني، وكانوا جميعاً ضمن الوفد الإنكليزي إضافة إلى الكولونيل تالبوت الذي له دراية كبيرة بشؤون الشمال الأفريقي، والضابط اللفتنت هسلم، وكان الوفد الإيطالي يتكون من الكولونيل بيلا، والكومانداتور بياجنتيني، ومترجمهم.
- بدأت المفاوضات بين الأطراف الثلاثة خلال شهري أغسطس، وسبتمبر سنة 1916م، وكان الوفاق والتفاهم ظاهراً بين الجانبين الإنكليزي والسنوسي أما العلاقات الإيطالية فقد كانت مغايرة لذلك تماماً.
- كانت مهمة الوفد الإنكليزي يسيرة، فلم تكن هناك أية صعوبة في الوصول إلى اتفاق مع السنوسيين، ولكن الصعوبة تكمن في إصرار الكولونيل تالبوت رئيس الوفد على عدم التوقيع على أي اتفاق مع السنوسيين قبل أن ينتهي إدريس مع الاتفاق مع الإيطاليين ويتم التوقيع من الطرفين على هذا الاتفاق.
- في أوائل عام 1917م تمت اتصالات جديدة بين الإنكليز، والإيطاليين والسنوسيين وقد لعب محمد الشريف الإدريسي وابنه المرغني دوراً هامًّا في إنجاح هذه الاتصالات وموافقة جميع الأطراف على تجديد المفاوضات.
- طالت مدة المفاوضات، فاستغرقت الفترة ما بين شهر يناير إلى منتصف أبريل تقريباً، والجلسات معقودة، والحوار مستمر وكان لضغوط الإنكليز أثر على الطرفين الإيطالي والسنوسي حتى تم التوصل إلى اتفاق ارتضاه الجميع.
- كانت معاهدة عكرمة في طبرق خير وسيلة لتحقيق السلم وصون مصالح العرب المجاهدين في برقة، كما أنه أتيحت فرصة لمحمد إدريس لتنظيم القبائل تنظيماً من شأنه أن يجمع الكلمة ويقضي على بذور الفتنة والاضطراب، كما ساعد ذلك الاتفاق على تأييد نفوذ محمد إدريس حتى بدأ الأهالي من ذلك الحين يلقبون محمد إدريس بالمنقذ.

- تركزت جهود الأمير إدريس بعد تلك المعاهدة على أمرين: إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة التي تحفظ مصالح البلاد، وتتولى زعامة القبائل في برقة، وتطالب بكل حقوقهم، ومقاومة نفوذ الطليان ومنع اتصالهم بالعرب بكل الوسائل في داخل البلاد.
- اتخذ محمد إدريس إجدابية مركزاً لقيادته وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلي: لما تميزت به من موقع استراتيجي هام، وقوعها في منتصف قاعدة مثلث رأسه في الكفرة وقاعدته النوفلية والجبل الأخضر، كما أنها تمثل الامتداد الطبيعي لواحات جالوا وأوجلة جخرة، والكفرة، وهذا يعطيها بعداً استراتيجيًا هامًا، ومن أهم المناطق في تجارة القوافل، كانت موطناً لمعظم القبائل التي كانت تؤيد الحركة السنوسية ولغير ذلك من الأسباب.
- قام محمد إدريس بوضع نواة لجيش نظامي واجتهد في تسوية الخلافات بين بعض القبائل، وتمكن من القضاء على عناصر السلب والنهب والقتل.
- قام محمد إدريس بتشكيل مجلسين أحدهما يضم كبار العلماء والإخوان ويقال عنه المجلس الخاص وله السلطات التشريعية والتنفيذية، وأما المجلس الثاني فكان أعضاؤه من شيوخ وأعيان القبائل ويقال له مجلس الأعيان.
- كان الأمير محمد إدريس يدير دفة العلاقات مع إيطاليا بمنتهى الحذر واللياقة، والكياسة، والدبلوماسية، والسياسية، وحرص على توثيق علاقته مع الوالي الإيطالي الكونت جاكومودي مارتينو، وعين عمر باشا منصور الكيخيا ممثلاً له في بنغازي، وكان لعمر باشا خبرة سياسية نادرة، حيث كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني في إستانبول.
- كان الإيطاليون يرغبون في نقض الاتفاقات السابقة؛ لأنهم كانوا يطالبون بالسيادة التامة على ليبيا، وأنهم قبلوا بالأمر الواقع مؤقتاً، لذلك حاولوا أن يتقربوا من السكان، أملاً في أن ينتهي الأمر بهم إلى القبول بالسيادة الإيطالية.
- بعد انهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى اضطر الأتراك للاستسلام وعقدوا مع الحلفاء معاهدة جزيرة موندروس في 31 أكتوبر عام 1918م تعهدت فيها تركيا بسحب قواتها من طرابلس الغرب وأن تقطع علاقتها بها.
- كان سقوط تركيا سبباً رئيسيًا في ظهور فكرة الجمهورية الطرابلسية وطرحت على بساط البحث، واشترك فيها رمضان بك، وعزام بك، والباروني باشا، والأمير عثمان، ومختار بك كعبار.
- في يوم السبت الثالث عشر من صفر سنة 1337هـ الموافق 16 نوفمبر سنة 1918م اجتمعت الوفود الطرابلسية في جامع المجابرة بمسلاته وهو أكبر جامع فيها.
- تشكل مجلس إدارة الجمهورية من سليمان الباروني، وأحمد بك المريض، ورمضان

السويحلي، وعبد النبي بالخير، وشكل مجلس شورى الجمهورية، والمجلس الشرعي لها.

- قامت الحكومة بإرسال عدة بلاغات إلى كل من رئيس الحكومة الإيطالية، ورئيس أمريكا ولسن، ورئيس الوزراء الإنكليزي، ورئيس الجمهورية الفرنسية إلا أن تلك الدول لم تعترف بها.
- في 30 سبتمبر سنة 1919م أعلن الطرابلسيون رسميًا عن تأسيس حزب الإصلاح لأجل الدفاع عن مكاسب البلاد، وإيقاظ الوعي الجماهيري السياسي، وأسندوا رياسته إلى أحمد بك المريض، ورياسة شرفه إلى رمضان بك.
- انتهز الإيطاليون فرصة المهادنة ليلقوا بذور الفتنة بين العرب والبربر من جهة وبين البدو والحضر من جهة أخرى، وبين سكان البلدان المتجاورة.
- كانت من أكبر الفتن الحرب الطاحنة بين الزنتان والبربر فقدت بها طرابلس من أبنائها ما لا يعلم عدده إلا الله.
- استغل الإيطاليون ذلك الصراع وتلك الفتن، وتحركت جيوشهم للقضاء على الطرابلسيين، فاحتلوا فزان في 31 أكتوبر عام 1922م، وفي 17 نوفمبر 1922م، احتلوا غريان وبدأت المدن تتساقط أمام الجيوش الإيطالية.
- بعد التطورات الخطيرة، والانشقاقات العظيمة التي وقعت بين الزعماء رأى عقلاء طرابلس ضرورة الاجتماع في مؤتمر غريان ليتدارسوا الأوضاع الراهنة، ويتخذوا حيالها موقفاً مشتركاً.
- كانت الفتنة بين طرابس وبرقة قد اشتدت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحصل فتور بين البرقاويين والطرابلسيين، استمر لمدة خمس سنوات.
- كان عقلاء طرابلس وبرقة لا يرضيهم تلك الحالة المزرية التي لا يرضى عنها عقل ولا شرع ولا عرف فبادر السيد أحمد المريض بإرسال رسالة لأخيه الأمير محمد إدريس السنوسي، وكانت مليئة بالمعاني الرفيعة والعبارات السامية، ورد على تلك الرسالة الأمير محمد إدريس وترتب على ذلك اجتماع سرت العظيم بين الوفد الطرابلسي والبرقاوي.
- كانت الحكومة الإيطالية تتابع الأخبار وما يدور بين برقة وطرابلس، وخافوا أن يترتب على اتفاق طرابلس وبرقة ما لا تحمد عقباه، فقرر وولبي احتلال مصراته قبل أن يصل الليبيون إلى نتيجة في مؤتمر سرت.
- بعد فشل المفاوضات بين إيطاليا والطرابلسيين في فندق الشريف في 10 أبريل سنة 1922م رأى الطرابلسيون ضرورة إرسال وفد إلى الأمير محمد إدريس ليبايعوه بالإمارة تنفيذاً لما قررته هيئة الإصلاح المركزية في فندق الشريف.

- بادر الأمير محمد إدريس بمصافحة تلك اليد الممدودة وقبل البيعة دون تردد وأجاب على كتاب البيعة في 22 ربيع الأول 1341هـ الموافق 22 نوفمبر 1922م.
- تغيرت العلاقات الإيطالية السنوسية وحدثت بعض الاشتباكات بين الطليان والعربان بسبب حرص الطليان على نزع السلاح منهم، ومرض الأمير إدريس مرضاً شديداً ونصحه الأطباء بالذهاب إلى مصر للعلاج.
- قام الأمير إدريس قبل هجرته بتنظيم أمور الجهاد، وبحث الأمر مع زعماء ورؤساء برقة من جانب، ومع بشير السعداوي والوفود الطرابلسية من جانب آخر.
- عهد الأمير بالأعمال السياسية والعسكرية في برقة إلى عمر المختار نائباً عنه في تنظيم معسكرات المجاهدين وعهد بالمسائل الدينية وما يتعلق بالأسرة السنوسية إلى أخيه محمد رضا.
- استطاع الإيطاليون بقواتهم الجرارة، وطائراتهم القضاء على حركة المقاومة رويداً رويداً، ثم هاجموا في آخر الأمر ورفلة وعندئذٍ انحلت المقاومة تماماً، واضطر بشير السعداوي إلى مغادرة سرت في عام 1924م بعد أن مكث بها سنة تقريباً.
- كان السعداوي ﷺ من أشد المجاهدين تحمساً في هذه الفترة العصيبة، ومن أعظمهم مثابرة على الجهاد، وكان يتحلى برجاحة العقل، والرزانة والهدوء، ويتصف بالقدرة على النظر البعيد وتقليب وجوه الرأي في عواقب الأمور.
- أصبحت برقة وحدها تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو، وكان والي برقة الجديد بونجيو فاني قد بدأ يحل الأدوار المختلفة في برقة عنوة واقتداراً.
- بدأ الجهاد بقيادة عمر المختار في برقة ضد إيطاليا من غير هوادة أو لين، أو ضعف، أو خوار.
- ولد الشيخ عمر المختار من أبوين صالحين عام 1862م، وقيل 1858م وكان والده مختار بن عمر من قبيلة المنفة من بيت فرحات، وكان مولده بالبطنان في الجبل الأخضر.
- بعد وفاة والده تولى تربيته الشيخ حسين الغرياني هو وشقيقه محمد، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى.
- مكث في معهد الجغبوب ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة كالفقه، والحديث والتفسير، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم: السيد الزروالي المغربي، والسيد الجواني، والعلامة فالح الظاهري المدني وغيرهم كثير.
- كان عمر المختار شديد الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها وكان يقرأ القرآن يوميًا،

فيختم المصحف الشريف كل سبعة أيام منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي: يا عمر وردك القرآن.

- إن من أسباب الثبات الذي تميز به عمر المختار حتى اللحظات الأخيرة من حياته إدمانه على تلاوة القرآن الكريم والتعبد به، وتنفيذ أحكامه، لأن القرآن الكريم مصدر تثبيت وهداية وذلك لما فيه من قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين وأوليائه بأساليب متعددة.
- ظهرت صفة الشجاعة في شخصية عمر المختار المتميزة في جهاده في تشاد ضد فرنسا، وفي ليبيا ضد ليبيا، وقد حفظ لنا التاريخ رسالة منه إلى الشيخ الشارف الغرياني بين له فيها أنه لا يخاف طائرات العدو ولا مدافعه ولا دباباته ولا جنوده من الطليان، ولا يخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار ووضعوه على الزروع النابتة في الأرض، كما ظهرت فيه صفة الكرم وكان يردد على ضيوفه مقولته المشهورة «إننا لا نبخل بالموجود ولا نأسف لمفقود».
- تفوق عمر المختار على أقرانه بصفات عدة منها: متانة الخلق ورجاحة العقل وحب الدعوة، ووصل أمره إلى الزعيم الثاني للحركة السنوسية محمد المهدي السنوسي فقدمه على غيره واصطحبه معه في رحلته الشهيرة من الجغبوب إلى الكفرة عام 1985م.
- وفي عام 1897م أصدر محمد المهدي قراراً بتعيين عمر المختار شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج، وقام عمر المختار بأعباء المهمة خير قيام، فعلّم الناس أمور دينهم، وساهم في حل النزاعات بين القبائل وعمل على جمع كلمتهم وسعى في مصالحهم، وسار في الناس سيرة حميدة، فظهرت في شخصيته أخلاق الدعاة من حلم وتأنٍ وصبر ورفق وعلم وزهد.
- عندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية عام 1911م كان عمر المختار وقتها بواحة جالو فخفّ مسرعاً إلى زاوية القصور وأمر بتجنيد كل من كان صالحاً للجهاد من قبيلة العبيد التابعة لزاوية القصور.
- أعجب الضابط الأتراك بالمختار وبشجاعته وبالآراء السديدة التي تصدر عنه فكأنما هي تصدر من قائد ممتاز تخرج عن كلية عسكرية وكان قدومه إلى معسكرات المجاهدين مشجعاً وباعثاً للروح المعنوية في قوة خارقة.
- في شهر مارس عام 1923م سافر إلى مصر لمقابلة الأمير محمد إدريس، وكان عمر المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها، وشيوخها.
- حاولت إيطاليا بواسطة عملائها بمصر الاتصال بالسيد عمر المختار وعرضت عليه عروضاً مغرية لترك الجهاد، واستمرت عروضهم حتى بعد رجوعه للبلاد وحاولوا استمالته بالمال

الطائل، والمناصب الرفيعة، والجاه العريض في ظل حياة رغيدة ناعمة ولكنهم لم يفلحوا.

- من أشهر المعارك التي خاضها المختار في تلك المرحلة معركة بئر الغبي، ومعركة أم الشفاتير عقيرة الدم.
- كانت المعسكرات التي يقودها عمر المختار على أساس قبلي ويعتبر الدور وحدة عسكرية، وإدارية، واجتماعية يرأسها قائمقام.
- كان مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة جهادية حاسمة بالنسبة للمجاهدين وكان تاريخ تعيينه في شهر يناير من عام 1929م، وكان برنامجه يتلخص في تخفيض الجيش إلى القدر الذي يكفي للقيام بحرب العصابات، والمحافظة على هيبة الحكومة مع إنفاق الأموال المتوفرة في مد الطرق في الجبل الأخضر مما يسهل عليه التنقلات العسكرية، فإذا ما تم له ذلك قام بهجوم شامل كاسح على المجاهدين يقضي على المقاومة نهائيًا، ومن أجل ذلك سعت إيطاليا إلى مفاوضة السيد عمر المختار لتهدئة الأحوال.
- دخل عمر المختار في المفاوضات مع قناعته بأنها لا تجدي نتيجة لضغوط بعض قادة الجهاد، ولإقامة الحجة على الحكومة الإيطالية، وقد ظهر في تلك المفاوضات حرص المختار على رفض الخضوع لأي إدارة أو سلطة غير سلطة الله، وكان مصرًا في شروطه على تطبيق الشريعة الإسلامية بين المسلمين ورفض كل ما عداه من قوانين وضعية في مفاوضاته.
- أظهر بادوليو قبول الشروط ولكنه نكث بوعوده وأخذ يستعد للقضاء على المجاهدين، وشرع الطليان يبذرون بذور الشقاق في صفوف المجاهدين على أمل أن يضعفوا من قوتهم، وفي اجتماع سيدي رويفع ادعى سيشلياني أن لا يمكن إبرام الاتفاق النهائي إلا في بنغازي.
- أراد المجاهدون أن يقطعوا حجة الطليان فاتفقوا على أن يحضر اجتماع بنغازي السيد الحسن رضا السنوسي، وكان عمر المختار مقتنعاً بعدم جدوى الاجتماع ولكنه اضطر مكرهاً، وعاد الحسن يحمل شروطاً إيطالية مجحفة فرفضها عمر المختار والمجاهدون.
- كان عمر المختار بجانب إيمانه الراسخ واسع الأفق عالماً بواقعه مدركاً لما يجري حوله متابعاً له، وقد كان ذلك أكبر عون له بعد الله على صحة مواقفه وقوتها التي فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه.
- خاطب السيد عمر المختار المجاهدين وأبناء شعبه قائلاً: فليعلم إذاً كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما بث الفتن والدسائس بيننا، لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لهم الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة.

- نقضت الحكومة عهودها وغدرت بالمجاهدين وكان السيد حسن الرضا أول من ذاق مرارة غدرهم.
- عين الجنرال غراسياني حاكماً لبرقة ونائباً للمرشال بادوليو الحاكم العام، وكان غراسياني معظماً ومقدماً عند قومه وقام بأعمال عسكرية في فزان شنيعة للغاية واستطاع أن يقضي على حركة الجهاد في فزان في 25 فبراير 1930م وكان حقوداً على الإسلام والمسلمين ولم يرقب في مؤمن إِلا ولا ذمة.
- سافر إلى روما ورجع بتعليمات من موسوليني وحكومته هدفها القضاء المبرم على حركة الجهاد، مهما كلف ذلك، وبكل الطرق والوسائل للقضاء على القضية البرقاوية.
- لم يمضِ على وصول غراسياني سوى أيام قلائل حتى أنشأ ما عرف في تاريخ الاستعمار الإيطالي الأسود باسم المحكمة الطائرة أبريل 1930م، ثم شرع في سياسة عزل الأهالي الخاضعين عن المجاهدين وجمع الإخوان السنوسيين وشيوخ الزوايا وأئمة المساجد ومعلمي القرآن بها مع ذويهم جميعاً، ومشايخ وأعيان القبائل، وبكل من يربطه أي نوع من أنواع الصلات بأحد المجاهدين أو المهاجرين، جيء بهذه المجموعات يساقون إلى مراكز التعذيب ثم السجون ولم يشفع في أحدهم سن الشيخوخة الطاعنة، أو الطفولة البريئة أو المرض المقعد، أو الضرر الملازم.
- وأنشئت معتقلات جديدة في بنينة والرجمة، والمقرون وسلوق والبريقة والعقيلة وسيقت القبائل إلى تلك المعتقلات الشنيعة.
- غيّر عمر المختار خطته وطور أساليبه القتالية لما يتماشى مع المرحلة واعتمد على عنصر المباغتة وركن إلى مفاجأة القوات الإيطالية في أماكن متفرقة ونقل دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية في الدفنا نظراً لقربها من الحدود المصرية.
- عزم غراسياني على مد الأسلاك الشائكة في الحدود الليبية المصرية المصطنعة من قبل الاستعمار ما يزيد عن 300 كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب وقد كلف الدولة الإيطالية عشرين مليوناً فرنكاً إيطاليا.
- مع شدة قبضة الاستعمار الإيطالي على المدن إلا أن ذلك لم يمنع الأهالي من القيام بواجبهم المقدس، واستطاعت المخابرات الإيطالية أن تقبض على عدد من الليبيين الذين زودوا حركة الجهاد بالمؤن والمعلومات وتم إعدامهم.
- بعد أن استطاعت القوات الإيطالية أن تعتقل قبائل برقة في معسكرات واسة، وأخذ غراسياني في مد الأسلاك الشائكة على طول الطريق على البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب ليفصل برقة عن مصر، وكان قد شرع في جمع قواته الضخمة من مختلف وحدات الجيش الإيطالي والجيوش الملونة، من المرتزقة ومن المعدات الحربية لاحتلال

الكفرة وقد كتب غراسياني عن اهتمامه باحتلال الكفرة، وعن الاستعدادات التي اتخذتها الحكومة الإيطالية أكثر من خمسة وأربعين صفحة.

- قام الأمير شكيب أرسلان بدور مشكور في كتابة المقالات عن ما حدث في برقة وطرابلس وقد اتصل به عمر المختار وأرسل إليه رسالة شكر عن دوره العظيم.
- قامت إيطاليا بتصعيد حملات الانتقام من الليبيين والمجاهدين خصوصاً، فقامت بسياسة التهجير، وسياسة القتل والرمي في البحر، وبهتك الأعراض وخصوصاً في الكفرة، وقتلهم لأهل العلم، وكبار الشيوخ ورمي الأبرياء من الطائرات، وانتزعت الأراضي من الأهالي، ورحلت الأطفال إلى إيطاليا، ونشطت حركة التنصير بين الأهالي.
- كان غراسياني يملك القوات الضخمة في البر والبحر والجو، والسلطة الغاشمة المستبدة في برقة، والخزائن المرصوفة بالأموال والسجون والمعتقلات والمشانق، ومع هذا يضعف ويسيطر عليه العجز أمام المجاهدين وقائدهم العظيم حتى دفعه تفكيره إلى حرق الغابات بعد أن تمكن من حرق الأكباد والأفئدة والأجسام، لقد وقع تحت تأثير عصبي حاد من جراء ما أصابه من الفشل الذريع وكان في طريقه إلى الاستقالة أو الإقالة لولا تقدير الله بوقوع عمر المختار في الأسر.
- ظل عمر المختار في الجبل الأخضر يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تحيط به وبرجاله وفي صباح 11 سبتمبر 1931م وقع من على جواده في إحدى المعارك فأصيب في إحدى يديه بجروح ثم وقع في الأسر ثم أرسل إلى سجن بنغازي.
- وفي الساعة الخامسة مساءً في 15 سبتمبر 1931م جرت محاكمة الشيخ عمر المختار وكانت محكمة صورية شكلاً وموضوعاً، وقد استغرقت المحاكمة من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمسة عشر دقيقة فحسب وحكم عليه بالإعدام.
- في يوم 16 سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة 1931م عند الساعة التاسعة صباحاً نفذ الطليان في (سلوق) جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقاً في شيخ الجهاد، وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير.
- قام المسلمون بتأبين الشيخ عمر المختار وقيلت القصائد في رثائه ومن أشهر ما قيل قصيدة أحمد شوقي، وقصيدة نعمان عبد الوهاب، والأستاذ أبو الخير الطرابلسي، والأستاذ حسن الغناي.
- بعد سقوط عمر المختار رحمه الله في الأسر تجمع المجاهدون بين يوم وليلة وأجمعوا على تنصيب الشيخ المجاهد يوسف بورحيل قائداً للجهاد الإسلامي، ووكيلاً عامًا للجهاد.
- حشدت إيطاليا قواتها وواصلت شن حملاتها بشراسة منقطعة النظير ضد المجاهدين فقتل حمد بو خير الله أحد الزعماء، وقتل يوسف بورحيل، وجرح عصمان الشامي فأخذ

أسيراً، وأما عبد الحميد العبار فاستطاع أن يجتاز الأسلاك الشائكة بجواده رغم مطاردة القوات الإيطالية له.

- وبهذه النهاية المؤلمة الحزينة انكسرت شوكة المجاهدين، وتعثرت خطواتهم وأخمدت حركة الجهاد وذهب الأجداد تاركين خلفهم تاريخاً بطوليًا كفاحيًا رائعاً من أجل العقيدة، والدين والشرف والكرامة.
- سعى الفاشيست إلى إعادة الإمبراطورية الرومانية الغابرة فقرروا لذلك امتلاك البلدان الإسلامية القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ثم إبادة أهل هذه البلاد وإفنائهم وتحويلهم إلى رقعة لاتينية.
- هاجر الليبيون إلى تونس والجزائر، وتشاد، وسوريا، والأردن، ولبنان، ومصر، والحجاز، وتركيا، وتركوا أوطانهم بسبب الظلم والجور الذي وقع من الطليان وشرعوا في جمع شتاتهم في المهجر استعداداً ليوم قريب تتاح لهم فرصة تخليص بلادهم من الاحتلال الطلياني البغيض، وكانت قلوبهم تتقطع شوقاً للرجوع إلى ديارهم وتفجرت ملكاتهم الشعرية وتركوا لنا بعض القصائد المعبرة عن الشوق للأوطان.
- ذاق المهاجرون ألوان العذاب في المهجر ومع ذلك فقد واصلوا الجهاد وهم في ديار الهجرة حتى ضاقت بهم إيطاليا ذرعاً، وبرز من المجاهدين في مصر السيد إدريس السنوسي وفي بلاد الشام بشير السعداوي الذي أسس الجمعية الطرابلسية البرقاوية.
- مع اقتراب الحرب العالمية الثانية أصبح البريطانيون يسعون لإيجاد تحالف قوي مع المعارضة الليبية ومدوا خيوطهم لكافة المعارضين وخصوصاً أقواهم الأمير إدريس السنوسي.
- إن الحرب العالمية الثانية آية من آيات الله في تصريف أمر الدول والشعوب والأمم وفق سننه وقوانينه في المجتمعات البشرية ومن السنن الواضحة في حياة الأمم أنه عندما تتجبر أمة من الأمم وتعلو في الأرض ويصيبها البطر والكبرياء يهيىء الله لها أسباب الانهيار والزوال.
- كان الأمير إدريس في مصر يتحين تلك الفرصة بمجرد أن تحقق بأن الحرب العالمية لا محالة واقعة شرع بجمع زعماء الليبيين والتشاور معهم ودراسة احتمالات الموقف، ووضع الخطط المناسبة التي يجب أن يسيروا عليها.
- عقد الزعماء الليبيون اجتماعاً تاريخيًا في منزل الأمير إدريس السنوسي بالإسكندرية في 6 رمضان 1358هـ/ 20 أكتوبر 1939م اجتمع فيه حوالي أربعون شيخاً من رؤساء الليبيين وزعمائهم الموجودين في مصر وأسفر تبادل الرأي عن اتخاذ قرار بتفويض الأمير في أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية أو الإنكليز بشأن تكوين جيش سنوسي مهمته الاشتراك

مع الحلفاء عندما تدخل إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ووقعوا على وثيقة تاريخية مهمة في يوم 9 رمضان 1358هـ/ 23 أكتوبر 1939م.

- بادرت جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بعقد اجتماع في دمشق في يوم 29 شوال 1358هـ واطلعت على صورة القرار الموقع عليه من زعماء ورؤساء المجاهدين في مصر ووافقت عليه.

- شرع إدريس السنوسي في مفاوضة الإنكليز، فأسفرت مباحثاته عن السماح له بتشكيل فصائل من القبائل الليبية المهاجرة لاسترداد حريتها، واستخلاص بلادها من العدو الإيطالي.

- دعا الأمير إدريس مشايخ القبائل وزعماء المجاهدين الموجودين في مصر واجتمع بهم في يوم الخميس 8 أغسطس سنة 1940م من أجل دراسة الأحداث والتطورات الأخيرة.

- اتخذت الجمعية الوطنية الليبية عدة قرارات من أهمها: وضع الثقة في بريطانيا العظمى، وإعلان الإمارة السنوسية، تعيين هيئة تمثل القطرين طرابلس وبرقة، خوض غمار الحرب ضد إيطاليا، تعيين حكومة سنوسية مؤقتة.

- قدم الليبيون كل ما عندهم لدعم الحلفاء ضد المحور وكانت كتائب المجاهدين قد قامت بدور بارز في حرب الصحراء، وكذلك الأهالي المدنيون فقد قدموا للجيش البريطاني مساعدات جريئة.

- كان غرب مصر وبرقة مسرحاً لأطول حملة في الحرب العالمية الثانية وضربت المدن والموانيء والقرى والمطارات والطرق، والتركيبات التي أقامها الطليان.

- في يناير 1943م كان جيشان من جيوش الحلفاء يلتقيان حول طرابلس: جيش مونتجمري الثامن، وجيش فرنسي بقيادة ليكلرك الجنرال الفرنسي وقام حاكم طرابلس الإيطالي بتسليم المدينة للحلفاء.

- في أعقاب الاحتلال البريطاني الثالث لمنطقة برقة أعلن الجنرال مونتجمري بأن المنطقة ستدار من قبل حكومة عسكرية بريطانية حتى نهاية الحرب العالمية وليس حتى نهاية الحرب في شمال إفريقيا.

- عارض الليبيون موقف الدول الكبرى من قضيتهم، ووجهوا نقدهم وسهامهم إلى الدول الكبرى وخصوصاً الحكومة البريطانية التي لم تلتزم بعهودها مع الليبيين.

- في عام 1947م أصبح البريطانيون يرون الحاجة إلى منح برقة نوعاً من الحكومة الذاتية تحت زعامة إدريس وأوصت لجنة بريطانية ببرنامج استقلال على ثلاث مراحل، وتحت الإشراف البريطاني، أما طرابلس فكان الوضع يختلف وظهر الخوف هناك من عودة

الحكم الإيطالي للمنطقة، وخاصة في وجود الجالية الإيطالية الكبيرة بمطامعها وتطلعاتها.

- اقتصرت غالبية الأحزاب والجماعات في منطقتي برقة وطرابلس على حاجتهم لدولة متحدة وأصبح نادي عمر المختار يشدد انتقاده ضد بريطانيا وضد سياسة إدريس المتحالف معهم.
- قام الأمير إدريس بإيقاف نشاط نادي عمر المختار ومنع جميع الأحزاب السياسية عن العمل في ديسمبر 1947م وألف المؤتمر الوطني بحجة التحدث باسم أهالي برقة جميعاً.
- أرسلت الدول الكبرى لجنة لتقصي وضع ليبيا فوجدوا رغبة عارمة في الاستقلال التام وأوضح تقرير اللجنة الرغبة الليبية الجماعية للاستقلال التام.
- أصبح استقلال ليبيا شيئاً لا بد منه بالنسبة للأمم المتحدة وأعيدت قضية ليبيا إلى اللجنة السياسية في صيف 1949م وسمح لإيطاليا بالاشتراك بالنقاش وكذلك الممثلين من المؤتمر الوطني البرقاوي، وحزب المؤتمر الوطني الطرابلسي، وممثلين من الجالية اليهودية بطرابلس، وفي أكتوبر بدأت لجنة فرعية في وضع قرار يتضمن جميع النقاط الرئيسة الواردة في مقترحات وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة.
- في 21 نوفمبر 1949م تبنت الجمعية العامة القرار الذي اقترحته وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة وتبنته الجمعية بأغلبية 48 صوتاً ضد صوت واحد هو الحبشة وغياب تسعة منها فرنسا وخمس دول شيوعية.
- أعلن استقلال ليبيا في 24 ديسمبر عام 1951م وأصبح الدستور معدًا للتنفيذ وتولت الحكومة المؤقتة البلاد وأصبح لها صلاحيات كاملة، كان أول رئيس للحكومة المؤقتة محمود المنتصر، وفتحي الكخيا نائباً له ووزيراً للعدل والمعارف وأصبح عمر شنيب مديراً للديوان الملكي، وعين الملك إدريس حكام الولايات الثلاثة، وتقدم بطلب انضمام ليبيا للأمم المتحدة واليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية.
- كان الملك ﵀ يرى أن الحياة السعيدة لا تقوم إلا على الدين والعلم والأخلاق ولذلك اهتم بهذه الركائز اهتماماً عظيماً ولذلك أحبه شعبه.
- كان الملك كثير الاتصال بجميع ملوك ورؤساء العرب والمسلمين مسترشداً مستعيناً أو ناصحاً أميناً، وقد بذل جهوداً كبيرة ومساعي جليلة بين الحكام لإصلاح ذات البين وتقريب وجهات النظر، والدعوة للاتحاد.
- بذل الملك ﵀ ما في وسعه في القضايا التي تتنامى إلى سمعه، فيغضب لله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكانت هناك أمور قد خرجت عن إرادته وقدرته بحكم الوجود البريطاني والأمريكي.

- تميزت خطاباته برصانة الأسلوب، ومتانة التعبير، وقوة الحجة، وحرص الراعي على الرعية، ونصحه لشعبه وكانت خطاباته عامرة بالدعوة إلى الخير والتقوى ومكارم الأخلاق.

- كان السنوسيون منذ زمن المؤسس الأول للحركة الإمام محمد بن علي السنوسي مهتمين بأمر الجهاد في الجزائر، وواصل الملك إدريس جهوده المادية والمعنوية لدعم ثورة الجزائر التي اندلعت في 1/ 11/ 1954م وقد أثبتت الوثائق التاريخية جهوده العظيمة، وأعماله الجسيمة في هذا الباب.

- ترك الملك رحمه الله تعالى كتاباً يبحث في قضايا الأمم والشعوب والدول، تناول فيه الموقف الإسلامي العربي والدولي من جميع الوجوه على حقيقته، وتحدث فيه عن الأسباب التي أخرت المسلمين والعرب، والوسائل التي يجب اتخاذها لتمكين العرب من تحقيق وحدتهم التي يراها ضرورية، وتحدث عن الخلافة الإسلامية وما لها وما عليها، وعن سبب انهيارها، وتكلم عن الاستعمار وأهدافه ويعتبر هذا الكتاب مهمًا لمعرفة عقلية الملك رحمه الله في التفكير.

- إن دراسة كتاب الملك المذكور، وتصريحاته الصحفية تبين للباحث ضعف القول القائل بأن الملك إدريس لا يفهم في أمور السياسة وأقرب إلى أهل التصوف من كونه رجل دولة، ولا توجد له رؤية سياسية واضحة ولا يعرف كيف تساس أمور الأمم والشعوب.

- كان الملك يؤمن بأهمية النقد الإيجابي في نهضة الشعوب وبناء الأمم ولذلك سمح للمصلحين أن يتكلموا وينقدوا الدولة والحكم وشجع الصحافة والنواب على قول كلمة الحق.

- مع مرور الزمن وتقدم السن رأى الملك إدريس أن يتخلى عن الحكم وأن يقدم استقالته، ويترك إلى الشعب أو ممثليه إسناد الأمر إلى من هو أحق منه، أو أقدر على حمل الأمانة والقيام بالواجب المطلوب، فقدم استقالته عام 1965م في عهد حكومة محمود المنتصر الثانية، ولكن الضغوط الشعبية اضطرته للرجوع عن هذه الاستقالة.

- كانت استقالته الثانية هي المؤرخة في 4/ 8/ 1969م والتي وجهها إلى كل من رئيس وأعضاء مجلس الشيوخ، ورئيس وأعضاء مجلس النواب، ورئيس الوزراء عندما كان في رحلته الاستشفائية في تركيا.

- حينما وقع الانقلاب في سبتمبر 1969م كان الملك في رحلة إلى تركيا واليونان، ولم يكن معه مال خاص ينفق منه، ومع ذلك فحينما عرض عليه المسؤول المالي للرحلة استلام ما تبقى في عهدته من مخصصات رفض ذلك بعزة نفس وقال له: «يا بني أنا بالأمس كنت

ملك ليبيا، ولكني لم أعد كذلك اليوم، وبالتالي فإن هذا المال لم يعد من حقي، ويجب أن يسلم إلى خزينة الشعب».

- استقر الملك إدريس رحمه الله في مصر مدة حياته الأخيرة، ولم يغادر مصر إلا مرتين ذهب فيها إلى مكة للحج، وكانت وفاته في القاهرة بتاريخ 25 مايو 1983م وهو في سن الرابعة والتسعين.
- دفن الملك رحمه الله في المدينة المنورة وكان قد طلب من الملك خالد بن عبد العزيز في لقاء لهما بمراسم الحج سنة 1977م أن يأذن بدفنه متى حانت المنية في البقيع فكفل الملك خالد للملك إدريس رغبته رحمهما الله، ثم إن الملك فهد بن عبد العزيز أجاز ذلك بعد وفاة الملك خالد ونقل جثمانه من القاهرة إلى المدينة المنورة في طائرة مصرية خاصة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم مراجع ومصادر البحث

(أ)

1 - إمام التوحيد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الدعوة والدولة، تأليف، أحمد القطان، محمد الزين، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية، 1988م.

2 - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1984م.

3 - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، للإمام محمد بن علي السنوسي، طبع مع المجموعة المختارة للإمام السنوسي، على نفقة محمد عبده بن غلبون وشقيقه هشام وعلي، في جامعة مانشستر، بريطانيا عام 1990م.

4 - الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، لمحمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1399هـ.

5 - أشراط الساعة، يوسف عبد الله بن يوسف الوابل، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، 1411هـ/ 1991م.

6 - أعلام ليبيا، الطاهر أحمد، ط2، طرابلس، مؤسسة الفرجاني، 1971م.

7 - الأفعى في معاقل الإسلام، عبد الله التل، المكتب الإسلامي.

8 - إدريس السنوسي، لمحمد الطيب الأشهب، دار العهد الجديد للطباعة، لصاحبها كامل مصباح، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، بميدان الأزهر.

9 - أعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة 1407هـ.

10 - إيطاليا والسنوسية، يوسيرا فبريتز، ترجمة محمد السيد أبو مدين نسخة مخطوطة بشعبة الوثائق، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

(ب)

11 - برقة العربية أمس واليوم، محمد الطيب بن أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهواري، شارع محمد علي بمصر.

12 - البحر الرائق في الزهد والرقائق، أحمد فريد، دار البخاري، القصيم بالسعودية، الطبعة الأولى 1411 هـ - 1991 م.

13 - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة بيروت.

14 - برقة الدولة العربية الثامنة، زيادة نقولا، بيروت طبعة عام 1950م.

15 - برقة الهادئة، الجنرال رود لفو غراسياني، ترجمة إبراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الأندلس، الطبعة الثالثة، يناير 1980م.

(ت)

16 - تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، منشورات جامعة دمشق طبعة عام 1411 هـ، 1991م.

17 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعل، تحقيق عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة بمصر.

18 - تفسير السعدي، المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض 1977م.

19 - تفسير الإمام البغوي، المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1413 هـ، 1992 م.

20 - التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى 1418 هـ، 1997م.

21 - توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله بن عبد الرحمن البسّام، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الأولى 1413 هـ، 1992م.

22 - التواضع في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح للإمام محمد علي الشوكاني.

23 - تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

24 - تهذيب شرح الطحاوية، د. محمد صلاح الصاوي، دار الفرقان، الطبعة الأولى، 1410هـ/ 1990م.

25 - تاريخ الإسلام، أنور الجندي.

26 - التعليم في ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل.

27 - تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى 1972م.

28 - تاريخ حرب طرابلس، محمد إبراهيم لطفي، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، بنها، 1946م.

29 - الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. جمعة الخولي، طبعة أولى 1407هـ/ 1986م، مطابع الجامعة الإسلامية المدينة المنورة.

(ث)

30 - الثورة السنوسية أوكاوصن نشر المركز النيجيري للبحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، 1973م، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط صاحب الكتاب ساليفو أندري.

31 - الثبات، د. محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس الخضراء بجدة، الطبعة الثانية 1417هـ/ 1997م.

(ج)

32 - جند الله تخطيطاً، سعيد حوى، دار السلام بمصر.
33 - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف، الرياض 1403هـ/ 1983م.
34 - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
35 - المجتمع الليبي، د. عبد الجليل الطاهر، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، طبعة عام 1969م.
36 - المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، د. علي عبد اللطيف حميده، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1995م.
37 - الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فيليب رفلة، القاهرة عام 1965م.
38 - جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، محمد القشاط، طبعة عام 1988م.
39 - جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، تحقيق: علي مصطفى المصراطي، دار لبنان، الطبعة الأولى، بيروت 1965م.
40 - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الطاهر أحمد الزاوي، ط3، بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، 1962م.
41 - جريدة المقطم، عدد 6941، 9 صفر، عام 1330هـ.
42 - جريدة الأهرام، عدد 10613، في 21 صفر عام 1331هـ.
43 - جريدة المقتبس، عدد 1014، 5 ذو القعدة 1330هـ.
44 جذور النضال العربي في ليبيا، محمد عبد الرزاق مناع، ط2، بنغازي، عام 1972م.
45 - الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، دار البيارق، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1993م.

(ح)

46 - حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان، دار الفكر.
47 - حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، محمد جميل المصري، منشورات جامعة المدينة المنورة.
48 - الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن علي القحطاني، الطبعة الأولى، 1412 هـ، 1992م.
49 - الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد سليمان المورعي، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، 1418هـ، 1997م.

50 - الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، أحمد الدجاني، الطبعة الأولى، 1967م، دار لبنان.

51 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

52 - حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، 1984م/ 1404هـ.

53 - الحوليات الليبية، شار فيرو، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية، ووضع مقدمتها النقدية، محمد عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا.

54 - الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طبعة 1988م.

55 - حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني، د. عايض بن حزام الورقي، نشرته جامعة أم القرى طبعة عام 1416هـ/ 1996م.

56 - الحملة الإيطالية على ليبيا «دراسة وثائقية في إستراتيجية الاستعمار والعلاقات الدولية»، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1982م.

57 - حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى، جامعة الكويت، قسم التاريخ، 1982م.

58 - حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني.

59 - حياة عمر المختار، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة 1982م/ 1402هـ.

(د)

60 - دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت طبعة أولى، عام 1403هـ، 1983م.

61 - دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة الهلال بمصر، طبعة عام 1898.

62 - دراسات في التاريخ اللوبي، مصطفى بعيو، القاهرة، 1945م.

63 - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر ببريطانيا عام 1990م على نفقة محمد عبده بن غليون، وشقيقيه هشام وعلي.

64 - دولة الموحدين، من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، لعلي محمد محمد الصلابي، دار التابعين، مصر، القاهرة، طبعة أولى 2001م.

65 - الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي، منشورات دار التابعين.

66 - ديوان الإمام الشافعي، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثالثة 1406 هـ، مكتبة المعارف.
67 - الدولة العبيدية في ليبيا، لعلي محمد الصلابي، دار البيارق، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1998م.
68 - الدولة العربية المتحدة، أمين السعيد، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، عام 1938م.

(ذ)

69 - ذكريات عزام، الحلقة 8، مجلة المصورة، القاهرة عام 1332هـ/ 1950م.

(ر)

70 - رحلة الحشائشي إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد عثمان الحشائشي التونسي، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، الطبعة الأولى 1965م.
71 - رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد العظم، إستانبول، عالم مطبعة سي 1314هـ.
72 - رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان، محمد مسعود فشيكه، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا، الطبعة الأولى 1394هـ/ 1974م.
73 - رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، لمحمد العيساوي، القاهرة، مطبعة حجازي، 1936م.

(س)

74 - سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطبعة الأولى 1405هـ، 1984م.
75 - سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة 1405 هـ، 1985م، بيروت، دمشق.
76 - سنن أبي داود سليمان بن الأشعث، تحقيق عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.
77 - سياحتي في صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، مطبعة سي، استانبول، عام 1314هـ.
78 - السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، دار الفكر، طبعة 1948م.
79 - السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة منشستر عام 1990م.
80 - السيد محمد رشيد رضا، محمد أحمد درنيقة، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان طرابلس، لبنان، طبعة أولى 1406 هـ، 1986م.

81 - الإسلام في القرن العشرين، حاضره ومستقبله، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1969م.
82 - السنوسي الكبير، محمد الطيب بن إدريس الأشهب، مطبعة محمد عاطف، ميدان الخازندار بمصر.
83 - السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، تقديم وترجمة د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، 1412هـ/ 1991م.
84 - السودان بين يدي غوردن وكتشنر، إبراهيم فوزي، الجزء الأول، 1319هـ.
85 - سنن ابن ماجة للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.
86 - السنوسيون في برقة، بريتشارد إيفانز، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، طرابلس مكتبة الفرجاني.
87 - سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.
88 - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ/ 1993م.
89 - سنن النسائي، أحمد بن شعيب، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(ش)

90 - شرح الحماسة للمرزوقي، ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1387هـ/ 1967م.
91 - شرح النووي علي مسلم، للنووي ط1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
92 - شرح مقدمة أبي زيد القيرواني، الأمين الحاج محمد أحمد، مكتبة دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى، 1412هـ/ 1991م.
93 - الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.
94 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، تحقيق د. أحمد بن سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض السعودية.

(ص)

95 - صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الطباعة العامرة باستانول 1315 هـ، المكتب الإسلامي، استانبول، تركيا.
96 - صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة الطبعة الأولى 1412هـ/ 1991م.

97 - صحيح الجامع الصغير وزيادته، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1388هـ.
98 - صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة الباروني، بيروت، 1968م.
99 - صلات بين ليبيا وتركيا «التاريخية والاجتماعية» طرابلس الغرب - ليبيا 1968م.
100 - صحافة ليبيا في نصف قرن، علي مصطفى المصراتي، دار الكشاف، بيروت، 1960م.
101 - صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى عام 1980م.
102 - صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي، علي محمد الصلّابي، دار البيارق عمان، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1998.
103 - صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم، وكالة الأهرام للتوزيع والنشر، مطابع الأهرام التجارية قليوب، مصر.

(ط)

104 - الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا، ط1، 1398هـ/ 1978م، محمد عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا.
105 - الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1981م.

(ع)

106 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبد الرحمٰن الجبرتي، دار فاس.
107 - عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، عبد المحسن العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1402هـ.
108 - العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد الليبي.
109 - العدوان الحرب بين إيطاليا وتركيا، مكتبة الفرجاني عام 1965م، محمد مصطفى بازامة.
110 - عبد النبي بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، محمد المرزوقي، الدار العربية للكتاب، عام 1398هـ/ 1978م.
111 - الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة 1389هـ.
112 - عمر المختار نشأته وجهاده من 1862م إلى 1931م دراسات في حركة الجهاد الليبي، أعمال الندوة العلمية التي عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، إشراف الدكتور عقيل محمد البربار، كلية الآداب والتربية - جامعة قاريونس.
113 - عمر المختار، لمحمد الطيب الأشهب، سلسلة أبطال الجهاد والسياسة في ليبيا.
114 - الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، طبعة 1986م.

(غ)

115 - الغزو الإيطالي لليبيا، عبد المنصف حافظ البوري، الدار العربية للكتاب، طبعة 1983م.

(ف)

116 - فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي بن محمد الصلابي، دار التابعين، 2001م.

117 - في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت الشيخ، دار الثقافة، طبعة 1412هـ/ 1992م.

118 - الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن عبد الملك بن علي، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام 1386هـ/ 1966م.

119 - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشرق.

(ق)

120 - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1399هـ/ 1979م.

121 - قضية ليبيا، محمود الشنيطي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1951.

122 - قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب، الطبعة السابعة، عام 1404هـ/ 1984، دار الفكر.

123 - قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، طبعة 1405هـ/ 1985م.

124 - قواعد التعامل مع العلماء، د. عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، دار الوراق، السعودية، الطبعة الأولى 1415هـ/ 1994.

(ك)

125 - كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، دار العميعي ط، 1412هـ.

126 - كفاح الشعب الليبي في سبيل حريته، عبد الرحمن عزام، ترجمة عماد غانم (مخطوطة محفوظة بمركز الجهاد).

127 - كفاح الليبيين في بلاد الشام، تيسير بن موسى.

(ل)

128 - ليبيا في العهد العثماني الثاني (1835 - 1911م) ترجمة يوسف العسلي، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1946م.

129 - ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، أحمد الدجاني.

130 - ليبيا اليوم، محمد الطيب الأشهب، بغداد، مطبعة أسعد، عام 1955م.

131 - ليبيا في العصور الحديثة، نقولا زيادة، القاهرة، دار الرائد للطباعة، 1966م.

132 - ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال، د. نقولا زيادة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، طبعة عام 1958م.

133 - ليبيا الحديثة، مجيدي خدوري، ترجمة د. نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت.

(م)

134 - موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر.

135 - موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة 1995م.

136 - مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر لبنان.

137 - مقدمة الإمام مالك، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر عام 1990 على نفقة ابن غلبون.

138 - المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر عام 1990م على نفقة آل ابن غلبون.

139 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمٰن القاسم، بيروت، ط1390هـ/ 1971م.

140 - المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار السلام، الطبعة الرابعة، 1408هـ/ 1988م.

141 - الإمام البخاري، تقي الدين الندوي المظاهري، الطبعة الثالثة 1408هـ/ 1988م، دار القلم، بيروت، دمشق.

142 - مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود إدريس، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م.

143 - الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة.

144 - المسائل العشر، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعت بمنشستر ببريطانيا، عام 1990م على نفقة آل ابن غلبون.

145 - الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دي كاندول، ترجمة ليبي، الناشر محمد عبده ابن غلبون.

146 - المهدي السنوسي، محمد الطيب الأشهب، مطبعة بلينوماجي، طرابلس.

147 - منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور عبد الحفيظ سويد، مؤسسة الريان، الطبعة الخامسة، 1414هـ - 1994م، الناشر مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

148 - المنار المنيف في الصحيح والضعيف، للحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، طبع مكتب المطبوعات الإسلامية، جمعية التعليم الشرعي، حلب، 1390هـ.

149 - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون.

150 - مسند الإمام أحمد بن محمد حنبل.

151 - مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الأولى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، يناير 1979م.

152 - المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العباسية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1409هـ/ 1989م.

153 - مجلة المنار، محمد رشيد رضا، المجلد الثاني عشر.

154 - المغرب الكبير، د. جلال يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة عام 1981م.

155 - مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، أورخان قول أوغلو، ترجمة وجدي كدك، مراجعة د. عماد حاتم، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، سلسلة المذكرات التاريخية، طبعة عام 1979م.

156 - ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد شكري، مطبعة الاعتماد، القاهرة، عام 1957م.

157 - المغني لابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قادمة (موفق الدين، أبو محمد) على مختصر الخِرَقي ومعه الشرح الكبير على متن المقنع عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي، بيروت 1392هـ/ 1972م.

158 - المهذب، في فقه مذاهب الإمام الشافعي، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي - معه بأسفل الصفحة: النظم المستعذب في شرح غريب المهذب، محمد بن أحمد بن بطال الركبي، مطبعة عيسى الباب الحلبي.

159 - مجلة الإنقاذ تصدر عن الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، العدد 29.

160 - معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911م - 1931م، ط3، خليفة محمد التليبي، دار الثقافة 1973م.

161 - مذكرات مجاهد، محمود الجهني.

162 - مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة عام 1984م.

163 - مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثاني، 1988م.

164 - مجلة المنار، ج9، م3.

165 - منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م.

166 - محطات من تاريخ ليبيا المعاصر، مذكرات محمد عثمان الصيد، إخراج طوب للاستثمار والخدمات، الرباط بالمغرب، الطبعة الأولى 1996م.

(ن)

167 - الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة مكة، دار آل عمار الشارقة، الطبعة الثانية 1418هـ/ 1998م.

168 - النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1391هـ/ 1971م.

169 - (النهاية، الفتن، الملاحم) للحافظ إسماعيل بن كثير، د. طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة الأولى.

170 - نظم المتناثر في الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمكية، بيروت، 1400هـ.

171 - نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة.

172 - نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة 1410هـ/ 1989م مكتبة السوداي للتوزيع.

173 - النظام السياسي في الإسلام، د. محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان - الأردن، الطبعة الثانية 1407هـ 1986م.

(و)

174 - واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية، 1408هـ/ 1988م، مؤسسة المدينة المنورة.

175 - وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدي، المعارف، الرياض، طبعة 1402هـ.

176 - وثائق جمعية عمر المختار، محمد بشير المغيربي، مؤسسة دار الهلال، الطبعة الأولى يناير 1993م.

المحتويات

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

ISBN 9953-446-70-9
9 789953 446707
دار المعرفة
للطباعة والنشر
هاتف : 834301 _ 834332 _ 858830 01
فاكس : 835614 01 ص.ب: 7876/11 بيروت ـ لبنان
البريد الالكتروني : e-mail: info@marefah.com
www.marefah.com